

نتائج الاستعلام

السياسي والديني والثقافي والاجتماعي

أجزاء الثاني

العصر العباسي الأول

١٣٢ - ٢٣٢ هـ (٧٥٠ - ٨٤٧ م)

تأليف

حسن إبراهيم حسن

معيد كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة - تليفون ٥١٣٩٤

0158546



Bibliotheca Alexandrina

تأريخ الإسلام

السياسي والديني والثقافي والاجتماعي

الجزء الثاني العصر العباسي الأول

٣٣٢ هـ (٧٥٠ - ٨٤٧ م)

تتبع

حسن إبراهيم حسن

معيد كلية الآداب وأستاذ التاريخ الإسلامي

بجامعة فؤاد الأول

D. Litt. (Cairo), Ph. D, D. Litt. (London).

١٤٣٦

الناسخ

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة — تليفون ١٣٩٤ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

يسرني أن أقدم إلى قراء العربية الجزء الثاني من كتابي « تاريخ الإسلام : السياسي والديني والثقافي والاجتماعي » ، بعد الجزء الأول منه ، الذي نشرته في سنة ١٩٣٥ ، والذي يتناول الكلام على تاريخ العرب في الجاهلية ، وتاريخ البعثة النبوية ، وعصر الخلفاء الراشدين والأمويين .

وهذا الجزء الثاني يتناول تاريخ العصر العباسي الأول (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) ، الذي يسميه بعض المؤرخين العصر الذهبي للإسلام . وقد قسمته ثمانية أبواب : بحثت في الباب الأول منها حالة الأحزاب في آخر العصر الأموي وما كان لها من أثر في قيام الدولة العباسية ، وترجمت في الباب الثاني لخلفاء العصر العباسي الأول ، مبينا أهم الأحداث التاريخية التي وقعت في عهد كل منهم ، وعالجت في الباب الثالث الحركات السياسية والدينية واتجاهاتها وما كان لها من أثر في السياسة والدين والأدب والاجتماع وغير ذلك . وبحثت في الباب الرابع العلاقات الخارجية للدولة العباسية مع بلاد المغرب التي كانت في حروب مستمرة مع الدولة العباسية ، ومع بلاد الأندلس والفرنجية ، ومع البيزنطيين والهند . وتكلمت في الباب الخامس على نظم الحكم السياسية والإدارية والمالية والحربية والقضائية ، لأبين كيف كانت تدار الحكومة الإسلامية في ذلك العصر . وعرضت في الباب السادس للحالة الاقتصادية وما بلغه العباسيون من تقدم ورفق في مضمار الزراعة والصناعة والتجارة ، ثم ألممت في الباب السابع بحالة الثقافة والفن ، فبحثت أنواع العلوم العقلية ، كعلم القراءات والتفسير والحديث والفقه وعلم الكلام والنحو والشعر والأدب ، وأنواع العلوم العقلية ، وما كُنَّ لتشجيع الخلفاء والأمراء ورجال الدولة من أثر في ترجمة الكتب الأجنبية إلى العربية ، كما تكلمت على معاهد الدرس والثقافة ، واهتمام المسلمين بتاريخ الجغرافيا وعلم النجوم والرياضيات والكيمياء والطب ، وألممت بتاريخ الفنون وخاصة فن العارة ، الذي يعتبر بحق مقياسا لحضارة الأمم ونهضتها في كل عصر . ثم تناولت في الباب الثامن الحالة الاجتماعية ، فبحثت في طبقات المجتمع العباسي ، وبجانب الفناء والطرب ،

(د)

وقصور الخلفاء والأمراء والوزراء وغيرهم ، وألوان الطعام واللباس ، والأعياد والمواهب
والحفلات وأنواع التسلية ، وما كان للبرأة من أثر في هذا المجتمع .

وقد نهجت في هذا الجزء نهجاً جديداً ، فلم أقصر على سرد الحوادث التاريخية مجردة .
إذ كان بعض المشتغلين بعلم التاريخ لا يهتمون ذكر الحوادث والحروب ، مما يجعل قراءته تبعث
السآمة والملل في نفس القارئ . لذلك بحثت هذا العصر من نواحيه المتعددة ، سياسية ودينية
وثقافية واجتماعية ، مما يسهل على القارئ الإحاطة بتاريخ ذلك العصر إحاطة شاملة . كما يجد
فيه القارئ مرشداً للصادر الأصلية إذا أراد التوسع في مسألة من المسائل .

ولكي تتم الفائدة من قراءة هذا الكتاب والانتفاع به ، ذيلته بفهارس شاملة لأسماء
الأعلام والأماكن والحوادث التاريخية الهامة .

ولا يفوتني أن أقدم في هذا المقام جزيل شكرى وطاهر ثنائى لكل من حضرات الأساتذة
مصطفى السقا ، وزكى محمد حسن ، وطه احمد شرف ، وعلى ابراهيم حسن ، ومحمد جمال الدين
سرو ، ومصطفى طه بدر ، وكال الصيرفى افتدى الطالب بقسم الماجستير بكلية الآداب
على جميل مساعدتهم لى .

حسن ابراهيم حسن

٦ فبراير سنة ١٩٤٥

محتويات الكتاب

صفحة	مقدمة الكتاب
ج	محتويات الكتاب
٨	جدول الخلفاء الأمويين
م	جدول الخلفاء العباسيين
ن	جدول ملائقي الإمامية الاثنا عشرية والاسماعيلية أو الشيعة
ص	

الباب الأول

حالة الأحزاب في آخر العصر الأموي

١ — الجماعة والشيعة والخوارج والمرجئة والمعتزلة

١	(أ) الجماعة
١	(ب) الشيعة
٢	(ج) الخوارج
٤	(د) المرجئة
٦	(هـ) المعتزلة

٢ — حزب بني أمية وانقسامه على نفسه

٧	أولاً : بتأثير المنافسة بين أفراد البيت الأموي.
٩	ثانياً : بالعصية في الأمصار والجيش.

٣ — حزب بني هاشم واتحاد كلمته للقضاء على بني أمية

١١	(أ) إنتقال حق الإمامة من العلويين إلى العباسيين
١٢	(ب) تنظيم الدعوة العباسية

٤ — قيام الدولة العباسية

١٣	(أ) ميل الموال إلى بني هاشم
١٥	(ب) زوال الدولة الأموية

(و)

الباب الثاني

خلفاء العصر العباسي الأول

صفحة	
١٩	أبو العباس السفاح
٢٣	أخلاق السفاح وصفاته
٢٦	أبو جعفر المنصور
٣٠	أخلاق المنصور وصفاته
٣٦	وفاة المنصور
٣٨	المهدي
٣٩	إصلاحات المهدي
٤٠	الفن والثورات
٤١	وفاة المهدي
٤١	المهادي
٤٢	تنكيه بالخوارج والزنادقة - عزمه على خلع أخيه هارون
٤٤	أخلاقه وصفاته
٤٥	وفاة المهادي
٤٦	هارون الرشيد
٤٧	الفن والثورات
٤٩	البرامكة
٥٤	صفات الرشيد وأخلاقه
٥٧	وفاة الرشيد
٥٨	الأمين
٦٢	المأمون
٦٣	الأحوال الداخلية
٦٧	صفات المأمون
٦٩	المتنعم
٧٠	الفن والثورات
٧٢	صفات المتنعم

الوائق	٧٣
صفات الوائق	٧٦

الباب الثالث

الحركات السياسية والدينية

١ - حالة الأحزاب السياسية عقب قيام الدولة العباسية	
(أ) إسراف العباسيين في التمثيل ببنى أمية	٧٨
(ب) ميل العباسيين إلى الفرس وإيثارهم بالمناصب المدنية والعسكرية -	
طمع الفرس في السلطان واستئثارهم الدعوة لآل على	٨٢
(ج) حرج مركز العباسيين أيام المنصور بين الساخطين من العرب وعلى رأسهم عم المنصور عبد الله بن على ، والساخطين من الفرس وعلى رأسهم أبو مسلم الخراساني	٨٦
(د) حركات الموالى : الراوندية - المقتنية - الحرمية - الزنادقة :	
١ - الراوندية	٩٣
٢ - المقتنية	٩٥
٣ - الحرمية :	
(أ) بابك الخرمى	٩٦
مبادئ الحرمية	٩٩
(ب) الأفشين والمازيار	١٠٠
٤ - الزنادقة	١٠٥
٢ - ظهور الحزب العلوى في ميدان السياسة واعتماده على السيف	
(أ) ثورة محمد وإبراهيم في الحجاز والعراق	١١٠
البيت العلوى	١١١
ظهور إبراهيم بن عبد الله بالعراق	١١٦
(ب) إخفاق هذه الثورة وأسبابه - تأثير مصر في ذلك	١٢١
(ج) موقف الحزب العلوى بعد ثورة محمد وإبراهيم	

(ح)

- ١ - ثورة الحسين بن علي ١٢٥
٢ - ثورة يحيى وإدريس ابني عبد الله ١٢٧
٣ - خروج محمد بن جعفر والقاسم بن إبراهيم ١٢٨
٣ - الجهاد النظري بين الحزبين العلوي والعباسي

(١) في الشعر

- ١ - الشعراء العلويون ١٣٠
٢ - الشعراء العباسيون ١٣٥

(ب) في العلم والكلام بنوع خاص

- ١ - الشيعة ١٣٦
طائفتا الإمامية ١٣٨
٢ - المعتزلة ١٤٠
٣ - أهل السنة ١٤٤

(ج) في السياسة : أثر الوزراء العباسيين والبرامكة خاصة

- في هذا النزاع ١٤٧
نكبة البرامكة ١٤٩

٤ - تطور موقف الحزبين العلوي والعباسي بعد نكبة البرامكة

قوة الحزب العباسي بعد نكبة البرامكة

- ١ - تولية الرشيد أولاده العهد وتقويتها للحزب العلوي ١٥٧
٢ - الفتنة بين الأمين والمأمون : كيف كانت هذه الفتنة
جهاداً حريبياً بين الفرس أنصار المأمون من ناحية ،
وبين العرب أنصار الأمين من ناحية أخرى ١٦٠
٣ - تولية المأمون علياً الرضا عهده ١٦٤
٥ - ظهور المنصور التركي ١٧١

الباب الرابع

العلاقات الخارجية

- ١ - مع بلاد المغرب ١٧٥
٢ - مع بلاد الأندلس والقرنجة ١٨٠

(ط)

١٨٥	٣ - مع البين نظمين .	صفحة
١٩١	٤ - مع بلاد الهند .	

الباب الخامس

نظم الحكم

١٩٤	١ - النظام السياسي	
	(أ) مظاهر الخلافة :	
١٩٦	(ب) الوزارة .	
٢٠١	(ج) الكتابة .	
٢٠٢	(د) الحجابة .	
	٢ - النظام الإداري	
٢٠٢	(أ) الإمارة على البلدان .	
٢٠٤	(ب) النواوين	
٢٠٥	(ج) البريد	
٢٠٧	(د) الشرطة	
٢٠٨	٣ - النظام الحربي .	
٢١٠	٤ - النظام المالي :	
٢١٨	طاسيج السواد في أجناب الشرق	
٢١٩	طاسيج السواد في أجناب الشرق	
٢٢٠	موارد الجباية من سائر أقاليم المشرق والمغرب مع السواد	
٢٢١	٥ - نظام القضاء	
٢٢٢	النظر في المظالم	

الباب السادس

الحالة الاقتصادية

٢٢٥	تمهيد	
-----	-------	--

صفحة	
٢٢٦	١ - الزراعة
٢٣٠	٢ - الصناعة
	٣ - التجارة
٢٣١	مراكز التجارة
٢٣٤	وصول تجارة العرب إلى بلاد الصين

الباب السابع

الثقافة والفن

١ - الثقافة :

٢٣٩	اشتغال الحواري بالعلم
٢٤١	تقسيم العلوم
	(أ) العلوم العقلية
٢٤١	١ - علم القراءات
٢٤٢	٢ - التفسير
٢٤٥	٣ - الحديث
٢٤٦	٤ - الفقه
٢٤٨	٥ - علم الكلام
٢٥٠	٦ - النحو
	٧ - الشعر والأدب
٢٥١	(أ) الشعر
٢٥٥	(ب) الأدب
	(ب) العلوم العقلية :
٢٥٦	١ - الترجمة
٢٥٨	٢ - معاهد التدريس والثقافة
٢٥٩	٣ - التاريخ
٢٦١	٤ - الجغرافيا

(ك)

٢٦١	٥ — علم النجوم والرياضيات والكيمياء
٢٦٢	٦ — الطب
٢٦٤	٢ — الفن
	(١) بغداد
٢٦٨	١ — العواصم الإسلامية التي سبقت بغداد
٢٧٠	٢ — اختيار موقع بغداد
٢٧٢	٣ — بغداد قبل تحصيرها
٢٧٣	٤ — اشتقاق لفظ بغداد
٢٧٤	٥ — تخطيط بغداد
٢٧٦	٦ — إتمام البناء
٢٨٠	٧ — القطائع والأرباض
٢٨١	٨ — الرصافة
٢٨٢	٩ — الكرخ
٢٨٣	١٠ — نفقات بناء بغداد
٢٨٤	١١ — ما قيل في وصف بغداد
٢٨٥	(ب) سامرا

الباب الثامن

الحالة الاجتماعية

٢٨٩	١ — طبقات الشعب
	٢ — مجالس الفناء والطراب
٢٩٢	(١) مراتب التذمة
٢٩٤	(ب) مجلس الفناء في عهد الرشيد
٣٠١	(ج) مجلس الفناء في عهد الأمين
٣٠٢	(د) مجالس الفناء في عهد المأمون والمعتصم والواثق
٣٠٥	٢ — قصور الخلفاء والأمراء والوزراء

صفحة	
٣٠٩	٤ - الطعام
٣١٠	٥ - الملابس
٣١٢	٦ - المرأة
	٧ - الأعياد والمواسم والحفلات
٣١٥	(أ) الاحتفال بالعيدين
٣١٦	(ب) الاحتفال بالتوروز والمهرجان والرام
٣١٨	(ج) مواكب الخلفاء : صلاة الجمعة ، موكب الحج
٣٢١	(د) حفلات الزواج
٣٢٢	٨ - أنواع التسلية

فهارس الكتاب

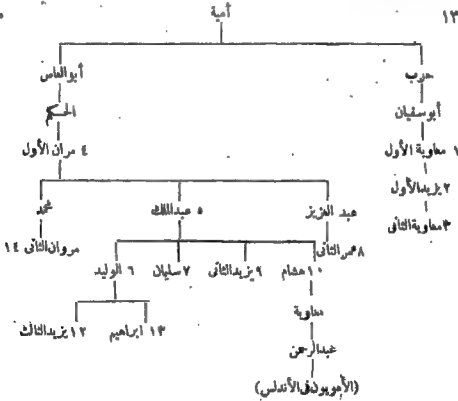
	١ - الأعلام
٣٢٤	(أ) أسماء الرجال
٣٥١	(ب) أسماء النساء
٣٥٣	٢ - الأماكن
٣٦١	٣ - الكلمات التي تدل على حوادث تاريخية هامة
	٤ - الخرائط التاريخية والصور
م	الخلفاء الأمويون
ن	الخلفاء العباسيون
١٩	خريطة اتساع الدولة العباسية
٢٧١	بغداد بين سنتي ١٥٠ ، ٣٠٠ هـ
٢٧٩	المدنية المنورة في عهد أبي جعفر المنصور

(٢)

الخلفاء الأمويون

(٤١ - ١٣٢ = ٦٦١ - ٧٥٠ م)

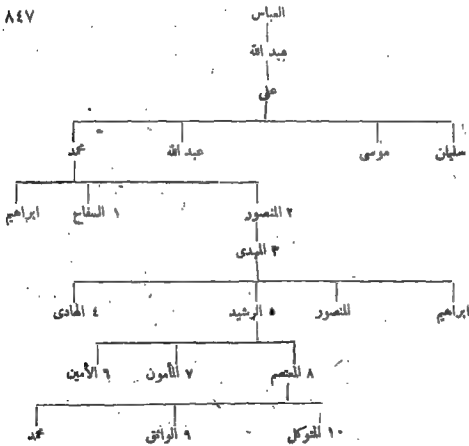
هجري	معاوية	يزيد الأول	معاوية الثاني	مروان	عبد الملك	الوليد	سليمان	عمر بن عبد العزيز	يزيد الثاني	هشام	الوليد الثاني	يزيد الثالث	إبراهيم	مروان الثاني
ميلادية	٤١	٦٠	٦٤	٦٤	٦٥	٨٦	٩٦	٩٩	١٠١	١٠٥	١٢٥	١٢٦	١٢٦	١٢٧
٦٦١
٦٨٠
٦٨٣
٦٨٣
٦٨٥
٧٠٥
٧١٥
٧١٧
٧٢٠
٧٢٤
٧٤٣
٧٤٤
٧٤٤
٧٤٤
٧٥٠



(ن)

خلفاء العصر العباسي الاول

هجري	ميلادي
١٣٢	٧٥٠
١٣٦	٧٥٤
١٥٨	٧٧٥
١٦٩	٧٨٥
١٧٠	٧٨٦
١٩٣	٨٠٩
١٩٨	٨١٣
٢١٨	٨٣٣
٢٢٧	٨٤٢
٢٣٢	٨٤٧



تصحیحات

نعتند للقاری عن وقوع بعض أخطاء مطبعة راجین أن یغفل بإصلاحها قبل
قراءة الكتاب

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٦	٣٠	Nicholson	Nicholson	١٢٨	١٣	خطأ	صواب
٣٧	٨	ومولا	ومولا	١٣٩	٧	١٩٨	١٤٨
٣٨	٢٤	أبو دلالة	أبو دلالة	١٤٣	١٨	برافین	براون
٥٨	٢٣	التدیر	التدیر	١٤٦	١٦	الشوری	الثوری
٨٣	٢٧	نشر	نشر	١٥٧	١٦	(١)	تعطف
١٠٢	٢٦	للأزیان	للأزیان	٢٠٤	٢٧	Calphs	Calphs

الباب الأول

حالة الأحزاب في آخر العصر الأموي

١ - الجماعة والشيعة والخوارج والمرجئة والمعتزلة

(١) الجماعة :

لما انتقل الرسول إلى جوار ربه ، وترك الأمر شورى للعرب ليختاروا من بينهم من يلي أمورهم ، اختلف المهاجرون والأنصار فيمن يولونه الخلافة ، وانتهى الأمر بتولية أبي بكر . ولكن كثيرا من العرب ، كالعباس عم النبي وطلحة والزبير ، انضموا إلى عليّ ، وأدى ذلك بعد إلى انقسام الأمة العربية إلى فريقين : جماعة وشيعة .

فاما الجماعة فهم الجبهة الكبرى من أهل الإسلام ، وهم الذين رضوا خلافة الشيخين أبي بكر وعمر ، وعثمان من بعدهما . ولما استقر الأمر لبني أمية دخلوا في طاعتهم . ومن تاريخ هذه الجماعة الكريمة بتأليف تاريخ الدولة الإسلامية على الحقيقة ، فاما من عداها فأحزاب متآثرة أو طوائف خارجة لم تجتمع على واحدة منها كلكة المسلمين ، ولا كانت لها دولة جامعة ، وإن ملك بعضها ملكا واسعا في حقب من التاريخ .

(ب) الشيعة :

وأما الشيعة فهم الذين يرون أن الخلافة يجب أن تكون في بيت النبي ؛ وقد قرروا أنها حق لعلي بن أبي طالب ثم لأولاده بالوراثة من بعده ، وقال الغلاة منهم إن الأئمة معصومون ، وأن صفات الله سبحانه قد حلت فيهم وتمسكت أجسامهم ، وأن من قال بغير ذلك من الفرق الإسلامية - حتى بعض فرق الشيعة - خارجون على الدين . ودلّوا على صحة هذا الرأي بأن عليا كان أول من اعتنق الإسلام من الرجال ، وأن ما قام به في سبيل رفع منار هذا الدين لا يستطيع أن يبذه فيه أحد من المسلمين بعد النبي ^(١) . ونسب الغلاة أيضا إلى النبي أحاديث تشهد بما لال عليّ من حرمة ، وبما لعلي من حق في الإمامة بعد الرسول عليه السلام .

ونشر ابن سبأ مذهب الرضاية الذي أخذه عن اليهودية دينه القديم ، بمعنى أن عليا وصي محمد ، وأنه خاتم الأنبياء . بعد محمد خاتم النبيين ؛ واتهم من نأوا عن عليا وتمدوا على حقه في

الإمامة ، كما أخذ عن الفرس - الذين كانوا يحتلون في صدر الإسلام بلاد اليمن موطنه الأصلي - نظرية الحق الإلهي ، بمعنى أن علياً هو الخليفة بعد النبي ، وأنه يستمد الحكم من الله . وبذلك هياً المقول إلى الاعتقاد بأن عثمان أخذ الخلافة بغير حق من علي وصلى رسول الله (١).

وإن الباحث في تاريخ الشيعة في العصر الأموي يرى أن موقعة كربلاء (سنة ٦١ هـ) قد وحدت صفوف الشيعة ، وأثارت في نفوسهم الحماسة ، للأخذ بثأر الحسين بن علي ، كما أذكت مأساة كربلاء روح التشيع بعد أن كان رأياً سياسياً نظرياً لم يصل إلى قلوب الشيعة . ولكن التشيع امتدح بعدمقتل الحسين بدمائهم ، وأصبح عقيدة راسخة في نفوسهم . وانتشر التشيع بين الفرس الذين تربطهم بالحسين رابطة المصاهرة ، إذ كانوا يرونه أحق بالخلافة هو وأولاده من بعده ، لأنهم يجمعون بين أشرف دم عربي وأتقى دم فارسي .

وقد وجد عبد الله بن الزبير في موقعة كربلاء فرصة سانحة لتحقيق أغراضه السياسية تحت ستار الأخذ بثأر الحسين بن علي ، كما تبينأت الفرصة للخنجر بن أبي عبيد الثقفي الذي ادعى إمامة محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب . وكان من أثر ذلك أن انضم إليه التوابون الذين ندموا على ما فرطوا في حق الحسين ، وعدم إغايتهم له ، حتى قتل بينهم ، وتابوا عما فعلوا ، ثم تحالفوا على بذل نفوسهم وأمواهم في الأخذ بثأره ، وانضموا إلى المختار بن أبي عبيد ، وحاربوا عبيد الله بن زياد وإلى العراق ، الذي قتل الحسين بن علي ، وقتلوه .

وأتحمت هذه الحروب التي دارت بين جند الأمويين وبين جيوش المختار ، الفرصة لعبد الله ابن الزبير وأخيه مضرب للقضاء على المختار والاستيلاء على بلاد العراق والحجاز ومصر .

ومع أن الأمويين قد تغلبوا على ابن الزبير ، فقد فت في عضدهم وجعلهم بعضون بنان الندم ، قتل الحسين في موقعة كربلاء . وفي ذلك يقول نيكلسون في كتابه تاريخ العرب الأدبي (٢) : ولقد جعل بنو أمية بعد يوم كربلاء يندمون على سوء صليهم ، إذ أن هذا اليوم وحّد صفوف الشيعة ، فصاحوا بصيحة واحدة : يا ثأرات الحسين ، هذا النداء الذي دوى في كل مكان ، وخاصة عند الموالي من الفرس الذين تاقوا إلى الخلاص من نير العرب .

(ح) الحوارج :

من الأحزاب التي خرجت على الأمويين حزب الحوارج الذين كانوا بالأمس من أشيعاء علي بن أبي طالب ثم خرجوا عليه بعد التحكيم ؛ وكانوا يقولون بصحة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان في سنية الأولى ، وعلياً إلى أن حكم الحكيم . ويمثل هؤلاء الحوارج أبو الدية مرقاطيون ، كما يسميهم فان فلتون في كتابه « السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية » (٣) :

(١) نفس المصدر ص ٢١ - ٢٢ .

(٢) Nicholson : Lit. History of the Arabs, p. 197-8.

(٣) أنظر ص ٦٩ من الترجمة العربية للدكتور حسن إبراهيم حسن وعبد زك إبراهيم .

« المبادئ الديمقراطية المتطرفة » ، ويمتقدون أن الخلافة حق لكل عربي حر . على أن منهم من أدخل على نظريتهم بعض التعديل ، فشرطوا الإسلام والمعدل بدل العروبة والحرية ، ولا سيما حين انضم إلى صفوفهم كثير من المسلمين من غير العرب ، حيث جعلوا حق الخلافة شاملاً بين جميع المسلمين الأحرار والأرقاء على السواء ، وخالفوا بذلك نظرية الشيعة التي تقول بحصر الخلافة في آل بيت النبي .

وكان لسطح المسلمين على سوء تصرف بعض الخلفاء الأمويين أثر كبير في إثارة الشيعة والخوارج والموالى من الفرس ، وأتيحت الفرصة للخوارج لتصب أنفسهم لحاية هؤلاء من غير الأمويين . وكانت صبغة الخوارج منذ نشأتهم صبغة سياسية محضة ، على عكس ما ذهب إليه نيكلسون في كتابه تاريخ العرب الأدنى ^(١) إذ يقول : « وقد ظلت كذلك حتى خلافة عبيد الملك بن مروان ، حيث مزجوا تعاليمهم السياسية بالأبحاث الدينية ، فقالوا إن العمل بأوامر الدين من صلاة وصيام وصدق وعدل جزء من الإيمان ، وليس الإيمان الاعتقاد بالله ورسالة محمد لحسب ؛ فمن اعتقد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ثم لم يعمل بما يفرضه الدين ، وارتكب الكبائر فهو كافر . وهكذا كانت أفكار الخوارج في الدين لا تقل شدة عن أفكارهم في السياسة . فقد صبغت روح تعصبهم السياسي وجهات نظرهم الدينية أيضاً ، فكانوا أشداء في الدين غير متساهلين لا تعرف المرونة ولا اليسر إلى نفوسهم سيلاً ^(٢) » .

ويقول فان فلوتن ^(٣) : « في بلاد العراق والجزيرة نصب الخوارج أنفسهم منذ خلافة عمر ابن عبد العزيز حُماة للضعفاء والمضطهدين وحراباً على المستبدين والطاغين ؛ وفي إفريقيا أمد هؤلاء الخوارج البربر المتدمرين من حكم الأمويين بالأسلحة التي استعانوا بها على قتال ولائهم في تلك البلاد . كذلك ثار ييلاد ابن عبد الله بن يحيى الخارجي الملقب بطالب الحق ، احتجاجاً على ذلك الاستبداد الظاهر وتلك المعاملة القاسية التي كان يُعامل بها ولاة بني أمية أهل تلك البلاد . وكان الخوارج في ذلك الوقت غير الخوارج الذين حاربهم الأمويون وانتصروا عليهم من قبل ، فقد كانوا يحاربونهم بسيف الدين ويقادعونهم بحجج الإسلام . وقد وضع الخوارج تلك القاعدة ، وهي أن مرتكب الكبيرة كافر — حين تطور النزاع بينهم وبين أعدائهم من الأمويين وانحصر بين الرضا أو عدم الرضا عن كل حكومة جائرة إنما كانت تلك الحكومة ، بعد أن كان نزاعاً شخصياً محضاً ينحصر في شرعية خلافة فلان أو فلان .

(١) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 210 تلاحظ عن :

Wellhausen : Die Religions — politischen Oppositionsparteien im alten Islam, p. 8 sqq .

(٢) السيادة العربية ترجمة المؤلف ص ٧٢ — ٧٣ .

وهكذا ظلت تلك القاعدة القديمة التي وضعها الخوارج — وهي تكفير المؤمن العاصي — على رغم تغير موضوعها واختلافه باختلاف الأحوال التي كانوا يطبقونها عليها . وقد اشتد الخوارج في معاملة المخالفين لهم . وإن الناظر إلى مبادئهم ليجد أنهم قد اشتعلوا جميعا في الحكم على مخالفتهم ، حتى ساووا بينهم وبين الكفار عبدة الأوثان . فلا عجب إذا اشتعلوا في حربهم وبذلوا نفوسهم في سبيل الذود عن مبادئهم . وقد ضربوا المثل في الشجاعة النادرة والبطولة الفذة ، وشغلوا ، كما رأينا ، الحزب الأموي وغيره مدة غير قليلة من الزمن ، حتى كلفوا الأمة الإسلامية ثمنا غاليا من الأموال والأرواح (١) . وقد تفاخروا في آرائهم الدينية تفانهم في حروبهم ، حتى قيل إن أربعين رجلا من الخوارج استطاعوا أن يهزموا جيش عبيد الله بن زياد وكانت عدته ألني رجل فقال أحد شعراء الخوارج :

ألفنا مؤمنين فيما زعمتم ويقتلهم بآسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا
هي الفئة القليلة قد علمتم على الفئة الكثيرة ينصرون (٢)

ويرى نيكلسون (٣) أن الخوارج كانوا المثل الأعلى في الدفاع عن العقيدة والاستماتة في سبيل الانتصار للبدأ ، على رغم ما كان من اعتسافهم في ذلك المبدأ واشتغالهم في تلك العقيدة ، بما أدى إلى إخفاقهم . وقد لانت قناتهم قليلا وابتدأ الاعتدال والتساع يصل إلى نفوسهم ويسود أفكارهم ، حين وجدوا أنفسهم أمام خطر داهم كاد ينتهي بإبادتهم واستتصال شأقتهم . وفي عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية (١٢٧ — ١٣٢ هـ) تفاقم خطر الخوارج الذين انتهزوا فرصة انقسام حزب بني أمية على نفسه ، وثاروا بزعماء الضحّاك بن قيس الشيباني وهددوا الرّاق . ولكن قتل الضحّاك لم يضع حدا لثورات الخوارج في بلاد العراق ، فقد ظهر فيهم زعيم جديد ، هو أبو حرة الحارثي ، الذي ثار في الحجاز وحضر موت ؛ ولكن مروان بن محمد هزمه وقتله . وكانت ثورة أبي حرة آخر ثورات الخوارج في عهد بني أمية . وقد استفاد الأمويون قوام في إخماد الثورات التي أثارها عليهم الأحزاب المختلفة وبخاصة الخوارج ، مما شغلهم عن التفرغ لشئون الدولة وأدى إلى انحلالها . (د) المرجحة :

ونستطرد الآن إلى الكلام على طائفة من الطوائف الإسلامية ، لا يقل أثرها خطرا في اتجاه السياسة الإسلامية عن الشيعة أو الملكيين والخوارج أو الجمهوريين ، وهو حزب المرجحة

(١) تاريخ الإسلام السياسي للمؤلف ج ١ ص ٤٧١ .

(٢) إشارة إلى سورة البقرة آية ٢٤٩ (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) .

(٣) Lit. Hist. of the Arabs, p. 211.

الذى ظهر في دمشق بتأثير بعض العوامل المسيحية خلال النصف الثاني من القرن الأول الهجري. تتخالف المرجحة الخوارج في تكفيرهم الخلفاء الثلاثة : عثمان وعلياً ومعاوية وأنصارهم ، ذاهبين إلى القول بأن كل من آمن بوحدة الله لا يمكن الحكم عليه بالكفر ، وأن ذلك موكل إلى الله وحده يوم القيامة ، مهما كانت الذنوب التي اقترفها والمبادئ السياسية التي يدين بها . فهم يرجئون الحكم على إخوانهم في الدين إلى الله وحده الذي (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) (سورة غافر رقم ٤٠ آية ١٩) .

وكانت مسألة المسائل في ذلك الحين هي موقف حديثي العهد بالإسلام . وقد قامت المرجحة بدور هام في التوفيق بين المصالح المتعارضة بين العرب وغيرهم من المسلمين ، حين تطور النزاع بين الأحزاب والعلوانف ، وحلت تلك المشكلة الاجتماعية الجديدة محل الخلاف على الإمامة . وقد ذهب المرجحة إلى القول بأنه لا يحل للحكومة أن تتعامل هؤلاء كما لو كانوا لا يزالون على كفرهم ، بعد أن أصبحوا مسلمين لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . وعلى هذا كانوا لا يخرجون عن قتال أية حكومة تُعر مثل تلك المظالم . ومن ثم لاندش بعد أن وقفنا على حوادث الشدة والصف في بلاد ما وراء النهر أن نرى هؤلاء يحرمون سفك الدماء البرية ويجهرون بأن جميع المسلمين أخوة في الدين . وصفوة القول أن كل ما كان ينشده هؤلاء إنما هو العودة إلى مبدأ المساواة بين الشعوب الذي أقره الإسلام ، وأنه لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ^(١) .

وكان ذلك بلا ريب شعور الجمهور الأعظم من أتباع الحارث بن سُرَيج الذي قام على رأس المرجحة بثورة على الأمويين في بلاد ما وراء النهر ، وطالما حارب الحكومة الأموية لاشتغالها في جمع الضرائب من الأهليين . وكان يزعم أنه المهدي الذي بعثه الله لتخليص المضطهدين والأخذ بتناصر المظلومين ، لذلك أشعل نار الثورة على بني أمية . وكل ما كان يرمى إليه الحارث الرجوع إلى القرآن والسنة وانتخاب حكومة ترضى عنها الأغلبية . وسرعان ما استولى على المدن الواقعة على شواطئ نهر سيحون ، ثم اضطر أمام ضغط جيوش أسد بن عبد الله القسري الذي ولى خراسان إلى التخلي عما فتحه من البلاد والانسحاب إلى بلاد ما وراء النهر (١١٨ هـ) ، ثم ضاعته الخليفة الوليد الثاني بتدخل نصر بن سيار وإلى خراسان . ولكن الحارث عاد إلى القرد ، فانضم إلى الهامية وطرد نصر بن سيار من مرو وحاضرة خراسان ، ثم دب بينه وبين الهامية ذلك الشقاق الذي لم يفته إلا بموته سنة ١٢٨ هـ .

(١) راجع كتاب: السيادة البرية والبيعة والامراتليات في عهد بني أمية ، ترجمة المؤلف

وعما هو جدير بالملاحظة أن ثورة الحارث لم تكن إلا نتيجة لتذمر الموالي وعلى رأسهم المرجئة (١).

(٥) المعتزلة :

أما القدرية أو المعتزلة (٢) فانها لا تقل أثرا عن تلك الطوائف الثلاث في اتجاه السياسة الإسلامية . ويظهر أن نشأة المعتزلة كانت في بلاد العراق التي كانت مهدا للحضارتين الفارسية والسامية ، والتي أصبحت كعبة العلم ومقر الحكومة في عهد العباسيين ، على الرغم مما ذهب إليه فون كرم Streifzuge, pp. 7-9 من أن الاعتزال نما وانتشر في دمشق بتأثير رجال الدين من البيزنطيين . وقد سموا القدرية أيضا لأنهم يقولون بحرية إرادة الإنسان . وتتكون عقيدة القدرية من خمسة أصول : التوحيد ، والعدل ، والوعيد ، والقول بالمعزلة بين المذلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقد ابتدأت المعتزلة منذ نشأتها طائفة دينية لا دخل لها في السياسة ، على عكس ما كان عليه الخوارج والشيعية والمرجئة . إلا أنها لم تلبث أن خاضت غمار السياسة فتكلمت في الإمامة وشرط الإمام ، وفي ذلك يقول المسمودي (٣) : ويذهب المعتزلة إلى أن الإمامة اختيار من الأمة ، وذلك أن الله عز وجل لم ينص على رجل بعينه ، وأن اختيار ذلك مفوض إلى الأمة تختار رجلا منها ينقذ فيها أحكامه ، سواء كان قرشيا أو غيره من أهل ملة الإسلام وأهل العدالة والإيمان . ولم يراعوا في ذلك النسب ولا غيره . وواجب على أهل كل عصر أن يفعلوا ذلك . والذي ذهب إلى أن الإمامة قد تجوز في قرشي وغيرهم من الناس هو المعتزلة بأسرها وجماعة من الزيدية مثل الحسن بن صالح بن حي . ويوافق من ذكرنا على هذا القول جميع الخوارج من الإباضية وغيرهم . إلا التجذات من فرق الخوارج ، فزعوا أن الإمامة غير واجب نصبها . وواقفهم على هذا القول أناس من المعتزلة ممن تقدم وتأخر ، إلا أنهم قالوا إن عدلت الأمة ولم يكن فيها فاسق لم يستج إلى إمام . وذهب من قال بهذا القول إلى دلائل ذكرها . منها قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لو أن سالما حى ما داخلني فيه الظنون ، وذلك حين فوض الأمر إلى أهل الشورى . فلو لم يسل عمر أن الإمامة جائزة في سائر المؤمنين ، لم يطلق هذا القول ، ولم يتأسف على موت سالم مولى أبي حذيفة . وقد صح بذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم أخبار كثيرة منها قوله : « اسمعوا وأطيعوا ولو لعبد أجدع » ، وقد قال عز وجل (إن أكرمكم عند الله اتقاكم) (سورة الحجرات ٩ آية ١٣) .

(١) وقد سميت المرجئة بهذا الاسم من الإرجاء أو التأجيل ، لأنهم يرجئون الحكم على العصاة من المسلمين إلى يوم البعث ، كما يخرجون عن إدانة أى مسلم مهما كانت الذنوب التي اقترفها . على أن فان فلوتن يرى أن تسمية المرجئة إنما ترجع إلى بعض أكابر القرآن ، وأنها مأخوذة من قوله تعالى :
(وأتخرون مرجون لأمر الله ، لما يعذبهم ولما ينوب عليهم والله عليم حكيم) سورة ٨ آية ١٠٦ .
(٢) تاريخ الإسلام السياسي المؤلف ج ١ ص ١١١ . (٣) مروج الذهب ج ٢ ص ١٩١ .

وقد تأثرت المعتزلة بالصيغة قولهم بحرية الإرادة ، تلك العقيدة التي وضع أساسها الأئمة من بيت علي ، كما يطلق المعتزلة على فقهاءهم لقب الأئمة الذي كانت تطلقه الشيعة على فقهاءهم . وبين لنا بشكل أوضح الرابطة بين عقيدة الشيعة الرئيسية ومذهب الاعتزال ، ما نلاحظه من تأثير الشيعة بمبادئ المعتزلة في عقيدتهم : إن الامام المنتظر سوف يظهر لنشر العدل والوحد . وهذا هو بعينه عقيدة المعتزلة . والزيادة أكثر شها بالمعتزلة في ذلك من الإمامية إذ تتفق مع المعتزلة فضلا عن ذلك في كثير من النقط والتفاصيل . كما تتفق المعتزلة مع الخوارج في القول بأن الإمامة تجوز في قريش وفي غيرهم من الناس ، كما تتفق معهم أيضا في القول بعدم ضرورة نصب إمام للسليين . كما يفهم ذلك من قول الخوارج « لا حكم إلا لله » . ولا غرو فظالما اتخذ الخوارج مبادئ الاعتزال ذريعة للخروج على بني أمية وإثارة الفتن والاضطرابات ، ولا سيما في إفريقية وبلاد المغرب ، تلك المبادئ التي كانت تتفق في كثير من المسائل — وبخاصة فيما كان يتعلق منها بالعقيدة الأساسية — مع ميول الخوارج . (١)

من ذلك نرى أن هذه الأحزاب كان لها أثر كبير في زوال الدولة الأموية ، وأنهم كانوا يعتقدون أن جهاد الأمويين جهاد ديني ، وكانوا يستندون في ذلك إلى سوء سيرة يزيد الأول ويزيد الثاني والوليد الثاني من الخلفاء الأمويين ، ولا سيما ما كان من هناك حرمة المدينة المنورة في عهد يزيد واتخاذهم المقاصير لتحبس الخليفة عن الناس .

٢ - حزب بني أمية وانقسامه على نفسه

أولا : بتأثير المنافسة بين أفراد البيت الأموي . يقول فان فلوتن في كتابه السيادة العربية (٢) : « وما هو جدير بالملاحظة أن هذه الطوائف التي نشأت بين العرب في البلاد التي فتحوها ، إنما كانت ترى بادية ذي بدع إلى غرض سياسي محض يرغم ظهورها بهذا المظهر الديني » . وكانت الإمامة (وهي القيادة العليا للسليين) أولى المسائل التي فرقت المسلمين ، ومزقتهم شيئا وأحزابا . أما بنو أمية (ومقرهم بلاد الشام) فهم أهل الدولة الإسلامية لذلك الحين ، لاجتماع أكثر المسلمين عليهم وخاصة بعد نزول الحسن عن الخلافة لمعاوية ، وكانوا يزعمون أنهم أحق الناس بالخلافة بعد الخلفاء الراشدين (أن بكر وعمر وعثمان) ، وأنهم أصحاب الحق في الأخذ بثأر عثمان والمطالبة بدمه ، لما كان يرطمهم بدمه وأواصر القراة . وكان يناوئ حكومة الأمويين :

١ - أهل المدينة وهم أنصار النبي ، الذين كانوا لارتباطهم باليمانيين من العرب في نسبهم ،

يكرهون بنى أمية ويعتبرونهم معتصين للحكم ، وخاصة بعد موقعة الحرة التى وقعت فى أيام يزيد بن معاوية .

٢ - حزب الشيعة وهم أنصار أهل البيت المتحمسون للدفاع عن حقوقهم فى الخلافة ، ولا سيما حق على .

٣ - حزب الخوارج ، وهم الجمهوريون الذين كانوا يقولون باختيار الخلفاء من بين الأكفاء ، أنى كانت الطبقة التى ينتمون إليها ، كانوا يرون أيضا عزل الخليفة منذ اللحظة التى يفقد فيها ثقة الأغلبية .

وقد أثارت السياسة التى جرى عليها الأمويون فى تولية العهد اثنين ، على أحدهما الآخر ، عوامل المنافسة ، وبذرت بذور الشقاق بين أفراد البيت الأموى ، حتى قيل إن الخلافة فى عهد بنى أمية استحوطت إلى ملك استبدادى يعتمد على نظام التوريث . وبذلك خرج الأمويون فى حكم الدولة الإسلامية عن نظام الشورى الذى ساد فى عهد الخلفاء الراشدين .

وكان لهذه السياسة أثرها فى ضعف الأمويين ، فانه لم يكذب يتم الأمر لأحد أبناء الخليفة المتوفى ، حتى يعمل على إقصاء الآخر من ولاية العهد وإحلال أحد أولاده مكانه . وما زاد هذه الحالة سوءا أن هذا النزاع لم يقتصر على أفراد البيت الأموى ، بل تعداهم إلى القواد والعلماء ، حتى إذا ولى الثاني الخلافة انتقم من أنصار الخليفة الذى قبله ، وأقصاهم عن مناصب الدولة .

وكان معاوية أول من سن سنة التوريث من الخلفاء الأمويين ، كما كان مروان بن الحكم أول من عمل على أخذ البيعة لائنين من أولاده . واتبع عبد الملك بن مروان سنة أبيه ، فعمل على خلع أخيه عبد العزيز عن ولاية العهد ، وتولية ابنه الوليد وسليمان ، لولا أن حالت وفاة عبد العزيز دون تحقيق هذه السياسة . وسار الوليد سيرة أبيه فى هذه السياسة التى أثارت الخلق والمنافسة بين أفراد هذا البيت ، فقد عمل على خلع أخيه سليمان والبيعة بولاية العهد لابنه عبد العزيز . فلما ولى سليمان الخلافة انتقم من ساعدوا الوليد على خلعهم : فانتقم من محمد بن القاسم الذى يرجع إليه الفضل فى فتح بلاد السند ، وكذلك فعل مع قتيبة بن مسلم الذى فتح بلاد ما وراء النهر ، ومات الحجاج بن يوسف قبل أن يلى الخلافة ، فانتقم من آل الحجاج شر انتقام .

وبصور لنا عباس بن الوليد حرج مركز الأمويين وانقسام أفراد البيت الأموى على أنفسهم فى هذه الآيات :

إِنِّى أُعِذُّكُمْ بِاللَّهِ مِنْ هَؤُلَاءِ
مِثْلَ الْجِبَالِ تَسَامَى ثُمَّ تَنْتَفِعُ
إِنَّ الْبَرِيَّةَ قَدْ مَلَكْتَ سِيَاسَتَكُمْ
فَاسْتَمْسِكُوا بِعُمُودِ الدِّينِ وَارْتَدُّوا

لا تُلْعَمَنَّ^(١) ذَنَابَ النَّاسِ أَنْفُسَكُمْ
إِنْ الذَّنَابَ إِذَا مَا أُلْعِمَتْ رَعَوْا
لا تَبْغُرَنَّ بِأَيْدِيكُمْ بَطُونَكُمْ
فَتَمَّ لَا حَسْرَةَ تُغْنِي وَلَا جُرْعَ^(٢)
ثانياً : بالعصية في الأمصار والجيش .

وقد عمل الرسول على إزالة العصية والشعور القبلي ، وإحلال الوحدة الدينية والقومية الإسلامية محلها . وقد سهل ذلك على القبائل العربية المختلفة أن تنضوي تحت لوائه وتدين له بالزعامة . فلما انتقل الرسول إلى جوار ربه تسابقت القبائل والبطون العربية على أن يكون هذا الأمر لها دون غيرها ، وبذلك تجلست النفوس العربية والطبيعة القبلية ، مما أدى إلى ارتداد أكثر القبائل العربية وتمردوها على حكومة قريش ، حتى توزع مركز الاسلام ، لولا ما أوتيه أبو بكر الصديق من صدق المريضة ، وما عثرف عنه من حزم وغيره على الدين ، فكانت القبلية للجيش الإسلامية ، وعلت كلبة الاسلام من جديد .

ولأن روح العصية التي حاول الإسلام أن يقضي عليها قد بُعثت بين القبائل العربية على أثر وفاة يزيد بن معاوية . غير أنها لم تكن من القوة والشدة بحيث تؤثر في انحلال دولة الأمويين ، الذين ظلوا حافطين لكيانهم كفريق سياسي يناضل خضومه من الأحزاب الأخرى ، إلى أن كانت خلافة عمر بن عبد العزيز التي تعتبر فترة انتقال بين حالة القوة والفاكس ، وحالة الضعف والتفكك الذي اغترى بنى أمية ؛ فقد كان عمر صالحاً عادلاً قضى فترة خلافته في إصلاح ما أفسده من سبقه من خلفاء بنى أمية حتى نال رضا جميع العناصر الثورية ، فلم يتعصب لقبيلة دون أخرى ، ولم يول والياً إلا لكفأائه وعدالته سواء كان من كلب أو من قيس ، فسكنت في عهده العواصف التي كانت تنتاب الدولة وتكاد تذهب بريحها^(٣) .

ولما مات معاوية بن أبي سفيان تفككت الوحدة العربية في بلاد الشام ، فال السكبيون إلى بنى أمية ، وانضم القيسيون بزعامة الضحاك بن قيس إلى عبد الله بن الزبير الذي عمل على سلب الخلافة من الأمويين . وتمتبر موقعة مرج راهط (سنة ٦٥ هـ) صراعاً بين عرب الشمال المضربين وبين عرب الجنوب النشيين . وكان لهذه الموقعة أثرها في إذكاء نار العصية بين المضربين والنيية في سائر البلاد العربية ، وخاصة في خراسان .

ولما توفي عمر بن عبد العزيز وولى الخلافة يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥ هـ) ، اشتعلت نيران العصية من جديد بين عرب الشمال وعرب الجنوب أو بين مضر واليمن . ولم يتورع هذا الخليفة عن خوض غمار هذه الفتنة بانحيازها إلى المضربين على النشيين ، ذلك الصراع الذي انتهى بقتل يزيد بن المهلب بن أبي صفرة ، وقتل أهل بيته النشيين الذين كانوا غرة في

(١) لا تطعوا . (٢) الطبرى (طبعة دى غوية) ٢ : ١٧٨٨ .

(٣) كتاب تاريخ الاسلام السياسي للزائف ج ١ ص ٤٢٤ - ٤٢٥ .

حين الدولة الأموية ، كما كان البرامكة بدعوة في الدولة العباسية . وقد أشعل قتل آل المهلب نار العصية في قلوب ذلك المنصور وأثار حقدَه على البيت الأموي ، وصار المنصور العنصر الذي منذ ذلك الحين خطراً محدداً لكان بني أمية (١) .

كذلك أثار مقتل خالد بن عبد الله القسري وإلى العراق في عهد هشام بن عبد الملك كراهة النخيين ، حتى لقد عد المؤرخون ذلك من أقوى الأسباب التي عجلت بسقوط الدولة الأموية . ذلك أن النخيين الذين لم ينسوا قتل آل المهلب ، والذين فوجئوا بقتل زعيمهم خالد بن عبد الله القسري انضوا تحت لواء ابنه يزيد بن خالد القسري ، وأشعلوا نيران الثورة في دمشق ، وتبهم النخيون في فلسطين ، فثاروا في وجه الحكم الأموي ، ثم انضموا إلى سليمان بن هشام ابن عبد الملك وتادوا بخلع مروان بن محمد .

هذه هي حال العصية في الشام . وقد ساعد على قيام الثورة فيها ، أن أكثر أهلها كانوا من المنصور النخبي . وربما كان ذلك هو السبب في أن مروان لم يتخذها مقر ملكه ، وانتقل إلى الجزيرة لأن أكثر من فيها كانوا من القيسية عماد دولته .

وهكذا أضعفت العصية في الأمصار والجيش بني أمية وأذنت بزوال سلطانهم . ولا غرو فقد كان ذلك العصر عصراً محزوناً ملائقاً لقلوب التقاء من المسلمين تشاؤماً بالمستقبل . وقد وصف لنا هذه الحالة السيئة الحارث بن عبد الله الجعفي الشاعر في هذه الأبيات :

أَبَيْتُ أَرْحَى النَّجُومَ مُرْتَقًا (٢) إِذَا اسْتَقَلَّتْ تَجْرِي أَوَائِلُهَا
مِنْ فِتْنَةٍ أَصْبَحَتْ مُجَلَّةً (٣) قَدْ عَمَّ أَهْلَ الصَّلَاةِ شَامِلُهَا
مَنْ بِخُرَاسَانَ وَالْمِرَاقِ وَمَنْ بِالشَّامِ كُلِّ شَجَاهُ (٤) شَاغِلُهَا
فَالنَّاسُ مِنْهُمْ فِي لَوْنٍ مُظْلِمَةٍ دَهْمَاءُ مُلْتَجِعَةٍ (٥) غَيَّاطِلُهَا (٦)
يُمَيِّسُ السَّيِّئُ الَّذِي يُبْتَفُ بِالْجَهْلِ سَوَاءٌ فِيهَا وَعَائِلُهَا
وَالنَّاسُ فِي كَرْبَةٍ يَكَادُهَا تَنْبِذُ أَوْلَادُهَا حَوَائِلُهَا
يَعْتَدُونَ مِنْهَا فِي كُلِّ مُبْهَجَةٍ عَمِيَاءُ مُمْتَحِنَةٍ (٧) لَمْ غَوَائِلُهَا
لَا يَنْظُرُ النَّاسُ فِي عَوَاقِبِهَا إِلَّا إِلَى لَا يَبِينُ قَائِلُهَا
كَرْهُوهُ الْبَكْرُ (٨) أَوْ كَصَيْعَةٍ جَدِّ لِي طَرَقَتْ حَوَالَهَا قَوَائِلُهَا

(١) نفس المصدر ج ١ ص ٥٢٦ - ٥٢٧ .

(٢) المرتقى : الواقف الثابت ، والمراد منها السهر . (٣) مجلة : شاملة وما بعدها يفسرها .

(٤) شجاءة : حزنه وطربه . (٥) اللثية من الصيون الشديدة السواد ، والنهيلة (بفتح

الفين والطاء) الفيلة المتراكمة . (٦) تمتحى بمعنى تقدر . (٨) البكر ولد الفأنة .

فجاء نينا أَرْزَى^(١) يوجِّهَهَا فِيهَا خُطُوبُهُ حُرْمٌ زَلَّزِلُهَا^(٢)

٣ - حزب بنى هاشم واتحاد كلمته للقضاء على بنى أمية

(١) انتقال حق الإمامة من العلويين إلى العباسيين :

أثار قتل الحسين - كما تقدم - حساسة المسلمين ، فتوحّلت صفوف الشيعة ، وزادت الدعوة لآل على قوة ، واشتد العداء بين الأمويين والعلويين الذين أثاروا الفتن والثورات في الولايات الإسلامية . ثم حدثت هذه الحادثة الهامة في تاريخ الشيعة ، وهي انتقال حق الإمامة من بيت عليّ إلى بيت العباس ، على يد أبي هاشم بن محمد بن الحنفية زعيم الشيعة الكيسانية ، وهو ما يمكن أن يطلق عليه « ميراث الكيسانية » .

ذلك أنه في سنة ٩٨ للهجرة استدعى الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك أبا هاشم وأكرم وفادته ، وأظهر التودد له ، ولكنه دبّر أمر قتل حشّية أن يدعو إلى نفسه ، فندس له من سمه وهو في طريقه إلى الحيمة^(٣) حيث كان يقيم محمد بن علي بن عبد الله بن العباس . وقد قيل إن أبا هاشم لما شعر بدنو أجله ، قصد محمداً هذا ، وأفضى إليه بأسرار الدعوة الهاشمية ، ونزل له عن حقه في الإمامة ، وأمدّه بأسباب داعي دعائه في الكوفة ، ومن يليه من الدعاة ، كما سلمه رسائل يقدمها إليهم^(٤) .

بذلك تحول حق الإمامة من العلويين إلى العباسيين . وهنا يحسن بنا أن نسأل : لماذا عدل أبو هاشم عن أهل بيته من العلويين ، وحوّل حقه إلى بنى عمه من العباسيين ؟ ولكي نجيب عن هذا السؤال نرجع قليلاً إلى الوراء فنقول ، إنه منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام لم يرشح المسلمون للخلافة أحداً من بنى هاشم إلا عليّ بن أبي طالب وأولاده ، ولم تنح الأقطار إلى العباس عم النبي بعد وفاته ، لأنه لم يكن من السابقين إلى الإسلام . ومن ثم لم يرشح للخلافة هؤلاء أولاده من بعده . وقد قيل إن أباسفيان جاء العباس بعددبة أبي بكر قتل له : أبسط يدك أباييك ، فأبى العباس .

وكانت العلاقة بين بنى هاشم ، علويين وعباسيين ، تقوم على الود والصفاء . وكان البيتان متّحدين على العدو المشترك وهو بنو أمية ، إلى أن انتقل حق الإمامة من العلويين إلى العباسيين بتولي أبي هاشم بن محمد بن الحنفية .

ويظهر أن العباسيين كانوا في أواخر القرن الأول الهجري ، أكثر كفاية ونشاطاً في الناحية السياسية من العلويين ، وأكثر تطلّماً إلى التفود والسلطان منهم . وقد قيل إن أبا هاشم

(١) بمعنى غلب . (٢) العلوي (طبعة دي فويه) ١٨٥٧ : ٢

(٣) وهي قرية صغيرة في أرض الشراة بين الشام والحجاز .

(٤) الفاطميون في مصر للزائف ص ٣٨ - ٣٩ .

إنما فعل ذلك لأنه لم يجد بين أفراد البيت العلوي من يستطيع النهوض بأعباء إمامة المسلمين . أضف إلى ذلك اختلاف اعتقاد الشيعة الكيسانية أنصاراً في هاشم عن اعتقاد الشيعة الامامية أنصاراً ولاد فاطمة . على أن هناك مسألة جدية بالملاحظة ، وهي أن نزول أبي هاشم بن محمد ابن الحنفية لا يمكن أن يعتبر نزولاً من العلويين جميعاً ، لأن فريقاً كبيراً منهم ظل متمسكاً بمعتقد الشيعة الامامية ، وقاموا في وجه العباسيين بعد قيام دولتهم .

وقد صور المسعودي (١) الأسباب التي ساعدت على زوال ملك بني أمية في هذه العبارة فقال : « سئل بعض شيوخ بني أمية ومحبّيها (٢) عقب زوال الملك عنهم إلى بني العباس : ما كان سبب زوال ملككم ؟ قال : إننا شغلنا بلداننا عن تفقد ما كان تفقده يلو منا ، فظلمنا رعييتنا فينسوا من أنصافنا وتمسكوا الراحة منا ، وتحمل على أهل خراجنا فتسخطوا عنا ، وسخرت ضياعنا لخلت بيوت أموالنا ، ووثقنا بوزرائنا فأثروا مرافقهم على منافقنا ، وأمضوا أموراً دوننا أخفوا عليها عنا ، وتأخر عطاء جنودنا غزالت طاعتهم لنا ، واستدعاهم أعادينا فظاهروا معهم على حربنا ، وطلبنا أعدائنا فمجننا عنهم لقلّة أنصارنا ، وكان استتار الأخيار عنا من أوكد أسباب زوال ملكتنا . »

(ب) تنظيم الدعوة العباسية :

وقد رأى الامام محمد بن علي العباسي أن نقل السلطان من بيت إلى بيت لا بد أن يسبقه إعداد الأفكار وتهية النفوس لهذا التغيير ، وأن كل محاولة لجائية قد تكون عاقبتها الإخفاق ؛ فرأى يمد نظره أن الأمر يحتاج إلى شدة الحيلة ، فطلب من شيعته أن يدعوا الناس إلى ولاية آل البيت دون تسمية أحد ، خوفاً عليه من بني أمية . ووجد أن كلا من الكوفة وخراسان يصح أن يكون مركزاً لنشر الدعوة ، لأن الكوفة مهد التشيع لآل البيت منذ زمن طويل ، ولأن أهل خراسان يفهمون فكرة التشيع بسهولة ، ويعتقدون في نظرية الحق الملكي المقدس التي كانت سائدة في بلاد الفرس منذ أيام آل ساسان . هذا إلى ما كان يقاسيه الفرس تحت نير الأمويين ، مما سهل على العباسيين نشر دعوتهم . وقد وصف الامام محمد بن علي العباسي الأهواء والميول التي كانت سائدة بين أهالي الولايات الإسلامية في هذه العبارة : « أما الكوفة وسوادها فشيعة علي ، وأما البصرة فغشائية تدين بالكف ، وأما الجزيرة لخروية (٣) صادقة ، وأعراب كأعلاج (٤) ، ومسلمون في أخلاق النصارى ، وأما أهل الشام فلا يعرفون غير معاوية وطاعة بني أمية ، وعداوة راسخة وجهل متراكم ، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهم أبو بكر وعمر . ولكن عليكم بخراسان ، فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر . وهناك صدور سليمة وقلوب

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ١٩٤ . (٢) أي المارفين بتاريخ هذه الدولة وأخبارها .

(٣) هذا اللفظ مشتق من خرواء ، وهي قرية بظاهر الكوفة تبعد عنها ميلين ، نزل بها الجوارح الذين اعتزلوا علي بن أبي طالب ، فنسبوا إليهم وهو خروية . (٤) السج حمار الوحش الفلطي .

فارغة، لم تنقسمها الأهواء، ولم تنزعها التحل، ولم يهدح فيها فساد، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل، وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة، ولغات غلجة تخرج من أجسام منككة. وبعد فاني أتمسك إلى المشرق، وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق (١).

نهض محمد بن علي العباسي بالدعوة نهضة قوية، وعين النقباء والدعاة وأوصاهم ببث الدعوة سرا، كما أوصاهم أن يتظاهروا بنشرها لآل البيت عامة تسكيناً للعالمين.

وقد بدأت هذه الدعوة السرية في أوائل القرن الثاني للهجرة من الحيرة، التي اتخذها العباسيون مركزاً لنشر دعوتهم، وذلك في عهد عمر بن عبدالعزيز. ووجه محمد بن علي العباسي الدعاة إلى الولايات الإسلامية، فوجه ميسرة إلى العراق، كما وجه ثلاثة من الدعاة، أحدهم أبو عكرمة السراج، وعهد إليهم في نشر الدعوة في خراسان. وهناك أخذ هؤلاء الدعاة ينشرون الدعوة للعباسيين في الخفاء، وظاهر أمرهم التجارة أو الحج إلى مكة. واختار أبو عكرمة من الدعاة سبعين داعية من بينهم اثنا عشر نقيباً. وشمر الكل عن مساعد الجدل في بث الدعوة لبني العباس، ولم يبالوا بما لاقيه من ضرب وصلب وقتل وتشريد، وكتب إليهم محمد بن علي دستوراً يسيرون عليه في نشر الدعوة، على أن تكون «لرضا من آل محمد»، ذلك اللفظ الذي يشمل أبناء علي وأبناء العباس، إذ أن تعيين شخص المدعو إليه يثير الأمويين كما يثير العلويين على الدعوة العباسية (٢).

ويمكن تقسيم الدعوة العباسية قسمين: الأول، ويبدأ في مستهل القرن الأول للهجرة، وينتهي بانضمام أبي مسلم الخراساني، وكانت الدعوة في هذا الدور خالية من أساليب العنف والشدّة، إذ كان الدعاة يجوبون البلاد الإسلامية، متظاهرين بالتجارة أو أداء فريضة الحج كما تقدم. ويبدأ الدور الثاني بانضمام أبي مسلم الخراساني إلى الدعوة العباسية، وهنا يدخل النزاع بين الأمويين والعباسيين في دور العمل، وهو دور الحروب التي انتهت بزوال الدولة الأموية.

٤ - قيام الدولة العباسية

(١) ميل الموالى إلى بني هاشم:

تأقت نفوس الموالى من الفرس إلى التخلص من حكم الأمويين، لما ارتكبه من وسائل المنفعة في قمع ثورات العلويين، ومالوا إلى نصرة بني هاشم، ولا سيما بعد مقتل زيد بن علي وابنه يحيى. فإن هؤلاء الموالى — إذا استثنينا طبقة الدهاقين، وهم ملاك الأراضي من الفرس

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (طبعة دى قويه) ج ٣ ص ٢٩٣ — ٢٩٤.

(٢) Nicholson: Lit. Hist. of the Arabs, p. 250.

الذين أسند الأمويون إليهم المناصب الإدارية الهامة ، واستأثروا بحماية الخراج فتمتعوا بنفوذ كبير - الذين أطلق عليهم العرب اسم العلوج ، اعتقدوا أن اعتناقهم الاسلام لم يسو بينهم وبين العرب . ولا غرو فان المسلمين من غير العرب قد ألحقوا بعد اعتناقهم الاسلام ببعض القبائل العربية ليكونوا موالى لتلك القبائل . وقد نظر العرب الذين كانوا لا يحترمون سوى مهنة الحرب إلى هؤلاء الموالى نظرة الاحتقار ، لامتناعهم طبقات العمال الذين نشأ منهم هؤلاء الموالى .

وهذا يفسر لنا أسباب تعلق الفرس بالعلويين وميلهم إليهم . وقد أوضح لنا براون (١) السبب الذي استلهم إلى ذلك ، معتمداً على ما ذكره جوينثو في هذا الصدد حيث يقول : « إننى أعتقد أن جوينثو قد أصاب فيما قاله ، إن نظرية الحق الإلهي وحصرها في البيت الأساسى ، كان لها تأثير عظيم في تاريخ الفرس في العصور التى تلتها . ولقد جاءت فكرة انتخاب الخليفة متمشية بطبيعتها مع ديمقراطية العرب ؛ غير أنها لا يمكن أن تظهر في نظر الفرس إلا بمظهر ثورى غير مطابق لطبائع الأشياء . أضف إلى ذلك ما كان من نوعه السخط والكره التى أصغرها هؤلاء الفرس لعمر ، ثاقى الخلفاء الراشدين ومقوض دعائم الامبراطورية الفارسية . وإن هذه النزعة ، وإن تشرت بإستار الدين ، فلن يفوت الباحث تفهيم سرها ومرامها . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الحسين ، وهو أصغر ولد فاطمة بنت النبي وعلى ابن عمه ، قد قالوا إنه تزوج من شهربانو ابنة يزدجرد الثالث آخر ملوك آل ساسان . ومن هنا أصبح الأئمة من حزب الشيعة يقسميه (طائفة الاثنا عشرية الشائمة الآن في بلاد فارس ، وطائفة السبئية أو الإسماعيلية) لا يمثلون حق النبوة فقط ، بل يمثلون الملك أيضاً ، لأنهم من سلالة النبي محمد وآل ساسان معاً (٢) » .

من ذلك تولدت هذه النظرية السياسية التى يشير إليها جوينثو في العبارة الآتية حيث يقول : « كانت هذه النظرية عقيدة سياسية غير متنازع فيها عند الفرس ، وهى أن العلويين وحدهم يملكون حق حمل التاج ، وذلك بصفتهم المزدوجة ، لكونهم وراثى آل ساسان من جهة أهم يلى شهربانو ابنة يزدجرد آخر ملوك الفرس ، والأئمة رؤساء هذا الدين حقاً (٣) » . وذلك يعلل كثرة الثورات والفتن التى أثارها هؤلاء الموالى من الفرس الذين ساعدوا آل البيت ضد الأمويين . ومن أحسن الأمثلة التى تؤيد هذا الرأى تلك الثورة التى أشعل نيرانها الحارث بن سريج الذى انضموا تحت لوائه الموالى في خراسان وبلاد ماوراء النهر . ولم تصمد حركة الموالى بموت الحارث بن سريج سنة ١٢٨ هـ ، فلم يكبد يمضى على وفاته سنة واحدة حتى

(١) E. G. Browne : Lit Hist. of Persia, vol. I. p. 180

(٢) Dozy : Histoire des Musulmans d' Espagne, vol 1 p. 8 seq.

(٣) Cobineau : Religion et Philosophie dans l' Asie Centrale, p. 275.

أشعل أبو مسلم الثورة من جديد على بنى أمية ، تلك الثورة التي قلبت عرشهم وانتهت بزوال دولتهم .

(ب) زوال الدولة الأموية

في أثناء وقوع هذه الحوادث مات الإمام محمد بن علي العباسي سنة ١٢٥ هـ (٧٤٢ م) ، وكانت الدعوة العباسية قد قطعت شوطلاً بعيداً . وقد أوصى محمد بالإمامة من بعده لابنه إبراهيم . وفي عهده دخل النزاع بين الأمويين والعباسيين في طور جديد هو طور العمل ، كما تقدم ، وهو ما يمكن أن نطلق عليه العصر الثاني للدعوة العباسية ، ويبتدىء من سنة ١٢٧ هـ .

وقد اتصل بإبراهيم الإمام شاب انصف بالشجاعة والاقدام ، واضطلع بأعباء الدعوة العباسية في خراسان ، وقضى على سلطان الأمويين فيها ، وإليه يرجع الفضل في قيام الدولة العباسية . ذلك الشاب هو أبو مسلم الخراساني . ولابأس أن نذكر طرفاً من سيرته قبل أن ينضم إلى الدعوة العباسية .

اختلف المؤرخون في نسب أبي مسلم ، فقيل إنه كان حراً يسمى إبراهيم بن عثمان ، ويكنى أبا إسحاق ، وإنه ينسب إلى بزرجمهر . وقد ولد بأصبهان ، ثم رحل إلى الكوفة وهو في السابعة من عمره . ولما اتصل بإبراهيم الإمام أمره بتغيير اسمه وقال له : « لا يتم الأمر إلا بذلك كما وجدته في الكتب » ، فسماه عبد الرحمن بن مسلم وكناه أبا مسلم وزوجه امرأة من طي . فكانت تقيم مع أبيها بخراسان .

وقيل في سبب اتصال أبي مسلم بإبراهيم الإمام ، أن سليمان بن كثير أحد النقباء وغيره من النقباء تركوا خراسان في سنة ١٢٤ هـ متظاهرين بالحج إلى مكة ، فلما دخلوا الكوفة أتوا إلى عاصم بن يونس العجلي ، وكان قد اتهم بالدعوة للعباسيين ، فحبسوه هو وعيسى وإدريس ابني معقل العجلي . وكان يوسف بن عمر والي العراق قد حبسهم مع من حبس من عمال خالد القسري . وكان أبو مسلم يقوم بخدمة ابني العجلي ، ولما رأى سليمان بن كثير ومن معه أبا مسلم توسموا فيه مخايل الذكاء ، ودعوه إلى الانضمام إلى الدعوة العباسية .

وقد قيل إن أبا مسلم لما قوى أمره ادعى أنه من ولد سليط بن عبد الله بن العباس . وكانت لسليط هذا جارية ادعى ابنها أنه من ولد عبد الله بن العباس . ولما مات سليط نازح وورثته في ميرانه ، فسر بنو أمية ، ليتخذوا من ذلك سبيلاً للحط من شأن علي بن عبد الله بن العباس ، فأعانوه ، وقضى له القاضي في دمشق بالميراث ، فدعى أبو مسلم حين قويت شوكته أنه من ولد سليط . وقيل إن أبا مسلم كان من الرقيق ، وإن اتصاله ببني العباس يرجع إلى بكير بن ماهان داعي العباسيين الذي قدم الكوفة حيث حبس . فدعا أبا مسلم إلى الانضمام للدعوة واشتراه

من ابني معقل المجلى بأربعمائة درهم . ولما خرجوا من السجن بعث بكير بن ماهان بأبي مسلم إلى إبراهيم الإمام ، فأنفذه إلى أبي موسى السراج .

في سنة ١٢٨ هـ تسلم أبو مسلم الخراساني مقاليد الأمور في خراسان . وكان من أسباب سقوط الأمويين شوب نار العصية بين المضرية والثمانية في خراسان ، وضعف قوة أمير هذه البلاد ، وخروج الخوارج في اليمن وحضرموت (١) .

وقد ظل أبو مسلم في خراسان إلى أن كتب إبراهيم الإمام إلى أبي سلمة الخلال داعية العباسيين في الكوفة ، يعلمه أنه أرسل أبا مسلم إلى خراسان ، وأنه أمر أهلها بالسمع والطاعة له ، وكتب الإمام إلى أبي مسلم كتاباً يقول فيه : « ذلك رجل مثنا أهل البيت احفظ وصيتي . أنظر إلى هذا الحني من اليمن ، فالزمهم واسكن بين أظهرهم ، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم . واتهم ربيعة في أمرهم ، وأما مضرتهم العدو القريب الدار . واقتل من شككت فيه ؛ وإن استطعت إلا تبقى خراسان من يتكلم بالعربية فافعل ؛ وأيا غلام بلغ خمسة أشبار تهمه فاقطعه . ولا تخالف هذا الشيخ (يعني سليمان بن كثير) ، ولا تمصه ، وإذا أشكل عليك أمر فاكشف به عنى . » . وقد ساعدت الاضطرابات التي انتشرت في خراسان في ذلك الحين ، أبا مسلم الخراساني على تحقيق سياسته .

وفي عهد هشام بن عبد الملك اشتعلت نيران العصية بين القبائل العربية في خراسان ، في عهد ولاية أسد بن عبد الله القسري ، وكان يائماً ضلعه مع الجانيين ، الذين آثروا على غيرهم من العرب وأسند إليهم مناصب الدولة . ثم ولى هذه البلاد نصر بن سيار ، وكان مضرباً ، فأقصى الجانيين ، وأثار بذلك عوامل الشقاق بين هذين العنصرين . وقامت الحرب بين نصر ابن سيار وإلى خراسان ، وسجديع بن شبيب المعروف بالكرمانى زعيم الجانيية الذين تمت الغلبة لهم ، وطردوا وإلى خراسان وناووا الحكومة الأموية ، وناصروا الدعوة العباسية بعد انضمام أبي مسلم إليها . واستطاع أبو مسلم بحسن دهاءه أن يضرب كل فريق بالآخر ، ويتم له النصر على العرب جميعاً .

وقد عرف أبو مسلم ، بما أوتيته من الحذق والمهارة الحربية ، كيف يستفيد من ذلك الانقسام الذي فرق كلمة العرب في خراسان ، كما استطاع أن يرايط بجنديه منعة أشهر في ظاهر مدينة مرو قاعدة خراسان ، استمال خلالها الجانيين وضمهم إلى صفوفه ، وبذلك تمكن من الاستيلاء على تلك البلاد دون أن يعرض جيشه الصغير للهرمة . ولم يكذب له التفوذ هناك حتى عمد إلى التخلص من شيوخ القبائل الذين كانوا يتنازعونه السيادة فقتلهم عن آخرهم . وقد أدرك نصر بن سيار وإلى خراسان مدى خطر دعاة العباسيين في هذه البلاد ، فأرسل إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية كتاباً يكشف له فيه عن قوة أبي مسلم وضعف الجند الأموي في خراسان ، وختم كتابه بهذه الآيات :

أَرَى بَيْنَ الرَّمَادِ وَمِیْضَ جَمْرٍ فَأَخْبِرْ بَأْنَ يَكُونُ لَهُ ضِرَامٌ
فَإِنَّ النَّارَ بِالْعُودَيْنِ تَدُكِّى وَإِنَّ الْحَرْبَ أَوْلَهُمَا الْكَلَامُ
فَقُلْتُ مِنَ التَّقْشُّبِ كَيْتَ شَعْرَى أَأَبْقَاظُ أُمِّةٍ أَمْ نِيَامُ؟

عندئذ سمعت الثورة التي انتهت بزوال الدولة الأموية . وإلى القارىء ما ذكره أبو حنيفة
الدينورى (١) ، لعله يبين حال الأمة العربية في ذلك الحين ، قال : : وانجفل الناس على
أبي مسلم : من هراة وجوشنج وتمرز الروذ والطالسقان وتمرز ولسا وأبيورد وطوس
وسرخس وبلخ والصغانيان وطبخارستان وختلان وكش ونسف ، فتوافوا جميعاً
مسوذي الثياب (٢) . وقد سودوا أنصاف الخشب التي كانت معهم ، وسبقوها كافر كوبات ، ،
واقبلوا فرساناً وحماراً يسوقون حميرهم ويزجرونها دهر مروان ، يسمونها لمروان بن محمد ؛
وكانوا زهاء مائة ألف رجل .

ظل أمر العباسيين سراً لا يعلمه إلا النقياء من شيعتهم ، حتى وقع في يد مروان بن محمد
آخر خلفاء بني أمية ، كتاب إبراهيم الإمام إلى أبي مسلم بأمره فيه يقتل كل من يتكلم العربية
بخراسان ، فأدى هذا الحادث إلى القبض على إبراهيم وسجنه في حران وقتله ، فتولى الدعوة
العباسية أبو سلمة الخلال . ولما علم إبراهيم الإمام أنه لا نجاة له ، ولّى عبده أخاه أبا العباس
عبد الله بن محمد ، وأوصاه بمواصلة الدعوة والمسير إلى الكوفة . ولما قتل إبراهيم الإمام سار
رسوله إلى الحشيمية وسلم وصيته إلى أبي العباس ، فتوجه هذا إلى الكوفة ، ومعه كبار
بنى هاشم من ولد العباس ، وفيهم أخوه أبو جعفر المنصور ، وابن أخيه عيسى بن موسى
ابن محمد ، وعنه عبد الله بن علي .

بعد ذلك حلت الهزيمة بآبن هيرة قائد الأمويين بظاهر الكوفة ، وأرغم على السير إلى
واسط ، لجاء أبو سلمة ونزل بمجشده بمدينة الكوفة في أوائل سنة ١٣٢ هـ من غير أن يلقي
مقاومة تذكر .

وفي أواخر هذه السنة خفق العلم الأسود شعار العباسيين فوق حصون دمشق بعد أن
دالت فيها دولة الأمويين . ولما آلت الخلافة إلى أبي العباس عهد إلى عمه عبد الله بن علي بمقاتلة
مروان بن محمد ، فتبعه إلى نهر الزاب الأصغر بالعراق ، وقتل وأغرق كثيراً من أصحابه ،
من بينهم نحو ثلثائة من بني أمية ، منهم إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك المخلوع أخو يزيد
النافع (١٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ) ، ثم مضى مروان إلى الموصل حيث هزم ، وفر

(١) الأخبار الطوال ص ٣٦٠ .

(٢) راجع ما ذكره فان توفيق (السيادة الرئيسة ص ١٢٤ - ١٢٦) عن اتخاذ الخلفاء
العباسيين السواد شعاراً لهم ، كما سيأتي في البابين الثالث والثامن .

إلى حرّان واتخذها داراً لأقامته ، ثم عبر الفرات ، فنزل عبد الله بن عليّ على بابها ، واستولى على خزان مروان ، وكان قد رحل إلى فلسطين والأردن ، فأحل به عبد الله الخزيمية ، ثم سار إلى دمشق فحاصرها ، وهزم الوليد بن معاوية بن عبد الملك في خمسين ألفاً ، وقتل بدمشق عدداً كبيراً من بني أمية وأنصارهم .

بعد ذلك لحق مروان بن محمد بمصر ونزل عبد الله بن عليّ على نهر أبي فطرس بفلسطين (١٥ ذوالقعدة سنة ١٣٢ هـ) . ثم رحل مروان إلى القسطنطينية ، فكتب أبو العباس إلى عمه عبد الله بن عليّ ليولي صالح بن عليّ العبّاسي قتال مروان ، فصارحت لحق به في قرية بومير من أعمال الفيوم ، وهجم جند العبّاسيين على عسكره ، وضربوا الطبول وكبروا وناحوا : بالشكارات إبراهيم ، يعنون إبراهيم الإمام الذي سمّاه الأمويون في حرّان . وقتل مروان ليلة الأحد ثلاث بقين من ذي الحجة سنة ١٣٢ هـ ، وأخذ رأسه وأرسل إلى السفاح في الكوفة ، وانهت بذلك الدولة الأموية ، وقامت الدولة العبّاسية على يد أبي العباس السفاح .

الباب الثاني

خلفاء العصر العباسي الأول

نتكلم في هذا الباب على خلفاء العصر العباسي الأول (١٢٢ - ٢٢٢ هـ) ، فنقتصر كلامنا على ترجمة كل من هؤلاء الخلفاء ، وعلى أهم الأحداث التي وقعت في عهده .

حكمت الدولة العباسية زهاء خمسة قرون ، من سنة ١٢٢ هـ ، وهي السنة التي ولى فيها أبو العباس السفاح الخلافة ، إلى أن زالت هذه الدولة من بغداد على أيدي التتار سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) . وفي ذلك يقول صاحب الفخرى (١) : « واعلم — علبت الخير — أن هذه الدولة من كبار الدول ، ساست العالم سياسة مزوجة بالدين والملك ؛ فكان أخيار الناس وصلحاؤهم يطعمونها تديناً ، والباقون يطعمونها رغبة أو رغبة ، ثم مكثت فيها الخلافة والملك حدود سبعمائة سنة » .

وقال في موضع آخر (٢) : « إلا أنها كانت دولة كثيرة المحاسن جمّة المسكوكات ، أسواق العلوم فيها قائمة ، وبضائع الآداب فيها نافعة ، وشعائر الدين فيها منسظمة ، والخيرات فيها دارة ، والدنيا عامرة ، والحرمات مرمية ، والثغور محصنة . وما زالت على ذلك حتى كانت أواخرها ، فانتشر الجبر ، واضطرب الأمر ، وانتقلت الدولة » .

أبو العباس السفاح

١٢٢ - ١٣٦ هـ = ٧٥٠ - ٧٥٤ م

كان أول من جلس على عرش الدولة العباسية أبو العباس عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله ابن العباس بن عبد المطلب بن هاشم . وكان أبوه محمد أول من اضطلع بنشر الدعوة العباسية في أواخر العصر الأموي حتى مات سنة ١٢٥ هـ ، وكان قد أوصى بالإمامة من بعده لابنه إبراهيم . وفي عهد إبراهيم دخل النزاع بين بني أمية وبني العباس في طور جديد هو دور العمل (١٢٧ هـ) .

ولما قبض على إبراهيم الإمام وحبس في حران ثم قتل ، انتقلت أسرته إلى الكوفة (صفر سنة ١٣٢ هـ) ، واستنصروا بضعة أسابيع ، حتى أخرجهم أتباعهم ، وسلموا على أبي العباس بالخلافة ، لأن أمه كانت عربية ، وعدلوا عن أخيه أبي جعفر مع أنه أكبر منه ، لأن أمه

كانت أم ولد ، وكان ذلك في اليوم الثالث من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين ومائة .
وفي يوم الجمعة أقام السفاح الخطبة ، فخطب على المنبر قائماً ، وكان بنو أمية يخطبون قعوداً ،
لحياء الناس وقالوا : أحسبت السُّنَّةَ يابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وقد نوه أبو العباس في خطبته بفضل آل محمد ، وندد بالأمويين لانغصابهم الخلافة ، ولما
اقتربوه من آثام وذنوب ضد أهل البيت ، وأنهى باللائمة على جند الشام ، وأطنب في مدح
أهل الكوفة ، وزاد في أعطيائهم لإخلاصهم وولائهم لبيت العباس ، وأفاض في مدح أهل
خراسان الذين ساعدوه على إقامة دولته . وختم خطبته بقوله : أنا السفاح (١) المبيح والثائر
المبير ، بما يشعر في بادئ الرأي أنه عول على سفك دماء كل من يقف في سبيله .

وهالك خطبة أبي العباس في مسجد الكوفة تنقلها عن الطبري (٢) : لما صعد (أبو العباس)
المنبر حين يبيع له بالخلافة قام في أعلاه ، وصعد داود بن علي فقام دونه ، فتكلم أبو العباس
فقال : الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تكمة ، وشرعه وعظمه ، واختاره لنا ، وأيده
بنا ، وجعلنا أهله ، وكفه وحصنه ، والقوام به ، والذابين عنه ، والثافرين له ، وألزمنا
كلمة التقوى ، وجعلنا أحق بها وأهلها ، وخصتنا برحم رسول الله وقرباته وأنشأنا من
آبائه ، وأنبتنا من شجرته واشتقنا من نبعته ، جعله من أنفسنا ، عزيزاً عليه ما عتقنا (٣) ،
حريراً علينا ، بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً ، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع ، وأنزل
بذلك على أهل الإسلام كتاباً يتلى عليهم ، فقال عز من قائل ، فيها أنزل من محكم القرآن :
(إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس (٤) أهل البيت ويطهركم تطهيراً) . وقال :
(قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى) . وقال : (وأندر عشرتك الأكرمين) .

(١) ناقش الأستاذ نيكلسون Nicholson : Lat. Hist. of the Arabs, p. 258, notel. لفظة السفاح فقال : لقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن السفاح معناه الرجل الكثير المطايا أو
الناس . ومع كل فاته مما بهننا ملاحظته أن هذا الاسم قد أطلق على بعض شيوخ القبائل في الجاهلية . ويقال إن
سلمة بن خالد الذي نادى بطلب فمقة يوم الكلاب الأولى سعى السفاح ، لأنه أفرغ مزاجه في قبيل الفمقة .
والذي أميل إليه أنه إنما سعى بهذا الاسم لقوله في أول خطاب له : « فانا السفاح المبيح والثائر المبير »
ونحن نميل إلى الأخذ بأن لفظة السفاح إنما أطلق وشاع من أبي العباس بعد هذه الخطبة ، لما قام
به من سفك دماء الأمويين وغيرهم من الخارجين على الدولة . ولا يبعد أن يكون قصده من عبارة
السفاح المناس ، أن يتوعد أهل الكوفة لما أظفروه في ماغي أيامهم من تنير في الأهواء والميول وأن يتوعد
غيرهم من أعدائه ، ولا سيما الأمويين ، الذين صمم على التثكيل بهم لما اقتربوه من الآثام والذنوب ،
وتبشيرهم من يقوم بصنوته بادرار المطايا والأموال لهم . وقد ذكر السيوطي (تاريخ الخلفاء) أمراء
المؤمنين من ١٧٠) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يخرج رجل من أهل بيتي عند انقطاع من
الزمان ويظهر من الفتى يقال له السفاح ، فيكون إصطفاؤه للمال حثياً .

(٢) ج ٩ من ١٢٥ — ١٢٦ . (٣) يعني بمنزلة علي بن أبي طالب .

(٤) القدر أو الغالب أو النصب .

وقال : (ما أفاه ^(١) الله على رسوله من أهل القرى فقهه والرسول ولذى القرنى واليتامى) ، وقال : (واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذى القرنى واليتامى) ، فأعلمهم جل ثناؤه فضلنا ، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا ، وأجزل من الله . والغنيمة نصيبنا ، تكرمه لنا ، وفضلا علينا ، والله ذو الفضل العظيم . وزعمت السبئية الضلال ، أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا ، فشاهدت ^(٢) وجوههم ، ولم أياها الناس ؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالهم ، وبصرهم بعد جهالتهم ، وأنقذهم بعد هلكتهم ، وأظهر بنا الحق ، ودحض بنا الباطل ، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً ، ورفع بنا البخيسة ^(٣) ، وتم بنا النقيصة ، وجمع الفرقة ، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة ، في دينهم وديانهم ، وإخواناً على سرر متقابلين في آخرتهم ، فتح الله ذلك منةً ومنحةً لمحمد صلى الله عليه وسلم . فلما قبضه الله إليه ، قام بذلك الأمر من بعده أصحابه ، وأمرهم شورى بينهم ، فحوروا موارث الأمم ، فعدلوا فيها وضمنوها مواضعها ، وأعطوها أهلها . وخرجوا خصاصاً ^(٤) منها ؛ ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها ، وتداولوها بينهم ، لجاروا فيها ، واستأثروا بها ، وظلدوا أهلها ، فأملى الله لهم حيناً حتى أسفوه ^(٥) ، فلما أسفوه انتقم منهم بأيدينا ، ورد علينا جنتنا ، وتدارك بنا أمتنا ، وولى نصرنا ، والقيام بأمرنا ، ليمن بنا على الذين استضعفوا في الأرض ، وختم بنا ، كما افتتح بنا . وإنى لأرجو أن لا بأيكم الجور من حيث أتاكم الخير ، ولا الفساد من حيث جاءكم الإصلاح . وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله . ي أهل الكوفة أتمم عمل محبتنا ، ومزل مودتنا ، أتمم الذين لم تتغيروا عن ذلك ، ولم يئسكم عن ذلك تحامل أهل الجور عليكم ، حتى أدركتم زماننا ، وأتاكم الله بدولتنا ، فأتمم أسعد الناس بنا ، وأكرمهم علينا ، وقد زدكم في أعطياتكم مائة درهم ، فاستعدوا ، فأنا السفاح المبيح ، والثائر المبير .

وكان موعوكا ، فاشتد به الوعك ، فجلس على المنبر . ويقول الطبري ^(٦) : وصعد داود بن علي ، فقام دونه على مراقى المنبر ، فقال : الحمد لله شكراً شكراً شكراً ، الذى أهلك عدونا ، وأصار إلينا ميراثنا ، من نينانا محمد صلى الله عليه وسلم . أيها الناس ! الآن أقشمت ^(٧) حنادس ^(٨) الدنيا ، وانكشف غطاؤها ، وأشرقت أرضها وسماؤها ، وطلعت الشمس من مطلعها ، وبزغ القمر من ميزغه ، وأخذ القوس بارحها ، وعاد السهم إلى منزعه ، ورجع الحق إلى نصابه ، في أهل بيت نبيكم ، أهل الرأفة والرحمة بكم ، والعطف عليكم . أيها الناس ! إنا والله ما خرجنا في

(١) من الله . وهو كل ما غنمه المسلمون من المهركين عفواً من غير قتال .
(٢) شاهدت بمعنى قبحت . (٣) البخيسة . (٤) أى جباناً من المغمضة وهى الجوع .
(٥) أسف من أغضب . (٦) ٩ ص ١٢٦ - ١٢٧ ، (٧) الشعم بمعنى الذهب .
(٨) جمع حندس وهو الأبل المظلم والغالبة .

طلب هذا الأمر لتكثر لجيئنا^(١) ولا غنياناً^(٢)، ولا تحفيرة نهراً، ولا نبي قصراً، وإنما أخرسجنا الأتفة من ابتزازهم حقنا، والنصب لبق عتنا، وما كرتنا^(٣) من أموركم، وبهظنا^(٤) من شئونكم. ولقد كانت أموركم ترم مضنا، ونحن على قترشنا، وبشدت علينا سوء سيرة بني أمية فيكم، وخرقم بكم، واستدلالهم لكم، واستشارهم بفيكم وصدقاً تكم ومغائكم عليكم، لكم ذمة الله تبارك وتعالى، وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم، وذمة العباس رحمه الله، أن نحمكم فيكم بما أنزل الله، ونعمل فيكم بكتاب الله، وتفسير في العامة والخاصة منكم بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم. تبا تبا لبني حرب: بن أمية وبني مروان، آثروا في مدتهم وعصرهم المعاملة على الآجلة، والدار القانية على الدار الباقية، فركبوا الآثام، وظلوا الآثام، واتهكوا المحارم، وغشوا الجرائم، وجاروا في سيرتهم في العباد، وسبتم في البلاد، التي بها استدلوا تسربل الأوزار، وتجلبب الأصار^(٥)، ومرحوا في أعنة المعاصي، وركضوا في ميادين الفسق، جهلا باستدراج الله، وأمنأ لمسكر الله، فأثام بأس الله سيئاتهم، وهم ناعمون، فأصبعوا أحداثهم ومزقوا كل ممزق، فبعداً للقوم الظالمين. وأدالنا الله من مروان وقد غره بالله الغرور، أرسل لعدو الله في عنانه، حتى يحترق في فضل خطابه^(٦)، فظن عدو الله أن لن تقدر عليه، فنادى حزبه، وجمع مكابده، وري بكتائبه، فوجد أماته ووراده، وعن يمينه وشماله، من بكر الله وبأسه وتقمته، ما أمات باطله، ومحس ضلالتة، وجعل دائرة السوء به، وأحيا شرفنا وعزنا، ورد إلينا حقنا وإرثنا. أيها الناس! إن أمين المؤمنين نصره الله نصراً عزيزاً، إنما غاد إلى المنبر بعد الصلاة، إنه كره أن يخلط بكلام الجملة غيره، وإنما قطعه عن استتمام الكلام بعد أن استخفر^(٧) فيه، شدة الوعك، وادعوا الله لأمير المؤمنين بالعافية، فقد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن وخليفة الشيطان، المستبسع للسيفلة، الذين أفسدوا في الأرض بعد صلاحها، بإبدال الدين وانتهاك حريم المسلمين، الشاب المتكهل المستمهل، المقتدي بسلفه الأبرار والأخيار، الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها، بمعالم الهدى، ومناهج التقوى. فنج^(٨) الناس له بالدعاء.

ثم قال: يا أهل الكوفة! إننا واقعنا ما زلنا سطلوهم من مقهورين على حقنا، حق أناح الله لنا شعبتنا أهل خراسان. فأحيا بهم حقنا، وأفلج بهم حججنا، وأظهر بهم دولتنا، وأدركم الله ما كنتم به تنتظرون، وإليه تكشفون، فأظهر فيكم الخليفة بن هاشم، ويبيض به وجوهكم، وأدلكم على أهل الشام، ونقل إليكم السلطان وغر الإسلام،

(١) العيين الذهبية. (٢) والعيان الذهب. (٣) اشتد علينا. (٤) غلبنا وهزل علينا.

(٥) من الأمر ومناه الذنب. (٦) الخطام الزمام. (٧) استخفر الخليل اتسع في كلامه.

(٨) أي رفع صوته بالدعاء.

وَمَنْ عَلَيْكُمْ بِإِيمَانٍ مِنْهُ الْعَدَالَةُ ، وَأَعْطَاهُ حَسَنَ الْإِيَالَةِ . نَحْنُوا مَا آتَاكُمْ اللَّهُ بِشُكْرِ ، وَالزَّهْوَا طَاعَتَنَا ، وَلَا تَخْذَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ ، فَإِنَّ الْأَمْرَ أَمْرُكُمْ ، فَإِنَّ لِكُلِّ أَهْلِ بَيْتٍ مَصْرًا ، وَإِنْكُمْ مَصْرُنَا . أَلَا وَإِنَّهُ مَا صَعِدَ مَنِيرُكُمْ هَذَا خَلِيفَةً بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إِلَّا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مُحَمَّدٍ ، وَأَشَارَ يَدَهُ إِلَى أَبِي الْعَبَّاسِ ؛ فَاعْلُوا أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ فِينَا لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنَّا ، حَتَّى نُسَلِّمَهُ إِلَى عِيْسَى بْنِ مَرْيَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى مَا أَبْلَانَا وَأَوْلَانَا .

ثم نزل أبو العباس ، وداودُ بن عليٍّ أمامه ، حتى دخل القصر ، وأجلس أبا جعفر ليأخذ البَيْتَةَ عَلَى النَّاسِ فِي الْمَسْجِدِ . فَمَزِيلٌ يَأْخُذُهَا عَلَيْهِمْ حَتَّى صَلَّى بِهِمُ الْعَصْرَ ، ثُمَّ صَلَّى بِهِمُ الْمَغْرِبَ وَجَسَّهَمُ اللَّيْلِ ، فَدَخَلَ .

ولما تمت البيعة لآلِ الْعَبَّاسِ السَّفَاحِ ، تَحَوَّلَ إِلَى الْأَنْبَازِ ، غَرْبِيَّ نَهْرِ الْفَرَاتِ ، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ بَغْدَادَ عَشْرَةَ فَرَسًاخَ ؛ وَقَدْ أَسْهَبَهَا سَابِقُ بْنُ هُرْمُزٍ أَحَدُ مُلُوكِ الْفَرَسِ ، لِحَاجَةِ السَّفَاحِ لِحَدِّدِهَا ، وَأَقَامَ بِهَا الْقُصُورَ ، ثُمَّ بَنَى الْمَنْصُورَ فِي جَوَارِهَا قَصْرًا نَعْمًا ، اخْتَّاهُ دَارَ مُلْكِهِ ، فَسَمِيَتْ هَذِهِ الْمَدِينَةُ الْهَاشِمِيَّةُ ، نَسَبًا إِلَى هَاشِمٍ جَدِّ هَذِهِ الْأُسْرَةِ .

وقد قضى السَّفَاحُ معظمَ عَهْدِهِ فِي عِمَارَةِ قَوَادِ الْعَرَبِ ، الَّذِينَ نَاصَرُوا بَنِي أُمِيَّةٍ ، وَقَضَى عَلَى أَعْقَابِ الْأُمَوِيِّينَ ، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَفْلِتْ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا عَبْدَ الرَّحْمَنِ الدَّخَلِ ، الَّذِي أَسَسَ الدَّوْلَةَ الْأُمَوِيَّةَ بِبِلَادِ الْأَنْدَلُسِ . وَكَذَلِكَ وَجَّهَ السَّفَاحُ هِمَّتَهُ إِلَى الْفَتْكِ بَيْنَ الْوَالِدِ وَسَاعِدُوهُ عَلَى تَأْسِيسِ دَوْلَتِهِ ، فَقَتَلَ أَبَا سَلَمَةَ الْخَلَّالِ . وَهُوَ يَقْتُلُ أَبِي مُسْلِمٍ ، لَوْلَا أَنَّ حَاجِلَتَهُ مَنِيَتْ . كَمَا قَتَلَ ابْنُ هُبَيْرَةَ أَحَدَ قَوَادِ مَرْوَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْأُمَوِيَّ ، بَعْدَ أَنْ أَعْطَاهُ الْأَمَانَ .

أَخْلَاقُ السَّفَاحِ وَصِفَاتِهِ :

يَقُولُ الْمَسْعُودِيُّ ^(١) عَنْ أَبِي الْعَبَّاسِ السَّفَاحِ : إِنَّهُ كَانَ جَمِيلًا وَنَسِيًّا ، وَيَقُولُ صَاحِبُ كِتَابِ الْفَخْرِيِّ ^(٢) ، إِنَّهُ كَانَ كَرِيمًا حَلِيمًا وَقَوْرًا ، عَاقِلًا كَامِلًا ، كَثِيرَ الْحَيَاءِ ، حَسَنَ الْأَخْلَاقِ . . وَيَقُولُ السِّيَوْحِيُّ ^(٣) وَكَانَ السَّفَاحُ أَسْنَى النَّاسِ ، مَا وَعَدَ عِدَّةً فَأَخْرَجَهَا عَنْ وَقْتِهَا ، وَلَا قَامَ مِنْ جُلُوسَةٍ حَتَّى يَقْضِيَهَا ، وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحُسَيْنِ الْعُلَوِيُّ مَرَّةً : سَمِعْتُ بِأَلْفِ أَلْفِ دَرَاهِمٍ وَمَا رَأَيْتُهَا قَطْرًا ، فَأَمَرَ بِهَا فَأَحْضَرْتُ ، وَأَمَرَ بِحَمَلِهَا مَعَهُ إِلَى مَنْزِلِهِ ، وَكَانَ نَقَشَ خَاتَمُهُ : اللَّهُ نَفَقَةُ عَبْدِ اللَّهِ وَبِهِ يَوْمُنَ . . وَيُؤَثَّرُ عَنْهُ قَوْلُهُ : إِنْ مِنْ أَدْنِيَاءِ النَّاسِ وَضَعْنَاهُمْ مِنْ عَدِ الْبُخْلِ حَزْمًا وَالْحِلْمِ ذَلَا ، وَقَوْلُهُ : إِذَا كَانَ الْحِلْمُ مَقْصِدًا كَانَ الْعَفْوُ مَعْجزةً ، وَالصَّبْرُ حَسَنًا ، إِلَّا عَلَى مَا أَوْقَعَ الدِّينَ وَأَوْهَنَ السُّلْطَانَ ، وَالْإِنَانَةَ مَحْمُودَةً إِلَّا عِنْدَ امْكَانِ الْفَرَسَةِ .

وَيَقُولُ الطَّبْرِيُّ ^(٤) : كَانَ السَّفَاحُ مَجْدِدَ الشَّعْرِ ، طَوِيلًا أَيْضًا ، أَقْنَى الْأَنْفِ ، حَسَنَ الْوَجْهِ

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢١٥ . (٢) ص ١٣٤ . (٣) تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ص ١٧١

(٤) ج ٩ ص ٤ ص ١٥٤ .

واللهيه . وقال المسعودي ^(١) ولم يكن أحد من الخلفاء يحب مسامرة الرجال مثل أبي العباس السفاح . وكان كثيراً ما يقول : إنما العجب من يترك أن يزداد علماً ، ويختار أن يزداد جهلاً ، فقال له أبو بكر الهذلي : ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال : يترك مجالسة مثلك وأمثال أصحابك ، ويدخل إلى امرأة أو جارية ، فلا يزال يسمع سخفاً ويروي نقصاً . فقال له الهذلي : لذلك فضلك الله على العالمين ، وجعل منك خاتم النبيين .

كان السفاح يشجع الأدب والفناء ، وكان يجزل العطاء على الشعراء والمغنين ، فقد دخل عليه أبو بجيلة الشاعر ، فسلم عليه وقال : عبدك يا أمير المؤمنين وشاعرك ، أفتأذن لي في إنشادك ؟ فقال له السفاح : لمنك الله ، ألسنت القائل في مسألة بن عبد الملك بن مروان :

أَسْلَمَ لِي يَا بَنَ كُلِّ خَلِيفَةٍ وَيَا فَارِسَ الْهَيْجَا وَيَا جَبِلَ الْأَرْضِ
شَكَرْتُكَ إِنَّ الشُّكْرَ حَبْلٌ مِنَ الثَّقَى وَمَا كُلُّهُ مِنْ أَوْلِيَةِ نِعْمَةٍ يَقْضَى
وَأُحْيَيْتُ لِي ذِكْرِي وَمَا كَانَ خَامِلًا وَلَكِنْ بَعْضُ الذِّكْرِ أَكْبَرُ مِنْ بَعْضٍ ؟

فقال الشاعر : أنا يا أمير المؤمنين الذي أقول :

لَمَّا رَأَيْنَا اسْتَمْسَكَتْ يَدَاكَ كُنَّا - أَمَّا نَا - زَهَبَ الْمَلَاكَ
وَزَكَبُ الْأَعْجَازِ وَالْأَوْرَاكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَا خِلَا الْأَشْرَاكَ
فَكَلِمَا قَدْ قَلْتُ فِي سِوَاكَ ذَوْرٌ وَقَدْ كَفَّرَ هَذَا ذَاكَ
إِنَّا نَنْتَظِرُنَا قَبْلَهَا أَبَاكَ ثُمَّ نَنْتَظِرُنَا بَعْدَهَا أَخَاكَ
فَمَنْ نَنْتَظِرُنَاكَ لَهَا إِيَّاكَ فَكَيْفَ أَنْتَ لِلرَّجَاءِ ذَاكَ

فرضى السفاح عنه ، وأجزل له العطاء .

وكان السفاح يطرب من وراء الستر ، ويصيح بالمطرب له من المغنين : أحسنت والله ، فأعد هذا الصوت . وكان لا ينصرف عنه أحد من تدمائه ولا مطربيه ، إلا ببصلة من مال أو كسوة ويقول : لا يكون سرورنا مبسجلاً ، ومكافأة من سرورنا وأطربنا مؤسجلاً ؛ على أنه سرعان ما احتجب عن تدمائه .

وكان السفاح إذا حضر طعامه أبسط ما يكون وجهاً ؛ فكان إبراهيم بن مخزومة الكندي إذا أراد أن يسأله حاجة آخرها ، حتى يحضر طعامه ، ثم يسأله ؛ فقال له السفاح يوماً : يا إبراهيم ! مادعاك إلى أن تشغلي عن طعامي بجوانحك ؟ قال : يدعوني إلى ذلك القاس النجح لما أسأل . قال أبو العباس : إنك لحقيق بالسؤدد ، لحسن هذه القطة ^(٢) .

ويحدثنا المسعودي في كتابه مروج الذهب ^(٣) عن زواج السفاح قبل توليته الخلافة من أم سلة ، وكانت قد تزوجت من عبد الله بن الوليد بن المغيرة المخزومي ، فمات وتزوجت بعده

(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢١٨ .

(١) ج ٢ ص ٢١٧ .

(٣) ج ٢ ص ٢١٥ - ٢١٧ .

من عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك الأموي ، فأتى . فبينما هي ذات يوم ، إذ مر بها أبو العباس السفاح ، وكان بجيلا وسيا ، فسألت عنه ، وأرسلت له مولاة لها ، تعرض عليه أن يتزوجها ، وقالت لمولاتها : قول له : هذه سبيحة دينار أوجه بها إليك ، وكانت تمتلك كثيرا من المال والحشم والجواهر ، فأتمت المولاة ، وعرضت عليه ذلك ، فقال السفاح : أنا مملوك لا مال عندي ، فدفعت إليه المال ، وأقبل إلى أخيها وطلب إليه أن يزوجها منها ، فزوجها إياها ، فأصدقها خمسمائة دينار ، وأهدى من يلزمها مائة دينار ، وزفت إليه في ثياب موشاة بالجواهر ، وحظيت عنده ، حتى أصبح لا يقطع أمرا إلا بمشورتها ، حتى أفضت الخلافة إليه .

فلما كان ذات يوم في خلافته ، خلا به خالد بن صفوان ، فقال له : يا أمير المؤمنين ! إني فكرت في أمرك وبسعة ملكك ، وقد ملكت نفسك امرأة واحدة ، فإن مرتحت مرتحت ، وإن غابت غبت ، وحرمت نفسك التلذذ باستطراف الجواري ، ومعرفة أخبار حاتن ، والتمتع بما تشتهي منهن . فإن منهن يا أمير المؤمنين الطويلة النبداء ، وإن منهن البضة البيضاء . . . والديقة السمراء ، والبربرية المعجزة من مولدات المدينة فتن بمحادثتها . وجعل خالد يحمي في الوصف ويحمد في الإطناط بحلاوة لفظه وجودة وصفه . فلما فرغ كلامه ، قال أبو العباس ، ويحك يا خالد ، ما صلك مسامعي والله كلام أحسن مما سمعت منك . فأعد على كلامك ، فقد وقع مني موقعا . فأعاد عليه خالد أحسن مما ابتداء ، ثم انصرف ، وبقي السفاح مفكرا فيما سمع منه ، فدخلت عليه زوجته أم سلة ، فلما رآته مفكرا مغموما قالت : إني لا أنكرك يا أمير المؤمنين ، فهل حدث أمر تكرهه ، أو أتاك خير فارتعت له ؟ قال : لم يكن من ذلك شيء . قالت فما قصتك ؟ فجعل يروي عنها ، فلم تزل به حتى أخبرها بحديث خالد ، فقالت : فما قلت لابن القاعة ؟ قال لها : سبحان الله ينصحن وتشتبهن ؟ وخرجت من عنده مغضبه ، وأرسلت إلى خالد جماعة من التجارية وأمرتهم ألا يتركوا منه عضوا صحيحا . قال خالد : فأنصرفت إلى منزلي وأنا على السرور بما رأيت من أمير المؤمنين ، وإعجابا بما ألقىته إليه ، ولم أشك أن صلته ستأتي ؛ فلم ألبث حتى سار إلى أولئك التجارية وأنا قاعد على باب داري ، فلما رأيتهم قد أقبلوا نحوي ، أيقنت بالجائزة واصلت ، حتى وقفوا علي ، فسألوا عني . فقلت ها أنا خالد ، فسبق إلى أحدهم جراءة كانت معه ، فلما أهوى بها علي وثبتت فدخلت منزلي ، وأغلقت الباب علي واستترت ، ومكثت أياما على تلك الحال ، لا أخرج من منزلي ، ووقع في خلدي أي أنيت من قبلك أم سلة ، وطلبت السفاح طلبا شديدا ، فلم أشعر ذات يوم إلا يقوم هجوما علي وقالوا : أجيب أمير المؤمنين ، فأيقنت بالموت ، فركبت وليس علي لحم ولادم . فلما وصلت إلى الدار أومأ إلي بالجلوس ، ونظرت فإذا خلف ظهري باب عليه ستور قد أنحيت ، وحركة خلفها ، فقال : يا خالد ألم أرك منذ ثلاث ، قلت كنت عليا يا أمير المؤمنين ، قال : ويحك ، إنك وصفت لي في آخر دخلة من أمر

النساء والجواري ، ما لم يخترق مسامى قط كلام أحسن منه ، فأعده على ، قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، أعلمت أنك أن العرب اشتقت اسم الضرة من الضر ، وأن أحدهم ما تزوج من النساء أكثر من واحدة إلا كان في جهد ، فقال : ويحك ألم يكن ههنا في الحديث . قلت : بلى والله يا أمير المؤمنين ، وأخبرتك أن الثلاث من النساء كاتهن القدر يغفل عليهن . قال أبو العباس برئت من قرأتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم إن كنت سمعت هذا منك في حديثك . قال : وأخبرتك أن الأربع من النساء شرٌ صحيح لصاحبهن ، يشينه ويهرمه ويسقمه . قال ويحك ! ما سمعت هذا الكلام منك ولا من غيرك قبل هذا الوقت .

قال خالد : بلى والله ، قال : ويحك ! وتكذبى ، قال : وتريد أن تقتلى يا أمير المؤمنين ؟ قال : مر في حديثك قال : وأخبرتك أن أباك الجوارى رجال ، ولكن لا خصي له ، قال خالد ، فسمعت الضحك من وراء الستر ، فقلت ، نعم ، وأخبرتك أيضاً ، أن بنى عزوم ربحانة قريش ، وأنت عندك ربحانة من الرياحين ، وأنت تطمح بينك إلى حرائر النساء وغيرها من الاماء . قال خالد : فقيل لى من وراء الستر : صدقت والله يا عماء وبررت ! بهذا حدثت أمير المؤمنين ، ولكنه بدل وغير ، ونطق عن لسانك ، فقال له أبو العباس : مالك قاتلك الله وأخراك ، وفعل بك وفعل ! فركته وخرجت وقد أيقنت بالحياة . فاشعرت إلا برسل أم سلة قد ساروا إلى معهم عشرة آلاف درهم ونخت وبردون وغلالم . بقى السفاح في الخلافة أربع سنين وتسعة أشهر . ومات بالجدري في مدينة الأنبار التي اتخذها قاعدة لخلافته ، وذلك يوم الأحد لاثني عشرة ليلة خلت من شهر ذي الحجة سنة ١٣٦ هـ وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وقيل ابن تسع وعشرين .

أبو جعفر المنصور

(١٣٦ - ١٥٨ هـ = ٧٥٤ - ٧٧٥ م)

ولد أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي العباسي سنة ١٠١ هـ في الحيمة من أرض الشراة على مقربة من العقبة ، وذلك في أواخر خلافة عمر بن عبد العزيز . وأمه سلامة البربرية (١) ، وقد ترقى وسط كبار الرجال من جملة بنى هاشم ، وصحب أباه وجدته ، فنشأ أدبياً فصيحاً ، ملأاً بسير الملوك والأمراء (٢) . واستعان السفاح بأبي جعفر في التخلص من أبي سلة الخلال ، لأنه كان يعمل على تحويل الخلافة إلى العلويين ، وأرسله إلى خراسان لاستطلاع رأى أبي مسلم

(١) تاريخ البقوي ج ٢ ص ٤٣٦ ، وقيل إن أمه سلامة بنت بشير من مولات البصرة (المسعودي : التبيين والإشراف ص ٣٤٠) ، وقيل أيضاً ربيعة الجارية أم السفاح ، وهذا غير صحيح .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٤١ ،

في قتل أبي سلة ، قتل له ما أراد . ثم وجه أبو العباس أخاه أبا جعفر إلى خراسان ، لأخذ البيعة له ، وتوليته العهد من بعده ؛ ولكن قتل أبي مسلم سليمان بن كثير ، على الرغم من وجود أبي جعفر بخراسان ، قد أثار حفيظته وحنقه ، حتى إنه أشار على الخليفة بقتل أبي مسلم ، قبل أن يستفحل خطره في الدولة ، ولكن أبا العباس خاف أن يؤدي هذا القتل إلى إثارة غضب الخراسانيين ، فيمدلون على الأخذ بثأره .

وكذلك استعان أبو العباس السفاح بأخيه أبي جعفر في مقاتلة يزيد بن عمر بن هبيرة . قائد مروان بن محمد ، آخر خلفاء بني أمية ، وزعيم العرب في ذلك الوقت . وعلى الرغم من إعطاء أبي العباس الأمان له ، قتله قبل أن يحض مداد ذلك الأمان ، وقد قيل إن أبا مسلم الخراساني أرسل إلى السفاح كتاباً يشير فيه بقتل ابن هبيرة ، وختم كلامه بقوله : « إن الطريق السهل إذا أُلقيت فيه الحجارة فسد . لا والله لا يصلح أمر فيه ابن هبيرة » . وكان أبو جعفر يرى عدم قتله . وفي سنة ١٣٢ هـ ولي السفاح أبا جعفر الجزيرة وأذربيجان وإرمينية (١) ، وفي سنة ١٣٦ هـ ولّاه السفاح إمارة الحج . ثم توفي السفاح في ١٣ ذي الحجة سنة ١٣٦ هـ كما تقدم ، وكان قد عهد بالخلافة من بعده إلى أخيه أبي جعفر ، ثم إلى عيسى بن موسى بن محمد ابن علي ، وكتب بذلك العهد ، وختم عليه بخطامه ، وشهد بذلك أهل بيته ، وسلمه إلى عيسى بن موسى بن محمد العباسي (٢) .

وقد أرسل عيسى بن موسى إلى أبي جعفر يعلمه بموت أبي العباس السفاح ، وأخذ البيعة له ، فلقية الرسول بمكان يقال له زكية ، فلما جاءه الكتاب دعا الناس فبايعوه ، وبايعه أبو مسلم . وقال أبو جعفر : « أين موضعنا هذا ؟ قالوا زكية ، فقال أمرت بركي لنا إن شاء الله تعالى (٣) » .

وقد قامت في أيام المنصور أحداث خطيرة : من ذلك حرج مركز العباسيين بين الساخطين من العرب ، وعلى رأسهم عمه عبد الله بن علي ، والساخطين من الفرس ، وعلى رأسهم أبو مسلم الخراساني مؤسس الدولة العباسية نفسه . ولكن المنصور استطاع بحزمه وكيدته أن يقهر العرب ويأسر عمه ثم يقتله ، وأن يقهر الفرس ويقتل أبا مسلم ، كما استطاع المنصور أن يقهر العلويين ويقتل محمداً (النفس الزكية) بن عبد الله بن الحسن في الحجاز ، وأخاه إبراهيم في العراق . خلعت عيسى بن موسى من ولاية العهد والبيعة للبهدي :

ومن الأحداث الخطيرة التي وقعت في عهد أبي جعفر المنصور ، خلعت عيسى بن موسى بن محمد العباسي من ولاية العهد ، وأخذ البيعة للبهدي بن المنصور . وقد ذكر صاحب الفخرى (٤)

(١) الطبري ج ٩ ص ١٤٧ . (٢) المصدر نفسه ص ١٥٤ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٥٥ . وذكر الطبري في رواية أخرى أنه قد وردت على أبي جعفر البيعة له بعد الحج ، في منزل من منازل طريق مكة يقال له « سقيّة » فتنازل بها عنه ، وقال صلت لنا إن شاء الله تعالى . (٤) (غ) ص ١٥٥ - ١٥٦ .

كيفية خلق عيسى فقال : « اختلف أرباب السير في كيفية خلقه ، فقيل إن المنصور القس منه ذلك ، وكان يكرمه ويجلسه عن يمينه ، ويجلس المهدي عن يساره ، فلما فاوضه المنصور في خلق نفسه قال : يا أمير المؤمنين ، كيف أصنع بالآيمان التي في رقبتي وفي رقاب الناس ، بالعناق والطلاق والحج والصدقة ؟ ليس إلى الخلق سبيل . فتغير المنصور عليه ، وباعده بعض المباعدة ، وصار يأذن للمهدي قبله . ويجلسه دون المهدي ، وصار يتقصد أذاه ، فكان يكون عيسى بن موسى جالساً ، فيحفر الحائط الذي يليه ، وينثر التراب على رأسه ، فيقول لبنيه : تنحوا ، ثم يقوم هو فيصلي ، والتراب ينثر عليه ، ثم يؤذن له ، فيدخل على المنصور والتراب عليه لا ينفذه ، فيقول له المنصور يا عيسى ، ما يدخل على أحد بمثل ما تدخل أنت به من الفهار والتراب ، أفكل هذا من الشارح ؟ فيقول عيسى : أحسب ذلك يا أمير المؤمنين ولا يشكو . وقيل إنه سقا بعض ما يتلفه ، فرض مدة ، ثم أفاق منه ، فلم يزل هذا الأذى يتكرر عليه ، حتى خلق نفسه وباع .

وقيل بل وضع المنصور الجند فصاروا يشتمون عيسى بن موسى إذا رأوه ، وينالون منه ؛ فلما شكوا ذلك إلى المنصور ، قال له : يا بن أخى إني والله أخافهم عليك وعلى نفسى ، فأنهم قد أشربت قلوبهم حباً ذلك الفقى يعنى المهدي ، فلو قدمته بين يديك ، خلعت عيسى نفسه ، وباع المهدي . ولما رآه بعض أهل الكوفة ، وقد جعل المهدي قدماه في الخلافة ، وصار هو بعده ، قال هذا الذى كان غداً فصار بعد غد . وقيل بل اشتراها المنصور منه بمال ، مبلغه أحد عشر ألف ألف درهم . وقيل بل أرسل إليه خالد بن برمك ، فأخدمه جماعة من أهل المنصور ، نحو ثلاثين رجلاً ، ومضى إلى عيسى ، فحاطبه في أن يتخلع نفسه ، فأبى ؛ فلما أبى قال خالد للجماعة : نشهد عليه في أنه قد خلق نفسه ، ونشحن بذلك دمه ، ونسكن هذه الفتنة ، فشهدوا عليه بذلك ، فقامت البيعة به ، وأنكر عيسى ، فلم يلتفت إليه ، وتم خلقه ، وبويع للمهدي .

وبعد أن أخذت البيعة للمهدي ، أوصاه أبوه المنصور وصية ، تكشف عن السياسة التي وضعها لإبنه ، ليسير عليها في سياسة رعيته ، مبطلهم وذمهم ، لحثه على الرأفة بهم ، والسهر على راحتهم ، وبسط العدل بينهم ، والتقرب إلى الله بحسن السيرة ، وإجلال أهل العلم والدين ، وعماراة الأرض لتخفيف الحراج ، ونشر الاسلام ، والجهاد في سبيل إعلاء كلمته . ولا بأس أن تقتطف جزءاً من هذه الوصية عن البغوي ، (١) قال : « هذا ما عهد به عبد الله أمير المؤمنين ، إلى المهدي محمد ابن أمير المؤمنين ، ولى عهد المسلمين ، حين أسند وصيته إليه بعده ، واستخلفه على الوصية ، من المسلمين وأهل الذمة ، وحُرِّمَ الله وخزائنه وأرضه التي يورثها من يشاء من عباده ، والمعاوية للتقين . إن أمير المؤمنين يوصيك بتقوى الله في البلاد ، والعمل بطاعته

في العباد ، ومحدرك الحسرة والندامة ، والفضيحة في القيامة ، قبل حلول الموت . وعاقبة القوت حين تقول : رب لولا أخطرتني إلى أجل قريب . هبات أين منك المثل ، وقد انقضى عنك الأجل . . . وتقول رب ارجعني لملى عمل صالحاً ، فيومئذ ينقطع أهلك ، ويحل بك غمك فترى ما قدمته يدك وسمعت فيه قدماك ، ونطق به لسانك ، واستركت عليه جوارحك ، ولحظت له عينك ، وانطوى عليه غيبك ، فتجزي عليه الجزاء الأوفى ، إن شراً فشرأ ، وإن خيراً فغيراً . فليكن تقوى الله من شأنك ، وطاعته من بالك ، استمن بالله على دينك ، وتقرب به إلى ربك ونفسك ، نفذ منها ، ولا تجعلها الهوى ، ولن تعمل الشر قاعماً ؛ فليس أحد أكثر وزراً . ولا أعظم مصيبة ، ولا أجل رزية منك ، لتكاثف ذنوبك ، وتضاعف أعمالك . إذا قلده الله الرعية تحكم فيهم بمثل الذرة ، فيفتضون منك أجمعون وتكافى على أفعال ولانك الظالمين ، فان الله يقول (إنك ميت وإنهم ميتون ، ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ، فكنأي بك وقد أوتيت بين يدي الجمار ، وخذلك الانصار ، وأسلك الأعوان ، وطوقت الخطايا ، وقررت بك الذنوب ، وحل بك الوجع ، وقعد بك الفشل ، وكلت حجتك ، وقلت حيلتك وأخذت منك الحقوق ، واقتاد منك المخلوق في يوم شديد هوله ، عظيم كربه ، تشخص فيه الأصار لدى الحناجر كاطلمين ، مال الظالمين من حميم ، ولا شفيح بطاع ، فاستحسنت أن يكون حالك يومئذ إذا خاصمك الخلق ، واستغنى عليك الحق ، إذا لا خاصة تنجيك ، ولا قرابة تحميك . تطلب فيه التباغة ،^(١) ولا تقبل فيه الشفاعة ، ويعمل فيه بالعدل ويقضى فيه بالفصل . قال الله : (لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب) . فليكن بالتصميم لدينك ، والاجتهاد لنفسك ، فافكك عنقك ، وبادر يومك ، واحذر غدك ، واتق دنياك فانها دنيا غادرة موبقة ، ولتصدق لله نيتك ، وتعلم إليه فافتك . . .

« وارغب إلى الله عز وجل في الجهاد والمجاهدة عن دينه ، وإهلاك عدوه ، مما يفتح الله على المسلمين ويمكن لهم في الدين . وابدل في ذلك مهجتك ومجدتك وماك ، وتقد جبريك ليك ونهارك . واعرف مراكر خيلك ، ومواطن رحلك . وباقه فليكن عصمتك وحولك وقوتك ، وعليه فليكن نقتك ، واقتدارك وتوكلك ، فانه يكفيك وبغيتك وينصرك ، وكفى به مؤيداً ونصيراً .

وقد ذكر المسمودي^(٢) أن عمرو بن عبيد دخل على المنصور بعد أن بايع لابنه المهدي فقال له : يا أبا عاتقان ، هذا ابن أمير المؤمنين ، وولي عهد المسلمين . قال له عمرو : يا أمير المؤمنين . أراك قد وطئت له الأمور ، وهي تصير إليه ، وأنت عنه مسئول ؛ فاستبهر المنصور ، وقال له : عظمي يا عمرو ، قال : يا أمير المؤمنين ، إن أقد أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك منها ببعضها .

(١) يقال : لا قبل فلان تبة وتباعة ، وهي الظلمة (أساس البلاغة) .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٣ .

وإن هذا الذي في يدك ، لو بقى في يد غيرك لم يصل إليك ، فاحذر ليلة تمخض يوم لاليلة بعده وأنشد :

يا أيها الذى قد غره الأمل	ودون ما يأمل التنفيس والأجل
ألا ترى أنما الدنيا وزينتها	كندول الركب حلوا نمت ارتحلوا
حتوها رصد وعيشها نكد	وصفوها كدر وملكتها دول
تظلك تفرح بالروعات ساكنها	فأ يسوخ له لين ولا جدل
كانه للنشاي والردي غرض	تظلل فيه بنات الدهر تلتضل
والنفس هاربة والموت يرصدها	وكل عثرة رجل عندها زلل
والمرء يسمى لما يبق لوارثه	والقبر وارث ما يسمى له الرجل

أخلاق المتصور وصفاته :

ذهب بعض المؤرخين إلى القول ، إن المتصور كان أعظم الخلفاء العباسيين شدة وبأساً ، ويقظة وحزماً وصلحاً ، واهتماماً بمصالح الرعية ، وجداً في بلاطه . وهو يعتبر بحق المؤسس الثاني للدولة العباسية ، كما كان عبد الملك بن مروان بالنسبة للدولة الأموية . ولا غرو ، فإن كلا الرجلين استطاع بما أوتي من حزم وعزم ، أن ينتقل بلاده من عبث الماثلين ، وخطر الخوارج ، وأن يولد دعائم ملكه على أسس قوية من النظام .

قال الطبرى (١) : « كان المتصور أسمر طويلاً نحيفاً ، خفيف العارضين ، وكان ميالاً بطبيعته إلى النظام ، الذى هو أساس نجاح الأعمال . فكان ينظر في صدر النهار في أمور الدولة ، وما يعود على الرعية من خير ، فإذا صلى العصر جلس مع أهل بيته ، فإذا صلى العشاء نظر فيما يرد عليه من كتب الولايات والثغور ، وشاور وزره ومن حضر من رجال دولته فيما أراد من ذلك ، فإذا مضى ثلث الليل انصرف ساجداً ، وقام إلى فراشه ، فنام الثلث الثانى ، ثم يقوم من فراشه ، فيتوضأ ، ويجلس في محرابه ، حتى مطلع الفجر ، ثم يخرج فيصلى بالناس ، ثم يدخل فيحلى في إروانه ، ويبدأ عمله كمادته في كل يوم .

اشتهر المتصور بالجد في بلاطه ، فلم يعرف عنه ميل إلى اللهو والميث . روى الطبرى عن حماد الترمذى ، أن المتصور سمع يوماً في داره جليلة ، فقال : ما هذا يا حماد ؟ أنظر ، فذهب فإذا خادم له قد جلس بين الجوارى ، وهو يضرب لمن بالآلة الموسيقية المعروفة بالطنبور ، ومن يضرب بآلة روميا حتى أشرف عليهم . فلما رأيته تفرق ، فأمر المتصور مولاه حماد بأن يضرب رأس الخادم بالطنبور ، فلم يزل يضرب به رأسه حتى كسره ، ثم أخرجه المتصور من قصره .

وبعدئنا المسعودي ^(١) أن المنصور بينما كان جالساً في مجلسه ، سقط بين يديه سهم ، فذعر ذعراً شديداً ، ثم أخذه لجل يلقه ، فإذا مكتوب عليه بين الرشتين .

أنتقم في الحياة إلى التناد ^(٢) وتحسب أن مالك من نفاذ
ستسأل عن ذنوبك والخطايا وتسأل بعد ذلك عن العيباد
ثم قرأ عند الريشة الأخرى :

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ولم تحف سوء ما يأتي به القدر
وسأفتك الليال فاعترت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر
ثم قرأ عند الريشة الأخرى :

هي المقادير تجري في أعتها فاصبر فليس لها صبر على حال
يوماً تريدك خميس القوم ترفعه إلى الساء ويوما تخفض المال

وإذا على بجانب السهم مكتوب : هذان فيها رجل مظلوم في حبسك ، فبحث المنصور من فوره بعض خاصته ليفتشوا السجون ، فوجدوا شيخاً موقفاً بالحديد ، متوجهاً نحو القبلة يردد هذه الآية : (وسيلم الذين ظلموا أي متقلب ينقلبون) ، فسأله عن بلده . فقال : همدان ، فحبل ووضع بين يدي المنصور ، فسأله عن قصته ، فأخبره أنه من أبناء مدينة همدان ، ومن أهل اليسار فيها ، وأن الوالي أراد أن يأخذ منه ضيعة التي تقوم بألف ألف درهم . فامتنع عن القبول ، فكله بالحديد ، وحمله ، وكتب إليه أنه عاص ، فكان من أمره ما كان ، وظل على ذلك أربع سنين ، فأمر المنصور فكل الحديد عن هذا الرجل ، وأطلق من حبسه ، وردت إليه ضيعة ، وولاه همدان ، فشكره الرجل ، وقال . يا أمير المؤمنين ، أما الضيعة ، فقد قبلتها ، وأما الولاية فلا أصلح لها ، وأما واليك فقد عفوت عنه ، وعاد هذا الرجل معزواً مكرماً ، وصرف المنصور الوالي عن ولايته ، وعاقبه على فعلته .

وكان المنصور يكره سفك الدماء إلا بالحق . فقد بلغه أن عيسى بن موسى قتل رجلاً من ولد نصر بن سيار ، والي مروان بن محمد الأموي ، كان مستخفياً في الكوفة ، فأنكر ذلك على عيسى ، وهم بقتله ثم عدل عن هذا العمل ، بعد أن بلغه أنه لم يقم بذلك عن سوء نية ، أو عن موجدة لهذا الرجل ، فكتب إليه أبو جعفر هذا الكتاب يؤنبه فيه عن فعلته ، ويأمره ألا يعاقب أحداً عن رية أو ظنة . وإنما تثبت التهمة عليه ، وتوافر الأدلة على جرمه . وهاك هذا الكتاب بنصه عن الطبري ^(٣) :

« أما بعد ، فإنه لولا نظر أمير المؤمنين واستيقاؤه ، لم يؤخر قتل ابن نصر بن سيار ، واستبدادك به بما يقطع أطماع البهال في مثله . فأمسك عن ولاك أمير المؤمنين أمره من عري

(١) مروج الذهب ص ٣٣٢ - ٣٣٣ ، والطبري ج ٩ ص ٣١٤ .

(٢) يريد يوم التناد ، وهو يوم القيامة . (٣) ج ٩ ص ٢٩٤ .

وأعجبى، وأحمر وأسود، ولا تستبدن على أمير المؤمنين بامضاء عقوبة في أحد قبله تباعة (١)، فانه لا يرى أن يأخذ أحداً بظنة قد وضعها الله عنه بالتوبة، ولا يحدث كان منه في حرب أعقبه الله منها سلباً، ستر به عن ذى غلة، وحجز به عن عنة ما في الصدور، وليس يأس أمير المؤمنين لأحد ولا لنفسه من الله من إقبال مدبر، كما أنه لا يأمن من إدارم قبل إن شاء الله والسلام .

وقد عرف المنصور بالثبات عند الشدائد . ولا شك أن هذه الصفة كانت من أبرز الصفات التي كفلت له النجاح، إذا صادفته إحدى الصعوبات، وكانت كثيرة في عهده كما نعلم . وبما يسجل للمنصور بالفخر والاعجاب، قيامه في وجه من خرجوا عليه من أهل بيته، وبيت أبناء عمه العلويين؛ فقد تغلب عليهم بفضل هذا الثبات، ووطد دعائم ملكه بعد أن أصبح قاب قوسين أو أدنى من الوهن والانهلال .

كذلك عرف المنصور بميله إلى الاقتصاد في النفقات، كما اشتهر عنه ميله إلى الاحتدال في المعطاء : فقد روى الطبري (٢) عن الخوارزمي أنه قدم على المهدي في الري وهو ولي عهد، فأمر له بعشرين ألف درهم، لأبيات امتدحه بها، فكتب بذلك صاحب البريد إلى المنصور وهو بمدينة السلام، يخبره أن المهدي أمر لشاعر بعشرين ألف درهم، فكتب إليه المنصور يعذله ويلومه، ويقول له : إنما كان ينبغي لك أن تعطى الشاعر بعد أن يقيم بياض سنة أربعة آلاف درهم، قال أبو قدامة، فكتب إلى كاتب المهدي أن يوجه إليه بالشاعر، فطلب، فلم يقدر عليه، فكتب إليه أنه قد توجه إلى مدينة السلام . فوجه المنصور قائداً من قواده، فأجلسه على جسر البروان، وأمره أن يتصفح الناس رجلاً رجلاً، ممن يمر به، حتى يظفر بالمؤمل؛ فلما رآه قال له : من أنت ؟ قال أنا المؤمل بن أميل، من زوار الأمير المهدي، قال إياك طلبت، قال المؤمل : كاد قلبي يتصدع خوفاً من أبي جعفر، فقبض عليّ، ثم أتى في باب المقصورة، وأسبني إلى الربيع، فدخل إليه الربيع، فقال : هذا الشاعر قد ظفرنا به، فقال أدخلوه عليّ، فأدخلت عليه، فسلبت، فردّ عليّ السلام، فقلت : ليس ههنا إلا خير، قال أنت المؤمل بن أميل، قلت نعم أصلح الله أمير المؤمنين، قال هيه : أتيت غلاماً غراً نطعته، قال فكأن ذلك أعجبه، فقال أنشدني ما قلت فيه، فأنشدته :

هو المهدي إلا أن فيه	مشابه صورة القمر المنير
تساوياً ذا وذا فهما إذا ما	أنا مشكلان على البصير
فهذا في الظلام سراج ليل	وهذا في النهار سراج نور
ولكن فضل الرحمن هذا	على ذا بالمنابر والمرير
وبالملك العزيز قذا أمير	وما ذا بالأمر ولا الوزير

ونقص الشهر بمحمد ذا وهذا
فيا بن خليفة الله المصطفى
لئن فت الملوك وقد توافوا
لقد سبق الملوك أبوك حتى
وجئت وراه تجرى حيثما
فقال الناس ماهذان إلا
لئن سبق الكبير فأهل سبق
وإن بلغ الصغير مدى كبير
مثير عند نقصان الشهر
به تلو مفاخرة الفخور
إليك من السهولة والوعود
بقوا من بين كلب أو حبيب
وما بك حين تجرى من فتور
بمنزلة الخليفة من الجدير
له فضل الكبير على الصغير
لقد خلق الصغير من الكبير

فقال والله لقد أحسنت ! ولكن هذا لا يساوي عشرين ألف درهم ، وقال لي أين المال ؟ قلت هاموذا ، قال ياديع ، أنزل معه ، فأعطه أربعة آلاف درهم ، وخذ منه الباقي . فخرج الربيع ، لحظ ثقل ، ووزن لي أربعة آلاف درهم ، وأخذ الباقي . فلما صارت الخلافة إلى المهدي ، ولي ابن ثوبان المظالم ، فكان يجلس للناس بالرفصاة ، فإذا ملا كساده رقاعا ، رفعها إلى المهدي ، فرفعت إليه بوا رقعة أذكره قصي ، فلما دخل بها ابن ثوبان ، جعل المهدي ينظر في الرقاع ، حتى إذا نظر في رقعة ضحك . فقال له ابن ثوبان : أسألك الله أمير المؤمنين ، مارأيتك ضحك من شيء من هذه الرقاع إلا من هذه الرقعة ، قال هذه رقعة أعرف سبها ، ردوا إليهم العشرين الألف درهم ، فردت إلى وانصرف .

وروى الطبري^(١) عن الوضين بن عطاء قال :

« استزارني أبو جعفر ، وكانت بيني وبينه خلافة قبل الخلافة ، فصرنا إلى مدينة السلام ، فخلونا يوما ، فقال لي : يا أبا عبد الله : ما مالك ؟ قلت الخبر الذي يعرفه أمير المؤمنين . قال : وما عيالك ؟ قلت : ثلاث بنات والمرأة وخادم لمن ، فقال لي : أربيع في بيتك ؟ قلت نعم ، قال : فواقه لردد ذلك علي حتى ظننت أنه سيمولني ، ثم رفع رأسه إلي ، فقال : أنت أيسر العرب ، أربيع مغازل يدرك في بيتك ! »

وما يدل على حرص المنصور في التفقات ما رواه الطبري^(٢) عن الفضل بن الربيع ، قال : « وذكر عن علي بن محمد بن الفضل بن الربيع ، حدثه أن المنصور لما فرغ من بناء قصره بالمدينة دخله ، فطاف فيه ، واستحسنه واستنظفه ، وأعجبه ما رأى فيه ، غير أنه استكثر ما أنفق عليه ، ونظر إلى موضع فيه استحسنه جداً ، فقال لي أخرج إلى الربيع ، قل له : أخرج إلى المسيب ، فقل له يحضرن الساعة بناء قارها ، فخرجت إلى المسيب ، فأخبرته ، فبعث إلى رئيس البنايين ، فدعا ، فأدخله علي أبي جعفر ، فلما وقف بين يديه قال له : كيف عملت لأصحابنا في

هذا القصر؟ وكما أخذت من الأجرة لكل ألف آجرة ولبنة؟ فبقى البناء لا يقدر على أن يرد عليه شيئا، فخافه المسيب، فقال له المنصور: مالك لا تكلم فقال: لا علم لي بأمر المؤمنين. قال: ويحك! قل وأنت آمن من كل ما تخافه، قال: يا أمير المؤمنين: لا والله ما أقف عليه ولا أعلمه، فأخذ يديه، وقال له: تعال لا عليك الله خيرا، وأدخله الحجر التي استحسنها، فأراه مجلسا كان فيها، فقال له: انظر إلى هذا المجلس، وابن لي بأزائه طاقا يكون شيئا بالبيت، لا تدخل فيه خشبا. قال: نعم يا أمير المؤمنين، فأقبل البناء، وكل من معه يتعجبون من فهمه بالبناء والهندسة، فقال له البناء ما أحسن أن أجيء به على هذا، ولا أقوم به على الذي تريد، فقال له: فانا أعينك عليه، قال: فأمر بالأجر والجلس، فجئ به، ثم أقبل يحصى جميع ما دخل في بناء الطاق من الآجر والجلس، ولم يزل كذلك حتى فرغ منه في يومه وبعض اليوم الثاني، فدعا المسيب فقال له: ادفع إليه آجرة على حسب ما عمل معك، فحاسبه المسيب فأصابه خمسة دراهم، فاستكثر ذلك المنصور، وقال: لا أرضى بذلك، فلم يزل به حتى نقصه درهما، ثم أخذ المقادير، ونظر مقدار الطاق من الحجر حتى عرفه، ثم أخذ الوكيل والمسيب يحملان التفتات، وأخذ معه الأمناء من البنائين والمهندسين حتى عرفوه قيمة ذلك، فلم يزل يحسبه شيئا شيئا، وحلمهم على ما رفع في آجرة بناء الطاق، فخرج على المسيب بما في يده ستة آلاف درهم ونيف، فأخذ بها واعتقله، فما برح من القصر حتى أداها إليه.

وكان المنصور حريصا على جمع المال، كما كان أحرص من على إنفاقه، وكان ينفب عليه الشح، حتى ضرب المثل بشحه وحرصه، فسمى أبا الدوانيق، والمنصور الدوانيق، لتشدده في محاسبة المال والصناع على الحبة والدناق، وهو مقدار لا يزيد على سدس درهم، فإنه لما بنى مدينة بغداد كان ينظر في العبارة بنفسه، فيحاسب الصناع والأجراء، فيقول لهذا: أنت نمت القافلة، ولهذا: أنت لم تبكر إلى عملك، ولغيره: أنت أنصرفت ولم تكمل اليوم، فيعطى كل واحد منهم بحسب ما عمل في يومه، فلا يكاد يعطى آجرة يوم واحد.

وقال المسعودي^(١): وكان من الحزم، وصواب الرأي، وحسن السياسة، على ما تجاوز كل وصف. وكان يعطى الجزيل والخطير ما كان إعطائه حزما، ويتمتع الحقيير اليسير ما كان إعطائه تضييما، وكان كما قال زياد: لو أن عندي ألف بعير، وعندى بعير أجرب، لقمت عليه قيام من لا يملك غيره. وخلف ستائة ألف ألف درهم، وأربعة عشر ألف ألف دينار. وكان مع هذا بض بماله، وينظر فيما لا ينظر فيه العوام، ووافق صاحب مطبخه على أن له الرموس والأكروج والجلود، وعليه الخطب والتوابل.

وقد وصف صاحب الفخرى المنصور في هذه العبارة فقال^(٢): كان المنصور من عظماء الملوك وحزماتهم، وعقلاهم وعلماهم، وذوى الآراء الصائبة منهم، والتدبيرات السديدة؛

وقورا شديد الوقار ، حسن الخلق في الخلوة ، من أشد الناس احتمالا لما يكون من عبث أو مزاح ؛ فإذا لبس ثيابه وخرج إلى المجلس العام ، تغير لونه ، واحمرت عيناه ؛ وانقلبت جميع أوصافه . قال يوما لبنيه : يا بني إذا رأيتموني قد لبست ثيابي ، وخرجت إلى المجلس ، فلا يدنوني أحد مني ، مخافة أن أعره بشي . قالوا : وكان المنصور يلبس الخشن ، ورمارقع قيصه ، وقيل ذلك لجعفر بن محمد الصادق عليهما السلام ، فقال : الحمد لله الذي ابتلاه بفقر نفسه في ملكه ، قالوا : ولم يكن يرى في دار المنصور لهو ولعب ، أو ما يشبه اللهو واللعب .

وذكر الطبري (١) أن المنصور ولي رجلا من العرب حضرموت ، فكتب إليه وإلى البريد : إنه يكفر الخروج في طلب الصيد ، بزيارة وكلاب قد أعدما ، فعزله . وكتب إليه : ثكلتك أمك ، وعدمتك عشيرتك ، ما هذه العدة التي أعددتها للثكابة في الوحش ؟ إنا إنما استكفيناك أمور المسلمين ، ولم نستكفك أمور الوحش ، سلم ما كنت تلى من عملنا إلى فلان بن فلان ، والحق بأهلك ملوما مدحورا .

وقد عرف المنصور بالفصاحة في القول ، والإبانة عن مقصده ، فقد روى الطبري (٢) في حوادث سنة ١٥٠ هـ ، أنه خطب ببغداد في يوم عرفات ، فقال : أيها الناس ، إنا أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتسديده ، وأنا خازنه على دينه ، أحمل بمشيئته ، وأقسمه بإرادته ، وأعطيه بأذنه ، قد جعلني الله عليه قفلا ، إذا شاء أن يفتحن لأعطيائكم ، وقسم فينكم وأرزاقكم فتحني ، وإذا شاء أن يقفلني أقفلني ، فارغبوا إلى الله أيها الناس ، وسلوه في هذا اليوم الشريف ، الذي وهب لكم فيه من فضله ، ما أعلمكم به في كتابه إذ يقول تبارك وتعالى : اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً — أن يوفق للصواب ، ويسد ذكي للرشاد ، ويلبني الرأفة بكم ، والإحسان إليكم ، ويفتحني لأعطيائكم وقسم أرزاقكم بالعدل عليكم ، إنه سميع قريب .

كذلك روى المسعودي (٣) أن المنصور خطب الناس بعد قتل أبي مسلم ، فقال : أيها الناس ، لا تخرجوا عن أنتم الطاعة ، إلى وحشة المعصية ، ولا تسيروا غش الأئمة ؛ فإن من أسر غش إمامه ، أظهر الله سريره في فئات لسانه ، وسقطات أفعاله ، وأبداها الله لإمامه ، الذي يادر بأعزاد دينه به ، وإعلاجه بفتاحه . إنا لم ننبهخسكم حقوقكم ، ولم نبخس الدين حقكم عليكم . إنه من نازعنا هذا القميص ، أو طأناه ما في هذا القميص ، وإن أبا مسلم بايعنا وبأيع لنا ، على أنه من نكث بيميننا ، فقد ألجأ دمه لنا ، ثم نكث بنا هو ، لحكمنا عليه لا نغشنا حكمه على غيره لنا ، ولم تمنعنا رعاية الحق ، من إقامة الحق عليه .

إلا أنه يؤخذ على المنصور ميله لسفك الدماء ، وإن لم يكن قد بلغ في ذلك ما بلغه أخوه أبو العباس من قبله . وما يؤخذ عليه أيضا غدره بمن أمته ، الأمر الذي يحط شأنه في نظر التاريخ .

قد غدر غدرات ثلاثا: غدر بآبِ هُبَيْرَة وقد أعطاه الأمان ، ولم يبد منه ما يدعو إلى الفتك به ؛ وغدر بعمه عبد الله بن علي بعد أن آمنه ؛ وغدر بأبي مسلم بعد أن طمأنه .

وما يدل على ميله إلى انتهاك حرمة المهود معاملته لزوجه ، وكان قد تعهد لها ألا يتزوج عليها ، وشهد الشهود بذلك ، فلما ولّى الخلافة ، أخذ يستفتى الفقهاء والقضاة في الأمصار الإسلامية ، في فسخ ذلك العقد ، لولا أن وافاها الأجل بعد عشرين سنة من خلافته ، ولا يظن ما ينطوى تحت هذا العمل من محاولة تعريض فقهاه لمخالفة ضمائرهم ، وعدم رعاية ذمهم (١) .

وفاة المنصور :

ذكر الطبري (٢) في سبب وفاة المنصور ، أنه خرج سنة ١٠٥٨ مشيعا لابنه المهدي ، حين وجهه إلى الرقة ، فشجّ فبا بين حاجبيه ، وصرّخ من يومه . وأضاف الطبري إلى ذلك أن المنصور كان يكثر من الطعام ، ولا يعمل بنصيحة الأطباء ، حتى أدى ذلك إلى اشتداد علته ، وأودى بحياته . وقد روى علي بن محمد بن سليمان التوفلي عن أبيه قال : كان المنصور لا يستمرى طعامه ، ويشكو ذلك إلى المتطببين ، ويسألهم أن يتخذوا له الجوارشنت ، فكانوا يكرهون ذلك ، ويأمرونه أن يقلل من الطعام ، ويتبرونه أن الجوارشنت تهضم في الحال ، وتحدث من العلة ما هو أشد منه غلبة ؛ حتى قدم عليه طبيب من أطباء الهند ، فقال له كما قال له غيره ، فكان يتخذ له سوفا جوارشنا يابس ، فيه الأفاوية والأدوية الحارة ، فكان يأخذها ، فيهضم طعامه . قال التوفلي : قال لي كثير من متطبي العراق : لا يموت والله أبو جعفر أبدا إلا بالبطن . قال : قلت له وما عليك ؟ قال : هو يأخذ الجوارشن ، فيهضم طعامه ، ويخلف من زرقته معدته كل يوم شيئا وشعم مصاربه ، فيموت ببطنه . وقال لي : أضرب لذلك مثلا : أرايت لو أنك وضعت شجرا على مرتفع ، وضعت تحتها آجرة جديدة فقطرت ، أما كان قطرها ينقش الآجرة على طول الدهر ؟ أو ما علت أن لكل قطرة حدا ؟ قال كثير : فأت والله أبو جعفر كما قال (يعني التوفلي) بالبطن .

وروى الطبري (٣) في سبب موته أيضا قال : قال بعضهم : كان له وجهه الذي مات فيه ، حمر أصابه من ركوبه في الهواجر ، وكان رجلا محرورا على سنه ، يلبغ عليه المزارع الأحمر ؛ ثم حاض بطنه ، فلم يزل كذلك حتى نزل بستان ابن عامر ، فاشتد به (أي وجعه) فرحل عنه ، ففصر عن مكة ، ونزل بئر ابن المرتفع ، فأقام بها يوما وليلة ، ثم صار منها إلى بئر ميمون ، وهي على بعد ستة أميال من مكة ، وهو يسأل عن دخول الحرم ، ويوصي بالرياح بما يريد أن يوصيه به ؛ وتوفي به في السحر أو مع طلوع الفجر ، ليلة السبت لست خلون من ذي الحجة ، سنة ثمان وخمسين ومائة . واختلف المؤرخون في مبلغ سنه حين توفي : فقال بعضهم إنه كان

(١) الطبري ج ٩ ص ٣٠٩ . (٢) ج ٩ ص ٢٩١ - ٢٩٢ . (٣) ج ٩ ص ٢٩٢ .

في الثالثة والستين ، وقال بعض إنه كان في الرابعة والستين ، وقال بعض آخر إنه بلغ الخامسة والستين ، وذهب بعض إلى أنه بلغ الثامنة والستين ^(١) .

وقد ذكر صاحب مختصر تاريخ الخلفاء ^(٢) (ورقة ٣٠ ب) أن المنصور لما قُرب من مكة ، رأى على جدار حائط هذين البيتين وهما :

أبا جعفرٍ حانت وفاتك وانقضت سنوك وأمر الله لا بدّ واقع
أبا جعفرٍ هل كاهنٌ أم منجمٌ لك اليوم من رَيْبِ المنية دافع ^(٣)

ولما قرأ المنصور هذين البيتين أيقن بانقضاء أجله ، فمات بعد ثلاثة أيام .

ولم يحضر عند وفاة المنصور إلا خدمه ، ومولا الربيع بن بونس ، فكتم الربيع موته ، ومنع النساء وغيرهن من البكاء والصراخ عليه ، ولما أصبح الصباح ، وشاع نبأ موته ، حضر أهل بيته ، وجلسوا بمجالسهم . وجاء بعض العلويين وغيرهم ، وملئوا السرايق التي ضرب له ، ثم خرج الربيع إليهم ، وفي يده قرطاس ، ففضّه وقرأ ما فيه ، فإذا به : « بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله المنصور أمير المؤمنين ، إلى من خُلف من بني هاشم ، وشيعته من أهل خراسان ، وعامة المسلمين ، ثم رعى القرطاس من يده وبكى ، فابتنى الناس ثم تناول القرطاس ، وقال : قد أُنكسْتُم البكاء ، ولكن هذا عهد عهده أمير المؤمنين ، لا بد من أن تقرأوا عليكم ، فأنصتوا ورحمكم الله ، فسكت الناس ، ثم قرأ : أما بعد ، فإني كتبت كتابي هذا وأنا حي في آخر يوم من الدنيا ، وأول يوم من الآخرة ، وأنا أقرأ عليكم السلام ، وأسأل الله أن لا يفتشيتكم بعدى ، ولا يلبسكم شيعاً ، ولا يذيق بمتعتكم بأسٌ بعض . يا بني هاشم ، وبأهل خراسان ، ثم أخذ في وصيتهم بالمهدى ، وإذكارهم البيعة له ، وحضهم على القيام بدولته ، والوفاء له إلى آخر الكتاب ^(٤) . عند ذلك أذن للأُكابر وذوى الأسنان من أهل البيت ، ثم لعائمتهم . فأخذ الربيع يبعثهم لأمير المؤمنين المهدى بن المنصور ، ولعيسى بن موسى من بعده . ثم دعا بالقواد ، فبايعوا ، وخرج موسى بن المهدى إلى مجلس العامة ، فبايع من بقى من القواد والوجوه ، وتوجه العباس بن محمد ، ومحمد بن سليمان إلى مكة ، فبايع الناس للمهدى بين الركن والمقام ، وكانوا كثيرين من أهل مكة والمدينة ، فمن حضروا موسم الحج .

من ذلك نرى أن المهدى قد بويع البيعة الخاصة بمكة ، ثم بايعه البيعة العامة ببغداد أفراد البيت العباسي ، وقواد الجيش وغيرهم من رجال الدولة ، وذلك في ١٨ ذى الحجة سنة ١٥٨ هـ .

(١) الطبري ج ٩ ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

(٢) ألف هذا الكتاب حول أواخر القرن الثامن الهجري ، ولا يعرف مؤلفه إلى الآن .

(٣) ورد الشطر الثاني من هذا البيت في مروج الذهب للمسعودي (ج ٢ ص ٢٤٥) :

يرد قضاء الله أم أنت جاهل . (٤) الطبري ج ٩ ص ٣٢٣ — ٣٢٤ .

المهدي

١٥٨ - ١٦٩ هـ = ٧٧٥ - ٧٨٥ م

هو محمد بن عبد الله المنصور ، وأمه أروى بنت منصور بن عبد الله الجعفي ، من حمير التي ملكت اليمن زمنا طويلا .

ولد محمد المهدي سنة ١٢٦ هـ بالحيلة ، ونشأ في بيت الخلافة ، وعنى أبوه المنصور بتثقيفه ، وعهد به إلى المفضل الضبي ، فعلمه تعليما عربيا ، وجمع له أمثال العرب ومختار شعرهم ، قال إلى العلم والأدب ، وعكف على حفظ أيام العرب ومكارم الأخلاق ، ودراسة الأخبار والأشعار ، فنشأ فصيحاً ، يقول الشعر ويحمده ، ويحفظ كثيرا منه ومن أمثال العرب (١) . وكان المهدي — على ما وصفه صاحب الفخرى (٢) — شهما فطنا كريما ، شديدا على أهل الإلحاد والزندقة ، لا تأخذه في إهلاكمهم لومة لائم . وكانت أيامه شديدة بأيام أبيه في الحوادث ، وكان يجلس في كل وقت المظالم ، كما كان ذكيا فصيحاً بعيد الهمة سديد الرأي ، نقيب الفكر ، قوي البيان ، فصيح اللسان . عالما بضرور السياسة وفتونها ، بما الله لأن سبيل أمور المسلمين . وكان أبوه المنصور يعرف فيه هذه السجايا ، فكان إذا دخل عليه في مجلسه أنشعه بصره ، لحبه له ، وإعجابه به ، وزوده نصائحه .

كان المهدي في العاشرة من عمره حين آلت الخلافة إلى أبيه المنصور . ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره ، أرسله أبوه على رأس جيش كبير للقضاء على فتنة عبد الرحمن بن عبد الجبار الأزدي وإلى خراسان ، وجعل في مقدمة الجيش قائدا من أمهر قواده هو خازم بن خزيمة . ثم أرسل المهدي خازم بن خزيمة على رأس جيش من أهل خراسان ، فقصى على ثورة الأشعرية والى طبرستان ، وأسرايته . كما استعان أبو جعفر المنصور بابنه المهدي في القضاء على فتنة أستاذ سيس ، الذي ادعى النبوة بخراسان ، وحاصره خازم بن خزيمة في عشرين ألف مقاتل ، وأمنه وقتل سبعين ألفا من رجاله (٣) .

وفي سنة ١٥٣ هـ ولي المنصور ابنه المهدي إمارة الحج (٤) . ولما بوبع المهدي البيعة العامة وتقبل عزاء الناس بوفاته أبيه ، وتنهت لهم باعلائه العرش ، كان أبودلالة الشاعر أول من هنأ بالخلافة ، وعزاه بوفاته أبيه في قصيدة رائعة . وكان لسان حاله يقول : مات الخليفة ، يحيا الخليفة ، كما يقولون الآن ، مات الملك يحيا الملك ؛ وإليك

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ٥ ص ٣٩١ ، المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٢ .

(٢) ص ٦١ . (٣) الطبري ج ٩ ص ٢٧٦ — ٢٧٨ .

(٤) الطبري ج ٩ ص ٢٨٤ .

بعض آيات من هذه القصيدة نقلا عن الخطيب البغدادي (١).

عيسى واحدة ترى مسرورة بأمرها جندى ، وأخرى تذرف
تسبى وتضحك تارة ، ويسودها ما أنكرت ويسرها ما تشرف
فيسودها موت الخليفة مشجرا ويسرها أن قام هذا الأراف
ما إن رأيت كما رأيت ولا أرى شسرا أرجه وآخر ينف
هلك الخليفة يال أمة أحمد وأنا كم من بعده من يخلف
أهدى لهذا الله فضل خلافة ولذلك جنات النعيم تزخر
ولما تمت البيعة العامة نادى المنادى : الصلاة جامعة ! وخطب المهدي خطبة ، عرّف فيها
عن عظم المسؤولية التي ألغاها موت أبيه على عاتقه ، ونعى أبيه في هذه الكلمات القصيرة ، فقال :
« إن أمير المؤمنين عبد عى فأجاب ، وأمر فأطاع . واغرورقت عيناه فقال : إن رسول
الله صلى عليه وسلم قد بكى عند فراق الأحبة . ولقد فارقت عظيما . وفقدت جسما ، وعند الله
أحتسب أمير المؤمنين ، وبه عز وجل استعين على خلافة المسلمين » (٢) ثم تفرق الدمع
في عين المهدي ، ولم يتمكن من إطالة الخطبة ؛ لما كان يشعر به من شدة الحزن على وفاة أبيه .
إصلاحات المهدي :

قضى المهدي في الخلافة زهاء عشرين ، تعتبر فترة انتقال بين عهد الشدة والقمع ، الذي
ساده من سبقه من خلفاء بني العباس ، وعهد الاعتدال واللين ، الذي امتازت به أيامه
وأيام من أتى بعده . وقد ذكر المؤرخون أنه رد الأموال التي صادرها أبوه إلى أهلها ، وأطلق
العلويين الذين حبسهم أبوه ، وعفا عنهم ، وأرد عليهم الأرزاق (٣) ، وبادر إلى رد نسب
أبي بكر (٤) وآل زياد (بن أبيه) .

وقد بدأ المهدي عهده بسلسلة من ضروب الإصلاح ، واستعان في ذلك بما تركه له أبوه من
بيت مال عامر ، يكفي الدولة عشر سنين كاملة ، كما وفق إلى القضاء على الزنادقة وغيرهم ، من
الخوارج عليه وعلى الدين .

فن أعماله أنه أمر بالافراج عن المسجونين ، إلا أكثرهم شرأ وفساداً ، وبني الأبنية في

(١) تاريخ بغداد ج ٥ ص ٣٩٢ .

(٢) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ج ٥ ص ٣٩٢ . (٣) تاريخ البيهقي ج ٢ ص ٤٧٥ .

(٤) وهو أخو زياد بن أبيه لأمه . وكفى أبا بكر لأنه كان ممن نزل يوم الطائف إلى الرسول من
حصن الطائف في بكرة ، فأسلم وكفى أبا بكر ، وأعطه الرسول ، وأخذ مولى له . وكان أبو بكر
يقول : أنا من إخوانكم في الدين ، وأنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وإن أبي الناس أن
ينسبوني فأنا ضيع بن مسروح : (أسد الغابة في معرفة الصحابة) لابن الأثير ج ٥ ص ١٥١ . انظر
أيضا نسخة كتاب المهدي إلى والي البصرة في رد آل زياد إلى نسبهم في الطبري ج ٩ ص ٣٣٥ - ٣٣٦

طريق مكة ، وزاد على ما كان قد بناه أبوه في الجهات الأخرى ، كما بنى الأحواض التي تملأ من الآبار لسقاية القوافل ، وأجرى على أهل السجن وعلى المجذمين ، حتى يمتنعوا عن السؤال ، ويحول دون انتشار الأمراض . وزاد في المسجد الحرام ، غير أنه سماه الوليد بن عبد الملك من حائط الحرم ، وكتب اسمه بدله . وجدد الأميال ، وأقام البريد بين مكة والمدينة واليمن ، وأدخل عليها ضربوا من التحسين ، وعين الأمناء في الولايات ، ليوافوه بأخبار الولاية ، فساد العدل ، وعم الرخاء جميع أرجاء الدولة .

وقد حصن المهدي المدن ، وخاصة مدينة الرصافة ، وصارت بغداد في عهده مركزاً لتجارة العالم ، وغدت الموسيقى والشعر والحكمة والأدب من يُميّزات هذا العصر . وسن المهدي سنة كسو الكعبة بكسوة جديدة في كل عام ، بعد أن كانت توضع الكسوات بعضها فوق بعض ، وسارع ذلك من جاء بعده من الخلفاء . وكان المهدي يميل إلى السنة ، فنزع المقاصير في صلاة الجمعة ، وصيّر المنبر على التقدر الذي كان عليه منبر الرسول .

الفن والثورات :

وفي عهد المهدي خرج عبد الله بن مروان بن محمد الأموي يبلد الشام سنة ١٦١هـ ، وحلت به الهزيمة وحبس ، ثم عفا المهدي عنه ، ووسع عليه الأرزاق . ثم خرج في السنة التالية عبد السلام ابن هشام البشكري في الجزيرة ، واشتدت شوكته ، وكثر أتباعه ، وعاث في الأرض فساداً ، ولكنه هزم وقتل في قنسرين^(١) ، كما خرج بالموصل رجل من بني تميم يدعى يسن ، واستولى على أكثر ديار ربيعة ومصر ، فحلت به الهزيمة . كذلك ثار أهل الحووف في مصر (بالقرب من بلبس) سنة ١٥٨هـ ، وقتلوا عامل المهدي ، الذي ندب لقتالهم الفضل بن صالح بن علي العباسي ، ولكنه وصل إلى مصر بعد وفاة المهدي ، وأحل بهم الهزيمة .

وكانت أشد الثورات بأساً وأكثرها خطراً ، هذه الثورات التي أذكي نيرانها الزنادقة ، الذين تبعوا تعاليمهم عن الاسلام وعقائده ، وتقوم على نوع من الديمقراطية الفاسدة ، التي تبيع المحرمات ، وتبث بالآداب الاجتماعية والزوجية المريعة ، وتعرض الحياة السياسية والدينية للخطر .

صفات المهدي :

قال المسعودي في كتابه « مروج الذهب »^(٢) : « وكان المهدي محباً إلى الخاص والعام ، لأنه اقتح أمره بالنظر إلى المظالم ، والكف عن القتل ، وأمن الخائف ، وإنصاف المظلوم ،

(١) الطبري ج ٩ ص ٣٤١ .

(٢) ج ٢ ص ٢٤٨ — ٢٤٩ .

وكسبته يده في الإعطاء ، فأذهب جميع ما خلقه المنصور ، وهو ستائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف دينار ، سوى ما جهاه في أيامه . .

وكان من خلق المهدي الحياء والعفو والجود والحلم ، ولم يكن يشرب النبيذ ، وإنما أجهزه لجلسائه وسفاره . وكان يتأثر بالقرآن ، كما اتصف بالعدل ، وجلس للظالم بنفسه ، وبين يديه القضاة . وقد بلغ من حبه للعدل ، وميله إلى رد المظالم لأصحابها ، أنه كان يقول إذا جلس : « أدخلوا على القضاة ؛ فلم يكن ردى للظالم إلا للحياء منهم لكفى » .

وعما يدل على عدله ما قاله مسعود بن مساور ، وقد ظله وكيل المهدي وعصيته ضيعته ، فأقضى صاحب المظالم ، وأعطاه رقعة أوصلها إلى المهدي وعنده القاضي ، فأمر المهدي بإدخاله ، وسأله عن مظلته ، فأخبره ، فقال للقاضي ، إن هذا ظلمي في ضيعتي ، مشيراً إلى المهدي ، فقال القاضي : ما تقول يا أمير المؤمنين ؟ قال ضيعتي في يدي . فقال ابن مساور : « أصلح الله القاضي سله صارت » إليه الضيعة قبل الخلافة أو بعدها ؟ فقال المهدي : بعد الخلافة ، فقضى القاضي للمهدي ، فطعن المهدي لحكم القضاء (١) .

وفاة المهدي :

قال صاحب الفخرى (٢) : « د فقيـل إنه طرد غلبيا في بعض متصيدياته ، فدخل الغلي إلى باب خربة ، فدخل فرس المهدي خلفه ، فدفقه باب الخربة فقطع ظهره ، فمات من ساعته . وقيل إن بعض جواربه جعلت سجا في بعض المأكـل لجارية أخرى ، فأكل المهدي منه ، وهو لا يعلم ، فمات . وذلك في سنة تسع وستين ومائة . وقال أبو العتاهية يصف جواربه وقد برزن بعد موته وعليهن المسوح :

رُحْنٌ فِي الْوَشْيِ وَأَقْبَلْنَ كَلْبَيْنِ الْمَسُوحِ
كُلُّ نَطَاحٍ مِنَ الدَّهْرِ لَهُ يَوْمٌ نَطُوحِ
لَسْتُ بِالْبَاقِي وَلَوْ عَشَّيْتُ مَا عُمِّرْتُ نَوْحِ
فَعَلَى نَفْسِكَ نَحْ إِنْ كُنْتُ لَا بَدَّ تَنُوحِ

المهادي

(١٦٩ - ١٧٠ = ٧٨٥ - ٧٨٦ م)

كان موسى المهادي أكبر من أخيه هارون ، وقد ولاه أبوه عهده ، وعهد هارون بالخلافة من بعده ، ثم فكر في تقديمه عليه ، بسبب إيثاره إياه ، ومشاركته أمه الخيزران له في محبته ،

لولا أن عاجلته المنية . وكان هارون من العقل بحيث لم يتردد في البيعة لأخيه ، حين سمع بوفاته . وقد قضى الهادي قبل أن يعتلي عرش الخلافة أكثر أيامه في بلاد المشرق ، وأتته البيعة وهو يجار في طبرستان وجرجان .

وقد وصفه المسعودي^(١) فقال : « كان موسى قاسى القلب ، شرس الأخلاق ، صعب المرام ، كثير الأدب محبا له . وكان شديدا شجاعا جوادا سخيا . . . ولنا نكش في أن تربيته العربية ، وقضاه أكثر أيامه في الحرب والغزو ، كان له أثر كبير في أخلاقه وآدابه . وما يؤخذ عليه تنكيله بالعلوين ، وتمثيله بالأمويين والخوارج والزنادقة ، وأخذ أكثرهم على الظنة والرية ، وعزمه على خلع أخيه هارون من ولاية العهد ، وإسرافه في العطاء . تنكيله بالخوارج والزنادقة :

وقد ورث الهادي عن أبيه كراهيته للزنادقة ، وعمله على استئصال شأقتهم . وقد قام بوصية أبيه له بالأبش من التنكيل بهذه الطائفة ، وتطهير البلاد من رجسهم وفسادهم ، فلم يأل جهدا في الضرب على أيدي الزنادقة ، والخوارج ، الذين ثاروا في بلاد الجزيرة ، وقتل من ظفر به منهم .

ويحدثنا المسعودي^(٢) أن الهادي كان في بستانه يوما راكباً حمارا ، وقد بلغه أن رجالة ظفروا برجل من الخوارج ، فأمر بإدخاله ، فلما قرب الخارجي منه ، أخذ من أحد حراسه سيفاً ، وأقبل عليه يريد قتله ، وتحنى عنه من كان معه من رجالة . يد أن الهادي ظل في مكانه رابط الجأش ثابت الجنان ، حتى قرب منه الرجل فصاح : « اضرب عنقه » ، ولم يكن خلف هذا الخارجي أحد ، وإنما أوحى الهادي ليشتك له عنه ؛ فالتفت الخارجي وراءه ليدرا عن نفسه الخطر ، فانقض عليه الهادي ، ورمى به إلى الأرض ، وأخذ السيف من يده ، وضرب به عنقه ، ويقول المسعودي إن الهادي لم يركب بعد ذلك حمارا ، ولم يفارق حسامه .

ولم تكن كراهة الهادي للزنادقة والخوارج بأقل منها للأمويين ، ولم يكن هذا له بالاعتقاده بأن أهل بيته لم يثأروا من الأمويين بما يشقى غليلهم ، ويثلج صدورهم^(٣) . عزمه على خلع أخيه هارون :

اقتدى الهادي بما فعله أبوه مع عيسى بن موسى ، وعزم على خلع أخيه هارون والبيعة لابنه جعفر ، وشجعه على ذلك رجال بلاطه . يد أن يحيى بن خالد بن برمك نصح له بأن يعدل عن هذا الأمر ، لصغر سن ابنه جعفر ، واحتراما للعهد الذي أخذه على نفسه حين ولاه أبوه عهده ، ودرأ لما عسى أن يقوم به أهل بيته من انتزاع الخلافة من ابنه إذا آلت إليه قبل بلوغه

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٥ . (٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٥ — ٢٤٦ .

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٨ .

سن الرشد ، وأشار عليه بأن يترشح في هذا الأمر ، حتى يكبر ابنه ويطلب من أخيه هارون التزول له عن الولاية . فاستمع إلى مقاله يحيى البرمكي للتليفة الهادى : يا أمير المؤمنين ، إن فعلت حملت الناس على نكث الأمان ، ونقض العهود ، وتجراً الناس على مثل ذلك ، ولو تركت أخاك هارون على ولاية العهد ، ثم بايعت جعفر بعده ، كان ذلك أوكد في بيعته . وكان من أثر هذه النصيحة أن عدل الهادى عن رأيه مدة ، ثم غلب عليه حبه لولده . وإيناره على أخيه ، فأحضر يحيى وفارقه في خلع أخيه ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، لو حدث بك حادث الموت ، وقد خلعت أخاك ، وبايعت لابنك جعفر وهو صغير دون البلوغ ، أقرى كانت خلافته تصح ؟ وكان مشايخ بنى هاشم يرضون ذلك ، ويسلبون الخلافة إليه ؟ قال لا ، فقال يحيى : فدع هذا الأمر حتى تأتبه عفواً ، ولو لم يكن المهدي بايع هارون ، لوجب أن تابع أنت له لثلاث نخرج الخلافة من بني أبيك ^(١) . إلا أن الهادى لم يحفل بهذه النصيحة ، وزج بالبرمكي في غيابة السجن ردحا من الزمن وهم يقتله .

أما هارون فكان يميل إلى إجابة أخيه بعد أن ضيق عليه واضطهده ، وحط رجال بلاطه من شأنه ، فأشار عليه يحيى البرمكي أن يستأذن أخاه في السفر ، طلباً للعصيد ، فأذن له ؛ وطال غيابه حتى أخذ الهادى يبلغ عليه في العودة ، ويبالغ في تحقيره وإهائته ، وهو يتنحلل من الأعداء ما يطيل بقاءه ، حتى آتاه نعيه والبيعة له . ولقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن عزم الهادى على إخراج هارون من ولاية العهد ، دفع بامه الخيزران إلى السعى في موته ، وإن كنا نشك في ذلك .

على أن مما يسترعى النظر ، أن العداء كان مستحكماً بين الهادى وأمه ، وأن هذا العداء قد ظل على شدته إلى يوم وفاته ، حتى ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن أمه دست بعض جوارها لقتله . ذلك أن الخيزران كانت لها الكلمة النافذة في عهد المهدي ، فكانت تأمر وتنهى حتى كان الناس يتوافدون على دارها ، ويلجئون إليها لقضاء حاجاتهم .

فلما ولي الهادى الخلافة ، وكان شديد الغيرة على النساء ، كره ذلك ، ونهى أمه عن فعله . هذا ما ذكره لنا صاحب الفخرى ^(٢) . ويزيد المسعودى ^(٣) هذه المسألة بياناً فيقول ، إن الهادى كان كثير الطاعة لأمه ، وكان يجيبها إلى ما تسأله من قضاء الحاجات ، فسأته يوماً بقضاء مسألة رجل لم يجد إلى قضائها سبيلاً ، فألحت في الطلب ، وقامت مئضبة ، فقال لها متهدداً متوعداً : لئن بلغتني أنه وقد يبايك أحد من قوادى أو من خاصتى أو من خدى ، لأضربن عنقه ، ولأقبضن ماله ، فمن شاء فليؤزم ذلك . ما هذه المواكب التي تندو وتزوح إلى بابك كل يوم ؟ أما لك مغزلة بشملك ، أو مصحف بكرك ، أو بيت بصونك ؟ إياك أن

(١) الفخرى ص ١٨٠ . (٢) ص ١٧٣ . (٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦١ .

تفتحي فاك في حاجة لمسلم ولا ذى (١) . ثم قال لأصحابه : أيما خير أنا وأمي أم أتم وأمهاتكم ؟ قالوا : بل أنت وأمك ، قال : فأياكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه ، فيقال فعلت أم فلان ، وصنعت أم فلان ؟ قالوا لا تحب ذلك . قال : فما بالك تأتون أمي فتحدثوا بحديثها ؟ فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها (٢) .

لهذا لا نحب إذا أثار هذا القول خفيضة الخيزران ، وكرهتها لابنها الهادي ، فأضمرت له السوء ، وكان لهذه الإهانة نتائجها ، فانقطع الناس عن سؤالها ، والتردد على دارها ، مما حدا ببعض المؤرخين على القول إن الهادي بعث لأمه بطعام مسموم ، فلم تأكل منه ، وأطعمته هرة فماتت . وإن صح ذلك ، جاز أن نأخذ بما ذهب إليه المؤرخون من أن موت الهادي كان بتدبير أمه ، وإن كنا نشك في ذلك كما تقدم .

وفي رأينا أن الهادي قد أحسن فيما فعل ، صيانة لأمه ، وحفظا لكرامتها وحسن سمعتها ، وهذا بين من قوله لما حين حضرته الوفاة ، وقد بعث في طلبها لما اشتد عليه المرض : « وقد كنت أمرتك بأشياء ، ونهيتك عن أخرى ، مما أوجبته سياسة الملك ، لا موجبات الشرع من ربك ، ولم أكن بك عاقا ، بل كنت لك صائنا ، وبارا واصلًا » (٣) .

أخلاقه وصفاته :

اشتهر الهادي بالإصراف في المعطاء . فقد ذكر المسمودي (٤) أنه قال يوما : « كأتى بك قد تحدثت نفسك بتعام الرؤيا » (٥) وتوكل ما أنت عنه بعيد ، ومن دون ذلك خرط القتاد . فقال له هارون : يا أمير المؤمنين ، من تكبر وضع ، ومن تواضع رُفع ، ومن سَظلم سُخِذ ، وإن وصل الأمر إلى وصلت من قطعت ، وبررت من حرمت ، وصيرت أولادك أعلى من أولادى ، وزوجتهم بناتى ، وقضيت بذلك حق الإمام الهدى . وقد أثر هذا الكلام العذب في نفس الهادي وأطلقا نائرة غصبه فبرقت أسارير وجهه سرورا ، وقال لأخيه : « ذلك الظن بك يا أبا جعفر ، أدنى منى » . فقام هارون فقبل يده ، ثم ذهب ليعود إلى مجلسه ، فقال الهادي : « والشيخ الجليل ، والملك الثليل ، لأجلست لإلا معى في صدور المجلس ، ثم أمر خازن بيت المال أن يحمل إلى هارون ألف دينار وخمسمائة ألف إذا وفى زمن الخراج . ولما أراد هارون الخروج قدمت دابته حتى وصلت إلى بساط الخليفة .

(١) المسمودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٧ — ٢٥٨ والطبرى ج ١٠ ص ٣٣ .

(٢) الفخرى ص ١٧٣ . (٣) المسمودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦١ .

(٤) ج ٢ ص ٢٦١ — ٢٦٢ .

(٥) قيل إن الهدى رأى في منامه ، كأنه دفع إلى الهادي قضيبا وإلى الرشيد قضيبا : فأما قضيب الهادى فأورق أعلاه قليلا ، وأما قضيب الرشيد فأورق من أوله إلى آخره . فلما قس الرؤيا قبل له إيهما على كان ، فأما الهادى فقتل أيامه ، وأما الرشيد فتطول ، وتكون أحسن الأيام ، ودهره أزهى الدهور .

وبما يدل على إصراف الهادى فى العطاء هذه الحركات التى يقصها علينا المسعودى ، وهى أنه أمر بسيف عمرو بن معد يكرب الصمصامة ، فوضع بين يديه ، وأتى بمكسك^(١) ، وأمر حاجبه أن يأذن للشعراء فى الدخول عليه ، فلما دخلوا ، أمرهم أن يقولوا فى هذا السيف شعراً ، فبدأ ابن يامين البصرى وقال أيا نأمتا :

حازَ صمصامةَ الزيدى عمرو من جميع الأنام موسى الأمين
سيف عمرو وكان فيما سمعنا سحرَ ما أغمدت عليه الجفونُ
أوقدت فوقه الصواعقُ ناراً ثمَّ شابت فيها الزعاف المنون^(٢)
وإذا ماشه رنه تبهَّرُ الشمسُ ضياءً فلم تنكد تسبين
وكان الفردند والجوهر الجا رى فى صفحته ماءً ممين
ما يابل إذا الضريبة خانت أشمالاً نطت به أم يمين

فقال له الهادى : لك السيف والمكسك ، فأخذهما ، وفرق المكسك على الشعراء . ثم بعث إليه الهادى واشترى منه السيف بخصمين ألفاً .

وفاة الهادى :

ولم تطل خلافة الهادى ، فقد توفى ببغداد لاثنتى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ بعد أن ظل فى الخلافة تسعاً وشهراً واثنتين وعشرين يوماً . ويقول صاحب الفخرى^(٣) : « والبلية أتت مات فيها ، هى ليلة مات فيها خليفة » ، وجلس خليفة ، وولد خليفة : وقد كانوا يحدِّثون أنه سيكون ليلة كذلك . فالخليفة الذى مات هو الهادى ، والذى جلس فيها على سرير الخلافة هو الرشيد ، والذى ولد هو المأمون . »

وقد ذكر المسعودى^(٤) فى موت الهادى : وسنح للهادى الخروج نحو بلاد الحديثة^(٥) ، فمرض هناك وانصرف ، وقد ثقل فى العلة ، فلم يجسر أحدهن الناس من الدخول عليه إلا صغار الخدم . . ويقال إنه أوقف بين يديه رجلاً من أولياء الدولة ذا أجرام كثيرة ، فجعل الهادى يذكره ذنوبه ، فقال له الرجل : يا أمير المؤمنين اعتذارى بما تفرغنى به ردَّ عليك ، وإقرارى بما ذكرت يوجب ذنباً ، ولكننى أقول :

فإن كنت ترجو فى العقوبة راحة فلا ترهطن عند المصافاة فى الأجر

(١) المكسك شبه الزنبيل حصة عمر صاماً ، والداع أربعة أشتاد والمشد يكبال ، وهو رطل وثقت عند أهل الحجاز ، ووطلان عند أهل العراق . (٢) الزعاف الشديد .

(٣) ص ١٧٤ . (٤) ج ٢ ص ٢٦١ .

(٥) ذكر ياقوت فى معجمه أنها سميت بذلك لما أحدث بناؤها ، وهى فى عدة مواضع . فيها حديقة الوصل ، وحديقة الفرات . والحديثة أيضاً من قرى غوطة دمشق ، ويقال لها حديقة جرش .

هارون الرشيد

١٧٠ - ١٩٣ هـ = ٧٨٦ - ٨٠٩ م

يعتبر هارون الرشيد أشهر خلفاء بني العباس؛ فقد بلغت بغداد في عهده درجة لم تصل إليها من قبل، فأصبحت مركز التجارة، وكنية رجال العلم والأدب. واشتهر اسم الرشيد في بلاد الغرب، لما كان بينه وبين شلمان ملك الفرنجة من العلاقات السياسية، وأواصر الود والصفاء. وعما زاد في ذبوع شهرته بين أمم الغرب كتاب ألف ليلة وليلة، الذي ترجم إلى معظم اللغات الأوروبية، حتى إنه لا تكاد تخلو منه مكتبة من مكتبات الأفراد في أوروبا وأمريكا.

ولد هارون بالري لثلاث بقين من شهر ذي الحجة سنة ١٤٥ هـ، وأمه أم ولد يمانية جرسية يقال لها الخيزران (١)، وهي أم الهادي، وفيها يقول مروان بن أبي حفصة:

يا خيزران كنهك ثم كنهك أمسى يسوس العالمين ابنك (٢)

وقد ولد الفضل بن يحيى البرمكي قبله بسبعة أيام، فأرضعت أم الفضل الرشيد، وأرضعت الخيزران الفضل بلبان الرشيد.

وقد ولاء أبوه المهدي العهد بعد أخيه الهادي، وكان يعرف فيه الذكاء والكفاية، ففكر في العدول عن عهده السابق، وهم أن يرشحه للخلافة بعده مباشرة، وساعدته على ذلك أمه الخيزران، لأنها كانت تحبه وتؤثره على أخيه الهادي، لولا أن حالت منية المهدي دون ذلك. وقد ولاء أبوه الصائفة في سني ١٦٣ و ١٦٥ هـ، فأرغم أيربني - وكانت وصية على ابنها قسطنطين السابع - على طلب الصلح، الذي انتهى بعقد هدنة بين العباسيين والبيزنطيين، أمدتها ثلاث سنين، وولاه أبوه بلاد المغرب سنة ١٦٤ هـ.

ولي هارون الرشيد الخلافة في الليلة التي توفي فيها أخوه الهادي وهي ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة بقين من شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة (٣). والليلة التي مات فيها ليلة مات فيها خليفة وجلس فيها خليفة، وولد خليفة. وقد كانوا يحدثون أن ستكون ليلة كذلك: فالخليفة الذي مات فيها هو الهادي، والذي جلس فيها على سرير الخلافة هو الرشيد، والذي ولد فيها هو المأمون (٤).

ومن المسائل التي يجب دراستها في عهد الرشيد قيام الفتن الداخلية، وخاصة في الموصل وإفريقية وإرمينية، وأثر البرامكة في الدولة، وتكبتهم على يد الرشيد، على الرغم من عملهم على تقديم الحضارة الإسلامية.

(١) الطبري ج ١٠ ص ٤٨. (٢) السيوطي تلخيص الخلفاء ص ١٨٨.

(٣) الطبري ج ١٠ ص ٤٧ - ٤٨. (٤) الفخرى ص ١٧٤.

١ - الفتن والثورات :

خرج الوليد بن طريف الشاري الشيباني على هارون الرشيد في سنة ١٧٨ هـ ، وانصر على جيوشه أكثر من مرة ، فقتل والي نصيبين ، ثم مضى إلى إرمينية وأذربيجان ، وعاث فيها فساداً ، ثم عاد إلى الجزيرة (١٧٩ هـ) ، وعبر نهر دجلة حتى وصل إلى حلوان ، واشتدت شوكته ، وكثر أتباعه ، فبعث الرشيد يزيد بن يزيد الشيباني ، ابن أخى من بن زائدة الشيباني بطل موقعة الرائدة ، كما سيأتى في الباب الثالث . وقد رمى الوليد هارون الرشيد بالجور والظلم ، وعول على التخلص من هذا الجور والظلم حين يرزق قتال يزيد بن يزيد الشيباني وارتجز :
أنا الوليد بن طريف الشاري قسوة لا يصطلي بشاري
جوكم أخرجنى من دارى

وسرعان ما حلت الهزيمة بمجد الوليد بن طريف الشيباني وقتل ، فرثته أخته الفارعة بقولها :
أيا شجر الحابور تمالك مورفا
كأنك لم تجزع على ابن طريف
فلا لأحب الزاد إلا من التقي
ولا المسال إلا من قسا وسيوف
كأنك لم تشهد هناك ولم تقم
مقاما على الأعداء غير خفيف
حليف الندى ما عاش يرضى به الندى
فإن مات لا يرضى الندى بحليف
فقدناك فقدان الشباب وليتنا
فدينك من قتياننا بألوف
عليه سلام الله وقفا فأتنى
أرى الموت وقفا بكل شريف (١)

وفى إفريقية استمرت قبائل البربر تنازع العباسيين بين سنتي ١٧٨ و ١٨١ هـ ، كما أخذت فى التقلص عن الحكم الإسلامى ، وضدت كفة النصر ترجح فى جانبهم حيناً ، وفى جانب العباسيين حيناً آخر ، حتى بعث إليهم الرشيد هرمية بن أعين على رأس جيش كثيف ، استطاع أن يقضى عليهم ، ويطحن جذوة ثورتهم . على أن هرمية رأى بثاقب نظره وطول خبرته أن فوز العباسيين على البربر لا سيال إلى تحقيقه ، لتفاقم نار العداء التى أضرمها هؤلاء البربر ، فعول على التبول عن القيادة ، وعاد إلى المشرق ، حيث البذخ والرفاهية . ثم قامت فى هذه البلاد دولة الأغالبة على يد إبراهيم بن الأغلب ، الذى ولى هذه البلاد من قبل هارون الرشيد ، لتأديب البربر ، والوقوف فى وجه الأداوسة ، إذا أرادوا الإغارة على أراضي الدولة العباسية . ولكن هذه الدولة ما لبثت أن استقلت عن الخلافة العباسية فى بغداد ، وزال عنها سلطان العباسيين ، اللهم إلا فى الإسم فقط ، وانحنت مدينة القيروان ، الواقعة فى الجنوب الغربى من مدينة تونس الحالية ، حاضرة لها ، وظلت على ذلك إلى أن استولى عليها الفاطميون سنة ٢٩٧ هـ (٢) .

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٦٣ . تاريخ الدولة العباسية للبخارى ص ١٤٢ - ١٤٣ .

(٢) Muir : The Caliphate, Its Rise, Decline & Fall, pp. 478 - 9.

وفي سنة ١٧٦ هـ تحولت المنازعات القديمة بين العنبيين والعدنانيين في سورية إلى حرب مستعرة ، وبقيت دمشق زهاء سنتين مسرحاً للانقسامات والحروب الداخلية ، ولكن هذه الحالة لم تكن مما يهتم له الخليفة ، بل نرى على العكس من ذلك أنه قد أفاد منها ، لأنها أضعفت قوة أهالي هذه البلاد ، الذين ثبت عنده عدم إخلاصهم وولائهم للعباسيين^(١). على أن الحروب التي دارت بين الفريقين قد أشتعلت نارها من جديد بعد عشرة أعوام ، فرأى الرشيد ضرورة التدخل بينهم وقضى عليهم .

ويقول الطبري^(٢) إن الرشيد ولي موسى بن يحيى بن خالد البرمكي بلاد الشام ، فأصلح بين أهلها ، وسكنت هذه الفتنة الجائحة التي وصفها أحد الشعراء بهذه الآيات :

قد هاجت الشام حينما	يشيب رأس وليده
فصبَّ موسى عليها	بغيلة وجنوده
فدانت الشام لما	أتى بسبع وحيده
ونال موسى ذرا الحمى	بد وهو حشو مهوده
خصصته بمديحي	منثوره وقصيده
من البرامك عوذ	له فأكرم بموده
حورا على الشعر طرا	خفيفه ومديده

وكانت بلاد خراسان التي وليها علي بن عيسى بن ماهان ، مصدر الفتن والفتائل في عهد هارون الرشيد . فقد سار هذا الوالي على سياسة تطوى على الظلم والفساد ، واغتصاب الأموال من الأهالي ، فكان يرسل إلى الخليفة كثيراً من الهدايا والطرف التي بهرته ، واستفر بعمله هذا كبراء خراسان ، فكتبوا إلى الرشيد يستغيثون به ، فعزم الرشيد على الخروج لمحاربة علي بن عيسى ، وعسكر في الرى .

فلما بلغ ذلك علياً قابل الرشيد بهدايا أنفس من الهدايا الأولى ، ووزع مثلها على رجاله بلاطه ، فأطمان الرشيد من جانبها ، ثم عاد هذا الوالي سيرته الأولى في ظلمه واستبداده ، وغلا في نكايته بمن استأثروا بالخليفة .

واتفق أن حدث في ذلك الوقت أن رجلاً من أهالي سمرقند ، يدعى رافع بن ليث بن نصر ابن سيار ، قاد امرأة من ذوى اليسار إلى الكفر ، تخلصاً من زوجها الذي طالت غيبته ، ورغبة في التزوج بها . فلما بلغ الرشيد ذلك ، أرسل من فوره إلى علي بن عيسى ، يأمره بأن يفرق بين رافع وزوجه ، وأن يعاقبه على فعله ، فقام كل من والى خراسان وعامل سمرقند بتنفيذ أوامر الرشيد . وحبس رافع ، ولكنه فر من سجنه ، واستغاث بولد علي بن موسى ، فتوسط له عند أبيه ، فأمنه وردده إلى بلده ، فنأر لنفسه من عامل هذه المدينة وقتله ، واتبعه كثير من أهالي

سمرقند وبلاد ما وراء النهر ، فأرسل إليه على بن عيسى ابنه عيسى ، فقتله رافع في بلخ .
وقد قيل إن على بن عيسى جمع في قصره أموالاً ضخمة ، وأن الناس هجموا على هذا القصر ،
واستولوا على ما فيه . فلما بلغ ذلك الرشيد تحقق من استبداد على وأتبعه ، لما كان من استغزاه
شعور الأهلين ، فقرر عزله ، وأرسل هرثمة بن أعين يعمل إليه كتاباً بخطه ، وهاك نصه عن
الطبري (١) : « يا بن الزانية ، رفعت من قدرك ، ونوهت باسمك ، وأوطأت سادة العرب
عقبك ، وجعلت أبناء ملوك العجم خولك وأتباعك ، فكان جزائي أن خالفت عهدي ،
ونبتت وراء ظهرك أمرى ، حتى عشت في الأرض وظلمت الرعية ، وأسخطت الله وخليفته
بسوء سيرتك ، وردامة طمعك ، وظاهر خيانتك . وقد وليت هرثمة بن أعين مولاي ثم
خراسان ، وأمرته أن يشد وطأته عليك ، وعلى ولدك وكثابك وعمالك ، ولا يترك وراء
ظهركم درهما ولا حقاً لمسلم ولا معاهد ، إلا أخذكم به ، حتى تردّء إلى أهله . فإن أبيت ذلك
وأباه ولدك وعمالك ، فله أن يبسط عليكم العذاب ، ويصب عليكم السياف ، ويحل بكم ما يحل
بمن نكث وغيره وبدل ، وخالف وظلم ، وتمدى وعشم ، انتقاماً فقه عروجل ، بادئاً ، ولخليفته
ثانياً ، وللسلميين والمعاهدين ثالثاً ، فلا تعرض نفسك للتي لا شوى لها ، وأخرج بما يلزمك طائفاً أو
مكرهاً ، فقبض هرثمة على على بن عيسى وأتباعه ، وصادر أموالهم ، وبعث بهم إلى الرشيد ،
وأخذ الفرح من الناس كل مأخذ بلقائهم هرثمة ، وتخليصهم من عسف هذا الوالي وظلمه ؛
غير أن رافعا لم يكن قد هدأ أمره ، فخرج الرشيد بنفسه لحربه ، إلا أن المنية أدركته وهو في
طريقه ، وظل رافع على حاله حتى أيام المأمون (٢) .

البرامكة :

كان برمك جد الأسرة البرمكية سادن بيت النار ببلخ ، فكان يقوم بالإشراف على هذا
البيت ، كما كان يقوم قصى وأولاده من بعده بإسدانة الكمية في الجاهلية . وكان برمك وأسرته
يدينون بالمجوسية دين الفرس القديم . ولما ظهر الإسلام ، أسلم بعضهم ، وظهر منهم في أوائل
الدولة العباسية خالد بن برمك ، الذي تقلد الوزارة في عهد السفاح والمتصور ، واتخذ هارون
الرشيد يحيى بن خالد قبل أن يلى الخلافة كاتباً له ، يرجع إلى رأيه وتديره ، كما يرجع الخليفة إلى
رأى الوزير وتديره . ولما ولى الخلافة استوزر يحيى ، فعلا شأنه ، وبعث صيته ، وأصبح
هو وأولاده كعبة الآمال ، وغدت تفسد إليهم الرجال . وفي ذلك يقول صاحب كتاب
الفخرى في الآداب السلطانية (٣) : « اعلم أن هذه الدولة كانت غرة في سجة المذهب ، وتاجا على
ميفرق العصر ، ضربت بمكارمها الأمثال ، وشدت إليها الرجال ، ونيطت بها الآمال ،

(١) ج ١٠ ص ١٠٢ .

(٢) راجع ما كتبه الطبري عن على بن عيسى ج ١٠ ص ١٠٠ - ١٠٨ . (٣) ص ١٧٩ .

وبذلك لها الدنيا أفلاذ أكبادها ، ومنحتها أوفر إسماعها . فكان يحيى وبنيه كالنجوم زاهرة ، والبحور زاهرة ، والسيول دافعة ، والغيتوت ماطرة ؛ أسواق الآداب عندهم نافذة ، ومراتب ذوى الحرث مات عندهم عالية ، والدنيا في أيامهم عامرة ، وأبهة المملكة ظاهرة ، وهم ملجأ اللبس ، ومعتصم الطريد ، ولهم يقول أبو نواس :

سلام على الدنيا إذا ما فسدت
سنى بركك من رائجين وغاد

كان خالد بن برمك فاضلا جليلا كريما ، حازما يقظا ، قرّبه السفاح إليه ، وأولاه ثقته ، وأحلّه من نفسه محلّ التعظيم والتكريم ، ولكنته لم يفتّر بهذا التعظيم والتكريم ، وأبى إلا أن يظهر أمام مولاة بمظهر الإخلاص والتواضع ، وتجنب أن يسمى وزيرا ، على رغم أنه كان يعمل عمل الوزراء ، خشية أن يحلّ به ما حلّ بأبي سلة الخلال وزير آل محمد ، الذى قتله أبو العباس السفاح ، وقد قيل إن كل من استوزر بعد أبي سلة ، كان يتجنب أن يسمى وزيرا ، نظيرا بما جرى على أبي سلة ، حتى قال أحد الشعراء :

إن الوزيرَ وزير آل محمد
أودى فمن يشنّك كان وزيرا

نعم كان خالد عظيم المنزلة ، جليل القدر عند الخلفاء . قيل إن السفاح قال له يوما : يا خالد ، ما كرميت حتى استخدمتني ، فنزع خالد ، وقال : كيف يا أمير المؤمنين ، وأنا عبدك وخادمك ؟ فضحك السفاح وقال : إن ربيطة أبقى تنام مع ابتك في مكان واحد ، فأقوم بالليل ، فأجدهما قد سرح النطاء عنهما ، فأرده عليهما . فقيل خالد يده ، وقال : مولى يكتسب الاجر في عهده وأمنه .

وقد اشتهر خالد بن برمك برجاحة العقل ، وبعد النظر ؛ يدلنا على صحة هذا الرأى أن المنصور لما شرع في بناء مدينة بغداد ، ورأى أن مواد البناء تكلفه كثيرا من النفقات ، أشار عليه بعضهم ، بهدم إيوان كسرى ، واستعمال أنقاضه ، فاستشار المنصور خالد بن برمك في ذلك ، فقال : لا تفعل يا أمير المؤمنين ، فإنه آية الإسلام ، فإذا رآه الناس ، علموا أن مثل هذا البناء لا يزيله إلا أمر سماوى ، وهو مع ذلك مصلّى على بن أبى طالب عليه السلام ، والمثوبة في نقضه أكثر من نفعه . فقال له المنصور : أئيت يا خالد إلا ميلا إلى الجمجمة ، ثم أمر بهدمه ، فهدمت منه ثلثة ، فبلغت الثقة عليها أكثر مما حصل منها ، فأمسك المنصور عن هدمه ، وقال : يا خالد ، قد صرنا إلى رأيك ، وتركنا هدم الإيوان . فقال يا أمير المؤمنين : أنا الآن أشير بهدمه ، لئلا يتحدث الناس أنك حجّرت عن هدم ما بناء غيرك .

وكان يحيى بن خالد البرمكى أشهر رجال عصره ، علما وأدبا وفضلا ، وجودا ونبلا . وكان في الثانية عشرة من عمره ، لما قامت الدولة العباسية ، قترى في كنفها ، وشمله الخليفة المنصور بعطفه ، فولاه أذربيجان سنة ١٥٨ هـ ، واختاره المهدي كاتبا ونائباً لابنه هارون ، فخرج معه في الصائفة لنزو البزنطيين . ولما تولى هارون بلاد المغرب ، ساعده يحيى على النهوض بأعبائها ،

وأخلص له الإخلاص كله ، ولما أراد الهادى أن يخلع أخاه هارون من ولاية العهد ، نصح له يحيى بالعدول عن هذا رأى ، كما تقدم .

ولذا قلد هارون كاتبه الوفى المخلص ، الوزارة بعد اعتلائه العرش ، وفوض إليه أمور دولته ، واستعان بأولاده الأربعة وهم : جعفر والفضل ومحمد وموسى ، ونهض يحيى - كما يقول صاحب الفخرى ^(١) بأعياء الدولة أتم نهوض ، وسد الثغور ، وتدارك الخلل ، وجمي الأموال ، وعمر الأطراف ، وأظهر رونق الخلافة ، وتصدى لمهمات المملكة ، وكان كاتباً بليغاً ليلاً ، أديباً سديداً ، صائب الآراء ، حسن التدبير ، ضابطاً لما تحت يده ، قويا على الأمور ، جواداً يبارى الريح كرماً وجوداً ، ممدحاً بكل لسان ، حليماً عفيفاً ، وقوراً كميهاً ، وله يقول القائل :
لا تترانى مصافحاً كتمت يحيى لأننى إن فعلت ضيقت مسالى
لو سمس البخيل راحة يحيى لستحت نفسه يسذل التوال

وكان الفضل أكبر أولاد يحيى من كرام أهل عصره ، وكان عضداً يه ينوب عنه فى جلائل أعماله . وقد أرضعته أم الرشيد ، كما أرضعت أم يحيى الرشيد . وفى ذلك بقول مروان ابن أبى حفصة :

كنى لك فخرنا أن أكرم حرة غدتك بئدى والخليفة واحد
لقد زينت يحيى فى المشاهد كلها كما زان يحيى خالداً فى المشاهد

ولما ولد الأمين عبد الرشيد إلى الفضل بتريته . وفى سنة ١٧٦ هـ ، ندب للحرب يحيى بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن على ، الذى ثار فى بلاد الديلم . وفى سنة ١٧٨ هـ ولاء هارون الرشيد بلاد خراسان ، فقصى على الفتنة التى قامت بها ، وأحسن معاملة أهلها ، وبنى بها المساجد ، ثم عاد إلى بغداد بعد سنة .

قيل أن محمد بن إبراهيم الإمام (بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس) ، حضر يوماً عند الفضل بن يحيى ، ومعه سقطة فيه جوهر ، وقال له : إن حصلت قد قصرت ما أحتاج إليه . وقد علاني دين مبلغة ألف ألف درهم ، وإن استحي أن أعلم أحداً بذلك ، وآف أن أسأل أحداً من التجار أن يقرضنى ذلك ، وإن كان معى رهن ينى بالقيمة . وأنت أباك الله لك تجار يعاملونك ، وأنا أسألك أن تقرض لى من أحدم هذا المبلغ ، وتمطيه هذا الرهن ، فقال له الفضل : السمع والطاعة ، ولكن نصح هذه الحاجة أن تقيم عندى هذا اليوم ، فأقام عنده ، ثم إن الفضل أخذ السقطة منه وهو محتوم بختمه ، وأرسل معه ألف ألف درهم ، وأنفذ الدرهم والسقطة إلى منزله ، وأخذ خط وكيله بقبضه . وأقام محمد فى دار الفضل إلى آخر النهار ، ثم انصرف إلى داره ، فوجد السقطة ومعه ألف ألف درهم ، فسر بذلك سروراً عظيماً ، فلما

كان من الندد بكر إلى الفضل لي شكره على ذلك فوجده قد بكر إلى دار الرشيد ، فعضى محمد إلى دار الرشيد ، فلما علم الفضل به خرج من باب آخر ومضى إلى دار أبيه ، فعضى محمد إليه ، حين علم به ، خرج بباب آخر ، ومضى إلى منزله ، فعضى محمد إليه واجتمع به ، وشكره على فعله ، وقال له : إنى بكرت إليك لأشكرك على إحسانك ، فقال له الفضل : إنى فكرت فى أمرك ، فرأيت أن هذه الألف ألف التى حملتها أمس إليك ، تقضى بها دينك ، ثم تحتاج فقترض ، فبعد قليل يعطوك مثلها ، فبكرت اليوم إلى أمير المؤمنين ، وعرضت عليه حالك ، وأخذت لك مائة ألف ألف درهم أخرى . ولما حضرت إلى أمير المؤمنين ، خرجت أنا بباب آخر ، وكذلك فعلت لما حضرت إلى باب أبى لأنى ما كنت أوثر أن ألقاك ، حتى يحمل المال إلى منزلك ، وقد حمل ، فقال له محمد : بأى شيء أجازيك على هذا الإحسان ؟ ما عئدى شيء أجازيك به ، إلا أنى ألزمت بالأيمان المؤكدة وبالطلاق والعتاق ، أنى ما أقف على باب غيرك ولا أسأل سواك . فلما ذهبت دولة البرامكة ، وتولى الفضل بن الربيع الوزارة بعدهم ، احتاج محمد ، فقالوا له : لو ركبنا إلى الفضل بن الربيع ، فلم يقبل ، والزم باليمن ، فلم يركب إلى أحد ، ولم يقف على باب أحد حتى مات^(١).

أما جعفر بن يحيى فقد اشتهر بالفصاحة والعلو والحلم والكرم . وكان الرشيد يأنس به لسهولة أخلاقه ، ويؤثر على أخيه الفضل لشراسة أخلاقه ، ولذلك عمل على التخلص منه . يقول صاحب الفخرى^(٢) : إن الرشيد قال يوماً ليحيى : « يا أبى ، ما بال الناس يسمون الفضل الوزير الصغير ، ولا يسمون جعفرًا بذلك ؟ فقال يحيى : لأن الفضل بخلفى . قال : فعظم إلى جعفر أعمالاً كععمال الفضل ، فقال يحيى : إن خدمتك ومناذمتك يشغلانه عن ذلك ، فجعل إليه أمر دار الرشيد ، فسمى بالوزير الصغير أيضاً » .

ولكن الرشيد كان يؤثر جعفرًا على أخيه الفضل ، لعلو منزلته عنده وعجته إياه ، وأنى إلا أن ينقل ديوان الخاتم من الفضل إلى جعفر . وطلب من يحيى أن يكتب إلى ابنه الفضل بذلك ، فكتب إليه : « قد أمر أمير المؤمنين ، أعلى أمرك ، أن تحول الخاتم من يمينك إلى شمالك » فأجاب به الفضل : « قد سمعت لما أمر به أمير المؤمنين فى أخى ، وما انتقلت منى نعمة صارت إليه ، ولا عترت عنى رتبة سلطت عليه » ، فقال جعفر : « لله در أخى ، ما أكيس نفسه وأظنر دلائل الفضل عليه وأقوى منه العقل عنده ، وأوسع فى البلاغة ذرعه » .

ولم يقتصر إيثار الرشيد وحبه جعفر بن يحيى على ما ذكرنا ، فقد ولّاه مصر فى سنة ١٧٦ ، وفى سنة ١٨٦ أرسله إلى بلاد الشام ، حين أثار أهلها الفتن والقلاقل ، فأزال أسباب التذمر وأطمأن خواطر الأهلين ، فملت منزلته ، وارتفع قدره عند الرشيد ، فأسند إليه فى هذه السنة ولاية خراسان ، ثم ولّاه حراسة الجيش .

ومما يدل على علو مكانة جعفر عند الرشيد ، وخطور مركزه فى الدولة العباسية ، هذه الحكاية

التي تنقلها عن كتاب الفخرى في الآداب السلطانية (١) « قيل إن جعفر بن يحيى البرمكي جلس يوماً للشرب ، وأحب الخلوة ، فأحضر ثمالة الذين يأمن بهم ، وجلس معهم ، وقد هيء المجلس ، ولبسوا الثياب المصبغة ، وكانوا إذا جلسوا في مجلس الشراب واللبو ، لبسوا الثياب الحر والصفر والخضر . ثم إن جعفر بن يحيى تقدم إلى الحاجب ألا يأذن لأحد من خلق الله تعالى ، سوى رجل من الندماء كان قد تأخر عنهم ، اسمه عبد الملك بن صالح . ثم جلسوا يشربون ، ودارت الكسرات ، وخفقت العبدان ، وكان رجل من أقارب الخليفة يقال له عبد الملك بن صالح ابن علي بن عبد الله بن العباس ، وكان شديد الوفا والدين والحشمة ، وكان الرشيد قد اتس منه أن يتأدبه ، ويشرب معه ، وبذل له على ذلك أموالاً جليلة ، فلم يفعل ؛ فاتفق أن هذا عبد الملك بن صالح حضر إلى باب جعفر بن يحيى ليخاطبه في حوائج له ، فظن الحاجب أنه عبد الملك بن صالح ، الذي تقدم جعفر بن يحيى بالأذن له ، وألا يدخل غيره ، فأذن الحاجب له ، فدخل عبد الملك بن صالح على جعفر بن يحيى ، فلما رآه جعفر كاد عقله يذهب من الحياء ، وفضن أن القضية اشتبهت على الحاجب بطريق اشتباه الاسم ، وفضن عبد الملك بن صالح أيضاً للقصة ، وظهر له الخجل في وجه جعفر بن يحيى ، فأنبسط عبد الملك ، وقال : لأأس عليكم ، أحضروا لنا من هذه الثياب المصبغة شيئاً ، فأحضر له قبض مصبوغ فلبسه ، وجلس يباسط جعفر بن يحيى ويمازحه ، وقال اسقونا من شرابكم ، فسقوه رجلاً ، وقال : ارفقوا بنا فليس لنا عادة بهذا ؛ ثم باسطهم ومازحهم ، وما زال حتى أنبسط جعفر بن يحيى ، وزال اتقياضه وحياؤه ، ففرح جعفر بذلك فرحاً شديداً وقال له ما حاجتك ؟ قال : جئت (أصلحك الله) في ثلاث حوائج ، أريد أن يخاطب الخليفة فيها ؛ أولاً أن عليّ ديناً مبلغه ألف ألف درهم ، أريد قضاءه ، وثانياً أريد ولاية لابني يشرف بها قدره ، وثالثاً أريد أن تزوج ولدي بابتة الخليفة ، فأنها بنت عمه ، وهو كفء لها . فقال له جعفر بن يحيى ، قد قضى الله هذه الحوائج الثلاث : أما المال ففي هذه الساعة يحمل إلى منزلك ، وأما الولاية فقد وليت ابنك مصر ، وأما الزواج فقد زوجته فلانة ابنة مولانا أمير المؤمنين ، على صداق مبلغه كذا وكذا ، فأنصرف في أمان الله .

وإنما فعل جعفر ما فعل ، لشدة ثقته بنفسه عند الرشيد ، فإن عبد الملك لما عاد إلى منزله ، وجد أن المال قد سبقه . ولما كان من الندم حضر جعفر عند الرشيد ، وأعلمه بما جرى . فأقره على تصرفه ، ولم يخرج جعفر حتى كتب لابن عبد الملك تقليد ولاية مصر ، وعقد عقده على ابنة الرشيد .

(١) ص ١٨٧ — ١٨٨ ، وانظر أيضاً كتاب الوزراء والكتاب للجيشاري ، (طبعة الحلبي سنة ١٩٣٨) ص ٢١٢ وما بعدها .

أما موسى فكان أشد أبناء يحيى البرمكي بأسا ، كما كان كاملا سريا ، وقائدا محتكا . ولاء الرشيد بلاد الشام سنة ١٧٦ هـ ، فأصلح أمورهما ، وهذأت على يديه أحوالهما . وقد أوقع به على بن عيسى والى خراسان عند الرشيد ، ورماء بتهمة إثارة الاضطرابات فيها ، والخروج على الخلافة . واتفق أن اختفى موسى بسبب دين عليه ، فازداد الرشيد اعتقادا بصحة هذه الوشائات ، وأمر به الحبس في الكوفة ، ولم يطلق سراحه إلا بمساعدة أمه ، وقبول الرشيد رجاءها ، وضمان أبيه له ، ثم غفا عنه وخلع عليه . أما محمد بن يحيى فكان سريا بعيد الهمة ، ولم يكن له من الشهرة ما كان لإخوته .

من ذلك نستطيع أن نقف على مبلغ خطر مركز الأسرة البرمكية في أيام هارون الرشيد ، الذى وثق بهم ، وفوض إليهم أمور دولته . ولا تعجب إذا انصرف الناس إليهم ، ونظموا القصائد الرائمة في مدحهم ، والتفتي بكرمهم وجودهم . الذى كان مضرب الأمثال .

وقد قيل إن الرشيد حج ، ومعه يحيى بن خالد بن برمك ، وابناه الفضل وجعفر . فلما وصلوا إلى المدينة المنورة ، جلس الرشيد ومعه يحيى ، فأعطيا الناس ، وجلس الأمين ومعه الفضل بن يحيى فأعطيا الناس ، وجلس المأمون ومعه جعفر فأعطيا الناس . وقد ضربت الأمثال بكثرة هذه الأعطيات الثلاث ، حتى كانوا يسمون هذا العام عام الأعطيات الثلاث ، وفي ذلك يقول الشاعر :

أتانا بنو الآمال من آل برمك	فياطيب أخبار ويا حسن منظر
لهم رحلة في كل عام إلى العدا	وآخرى إلى البيت العتيق المستر (١)
إذا نزلوا بطحاء مكة أشرفت	يحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر
فتظلم بغداد وتجلو لنا الدجى	بمكة ما تمحو ثلاثة أقر
فأخلقت إلا لجلود أكفهم	وأقدامهم إلا لأعواد منبر
إذا راض يحيى الأمر ذلت صعا به	وناهيك من راع له ومدبر

وقد بلغ من جود يحيى وكرمه ، أنه كان إذا ركب أحد سررا في كل منها مائتا درهم ، يدفعها إلى الذين يقفون في طريقه ويلتمسون معونته . ولهذا لا تعجب إذا تلبس الرشاة وعمال السوء أسباب الإيقاع بالبرامكة ، الذين بلغوا أوج عظمتهم وذروة عزهم ، وقصدهم الرائج والتأدى والحقيير والتئيل .

صفات الرشيد وأخلاقه :

قال الخطيب البغدادي (٢) : « وكان هارون أبيض طويلا مسمنا جميلا . »

وقال صاحب كتاب الفخرى في الآداب السلطانية^(١) : وكانت دولة الرشيد من أحسن الدول ، وأكثرها وقارا وروفا وخيرا ، وأوسعها رقعة ملكة ، جى الرشيد معظم الدنيا . . . ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء ، والشعراء ، والفقهاء ، والقراء ، والقضاة ، والكتّاب ، والتدما ، والمثنيين ، ما اجتمع على باب الرشيد . وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة ، ويرفعه إلى أعلى درجة ، وكان فاضلا شاعرا ، راوية للاخبار والآثار والأشعار ، صحيح النوق والتهذيب ، مهييا عند الخاصة والعامة .

وقال صاحب الفخرى^(٢) أيضا : كان الرشيد من أفاضل الخلفاء وفصحاءهم وعلماهم وكرماهم ، كان يحسن سنة ، وينزو كذلك سنة ، مدة خلافته إلا سنين قليلة . قالوا : وكان يصل كل يوم مائة ركة ، وحج ماشيا . ولم يحج خليفة ماشيا غيره . وكان إذا حج ، حج معه مائة من الفقهاء وأبناءؤم ، وإذا لم يحج ، أحج ثلاثمائة رجل ، بالنفقة السابقة ، والكسوة الظاهرة . وكان يتشبه في أفعاله بالمنصور ، إلا في بذل المال ، فإنه لم يمر خليفة أسمع منه بالمال ، وكان لا يضيع عنده إحسان بحسن ، ولا يؤخر . وكان يحب الشعر والشعراء ، ويميل إلى أهل الأدب والفقه ، ويكره المراء في الدين . وكان يحب المدح ، لا سبا من شاعر فصيح ، ويجزل العطاء عليه .

قال أبو الشغلي^(٣) .

فمن يطلب لقاءك أو يترده
فبالحرمين أو أقصى النود
ففي أرض العدو على طمر
وفي أرض البنية فوق طور^(٤)
وما جاز الثغور سواك خلقت
من المستخلفين على الأمور

قال الأصمعي : صنع الرشيد طعاما ، وزخرف مجلسه ، وأحضر أبا المتاهية وقال له : صف لنا ما نحن فيه من نعم هذه الدنيا ، فقال أبو المتاهية :

عش ما بدا لك سالما
في ظل شاعقة القصور
فقال الرشيد : أحسنت ، ثم ماذا ، فقال :

فاذا النفوس تعمقت
في ظل حشرة الصدور
فهاك تعلم موقنا
ما كنت إلا في غرور

فيكي الرشيد ، فقال الفضل بن يحيى : بهت إليك أمير المؤمنين لتمره فخرته . فقال الرشيد : دعه ، فإنه رأى أنا في عمى فكره أن يزيدنا منه . واشتهر الرشيد بحسن معاملة العلماء . قال أبو معاوية الضرير ، أحد علماء عصره : أكلت مع الرشيد يوما ، فصب على يدي الماء رجل ، فقال لي يا أبا معاوية ، أتدري من صب الماء على يدك ؟ فقلت : لا يا أمير المؤمنين ، فقال :

(١) ص ١٧٧ - ١٧٨ . (٢) نفس المصدر ص ٧٥ .

(٣) كذا في تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٦ ، وفي الطبري أبو السال السكالي .

(٤) كذا في تاريخ بغداد ؟ وفي الطبري : « وفي أرض الترفه فوق كور » .

أنا . فقلت : يا أمير المؤمنين ، أنت تفضل هذا إجلالا للعلم ؟ قال نعم ^(١) .
قال الخطيب البغدادي : « اجتمع الرشيد ما لم يجتمع لأحد من جد وهزل . وزراره
البرامكة ، لم ير مثلهم سخاء وسرورا ، وقاضيه أبو يوسف ، وشاعره مروان بن أبي حفصة ،
كان في عصره كبرير في عصره ، وتديبه عم أبيه العباس بن محمد صاحب العباسية ، وحاجبه
الفضل بن الربيع ، أشبه الناس وأشدهم تماظلا ، ومغنيه إبراهيم الموصل ، واحد عصره في
صناعته ، وضاربه زلول ، وزامره برصوما . وزوجته أم جعفر ، أرغب الناس في خير ،
وأسرعهم إلى كل بر ، وهي أسرع الناس في معروف . أدخلت الماء الحارم بعد امتناعه من
ذلك ، إلى أشياء من المعروف ^(٢) » .

وكان الرشيد تمضرب الأمثال في الجود والكرم . وقف في طريقة رجل من الأمويين ،
وانشدته هذه الآيات الأربعة ، وهي :

يا أمين الله إلى قائلٍ قول ذي لبٍّ وصدقٍ وحسبٍ
لكم الفضل علينا ولنا . بكم الفضل على كلِّ العرب
عبد شمس كان يتلو هاشما ومما بعد لأمٍّ ولأب
تصيل الأرحام ميثا لأمسا عبد شمس عم عبد المطلب
وبعدنا المسعودي ^(٣) أن الرشيد أعطى هذا الرجل عن كل بيت ألف دينار ، ثم قال له :
لو زدتنا لودناك .

وقد روى الخطيب البغدادي ^(٤) عن إسحق بن إبراهيم الموصل قال : دخلت على أمير
المؤمنين الرشيد يوما فقال : أنشدني من شعرك ، فأنشدته :

وأمة بالبخل قلت لها اقصرى فذلك شيء مألٍ إليه سليل
أرى الناس خلان الجواد ولا أرى بخيلا له في العالمين خليل
ومن خير حالات الفقى - لو علت - إذا نال خيرا . أن يكون يليل
عطائي عطاء المكثرين تكرما ومالي - كما قد تملين - قليل
وإني رأيت البخل يردى بأهله ويحقر يوما أن يقال بخيل
وكيف أعاف الفقر أو أحرم الفقى ورأى أمير المؤمنين جليل ؟
قال : لا ، كيف إن شاء الله ، يا فضل ، أعطه مائة ألف درهم ، لله در آيات تأتينا بها ،
ما أحسن فصولها ، وأثبت أصولها . قلت : يا أمير المؤمنين ، كلامك أجود من شعري ، قال :
أحسنتم يا فضل ، أعطه مائة ألف أخرى .

(١) القرنى ص ١٧٥ - ١٧٦ . (٢) تاريخ بغداد ج ١٤ ص ١١ .

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٨٠ . (٤) تاريخ بغداد ج ١٤ ص ١٠ - ١١ .

وكان الرشيد يقول الشعر ، ومن شعره يرقى جوارته هيلانة :

قاسيت أوجاعا وأحزانا لما استخص الموت هيلانا
فارت عيشي حين فارقتها فلا أبالي كيفما كانا
كانت هي الدنيا فلما ثوت في قبرها فارقت دنيا
قد كثر الناس ولكنني لست أرى بملك إنسانا
والله ما أنساك ما حركت ربح بأعلى تجد أغصانا

وقد بلغت بغداد في عهد الرشيد ، درجة عالية من الحضارة والعمران ، فبنت فيها القصور الشاهقة ، وزادت موارد ثروتها ، وكانت تصل إليها التجارة من أقصى البلدان . وقد ذكر السيوطي (١) أن الرشيد أراد أن يوصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر مما يلي القرم ، فقال له يحيى بن خالد البرمكي : كان يختطف الروم الناس من المسجد الحرام ، وتدخل مراكزهم إلى الحجاز ، فعدل عن هذا الرأي .

وكانت خزائن الرشيد تفيض بالأموال التي كانت تجي من الضرائب ، حتى بلغت في عهده ما يقرب من اثنين وسبعين مليون دينار ، عدا الضريبة العينية التي كانت تؤخذ مما تنتجه الأرض من الحبوب ، حتى إن الرشيد كان يستلق على ظهره ، وينظر إلى السحابة الماروق يقول : ذهبي حيث شئت يأتي خراجك ، (٢) .

وصفة القول أن « أيام الرشيد كانت — كما يقول السيوطي (٣) — كلها أيام خير ، كانت في حسنها أعراس »

وفاة الرشيد

اشتدت علة الرشيد وهو بطوس في ضيعة تعرف بستانا ، فدعا من كان بعسكره من بني هاشم ، وأوصاهم بثلاث : الحفظ لإمامتكم ، والنصيحة لأئمتكم ، واجتماع كلمتكم ، وانظروا محمداً وعبد الله ، فن بنى منهما على صاحبه ، فردوه عن بغيه ، وقبحوا له بنيه ونكته .

يقول المسعودي (٤) : لما اشتدت علة ... هون عليه الأطباء علة ، فأرسل إلى طبيب فارسي كان هناك ، فأراه ماله مع قوادير شتى . فلما انتهى إلى قاروره قال : عرفوا صاحب هذا الماء أنه هالك ، فليوصر ، فإنه لا بركة له من هذه العلة ، فبكى الرشيد وجعل يردد هذين البيتين :

إنَّ الطيب بطيه ودَّاه لا يستطيعُ دفاعُ محنور أني
مالطيب يموتُ بالذَّاء الذي قد كان يرى نفسه فيها مضى

وكان قد عهد بالخلافة للأمين ، ثم المأمون . ثم القاسم ، وكتب بذلك صحيفة أشهد فيها

(١) تاريخ الخلفاء ص ١٨٩ . (٢) صبح الأعشى ج ٢ ص ٢٧٠ ، والنظم الإسلامية ص ٢٩٠ .

(٣) تاريخ الخلفاء ص ١٨٩ . (٤) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٨١ .

القضاء والفقهاء وأكابر بني هاشم ، وعلقت في الكعبة . ثم مات يوم السبت لأربع ليال خلون من شهر جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة ، فكانت ولايته ثلاثاً وعشرين سنة وستة أشهر ، ومات وهو ابن أربع وأربعين سنة وأربعة أشهر (١) .
وقال أبو نواس (٢) يرى الرشيد ويهني الأمين بالخلافة :

جرت جوار بالسعد والنحو فحنن في ماتم وفي عرس
القلب يكي والعين ضاحكة فحنن في وحشة وفي أنس
يضحكننا القائم الأمين ويكئنا وفاة الإمام بالأمس
بدران بدر أضحي يبتدأ في السخند وبدر بطوس في الرمس

الأمين

١٩٣ - ١٩٨ = ٨٠٨ - ٨١٣ م

ولد أبو عبد الله محمد الأمين سنة ١٧٠ هـ ، وهي السنة التي ولى فيها أبوه هارون الرشيد الخلافة ، وذلك بعد مولد أخيه عبد الله المأمون بستة أشهر ، وأمه أم جعفر ، زُبَيْدَةُ ابنة جعفر بن المنصور ؛ وليس في خلفاء بني العباس من أبوه وأمه هاشميان سواه . ولما مات الرشيد بطوس في الثالث من شهر جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ ، أحضر إليه وهو يبغداد رجاء الخادم بالبردة والقصب والحناء ، وهي شارات الخلافة ، فرقى أبو الشيعس الشاعر هارون الرشيد بقوله :

شَرَبْتُ في الشَّرْقِ شمساً فلها عيني تدمع
ما رأينا قط شمساً غربت من حيث تطلع (٣)

وقد وصف الطبري (٤) محمد الأمين في هذه العبارة فقال : « وكان سبطاً أنزع أبيض ، صغير العينين ، أقي جيلاً عظيم الكراديس ، بعيد ما بين المشككين » ، ووصفه السيوطي (٥) فقال : « وكان من أحسن الشباب صورة » ، أبيض طويلاً ، ذا قوة مقرطة ، وبطش وشجاعة معروفة ؛ يقال إنه قتل مرة أسداً يديه . وله فصاحة وبلاغة وأدب وفضيلة ، لكن كان سيئ التبدير كثير التبذير ضعيف الرأي أرعن ، لا يصلح للامارة .

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦٣ ، وثمانية عشر يوماً كما يقول الطبري ج ٩ ص ١١٢ .

(٢) الطبري ج ١٠ ص ١٢٤ - ١٢٥ .

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ص ١٦٧ . (٤) ج ١٠ ص ٢٠٩ .

(٥) تاريخ الخلفاء ص ١٩٧ .

كان عبد الأمين مليئاً بالفتن والاضطرابات ؛ وفي الوقت الذي قامت هذه الفتنة بينه وبين أخيه المأمون ، اشتعلت نار الثورة في بلاد الشام ، على يد علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد ابن معاوية ، المعروف بالسفياني ، الذي دعا إلى نفسه ، واحتل دمشق وما يليها ، بعد أن طرد عامل الأمين ؛ وكاد يتم له الاستقلال بهذه البلاد ، لولا أن قام بين البغتين والمضربين نزاع خطر ، حال دون تحقيق أمانيه . وقد أرسل الأمين الجيوش لقمع هذه الفتن ، بقيادة الحسين ابن علي بن عيسى بن ماهان ، ثم عبد الله بن صالح بن علي العباس ؛ ولكن سوء الحالة في بغداد قد حال دون القيام بعمل جدي ضد هذا السفياني . وهكذا أصبحت بلاد الشام مسرحاً للغوضى سنتين أو أكثر . هذا إلى أن الحسين بن علي بن عيسى ، قد أثار عداء جنوده الشاميين بتجبره لجنده الخراسانيين . ومن ثم عاد هذا القائد لجأة إلى بغداد (١) .

وقد روى السيوطي (٢) عن إسحق الموصلي قال : « اجتمعت في الأمين خصائل لم تكن في غيره . كان أحسن الناس وجهاً وأستخام ، وأشرف الخلفاء أبا وأماً ، حسن الأدب ، عالماً بالشعر ؛ لكن غلب عليه الهوى واللعب . وكان مع سخائه بالمال بخيلاً بالطعام جداً ، وقال أبو الحسن الأحمر : كنت ربما أنسيت البيت الذي يستشهد به في النحو ، فينشدني الأمين ، وما رأيت في أولاد الملوك أذكى منه ومن المأمون » .

وكان الأمين يحيد الشعر ، فن شعره يفخر على أخيه المأمون (٣) .

لا تفخرنَّ عليك بعد بقيّة	والفخر يكلل الفتي المتكامل
وإذا تناولت الرجال بفضلها	فاربع فانك ليس بالتعادل
أعطاك ربك ما هويت وإيما	تلقى خلاف هواك عند مراحيل
تعلو المنابر كل يوم آملاً	ما لست من بعدى إليه براصل
فتعيب من يعلو عليك بفضله	وتعبد في حق مقال الباطل

ومن شعره لما يئس من النصر على أخيه المأمون :

يا نفس قد حقّ الخذل	أين المفرّ من القتل
كل امرئ مما يخاف ويرتجيه على خطر	ف ويرتجيه على خطر
من يرتشف صفو الزّما	ن ينصّ يوماً بالكدر

وكان الأمين يميل إلى اللهو واللعب والتبذير ، وبني مجالس للتزده ، وفي ذلك يقول الطبري (٤) :

(١) الطبري ج ١٠ ص ١٥٥ .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٠٢ . Muir: The Calliphate, p. 490 .

(٣) نسي المصنف . (٤) ج ١٠ ص ٢١٥ — ٢١٦ .

« ولما ملك محمد ، وجهه إلى جميع البلدان في طلب الملوك ، وضمهم إليه ، وأجرى لهم الأرزاق ، ونافس في ابتياع فرس الدواب ، وأخذ الوحوش والسياح والطير ، وغير ذلك ؛ واحتجب عن أخوته وأهل بيته وقواده ، واستخف بهم ، وقسم مافي بيوت الأموال وما يحضرته من الجوهر في خصيانته وجلسائه وعديته . وحل إليه ما كان في الرقة من الجوهر والخزائن والسلاح ، وأمر ببناء مجالس لمتزهااته ، وهواضع خلوته ولطوه ولعبه ، بقصر الخلد والخيزرانية وبستان موسى وقصر عبدويه وقصر المملوك ورقعة كلواذي وباب الأنبار وبنار والحبوب ، وأمر بعمل خمس حراقات في دجلة على خلقه الأسد والفيل والعقاب والحيتة والفرس ، وأنفق في عملها مالا عظيما ، فقال أبو نواس :

سخر الله للأمين مطايا	لم تسخر لصاحب المهراب
فاذا ماركا به سرن برا	سار في المساء راكبا ليث غاب
أسدا باسطا ذراعية يهوى	أهرت ^(١) الشدق كالحج الأناب
لايمان به بالجم ولا السو	ط ولا غمر رجله في الركب
عجب الناس إذ رأوك على صو	رة ليث نمر مر السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه	كيف لو أبصروك فرق العقاب
ذات زور ومنسر وجناحيه	تشتق العياب بعد العياب
تسوق الطير في السماء إذا	مسا استمجلوها بجية وذهاب
بارك الله للأمير وأبقا	ه وأبقى له رداء الشباب
ملك تقصر المذامع عنه	هاشمي موقف للصواب

ولم يعمر الأمين طويلا ، حيث قتل بعد أن جلس على عرش الخلافة أربع سنين وبمناية أشهر وخمسة أيام ، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ١٩٨ هـ ، وكان في الثامنة والعشرين من عمره . وقد ذهب الأمين ضحية هذه الفتنة التي قامت بينه وبين أخيه المأمون ، بسبب خلعه أخاه ، وتوليته ابنه العهد من بعده ، ونكست العهد والميثاق الذي أخذه عليه أبوه الرشيد ، وعلقه في السكبة . وقد ساد عهده هذه الفتنة الجوراء التي فرقت المسلمين وأضعفت قوتهم ، وقوضت كثيرا من معالم مدينة بغداد ، حاضرة العباسيين ، وكعبة العلوم والآداب ، ومركز التجارة ، وحاضرة الاسلام .

وقد رثى الأمين كثير من الشعراء الذين كانوا يناصرون العرب على الفرس ، ومن هؤلاء الحسين بن الضحاك الشاعر ، وكان من ندماة الأمين ، وقد جزع على قتله ، واشتد حزنه ، حتى إنه لم يصدق موته ، بل كان يطعم في رجوعه ، وقد عبر عن حزنه في هذه القصيدة الطويلة (٢) :

(١) واس -

(٢) الطبري ج ١٠ ص ٢١٠ - ٢١١ .

يا خير أمرته وإن زعوا
الله يعلم أن لي كيدا
ولئن شجيت بما رزمت به
هلا بقيت لصد فافتنا
فلقد خلفت خلافا سلفوا
لا بات رهطك بعد هفوتهم
هتكوا بجرمتك التي هتكك
وثبت أقاربك التي خذلت
لم يفعلوا بالشط إذ حضروا
تركوا حريم أبيهم فغلا
أبدت غلظتها على دهش
سابت معاجزهم واجتليت
فكأنهم خلال منتهب
ملك تخون ملك قدره
هيات بعدك أن يدوم لنا
أفبعد عهد الله تقتله
فستعرفون غدا بعاقبه
يا من يخون نومه أرقه
قد كنت لي أملا غثيت به
مريج النظام وعاد منكنا
فالشمل منتشر لفقده والد

إني عليك لثبت أسف
حرمي عليك ومقلة تكف
إني لأضمر فوق ما أصف
أبدأ وكان لنفرك التاف
ولسوف يوز بعدك الخلف
إني لرهطك بعدها شنف
حرم الرسول ودونها السجف
وجميعها بالذل مسترق
ما تفعل الثميرة الألف
والمخضات صوارخ هف
أبكرهن ورنست النصف
ذات الثقاب ونوزع الشف
در تكشف دونه الصدق
فوهي وصرف الدهر بخلف
عز وأن يبقى لنا شرف
والقتل بعد أمانة سرف
عز الإله فأوردوا وقفوا
هدت الشجون وقلبه لف
قبضى وحل محله الأسف
عرفا وأنكر بعدك العرف
نبا سدى والبال منكسف

وقال خزيمة بن الحزن يرثي الأمين على لسان أمه أم جعفر زبيدة زوجة هارون الرشيد :

خير إمام قام من خير عنصر
لوازت علم الأولين وفهمهم
كتمت وعيني مستهل دموعها
وقد مسني ضرر ذلك كآبة
وهمت لما لاقيت بعد مصابه
سأشكو الذي لاقيته بعد فقدته
وأرجو لما قد مرني مذ فقدته
أني طاهره لا طهره الله طاهرا

وأفضل سام فوق أحواد منبر
والبلك المأمون من أم جعفر
إليك ابن عمي من جفوني وعجري
وأرق عيني بآب عمي تشكري
فأمرى عظيم منكركم جدي منكركم
إليك شكاة المستهام المقهر
لأنت لبني خير رب مغير
فما طاهره فيا أتى بطهر

فأخرجني مكشوفة الوجه حاسراً
يعزُّ على هارون ما قد لقيته وما مرّني من ناقص الخلق أعور
فإن كان ما أسدى بأمر أمرته صبرت لأمر من قد بر مقدّر
تذكر أمير المؤمنين قرايقي فديتك من ذي حرمة متذكر (١)

ولما قتل الأمين أرسل عبد الله بن طاهر رأسه إلى المأمون، الذي صفاه له الجو، واستقرت له الأمور، وكتب إلى الأمصار الإسلامية كتاباً جاء فيه (٢) :

« أما بعد فإن المخلوع كان قسم أمير المؤمنين في النسب والاشجعة، وقد فرق الله بينه وبينه في الولاية والحرمة، بمفارقة عصم الدين، وخروجه من الأمر الجامع للبسلين، يقول الله عز وجل حين اقتص علينا نبأ ابن نوح (إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح) فلا طاعة لأحد في معصية الله، ولا قطيعة إذا كانت القطيعة في جنب الله. وكتاني إلى أمير المؤمنين وقد قتل الله المخلوع وردّاه رداء نكسه وأحصد لأمر المؤمنين أمره، وأنجز له وعده، وما ينتظر من صادق وعده حين ردّ به الألفة بعد فرقها، وجمع الأمة بعد شتاتها، وأحيا به أعلام الإسلام بعد دروسها.

وقد أصاب ابن الأثير في وصف الأمين بقوله : « لم نجد للأمين من سيرته ما نستحسنه فنذكره » ، ووصف ميور غبده بقوله « إنه كان عبداً مشيناً » .

المأمون

١٩٨ - ٢١٨ هـ = ٨١٣ - ٨٣٣ م

ولد عبد الله أبو العباس المأمون بن الرشيد سنة ١٧٠ هـ في الليلة التي مات فيها عمه الخليفة الهادي، وأمه أم ولد تسمى مراحيل. وقد ولّاه أبوه العهد وهو في الثالثة عشرة من عمره بعد أخيه الأمين، وأسند إليه ولاية خراسان وما يتصل بها إلى ممدان. ولما توفي أبوه لم يف له أخوه الأمين بعده، كما تقدم، بل عول على أن يقدم عليه في ولاية العهد ابنه موسى، فأبى المأمون ذلك ونسبت بينهما تلك الحروب التي انتهت بقتل الأمين في ٢٥ المحرم من سنة ١٩٨ هـ.

وقد بويع المأمون بالخلافة يوم قتل أخوه وكان المأمون إذ ذاك في الرمي. وظل مقبلاً بخراسان حتى قدم بغداد في منتصف شهر صفر سنة ٢٠٤ هـ. وقد وصفه صاحب الفخرى (٣) فقال :
« واعلم أنّ المأمون كان من عظام الخلفاء، ومن عقلاء الرجال، وله اختراعات كثيرة في ملكته، منها أنه أول من خص منهم عن علوم الحكمة، وحصل كتبها، وأمر بنقلها إلى الرمية وشهرها، وحلّ لإقليدس، ونظر في علوم الأوائل، وتكلم في الطب، وقرب أهل

(١) الطبري ج ١٠ ص ٢١٣ - ٢١٤. (٢) نفس المصدر ج ١٠ ص ٢١٤ - ٢١٥.

(٣) ص ١٩٧ - ١٩٨.

الحكمة . ومن اختراعاته مقاسمة أهل السواد بالحنين ، وكانت المقاسمة المعبودة النصف . ومن اختراعاته إلزام الناس أن يقولوا بخلق القرآن . وفي أيامه نشأت هذه المقالة ، ونوظر فيها أحمد بن حنبل وغيره . ولما مات المأمون أوصى أخاه المعتصم بها ، فلما ولي المعتصم تكلم فيها ، وضرب أحمد بن حنبل . ومن اختراعاته أيضا نقل الدولة من بني العباس إلى بني علي عليه السلام ، وتغيير الناس السواد بلباس الحضرة ، وقالوا هو لباس أهل الجنة .

الأحوال الداخلية :

مال المأمون أول الأمر إلى العلويين ، واتخذ الحضرة شعارهم . وصاهر علياً الرضا ، وولاه عهده ، وأنزل العلويين منازل المرو والكرم ، وظل على ذلك حتى عزم على المسير إلى بغداد ، ومات علي الرضا وهو في طريقه إليها ، على ماسيأى . ومع ذلك لم يغير المأمون سياسته نحو العلويين بعد أن رجع إلى السواد شعار العباسيين ، إلى أن قام باليمن عبد الرحمن بن عبد الله العلوي سنة ٢٠٧ هـ ، فبعث إليه المأمون أحد زبجائه ، فأمنته ، وألبسه السواد .

وفي سنة ٢٠٣ هـ ولي المأمون محمدا الرضا ببلاد تهامة ، ليقضى على المتشيعين فيها ، فاختطف مدينة زيد ، وأصبح أشبه بملك مستقل ؛ إلا أنه كان يطلب للعباسيين ويؤدي لهم الخراج ، وظل الملك في أعقابها إلى سنة ٥٥٣ هـ . وبذلك انسلخت هذه البلاد عن الدولة العباسية . وكانت الدولة الزيدية أول دولة استقلت ، لكن ، كما كانت الحال بالنسبة إلى دولة الأغالة التي أسسها الرشيد في سنة ١٨٤ هـ ، لتكون حاجزاً بين بلاده وبلاد الإدارة ، فاعتز ملكهم ، وقويت شوكتهم ، إلى أن أزال الفاطميون دولتهم . وقد انسلخت هاتان الدولتان عن الدولة العباسية ، وكان السبب في تكوينها خوف الخلفاء العباسيين من أن يمتد نفوذهم العلويين إلى بلادهم .

وقد ثار أهل بغداد وولوا إبراهيم بن المهدي الخلافة حين كان المأمون يهجو ، فلما أحس الناس بقدوم المأمون خلعوا إبراهيم ، فاختفى ، ثم قبض عليه ، ففعا عنه المأمون ، وقر به إليه ^(١) . وقد قبض على إبراهيم في سنة ٢١٠ هـ عقب اكتشاف مؤامرة بزعامة إبراهيم بن محمد ابن عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام المعروف بابن عائشة ، ترى إلى اغتيال المأمون وتولية إبراهيم بن المهدي الخلافة . لما ابن عائشة فقد أمر المأمون بأن يقام ثلاثة أيام في الشمس ، ثم ضرب بالسياط وحبس ، ثم قتل وصلب ^(٢) . وأعقب ذلك القبض على إبراهيم بن المهدي وهو ممتري بزي امرأة . ويقول الطبري ^(٣) أخذ إبراهيم . . . وهو منتقب مع امرأتين في زي امرأة ، أخذه حارس أسود ليلاً ، فقال : من أنتن ؟ وأين تردن في هذا الوقت ؟ فأعطاه إبراهيم فيما ذكر خاتمه باقوت كان في يده ، له قدر عظيم ليخبلن ولا يأسجن ، فلما نظر

(١) السبوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٠٥ . (٢) الطبري ج ١٠ ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

(٣) نفس المصدر ج ١ ص ٢٧٠ - ٢٧١ .

الحارس إلى الخاتم استراب بن وقال ، هذا خاتم رجل له شأن ، فرفعه إلى صاحب المسلحة ، فأمره أن يسفرن ، فتمنع إبراهيم ، فجذبه صاحب المسلحة ، فبذت لحيته ، فرفعه إلى صاحب الجسر ، فرفعه ، فذهب به إلى باب المأمون ، فأعلم به ، فأمر بالاحتفاظ به في الدار . فلما كان غداة الأحد ، أقعد في دار المأمون ، لينظر إليه بنو هاشم والقواد والجند ، وصيروا المقنعة التي كان متنقبا بها في عنقه ، والمحففة التي كان ملتحفا بها في صدره ، ليراه الناس ، ويعلموا كيف أخذ . فلما كان يوم الخميس حوّل المأمون إلى منزل أحمد بن أبي خالد ، لحبسه عنده ثم أخرجه المأمون معه ، حيث خرج إلى الحسن بن سهل بواسط ، فقال الناس إن الحسن كلمه فيه ، فرضى عنه ، وخلق سيّله ، وسيره عند أحمد بن أبي خالد ، وسير معه خالد بن يحيى بن معاذ ، وخالد بن يزيد بن مزيد بحفظانه . إلا أنه "موسع" عليه ، عنده أمه وعياله ، ويركب إلى دار المأمون وهؤلاء معه يحفظونه ، فلما أدخل على المأمون قال له : هيه يا إبراهيم ، فقال يا أمير المؤمنين وليّ التّأرّعكم في القصاص والعفو أقرب للتقوى ومن تناوله الاغترار بما دله من أسباب الشقاء ، أمكن عادية الدّهر من نفسه ، وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب ، كما جعل كل ذي ذنب دونك ، فان تعاقب فيحكك ، وإن تمف فيفصلك ، قال : بل أعفوا يا إبراهيم ، فكبر ثم خر ساجدا . (وقيل) إن إبراهيم كتب هذا الكلام إلى المأمون وهو مخفف ، فوقع المأمون في حاشية رقعة : القدره تذهب الحفيظة ، والتندم توبة ، وبينهما عفو الله ، وهو أكبر ما نسأله ، فقال إبراهيم يدح المأمون :

يا خير من ذملت يمانية به	بعد الرسول لايس ولطامع
وأبر من عبد الإله على التّقى	عينا وأقوله بحق صادق
ملئت قلوب الناس منك عفاة	وتبيت تكلّوم بقلب خاشع
بأبي وأبي فدية وبنيهم	من كل مقضلة وربّ واقع
لصالحات أخا جعلت ولتقى	وأبا رؤوفا للفقير القانع
نفسى فدائك إذ تهلّ معاذرى	وألوذ منك بفضل حلم واسع
فبذلت أفضل ما يليق يبذله	وسع النفوس من الفعال البارع
وصفوت عن لم يكن عن مثله	عفو ولم يشفع إليك بشافع
إلا اللو عن العقوبة بعد ما	ظفرت يداك بمستكين خاضع
فرحت أطفالا كأفراخ القطا	وعويل عانسة كقوس النازع
ما إن عصيتك والفؤاد تقودنى	أسبأها إلا بنية طامع
لم أدّر أن لشل جرى غافرا	فوقفت أنظر أى حتف صارعى
ردّ الحياة على بعد ذهابها	ورع الإمام القادر المتواضع
إن أنت جدت بها على تكن لها	أهلا وإن ممنع فأعدل مانع

إن الذي قسم الخلافة حازها في صلب آدم للامام السابع
جمع القلوب عليك جامع أمرها وحوى رداؤك كل خير جامع

وفي عهد المأمون شق نصر بن شيبث عصا الطاعة ، وكان عرياً يتمصب للأمين ، لأنه يمثل النصر العربي ، وينقم على المأمون ، لانتخاذه الخراسانيين دون العرب أنصاراً له . وقد تغلب نصر على ما جاوره من البلاد ، وشابهه كثير من العرب . ولما انتصر طاهر بن الحسين على الأمين ، واستولى على العراق ، نذبه المأمون لمحاربة نصر ، وولى الحسن بن سهل العراق ، وطلب من طاهر بن الحسين أن يسير لمحاربة نصر ، وأن يتخذ الرقعة مركزاً لأعماله الحربية . ولكن طاهراً لم يجد في حرب نصر ، لأنه كان يحقد على المأمون ووزيره الفضل بن سهل ، لانتزاعه بلاد العراق منه ، وأحرزت جيوش نصر بن شيبث النصر على جيوش طاهر بن الحسين . وأراد بعض العلويين أن يقيموا خليفة منهم ، فأبى نصر ذلك عليهم ، وقال : إنما هوأى في في بني العباس ، وإنما حاربتم محاماة عن العرب ، لأنهم يقدمون عليهم العجم . ولما قدم المأمون بغداد . استدعى طاهراً وولى ابنه عبد الله بن طاهر خراسان ، وكتب له كتاباً مشهوراً يوصيه فيه بمحاربة نصر ، لجد في حربه وحاصره حتى طلب الأمان . وكان المأمون قد نذب لإليمن يؤمته ، فأجاب على الأخطا بساط المأمون ، فأبى الخليفة ، واستمرت الحرب سجلاً بين الفريقين ، حتى أرغم نصر على طلب الأمان ، وسبق إلى بغداد في شهر صفر سنة ٢١٠ هـ ، بعد أن حارب جيوش المأمون نحواً من خمس سنين (١) .

كذلك عكر الزط صفو المأمون . وقد ذكر ابن خلدون أنهم قوم من أخطاط الناس غلبوا على طريق البصرة وعاثوا فيها ، وأفسدوا البلاد ، وهم المعروفون بالثور ، وأصلهم من هنود آسيا ، وكانوا يقيمون على سواحل الخليج الفارسي ، وانتهزوا قيام الفتنة بين الأمين والمأمون ، فاستولوا على طريق البصرة . ولما عاد المأمون إلى بغداد نذب عيسى بن يزيد البجلي لمدى لمحاربتهم (سنة ٢٠٥ هـ) . وفي سنة ٢٠٦ هـ ولى المأمون داود بن ماسجور البصرة وكوردجلة والحماة والبحرين ، ونذبه لمحاربة الزط ، فلم يكن لحربه هو ومن سبقه من القواد أثر ظاهر ، بدليل قول نصر بن شيبث عن المأمون حين ألح في أن يخطأ نصر بساطه : « إنه لم يفتقر على أربعمائة ضفدع تحت جناحه » . واستمر الزط يقاتلون القبايسين إلى أيام المعتصم ، حيث قضى عليهم في سنة ٢١٩ هـ .

ولكن نصر بن شيبث لم يقدر قوة الزط حق قدرها ، وليس أدل على هذا من أنهم أفلقوا القبايسين نحو خمس عشرة سنة . وقد روى الطبري (٢) عن أحد شعراء الزط قصيدة طويلة تنقل منها هذه الآيات :

(١) الحفري : تاريخ الدولة العباسية من ٢٦٥ — ٨٦٧ . واجع الطبري (ج ١٠ ص ٢٥٨ وما بعدها) في حوادث سنة ٢٠٥ هـ إلى سنة ٢١٠ هـ . (٢) (ج ١ ص ٣٠٧ .

يَاهْلُ بَغْدَادِ مُوتُوا دَامَ غَيْظُكُمْ
تَحْنُ الَّذِينَ صَرَبْنَاكُمْ مُجَاهَرَةً
مَنْ تَرَوْمُوا لَنَا فِي غَمَرٍ لَجِيئًا
شَوْقًا إِلَى تَحْنِ بَرْقِي وَسُهِرِي
قَسْرًا وَسَقَاتِكُمْ سَوْقِ الْمَاجِي
حَذَرًا نَصِيدُكُمْ مَحْصِدَ النِّقَاقِي

وفي عهد المأمون تار المصريون في سنة ٢١٠هـ، فبعث عبدالله بن طاهر لإخماد هذه الثورة، فاستولى على القسطنطين وأقر الأمن، ثم تفرغ لإصلاح البلاد، وزاد في جامع عمرو بن العاص. ولكن ولايته لم يطل أمدها، فعاد إلى العراق، وعادت الثورات في مصر سيرتها الأولى، وانتفض القبط، وخرج فريق من عرب مصر الذين كانوا يناصرون الأمين، فندب المأمون قائده الأفندي، ثم جاء إلى هذه البلاد بنفسه، وأعاد الأمن إلى نصابه (١).

على أن الحسن بن سهل لم يتمكن من سياسة أهل العراق بالحزم، كما شاع في تلك البلاد بعد خروج طاهر بن الحسين منها، أن الفضل بن سهل قد استبد بالأمور دون المأمون، وأنه أنزله قسراً حجباً فيه عن أهل بيته وقواده، مما أثار استياء بني هاشم ووجوه الناس في بلاد العراق، وثارت القلاقل في الأمصار، فقامت بضواحي الكوفة سنة ١٩٩هـ فتنة بزعامة أبي السرايا، الذي كان يدعو لأحد العلويين، وأوقع الهزيمة بجيوش الحسن بن سهل، مما اضطر أخاه الفضل - برغم شدة حقه على هرثمة - إلى أن يرسله على رأس جيش كبير لقمع حركة أبي السرايا الذي حلت به الهزيمة.

ولما قضى هرثمة على ثورة أبي السرايا، ولأه الخليفة بلاد الشام والحجاز، لكنه اعتذر عن قبول هذا المنصب، قبل أن يطلع المأمون بنفسه على حقيقة الحال في العراق وما يليه غرباً، ويوجه نظره إلى الخطر المحدق به. فلما بلغ هرثمة مرو حاضرة خراسان، خشي أن يخفى الفضل بن سهل خبر قدومه عن الخليفة، ف ضرب الطبول، ومالبت أن مثل بين يديه، وأفضى إليه بحقيقة الحال في الدولة الإسلامية، فجازاه على عمله هذا بحبس، ولم يزل في سجنه حتى قتل. على أن قتل هرثمة أثار غضب رجال الجيش في بغداد، وانتشرت الفوضى من جديد، فطالب أهلها على الحسن بن سهل، وأقاموا المنصور بن المهدي أميراً عليهم، بعد أن تنحى عن قبول الخلافة.

وقد أثارت مبايعة علي الرضا بولاية العهد غضب العباسيين، فنادوا بخلع المأمون وبايعوا إبراهيم بن المهدي بالخلافة كما تقدم، ولقبوه المبارك. فتصدى لهم الحسن بن سهل وأبى على العراق، غير أنه عجز عن إخماد هذه الفتنة. وظل إبراهيم بن المهدي خليفة ببغداد مدة سنتين.

ولما علم المأمون بما وصلت إليه الحال في بغداد من الاضطراب، عول على الرحيل إليها.

وبينما كان في طريقه إلى تلك المدينة دس لوزير الفضل بن سهل من قتله ، ففترق عنه أنصاره . ولما وصل إلى طوس حدثت حادثة أخرى ، هي وفاة عليّ الرضا . وقد اتهم المأمون بأنه سمه تقرباً إلى العباسيين .

قدم المأمون ببغداد فازدحمت جموع أهلها في الطرقات ، وتهلكت وجوههم فرحاً واختيشاداً بعودة الخليفة إلى حاضرة ملكه . وولى إبراهيم بن المهدي هارباً . وبعد أن استقر الأمر للمأمون في بغداد ، أسند الوزارة إلى الحسن بن سهل ، وطلب الزواج من ابنته بوران ، فرحب الوزير بهذه المصاهرة . وبذل على زفافها كثيراً من الأموال ، حتى لقد قدر بعض المؤرخين نفقات الزواج بخمسين مليون درهم .

ولما عرضت للحسن بن سهل علته التي أودت بحياته ، انقطع بداره ، واحتجب عن الناس ؛ فاستوزر المأمون أحمد بن أبي خالد ، وكان على جانب كبير من رجاحة العقل ، كما كان كاتباً فصيحاً ، بصيراً بعواقب الأمور . وقد استشاره المأمون في تولية طاهر بن الحسين على خراسان ، فنصوب هذا الرأي . على أن طاهراً لم يلبث أن قطع الخطبة للخليفة ، ووضع نواة الدولة الطاهرية ، فهدد المأمون وزيره ، وصمم على قتله إذا لم يعمل على التخلص من هذا الخارج ، فأرسل الوزير إلى طاهر هدية فيها كوامخ مسمومة ، فأكل منها ومات لسباعته .

استشار المأمون الحسن بن سهل فيمن بوليه الوزارة بعد أحمد بن أبي خالد ، فأشار عليه بتولية أحمد بن يوسف وأبي عباد بن يحيى وقال : هما أعرف الناس بطبع أمير المؤمنين ، فقال له : اختر له أحدهما ، فاختار له أحمد بن يوسف فاستوزره .

وكان أحمد بن يوسف كاتباً ، أديباً ، وشاعراً ، عالماً بأمور الدولة وآداب الملوك ؛ استشاره المأمون في رجل كان يكرمه أحمد ، فوصفه وذكر محاسنه فقال له المأمون : يا أحمد ، لقد مدحته على سوء رأيت فيه ، ومبادئه لك ، فقال ، لأنى لك كما قال الشاعر :

كني نمنما بما أسديت أنى صدقتك في الصديق وفي عدي
وأن حين تنسدي الأمر : يكون هداك أغلب من هوأى (١)

صفات المأمون :

كان المأمون يتحلى بكثير من الصفات . التي امتاز بها عن سائر الخلفاء العباسيين ؛ من ذلك ميله إلى العفو ، وكرامته للانتقام . وليس أدل على ظهور هذه الصفة فيه من عفو عن إبراهيم بن المهدي الذي تربع في كرمي الخلافة نحواً من سنتين ، وعن الفضل بن الربيع الذي حرمه من السلاح والعتاد ، الذي كان أبوه الرشيد قد أوصى بتسليمه إليه بعد وفاته ، فانه مع ذلك لم يعمل على التخلص منه ، وقال : « أما التقتل فلا أقتله ، ولكن أجعله بحيث إذا

قال لم يقطع ، وإذا دعا لم يجب . . وهذا أقل ما كان ينتظر من المأمون ، ولا سيما بعد أن بلغه ما كان من تنازع الفضل بن الربيع مع علي بن عيسى ، وتوجيهه معه قيلاً من الفضة ، بعد أن تنازعا في الفضة والحديد ليقبده بها .

وقد تحلى المأمون بكثير من الصفات التي ترجح كفة الحكم له في نظر المؤرخ ، على الرغم مما ظهر به من القسوة في إخماد الثورة التي قامت في مصر في سنتي ٢١٢ و ٢١٦ هـ ، وكذلك في معاملة يحيى بن أكرم وأبي دلف حين غضب عليهما .

وقد فاق المأمون الخلفاء العباسيين قاطبة في كرمه . يدل على ذلك ما أنفقه على زواجه من بوران بنت الحسن بن سهل ؛ فقد أمر عند انصراف الحسن من قم الصِّلح (١) بعشرة آلاف ألف درهم ، كما أقطعه قم الصِّلح ، وأطلق له خراج فارس وكور الأهواز مدة سنة . ومحدثنا صاحب الفخرى (٢) أنه لما وصل إلى دمشق قلَّ المال عنده ، فشكا ذلك إلى أخيه المصنم (وكان يلي بعض أعمال الدولة) ، فلم يمض أسبوع واحد حتى وافاه من المال ثلاثون ألف ألف درهم (الآلاف مكررة ثلاث مرات) ، فقال المأمون لقاضيه يحيى بن أكرم : وأخرج بنا للنظر إلى هذا المال ، ونخرج وخرج الناس معه . وقد زينَ الحل وزخرف فقال المأمون : إنَّ انصرافنا إلى منازلنا بهذا المال ، وانصراف الناس خائبيين لوم ، ثم أمر كاتبه أن يعطى لبعض خاصته ألف ألف ، وللبعض الآخر أكثر من ذلك ، حتى فرق أربعة وعشرين ألف ألف ألف ، ثم أمر لحول الباقي على الجيش ومصالحه .

وكان المأمون حاضر البديهة ، سريع الجواب ، ردَّى أن امرأة جاءت به وهو في مجلس من العلماء وقالت له : يا أمير المؤمنين ، مات أخي وخلف ستائة دينار ، أعطوني ديناراً . فأخذ المأمون بحسب ثم قال لها : هذا نصيبك ، فقال له العلماء : كيف علمت يا أمير المؤمنين ؟ فقال هذا الرجل خلف ابنتين ، قالت نعم ، قال فلهنَّ الثلثان أربعائة ، وخلف والدته ، فلها السدس مائة ، وخلف زوجة فلها الثمن خمسة وسبعون ، وبالله ألك اثنا عشر أخاً ؟ قالت نعم ، قال : أصابهم ديناران ديناران ، وأصابك دينار .

وقد أزعج المأمون كثير من الأحاديث التي أصبحت أقرب إلى الحكم ، من ذلك قوله : الناس ثلاثة : فهم مثل الغذاء لا بد منه على كل حال ، ومنهم كاللواذ يحتاج إليه في حال المرض ، ومنهم كاللواذ مكروه على كل حال .

وكان المأمون يقرب منه الشعراء ، كما حذق هو نفسه الشعر ، حتى نفقت سوقه ، وكثر الشعراء والمغنون وعلماء الكلام في عهده ، فمن شعره :

(١) هو إقليم على فناة كبيرة تعرف بهذا الاسم ، تأخذ من دجلة فوق واسط وتقع بين هذه المدينة وتل تقع عليه عدة مدن صغيرة ، زوج في أحدها الوزير الحسن بن سهل ابنة بوران المأمون - أنظر لفظ قم الصِّلح في معجم البلدان لياقوت . (٢) ص ١٩٧ .

لساني كنتم لاسراركم ودمعي نجوم لسرى مذبح
قلولا دموعي كنتم الهوى ولولا الهوى لم يكن لي دموع
وللأماون في الشطرنج شعر تنقل منه هذه الآيات :

أرضه مربعة حراء من آدم ما بين الفين معروفتين بالكرم
تذاكرا الحرب فاحتالا لها حيلة من غير أن يأثما فيها بسفك دم
هذا يستمر على هذا وذاك على هذا يغير وعين الحزم لم تتم
فانظر إلى فطن جالت بمعرفة في عسكرين بلا طبل ولا علم

وكان المأمون يميل إلى الإقناع في الجدل والمناقشة ، واحتمال آراء المتناظرين إذا لم تتفق مع آرائه وميوله ، والعمل على قطع دابر الرياء والنفاق ، وغيرهما من الرذائل التي كانت متفشية بين قواده وجنوده .

وتوفي المأمون في آخر غزواته ببلاد الدولة البزنطية ؛ فقد أصابته الحمى وهو في شمال مدينة طوس ، وتوفي في الثامنة والأربعين من عمره ، وكان قد عهد بالخلافة من بعده إلى أخيه أبي إسحق بن الرشيد ، وأحسن بذلك إلى أسرته وإلى نفسه .

المعتصم

٢١٨ - ٥٢٢٢ = ٧٣٣ - ٨٤٢ م

ولد أبو إسحق محمد المعتصم سنة ١٧٨ هـ ، وأمه أم ولد تسمى ماردة^(١) ، وأبوه هارون الرشيد . وكان يلى في عهد أخيه المأمون ببلاد الشام ومصر . ولما مرض المأمون عهد إليه بالخلافة ، وعُدل عن تولية ابنه العباس الذي كان يتمتع بشهرة واسعة بين جند العرب . ولعل السبب الذي حمله على ذلك ، هو أنه رأى في شدة شكينة المعتصم ومثانة خلقه ما يضمن له تنفيذ السياسة التي رسمها لدولته .

وقد أوصى المأمون أخاه المعتصم وصية جاء فيها^(٢) : « يا أبا إسحق اؤدب مني ، واتعظ بما ترى ، وخذ بسيرة أخيك في القرآن ، واعمل في الخلافة إذا طوتكها الله عمل المريد لله ، الخائف من عقابه وعذابه ، ولا تقرب باقعه ومهلهته ، فكأن قد نزل بك الموت ، ولا تتغفل أمر الرعية ، الرعية الرعية ، العوام العوام ، فإن الملك بهم ؛ ويتهدك المسلمين والمنفعة لهم ، الله الله فيهم وفي غيرهم من المسلمين ، ولا ينتهين إليك أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة لهم إلا لا قدمته وآثرته على غيره من هواك ، وخذ من أقويائهم لضغائنهم ، ولا تحمل عليهم في

(١) ذكرها السعدي (مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤٥) مارية وذكرها الطبري ج ١١ ص ٩ والسيرطي من ٢٢٢ ماردة . (٢) الطبري ج ١٠ ص ٢٩٤ .

شيء ، وأنصف بعضهم من بعض بالحق بينهم ، وقرَّبهم وتأمَّنهم (١) ، وعجَّل الرحلة عنى والقدوم إلى دار ملكك بالعراق ، وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساجتهم ، فلا تفعل عنهم في كل وقت . والخبر ميثم فاعزهم ذا سحرامة وصرامة ، واكتنفه بالأموال والسلاح والجنود ، من الفرسان والرجالة ، فإن طالت مدتهم ، فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك ، واعمل في ذلك مقدِّم النية فيه ، راجياً ثواب الله عليه .

وقد بويح المعتصم يوم وفاة أخيه المأمون في التاسع عشر من شهر رجب سنة ٢١٨ هـ ، ورفض الجند أن يدخلوا في طاعته في مبدأ الأمر ، وأرادوا تولية العباس بن المأمون ، ولكنه أسرع إلى مبايعة عمه بالخلافة ، احتراماً لوصية أبيه ، لهذا الجيش حذره (٢) .

وقد وصف صاحب كتاب الفخرى (٣) المعتصم في هذه العبارة : « كان المعتصم سديداً الرأي ، شديد المنة ، يحمل ألف رطل ويمشي بها خططوات ، وكان موصوفاً بالشجاعة ، وسمى المُنْمَن من أحد عشر وجهاً : هو الثامن من ولد العباس ، والثامن من الخلفاء ، وتولى الخلافة وعمره ثمان عشرة سنة ، وكانت خلافته ثمان سنين وثمانية أشهر ، وتوفي وله ثمان وأربعون سنة ، وولد في شعبان ، وهو الشهر الثامن ، وخلف ثمانية ذكور وثمان بنات ، وغزى ثمان غزوات ، وخلف ثمانية ألف ألف درهم . »

الفن والثورات :

اتبع المعتصم وصية أخيه المأمون في حمل الناس على القول بخلق القرآن ، مع أنه لم يكن له حظ من العلم يجعله ذا رأى في مثل هذه المسألة ، وإنما كان يتفقد وصية المأمون ، وزاد عليه في إلحاق الأذى بكل من يعترف بذلك من العلماء وأهل الرأي : فأهان أحمد بن حنبل أهانة بالغة وسجنه ، وأصبح كل عالم أو قاض هدفاً لخطر الضرب بالسياط والتعذيب ، إذا لم يأخذ برأى المعتزلة في القول بخلق القرآن (٤) .

ولم تكن سياسة المعتصم نحو العلويين أقل شدة من سياسة الخلفاء العباسيين قبله ، إلا إذا استثنينا المأمون . فقد ذكر المسعودي أن المعتصم تخلص من محمد الجواد بن علي الرضا ، الذي كان المأمون قد تزوج ابنته أم الفضل ، ولكنه مات بعد وصوله إلى بغداد في سنة ٢١٩ هـ ، فأنهت زوجته بدس السم له . وقد يكون ذلك بإيعاز المعتصم نفسه ، خشية أن تحدته نفسه بالمطالبة بالخلافة ، لأن أولاده من سلالة المأمون ، ولأن أباه عليا الرضا قد ولَّاه المأمون العهد قبل وفاته ، وبذلك تتول الخلافة إلى أبيه ، ثم إليه من بعده (٥) .

كذلك خرج على المعتصم محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي ،

(١) وردت في الطبري ج ١٠ ص ٢٩٤ ، وتأفهم .

(٢) الطبري ج ١٠ ص ٣٠٤ . (٣) ص ٣٠٩ — ٣١٠ .

(٤) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤٩ ، (٥) نفس المصدر ج ٢ ص ٣٤٨ .

فقد أثار في نفس المعتصم المخاوف التي أثارها محمد بن علي الرضا من قبل . ولكنه توكل عن الكوفة إلى خراسان فراريا من بطش المعتصم به ، وانضم إليه كثير من أهلها ، وحارب جيوش الخليفة العباسي في كثير من المواقع ، حتى حمله عبد الله بن طاهر إلى المعتصم ، لحبسه بأسراما . وقد اختلف الناس في وفاته : فهم من قال إنه مات مسموما ، ومنهم من قال إن بعض شيعته أخرجه من مكانه وذهبوا به إلى مكان ما ، ومنهم من زعم أنه حتى لم يمت ، وأنه المهدى المنتظر ، وأكثرت بناحية الكوفة وبلاد طبرستان وجبال الديلم (١) .

ومن المصاعب التي واجهت المعتصم في خلافته وهددت مرافق دولته ، فتنة الهنود المعروفين بالزط ، الذين استولوا على طريق البصرة ، وفرضوا المكيوم الجائرة على السفن ، ثم حاولوا دون وصول الثغرة والأقوات إلى بغداد .

وقد نذب المعتصم عفيف بن عثبسة - أحد القواد من العرب - فسكر بالقرب من واسط ، وسد الأنهار عليهم ، وأحاط بهم من كل جانب ، وقال لهم تسعة أشهر ، ثم أرغهم على طلب الأمان . وكان عددهم سبعة وعشرين ألفا ، بين رجال ونساء وأطفال ، لحملهم عفيف في السفن ، ودخل بهم بغداد يوم عاشوراء من سنة ٢٢٠ هـ ، فشاهد المعتصم ورجال دولته ، ثم أمر بهم فنفوا إلى آسيا الصغرى ، وظلوا هناك إلى أن أسره البزنطيون سنة ٢٢٤ هـ . ومن ثم وجدوا طريقا إلى أوروبا ، وعرفوا هناك باسم Gypsies أو التور ، ويقعون عادة في خارج المدن (٢) .

وكان من أثر السياسة التي سار عليها المعتصم في الاستمالة بالأتراك ، وإجزاله الهبات والمعايا لهم دون غيرهم ، أن دب في نفوس العرب ديبب الغيرة والحسد لولا الأتراك ، وقام صديف ذلك القائد العربي الذي أبلى بلاء حسنا في محاربة الزط ، بثورة على قواد الترك الذين أساءوا معاملة العرب ، بل عزم على التخلص من المعتصم نفسه ، فأغرى العباس بن المأمون بالخروج على عمه والمطالبة بعرشه . ودخل قواد العرب في حلبة هذه المؤامرة ، وانفقوا على قتل المعتصم والأفنين وأشناس إذا تم توزيع الغنائم التي استولى عليها المسلمون من البزنطيين في موقعة حمص المشهورة .

على أن خبر هذه المؤامرة قد تسرب إلى المعتصم ؛ فقد لعبت الحريرما بلب العباس ولب بعض المتآمرين ، فأفوضوا بسر المؤامرة إلى المعتصم ، فنع الماء عن العباس حتى مات ولحق به عفيف (٣) .

وبذلك قضى المعتصم على هذه المحاولة في مهدها ، ولكنه لم يتخلص من سوء أثرها ، فقد

(١) الطبري ج ١٠ ص ٣٠٥ ، والمسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤٨ - ٣٤٩ .

(٢) الطبري ج ١٠ ص ٣٠٦ ، ٣٠٦ ، Muir: The Caliphs, p. 514 .

(٣) الطبري ج ١٠ ص ٣٤٤ .

أوقفته في أيدي قواده الأتراك ، وأدت إلى إقصاء قواد العرب والفرس تدريجيا وإسقاطهم من ديوان العطاء . يقول ميور في كتابه The Caliphate (١) « وما زاد هذه الحالة سوءاً أن الأتراك أنفسهم لم يكونوا جادين في إخلاصهم للخليفة ، فقد تغلبت على نفوسهم عوامل الرغبة في انتزاع السلطة ، وغدا الخلفاء في أثناء وجود البلاط العباسي في سامرا الألعيب في أيدي قواد الأتراك » .

ومن الحوادث الهامة التي وقعت في عهد المتعمم فتح عمورية وهدمها ، والثورات التي أشعلها بابك الخرمي ومازيار والأفشين ، على ما سيأتي مفصلاً في الباب الثالث ، وتأسيس مدينة سامرا التي اتخذها حاضرة لدولته (الباب السابع) .

وكان لاعتقاد المتعمم على الأتراك أثر سيء في نفوس العرب كما رأينا ، فثاروا في بلاد الشام تحت زعامة أبي حرب المبرقع البغلي ، الذي أشعل نار الفتنة في فلسطين قبل موت المتعمم بقليل ، بسبب دخول أحد الجند في داره وهو غائب . فلما عاد وعلم بالخبر قتل هذا الجندي ، وخاف على نفسه فلبس برقا وهرب إلى بلاد الأردن ، حيث أخذ يمرض الناس على الخليفة المتعمم . « وكان يزعم أنه أموي ، فقال الذين استجابوا له : هذا هو السفنياني . فالتفت حوله كثير من أهالي هذه البلاد ، وخاصة البغليانية ، فأرسل إليه المتعمم قائده رجاء بن أيوب الحضاري في زهاء ألف رجل من الجنود . فلما سار رجاء إليه وجده في عالم من الناس ، فذكر الذي أخبرني بقصته أنه كان في زهاء مائة ألف ، فكره رجاء مواقمته وعسكر بمخاضاته ، وطاوله حتى كان أول عمارة الناس الأرضين وحرثهم ، وانصرف من كان من الحرثيين مع أبي حرب إلى الحرثانة ، وأرباب الأرضين إلى أرضهم ، وبقي أبو حرب في نفر قليل ، فأحل به قائد المتعمم المهزبة ، وأمره ، وجاء به إلى سامرا (٢) .

كذلك أثار الأكراد الفتنة في بلاد الموصل على يد جعفر الكردى ، فبعث إليهم المتعمم لإتياخ أحد قواد الأتراك لقتاله (في المحرم سنة ٢٢٧ هـ) ، ثم وثب أحد أصحاب جعفر به فقتله ، وذلك في أوائل خلافة الواثق (٣) .

صفات المتعمم

حكم المتعمم الدولة العباسية حكما استبداديا مقرونا بشيء من العطف وحسن التدبير ، حتى وصفه المبعودي بحسن السيرة واستقامة الطريقة (٤) .

وكان المتعمم شغيفاً بالفقراء والضعفاء ، محباً للبذل : رأى شيخاً ضعيفاً في يوم مطير قد غاص حماره في الوحل ، وسقط ما عليه من الشوك الذي يستعمله أهل العراق في التدفئة ، فأخرج الحمار من الطين ، وحمل الشوك فوضعه عليه ، ثم غسل يديه في غدير ، واستوى على

(١) p. 517. (٢) الطبري ج ١١ ص ٥ - ٦ .

(٣) الطبري ج ١١ ص ٦ . (٤) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥٦ .

دأبته ، ولحق به حرسه بجيولهم ، بعد أن أمر بعض خاصته أن يعطى هذا الشيخ أربعة آلاف درهم .

وقد علق ميور^(١) على هذه الحكاية موازنا بين ما فعله المعتصم في هذه الحادثة ، وما فعله في مدينة عمورية التي انتصر فيها على البيزنطيين ، فقال : « ولقد رأى المعتصم من الشرف أن يعطى بمدينة زاهرة يبلغ سكانها مائتى ألف نسمة ، وتقدر ثروتها بالملايين . ومع ذلك فقد نزل هذا الخليفة عن صهوة جواده ، ولوث رداءه ، ليخلص شيخنا ضعيفا قد وقع محاربه في حفرة من الطين . وأى هذه الأفعال قد ذكرها بالسرور والغبطة حين ناداه ملك الموت ؟ » . وقد أصيب المعتصم في آخر أيامه بمرض قضى عليه لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ ، فرثاه وزيره محمد بن عبد الملك الزيات بقوله :

قد قلت : إذ غيبوك واصطفقت عليك أيد بالترب والطين
أذهب فنعهم الحفيظ كنت على الدنيا . ونعهم الظهير للدين
ما يجسر الله أمة فقدت مثلك إلا بمثل هارون^(٢)

الوائق

٢٢٧ - ٢٢٣ = ٨٤٢ - ٨٤٧ م

ولد هارون الواثق بالله بن المعتصم في شهر شعبان سنة ١٨٦ هـ ، وأمه أم ولد رومية يقال لها قرطيس . وكان الواثق منذ حداثة راجح العقل ، بصيراً بتصرف الأمور سياسياً ماهراً ، موصوفاً بكثير من الخلال التي جعلت أباه يعتمد عليه في أثناء غيابه عن مقر خلافته ، فتركه في بغداد سنة ٢٢٠ هـ حين صار لبناء مدينة سامرا التي اتخذها قاعدة لخلافته ، كما أنابه عنه سنة ٢٢٣ هـ في استقبال الأتقيين بعد رجوعه منتصراً في حرب بابك الخرمي ، وعهد إليه بفتح صمورية .

ولى المعتصم ابنه الواثق عهده ، وولى الخلافة في شهر ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ ، واقتدى بأبيه في الاعتماد على الأتراك الذين كثر عددهم وشغلوا المناصب العالية في الدولة ، فولى أشتناس التركي السلطة ، وتوجه بتاج مرصع بالجواهر . وقد علق السيوطي^(١) على ذلك بقوله : « وأظن أنه أول خليفة استخلف سلطاناً ، فإن الترك إنما كثروا في عهد أبيه » .

الأحوال الداخلية :

وفي أوائل عهد الواثق ثارت التقيسة يدمشق وحاصروا واليها ، فأرسل إليهم جيشاً

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٥ .

(١) The Caliphate, p: 519.

(٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٢٦ .

بقيادة رجاء بن أيوب ، فانتصر عليهم في مرج راهط ، وقتل منهم نحو ألف وخمسمائة ، وانهمزم الباقون وعاد الأمن إلى نصابه (١) .

ذكر الطبري أن بني سليم وغيرهم من البدو عاثوا فساداً في بلاد الحجاز ، فنهبوا الأسواق ، وامتد أذاهم إلى كثير من الناس ، وقطعوا الطرق ، وأوقعوا مجند والى المدينة المنورة ، فأرسل إليهم الوراق في شهر شعبان سنة ٧٣٠ هـ جيشاً بقيادة بُغا الكبير أحد قواد الإنتراك ، فقتل منهم نحو خمسين رجلاً ، وأسر مثلهم ، وقبض على نحو ألف رجل منهم عن عرفوا بالشر والفساد وحبسهم بالمدينة . ثم سار لإخضاع بني مُثَرَّة بَعْدَن ، لحاول هؤلاء الخروج من حبسهم وثاروا في المدينة ، فأحاط بهم أهلها وقتلهم عن آخرهم . ثم عاد بُغا إلى سامرا بعد أن أقر الأمن في جزيرة العرب الشمالية ، واشتبك على غير جدوى في عدة حروب مع القبائل المناوئة للخلافة في أواسط هذه البلاد وجنوبها .

وقد سار الوراق على سياسة أبيه المعتصم في الانتصار للمعتزلة ، وتشدد في فرض آرائه الدينية على الناس . مما أدى إلى إثارة خواطر أهل بغداد ، فتآمروا عليه . وكان أحمد بن نصر رأس هؤلاء الساخطين الذين أنكروا القول بخلق القرآن ، وحملوا على الوراق حملة شعواء ، ودعوا إلى عزله ، فالتف حوله كثير من أنصاره ، وعينوا يوماً ينفذون فيه مؤامرتهم ، على أن يضربوا الطبول في الليلة السابقة لذلك اليوم . بيد أن الرجلين اللذين عهد إليهما تنفيذ ذلك الأمر أكثرا من شرب الخمر في تلك الليلة ، وأخذ الفريق الذي رابط على الجانب الشرقي يدق الطبول ، فلم يجبه أصحابهم الذين رابطوا في الجانب الغربي . وكشفت المؤامرة قبل أن يستفحل خطرهما ، وقبض على أحمد بن نصر وأعوانه ، وسبقوا إلى الخليفة الوراق بسامرا قاعدة خلافته ، فبعد لم يجلسا للنظر . وطرحتا مسألة الشعب والخروج على الخلافة جانباً ، وناظر الخليفة أحمد بن نصر في مسألة خلق القرآن فقال له : يا أحمد ! ما تقول في القرآن ؟ قال : كلام الله ، قال : أعنلوق هو ؟ قال : هو كلام الله ، قال : فما تقول في ربك أتراه يوم القيامة ؟ قال : يا أمير المؤمنين جاءت الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر لا تضامون في رؤيته » ، فنحن على الخبر ، فقال الوراق لمن حوله : ما تقولون فيه ؟ فقال القاضي عبد الرحمن بن أسحق : هو حلال الدم ، وقال غيره . أسقى دمه يا أمير المؤمنين ، وواقفه الحاضرون إلا ابن أبي دؤاد قاضي القضاة فإنه قال : يا أمير المؤمنين ، كافر يستتاب لعل به أهة أو تغير عقل ، فقال الوراق : إذا رأيتوني قد دقت إليه ، فلا يقوم أحد معي ، فإنني أحسب خطاي إليه ؛ ودعاً بالصمصامة ، سيف عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، ذلك الفارس البري الذي ذاع صيته سيفه ، وكان قد أهدى إلى الخليفة الهادي العباسي وودعه خلفاؤه ، وضربه على عنقه ورأسه ، وضربه أحد خاصته فقطع عنقه ، وحز رأسه ، وحمل إلى

بنداد ، وصلب في الجانب الغربي أياما ، وفي الشرق أخرى ، ووضعت في أذنه رقعة فيها : « هذا رأس الكافر المشرك الضال احمد بن نصر بن مالك من قتل الله تعالى على يدى عبد الله هارون الإمام الوائى بالله أمير المؤمنين ، بعد أن أقام عليه الحجة في خلق القرآن ونفى التشبيه وعرض عليه التوبة ، ومكثته من الرجوع إلى الحق ، فأبى إلا المعاندة والتصریح والحد لله الذى جعل به إلى ناره وأليم عقابه » (١) .

وقد تمتع ولاية الأقاليم في عهد الوائى بنفوذ كبير ؛ فكان عبد الله بن طاهر بن الحسين يدبر شئون ولاية خراسان وطبرستان وكرمان ، وأسند هذا الخليفة لأشناس التبركي أعمال الجزيرة والشام ومصر والمغرب ، فولى عليها ولاية من قبله ، وهو مقيم بإسمرامركز الخلافة . وكان الضعف والتحكم يشوب إدارة الوائى . فقد سأل أحد جلسائه ليلة أن يقص عليه قصة نكبة البرامكة على يد جده الرشيد ؛ فلما سمع القصة ، وعرف كيف انتزع الرشيد منهم الأموال قال : « صدق والله جدى ، إنما العاجز من لا يستبد . ولم يحضر أسبوع واحد حتى أوقع بكتابه وأخذ من كل منهم مبلغا يتراوح بين أربعة عشر ألفا وألف ألف دينار . ومن هنا نفق على مبلغ نفقش الرشوة والفساد بين رجال الدولة في ذلك العهد » (٢) .

وقد ذكر المسعودى (٣) أن أحمد بن أبي ذؤاد المعتزلى ومحمد بن عبد الملك الزيات الوزير قد غلبا على الواثق ، فكان لا يصدر إلا عن رأيهما ، وقلدهما الأمر وفوض إليهما ملكة .

وقد ذكر المسعودى (٤) أيضا وصف أحد الأعراب رجال الدولة في عهد الواثق فقال : « ذكر أبو تمام حبيب بن أوس الطائى الجاسسى (نسبة إلى جاسم وهي قرية من أعمال دمشق بين بلاد الأردن ودمشق بموضع يعرف بجاسم على أميال من الحماية) قال : خرجت في أيام الواثق إلى سمر من رأى ، فلما قربت منها لقيني أعرابى ، فأردت أن أعلم خبر العسكر منه فقلت : يا أعرابى ، من أنت ؟ قال من بنى عامر ، قلت : كيف علمك بعسكر أمير المؤمنين ؟ قال قتل أرضا عالمها ، قلت : ما تقول في أمير المؤمنين ؟ قال وثق بالله فكفاه ، أشجى القاصية وقسم العادية ، ورغب عن كل ذى جناية . فقلت : فما تقول في أحمد بن أبي ذؤاد قال : هضبة لا ترام ، وجبل لا يضام ، ثم سجد له المئدى ، ونصّب له الجبال ، حتى إذا أقبل كان خد وثب وثبة الذئب ، وختل خلة الضب . قلت : فما تقول في محمد بن عبد الملك الزيات ؟ قال : وسع الناس شره ، ووصل إلى البعيد ضره ، له في كل يوم صريع لا يرى فيه أثر ناب ولا غلسب . قلت : فما تقول في عمرو بن فرج ؟ قال ضخم نهم ، استعذب الدم ، بنصب اللوم .

(٢) الطبرى ج ١١ ص ١٠ — ١٢ .

(٤) ج ٢ ص ٣٥٦ — ٣٥٧ .

(١) الطبرى ج ١١ ص ١٧ — ١٨ .

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥٦ .

ترسا للدعاء . قلت : فما تقول في الفضل بن مروان ؟ قال زجل نثبش بعد ما قُفِر ، ليس تعد له حياة في الأحياء ، وعليه خفة الموت . قلت : فما تقول في الوزير ؟ قال تخاله كبش الزنادقة ، أما تراه إذا أحمله الخليفة سمين ورتح ؟ وإذا هزمه أمطر فأمرح ؟ قلت : فما تقول في أحمد ابن الحنصيب ؟ قال : ذاك أكل أكلة تنهم ، فزرق زرقنة بشيم . قلت : فما تقول في إبراهيم أخيه ؟ قال : أموات غير أحياء ، وما يشعرون أيا ن يشعشون . قلت : فما تقول في أحمد بن إسرائيل ؟ قال : لله دره ، أى فاعل هو ؟ وأى صابر هو ؟ أعد الصبر نارا أو الجود شعارا ، وأهون عليه بهم . قلت : فما تقول في المثل بن أيوب ؟ قال : ذاك رجل خير ، نصيح السلطان ، عفيف اللسان ، سلم من القوم وسلوا منه . قلت : فما تقول في إبراهيم بن رباح ؟ قال : ذاك رجل أوثق كرمه ، وأسلم فضله ، وله دعاء لا يسلمه ، ورب لا يخذله ، وفوقه خليفة لا يظلمه . قلت : فما تقول في الحسن ابنه ؟ قال : ذاك حود نضار غرس في منابت الكرم ، حتى إذا اهتز حصوده . قلت : فما تقول في نجاح بن سلة ؟ قال : لله دره ، أى طالب وتر ، ومدرك ثار ، يلتب كأنه شعله نار ، له من الخليفة في الأحيان جلسة تزيل نعمنا ، وتحمل نعمنا . قلت : يا أعرابي أين منزلك حتى آتيك ؟ قال ، اللهم غفرا ، مالى منزل ، أنا أشتعل النهار ، وألتحف الليل ، لحينا أذكر كفى الرقاد رقتهم . قلت : فكيف رضاك عن أهل السكر ؟ قال : إن أعطوني لم أحدم ، وإن ضيعوني لم أذنبهم ، وإنى كما قال هذا الغلام الطائي :

وما أبالى وخير القول أصدقه حققت لى ماء وجهى أو حققت دى
قلت : فأنا قاتل هذا الشر . قال أأنتك أنت الطائي ؟ قلت : نعم . قال لله أبوك ، وأنت القاتل :

ما جود كفك إن جادت وإن بخلت من ماء وجهى وقد أخلقته عرض ؟

صفات الواثق :

كان الواثق لا يبارى في علمه وأدبه ، حتى سمي المأمون الأصغر لادبه وفضله^(١) . وشغف بالوقوف على آراء العلماء والحكام ، فطلب من حنين بن إسحق أن يؤلف كتابا يذكر فيه الفرق بين الغداء والدواء والمسبل وآلات الجسد ، فألفه وسماه « كتاب المسائل الطبيعية »^(٢) .

وقد أفرد الواثق مجلسا للمناظرة في قصره ، مقتنيا في ذلك أثر عه المأمون . ويحدثنا المسعودي^(٣) أن الواثق سأل العلماء مرة في الزهد ، فأفاضوا القول فيه . ثم طالب إليهم أن

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٢٧ . (٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٦ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٦٨ .

يخبره كل منهم عن أحسن ماسمع من أقوال الحكماء الذين حضروا وفاة الاسكندر ، فقال أحدهم : يا أمير المؤمنين اكل ما ذكروه حسن ، وأحسن ما نطق به من حضر ذلك المشهد من الحكماء . « دوجانس » ، فقال إن الاسكندر أمس أنطق منه اليوم ، وهو اليوم أوعظ منه أمس . وقد نظم أبو العتاهية شعراً تمثل فيه هذه الحكمة فقال :

كفى حزننا بدفنك ثم أتى فضضت تراب قبرك من يديا
وكانت في حياتك لي عظامي وأنت اليوم أوعظ منك حيا

وكان الوراق شاعرا يقول الشعر ، ويجزل المعطاء للشعراء الذين زخر عصره بكثير منهم . ومن هؤلاء أبو تمام الذي مهد طريق الحكم والأمثال لأبي الطيب المتنبي وأبي العلاء المبري . وقد مدحه علي بن الجهم في قصيدة طويلة تنقل منها هذه الآيات :

قد فاز ذو الدنيا وذو الدين بدولة الوراق هارون
أفاض من عدل ومن نائل ما أحسن الدنيا مع الدين
قد عم بالإحسان في فضله فالتاس في خفض وفي لين
ما أكثر الداعي لها بالبقا وأكثر التالئ بآمين

وقال علي بن الجهم أيضا :

وقفت بالملك الراثق بالله النفوس
ملك يشقى به المائل ولا يشقى الجليس
أنس السيف به واستوحش العلق النفيس
أسدته ينجحك عن شدداته الحرب المبوس
بابني العباس يا بني الله إلا أن تسوسوا

وقد حكم الوراق الدولة العباسية أقل من ست سنين ، ولم يول عهده أحدا . ومثل في مرضى الموضع أن يوصى بالخلافة لولده ، فلم يقبل وقال : « لا أتعمل أمركم حيا وميتا » . وتوفي الوراق في شهر ذي الحجة سنة ٢٣٣ هـ . وبموته انتهى العصر الذهبي للدولة العباسية ، وذلك نتيجة طبيعية لهذه السياسة التي سار عليها أبوه المتصم ، الذي اعتمد على الأتراك ، وأحلمهم محل العرب ، وماجره هؤلاء من إثارة خواطر الأهلين ، بسبب تمسكهم بالبدع الدينية .

الباب الثالث

الحركات السياسية والدينية

١ - حالة الأحزاب السياسية عقب قيام الدولة العباسية

(١) إمراف العباسيين في التمثيل ببنى أمية :
تتبع السفاح البقية الباقية من بنى أمية وأنصارهم . ويخيل إلينا أنه إنما لجأ إلى هذه السياسة ، لما كان يضمره بنو هاشم لبنى أمية من عداوة منذ أيام الجاهلية ؛ والمداء بين بنى أمية وبنى هاشم باقى الأثر ، لم يرد في الإسلام إلا اتفاقا وازديادا . أضف إلى ذلك ما كان من تأثير الشعراء ورجال البلاط في إذكاء نيران هذا العداوة ، وما قام به بنو أمية من سفك دماء أهل البيت حين كان لهم السلطان .

وقد ذكر المؤرخون أن العباسيين أخذوا بثار إبراهيم الإمام ، قتل حران في عهد مروان ابن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، قتل عبد الله بن علي عم السفاح نحو ثلثمائة من بنى أمية ، منهم إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك أخو يزيد الناقص ، وذلك في شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ ، ثم قبض على يزيد بن معاوية بن عبد الملك وعبد الجبار بن يزيد بن عبد الملك ، وبعد بهما إلى أبي العباس فقتلهما وصلبهما ، ثم قتل ، وهو على نهر أبي فطرس بفلسطين ، خلفا كثيرا من بنى أمية . وقتل سليمان بن يزيد بن عبد الملك باللقاء وحمل رأسه إلى عبد الله ابن علي .

يقول المسمودي (١) : « ولما قتل عامر بن اسماعيل مروان ، وأراد المكنيسة التي فيها بنات مروان ونساؤه ، إذا بخادم لمروان شاهر السيف ، يحاول الدخول عليهن ؛ فأخذوا الخادم ، فقتل عن أمره فقال : أمرني مروان إذا هو قتل أن أضرب رقاب بناته ونسائه . فلا تفلتن ، فإنكم والله إن قتلتموني ليفقدن هيرات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا له أنظر ما تقول ، قال : إن كذبت فأقتلوني ، هلبوا فاتبعوني ، ففعلوا فأخرجهم من القرية إلى موضع رمل ، فقال : اكشفوا هنا ، فكشفوا ، فإذا البرد والقصيب ومحصر قد دفنها مروان لثلاث تصير إلى بنى هاشم ، فوجه بها عامر بن اسماعيل إلى عبد الله بن علي ، فوجه بها عبد الله إلى أبي العباس السفاح ، فتداولت ذلك خلفاء بنى العباس إلى أيام المقتدر . »

(٢٩٥ - ٣٢٠ هـ)

« ولما احتز عامر رأس مروان واحتوى على عسكره ، دخل الكنيسة التي كان فيها مروان ، ففقد على فرشه وأكل من طعامه ، فخرجت إليه ابنة مروان الكبرى ، وتعرف بأمر مروان فقالت : يا عامر إن دهرنا أنزل مروان عن فرشه حتى أقعدك عليها فأأكلت من طعامه واحتويت على أمره ، وحكمت في مملكته ، لقادر أن يفسد ما بك . ثم وجه عامر بنات مروان وجواريه والأسارى إلى صالح بن علي . فلما دخلن عليه تكلمت ابنة مروان الكبرى فقالت : يا عم أمير المؤمنين حفظ الله لك في الدنيا والآخرة . نحن بناتك وبنات أخيك ، فليسمنا من عفوك ما وسعكم من جورنا ، قال إذا لا نستقي منك أحدا رجلا ولا امرأة ، ألم يقتل أبوك بالأمس ابن أخى إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الإمام في محبة بجران ؟ ألم يقتل هشام بن عبد الملك زيد بن علي بن الحسين بن علي وصلي في كناسة الكوفة ، وقتل امرأة زيد بالحيرة على يد يوسف بن عمر الثقفي ؟ ، ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد وصلي بخراسان ؟ ألم يقتل عبيد الله بن زياد المدعى مسلمة بن عقيل بن أبي طالب بالكوفة ؟ ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين بن علي يد عمر بن سعد مع من قُتل بين يديه من أهل بيته ؟ ألم يخرج بحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا حتى ورد بين علي يزيد بن معاوية ، وقبل مقدمهم بعث إليه برأس الحسين بن علي قد نصب دماغه على رأس رمح يطاف به كور الشام ومداتها ، حتى قدموا به على يزيد بدمشق ، كأنما بعث إليه برأس رجل من أهل الشرك ؟ ثم أوقف حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم موقف السي يتصفحن جنود أهل الشام الجفأة الطغام ، ويطلبون منه أن يهب لهم حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، استخفافا بحقه صلى الله عليه وسلم ، وجرأة على الله عز وجل وكفرا لأنعمه ؟ فما الذى استبقينم منا أهل البيت لوعدتم فيه علينا ؟ قالت : يا عم أمير المؤمنين ، وليسمنا عفوك إذا . قال أما العفو فتعم ، قد وسعكم ، فإن أحببت زوجتك من الفضل بن صالح بن علي ، وزوجت اختك من أخيه عبد الله بن صالح . فقالت : يا عم أمير المؤمنين أى أوان عرس هذا ؟ بل تلحقنا بجران . قال : إذن أفل ذلك بكم إن شاء الله . فالتحق بجران ، فملت أصواتهن عند دخولهن بالبكاء على مروان ، وشققن جيوبهن ، وأعلن بالصياح حتى ارتجح العسكر بالبكاء منهن على مروان .

ولما أتى العباس برأس مروان ، ووضع بين يديه ، سجد فأطال ، ثم رفع رأسه فقال : الحمد لله الذى لم يبق نأرى قبلك وقبل رحلتك ، الحمد لله الذى أظفرك بك وأظفركى عليك ، ثم قال : ما أبالي متى طرقت الموت ، فقد قتلت بالحسين وبني أية من بني أمية مائتين ، وأحرقت شربوا^(١) هشام ، وابن عمى زيد بن علي ، وقتلت مروان بأخى إبراهيم ، ويمثل بقول الشاعر :

لو يشرىون دمي لم يشرى شاربهم ولا دماؤهم للقيظ ترويني

(١) الثلو من كل شيء : الجسد وهو المراد هنا ؟ والثلو أيضا : المضوجه أشلاء .

ثم حول وجهه إلى القبلة فأطال السجود ، ثم جلس وقد أسفر وجهه وبمثل بقول العباس
ابن عبد المطلب من أبيات له :

أبي قومنا أن يُنصفونا فأُنصفت قواطعُ في أيماننا تقطر الدما
تورثن من أشياخ صدق تقرىوا بين إلى يوم الوغى فتقدما
إذا خالطت هام الرجال تركتها كييفض نعمام في الوغى متحطما (١)

نعم لقد كان للشعراء ورجال البلاط أثر كبير في إشعال نيران العداء ضد بني أمية ، فإن
السفاح كان جالسا في مجلس الخلافة وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وقد أكرمه
السفاح ، فدخل عليه سديف الشاعر فأنقذه :

لا يفرنك ماترى من رجال إن تحت الضلوع داء دوبا
فضع السيف وارفع السوط حق لا ترى فوق ظهرها أمويا

فالتفت سليمان وقال : تلتقى باشيخ ، ثم دخل السفاح ، وأخذ سليمان فقتل . ودخل على
أبي العباس شاعر آخر ، وقد قدم الطعام ، وعنده نحو سبعين رجلا من بني أمية فأنقذه :

أصبح الملك ثابت الأساس بالبهليل من بني العباس
طلبوا وتر هاشم فصفوها بعد ميل من الزمان وياس
لا تقيان عيد شمس عثارا واقطن كل رقة (٢) وغراس (٣)
ذها أظهر التودد منها وجهها منكم كحر المواصي
ولقد غاظني وغازي سواي قريهم من نمارق وكرامى
أنزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والإتصاص
واذكروا مصرع الحسين وزيد وتقيلا بجانب المهراس (٤)
والقتيل الذي يحران أضحي (٥) ثاويا بين غربة وتنامى (٦)

أجل لقد أعاد إنشاد هذين الشاعرين ذكرى الماضي ، وماجره الأمويون على أنفسهم من
سخط الناس لتسليمهم بأهل البيت . ولا زالت مأساة إبراهيم الإمام عاتقة يال الخليفة العباسي .
فإذا كان من أمر هؤلاء الأمويين بعد هذه الذكريات المؤلمة التي أعادها إلى ذاكرة السفاح
شعراء دولته ؟ أمر السفاح بسليمان بن هشام فقتل ، ثم أمر بمن كان في داره من بني أمية فضربوا

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢١٣ . (٢) الرقل : جمع رقة وهي النخلة فانت اليد سموقا .

(٣) ما يفرس من سفار النخل . (٤) ماء مجبل أحد قتل عنده حزة بن عبد المطلب ودفن .

(٥) هو إبراهيم الإمام بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس . (٦) ابن الأثير ج ٥ ص ١٧٤ .

بالبساط ، وبسط الطوق (١) عليهم . وجلس فوقهم فأكل الطعام وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعا .

ولقد بالغ العباسيون في التشكيل ببنى أمية ، فولوا على استئصال شأنتهم ، فقتلهم أخوه وأعمامه في البصرة والكوفة والشام ، ونشوا قبر معاوية بن أبي سفيان ، فلم يجدوا فيه إلا خيطا مثل الهباء ، ونشوا قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيه حطاما كأنه الرماد . ولما قتل أبو العباس رجال بنى أمية واستصنى أموالهم وأطمأن على دولته من ناحيتهم قال :

بنى أمية قد أفنيت جمعكم فكيف لي منكم بالآل . الماضي
يطيب النفس أن النار تجمعكم عؤنتموا من لظاها شر معاض
منتم لا أقال الله عثرتم بليت غاب إلى الأعداء نهاض
إن كان غيظي لقوت منكم فلقد رضيت منكم بما ربي به راضى (٢)

على أن روح الانتقام الذى أضمره العباسيون لبنى أمية لم ينته بوقاة السفاح ، بل استمر طول العصر العباسى الأول . يقول ابن دأب ، وكان من خواص الخليفة الهادى : « دعانى الهادى وقت من الليل لم تهر العادقانه يدعوى فى مثله ، فدخلت إليه ، فإذا هو جالس فى بيت صغير شتى وقدامه جزء . ينظر فيه ، فقال لى : يا عيسى أقلت لبيك يا أمير المؤمنين ، قال : إلى أرقفتى هذه الليلة ، وتداعت إلى الخواطر ، ولشتمت على الموموم ، وهاج لى ما جرت إليه بنو أمية من بنى حرب وبنى مروان فى سفك دماائنا ، فقلت : يا أمير المؤمنين ! هذا عبد الله بن على قد قتل منهم على . نهر أبى فطرس فلانا وفلانا ، حتى أتيت على تسمية من قتل منهم ، وهذا عبد الصمد ابن على قد قتل منهم بالحجاز فى وقت واحد نحو ما قتل عبد الله بن على ، وهو القاتل لسفك دماائهم :

ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها أخذنى بثأرى من بنى مروان
ومن آل حرب لبت شيخى شاهد سفكى دماء بنى أبى سفيان

قال ابن دأب : فسر والله الهادى وظهرت منه أريحية ، فقال يا عيسى ، داود بن على هو القاتل ما ذكرت بالحجاز ، ولقد أذكر تنبها حتى كأتى ما سمعتهما ، فقلت : يا أمير المؤمنين ،

(١) روى المصمودى عن الميثم الطائى عن عمرو بن هاشم ، قال : خرجت مع عبد الله بن على لنهب قبور بنى أمية فى أيام أبى العباس السفاح ، فأتينا إلى قبر هشام فاستخرجناه صحيحا ما فقدناه منه إلا حشمة أهله ، فضر بمسجد الله بن على ثمانين صوطا ثم أحرقه ، واستخرجنا سليمان من أرض دابق ، فلم نجد منه شيئا . إلا صلبه وأصلاعه ورأسه ، فأحرقناه ، وفضلنا ذلك بغيرنا من بنى أمية ، وكانت قبورهم يفتسرون . ثم أتينا إلى دمشق ؟ فاستخرجنا الوليد بن عبد الملك فاجدنا فى قبره قليلا ولا كثيرا ، وأحرقنا من عبد الملك ، فاجدنا إلا شوؤن رأسه ، ثم أحرقنا عن يزيد بن معاوية ، فاجدنا فيه إلا عظاما واحدا ، ووجدنا مع لحده خطا أسود كأنما خط بالرماد فى الطول فى لحده ، ثم اتينا قبورهم فى جميع البلدان فأحرقنا ما وجدنا فيها منهم . (٢) ابن الأثير ج ٥ ص ١٧٥ .

وقد قيل إنهما لعبد الله بن علي قاتلها على نهر أبي فطرس ، قال : قد قيل ذلك ، ^(١) . وهكذا اشتد العداء بين بني أمية وبني هاشم جاهلية وإسلاما ، وقد نهج المأمون نهج من سبقه من الخلفاء في الخط من شأن الأمويين ، حتى إنه أمر بلعن معاوية على المنابر في كافة الأمصار الإسلامية . وفي ذلك يقول المسعودي : « وأنشئت الكتب إلى الآفاق يلعنه على المنابر » . من ذلك نرى أن العباسيين لم ينفقوا في معاملة بني أمية وأنصارهم عند حد التمثيل بالموتى ، ولعن بعض خلفائهم على المنابر ، فقد قتلوا الأحياء واستصفوا أموالهم ، وأثاروا كراهة العرب بتقريب القرس إليهم . فلا عجب إذا انصرف العرب عن العباسيين ودب في نفوسهم ديب الكراهة لهم وللفرس الذين استأثروا بالسلطة دونهم ، لمالأة العباسيين لهم ، واعتادهم على ولائهم ، فقامت الفتن والثورات في البلاد الإسلامية ^(٢) .

(ب) — ميل العباسيين إلى القرس وإيثارهم بالمناصب المدنية والعسكرية — طمع الفرس في السلطان واستئناف الدعوة لآل علي .

قام الدين الإسلامي على أساس المساواة بين المسلمين كافة ، عربهم وعجمهم ؛ وأيد هذه النظرية بعض أحاديث أئمة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وآيات وردت في القرآن الكريم ، مثل قوله عليه الصلاة والسلام : « لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » ، ومثل قوله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، « إنما المؤمنون إخوة » ، فأصلحوا بين أخويكم » . على أن الحكم ظل في حقيقة الأمر في يد العرب دون غيرهم من المسلمين ، وذلك في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين ؛ حتى إذا قامت هذه الثورة التي انتقل بها الحكم إلى العباسيين على أيدي الفرس ، وخاصة الخراسانيين ، منحت الفرصة لهؤلاء بالاستئثار بالسلطة وتولى الحكم ، وساعد على ذلك شدة ميل العباسيين إلى القرس وإيثارهم بالمناصب المدنية والعسكرية . كما أن إصراف العباسيين في التمثيل ببني أمية صرف عنهم العرب كما تقدم .

قامت الدولة العباسية باسم الدين ، وعمل العباسيون على التأثير في عقول الناس عن طريق إعادة الأمر لآل محمد وإزالة سلطان بني أمية المنتصين هذا الأمر منهم وهو الخلافة . وقد اختار الأئمة من ولد العباس لفسر دعوته الكوفة وخراسان اللتين كانتا مهد التشيع من قديم ، ولأن الفرس الذين دخلوا في الإسلام كانوا أقرب من غيرهم إلى التأثر بأراء الشيعة ، لأنهم لا يفرقون بين الخلافة والملك ، ومن ثم تناصروا العلويين . هذا إلى أن الفرس الذين كانت بلادهم ذات تاريخ عظيم من أقدم العصور ، والذين فرضوا سيادتهم على بعض بلاد العرب ، قد وجدوا في فسر الدعوة لآل محمد فرصة يتخلصون بها من نير الأمويين ويستردون شيئا ما كان لهم من نفوذ وسلطان . لذلك رأوا أنهم بمساعدتهم هذه الدولة الجديدة يصبحون

(١) هروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٨ .

(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٣٤٢ .

أصحاب الكلمة المسموعة فيها . ومن ثم غدا هذا النزاع في حقيقة الأمر نزاعاً بين العرب والفرس ، بعد أن كان نزاعاً بين بنى أمية وبنى العباس .

على أن نفوذ العرب قد تقلص تدريجياً ، حتى إن الفتنة التي قامت بين الأميين والمأمون لم تكن في حقيقة الأمر إلا جهاداً حزبياً بين العلويين والعباسيين من ناحية ، وبين الفرس والعرب من ناحية أخرى . ولم يكن انتصار المأمون على الأميين إلا انتصاراً للفرس على العرب ، وزوال حكم العرب زوالاً لا رجعة بعده .

وكان من من أثر ذلك الميل الذي أبداه العباسيون نحو الفرس ، وتلك الرعاية التي حاطوهم بها ، أن أصبح نظام الحكم عند العباسيين مماثلاً لما كان عليه في بلاد الفرس أيام آل ساسان . قال يلفري كتابه هارون الرشيد ^(١) : « ولما كان العباسيون يدينون بقيام دولتهم للنفوذ الفارسي كان طبعياً أن تسيطر الآراء الفارسية . ولهذا نجد وزيراً من أصل فارسي على رأس الحكومة ، كما نجد أيضاً أن الخلافة تدار بنفس النظام الذي كانت تدار به إمبراطورية آل ساسان . »

أجل لقد اتخذ الخلفاء الموالي من الخراسانيين حرساً لهم ، لاعتمادهم على مواليتهم وإخلاصهم ؛ واستبد هؤلاء الخلفاء بالسلطة ، وتسلطوا على أرواح الرعية ، كما كان يفعل ملوك آل ساسان من قبل ، وظهرت الأذياء الفارسية في البلاط العباسي ، واحتجب الخليفة عن رعيته ، واتخذ الوزير والحاجب والكاتب ، ودخلت مظاهر السلطان الفارسية قبل ظهور الإسلام برمن طويل في بلاد الروم ، وقضت باحتجاب أباطرة الروم عن الشعب وحياطتهم برجال البلاط .

وطبيعي أن يميل العباسيون إلى الفرس ، الذين ساعدوهم على تأسيس دولتهم ، وقاموا في وجه أعدائهم الأمويين . وإن مثل هذا الميل إلى الفرس ، وتلك الكراهة التي أضمرها العباسيون للأمويين لتتمثل في تلك الخطب التي ألقاها داود بن عليّ وأبو جعفر المنصور ، يهيدون فيها بآثار الفرس وما بذلوه من جهود في سبيل تأسيس الدولة العباسية ، ويتوعدون الأمويين لما أقترفوه من ذنوب ، ويمنون الفرس ، وبخاصة الخراسانيين ، بأجزاء العطايا وإدراك الأموال . من ذلك قول داود بن عليّ : يأهل الكوفة إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا ، حتى أتاه الله لنا شيعتنا أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا وأفلج بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا ^(٢) ، وقول أبي جعفر المنصور : يأهل خراسان ، أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا ^(٣) ، كما أوصى المنصور ابنه المهدي بالخراسانيين خيراً فقال : « وأوصيك بأهل خراسان خيراً ، فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم في دولتك

Palmer: Haroun al-Raschid. (Lond., 1881), p. 37-38. (١)

(٢) الطبري ج ٦ ص ١٢٧ . (٣) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤١ .

ودعاهم دونك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن إليهم ، وتجاوز عن سيئهم ، وتكافئهم على ما كان منهم ، وتخلف من مات منهم في أهله وولده ، (١) .

كذلك يمثل ميل العباسيين إلى الفرس في تلك الخطبة التي ألهاها أبو جعفر المنصور في أهل خراسان بعد أن قبض على عبد الله بن الحسن العلوي ، وهي تبين لنا مبلغ عداة العباسيين للعلويين وأشياعهم ولأنصار الأمويين ، وكيف آثروا الفرس عليهم ، واعتمدوا عليهم في تأسيس دولتهم ، وكيف عولوا على إسناد مناصب الدولة إلى الفرس .

ولما أخذ المنصور عيد الله بن الحسن وأهل بيته ، صعد المنبر بالمهاشمية ، الحمد لله وأثنى عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : يا أهل خراسان أنتم أنصارنا وأهل دعوتنا ، ولو بأيتم غيرنا لم تبايعوا خيراً منا . إن ولد ابن أبي طالب تركناهم والذي لا إله إلا هو والخلافة ، فلم نعرض لهم لا بقليل ولا بكثير ، فقام فيها على بن أبي طالب فما أفلح وحكم الحكيم ، فاختلفت عليه الأمة واقتربت الكلمة ، ثم وثب عليه شيعته وأنصاره ووقفاته فقتلوه ، ثم قام بعده الحسن بن علي رضي الله عنه ، فوالله ما كان برجل ، عرضت عليه الأموال قبلها ، ودس إليه معاوية إلى أجملك ولي عهدي ، فخلعه ، وانسأخ له بما كان فيه وسله إليه . . . فلم يزل كذلك حتى مات على فراشه . ثم قام من بعده الحسين بن علي رضي الله عنه ، فخذعه أهل العراق وأهل الكوفة . . . فأسلوه حتى قتل ، ثم قام بعده زيد بن علي ، فخذعه أهل الكوفة وغرروه ، فلما أظهروه وأخرجوه أسلوه . وقد كان أبي محمد بن علي ناشده الله في الخروج ، وقال له لا تقبل أقاويل أهل الكوفة ، فإننا نجد في علنا أن بعض أهل بيتنا يصلب بالكناسة ، وأخشى أن تكون ذلك المصلوب ، وناشده الله بذلك عمي داود وتحذره رحمه الله عن زاهد الكوفة فلم يقبل . . . وقتل وصلب بالكناسة . ثم وثب بنو أمية علينا ، فأما نوا شرفنا وأذهبوا عزنا . والله ما كان لهم عندنا تسرة (٢) يطلبونها ، وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم ، ففتنونا عن البلاد ، فصرنا مرة بالطائف ، ومرة بالشام ومرة بالشرقة ، حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصاراً ، فأحيا الله شرفنا ، وعزنا بكم ، وأظهر لنا حقنا وأصار إلينا ميراثنا من بيتنا صلى الله عليه وسلم ، فقر الحق في قراره ، وأظهر الله مثاره ، وأعر أنصاره ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا ، (٣) .

على أن الفرس ، على الرغم مما أظهره العباسيون من ميل ظاهر نحوهم ، حتى آثروهم على العرب ، فاستندوا إليهم مناصب الدولة مدنية كانت أو عسكرية ، وعلى الرغم من تأثر العباسيين بهم في اقتباس نظم الحكم عنهم ، والافتداء بهم في مظاهر البلاط ، وفي اللباس ، وفي الاحتفال بالأعياد والمواسم — كانوا على الرغم من هذا كله لا يقنعون بما نالوه من عطف

(١) الطبري ج ١ ص ٣١٩ .

(٢) تأثر . . . (٣) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤١ — ٢٤٢ .

وميل ، وما وصلوا إليه من نفوذ وسلطان ، فعملون على التخلص من العباسيين وتحويل الخلافة إلى العلويين . وإن ميل الفرس إلى العلويين قديم كما نعلم يرجع إلى أيام الحسين ابن علي .

ولا غرو فقد شايح الفرس العلويين ، لما كانوا يعتقدونه أنهم وحدهم يملكون حق حمل التاج ، لكونهم ورثوا آل ساسان من جهة أمهم شهر بانوه ابنة يزدجرد الثالث آخر ملوك هذه الأسرة ، ولأنهم الأئمة رؤساء الدين حقاً . وذلك يتفق مع معتقداتهم الدينية ، إذ كانوا ينظرون إلى ملوكهم نظرة تقديس وإكبار ، ويعتقدون أنهم ظل الله في الأرض . كما كانوا يعتقدون أن العلويين ، وبخاصة أبناء الحسين بن علي ، يمثلون حق النبوة والملك ، لأنهم من سلالة النبي وآل ساسان . وهذا يقصر لنا سبب ميل الفرس إلى العلويين ، وعلمهم على تحويل الخلافة إليهم . وقد اضطلع بهذا الأمر أحد زعماء الفرس وهو أبو سلة الخلال .

كان حفص بن سليمان ، ويكنى أبا سلة الخلال^(١)، مولى لبني الحارث بن كعب ، من أهل البسار في الكوفة ، اشتهر بالكرم والبذل لرجال الدعوة العباسية ، كما كان نصيحاً عالمياً بالأشعار والسير والجدل والتفسير ، وقد اتصل بالعباسيين عن طريق صهره بكير بن ماهان كاتب إبراهيم الإمام . فلما حانت وفاة بكير أوصى الإمام بأن يبعد إلى أبي سلة بالقيام بأمر الدعوة مكانه ، فكتب إليه الإمام بذلك . فأخلص أبو سلة الدعوة العباسية ، وبذل جهده في القيام بنصرتها . وقد اتفق المؤرخون على أنه لما سبر أحوال بني العباس عزم على العدول عنهم إلى أولاد علي بن أبي طالب . ولما عزم على تنفيذ رغبته في نقل الخلافة إلى العلويين ، أرسل مع رجل من شيعة العلويين كتاباً ، وأمره أن يقصد جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي ، فإن أجاب أبطل الكتابين الآخرين ، وإن لم يجب لقي عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن علي ، فإن أجاب أبطل كتاب عمر الأشرف بن علي زين العابدين ، وإن لم يجب قصد عمر . فذهب الرسول إلى جعفر الصادق ودفع إليه كتاب أبي سلة ، فلم يقم له وزناً ، ولم يحفل بما قدمه رجل الشيعة بخراسان للعلويين حيث قال : « دمالى وولاي سلة وهو شيعة لغيري ؟ » ، ثم وضع الكتاب على السراج فاحترق ، فسأله الرسول عن رد كتاب أبي سلة فقال له : قد رأيت الجواب .

مضى الرسول بعد ذلك إلى عبد الله المحض ، فسر بالكتاب ، وركب غداة هذا اليوم إلى جعفر الصادق وقال له : « هذا كتاب أبي سلة يدعوني فيه إلى الخلافة ، وقد وصل علي يد بعض شيعتنا من أهل خراسان » ، فقال له جعفر الصادق كلاماً يؤيد ما ذهبنا إليه من أن

(١) قبل في تقييده بالخلال ثلاثة أوجه : (١) لأن منزله كان قريباً من محلة الخلاين — وكان يحالسم — فنسب إليهم ، كما نسب الفزالي إلى الفزاليين لأنه كان مجالسهم كثيراً . (ب) أو لأنه كانت له حواشيت يسلي فيها الخلق فنسب إلى ذلك . (ج) وقيل أيضاً لأنه نسب إلى خال السيوف وهي أنجادها ،

الفرس ، أو الكثيرين منهم على الأقل ، لم يكونوا في ذلك الوقت شيعة العلويين خاصة : دوتى صار أهل خراسان شيعة ؟ أنت وجهت إليهم أبا مسلم ؟ هل تعرف أحداً منهم باسمه أو بصورته ؟ فكيف يكونون شيعةك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك ؟ وهذا كلام رجل من كبار العلويين وأعيانهم في ذلك الزمان ، وقف على مبلغ الثقة من رجال الشيعة ، وإن لم يكن عبد الله المحض قد وثق منه ، بل شك في نصحه ، ولم يحفل بما سمع عن الكتاب الذى جاءه قبله . وأما عمر بن علي زين العابدين فلم يكن منه إلا أن رد الكتاب وقال : أنا لا أعرف صاحبه فأجيبه (١) .

ومن هذا كله نرى أن العلويين لم يكن لهم من القوة وكثرة الانتصار ما يعيد لهم سبيل الوصول إلى الخلافة ، فلم يروا بدأ من الاستكانة حتى تهيأ لهم الأحوال فيمتشقون الحسام ويقومون بطلبها . ومن هذا لا تعجب إذا فت رفض هؤلاء العلويين في عضد أبي سلة ، وأدى إلى قتله على يد السفاح بعد أن وقف على ما دبره له ولأسرته .

ويحكى لنا التاريخ أن السفاح لما بويع بالخلافة ، استوزر أبا سلة على كره منه ، لمكانته من الخراسانيين ، وهم صلب الدولة ومصدر قوتها ، ولقبه وزير آل محمد . إلا أن هذا كله لم يكن مصدره حسن النية من جانب السفاح ، إذ خاف على نفسه إن هو قتله ، قام أهل خراسان يثأرون له ، فعمل على أن يتم هذا الأمر على يد أبي مسلم . وكتب إليه مع أخيه المنصور كتاباً يخبره فيه أن أبا سلة يعمل على تحويل الخلافة إلى العلويين ، وعهد له بمعاينته ، وباطن الكتاب يشترط تصويب قتله ، فأرسل أبو مسلم رجلاً من أهل خراسان فقتلوه . وتخلص منه السفاح ، وأبو مسلم الذى كان بكرهه ويحقد عليه مقامه . وبذلك هب أبو مسلم سبيل قتله بنفسه ، فقد عول السفاح على التخلص منه ، إلا أن منيته حالت دون ذلك .

ولكن ميل الفرس إلى العلويين لم يتخذ بقتل أبي سلة الخلاص ، فقد كانوا يناصرون كل علوى يعمل على الخروج على العباسيين . ومن أحسن الأمثلة التى تؤيد هذا الرأى محاولة جعفر ابن يحيى البرمكى تخليص يحيى بن عبد الله العلوى في عهد هارون الرشيد ، وما قام به الفضل بن سهل وزير المأمون في خراسان من تحويل الخلافة من العباسيين إلى العلويين حيث حمل المأمون على أن يولى عهده على الرضا ، وأن يتخذ الحضرة شعار العلويين بدل السواد شعار العباسيين شعاراً رسمياً لدولته .

(٣) خرج مركز العباسيين أيام المنصور بين الساخطين من العرب وعلى رأسهم عم المنصور عبد الله بن علي ، والساخطين من الفرس وعلى رأسهم أبو مسلم الخراساني .

عمل العباسيون في مستهل دولتهم عن التخلص من بنى أمية ، فأمرقوا في قتلهم والتبيل بهم ،

مدفوعين في ذلك بما أضمره للأمويين من ذلك العداء القديم الذي بقيت آثاره بعد ظهور الإسلام . ومال العباسيون إلى الفرس ميلا شديداً ، فقبروهم إلهماً وأثروهم على العرب بالمناصب المدنية والعسكرية ، مما أوغر صدور العرب من ناحية العباسيين . على أن الفرس لم يقتنعوا بما نالوه من أثره ، وما تمتعوا به من نفوذ وسلطان في ظل العباسيين ، الذين أنقذوهم من نير الأمويين ، ومالوا إلى آل علي ، وخاصة أولاد الحسين بن علي ، لأنهم يجمعون ، كما نعلم ، بين أشرف دم عربي وأشرف دم فارسي . هذا إلى مناوأة عبد الله بن علي عم المنصور الذي بدأ يناوئه السلطان ، ويؤلب الناس عليه ، ويعمل على اغتصاب الخلافة منه .

لذلك ساء موقف المنصور بين الساخطين من العرب ، وعلى رأسهم عمه عبد الله بن علي ، والساخطين من الفرس ، وعلى رأسهم أبو مسلم الخراساني . أضف إلى ذلك خروج العلويين وعلى رأسهم محمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم في الحجاز والعراق ، كإسياف .

ذلك أنه لما مات أبو العباس السفاح ، ولي الخلافة أبو جعفر المنصور . ولما اتصل بهمه عبد الله بن علي خبر وفاة أبي العباس أمر منادياً فنادى في الجند : الصلاة جامعة ، فاجتمع إليه القواد والجند ، وقرأ عليهم كتاب عيسى بن موسى الذي ولاه السفاح عبده بعد أبي جعفر ، ودعا إلى نفسه ، وادعى أن أبا العباس لما أراد توجيه الجند لقتال مروان بن محمد قال لهم : « من انتدب منكم للمسير إليه فهو ولي عهدي ، وأنه لم ينتدب لهذا الأمر أحد غيري » . ويقال إن القواد بايعوا عبد الله ، وكان موضع يقال له دلوك بنواحي حلب ، وأنه رحل إلى خران الواقعة على طريق الموصل والشام ، وطلب إلى واليها مبايعته فأبى ، فهزمه وقتله . ولما بلغ أبا جعفر أن عبد الله قد شق عصا الطاعة ، ندب أبا مسلم لقتاله فقال له ، لا تحفه فأنا أكفيك إن شاء الله ؛ إنما عامة جنده من أهل خراسان وهم لا يصونني . وضم أبو جعفر إلى أبي مسلم نخبة من مشهورى قواد العرب ، كالحسن وحيد ابن قحطبة . ويقول البيهقي (١) إن حميد ابن قحطبة كان مع عبد الله بن علي ، وإن هذا تخوف منه واحتال في التخلص منه ، فأرسل معه إلى والي حلب كتاباً أمره فيه بقتله . ولما قطع قحطبة نحو نصف الطريق ، ارتاب في أمر هذا الكتاب ، وتوجس خيفة من ناحية عبد الله بن علي . ولما فك الطومار وقرأ الكتاب ، جمع خاصته وأعلمهم بما فيه ، وسار إلى الرصافة ، وانضم بجنده فقوى بانضمامه إليه ، وضعف جند عبد الله ~~عليه السلام~~

وهناك حادثة أخرى جعلت موقف عبد الله أشد حرجاً ، هي أنه تم بقتل من في جنده من الخراسانيين ، وكانوا زهاء سبعة عشر ألفاً ، خشية انضمامهم إلى أبي مسلم . وقد كتب أبو مسلم إلى عبد الله كتاباً يقول فيه : « إني لم أؤمر بقتالك ولم أوجه له ، ولكن أمير المؤمنين ولاني الشام ، فأنا أريدها » . وبذلك خدع أبو مسلم جند عبد الله من أهل الشام ،

الذين خافوا على بلادهم وذرايعهم، وأبوا إلا السير نحو بلادهم، فلم ير عبد الله بدا من التوجه نحو بلاد الشام، واقتل خمسة أشهر حلت بعدها الهزيمة بجند عبد الله، وذلك في شهر جمادى الثانية سنة ١٣٦ هـ، وفر من ميدان القتال حتى وصل إلى البصرة، واختفى عند أخيه سليمان بن علي، وكان قد وليا من قبل المنصور، واستولى أبو مسلم على ما في معسكر عبد الله من مال وعتاد (١).

من ذلك نرى أن عبد الله بن علي قد أخطأ بعمله على التخلص من حميد بن قعطبة، الذي كان يعد من أعظم قواد الدولة العباسية في ذلك الحين، ثم يقتله من كان في جيشه من الخراسانيين، مما أضعف قوته، وأثار حفيظة من بقي معه من الجند فلم يخلصوا له ولدعوته. ويقول الطبري (٢) إن عبد الله بن علي بايع أبا جعفر المنصور سنة ١٣٨ هـ، حين كان لا يزال أخوه سليمان على ولاية البصرة، وأنه لما عزل سليمان، اختفى عبد الله خوفاً على حياته. ثم ألح المنصور على سليمان بن علي وعيسى بن موسى بالحضار عبد الله وأعطاهما الأمان على ألا يسيء إليه. ولكنه أمر بحبسهما، وقتل بعض أصحابهما، ثم قتله سنة ١٤٩ هـ، بعد أن حبسه تسع سنين (٣). وأمن بذلك شر أبي مسلم ومحمد النفس الزكية وإبراهيم ابن عبد الله بن الحسن العلوي، وعنه عبد الله بن علي. كما عمل أبو جعفر على التخلص من عيسى بن موسى بن علي يعصفو الجولي لابتنة المهدي كما تقدم.

• • •

تفاقم العداء بين أبي مسلم وأبي جعفر منذ أيام السفاح، الذي بعث أخاه أبا جعفر المنصور إلى أبي مسلم، وكان بليسا بور، ومعه كتاب بتوليته على خراسان، وطلب منه أن يبايع أخاه أبا جعفر من بعده. وعلى الرغم من أن أبا مسلم أجاب الخليفة إلى ما طلب، وأخذ له ولأخيه البيعة من أهل خراسان، حقق عليه أبو جعفر لاستخفافه به، وأوغر صدر الخليفة عليه وحته على قتله، وخوفه من خروجه عليه، وقال له: أطلقوا وأقتل أبا مسلم، فوآله إن في رأسه لندرة. ولكن أبا العباس لم يجب أخاه إلى ما طلب، لما قام به أبو مسلم من جهود في سبيل الدولة العباسية، وما كان يتمتع به من نفوذ في نفوس أهل خراسان (٤).

ثم حدث بين أبي جعفر وأبي مسلم أحداث أدت إلى إثارة عوامل الحقد والكراهية بين الرجلين. ذلك أن أبا مسلم أراد أن يحج بيت الله، فولى الخليفة أبا جعفر إمارة الحج، فغضب أبو مسلم وقال: وأما وجد أبو جعفر؟ أما يحج فيه غير هذا؟ وعمل أبو مسلم على الخط من هبة أبي جعفر، بانفاقه الأموال الضخمة في الترفيه عن العرب وإصلاح الطرق، ثم يتقدمه عليه في الطريق بعد أداء فريضة الحج.

(١) الطبري ج ٩ ص ١٥٨ - ١٥٩ . (٢) ج ٩ ص ١٧٢ .

(٣) المسعودي: مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٤ . (٤) الطبري ج ٩ ص ١٥٣ .

عند ذلك أتى أبا مسلم نعي أبي العباس السفاح ، فكتب إلى أبي جعفر يعزيه في وفاة أخيه ، ولم يمتته بالخلافة ، أو يبعث إليه بالبيعة ، أو يقف في طريقه حتى يلحق به الخليفة الجديد ، ثم يابيه بعد ماطلة قليلة ، ليدخل في روعه القلق من ناحيته . ولما وصل المنصور إلى الكوفة ، ندب أبا مسلم لمحاربة عمه عبد الله بن علي لخروجه عليه . وما أن علم المنصور بانتصار أبي مسلم على عمه ، حتى أرسل إليه رسولا من قبله ، ليحصى الغنائم ، فغضب أبو مسلم وهم بقتل الرسول وقال :
« أمين على الدماء خائن في الأموال ؟ » .

ولما عاد رسول أبي جعفر أخبره بما رآه ، تخاف أن يعود أبو مسلم إلى خراسان ، فيؤلب عليه أهلها ويستقل بحكمها ، فعمل على إبعاده عنها ، وولاه مصر والشام ، فغضب أبو مسلم وقال :
« هو يوليئ الشام ومصر وخراسان لي ، وعول على المسير إلى خراسان . عند ذلك أوجس المنصور خيفة من ناحية أبي مسلم ، وخشى خروجه عليه ، وعول على التخلص منه قبل أن يستفعل شره . فكتب إليه كتاباً يأمره فيه بالرجوع إليه ، فرد عليه أبو مسلم « أنه لم يبق لأمر المؤمنين ، أكرمه الله ، عدو إلا أمكنه الله منه . وقد كنا نرؤى عن ملوك آل سامان ، أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهاء ، فنحن نأفرون من قربك ، حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت ، حريون بالسمع والطاعة ، غير أنها من بعيد ، حيث تقارنها السلامة . فإن أرضاك ذلك ، فأنا كأحسن عبيدك ، فإن أبيت إلا أن تعطى النفس إرادتها ، نقضت ما أبرمت من عهدك معنا بنفسى » (١) .

وفي هذا الكتاب عبر أبو مسلم عما يجيش في صدره من حقد لآل جعفر ، وما يخشاه على حياته إذا هو أطاع أمره . ولكن أبا جعفر أراد أن يسلك مع قائده العظيم سبيل اللين والمسالمة ، فكتب إليه كتاباً يقول فيه :

« قد فهمت كتابك ، وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغشقة ملوكهم ، الذين يمتنون اضطراب حل الدولة لكثرة جرائمهم . فانما راحتهم في انتشار نظام الجحمة ، فلم سويت نفسك بهم ؟ فأنت في طاعتك ومناجحتك ، واضطلاك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به ، وليس مع الشريعة الأخرى التي أوجبت منك ميعاد ولا طاعة . وحمل إليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالة لتسكن إليها إن أصغيت إليها ، وأسأل الله أن يحول بين السلطان ونزعاته وبينك ، فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك أو كبد عنده وأقرب من طبه من الباب الذي فتحه عليك » (٢) .

أرسل أبو جعفر هذا الكتاب إلى أبي مسلم مع أبي حميد المروذي ، وأمره أن يتلف معه في القول حتى يلين ، وأن يمتن به الأمانى ، فإن أبي هدده بالويل والثبور وعظائم الأمور ، وأكد له أن الخليفة قد عول على القضاء عليه ، ولو غاض البحر واقطم التار حتى يقتله أو

يموت . فأوجس أبو مسلم خيفة وساورته الظنون وتملكه القلق ، ولا سيما بعد أن علم أن أبا جعفر أرسل إلى نائب أبي مسلم بخراسان كتاباً يمتنّيه فيه بولايتها إذا هو قطع صلته به ، وحال دون وصوله إليها . كما ازداد قلق أبي مسلم حين بلغه كتاب نائبه في خراسان يقول فيه : « إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيته صلى الله عليه وسلم ، فلا نخالفن إمامك ولا ترجعن إلا بإذنه » . وكان تهديد أبي حميد نائب أبي مسلم في خراسان كافياً لعدوله عن رأيه ، ولكن بعض نصحاءه لم يطمئن إلى وعود أبي جعفر ورسله ، وحذروه من الرجوع إليه ، وتمثل أحدهم بقول الشاعر حين أعتبه الحبل في إدراج أبي مسلم عن رأيه :

ما للرجال مع القضاء محالة ذهب القضاء بحيلة الأقوام (١)

ولما علم أبو جعفر بقرب أبي مسلم من المدائن دبر أمر اغتياله ، وأمر في الوقت نفسه رجالاً دولته وأفراد البيت الهاشمي بلقائه . ثم مثل أبو مسلم بين يدي الخليفة ، فقال له : انصرف يا عبد الرحمن فأرح نفسك وادخل الحمام ، فإن للسفر عناء ، ثم أحضر غداً . وأرسل الخليفة إلى عثمان بن نهيك رئيس حرسه ، ودبر معه طريقة قتله ، وهي أن يحضر أربعة من الحراس الذين يثق بهم ، وأن يكونوا خلف الرواق ، على أن يخرجوا إذا صفق يديه ويقتلوا أبا مسلم (٢) .

ثم أصبح الصباح وجاء أبو مسلم ومثل بين يدي أبي جعفر الذي أخذ يحذره ويقول له (٣) : « أخبرني عن نصليين أصبتهما في متاع عبد الله بن علي ، قال هذا أحدهما الذي علي » ، قال أرتبه ، فاتتضاه ، فناولوه ، فنهزه أبو جعفر ثم وضعه تحت فراشه . وأقبل عليه يعاتبه ، فقال : « أخبرني عن كتابك إلى أبي العباس تنهاه عن السموات (٤) أردت أن تملينا الدين . قال ظننت أخذه لا يحمل » ، فكتب إلى ، فلما أتاني كتابه علمت أن أمير المؤمنين وأهل بيته معدن العلم . قال فأخبرني عن تقدمك إليّ في الطريق ، قال كرهت اجتماعنا على الماء فيضرب ذلك بالناس ، فتقدمتكم القاس المرفق . قال فقولا حين أتاك الخبر يموت أبي العباس لمن أشار عليك أن تنصرف إليّ ، تقدم فرى من رأينا ، ومضيت فلا أنت أقمت حتى نلحقك ولا أنت رجعت إليّ ، قال متعني من ذلك ما أخبرتك من طلب المرفق بالناس ، وقلت تقدم الكوفة فليس عليه مني خلاف . قال لجارية عبد الله بن علي أردت أن تتخذها ، قال لا ، ولكنني خفت أن تضعي لعلتها في قبة وولكت بها من يحفظها ، قال فرأيتك وخروجك إلى خراسان ، قال خفت أن يكون قد دخلك من شيء . فقلت آتي خراسان فأكتب إليك بمذري ، وإلى ذلك ما قد ذهب ما في نفسك علي . قال تالله ما رأيت كالיום قط ، والله ما زدني إلا غضباً ... ثم أقبل يعاتبه

(١) الطبري ج ١ ص ١٦٣ . (٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٣) الطبري ج ١ ص ١٦٦ - ١٦٧ .

(٤) الموات : ما لا روح فيه ، أو هو الأرض التي لا مالك لها .

أنت الكاتب إلّ تبدأ بنفسك ، والكاتب إلّ تخطب أمية بنت عليّ ، وتزعم أنك ابن سليل بن عبد الله بن عباس؟ ما دعاك إلى قتل سليمان بن كثير مع أثره في دعوتنا ، وهو أحد تقيائنا قبل أن ندخلك في شيء من هذا الأمر؟ قال أراد الخلاف وعصاني فقتلته (١) ، فقال المنصور وحاله عندنا حاله فقتلته . وتصيقي وأنت مخالف عليّ ، قتلني الله إن لم أقتلك ، فضربه بعمود وخرج عثمان بن نهيك وشيب وحرب فقتلوه ، وذلك خمس ليال بقين من شعبان من سنة ١٣٧ هـ فقال المنصور :

رُحمتَ أن الدين لا يتقضى فاستوف بالكيل أبا مسجر
شقيتَ كبأسا كنت تسقي بها أمر في الحلق من الصلّام

وكان أبو مسلم قد قتل في دولته وحروبه ستمائة ألف صبّرا ، وقيل إن أبا جعفر لما عاتبه قال له : فقلت وفعلت ، قال له أبو مسلم ليس يقال هذا إلّ بعد ثلاث وما كان مني . فقال يا ابن الحبيشة ، والله لو كانت أمة مكاتك لأجّرت ناحتها ، إنما عملت ما علمت في دولتنا وبريحتنا ، ولو كان ذلك إليك ما قطعت فتيلها .

وقد كان أبو مسلم قال فيما قبل عند أول ضربة أصابته : يا أمير المؤمنين استبق ليعدوك ، فقال لا أبقاني الله إذا ، وأيّ عدولي أعدي منك ، وقيل إن عيسى بن موسى دخل بعد ما قتل أبو مسلم ، فقال يا أمير المؤمنين أين أبو مسلم ؟ فقال قد كان ههنا آتفا ، فقال عيسى يا أمير المؤمنين قد عرفت طاعته ونصيحته ورأى الإمام إبراهيم كان فيه ، فقال بالأنوك والله ما أعلم في الأرض عدوا أعدى لك منه ، ما هو ذاك في البساط ، فقال عيسى إن الله وإنا إليه راجعون ، وكان لعيسى رأى في أبي مسلم ، فقال له المنصور خلع الله قلبك ، وهل كان لك ملك أو سلطان أو أمر أو نهي مع أبي مسلم ؟ ثم دعا أبو جعفر بجعفر بن حنظلة ، فدخل عليه فقال : ما تقول في أبي مسلم ؟ فقال يا أمير المؤمنين إن كنت أخذت شعرة من رأسه ، فاقتل ، ثم

(١) قال فلوت عن كتاب المغي الكبير للقرنزي (مخطوط ، المكتبة الأهلية بباريس ، ورقة ٨٠ ب) شذرات خاصة بقتل سليمان بن كثير فقال : وكان سليمان بن كثير الخزازي من التقياء ، فلما قدم أبو جعفر آخر أبي العباس على أبي مسلم قال له : إنا كنا نحب تمام أمركم ، وقد تم بحمد الله ونعمته ، فاذا شتم قلبنا عليه . وكان محمد بن سليمان بن كثير خدائشا ، فكره تسليم أبيه الأمر إلى أبي مسلم . فلما ظهر أبو مسلم وطلب على الأمر قتل محمد ، ثم أتى سليمان الكتيبة ، وهم الذين يابسون على أن لا يأخذوا مالا ، وأن يؤخذ أموالهم إن احتجج إليهم ويدخلون الجنة . ويقال لهم أعطوا كفنا من الخطة فسوا الكفية . وقال لهم : حقنا نهر بأيدينا فبهاء غيرنا فأجرى فيه الماء ، بنى أبا مسلم ، فبلغ قوله أبا مسلم ، فاستوحش منه ، وشهدوا به أبو تراب المدائنية ومحمد بن علوان المروزي وغيرهما في وجهه ، بأنه أخذ عقود عنب وقال : اللهم سود وجه أبي مسلم كما سودت هذا العقود واسق دمه . وشهدوا أن ابنه كان خدائشا ، وأنه على كل كتاب الإمام ، قال أبو مسلم لبعضهم : خذ به وألحقه بخوارزم . وكذلك كان يقول لمن أراد قتله ، فقتل سليمان بن كثير . (السياسة العربية — ترجمة المؤلف من ١٤٦ — ١٤٧) .

اقتل ، ثم اقتل . فقال المنصور وفقك الله ، ثم أمره بالقيام والنظر إلى أبي مسلم مقتولا ، فقال يا أمير المؤمنين عد من هذا اليوم لخلافتك (١) .

ثم خطب المنصور في الناس خطبة قال فيها : « أيها الناس لا تفرجوا عن أنس الطاعة إلى وحشة المعصية ، ولا تفسروا غش الأئمة ، فانه لم يُبسر أحد قط منكرا إلا ظهرت في آثار يده أو فلتات لسانه ، وأبداها الله لإمامه ، بأعزاز دينه به وإعلاء حقه . إنا لن نبخسكم حقوقكم ، ولن نبخس الذي يادد بأعزاز دينه به وإعلاء حقه بفلحه . إنه من نازعنا هذا القميص أجزرناه حتى هذا القميد ، وإن أباسلم بايعنا وبايع الناس لنا ، على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه ، ثم نكث بنا لحكمتنا عليه حكمه على غيره لنا . ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه (٢) . ثم أعطى المنصور الجوائز لقواد أبي مسلم وجنده ، حتى رضوا ورجع أصحابه وهم يقولون : « بعنا مولانا بالدرهم (٣) » . وكان قتل أبي مسلم لخمس بقين من شهر شعبان سنة ١٣٧ هـ .

ولكن قتل أبي مسلم لم يرض أهل خراسان ، ولم يرض أنصاره ، فخرج رجل منهم اسمه سنباذ يطلب الأخذ بثأره . وكان مجوسيا من بعض قرى نيسابور ، وقد كثر أشياجه ، وأطاعه كثير من أهل خراسان وبخاصة أهل الجبال (٤) . فلما بلغ المنصور خبر سنباذ ، أرسل إليه عشرة آلاف فارس أحلوا به الهزيمة ، وخرج غير سنباذ كثيرون طلبا لثأر أبي مسلم . وكان المقتنع الخراساني أشد هم خطرا ، واعتقد بعضهم أنه حتى لم يميت ، فزعموا أنه أو شيدربامي (Ochederbami) أو أشيدربما (Ochederma) أحدا عقاب زرادشت الذي ينتظر المجوس ظهوره ، كما ينتظر المسلمون ظهور المهدي ، حتى إن تلك الطوائف لم تعتقد بموت أبي مسلم ، بل كانوا ينتظرون رجوعه ، ليملا الأرض عدلا ، على حين جول بعض أشياجه الإمامة إلى ابنته فاطمة (٥) .

ويقول نظام الملك (٦) « كان أول ما يتكلمون به في دعواتهم ترحمهم على أبي مسلم الخراساني والمهدي وفيروز حفيد أبي مسلم وابن ابنته فاطمة » . وذهب كازانوف إلى القول بأن هؤلاء الأشياخ كانوا يسمون الفاطميين نسبة إلى فاطمة بنت أبي مسلم . وهؤلاء هم طائفة الحرمية التي سيأتي الكلام عليها .

وفي رأينا أن المنصور إنما قام بهذا العمل ، مدفوعا بما كان بينه وبين أبي مسلم من حزازات

١ الطبري ج ٩ ص ١٦٧ . (٢) المصدر نفسه ج ٩ ص ٣١٣ .

(٣) الطبري ج ٩ ص ٣١٣ .

(٤) أي الجبال الواقعة جنوب بحر قزوين أو بحر طبرستان ، وسمى بذلك لأن طبرستان أشهر البلاد الواقعة عليه .

(٥) السيادة البرية ترجمة المؤلف ص ١٣١ .

(٦) Siasset Nameh, tome II, p. 298.

شخصية قديمة . وقد زاد أبو مسلم النار اشتعالا بتدابه في زهوه وإعجابه بنفسه ، وإسرافه في قتل النفوس البريئة بغير شفقة أو رحمة . وبما يؤخذ عليه قتله سليمان بن كثير . وقد قيل أنه قتل نحو ستائة ألف في غير ميادين القتال .

أما لإخلاص هذا الرجل وتفانيه في نصرة العباسيين ، فأمر لم يبق الدليل بعد على إضعافه أو دحضه . وإن أبا جعفر إنما قام بهذا العمل ، مدفوعا بعوامل الغيرة من أبي مسلم ، متأثرا بهذه المواجهات التي استولت عليه ، فظن به الفتنون وعامرته الريب في إخلاصه وولائه . وعندنا أن أبا مسلم ، إن كان يستحق القتل على يد أحد من الناس ، فيصح أن يكون بعيدا عن بيت العباس .

وقد دلت الحوادث على أن من أسس دولة لا يستمتع بها في أغلب الأحيان . قال عليه الصلاة والسلام : « لا تمتنوا الدول فتُحرموها » . ويقول صاحب الفخرى ^(١) : « وكان الخضر للدولة ، يكون عنده من الدالة والتبسط ما تألف من احتماله نفوس الملوك . كلما زاد تبسطه زادت الآفة عندهم حتى يوقموا به » .

والتاريخ يعيد نفسه كما يقولون ، فقد كانت خاتمة أبي عبد الله الشيعي ، الذي تدن له الدولة الفاطمية بظهورها ووجودها في عالم الدول المستقلة ، خاتمة أبي مسلم الخراساني ، مع ما عُرف من غيرته وانتصاره للدعوة العباسية .

وقد استطاع أبو جعفر المنصور بما أوتيته من دهاء وحزم ، أن يقهر أعداءه من العرب ويأسر معه عبد الله بن علي ثم يقتله ، وأن يقهر أعداءه من الفرس ويقتل أبا مسلم الخراساني مؤسس الدولة العباسية .

(د) حركات الموالى : الراوندية - الميمنية - الحرمية - الزنادقة

(١) الراوندية : لم يكد المنصور ينتهي من جند أبي مسلم الخراساني ، حتى فوجئ بتعاليم جديدة يدعو إليها أهل فارس . وكانوا قبل الفتح الإسلامي يقدسون ملوكهم ، فيجسّدونهم في مصاف الآلهة . وهؤلاء هم الراوندية .

يقول فان فلوتن ^(٢) : « كانت الكوفة التي ظهر منها الدعاة العباسيون في مستهل القرن الثاني للهجرة ، بهذا لتشيع متطرف غير إسلامي . وهكذا لم يلبث الإسلام أن أصبح خليطا من مذاهب ونحل شتى ، على أثر اتصاله بالديانات والمعتقدات التي كانت سائدة في بلاد العراق قبل ظهور الإسلام (كديانة الفرس القدماء (Parsees) والمناوية ^(٣) والصابئة وغيرها) ، وذلك لتوفيق بينه (أي الإسلام) وبين تلك الديانات المختلفة . وكان الدعاة يقومون بشر

(١) ص ١٥٤ .

(٢) كتاب السيادة الربية والتشيع والاسرائيليات في عهد بني أمية ، ترجمة المؤلف من ٩٦ .

(٣) المصدر نفسه ص ٨٢ .

الدين الإسلامى بين الناس بحماسة وحمية ، برغم هذا التغير الذى طرأ عليه فى ذلك الحين ، ويدافعون عنه باخلاص وغيره ، حتى كان يحكم بالاعدام على الكثيرين من الشَّلَاة والمبتدعين منذ أيام على بن أبى طالب إلى عهد المنصور العباسى (حين أصبحت بغداد حاضرة البلاد الإسلامية) ، وذلك لجرأتهم على الابتداع فى الإسلام ، وإدخالهم فيه ما ليس منه . وإلى القارىء ما ذكره المدائنى المؤرخ المتوفى سنة ٢١٥ هـ عن عقيدة الراوندية ^(١) ، قال : « إن رجلا من الراوندية كان يقال له الألبق ، وكان أبرص ، فتكلم بالغلو ودعا بالراوندية ، فزعم أن الروح التى كانت فى عيسى بن مريم صارت فى على بن أبى طالب ، ثم فى الأئمة واحد بعد واحد ، إلى إبراهيم بن محمد ، (سبط العباس عم النسي) ، وأنهم آلهة ، واستحلوا المحرمات . فكان كل رجل منهم يدعو الجماعة منهم إلى منزله ، فيطعمهم ويسقيهم ويبيع لهم المحرمات ، فبلغ ذلك أسد بن عبد الله (القسرى) فقتلهم وصلبهم ، فلم يزل ذلك فهم إلى اليوم ، فبعدوا أبا جعفر المنصور ، وصعدوا إلى الحضراء ^(٢) ، فألفوا أنفسهم كأنهم يطهرون ^(٣) ، وخرجوا جماعتهم على الناس بالسلاح ، فأقبلوا يصيحون بأبى جعفر : أنت أنت (يعنون أنت الله) ، فخرج إليهم بنفسه فقاتلهم ، فأقبلوا يقولون : أنت أنت ، ^(٤) .

لم ير المنصور بدا من أن يضرب على أيدى هؤلاء ، لأنه لم يكن يستطيع أن يوافقهم على قولهم ، لخروجهم على الدين والدولة ، ولأن ذلك من شأنه أن يثير العرب عامة . وقد حبس المنصور من زعماء الراوندية مائة رجل ، فأثار هذا العمل نفوس أنصارهم ، فاجتمعوا وفتحوا السجون وأخرجوا الرؤساء ، ثم قصدوا المنصور وحاربوه ، فخرج إليهم ماشيا ، فتكاثروا عليه وكادوا يقتلونه ، لولا أن أغاثه ممن بن زائدة الشيباني ، أحد قواد الأمويين الذين حاربوا العباسيين تحت إمرة ابن هبيرة وإلى العراق . وقد ظهر ممن ، وقاتل دون الخليفة العباسى ، فابلى بلاء حسنا ، فظفر بالراوندية وكوفى بولاية اليمن . وكان قد اختفى بعد واقعة واسط إلى هذه الساعة .

وكان أبو جعفر المنصور ينظر إلى الراوندية كأعداء سياسيين لدولته ، لأنهم من أتباع عدوه أبى مسلم الخراسانى ، الذين يعملون على تحويل الخلافة إلى ملك كسرى ؛ كما كان ينظر إليهم ، باعتبارهم زنادقة ، يريدون أن تعود المجوسية أو شكل من أشكالها ، كالزادشتية أو المانوية أو المردكية أو غيرها ؛ فعاملهم كما عامل أبى مسلم ، وقتلهم شر قتله . إلا أنه لم يستطع مع ذلك أن يقضى عليهم قضاء تاما ، فظهروا فى صور مختلفة نراها فى مثل ثورات المقتنع الخراسانى وبابك الخرمى وغيرهما .

(١) نسبة إلى مدينة راوند القريبة من أصفهان ، وكانت مهد دعوتهم .

(٢) وهى القبة التى بناها المنصور ببغداد .

(٣) ولا يزال يمزى إلى طائفة النصرية من الفرس القديمة على الطير فى الهواء حتى اليوم كما يمزى مثل ذلك أيضا بنى البوذيين . (٤) راجع أيضا الطبرى ج ٩ ص ٣٠٧ .

٢ - المُشْتَمَعَة : وفي عهد المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ) ظهر المُنْتَعِب بِخِراسَان . وَكَانَ رجلاً قبيح الخلق ، أعور قصيرا ، من أهل مرو ، عمل وجها من ذهب وركبه على وجهه ثلاثا يرى وجهه ، وادعى الألوهية ، وكان يقول : « الله خلق آدم فتحوّل في صورته ، ثم في صورة نوح ، ثم إلى صورة إبراهيم ، ثم إلى صورة واحد فواحد من الأنبياء والحكماء ، ثم في صورة محمد ، ثم تحوّل بعده في صورة علي بن أبي طالب ، ثم انتقل في صورة أولاده ، حتى حصل في صورة أبي مسلم الخراساني . ثم زعم أنه انتقل منه إليه ، وقال : إني أنتقل في الصور ، لأن عبادي لا يطيقون رؤيتي في صورتي التي أنا عليها ، ومن رأى أحترق بنوري . وأسقط الصلاة والزكاة والصوم والحج ، وأباح للناس الأموال والنساء ، كما أباح لهم تعاليم مزدك ، فعبده الناس وسجدوا له .

وقد أظهر المُنْتَعِب قرا يطلع ويراه الناس على مسيرة شهر ثم يأفل . وفي ذلك يقول أبو العلاء المَعَرِّي (١) .

أَفِيقْ إِنَّمَا الْبَدْرُ الْمُنْتَعِبُ (٢) رَأْسُهُ ضَلَالَةٌ وَخِيٌّ مِثْلُ بَدْرِ الشُّنْفَعِ
وإلى ذلك يشير أبو القاسم هبة الله بن سناء الملك في إحدى قصائده :

إِلَيْكَ فَمَا بَدْرُ الْمُنْتَعِبِ طَالَمَا بِأَسْعَرِ مِنْ أَلْفَاظِ بَدْرِ الْمُقَسَّمِ (٣)

وكان المُنْتَعِب في مبدأ أمره يتحلل مذهب الزمائية (أتباع رزام ، وكانوا كيسانية في الأصل) الذين ساقوا الإمامة إلى محمد بن الحنفية ، ثم إلى ابنه أبي هاشم ، ثم إلى علي بن عبد الله ابن عباس ، ثم إلى ابنه محمد ، ثم إلى ابنه إبراهيم الإمام ، ثم إلى أخيه أبي العباس السفاح ، ثم انتقلت إلى أبي مسلم الخراساني ، وقد ظهروا بخراسان والمخندوا مرو مركزا للشر دعوتهم ، واحتقدوا أن روح الله قد حل في أبي مسلم ، وأنه أيده وأعانه على بني أمية فقتلهم عن آخرهم ، كما قالوا بتناسخ الأرواح . واعتقدت طائفة منهم أن أبا مسلم صار إلها بحلول روح الله فيه وأنه حتى لم يموت ، ويظنّون عودته ، وقالوا إن الذي قتله المنصور كان شيطانا تصوّر للناس في صورة أبي مسلم ، وهؤلاء هم وهرة يعرفون بالبركوكية (٤)

(١) شرح التنوير على كتاب سقط الزند لأبي العلاء المَعَرِّي (القاهرة سنة ١٢٨٩ هـ) ج ٢ ص ١٠٣ .

(٢) يريد بالبدر المُنْتَعِب رأس امرأة مقنعة ، تشبه بحسبتها البدر . والمراد بالْمُنْتَعِب رجل من المخرفين تلبأ ببلاد ما وراء النهر في ناحية كاش ، وأغوى بمخرفته كثيرا من الناس ، وادعى أنه يطلع بدرا في السماء ، فانطبأ بها وأمس في بعض جبال تلك الناحية ، فطرح فيها الزئبق الكثير فوق الماء ، فكان شعاعه يظهر في الجو كأنه بدر . وأقام بذلك مدة يفوق الناس ويضلهم بأباطيله يقول : أفنى من سكرة الهوى ، ودعوى محبة النساء ، فإن المرأة المغلفة التي تحسبها بدرا مقنعا حسنا وبهاء حبها والاعتزاز بها لؤاية وذلالة ، كالاعتزاز ببدر المُنْتَعِب الذي أظهره تمويها وتزيينا .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٥٣ ، وكتاب العدة والتسليم والتبشير ص ١٤ - ١٥ .

(٤) كتاب فرق الشيعة لأبي محمد الحسن بن موسى النوبختي ص ٤٢ - ٤٣ ، والفرق بين الفرق ص ٣٤١ - ٣٤٣ ، والمثل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٣٥٥ - ٣٥٦ .

ولما قوى أمر المقتنع وكثر أنصاره ، وانضم إليه أهل بخارى وسمرقند والأتراك الذين كانوا يقيمون حول بحر قزوين ، واعتصم بقلعة حصينة بكش ، أرسل إليه الخليفة المهدي سبعين ألف مقاتل بقيادة معاذ بن مسلم الذي طاوله حتى ضجر هو وأصحابه ، فطلب أكثرهم الأمان ، وبقي هو في القلعة مع نفر يسير من أصحابه .

ولما شعر المقتنع بالهزيمة أشعل النار في القلعة ، وأحرق كل ما فيها من دواب وثياب ومناج ، وأذاب النحاس والسكر في تنور ، وجمع نساء وأولاده ، وطلب من أحب من أصحابه أن يلقوا بأنفسهم في النار ليرتفعوا إلى السماء ، وقال : « أنا صاعد إلى السماء ، فمن أراد أن يصحبني فليشرب من هذا الشراب » ، وسقام شراباً مسموماً شرب هو منه ، فأتوا جميعاً ، وألقى نساء وأولاده في النار ، ثم ألقى بنفسه فيها خوفاً من أن يظفر أعداؤه بجثته أو جثت نساؤه ، وذلك سنة ١٦٩ هـ . واطمان المهدي من ناحية المقتنع ، وأمن الناس من شر مبادئته .

ولكن موت المقتنع لم يضع حداً لتعاليمه التي اعتنقها نفر من بلاد ما وراء النهر ، أصبحوا يعرفون باسم « المقتنية المبسطة » الذين زعموا أن المقتنع كان إلهاً ، وأنه تصور في كل زمان بصورة خاصة ^(١) ، وأصبح له أشياع في بلاد ما وراء النهر وفي تركستان ، حيث اتخذوا في كل قرية مسجداً يصلون فيه ويستحلون الميتة والخنزير ، ويدينون النساء ، وإن ظفروا بمسلم لم يره مؤذناً مسجداً قلوبه ، وأخفوا جثته .

٣ - الخرمية : (١) بابك الخرمي .

كانت بلاد الفرس التي نشأ فيها بابك الخرمي كثيرة المعتقدات والبدع ، سواء أكان ذلك قبل الإسلام أم بعده . ولهذا ظهرت فيها الطوائف الدينية على اختلافها ، ومنها طائفة الخشرمية ^(٢) التي أسسها مزدك في أيام قشباد في كسرى الأول المعروف بأبو شروان . وقد نشأت من طائفة الخرمية المزدكية ^(٣) ، طائفة الخرمية البابكية التي تنسب إلى بابك الذي ادعى الألوهية ، وعكس صفو الدولة العباسية في أيام المأمون ، وأخذ أمره يتفاقم إلى أيام المعتصم . ويرى بعض المؤرخين أن بابك الخرمي من سلالة أبي مسلم الخراساني ، وأنه ناز في وجهه العباسيين لينتقم لأبي مسلم ، وأن حركته استمرار لحركة المقتنع الخراساني والراوندية وغيرهم . ويقول أبو حنيفة الدينوري ^(٤) ، « والذي صح عندنا وثبت ، أنه كان من ولد مطهر بن فاطمة .

(١) الفرق بين الفرق ص ٢١٥ .

(٢) قيل لأهم ممنوا خرمية لنية إلى خرما امرأة مزدك التي اضطاعت بنصر عقائد هذا المذهب بعد قتل زوجها .

(٣) ومولاه يسون الخرمية الأولى لتمييزهم عن الخرمية الثانية الذين نبع منهم البابكية أتباع بابك الخرمي في عهد المأمون والمعتصم .

(٤) الأخبار الطوال (طبعة لندن) ص ٣٩٧ .

بنت أبي مسلم ، هذه التي تنسب إليها الفاطمية من الحرّمية ، لا إلى فاطمة بنت رسول الله . .
وكان بابك يقوم بخدمة جاويدان أحد رؤساء الحرّمية . ولما توفي جاويدان هذا ، أقامت
أمرأته بابك مكانه ، وادعت أن روحه حلت في جسده ، وأوعزت إلى رجاله بوجوب طاعته
ثم تزوجت منه ، فأخذ بابك في إفساد عقول الناس ، حتى كان المؤمن يبرو .
وفي عهد المعتصم تقاعص قلى أهل بغداد من بابك الحرّمي ، ودخلت أذربيجان تحت حوزته ،
وأعانه ملك أرمينية وأمبراطور الدولة البيزنطية ، وانتشرت جيوشه ، وأدخل الرعب في نفوس
أهالي البلاد الواقعة بين أذربيجان وإيران التي كانت ، ولا تزال ، تتجوز بالمذاهب المختلفة : فمناك
الزردشتية والمناوية والمزدكية والآبوسلية أتباع أبي مسلم الخراساني ، وكل هذه المذاهب
مجتمعة تكون عقائد الحرّمية .

ويقول المقدسي (١) : « وانضوى إليه القطار والحرّاب والذّعار وأصحاب الفتن
وأرباب النحل الواقعة ، وتكاثفت جموعه ، حتى بلغ فرسان رجاله عشرين ألف فارس سوى
الرجالة : واحتوى على مدن وقرى ، وأخذ بالتبيل بالناس ، والتحريق بالنار ، والانهماك
في الفساد ، وقلة الرحمة والمبالاة ، وهزم جيوشا كثيرة للسلطان ، وقتل عدة قواد . وذكر في
بعض الكتب أنه قتل فيها حفظ ألف ألف إنسان من بين رجل وامرأة وصبي . »

وقد وصف المسعودي (٢) نهاية بابك الحرّمي وصفا ممهيا فقال : « فلما استشعر بابك
ما نزل به وأشرف عليه ، هرب من موضعه وزال عن مكانه ، فتشكر هو وأخوه وولده وأهله
ومن تبعه من خواصه . وقد تزيّنا برى السفر وأهل التجارة والقوافل ، فنزل موضعا من بلاد
إرمينية على بعض المياه ، وبالقرب منهم راعى غنم ، فابتاعوا منه شاة وشاموا شراء شيء من
الزاد لهم ، فضى من فوره إلى سهل ابن سفياط ، فأخبره الخبر وقال ، هو بابك لا شك فيه .
وقد كان الأفشين لما هرب بابك من موضعه وزال عن جيله ، خشى أن يستصم ببعض الجبال
المتبعة أو يتحصن ببعض القلاع ، أو ينضاف إلى بعض الأمم القاطنة ببعض تلك الديار ،
فيكثر جمعه وينضاف إليه فلاذعسكره ، ف يرجع إلى ما كان من أمره . فأخذ الطرق وكاتب
البطارقة في الحصون والمواقع من بلاد إرمينية وأذربيجان والران والبيلقان ، وضمن في ذلك
الزغائب . فلما سمع سهل بن سفياط من الراعي ما أخبره به ، سار من فوره فيمن حضر من
عدده وأصحابه ، حتى أتى الموضع الذي به بابك ، فترجل له ودنا منه وسلم عليه بالملك وقال له :
أيها الملك قم إلى فمصرك الذي فيه وليك وموضع يملك فيه الله من عدوك ؛ فسار معه إلى أن
أتى قلعتهم وأجلسه على سريرته ، ورفع منزله ، ووطأ له منزله ومن معه ، وقدمت المائدة وقعد

(١) كتاب البدء والتاريخ ج ٦ ص ١١٥ — ١١٦ . أنظر ما كتبه نظام الملك عن ثورة بابك
في كتابه سياسة نامه (طبعة Charles Schefer) ج ٢ ص ٢٩٢ — ٢٩٨ .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥٠ — ٣٥١ .

يأكل معه ، فقال له بابلك بجهله وقلة معرفته بما هو فيه وما دفع إليه : أمثلك يأكل معي ؟ فقام سهل عن المائدة وقال : أخطأت أيها الملك ، وأنت أحق من احتمل عبده إذ كانت منزلي ليست بمنزلة من يأكل مع الملوك ، وجاءه بحداد وقال له : مد رجلك أيها الملك ، وأوقفه بالحديد ، فقال له بابلك أعندرا يا سهل ؟ قال يا بن الخيثة إنما أنت راعي غنم وبقر ، ما أنت والتدبير للبلد ونظم السياسات ؟ وقبّده من كان معه ، وأرسل إلى الأفشين بجزء الخبر ، وأن الرجل عنده ، فشرح إليه الأفشين أربعة آلاف فارس ، عليهم الحديد ، وعليهم خليفة يقال له يومادة ، فتسلبه ومن معه ، وأتى به إلى الأفشين ومعه ابن سباط : فرفع الأفشين منزلة سهل ، وخلع عليه ، وجعله وتوجّه ، وقاد بين يديه ، وأسقط عنه الخراج ، فأطلقه ، وأطلقت الطيور إلى المعتصم ، وكتب إليه بالفتح . فلما وصل إليه ذلك ضج الناس بالتكبير ، وعظم الفرح وأظهروا السرور ، وبثت الكتائب إلى الأمصار بالفتح . وقد كان أفي عساكر السلطان ، فسار الأفشين ببابلك وتنقل بالعساكر حتى أتى سر من رأى ، وذلك سنة ثلاث وعشرين ومائتين . وتلقى الأفشين هارون بن المعتصم وأهل بيت الخلافة ورجال الدولة ، ونزل بالموضع المعروف بالقاطول ، على خمسة فراسخ من سامرا ، وبعث إليه بالقبيل الأشهب ، وكان قد حمله بعض ملوك الهند إلى المأمون ، وكان فيلا عظيما ، قد جمل بالديباج الأحمر والأخضر وأنواع الحرير الملون ، ومعه ناقة عظيمة نجمية قد جملت بما وصفناه . وجعل إلى الأفشين دراعة من الديباج الأحمر ، مفسوجة بالذهب ، قد رصع صدرها بأنواع الباقوت والجوهر ، ودراعة دونها وقلنسوة عظيمة كالبرنس ذات سفاسك بالوان مختلفة ، وقد نظم على القلنسوة كثيرا من الثؤلث والجوهر ، وألبس بابلك الدراعة ، وألبس أخوه الأخرى ، وجعلت القلنسوة على رأس بابلك ، وعلى رأس أخيه نحوها . وقدم إليه القبيل وإلى أخيه الناقة ، فلما رأى صورة القبيل استعظمه ، وقال ما هذه الدابة العظيمة ؟ واستحسن الدراعة وقال هذه كرامة ملك عظيم جليل إلى أسير ، فقد المزدليل ، أخطأته الأقدار ، وزالت عنه الجبود وتورطته الهن ، إنها الفرحة تقتضي ترحه . وضرب له المصاف صفين ، في الخيل والرجل والبلاط والحديد والزايات والبندود ، من القاطول إلى سامرا مدد واحد متصل غير منفصل ، وبابلك على القبيل ، وأخوه وراءه على الناقة ، والقبيل يحظر بين الصفيين به ، وبابلك ينظر إلى ذات العين وذات الشمال ويمر الرجال والعدد ، ويظهر الأسف والحزن على ما فاتته من سفك دمايتهم ، غير مستعظم لما يرى من كثرتهم ، وذلك يوم الخميس اليلتين خلتا من صفر سنة ثلاث وعشرين ومائتين . ولم ير الناس مثل ذلك اليوم ، ولا مثل تلك الزينة . ودخل الأفشين على المعتصم ، فرفع بمنزله وأعلى مكانه ، وأتى ببابلك فطوف به بين يديه ، فقال له المعتصم أنت بابلك ؟ فلم يجب ، وكررها عليه مرارا ، وبابلك ساكت ، فقال له الأفشين وقال له : الولي لك ، أمير المؤمنين مخاطبك وأنت ساكت ؟ فقال نعم أنا بابلك ، فسجد المعتصم عند ذلك ، ثم قال : جردوه ، فلبسه الخدام ما عليه من الزينة ، وقطعت يمينه ، وضرب بها وجهه ، وفعل مثل ذلك بيساره ، وثلاث أرجليه ، وهو يتمرغ

في التطلع في دمه . وقد كان تكلم بكلام كثير يرغّب في أموال عظيمة قبله ، فلم يلتفت إلى قوله ، وأقبل يضرب بما بقي من زنديه وجهه ، وأمر المعتصم السيف أن يدخل السيف بين ضلعين من أضلاعه أسفل القلب ، ليكون أطول لمذا به ففعل . ثم أمر بجز لسانه وصلب أطرافه مع جسده ؛ ثم حمل الرأس إلى مدينة السلام ، ونصب على الجسر ، وحمل إلى خراسان بعد ذلك يطاف به كل مدينة من مدنها وكورها ، لما كان في نفوس الناس من استفحال أمره وعظم شأنه وكثرة جنوده ، وإشراقه على إزالة ملك وقلب ملة وتبدلها . وحمل أخوه عبادة مع الرأس إلى مدينة السلام ، ففعل به إسحق بن إبراهيم ما فعل بأخيه بابك بسامرا ، وصلب جثة بابك على خشبة طويلة في أفصى سامراء .

مبادئ الخرمية :

ومبادئ الخرمية جذيرة بالبحث ، لما كان لها من الأثر في تاريخ العصر العباسي ، وبخاصة في علاقة الأموال بالعباسيين . فن مبادئهم الأساسية تحويل الملك من العرب المسلمين إلى الفرس المجوس ، وهم بذلك قد أثاروا حربا شمواء على الاسلام والعرب . يؤيد هذا ما ذكره المقدسي في كتابه « البدء والتاريخ » (١) « فان الخرمية احتلوا في إزالة الملك إلى المعجم ، فهو هذا النحلة وزينوها للبهال ودعوا إليها في السر ، وبحصول أمرهم التعتيل والإلحاد . ومن مبادئهم تأليه البشر ، فقد ادعى بابك أن روح جاريدان حلت فيه حتى جعل الخرمية يقولون « آمنة بك يا روح بابك ، كما آمنة بك يا روح جاريدان » . كما كان من مبادئ الخرمية مبدأ الرجمة التي قال بها غلاة المتشيعين .

ويقول المقدسي عن مبادئ الخرمية في كتابه « البدء والتاريخ » (٢) « هم فرق وأصناف ؛ غير أنهم يجمعهم القول بالرجمة ، ويقولون بتغيير الاسم وتبديل الجسم (يعني القول بالتناسخ) ، ويزعمون أن الرسل كلهم على اختلاف شرائعهم وأديانهم يحصلون على روح واحدة ، وأن الوحي لا ينقطع أبدا . وكل ذي دين مصيب عندهم إذا كان راجي ثواب وغاشي عقاب . ولا يرون تهجيب (أي تحقيره) والتخطي إليه بالمكروه ، ما لم يترحم كيد تحلته وخسف مذهبه ... وبعضون أمر أبي مسلم ، وبلغون أبا جعفر على قتله ، ويكثرثون الصلاة على فيروز ، لأنه من ولد فاطمة بنت أبي مسلم . ولهم أئمة يرجعون إليهم في الأحكام ، ورسول يدورون بينهم ويسمنونهم « فريشكان » ، ولا يتبركون بشيء مثل تبركهم بالخمر والأشربة . وأصل دينهم القول بالنور والظلمة ... ووجدنا منهم من يقول بإباحة النساء... وإباحة كل ما يستلذ النفس وينزع إليه الطبع . يؤيد هذا ما ذهب إليه نظام الملك في كتابه سياسة نامه (٣) عن عقائد الخرمية بقوله : إنهم رفضوا جميع القروض الدينية كالصلاة والصوم والحج والزكاة ، وأباحوا لأنفسهم شرب

(١) ج ٥ ص ١٣٤ . (٢) ج ٤ ص ٣٠٠ .

Siasei nameh (ed. by Charles Schefer), pp. 298 suiv. (٣)

الحمر ونادوا بإباحة المحرمات والاشترائية في النساء . ويعتقد الإنسان أن هذه المبادئ هي مبادئ مردك . وينزل هؤلاء دائماً كل ما يستطيعون من جهد للقضاء على الاسلام قضاء مبرما ، كما أنهم لم يسمروا بأى ميل أو عاطفة إزاء أحد من أهل البيت ، وإن كانوا قد اتخذوا من أسباطهم سبيلا إلى جذب الأنصار إليهم ، لنشر دعوتهم التي ترى إلى هدم العقائد الإسلامية . كما يقول نظام الملك إن الخرمية والباطنية سواء .

ويقول فان فلوقن^(١) : « ويرى بعض الباحثين أن هناك صلة بين اسم الخرمية الذى قد يكون مشتقا من خرم ، اسم لمدينة بيلاد ميديا ، أو كلمة خرم ، ومعناها « لذيذ » ، فإذا ما تكلمنا عن « خرم دينيا » Khorram dīna ، فلنكن نبين أن هؤلاء كانوا لا يعرفون ديننا غير اللذة . ومن هنا يتبين لنا أن هذه الطوائف ، وإن كانت قد جعلت للنساء مكانة أرقى من المكانة التي لمن في البلاد الشرقية ، وأباحت لمن الظهور في المجتمعات الدينية ، فلم يكن ذلك إلا بقصد الاستمتاع بظهورهن في تلك المجتمعات . »

« على أن ما ذهب إليه هذه الطائفة من الاستمتاع باللذة التي لا حد لها ، لم يكن العامل الوحيد فيما يكتنه أهل السنة من البغض لهذه الطوائف . وإن كنا لا نستطيع في الوقت نفسه أن ننكر ، أنه كان لغو بعض المتطرفين من أهل هذه الطوائف ، أثر كبير في بغض السنيين لاطاعة الخرمية . »

(ب) الأفيشين والمازيار :

ولم يكن المعتصم ينتهي من ثورة بابك ، تلك الثورة التي هددت ملكه وأقفلت بابه وأفتت كثيرا من جنده ، وأضاعت أمواله وأهلكت الحرث والنسل ، حتى فوجيء بثورة الأفيشين ، أو بمؤامراته التي دبرها بالاشتراك مع المازيار ، وكان رئيسا للمشجعة ، وهم فرقة من الخرمية أنبأ بابك الخرمى . وقد تأتى نجم المازيار في أيام المأمون ، فوثق به وولاه جبال شروين في أطراف بلاد طبرستان ، وسماه محمدا وسمعه له بأن يحتفظ بقلب الإصبهذ ، الذي كان يطلق على كل من يلى هذه الجهات .

ولما مات المأمون وولى أخوه المعتصم الخلافة ، كشف المازيار عن ميوله الثورية ، ودارت المراسلات بينه وبين بابك الذي كان يدين بمبادئ الخرمية كما ذكرنا ؛ وعرض عليه مساعدته له في ثورته على الخليفة العباسي . ويقول الطبري^(٢) إن المازيار لما حرم على الخلاف دعا الناس إلى البيعة ، فبايعوه كرها ، وأخذ منهم الزهائن ، لحبسهم في برج الإصبهذ ، وأمر أكره الضياع بالوثوب بأرباب الضياع وانتهابهم . « وما يؤيد اتصال المازيار بابك واتفاقه

(١) كتاب السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية ، ترجمة المؤلف ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٢) ١٠ ص ٣٤٩

مع على الشقاق، ما ذكره صاحب كتاب الفرق بين الفرق^(١) : « وكانت فتنة مازيار قد عظمت في ناحيته، إلى أن أخذ في أيام المعتصم . . . وصب يسر من رأى بمخداء بابك الخرمي . وأتباع مازيار اليوم في جبلهم أكره^(٢) »، يظهرون الإسلام ويضربون خلافة . . . كان المازيار من دعاة الفرس، يخضع مباشرة للخليفة العباسي دون ولاية خراسان من آل طاهر . واتهم فرصة انشغال الدولة العباسية بحرب بابك الخرمي، فاقبل به وبالأفشين سرا، وعمل ثلاثهم على نحو الإسلام من بلادهم والتخلص من حكم العرب . فهذه الثورة وأمثالها كانت في الواقع ثورة دينية سياسية معا، يراد بها الاستقلال عن الدولة العباسية، وهي في الوقت نفسه حركة شعبية، تعمل على حط شأن العرب وإزالة دينهم ودولتهم .

وكان الأفشين من بلاد أشروسنة أحد أجزاء بلاد ما وراء النهر الواقعة بين أفانم فرغانة شرقا وسمرقند غربا والشاس شمالا . وكان هو وأبوه في خدمة الخليفة المعتصم، فولاه قيادة إحدى الفرق التي سيرها لغزو عمورية، فاشتهر في حروبه حتى وثق به المعتصم، وقربه إليه، وولاه حرب بابك الخرمي .

ولكن الأفشين عرف بالتعصب لبلاده، حتى إنه لم يسله وهو يحارب بابك مال أو هدية، إلا أرسلها إلى بلاده . وقد قيل إن عبد الله بن طاهر قبض على كثير من هذه الأموال وهي في طريقها إلى أشروسنة^(٣) . وكان الأفشين — كما كان بابك والمازيار من قبله — يسعى إلى الاستقلال ببلاده، والخروج على الإسلام والدولة العباسية معا، كما كان يعتقد أنه لا سبيل إلى نصرته المجوسية إلا على أيديهم . ويقول الأستاذ براون^(٤) : « إن الأفشين لم يكن في ميوله ونفائسه الفارسية أقل وطنية وعطفا على الفرس من هذين الرجلين اللذين صحبا في نهائيه الحرة »، حتى قيل إنهم وجدوا في داره أحناما زعموا أنها كانت قد حملت إليه^(٥)، وأنه كان يبعدها، كما وجدوا عنده كتباً للزنادقة . وما يدل على أنه كان يكره العرب ويظهر الإسلام ويبطن الكفر قوله : « في قد دخلت لمؤلا القوم (العرب) في كل شيء أكرهه، حتى أكلت منهم الزيت . » وركبت الجمل، ولبست الثعل . غير أني إلى هذه الغاية، يعني لم يتطعم^(٦) ولم يختن . وقد عبر أبو تمام عن عقيدة الأفشين في هذه الأبيات :

قد كان يوأه الخليفة جانبا من قلبه حرما على الأقدار

(١) ١٠ ص ٢٥١ — ٢٥٢ . (٢) عمال الأراضى .

(٣) الطبري ج ١٠ ص ٣٦٣ . (٤) Lift. Hist. of Persia, vol. 1, p. 380 .

(٥) السمعوني : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥٤ .

(٦) لم يطعم أى لم يزل شره بالثورة (مادة لازالة الشر) .

فاذا ابن كافرة يسر بكفره وجدّا كوجد فرزدق ينوار^(١)
ما زال سر الكفر بين ضلوعه حتى اصطلى شر الزناد الوارئ
صلى لها حيا وكان وقودها ميتا ويدخلها مع الفجار

كما أباح الأفشين لنفسه أكل المشخّصة من الحيوانات ، بحجة أن لحمها أرطب من لحم المذبح ؛ وكان لا يذبح على طريقة المسلمين ، فيأتى فى كل يوم أربعاء ويتصّف شاةً بسيفه ، ويحرق وسطها ، ثم يأكل لحمها جريا على عادة قومه . وكان ، كالمفزع الخراساني ، حين يكاتب قومه يبدأ بقوله ، « من إله الآلهة إلى عبده فلان » .

وقد ذكر المسعودي^(٢) أن المازيار بعد أن قبض عليه ، أقر على الأفشين أنه بثته على الخروج والعصيان ، لمذهب كانوا اجتمعوا عليه ، ودين اتفقوا عليه من مذاهب الديانة والمجوس .

ومن محاكمة المعتصم للأفشين ، تبين مبلغ تعصب الأفشين لدينه ووطنه ، وتكشف لنا سلسلة التهم التي رمى بها ، كما يتبين لنا اهتمام المعتصم بكشف غوامض هذه المؤامرة الخطيرة التي دبرها الأفشين وأنصاره . لذلك نراه يعقد لها كته مجلسا برياسته ، ومعه وزيره محمد بن عبد الملك الزيات ، وقاضيه ابن أبي ذؤاد ، وكثير من رجال الدولة . وهاك ما ذكره الطبري^(٣) عن هذه المحاكمة التاريخية الكبرى :

« وذكر عن هارون بن عيسى بن منصور أنه قال : شهدت دار المعتصم وفيها أحمد بن أبي ذؤاد وإسحاق بن إبراهيم بن مصعب ومحمد بن عبد الملك الزيات ، فأنى بالأفشين ، ولم يكن بعد في الحبس الشديد ، فأحضر قوم من الوجوه لتبكي الأفشين بما هو عليه . ولم يترك في الدار أحد من أصحاب المراتب إلا ولد المنصور ، وصرف الناس وكان المناظر له محمد بن عبد الملك الزيات . وكان الذين أحضروا المازيار صاحب طبرستان والموبذ والمزيبان بن تركش ، وهو أحد ملوك السند ، ورجلان من أهل السند . فدعا محمد بن عبد الملك بالرجلين ، وعليهما ثياب رثة ، فقال لهما محمد بن عبد الملك : ما شأكما ؟ فكشفا عن ظهريهما وهي عارية من اللحم فقال له محمد : تعرف هذين ؟ قال نعم . هذا مؤذن ، وهذا إمام بيا مسجدا بأشروسنة ، فضربت كل واحد منهما ألف سوط ، وذلك أن يئى وبين ملوك السند عهدا أو شرطا أن أترك كل قوم على دينهم وما هم عليه ، فوثب هذان على بيت كان فيه أصنامهم . يعني أهل أشروسنة — فأخرجنا الأصنام واتخذاه مسجدا فضربتاهما على هذا ألفا ألفا ، لئلا يمتدحا ومنعنا القوم من بيعهم .

(١) نوار زوجة الفرزدق ، وكان قد طلقها فقدم على ذلك ، وقال :

تعت ندامة الكسى لما غدت من مطافى نوار
ويت كفاقد عينيه محمدا فأصبح ما يضى له نهيار

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥٤ ، (٣) ج ١٠ ص ٣٦٥ - ٣٦٧ .

فقال له محمد : ما كتابك عندك قد زينتته بالذهب والجواهر والديباج فيه الكفر بالله ؟ قال هذا كتاب ورثته عن أبي ، فيه أدب من العجم ؛ وما ذكرت من الكفر ، فكنت استمتع منه بالآداب وأترك ما سوى ذلك . ووجدته محلى ، فلم تضطرني الحاجة إلى أخذ الحلية منه ، فتركته على حاله ، ككتاب كلية ودمنة وكتاب مردك في منزلك ، فاطننت أن هذا يخرج من الإسلام . ثم تقدم الموبد فقال : إن هذا كان يأكل الخنثوقة ويحملني على أكلها ، ويرغم أنها أرطب لها من المذبوحة . وكان يقتل شاة سوداء كل يوم أربعاء يضرب وسعها بالسيف ، ثم يمشي بين نصفها ويأكل كل لحما . وقال لي يوما : إني قد دخلت لؤلؤة القوم في كل شيء أكرهه حتى أكلت لهم الزيت وركبت الجمل ولبست الثعل ، غير أني إلى هذه الغاية لم تسقط عني شرعة ، يعني لم يطل ولم يجتنب . فقال الأفتنين : خيبروني عن هذا الذي يتكلم بهذا الكلام ، فقه هو في دينه ؟ وكان الموبد مجوسياً ، أسلم بعد على يد المتوكل وناداه . قالوا لا ، قال فامعني قبولكم شهادة من لا تثقون به ولا تعدلونه ؟ ثم أقبل على الموبد فقال : هل كان بين منزلي ومنزلك باب أو كومة تطلع على منها ، وتعرف أخباري منها ؟ قال لا ، قال أفليس كنت أدخلك إلى وأبئك سرى ، وأخبرك بالأصمعية وميل إليها ، وإلى أهلها ؟ قال نعم . قال فلت بالثقة في دينك ولا بالكريم في عهدك ، إذا أنشيت على سرا أسرته إليك . ثم تمحى الموبد وتقدم المرزبان ابن تركش ، فقالوا للأفتنين : هل تعرف هذا ؟ قال لا ، فقيل للمرزبان : هل تعرف هذا ؟ قال نعم ، هذا الأفتنين . قالوا له : هذا المرزبان ، فقال له المرزبان : يا مخرق كم تدافع وتموه ؟ قال له الأفتنين : يا طويل الحية ما نقول ؟ قال كيف يكتب إليك أهل ملكك ؟ قال : كما كانوا يكتبون إلى أبي وسجدي . قال فقل ، قال لا أقول ، فقال المرزبان : أليس يكتبون إليك بكذا وكذا بالأشرونية ؟ قال بلى ، قال أفليس تفسيره بالعربية إلى إله الآله من عبده فلان ابن فلان ؟ قال بلى ، قال محمد بن عبد الملك : والمسلمون يحتملون أن يقال لهم هذا ؟ فما بقيت لفرعون حين قال لقومه أنا ربكم الأعلى ؟ قال كانت هذه عادة القوم لأبي وجدى ولى قبل أن أدخل في الإسلام ، فكرهت أن أضع نفسي دونهم فتفسد على طاعتهم ، فقال له إسحق بن إبراهيم بن مصعب : ويحك يا خبيذ ، كيف تحلف بالله لنا ، فنصدقك ونصدق يمينك ، ونجزيك بحرى المسلمين وأنت تدعى ما ادعى فرعون ؟ قال يا أبا الحسين هذه سورة قرأها عجيف على علي بن هشام ، وأنت قرأها على ، فانظر غدا من يقرؤها عليك . ثم قدّم ما زيار صاحب طبرستان فقالوا للأفتنين تعرف هذا ؟ قال لا ، قالوا للبازيان تعرف هذا ؟ قال نعم قد عرفته الآن ، قالوا هل كتبت ؟ قال لا . قالوا للبازيان هل كتب إليك ؟ قال نعم ، كتب أخوه خاش إلى أخى قوهيار ، أنه لم يكن ينصر هذا الدين الأبيض غيرى وغيرك وغير بابك ، فإنه يحسبه قتل نفسه . ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت ، فإني حقّه إلا أن دلاه فيما وقع فيه ، فإن خالفت لم يكن القوم من يرموك به غيرى ، ومعنى القوسان وأهل النجدة

والياس . فان وجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة : العرب والمغاربة والأتراك . والعرب بمنزلة الكلب ، لإطرح له كسرة وأضرب رأسه بالدبوس ، وهؤلاء الذئاب يعنى المغاربة ، إنما هم أكلة رأس . وأولاد الشياطين ، يعنى الأتراك ، فانما هم ساعة حتى تنفذ سهامهم ، ثم تجول الخيل عليهم جولة فتأتى على آخرهم ، ويعود الدين إلى ما لم يزل عليه أيام الجحيم . فقال الأفشين : هذا يدعى على أخيه وأخى دعوى لا يجب على ، ولو كنت كتبت بهذا الكتاب إليه لاستقبله إلى ويثق بنا حتى ، كان غير مستنكر ، لأنى إذا نصرت الخليفة يسدى كنت بالجيلة أخرى أن أنصره ، لأخذ بقضاء وآتى به الخليفة لأحظى به عنده كما حظى به عبد الله طاهر عند الخليفة . ثم نحى المازيار . ولما قال للردبان التركشى ما قال ، وقال لإسحاق ابن إبراهيم ما قال ، زجر ابن أبى دؤاد الأفشين فقال : أنت يا أبا عبد الله ترفع طيلسانك بيدك فلا تدعه على عاتقك حتى تقتل به جماعة ، فقال له ابن أبى دؤاد :

أمطر أنت ؟ قال لا ، قال فما منعك من ذلك وبه تمام الإسلام ، والطهور من النجاسة ؟ قال : أو ليس في دين الإسلام استعمال النقية ؟ قال بلى ، قال خفت أن أقطع ذلك العضو من جسدى فأموت ، قال : أنت تلعن بالرمع وتضرب بالسيف ، فلا يمنعك ذلك من أن تكون في الحرب ، وتجزع من قتل قلقة ؟ قال تلك ضروره تعينى ، فأصبر عليها إذا وقعت . وهذا شئ أستطيعه ، فلا آمن معه خروج نفسى ، ولم أعلم أن فى تركها الخروج من الإسلام . فقال ابن أبى دؤاد : قد بان لكم أمره يا بيا (لينا الكبير أبى موسى التركى) عليك به . فضرب يده بقا على منطقه لجذبا فقال : قد كنت أتوقع هذا منك قبل اليوم ، فقلب بقا ذيل القسياء على رأسه ، ثم أخذ بجماع القباء من عند عنقه ، ثم أخرجه من باب الوزرى إلى محبسه .

ولكن خاتمة الأفشين لم تكن كخاتمة بابك . فانه أودع السجن ومات مسموما ، ثم أخرجت جثته ، فصلبت ، وأحرقت مع الأصنام التى وجدت في داره ، وذلك سنة ٢٢٦ هـ .

وقد علق ميور ^(١) على حكمة الأفشين بقوله : إنها تبين لنا بجلاء كيف كان تمسك أهالى ولايات الدولة العباسية الشرقية بدينهم الوثنى ، وذلك لبعدهم عن مركز هذه الدولة ، ولأن الإسلام لم يكن قد وصل إلى قلوبهم ، ثم لتحصنهم في بلادهم المنيعه وقرهم من الأتراك الوثنيين . وقد خلص ميور من ذلك بهذا رأى ، وهو أن إسلام بعض أهالى فارس إنما كان إسلاما ظاهريا ، وأنهم كانوا لا يزالون متمسكين بمعتقدهم المجوسية القديمة ، وأنهم كانوا ينتهزون الفرصة المواتية ليرتدوا عن الإسلام ويعودوا إلى دينهم القديم . ومصدق ذلك ما رأيناه من ظهور هذه الحركات التى أشمل نيرانها سنبذ المجوسى ، وأنصار أبى مسلم الخراسانى ، وبابك الحرصى .

٤ - الزنادقة :

كان أشد الثورات بأساً وأكثرها خطراً في العصر العباسي الأول ، تلك الثورات التي أذكي نيرانها الزنادقة ، الذين تبعوا تعاليمهم عن تعاليم الإسلام وعقائده ، وتقوم على نوع من الديمقراطية الفاسدة ، التي تبيح المحرمات وتبطل بالآداب الاجتماعية ، وتمرض الحياة السياسية والاجتماعية للخطر .

وللزندقة عدة معان تختلف باختلاف المصور : فقد كان العرب يطلقون لفظ « زنديق » على من ينفي وجود الله سبحانه ، أو ينكر حكمته ، أو يقول إن له شريكاً . وفي ذلك يقول ابن الروندي : (١)

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذي ترك الأوهام حائرة وصير العالم التحرير زنديقا
وقيل إن الزنديق من يبطن الكفر ويظهر الإيمان . وفي ذلك يقول الشاعر :
بغداد دار لأهل المال طيبة وللغالب دار الضيق والضيق
ظلمت حيران أمشي في أزقتها كأنني مصحف في بيت زنديق (٢)

وكان لفظ زنديق يطلق أول الأمر على كل من يتأثر بالفرس في عاداتهم وحضارتهم ، ويسرف في العبث والمجون ، ثم صار يطلق بعد ذلك على كل من يتخذ عقائد المانوية شعاراً له ، ويتمسك بعقيدة التشوية ، وعبادة الهين اثنين ، واتباع تعاليم ماني . ثم توسعوا في العصر العباسي في إطلاق لفظ الزندقة ، فأصبح يطلق على من ينكر الألوهية ، أو يظهر بالظرف . ويرجع تاريخ الزندقة إلى أواخر العصر الأموي ، فقد كان عبد الصمد بن عبد الأعلى مربي الخليفة الأموي الوليد بن يزيد بن عبد الملك ومؤدبه زنديقاً (٣) . كما كان الجعد بن درهم ، الذي ينسب إليه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، فيقال مروان الجعدي ، زنديقاً .

وقد ذكر ابن النديم (٤) أن الجعد كان مؤدباً لمروان ولولده ، وأنه أدخله في الزندقة . وكان خالد بن عبد الله القسري ، على الرغم من اتهامه بالزندقة ، شديداً على الزنادقة ، حتى إنه حبس الجعدي بن درهم وقتله يوم عيد الأضحية ، وجعله بدلاً من الأضحية بعد أن أعلن ذلك على المنبر في عهد هشام بن عبد الملك الأموي .

ولم تقو الزندقة على الظهور إلا بعد قيام الدولة العباسية ، حيث انتشرت في الكوفة . وتكلم الجاحظ الذي عاش في عصر المأمون على كتب الزنادقة فوصفها لنا وصفاً دقيقاً . وإن ما ذكره عن هذه الكتب يطابق ما وصل إلينا عن كتب المانوية . وجاء أبو الفرج الأصفهاني

(١) كتاب فيصل الشريعة بين الإسلام والزندقة للزالي ص ٣٢ .

(٢) أنظر لفظ بغداد في معجم البلدان لياقوت . (٣) الأغاني ج ٦ ص ١٣١ - ١٣٢ .

(٤) كتاب القهرست ص ٤٧٧ .

(+ ٣٤٨ هـ) بعده فقال عن الزنادقة في كتابه الأغاني (١)، إنهم كانوا يعرفون بالثنوية وعبادة الهين اثنين، واتباع تعاليم ماني.

ومن الأسباب التي أدت إلى انتشار الزندقة، أنها كانت وسطاً بين النصرانية والزرادشتية اتباع زرادشت أحد أنبياء الفرس (وأشهرهم زرادشت وماني ومزدك)، وأن ذلك كان سبباً في تأثير الزندقة في أهل هذه النحل، كما أن شعائرها كانت قريبة الشبه بشعائر الإسلام، فإن المانوي، كالمسلم، له عدد من الصلوات في اليوم والليلة، (أربع أو سبع)، كما كانت لهم طهارة قبل الصلاة كالوضوء عند المسلمين.

احتبط بعض الخلفاء العباسيين أشياخ هذه التعاليم، فتعقبهم المهدي، وأنشأ ديواناً عهد به إلى رجل أطلق عليه «صاحب الزنادقة»، ومهنته القضاء عليهم وعلى تلاميذهم. وكان المهدي يقتل على الظنة كل من رى عنده بالزندقة. ولما وصل إلى حلب أمر بتبعية الزنادقة وقتلهم، ومزق أجسادهم شرموز. ويقول صاحب الأغاني (٢) إن المهدي لما نزل البصرة دفع بشاراً إلى حمويه صاحب الزنادقة وقال له: اضربه ضرب التلف. وقال المنعوي إن هذا الخليفة أسرف في قتل الملحدين، وأنشأ هذا الديوان الذي عهد به إلى صاحب الزنادقة للبحث عن الزنادقة ومحاكتهم، كما ألف هيئة علياً لمناظرتهم ووضع الكتب لرد عليهم. وليس أدل على اهتمام المهدي بأمر الزنادقة وعمله على التشكيل بهم والقضاء عليهم، من وصيته ابنه موسى الذي اعتلى حرش الخلافة العباسية من بعده وتلقب بالهادي. وفي ذلك يقول الطبري (٣): «إن المهدي قال لموسى يوماً، وقد قدم إليه زنديق فاستتابه، فأبى أن يتوب، فضرب عنقه وأمر بصليبه: يا بني! إن صار لك هذا الأمر، فتجرد لهذه العصابة — يعني أصحاب ماني — فانها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن، كاجتنب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للأخرة، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تخرجها وتحويها، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين: أحدهما النور والآخر الظلمة، ثم تبع بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاقتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق، لتتقدم من ضلال الظلمة إلى هداية النور. فادفع فيها الخشب، وجرد فيها السيف، وتقرب بأمرها إلى الله لا شريك له. فلما رأيت جدك العباس في المنام قلته سيوفين، وأمرني بقتل أصحاب الاثنين».

وقد انتشرت الزندقة حتى برزت إلى بيوت الوزراء والشعراء، فيحدثنا صاحب الفخرى (٤) أن الربيع بن يونس حاجب الخليفة المهدي قد اتهم ابن معاوية بن يسار الذي وزر الخليفة

(١) ج ٣ ص ٧٣، ٨٦. (٢) ج ٣ ص ٢٣.

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٠١. (٤) ج ١٠ ص ٤٢.

(٥) ص ١٦٣ — ١٦٦.

بسبب منافسته للوزير، فبعث إليه المهدي وفسأله عن شيء من القرآن العزيز، فلم يعرف . فقال لآبيه، وكان حاضرا، ألم تخبرني أن ابنك يحفظ القرآن ؟ قال : بلى يا أمير المؤمنين ، ولكن غارقني منذ مدة فسيه ، فقال له : قم فتقرب إلى الله بدمه ، فقام أبو عبيد الله ، فغثر ووقع وارتمد ، فقال العباس بن محمد عم المهدي : يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تسمي الشيخ من قتل ولده ويتولى ذلك غيره ، فأمر المهدي بعض من كان حاضرا بقتله ، ففُضربت عنقه ، ثم احتجب الوزير وانقطع بداره حتى مات سنة ١٧٠ هـ .

ولما ولي الهادي الخلافة اشتد على الزنادقة ، فقتل منهم جماعة كبيرة . ويقول الطبري^(١) : فكان ممن قتل منهم يزدان بن باذان كاتب يقتطعين وابنه علي بن يقطين من أهل النهروان . ذكر عنه أنه حج ، فنظر إلى الناس في الطواف يهرولون ، فقال ما أشبههم إلا بقر تدوس في البيدر . وله يقول أبو العلاء بن الحداد الأصبى :

أيا أمين الله في خلقه ووارث الكعبة والمينبر
ما ذا ترى في رجل كافر يشبه الكعبة باليسر
ويجعل الناس إذا ما سورا حرا تدوس البر والفسر

فقتله موسى الهادي ، فسقطت خشبته على رجل من الحاج ، فقتله وقتلت حمارة . وقد روى الطبري أن الهادي قال : د لئن عشت لأقتل هذه الفرقة كلها ، حتى لا أترك منها عينا تطرف . ويقال إنه أمر أن يسيأ له ألف جذع فقال : هذا في شهر كذا ومات بعد شهر . وصار القضاء على أتباع هذه الطائفة بيد المهدي وشغله الشاغل . وجاء ابن الهادي فساد في ذلك سير أبيه . كما عين الرشيد رجلا عرف بصاحب الزنادقة ، فكان يمتحن كل من يتم بالزنادقة وبما قبل من تثبت عليه بكل أنواع العقوبة . ولم تقتصر هذه العقوبة على الفرس وحدهم ، بل كان هناك كثير من العرب من أمثال صالح بن عبد القدوس ، ومطيع بن إياس الشاعر الذي عاش في عهد المنصور والمهدي . وقد جرى بآبائه أمام الرشيد ، واعترفت بأن آباها لقنوا تعاليم الزنادقة ، وأنها قرأت كتاب المانوية^(٢) . ويقول ابن النديم^(٣) : إن أكثر البرامكة كانوا زنادقة ، حتى زعم البعض أن ذلك كان من أهم أسباب تكبتهم^(٤) . وقد ذكر ابن قتيبة في كتابه المعارف^(٥) أن الأصمعي دماهم بالكفر فقال :

(١) ج ١٠ ص ٢٣ .

(٢) الأغاني ج ١٢ ص ٨٥ .

(٣) المهرست ص ٤٧٣ .

(٤) الطبري ج ١٠ ص ٣٢٠ .

(٥) طبعة وستفيلد ص ١٤٨ .

إذا ذكر الشرك في مجلس أضاءت وجوه بني برمك
وإن ظليت عنهم آية أتوا بالأحاديث عن مردك
وقد كانت الزندقة في العصر العباسي الأول ضرباً من ضروب الظرف والتشقق . يدلنا
على ذلك ما قاله أحد الشعراء المسلمين لصديق له يصفه بالظرف :

يا بن زياد يا أبا جعفر أظهرت ديناً غير ماتعفي
مزندق الظاهر باللفظ في باطن إسلام قبي عفي
لست يزندق ولكني أردت أن توسم بالظرف

ويكاد يصور لنا هذه الحالة بأجلى بيان أبو نواس في قوله يذم أبا بن عبد الحميد اللاحق
وكان زنديقاً :

جالست يوماً أبا ناس لا درء درء أبا ناس
ونحن حضر رواق الـ أمير بالتهروان
حتى إذا ما صلاة الـ أولى دنت لأوان
فقام ثم بها ذو فصاحة وبيان
فكل ما قال قلنا إلى انقضاء الأذان
فقال كيف شهدت هذا بفير عيان
لا أشهد النهر حتى تعانين العيان
فقلت سبحان رب فقال سبحان ماني
فقلت موسى نبي المسلمين المنان
فقال ربك ذو سقفة ولسان
أفضه خلقته أم من؟ فقمتم مكاني
وقت أسحب ذيل عن مازل بالقران
عن كافر يتمازى بالكفر بالرحمن
يريد أن يتمازى بالصبة المعان
بمعجود وعبيد والوالي المعان
وابن الإياس الذي نا ح نطقى حلوان
وابن الخليل على ربحانة التدمان (١)

(١) كتاب الجنون للجاحظ ج ٤ ص ١٤٣ - ١٤٤ ، وديوان أبي نواس .
ذكر ابن النديم في كتابه الفهرست (ص ٤٧٣) طائفة من الشعراء الزنادقة : منهم بشر بن برد ،
واسحق بن خلف ، وسلم الحامر ، وطى بن الخليل ، وطى بن ثابت .

وقد بقيت الزندقة بعد عصر الرشيد حتى تسربت إلى بلاط المعنصم ، فقد كان قائده الأفشين يدين بعقائد المانوية . ولا نظن أنها زالت بموته ، بل لا بد أنها سارت شوطا بعيدا بعد تغلب الأتراك على الدولة العباسية .

وللزنادة أبحاث في العلم والأدب والسياسة ، إذ تأثر بها الأدباء والمفكرون ، حتى إن طائفة كبيرة من أدباء هذا العصر ومفكره بذلوا الجهد في مكافحة الزندقة والرد على الزنادقة ، ومن ثم نشأ علم الكلام . وكان واصل بن عطاء أول من تصدى لرد عليهم ، وأنكر على بشار بن برد الزندقة والإلحاد لقوله :

إبليس أفضل من أيكم آدم فتبينوا يا معشر الأشرار
النار عنصره وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار^(١)
الأرض مظلة والنار مشقة والنار معبودة منذ كانت النار^(٢)

وهذا البيت الأخير وجد واصل بن عطاء السيل إلى زندقة بشار وتكفيره ، فقال فيه :
« أما لهذا الأعمى الملحد المشتف المكثي بأبي معاذ من يقتله ؟ . أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية^(٣) ، لبعث إليه من يبيع بطنه على مضجعه ، ويقتله في جوف منزله^(٤) . »
ويقال إن بشارا كان كثير المدح لو اصيل بن عطاء قبل أن يدين بالرجعة ويكفر جميع الأئمة ، فلما قال فيه واصل ما قال هجاه بقوله :

مالي أشايح غزالا . له عتق كنتق الدو^(٥) إن ولي وإن مثلا
عتق الزرافة ما بال وبالكم تكفرون رجلا أكفروا رجلا

وكان لأبي الهذيل العلاف شيخ المعتزلة مناظرات طويلة مع الزنادقة ؛ وقد قبل إنه ناظر يوما صالح بن عبد القدوس - وكان ثنويا معروفا - فقال : « على أى شيء تعزم يا صالح ؟ قال أستخير الله وأقول بالاثنتين ، فقال أبو الهذيل : فأيهما استخرت لا أم لك ؟ مات لصالح ابن قذهب إليه أبو الهذيل ومعه النظام ، وهو غلام حديث ، فرآه حزينا فقال : لا أعرف لجزعك وجهها ، فقال : أجزع لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك . قال : وما كتاب الشكوك ؟ قال : كتاب وضعته ، من قرأ فيه شك ، حتى يتوهم أنه لم يكن ، وفيما لم يكن ، حتى يظن أنه قد كان . قال أبو الهذيل : فشك أنت في موت ابنتك ، واعمل على أنه لم يموت ، وإن كان قد مات ، فشك أنه قد قرأ ذلك الكتاب ، وإن لم يقرأه . »

وهكذا كانت مناظرات أبي الهذيل الذي حول عددا كبيرا من المجموس التنوية إلى

(١) - أبو العلاء المصري : رسالة الغفران ج ١ ص ١٧٦ . (٢) الألفاظ ج ٣ ص ٢٤ .

(٣) م الزنادقة المختافون من المفرية والمنصورية ، وقد طهروا في أواخر الدولة الأموية .

(٤) كتاب البيان والتبيين ج ١ ص ١٠ . (٥) النطق الصوت ، والبر المقازة .

الإسلام^(١) . كذلك فعل عمرو بن عبيد بجريز بن حازم الازدي السعفي في البصرة^(٢) . ثم ظهر النظام^(٣) ، وهو أحذق من تكلم في الإشراف^(٤) ، ولم يزل يشن الغارة على الثغوية وغيرهم من الفرق الأخرى .

ولا غرو فقد تصدى المتكلمون الرد على الزنادقة . ولكن كثيرا منهم ظل ، على الرغم من إلحاحه ، متمسكا بمقائيد الزندقة . فقد ذكر ابن النديم^(٥) عند كلامه على يزدان بحث وهو الذي أحضره المأمون من الري بعد أن آمنه ، فقطعه المتكلمون ، فقال له المأمون : « أسلم يا يزدان بحث ، فلو لا ما أعطيناك إياه من الأمان لكان لنا ولك شأن ، فقال له يزدان بحث : نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول ، ولكنك بمن لا يهجر الناس على ترك مذاهم ، فقال المأمون : أجل » .

٢ - ظهور الحزب العلوي في ميدان السياسة واعتماده على السيف

(١) ثورة محمد وإبراهيم في الحجاز والعراق :

لم ينس العلويون حقهم في الخلافة منذ مقتل الحسين بن علي في كربلاء ، بل كان ذلك شغلا شاملا . فأنهم ما فتئوا في كل أدوار حياتهم يتذرعون إلى تسليح حقهم بكل وسيلة ، فإذا وجدوا الفرصة سانحة لأعمال القوة وتجريد السيف اغتصموا ولم يدعوا تمر ، وإذا أنشروا من أنفسهم ضعفا استكانوا ، مكتفين بلقب الإمامة وقرابتهم من النبي ، وآثروا المعيشة الهادئة والاشتغال بالتجارة والانصراف إلى الدين على الاشتغال بالسياسة والحرب ، اللهم إلا في أواخر أيام الدولة الأموية ، حين قام زيد بن علي بن الحسين وابنه يحيى في عهد هشام ابن عبد الملك .

نعم ! لقد عاش العلويون عيشة هادئة ، إلى أن ظهرت الدعوة لآل البيت على أيدي العباسيين ، فلم يترجموا بأنفسهم فيها ، بل تركوا الأمور تجري في مجراها الطبيعي ، حتى كونوا لهم عصية قوية بالمصاهرة ، وكسبوا رضا أهل المدينة ، فأولواهم عطفهم واحترامهم ، وأظهروا استعدادهم إلى الانضمام إليهم . وإلى دعوتهم .

وكانت الدعوة في ذلك الوقت إلى الرضا من آل محمد ، وكان الناس لا يبالون كثيرا

(١) كتاب الانتصار في الرد على ابن الراوندي الجياط ص ٩١ .

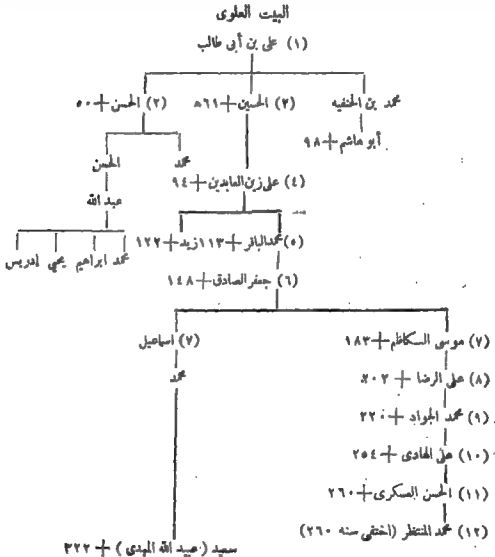
(٢) كتاب طبقات المعتزلة ص ٢٧ . (١) الأغاني ج ٣ ص ٢٤ .

(٣) كتاب الانتصار في الرد على ابن الراوندي ص ٤٨ - ٥٠ .

(٤) انظر كتاب السيادة العربية والشيعية والاسرائيليات في عهد بني أمية ، ترجمة المؤلف ص ٧٥ - ٧٦ .

(٥) كتاب الفهرست ص ٤٧٣ . وذكر ابن النديم اتهام المأمون بالزندقة فقال : « قرأت بخط بعض أهل المدح أن المأمون كان منهم (أي من الزنادقة) وكذب في ذلك » .

أن يتولى أمرهم علوي أو عباسي. وربما كان ذلك راجعاً إلى انشقاقهم بحرب بني أمية وعملهم على القضاء على دعوتهم. ولما غلب النفاة على الكوفة وجدوا أبا العباس السفاح بينهم، وقد عهد إليه أخوه إبراهيم الإمام، ولم يجدوا من بين آل عليّ من يستطيع أن يحوّلهم عن بني العباس؛ إذ لم يكن للعلويين في ذلك الوقت من القوة وكثرة الأنصار ما يساعدهم على الوصول إلى الخلافة، فلم يروا بداً من الهدوء حتى تنبأ لهم الأحوال فيقومون بطلبها. فلما ظفر العباسيون بالخلافة، وأقاموا دولتهم على أنقاض دولة بني أمية، لم يرق ذلك في نظر العلويين، ولم تحلب بذلك نفوسهم، على الرغم من أن الجميع من أولاد هاشم، وعلى الرغم من كونهم يدأواحدة ضد بني أمية، واشتراكهم في العمل على إزالة دولتهم؛ إذ أدركوا أن العباسيين قد خدعهم واستأثروا بالخلافة دونهم، مع أنهم أحق بها منهم، فتأذروهم العدا، ونظروا إليهم كما كانوا ينظرون إلى الأمويين من قبل، فظلوا يتنازلون ويكافحون ابتغاء الوصول إلى حقهم في الخلافة. وكانوا في هذا الدور يعملون في طي الخفاء بما مبروا فيه من فنون الدعوة والمكايد والخدع.



١ - ثورة محمد وإبراهيم في الحجاز والعراق :

وأول الخارجين من العلويين في أيام العباسيين محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وأخوه إبراهيم . واشتهر من أولاد الحسين في ذلك الوقت جعفر الصادق بن محمد الباقر إمام الشيعة الإمامية ، ولكنه لم يحرك ساكناً ، وأوصى أصحابه بالخلود إلى السكينة حتى تحين الفرصة للخروج (١) .

وكان محمد النفس الزكية أول المتطوعين إلى الخلافة من العلويين ، على الرغم مما بذله العباسيون في سبيل استرضائهم : فن إجمال المطايا ، إلى لين في القول . غير أن ذلك لم ينجدهم تفتماً ، فقد كان محمد هذا يرى أنه أحق بالخلافة . هذا إلى دعوام الأساسية ، من أنهم أولاد علي ، وهو الرضى والامام ، كما ذكره محمد إلى أبي جعفر في المكاتبات التي دارت بينهما .

يقول صاحب الفخرى (٢) عن مبايعة بنى هاشم لمحمد النفس الزكية في أواخر أيام بنى أمية : « كان بنو هاشم الطالبيون والعباسيون ، قد اجتمعوا في ذيل دولة بنى أمية ، وتذاكروا حلم وما هم عليه من الاضطهاد وما قد آل إليه أمر بنى أمية من الاضطراب ، وميل الناس إليهم وعجبهم لأن تكون لهم دعوة ، وانفقوا على أن يدعوا الناس سرّاً ، ثم قالوا لا بد لنا من رئيس نبايعه ، فاتفقوا على مبايعة النفس الزكية محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام . وكان محمد من سادات بنى هاشم ورجلهم فضلاً وشرفاً وعلماً ، وكان هذا المجلس قد حضره أعيان بنى هاشم مكلّوهم وعباسيهم ، لحضره من أعيان الطالبيين الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام ، وعبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وابناه محمد النفس الزكية وإبراهيم قتيل باخترى ، وجماعة من الطالبيين ، ومن أعيان العباسيين السفاح والمنصور وغيرهما من آل العباس . فاتفق الجميع على مبايعة النفس الزكية إلا الإمام جعفر بن محمد الصادق ، فإنه قال لأبيه عبد الله المحض ، إن ابنك لا يناها (يعني الخلافة) ، ولن يناهسها إلا صاحب القباة الأصفر (يعني المنصور) (٣) ، وكان على المنصور حينئذ قباة أصفر : قال المنصور فرتب العيال في نفس من تلك الساعة ، ثم اتفقوا على مبايعة النفس الزكية قبايعوه . »

امتنع محمد عن مبايعة السفاح ، وكان أخوه أبو جعفر يأخذ الدعوة له في الحجاز . وكذلك تخلّف هو وأخوه إبراهيم عن البيعة للمنصور ؛ فلما ولي المنصور الخلافة رأى في بقاء محمد وأخيه خطراً يهدد كيانه دولته ، فعمل على التخلص منهما ، كما تخلص من منافسيه عبد الله بن علي ، وأبي مسلم الخراساني من قبل . وقد بعث المنصور في طلب بنى هاشم ، وسألهم عن مكان محمد ، فبرهن البعض الأمر عليه بهذه الكلمات : يا أمير المؤمنين ! قد علم أنك قد سرّته

(٢) المصدر نفسه ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(١) الفخرى ص ١٤٦ .

(٣) يظهر أن هذا من وضع الشيعة فانهم ينسبون إلى أئمتهم العلم بالغيب بماله في احترامهم .

يطلب هذا الشأن قبل اليوم ، فهو يخافك على نفسه ، وهو لا يريد لك خلافاً ولا يحب لك معصية ، وقال بعض آخر : والله ما آمن وثوبه عليك ، فانه لتلذذ لا ينال منك فر رأتك (١) .

ومهما يكن من شيء ، فقد خاف المنصور على نفسه من العلويين ، ورأى أنه لن تقوم الخلافة قائمه إلا إذا ظفر بمحمد وأخيه ، وأعمل الحيل في سبيل الظفر بهما . فاشترى أبو جعفر رقيقاً من رقيق الأعراب ، ثم أعطى الرجل منهم البعير ، والرجل البعيرين ، والرجل الذود (٢) ، وفرقهم في طلب محمد في ظهر المدينة ، فكان الرجل منهم يرد الماء كلاماً وكالضال فيفرون عنه ويتجسسون (٣) .

وقد تهتد زيد بن عبيد الله عامل المنصور على المدينة أن محمد في طلب محمد وأخيه إبراهيم ، على أنه ما لبث أن تهاون في طلبهما ، واتصل بمحمد سرّاً وساعده على الحرب من المدينة ، فذهب إلى سعد بن شمس إلى السدة فالكوفة وعاد أخيراً إلى المدينة . وقد قسا المنصور على زيد هذا فمزله وكتبه بالحديد ، وصادر أمواله وحبه وولى مكانه محمد بن خالد القسري (٤) .

وسرعان ما سحر المنصور محمد بن خالد ، لأنه استبطأ في طلب محمد النفس الزكية ، واتهمه بالتهاون والتفريط في ذلك ، فأرسل رباح بن عثمان بن حيان ابن عم مسئلة بن عقبة المشرقي قائد الحرمة في عهد يزيد بن معاوية . وقد قدم عثمان المدينة سنة ١٤١ هـ ، واضطى المنبر ، وخطب الناس خطبة لا تختلف في معناها عن خطبة الحجاج بن يوسف في مسجد الكوفة ، فنقل منها ما يلي : يا أهل المدينة أنا الأفعى ابن الأفعى ، عثمان بن حيان ، وابن عم مسلم بن عقبة المييد خضراكم ، المقتى رجالكم ، والله لأدعيتها بلقماً لا يتبجح فيها كلب (٥) .

يبد أن شعور أهل المدينة كان يتدفق حماسه نحو آل علي ، فان هذا الوالى لما فرغ من كلامه ، انبرى له قوم منهم ، وفاجشوه بهذه الكلمات المملوءة حقناً على العباسيين فقلوا : يا ابن المجلود حدين ! لتكفرن أو لتسكتنك عن أنفسنا . ولم يكن بد من أن يكتب هذا الوالى إلى المنصور عن سوء طاعة أهل المدينة ، فيحث إليه رسولا من قبله يحمل كتابه إلى أهلها : يا أهل المدينة إنا وإلينا كتب إلي بذكر غشكم وخلافكم وسوء رأيكم . واستأنكم على نعمة أمير المؤمنين ، وأمير المؤمنين يقم بالله لن لم تشدروا لتبذلتمكم بعد أمركم سخوفاً ، ولتسقطن البر والبحر عنكم ، ولتسقطن عليكم رجالاً غلاظ الأكباد يستاد الأرحام (٦) .

(١) الطبري ج ٩ ص ١٨٠ .

(٢) القرد من الإبل ما بين اثلاث إلى العشر ، وهي مؤنثة لا واحد لها من لفظها ، وجمعها أوداد .

(٣) الطبري ج ٩ ص ١٨١ - ١٨٢ .

(٤) الطبري ج ٩ ص ١٨١ .

(٥) المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٥١ .

(٦) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٤٥١ .

عل أن هذا الكتاب لم يكن له أثر في نفوس أهل المدينة ، الذين أجمعوا على الخلاف ، وأبوا إلا خذلان العباسيين وتحويل الخلافة إلى العلويين ، وصاحوا بعامل المنصور من كل جانب ورموه بالحصى ، واضطروه إلى الالتجاء إلى المقصورة ، وإغلاقها عليه ، والهرب من شرم .

ولم يكن رياح بالذى يراجع عن تنفيذ سياسة المنصور مهما لاقى في سبيل ذلك من عن وخطوب ؛ لذلك تراه يأتى عبد الله بن الحسن أبا محمد النفس الزكية ، وهو في محبته ، ويأخذه بالتهديد والوعيد إذا لم يأت به بأبيه محمد وإبراهيم .

هنا بدأ اضطهاد العلويين الحقيقي ؛ فقد حبس رياح إخوة عبد الله بن الحسن بن الحسن وغيرهم من ذوى قرباه ، وأعلن سب أبنيه محمد النفس الزكية وإبراهيم ومن ناصرهما من أهل المدينة ، فرماه هؤلاء بالحصى وأنزلوه من على المنبر قهراً حتى استتر خوفاً على حياته .

وكان محمد في ذلك الوقت مستخفياً في المدينة ، فلما سمع بما حلّ بأبيه وأعمامه وغيرهم من ذوى قرباه ، أتى أمّه هنداً وقال لها : قد حملت أبى وعمومى ما لا طاقة لهم به ، ولقد هممت أن أصح يدى في أيديهم ، ففى أن يخلّ عنهم .

وبعدتنا اليعقوبى والمسهودى أن هنداً ذهبت إلى السجن في ذى رسول ، وطلبت مقابلة عبد الله ، ونقلت إليه قول ابنه محمد لتستطلع رأيه في هذا الأمر . بيد أن عبد الله لم يكن بالرجل الذى تلىن قناته ، بل كان يعتقد في أحقية ابنه بالخلافة دون المنصور والسفاح من قبله ، وكان يرى مواصلة العمل وعدم التراخي والتهاون فقال لها : « إني لأرجو أن يفتح الله به خيراً ويصبر حتى يأتى الله بالفرج ، وقولى له فليدع إلى أمره وليجد فيه ، ومضى محمد في نشر دعوته وبنو الحسن بن الحسن مسجونون في المدينة . إلى أن حجّ المنصور في سنة ١٤٤ هـ ؛ فتلقاه رياح حامل المدينة بالرسيد ، فأمره الخليفة بالعودة إلى المدينة وإشخاص العلويين . فلما ملوا بين يديه وهم مكبلون بالقيود والأغلال ، سألهم عن مقام محمد بن عبد الله فلم يظفر بشئ . فأخذ يعتصمهم ونكّل ببعضهم ^(١) ؛ ثم بعث بهم إلى الكوفة على أكتاف ^(٢) بغير وطاء ^(٣) ، وحبسوا — كما يقول المسعودى ^(٤) — في سرداب تحت الأرض لا يفرقون بين ضياء النهار وسواد الليل ، وغلا المنصور في التثكيل بهم حتى مات أكثرهم ^(٥) .

وفي سنة ١٤٥ هـ [٧٦٢ م] لم ير محمد بدأ من الظهور ، بعد أن دعا إلى نفسه سراً ، وعاش في الخفاء دهماً ، أخذ فيه أشياعه من أهل بيته وغيرهم يقيمون له الدعوة ، حتى اعترف الناس

(١) اليعقوبى ج ٢ ص ٤٥٠ .

(٢) الأكتاف جمع كُتَب أو قُب وهو الإكاف أو الإكاف الصغير على قدر ستام البعير ، وإكاف الحمار هو البردة . (٣) الوطاء بالكسر ضد السطاء أى بغير براذع ولا غطاء .

(٤) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٠ . (٥) الطبرى ج ٩ ص ١٩٨ — ٢٠١ .

بإمامته في مكة والمدينة ، وتلقب بأمر المؤمنين . وكان محمد بن عبد الله - كما وصفه صاحب كتاب القنرى (١) - « من سادات بني هاشم ورجالهم فضلاً وشرفاً وعلماً ، وكان متحلياً بالصفات الحميدة والحاصل الكريمة ، فداع صيته وعظم احترام الناس له . ولم يكن يميل إلى سفك الدماء والظلم ، وإنما اشتهر بمحبة للعفو . وكان زاهداً وباسكاً ، ولذلك لقب بالنفس الزكية وبالمهدي .

ويبدو أن وقت ظهور محمد النفس الزكية لم يكن قد آن أوانه ، وإنما اضطر إلى ذلك اضطراراً . دخل جماعة على محمد وقد اشتد بهم البلاء فقالوا له : « ما تنتظر بالخروج ؟ ما نجد في هذه الأمة أحداً أشأم عليك ، ما الذي يمنعك من أن تخرج وحدك ؟ فلم يرد بدأ بالخروج ، وكان ذلك لليتين بقيتا من شهر جمادى الآخرة من هذه السنة (١٤٥ هـ) (٢) .

وقد ظن محمد أن الناس أجمعوا على نصرته ، وأنهم كانوا شديدى الميل إليه ، إذ كانوا يمتدحون فيه الفضل والشرف والرياسة ، وساعده على ذلك إثناء الإمام مالك بنقض يعة المنصور حيث قال لأهل المدينة : « إنما بايعتم مشركين ، وليس على مكره يمين (٣) » ، وتلك الكتب التي كانت تأتيه من الولايات الإسلامية بتأييد الناس له وانتظار خروجه . ولم يكن يدري أن هذه حيلة دبرها له المنصور على السنة قواده .

أرسل محمد النفس الزكية أخاه إبراهيم إلى البصرة لنشر دعوته . وقد أجمع المؤرخون على أن محمداً خرج في مائتين وخمسين رجلاً ، وأنه توجه إلى السجن وأخرج من كان فيه ، وأمر بحبس عامل المنصور في المدينة : ثم صعد المنبر وخطب الناس هذه الخطبة (٤) : « أما بعد أيها الناس ، فإنه كان من أمر هذا الطاغية عدو الله أني جعفر ما لم يخف عليكم ، من بناءه القبة الخضراء التي بناها معانداً لله في ملكه ، وتصغيراً للكمية الحرام ، وإنما أخذ الله فرعون حين قال أنا ربكم الأعلى . وإن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأئمة الموارسين . اللهم إنهم قد أحلوا حرامك ، وحرّموا حلالك ، وآمنوا من أخفت ، وأغافوا من آمنت . اللهم فأحصهم عدداً ، واقتلهم بدءاً ، ولا تتفاد منهم أحداً . أيها الناس ! إني والله ما خرجت من بين أظهركم . وأنتم عندي أهل قوة ولا شدة ، ولكني اخترتكم لنفسي . والله ما جئتُ هذه وفي الأرض مصر يسعبد الله فيه ، إلا قد أخذني فيه اليمية » .

وإن الناظر في هذه الخطبة ليقف على أن محمداً كان مدفوعاً في خروجه بعدة عوامل : فقد كان ينشد الخلافة ، ويرى أنه أحق الناس بها ، كما كان يمتدح على المنصور لانتلائه عرش الخلافة وتعذيبه أهل بيته حتى مات أكثرهم في السجن . وساعد على ذلك موالة الناس له ، ولا سيما بعد أن أقرى مالك مجواز يمينه ، واعتقاده أنه قد أصبح أقوى من المنصور .

(٢) السعوى : التلبه والأشراف ص ٣٤٠ .

(١) القنرى ص ١٤٧ .

(٤) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٣) الطبرى ج ٩ ص ٢٠٦ .

ظهور إبراهيم بن عبد الله بالمراق:

ولما شدد المنصور في طلب إبراهيم بن عبد الله ، خرج من المدينة قاصداً الكوفة . وأيقن أن أهلها لن يترددوا في الخروج معه ، واتصل نياً قدومه بالمنصور ، فوضع الأرصاد والجواسيس للقبض عليه والحيلولة دون هربه . ولم ير إبراهيم بن عبد الله بدءاً من أعمال الحيلة . وبعد ثلثا اليوم (١) أن إبراهيم أرسل رجلاً من أشياعه يسمى سفيان بن يزيد إلى المنصور ، فقال له يا أمير المؤمنين : تؤمنني وأدلك على إبراهيم بعد أن أدفعه إليك ؟ فقال أنت آمن وأين هو ؟ قال بالبصرة : فوجه معي رجل ثقي به ، واحملني على دواب البريد ، واكتب إلى عامل البصرة حتى أدله عليه ، فيقبض عليه ، فوجه معي أباسويد .

وخرج سفيان بن يزيد ومعه غلام عليه جبة من الصوف ، وعلى عنقه سفرة فيها طعام ، وركب معه على خيل البريد أبو سويد وذلك الغلام . فلما وصل البريد إلى البصرة قال سفيان لأبي سويد : انتظرنى حتى أعرف خبر الرجل ، ومعنى ولم يعد . وكان الغلام الذي عليه الجبة الصوف هو إبراهيم بن عبد الله بن الحسن . ومن ذلك الوقت أخذ إبراهيم يبيت الدعوة لأخيه محمد (٢) .

ظهر إبراهيم بن عبد الله في البصرة ، واستولى على دار الأمانة (٣) ، وهزم قوات الخليفة المنصور . وشد أزره كثير من فقهاء البصرة وغيرهم من ذوى الرأي والجاه ، وانضوت المعتزلة والزيدية تحت لوائه ، وعاونته الامام أبو حنيفة ، وراسله سراً ، كما عاون الامام مالك أخاه محمداً بالمدينة . وهذا كله تمكن إبراهيم من إدخال أهالي واسط والأهواز وقارص في دعوته . ولم يزل إبراهيم يوالى انتصاراته حتى أتاه خبر قتل أخيه محمد ، وذلك قبل عيد الفطر سنة ١٤٥ هـ بثلاثة أيام ، فصلى بالناس يوم العيد ، وقد علا وجهه الحزن ، ودب اليأس إلى قلبه ، ونهى أعمامه للناس ، فازدادوا حماسة في نصرة العلويين ، وبايعوا إبراهيم على إمامتهم .

وضع المنصور في تلك السنة أساس بغداد ، وأخذ العمال في العمل ، حتى بلغ ارتفاع السور قامة . على أن خروج محمد بن عبد الله قد حال دون إتمام بناء قاعدة العباسيين الجديدة ، وتحولت

(١) تاريخ البقوي ج ٢ ص ٤٥٣ - ٤٥٤ .

(٢) اختلف المؤرخون في السنة التي بدأ فيها إبراهيم بن عبد الله الدعوة لأخيه محمد ، فذكر بعضهم أنه بدأها سنة ٨١٤ هـ ، وذكر بعضهم الآخر أن ذلك كان سنة ١٤٥ هـ ، أى في السنة التي ظهر فيها محمد واستولى على مكة والمدينة . ومع ذلك فالتأويل إلى ما ذكره الطبري (ج ٩ ص ٢٥٠ - ٢٥١) وهو أن إبراهيم قدم البصرة في أوائل سنة ١٤٣ هـ ، وأقام فيها مستقياً يدعو أهلها إلى أخيه سراً حتى خرج في غرة رمضان سنة ١٤٥ هـ .

(٣) ذكر الطبري (ج ٩ ص ٢٥١) أن إبراهيم استولى على دار الأمانة وقبض على سفيان بن معاوية والى البصرة ، وحجسه ، ثم انتقل إلى بيت المال ، فاستولى على ما فيه ، وأعطى كل رجل من جنده مائة درهما .

بذلك عنابة المنصور إلى القضاء على العلويين ، وأظهر من الحنكة السياسية ما أتاح له النصر والتفكر . مستعيناً في ذلك بذوى الرأي من رجالات دولته .

قال المسعودي ^(١) : لما ظهر محمد بن عبد الله بالمدينة ، دعا المنصور أبا مسلم العقيلي ، وكان شيخاً ذا رأى وتجربة فقال له : أشرْ عليَّ في خارجيَّ خرج علي ، قال : صف لي الرجل ، قال : رجل من ولد فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذو علم وزهد وورع ، قال : فمن تبعه ؟ قال : ولد علي ، وولد جعفر وعقيل ، وولد عمر بن الخطاب ، وولد الزبير ، وسائر قريش ، وأولاد الأنصار . قال له : صف لي البلد الذي قام به ، قال : بلد ليس به زرع ولا مخرج ولا تجارة واسعة . ففكر ساعة ثم قال : أشعن يا أمير المؤمنين البصرة بالرجال ، فقال المنصور في نفسه قد خرف الرجل ، أسأله عن خارجيَّ خرج بالمدينة ، يقول لي أشعن البصرة بالرجال ؟ فقال له انصرف يا شيخ ! ثم لم يكن إلا يسير حتى ورد الخبر أن إبراهيم قد ظهر بالبصرة ، فقال المنصور : عليَّ بالعقيلي . فلما دخل عليه أدناه ، ثم قال له : إني كنت قد شاورتك في خارجيَّ خرج بالمدينة ، فأشرت عليَّ أن أشعن البصرة ، أو كان عندك من البصرة علم ؟ قال : لا ! ولكن ذكرت لي خروج رجل إذا خرج مثله لم يتخلف عنه أحد ، ثم ذكرت لي البلد الذي هو فيه ، فإذا هو ضيق لا يحتمل الجيوش ، فقلت إنه رجل سيطلب غير موضعه ، ففكرت في مصر فوجدتها مضبوطة ، والشام والكوفة كذلك ، وفكرت في البصرة خلقت عليها منه ، فأشرت بشحنها . فقال له المنصور : أحسنت ! وقد خرج بها أخوه ، فالرأي في صاحب المدينة ؟ قال : نزيه بمثله ، إذا قال أنا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال هذا : وأنا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال المنصور لعيسى بن موسى : وإما أن تخرج إليه وأقيم أنا أمرك بالجيوش ، وإما أن تكفيني ما أخلف ورأى وأخرج أنا إليه . فقال عيسى : بل أفيك أنا يا أمير المؤمنين ، وأكون الذي يخرج إليه . فأخرجه إليه من الكوفة في أربعة آلاف فارس وألني راجل ، واتبه محمد بن قحطبة في جيش كثيف ، فقاتلوا محمداً بالمدينة حتى قتل وهو ابن خمس وأربعين سنة .

تحقق المنصور من صدق نبوة أبي مسلم العقيلي ، بعد أن علم بظهور إبراهيم بن عبد الله بالبصرة . ولم يكتف المنصور باستشارة العقيلي ، إذ لم يقتنع بوجهة رأيه أول الأمر ، ففكر في استشارة غيره ، فلجأ إلى رجل من أهل بيته ، هو عمه عبد الله بن علي ، وكان في حبسه ، فأشار عليه بأن يندق لجنده ، وأن يستحث أهل التجارة والقوة من أهل الشام ، ويسد منافذ الكوفة حتى يحول دون قيام الشيعة في وجهه . وأرسل إليه عبد الله : وارتحل الساعة حتى تأتي الكوفة فاجتمع عليَّ أكبادهم ، فانهم شيعة أهل هذا البيت وأنصارهم ، ثم اخفها بالمساح ، فن خرج منها إلى وجهه من الوجوه ، أو أنهاها من وجهه من الوجوه ، فاضرب عنقه . واهبت إلى سلم بن قتيبة

ينحدر عليك (وكان بالرى) . واكتب إلى أهل الشام . فرم أن يحملوا إليك من أهل البأس
والنجدة ما يحمل البريد ، فأحسن جوائزهم ووجههم مع سلم ، فقبل (١) .

على أن المنصور كان - على الرغم من هذا كله - متخوفاً من ناحية محمد بن عبد الله أشد
الخوف . فلم يكن مطمئناً إلى نتيجة منازلة العلويين . لذلك زاده بلجاً إلى انتهاز سبيل الحيلة مع
محمد ، فكتب إليه كتاباً بحث به مع رسول من قبله ، رغبة منه في أن يفعل سياسة اللين
والمسالة ما لا تفعله سياسة العداء والحرب ، تلك السياسة التي كان المنصور متخوفاً من سوء مقبعتها .
وهناك الكتاب بنصه : (٢) « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله
(إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويستولون في الأرض فساداً ، أن يقتلوا أو
يصلبوا) أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم جزئهم
في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ، إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم ،
فاعلموا أن الله غفور رحيم (٣) » . ولك على عهد الله وميثاقه وذمته وذمت رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، إن تبثت ورجعت من قبل أن أؤمرك وجميع ولدك وإخوتك وأهل
بيتك ، وتمن اتبعكم ، على دنائكم وأموالكم ، وأسو غنك ما أصببت من دم أموال ، وأعطيك
الف ألف درهم ، وما سألت من الخواصج وأنتزكتك من البلاد حيث شئت ، وأن أطلق
من في حبس من أهل بيتك ، وأن أؤمرك كل من جارك وبايعك واتبعك ، أو دخل معك
في شيء من أمرك ، ثم لا أتبع أحداً منهم بشيء كان منه أبداً . فان أردت أن تتوثق لنفسك
فوجه إلى من أحببت ، يأخذك من الأمان والعهد والميثاق ما تتق به .

على أن هذا الكتاب لم يكن له أي أثر في نفس محمد بن عبد الله الذي لم يعبأ بهذه الوفود
الخلافة ، إذ كان يعتقد بأحقية باخلافة ، وأنه صاحب الحق الشرعي ، وأن المنصور قد سلبه
هذه الخلافة . لذلك زاده رد على المنصور ويلومه لتسكيه بأهل بيته وخروجه على أصحاب الحق
من آل علي ، وسلمهم الخلافة ، ويفخر عليه باتيائه إلى الرسول وإلى علي وفاطمة ، وما أصابوه
من البلاء في نصرة الدين : ثم يوازن بينه وبين المنصور من جهة الآم ، ويسخر من الأمان الذي
أعطاه إياه ، إذ لم يكن يثق به بعد ما حدث في بيته مع ابن هبيرة ، ومع عمه عبد الله بن علي ،
ثم مع أبي مسلم الخراساني . وهناك نص الكتاب (٤) : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله
المهدي محمد بن عبد الله ، إلى عبد الله بن محمد (طسم) تلك آيات الكتاب المبين ، تنلو عليك
من نبا موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، إن فرعون غلا في الأرض وجعل أهلها شيعا ،
يستضف طائفة منهم ، يذبح أبنائهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين . وزيد أن نحن
على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ويمكن لهم في الأرض

(٢) الطبري ج ٩ ص ٢١٠ .

(١) الطبري ج ٩ ص ٢٠٩ .

(٤) الطبري ج ٩ ص ٢١٠ - ٢١١ .

(٣) سورة المائدة رقم ٥ آية ٢٢ - ٢٤ .

وزى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون (١). وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى عرضت على فان الحق حقنا ، وإنما أديعتم هذا الأمر بنا ، وخرجتم له بشعنا ، وحظيتم بفضلنا ، وإن أبانا عليا كان الوصى وكان الامام ، فكيف ورتتم ولايته وولده أحياء . ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا . لسنا من أبناء اللئاء ، ولا الطرداء ، ولا الطلقاء . وليس يمتك أحد من بنى هاشم مثل الذى يمت به من القرابة والسابقة والفضل ، وإنما بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية ، وبنو بنته فاطمة فى الإسلام دونكم . إن الله اختارنا واختار لنا ، فواللهنا من النبيين محمد صلى الله عليه وسلم . ومن السلف أولهم لإسلاما على ، ومن الأزواج أفضلهن خديجة الطاهرة ، وأول من صلى القبلة . ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ، ومن المولودين فى الإسلام حسن وحسين سيدا شباب أهل الجنة . وإن هاشما ولد عليا مرتين ، وإن عبد المطلب ولد حسنا مرتين ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدنى مرتين من قبل حسن وحسين ، وإلى أوسط بنى هاشم نسبنا وأصرحهم أبيا ، لم ترق فى المعجم ، ولم تنازع فى أمهات الأولاد . فما زال الله يختار لى الآباء والأمهات فى الجاهلية والإسلام ، حتى اختار لى فى النار ؛ فأنا ابن أرفع الناس درجة فى الجنة ، وأهونهم عذابا فى النار ، وأنا ابن خير الأخيار ، وابن خير الأشرار ، وابن خير أهل الجنة وابن خير أهل النار . ولك الله على إن دخلت فى طاعتي ، وأجبت دعوتى ، أن أؤمئك على نفسك ومالك ، وعلى كل أمر أحدثته إلا حدا من حدود الله ، أو حقا سلم أو معاهد ، فقد علمت ما يلزمك من ذلك ؛ وأنا أولى بالأمر منك وأدنى بالهدى ، لأنك أعطيتى من الهدى والأمان ما أعطيت رجلا قبلى ، فأى الأمانات تعطيت ؟ أمان ابن هيرة ؟ أم أمان حنك عبد الله بن على ؟ أم أمان أنى مسلم ؟

الإسلام بالقرابة ، وزقه عبد الله ، أولام بكل خير في الدنيا والآخرة ؛ ولكن الأمر لله يختار
لدينه من يشاء ، قال الله عز وجل (ألم لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو
أعلم المتهدين) (١) . ولقد بعث الله محمداً عليه السلام وله عومة أربعة . فأُنزل الله عز وجل
(وأنذر عشيرتَك الأقرين) (٢) . فأنذروهم ودعاهم ، فأجاب اثنان أحدهما أبي ، وأبي اثنان
أحدهما أيوك ، فقطع الله ولايتهما منه ، ولم يحمل بيته وبينهما إلا ولا ذمة ولا ميراثاً ؛ وزعمت
أنك ابن أخف أهل النار عذاباً ، وابن خير الأشرار ، وليس في الكفر بالله صغير ، ولا في
عذاب الله خفيف ولا يسير ، وليس في الشر خيار ، ولا ينبغي لمؤمن يؤمن بالله أن يفخر بالنار .
وسرد تعلم (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) (٣) . وأما ما نظرت بمن فاطمة أم علي ،
وأن هاشما ولده مرتين ، ومن فاطمة أم حسن ، وأن عبد المطلب ولده مرتين ، وأن النبي صلى
الله عليه وسلم ولدك مرتين ، نظير الأولين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لم يلبه
هاشم إلا مرة ، ولا عبد المطلب إلا مرة . وزعمت أنك أوسط بني هاشم نسباً وأصرحهم
أماؤاً ، وأنه لم يلدك المعجم ، ولم تحرق فيك أمهات الأولاد ، فقد رأيتك نظرت علي بن هاشم
طراً ، فانظر ويحك أين أنت من الله غداً ، فانك قد تعديت طورك ، ونظرت علي من هو خير
منك نفساً وأباً ، وأولاً وآخر ، إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلي والد ولده ؛
وما خيار بني أبيك خاصة ، وأهل الفضل منهم ، إلا بنو أمهات أولاد ؛ وما ولد فيكم بعد
وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أفضل من علي بن حسين ، وهو لأم ولد ، وهو خير من
جدة حسن بن حسن ، وما كان فيكم بعده مثل ابنه محمد بن علي ؛ وجدته أم ولد ، وهو خير
من أبيك ، ولا مثل ابنه جعفر ؛ وجدته أم ولد ، وهو خير منك . وأما قولك إنكم بنو رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، فإن الله تعالى يقول في كتابه (ما كان محمدٌ أباً أحدٍ من رجالكم) (٤) .
ولكنكم بنوا بيته ، وإنها قرابة قريبة ، ولكننا لا نخوز الميراث ، ولا نرث الولاية ، ولا نخوز
لها الإمامة ؛ فكيف تورث بها ، ولقد طلبها أيوك بكل وجه فأخسر سبها نهاراً ، ومرونها سراً ،
ودفنها ليلاً ، فأبى الناس إلا الشيخين وتفضيلهما . ولقد جاءت السنة التي لا اختلاف فيها بين
المسلمين ، أن الجدة أبا الأم والحال والحالة لا يرثون . وأما ما نظرت به من علي وسابقتها ، فقد
حضرته رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفاة ، فأمر غيره بالصلاة ، ثم أخذ الناس رجلاً بعد
رجل فلم يأخذوه ، وكان في السنة فركوه كلهم دفعا له عنها ، ولم يروا له حقاً فيها . أما عبد الرحمن
فقد تم عليه عثمان ، وقتل عثمان وهو له شتم ، وقاله طلحة والزبير ، وأي سمد بيته ، وأغلق
دونه باب ، ثم بايع معاوية بعده . ثم طلبها بكل وجه ، وقتل عليها ، وتفرق عنه أصحابه ، وشك
فيه شيعة قبل الحكومة ، ثم حكّم حكّمين رضى بها وأعطاهما عهده وميثاقه ، فاجتمعا على

(١) سورة القصص رقم ٢٨ آية ٥٦ . (٢) سورة الشعراء رقم ٢٦ آية ٢١٤ .

(٣) سورة الشعراء رقم ٢٦ آية ٢٢٧ . (٤) سورة الأحزاب رقم ٣٣ آية ٤٠ .

خله . ثم كان حسن قباعة من معاوية يخسر قودرام ، ولحق بالحجاز ، وأسلم شيعة يدمعاوية ،
ودفع الأمر إلى غير أهله ، وأخذ مالا من غير ولائه ولا حله . فان كان لكم فيها شيء فقد بعتموه
وأخذتم منه . ثم خرج علك حسين بن علي إلى ابن سرجانة ، فكان الناس معه عليه ، حتى قتلوه
وأثروا برأسه إليه . ثم خرجتم على بني أمية ، قتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل ، وأحرقوكم
بالتيران ، ونفوكم من البلدان ، حتى قتل يحيى بن زيد بخراسان ، وقتلوا رجالكم وأسروا الصبية
والنساء ، وحلوكم بلا وطاء . في المحامل كالسبي المجلوب إلى الشام ، حتى خرجنا عليهم ، فطلبنا
بثارك وأدركتنا بدمائك ، وأورثناكم أرضهم وديارهم ، وسئسنا سلفكم وفضلناهم ، فاحتضت ذلك
علينا حجة ، وظننت أننا إنما ذكرنا أباك وفضلناهم للتقدمة منا له على حمزة والعباس وجعفر ،
وليس ذلك كما ظننت ، ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين ، متسلدا منهم ، مجتمعاً عليهم بالفضل ،
وابتلى أبوك بالقتال والحرب . وكانت بنو أمية تلعنكم كالثلث من الكفرة في الصلاة المكتوبة ،
فاحتجبتنا له وذكرناهم فضله ، وعفتناهم ، وظلناهم بما نالوا منه . ولقد علمت أن مكرونا في
الجاهلية سقاية الحبيج الأعظم ، وولاية زمزم ، فصارت العباس من بين أخوته . فنازعنا فيها
أبوك ، ففقد لنا عليه عمر ، فلم نزل نلبيا في الجاهلية والإسلام . ولقد قحط أهل المدينة ، فلم
يتوسل عمر إلى دبه ، ولم يتقرب إليه إلا بأيتنا ، حتى نعشهم الله وسقام الفيت ، وأبوك حاضر
لم يتوسل به . ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد النبي صلى الله عليه وسلم غيره ،
فكان وارثه من عموته . ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بني هاشم ، فلم يثله إلا واده .
فالسقاية سقائته ، وميراث النبي له ، والخلافة في ولده . فلم يبق شرف ولا فضل في جاهلية ولا
إسلام ، في دنيا ولا آخرة ، إلا والعباس وارثه ومورثه . وأما ما ذكرت من بدر ، فان الإسلام
جاء ، والعباس يسمون أبا طالب وعياله ، ويشفيق عليهم للآزمة التي أصابته . ولولا أن العباس
أخرج إلى بدر كرها ، لما طالب وشقى مجوعا ، ولست حسنا جفان عتبه وشيبة ، ولكنه
كان من المطمئنين ، فأذهب عنكم العار والسبة ، وكفناكم النفقة والمؤونة : ثم فدى عقيل يوم
بدر ، فكيف تغضب علينا ، وقد علمناكم في الكفر ، وفديناكم من الأسر ، وحزنا عليكم مكارم
الآباء ، وورثنا دونكم عاتم الانبياء ، وطلبنا بثارك فأدركتنا منه ما عجزتم عنه ، ولم تدركوا
لأنفسكم ، والسلام عليكم ورحمة الله .

(ب) إخفاق هذه الثورة وأسبابه - تأثير مصر في ذلك :

ومهما يكن من شيء ، فقد أخطأ محمد بن عبد الله وأخوه إبراهيم في خروجهما على المنصور
بعد أن بايعه عامة المسلمين ، واعتمدا على هذا العدد القليل من الأنصار ، مع أن خصمهما قوى
لا يتوان عن إتيان كل أنواع المكاييد والخدع للقضاء عليهما .

وقد تدب المنصور لخرجهما عنه وولى عهده عيسى بن موسى بن محمد كما تقدم ، وأراد أن
يضرع بصغورين بحجر واحد كما يقولون ، فإن قتل عيسى ، تحول الخلافة إلى ابنه المهدي .

وقد ذكر الطبري (١) أن المنصور قال بعد أن سار عيسى لحرب محمد بن عبد الله: « لا أبالي أيها قاتل صاحبه ». ولما أمر أبو جعفر عيسى بن موسى بالشخص قال: « شاور عمومك ، فقال له: « امض أيها الرجل ، فوالله ما يراد غيري وغيرك ، وما هو إلا أن تشخص أو أشخص » .

سار عيسى إلى المدينة لحرب محمد ، وكان قد تغلب عليها وعلى مكة . ولما وصل الجيش إلى فَيْد أرسل عيسى إلى أهل المدينة كتباً يمنّهم فيها الأمان الطيبة ، فكفّ كثير منهم عن مساعدة العلويين .

ويظهر لنا أن عمداً النفس الزكية قد هاله عظم جيش عيسى بن موسى ، وأحزنه تفرق أكثر رجاله عنه ، وشك في قوته وتردد في منازلة خصمه ، واستشار أصحابه فيما يصنع: أينazolهم في المدينة كما حارب الرسول الأحزاب؟ أم يخرج إلى بلد آخر تتاح له فيه الفرصة لمحاربتهم؟ وقد أشار عليه بعضهم بالخروج إلى مصر ، لأن فيها من الاستعداد والقوة ما لم يكن في المدينة المنورة وقالوا له: « ألست تعلم أنك بأقل بلاد الله فرساً وطعاماً وسلاحاً وأضعفها رجالاً؟ ألست تعلم أنك تقا تل أشد بلاد الله رجالاً وأكثرها مالا وسلاحاً؟ . . فلأرى أن تسير بمن معك حتى تأتي مصر . فوالله لا يدرك راد ، فتقاتل الرجل بمثل سلاحه وكرأه ورجاله وماله ، فصاح حنين بن عبد الله: أعوذ بالله أن تخرج من المدينة ، وحذنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: رأيتني في دوح حصينة فأولتها المدينة (٢) » .

لم ير محمد بدأ من النزول على رأى القائلين بالبقاء في المدينة على كره منه ، وأخذ اليأس يدب إلى نفسه ، وبخاصة بعد ما تبين له ضعف حماسة ذلك الفريق الذي كان يرى الخروج إلى مصر وتناقله عن نصرته ، فلم يطمئن إليهم ، ورأى أن لا فائدة من الاعتماد عليهم ، فخطبهم خطبة قال فيها: « يا أيها الناس! إنا قد جمعناكم للقتال ، وأخذنا عليكم المناقب ، وإن هذا العدو منكم قريب ، وهو في عدد كثير ، والنصر من الله والأمر بيده . وإنه قد بدا لي أن آذن لكم وأترسج عنكم المناقب ، فمن أحب أن يقيم أقام ، ومن أحب أن يظن ظن (٣) » .

وكانت هذه الخطبة مقياساً لمحنة عدد المخلصين من أنصار محمد النفس الزكية الذين قاربوا مائة ألف أول الأمر: فقد تسلل أكثرهم وبقى هو في شردمة قليلة قاتل بها عيسى بن موسى وجنده . وقتل محمد بن عبد الله واحتز رأسه وأرسل إلى عيسى بن موسى . وكان ذلك يوم الاثنين ١٤ رمضان سنة ١٤٥ هـ (٤) .

هكذا ختم أول فصول هذه المأبأة . ولم يبق أمام المنصور إلا القضاء على منافيه الجديد

(١) الطبري ج ٩ ص ٢١٦ . (٢) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢١٨ .
(٣) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢١٩ . (٤) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

إبراهيم بن عبد الله في العراق ؛ وكان قد تغلب على البصرة والأهواز وفارس ، وتفاقم خطره وكثر عدد جنده حتى بلغ مائة ألف . وعرف ذلك الخليفة المنصور فاستعد لده خطر إبراهيم أتم استعداد ، وشرع للندود عن حياض خلافة ، وأبى أن يخلف ثيابه حتى يظفر بالعويين في الحجاز والعراق ، على حين تزوج إبراهيم بآبنة عمر بن سلة ، فكانت تأتيه في مصباتها وألوان ثيابها (١) .

ومرعا ما أنفذ أبو جعفر المنصور عيسى بن موسى ، وقد عجم عوده وخبر مهارته الحرية في حرب محمد بالحجاز ، لمحاربة أخيه إبراهيم في العراق . ودارت رحى الحرب بين الفريقين في باخرى بين الكوفة وواسط (٢) ، وانهمز حميد بن قحطبة أحد قواد عيسى وكانت الهزيمة تلحق بجيش المنصور ، لولا أن ثبت عيسى وأبى أن يتحول عن مكانه حتى يقتل أو يفتح الله عليه (٣) . وما زال الفريقان يقتلان ، حتى انهمز جند إبراهيم وولى أكثرهم الأدبار . وثبت هو في عدد قليل من أنصاره ، حتى أصيب بسهم في حلقه ، واحتز ابن قحطبة رأسه ، وأرسله إلى عيسى بن موسى ، فسجد شكراً لله . وذلك يوم الاثنين لخمس بقين من ذي القعدة سنة ١٥٤ هـ . ولما رأى المنصور رأس إبراهيم تمثل بقول الشاعر :

فألفقت عصاه واستقرت بها الثرى كما قرّ عيناً بالإياب المسافر (٤)

ولا شك أن هزيمة العويين قد أحرزت أشباعهم المخلصين ، فندبوا حطهم المائر ، وبكوا ما حل بهم من الكرب والويلات ، ورنثام شعراؤهم أجمل رثاء .

ولم تقتصر هذا المصائب على محمد وأخيه إبراهيم ، فقد استعان محمد بنفس الركبة ببعض أهل بيته الدعوة إلى إمامته في الولايات الإسلامية ؛ فبعث ابنه عبد الله إلى خراسان ثم إلى السند فقتل بها ؛ وبعث ابنه الحسن إلى اليمن ، لحبس ومات في الحبس . وسار أخوه موسى إلى الجزيرة ؛ ومضى أخوه يحيى إلى الري وطبرستان ، وسار أخوه إدريس إلى بلاد المغرب ، وبعث ابنه محمد إلى مصر . وقد ذكر الكندي (٥) والمقريزي (٦) أن محمداً أرسل ابنه علياً إلى مصر ليث الدعوة له ، غير أن والى المنصور فيها استطاع أن يمحيط أعماله وأعمال من ناصروه ؛ وظل على ذلك حتى قدمت النعاة إلى مصر بخبر وفاة إبراهيم ، فسقط في يد الشيعة ، وانطفأت جذوة الثورة في هذه البلاد ، ولا يعلم المؤرخون ما آل إليه أمر علي بن محمد .

(١) الطبري ج ٩ ص ٢٥٥ .

(٢) أقرب إلى الكوفة منها إلى واسط ؛ وتبعد عن الأولى بسبعة عشر فرسًا . انظر هنا الخط في معجم البلدان لياقوت .

(٣) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٨ ؛ الطبري ج ٩ ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٤) الطبري ج ٢ ص ٤٥٦ ؛ الطبري ج ٩ ص ٢٥٩ .

(٥) كتاب الولاة ص ١١٤ . (٦) الخط ج ٢ ص ٣٣٨ .

عوامل إخفاق هذه الثورة :

أما وقد بينا كيف أخفق محمد وإبراهيم في هذه الثورة ، فقد وجب أن نبين العوامل التي أدت إلى ذلك .

ذكر المؤرخون أن جيش محمد في المدينة قارب مائة ألف ، وكذلك جيش أخيه إبراهيم في العراق ، وأن أنصارهما قد انتشروا في طول بلاد الدولة العباسية وعرضها ، حتى إننا نسمع عنهم في الحجاز وفي العراق ، وفي خراسان ومصر وغيرها ، فما سبب خذلانهم في وقت كانت الدولة العباسية لا تزال في دور إنشائها ، وفي وقت كانت قلوب المسلمين — وخاصة قلوب أهل فارس — مع العلويين ، حتى ذهب كثير من أهل خراسان ، كأي سلة الخلال وأبي مسلم الخراساني ، ضحية هذه الميول والأهواء ؟ لا شك أن هذا الإخفاق يرجع إلى عدة أسباب . ولا شك أيضاً أن المنصور يرجع إليه الفضل الأكبر في إحباط هذه الثورة ، على الرغم من أن تشكيله بالعلويين قد أثار سخط المسلمين وخاصة أهل خراسان ، وعلى الرغم مما لاقته دعوة العلويين من عطف كثير من الشعوب الإسلامية وتأيد فقهاء ذلك العصر ، وعلى رأسهم الإمامان مالك وأبو حنيفة ، وعلى الرغم مما اتصف به محمد بن عبد الله من كرم الخصال والسجايا التي رفعت في أعين الناس ، فإن ذلك كله لم يكن له من أثر أمام قوة شكيمة المنصور ، وشدة دهائه وعظم جيوشه وكثرة آلائه الحريية .

عرف المنصور ميل الخراسانيين إلى آل علي ، فقد كتب إليه عامله على خراسان يخبره أن أهلها طلبوا شخصاً من محمد بن عبد الله لنصرته والخروج في وجه العباسيين تحت لوائه . وقد رأى المنصور بداهته أن يدا من الخراسانيين ويشتمهم عن غزيمهم ؛ فأرسل إليهم رأس محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان أخى عبد الله بن الحسن بن الحسن لأمه فاطمة ابنة الحسين ابن علي ، وأوهمهم أنها رأس محمد بن عبد الله (١) .

ولاشك أن المنصور قد حال بحيلة هذه ، دون قيام الفتن والاضطرابات في خراسان التي كان يميل أهلها إلى العلويين لما كان بينهم من صلة النسب ، ولم يحمل الدولة أعباء مقاومة هذه الفتن وما يتبعها من فقد النفوس والأرواح .

ولقد ظن محمد النفس الزكية أن قلوب الناس معه ، وأنه غدا بذلك أقوى من المنصور . وزاد في هذا الظان هذه الكتب التي كانت ترد عليه من الولايات الإسلامية بتأييد أهلها له وانتظار خروجه . ولم يفتن إلى أن أكثر الناس لا يعملون من أمر الدعوة العلوية شيئاً ، وأن أبا جعفر المنصور هو الذي دير هذه الحيلة على ألسنة قواده ، وساعده على زهوه بنفسه إقناع الإمام مالك بطلان ييمة المنصور .

ولقد أخطأ محمد في اختيار مركزه الحزبي ، لأن المدينة كما وصفها المسعودي (٢) وبلد ليس

(١) الطبري ج ٩ ص ٢٠٠ — ٢٠١ . (٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٧ .

به ذرع ولا خضر ولا تجارة واسعة . كما أن مركزه الحرجي لم يكن مركزاً طليعياً للحرب ، فلو حوصرت المدينة لما وصلت إليها الميرة ومات أهلها جوعاً وعطشاً . هذا إلى أن النفس الزكية لم يقف على مبلغ استعداد أهل الحجاز لتصرته ، حتى تفرقوا عنه في الساعة الأخيرة ، وتركوه في هذه القردة حتى قتل . ولم يدرك أن المنصور كان يستشير ذوي الرأي والحجبا من رجالات دولته ، ولم يدخر وسعاً في تنظيم جنده وإمداده بالسلح والمؤن ، وأمر عليهم غلبة من مشهورى قواده بما كفل له النصر . أما جند العلويين فانه على الرغم من كثرته ، لم ينظم ولم يرتب على أحدث النظم في ذلك العصر . فرى إبراهيم يحارب عدوه بجيشه الذي قسمه إلى كراديس يقدم منها إلى الحرب كردوسا ، فاذا انهزم تقدم الآخر وهكذا . وقد أبى إبراهيم أن يقاتل جنده صفاً واحداً ، فيكونوا كالبنيان المرصوص لقوله تعالى : (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) (١) ، مع أنهم كانوا أكثر عدداً من جند عيسى بن موسى (٢) .

ثم لعل من أقوى الأسباب لإخفاق هذه الثورة عدم تنفيذ الخطة التي رسمها محمد وإبراهيم ، وكانت تقضى بأن يخرجوا في وقت واحد . ويرجع ذلك إلى تأخر خروج إبراهيم لمرسته ، أو بسبب تعجل محمد للحرب . ولو خرج الأخوان في وقت واحد لما استطاع المنصور الوقوف أمامهما (٣) .

(ج) موقف الحزب العلوى بعد ثورة محمد وإبراهيم

١ - ثورة الحسين بن على

من ذلك يتبين أن العلويين لم يعولوا في دعواهم في الخلافة على الكيد وحده ، بل ظلوا ينازلون أعداءهم في ميدان القتال ، كما سنحت لهم الفرصة وتمأت لهم الأحوال (٤) . وفي الحق أن أمر العلويين قد خسف بعد مقتل محمد وإبراهيم ابني عبد الله ؛ غير أنهم ما فتئوا يتطلعون للخلافة ، على الرغم من أنهم قد أصبحوا من الضعف بحيث لم يعد الخليفة العباسى بحاجة إلى التخوف من ناحيتهم . وإنما اكتفى بأن وضع كبارهم تحت نظره بيندا ، وبمراقبة عامله على المدينة المنورة لهم . ومن ثم تراهم يلجئون إلى الاستكانة ، ويحيثنون الفرص لفتح القاهرة على الخلافة العباسية من جديد .

خرج العلويون في عهد الهادى بمكة والمدينة بزعامة الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن

(١) سورة الصف رقم ٦١ آية ٤ . (٢) الطبرى ج ٩ ص ٢٥٧ .

(٣) كان خروج محمد بالمدينة في أول رجب سنة ١٤٥ هـ ، وكان ظهور إبراهيم بالبصرة في أول رمضان من هذه السنة . ويظهر أن الاتفاق على زمن خروج محمد وإبراهيم كان أمراً متفقاً عليه بينهما ، وأن محمدًا تعجل الخروج بسبب حث الناس له .

(٤) الفاطميون في مصر للدؤف ص ٤٩ .

الحسن بن علي ، الذي دعا إلى نفسه بالمدينة في ذي القعدة سنة ١٦٩ هـ . ويعزو المؤرخون خروج الحسين إلى سوء معاملة عامل الهادي على المدينة ، وبخاصة الحسن بن محمد النفس الزكية ، واتهامهم بشرب الخمر ، وقبضهم عليهم والتشهير بهم بين أهل المدينة ، مما أثار سخط الشيعة وحفزهم على الانضمام إلى العلويين . ويظهر أن العلويين قد عزموا على الخروج قبل ذلك بزعامه الحسن ، وأنهم اتخذوا من سوء معاملة عامل المدينة لهم فرصة سانحة لإثارة شعور أهل المدينة نحو العباسيين ؛ فقد سار الحسين بن علي إلى عامل المدينة ، واعترض على التشهير بأهل بيته والحط من كرامتهم .

يقول صاحب الفخرى (١) : كان الحسين بن علي من رجال بني هاشم وسادتهم وفضلهم ؛ وكان قد عزم على الخروج ، واتفق معه جماعه من أعيان أهل بيته . ثم وقع من عامل المدينة تمهيم لبعض آل علي عليه السلام ، فثار آل أبي طالب بسبب ذلك ، واجتمع إليهم ناس كثيرون ، وقصدوا دار الإمارة ، فحصن عنهم عاملها ، فكسروا السجون وأخرجوا من فيها ، وبيع الحسين بن علي .

أقام الحسين بعد خروجه بالمدينة أحد عشر يوما ؛ ثم قصد مكة ، فلقبه جيش العباسيين بفخ ، وهو واد في طريق مكة ، يبعد عنها ستة أميال . وفي هذا المكان تقرر مصير العلويين ، حيث قتل الحسين بن علي بعد أن أبلى بلا شديدا ، وقتل معه بعض أهل بيته . وكانت هذه الموقعة من الشدة بحيث قيل : لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وألجع من فخ . (٢) . وقد كثر شعر الشيعة في رثاء قتلاهم ، ومن ذلك قول أحدهم :

فلا يكتفين على الحسين بموثة وعلى الحسن
وعلى ابن عاتكة (٣) الذي وادوه ليس بذى كف
تركوا بفخ غدوة في غير مثلة الوطن
كانوا كراما هيجوا لا طائشين ولا جبين
غسلوا المذلة عنهم غسل الثياب من الدون (٤)
هدى المباد بخدم ظلم على الناس المني (٥)

من ذلك يتضح أن العلويين لم يدلوأ عن اعتقادهم الراسخ ، أنهم أحق بالخلافة من أبناء عمهم العباسيين ، وأنهم كانوا يثيرون في وجه الدولة الحاكمة ، كلما سنحت لهم الفرص وتهايت لهم الأحوال . ولم يكن العباسيون يعتمدون إساءة العلويين ، وإنما كانوا يشكلون بهم لقيامهم في وجه النظام القائم كما يقولون ؛ كما أنهم كانوا يرغبونهم بكل أنواع الترغيب ، فلم يثبتم ذلك عن

(١) ص ١٧٢ - ١٧٣ . (٢) راجع لفخ في مجلد البلدان لياقوت .

(٣) هو الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي قتل بفخ .

(٤) الدون : الفئارة . (٥) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٠٧ .

عزيمهم في طلب الخلافة . ولم يكن العباسيون ينسون في كل أطوار علاقتهم مع العلويين ، أنهم أولادهم ، وأن لهم عليهم حرمة القرابة القريبة من الرسول ، حتى في الوقت الذي كانوا يخرجون فيه عليهم ، ويعملون على استخلاص الخلافة منهم وتحويلها إليهم . وفي ذلك يقول المسعودي (١) :
« وأخذ لعبد الله بن الحسن بن علي وللحسين بن علي الأمان ، لحبسا عند جعفر بن يحيى بن خالد ابن برمك ، وقتلا بعد ذلك ؛ فسخط الهادي على موسى بن عيسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس لقتل الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن ، وترك المصير به إليه ليحكم فيه بما يرى . وقبض أموال موسى (بن عيسى) ، وأظهر الذين أتوا بالرأس الاستيثار ، فبكى الهادي وزجرهم وقال : أيتيموني مستبشرين ، كأنكم أيتيموني برأس رجل من الترك أو الديلم ، إنه رأس رجل من عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألا إن أقل جزائكم عندي ألا أنيكم شيئا . »

٢ - ثورة يحيى وإدريس ابني عبد الله :

كانت موقعة فسخ بعيدة الأثر ؛ فقد هرب منها رجلان كانا شجعا في حلق العباسيين : هما يحيى بن عبد الله صاحب الديلم ، وأخوه إدريس الذي فر إلى بلاد المغرب . وقد أراد الرشيد أن أن يستميل إليه العلويين ، ففك الحجر عن كثير من كان منهم ينفذاد . ولكن أفراد البيت العلوي لم يعدوا عن اعتقادهم الراسخ في استحقاق الخلافة ، ومنازلتهم في سبيل الوصول إليها . وقد فر يحيى وإدريس ابنا عبد الله بن الحسن العلوي من موقعة فسخ ، وكان لهما شأن في أيام الرشيد .

أما يحيى فقد مضى إلى بلاد الديلم ، فاعتقد أهلها أحقيته للإمامة وبايعوه ، وغدا أمره من الخطر بحيث هدد سلامة الدولة العباسية ، وأقلق بال الرشيد ، وحدا به إلى أعمال الحيلة للقضاء عليه وعلى دعوته ، فولى الفضل بن يحيى البرمكي بلاد جرجان وطبرستان والري ، وسيره في خمسين ألف جندي لمحاربة هذا العلوي .

ولكن الفضل قد أتى - بما عرف عنه من الذكاء - بما عرف عنه من ناحية غير ناحية الحرب ، فأخذ يحذره ويخوفه حيناً ، ويمنيه ويرغبه حيناً آخر ، حتى مال إلى الضلع ، على أن يكتب له الرشيد أماناً مغطاه ، وأن يشهد فيه القضاء والفقهاء وكبار بني هاشم ؛ فأجابه الرشيد إلى ما طلب ، وأرسل الأمان إليه مع الهدايا والتحف . ثم قدم يحيى مع الفضل ، فقباله الرشيد بالحفاوة والإكرام ، ولكنه لم يلبث أن حبسه في داره ، واستنقى الفقهاء في تنقضي الأمان . ومحدثنا صاحب « الفخرى » (٢) « وأن منهم من ألقى بصحته ، ومنهم من ألقى بطلاته ، فأبطله . »

على أن أموراً دعت الرشيد إلى نقض هذا الأمان والتخلص من يحيى ، وذلك لسعاية رجل

من أولاد الزبير بن العوام يعني بن عبد الله عند الرشيد ، واتهامه بأنه أخذ يدهو إلى نفسه بعد إعطائه الأمان .

وأما إدريس بن عبد الله أخو يحيى ، فقد فر إلى مصر سنة ١٧٢ هـ ، ثم توجه إلى بلاد المغرب الأقصى حيث التفت حوله البربر . وقد رأى الرشيد أنه لا طاقة له باختصاصه بحد السيف ، ففكر في بلوغ غايته من طريق المكاييد والخدع ، فأرسل إليه رجلاً معروفاً بالدهاء ، وأمره أن يتقرب إليه ، وأن يظهر أمامه بمظهر السخط على العباسيين وعلى حكمهم . ولما وصل هذا الرجل إلى بلاد المغرب ، تقرب من إدريس حتى صار من خواصه . ثم دس له السم فأت سنة ١٧٧ هـ دون أن يترك ولداً يؤول إليه الأمر من بعده . فانتظر أتباعه أمة له كانت حاملاً ، فوضعت ولداً سموه إدريس وبابيعوه بالخلافة . واليه تنسب دولة الأدارسة ببلاد المغرب . وقد زاد خطر الأدارسة بحيث أصبح الرشيد يخاف العلويين كافة ، ويعمل على استئصالهم (١) . وكان من أثر ذلك أن أقطع الرشيد إبراهيم بن الأغلب بلاد إفريقية (تونس) ليوقف في وجه الأدارسة كما تقدم .

٤ — خروج محمد بن جعفر والقاسم بن إبراهيم :

خلف جعفر الصادق من الأولاد غير موسى وإسماعيل ، أبناء آخرون ، نخص بالذكر منهم عبد الله الأنطح وإسحق وعبد الديباج . وقد ذكر أبو الحسن النوبختي (٢) . أن فريقاً من الشيعة ذهب إلى أن الإمام بعد جعفر الصادق ابنه محمد (أخو موسى وإسحق من أم ولد يقال لها حبيدة) ، وقالوا إن محمداً دخل على أبيه جعفر يوماً وهو ضي ، فعدا عليه ، فكبا في فيه ووقع لحراً وجهه ، فقام إليه جعفر وقبله ومسح التراب عن وجهه ووضعه على صدره ، وقال سمعت أبي يقول إذا ولد لك ولد يشبهني ، قسمه باسمي ، فهو شبيهي وشبيه رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى سته . فجعل هؤلاء الإمامة في محمد بن جعفر وولده من بعده . وهذه الفرقة تسمى السمطية ، التي تنسب إلى رئيس لهم يقال له يحيى بن أبي السميط .

من هذا نرى أن الإمامة بعد جعفر الصادق لم تكن في موسى الكاظم ولا إسماعيل أو ابنه محمد ، بل ذهب بعض الشيعة إلى أن محمد بن جعفر أخ أولاد جعفر بها ، وذهب بعضهم الآخر إلى إمامة أخيه عبد الله الأنطح . على أن إمامة عبد الله هذا لم يطل أمدها ، لوفاته دون أن يخلف ولداً ذكراً ، فعاد عامة أشياعه وقالوا بإمامة أخيه موسى الكاظم .

خرج محمد الديباج بن جعفر الصادق في خلافة المأمون . ويظهر أن خروجه قد حدث قبل أن يولى المأمون علياً الرضا بن موسى الكاظم عهده ، أو أن ذلك كان بسبب الاختلاف

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٨ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ٥٠ ؛ فابو القنا ج ٢ ص ١٣ .

(٢) كتاب فرق الشيعة ص ٦٤ — ٦٥ ، ٧٢ ، ٩٠ .

بين عقائد الشيعة الإمامية أصحاب موسى الكاظم الذي أحله المأمون من نفسه محل العطف والرعاية ثم ولاء عهده ، وبين أشياخ أخيه محمد الديباج الذين لم تكن الصلة بينهم وبين أشياخ محمد على شيء من الصفاء . ومن ثم كان خروجهم على المأمون خروجاً على من خالفهم في العقيدة من أشياخ موسى الكاظم . ويقول صاحب الفخرى (١) عند كلامه على خلافة المأمون : « وفي أيامه خرج محمد بن جعفر الصادق عليهما السلام بمكة ، وبويع بالخلافة ، وسموه أمير المؤمنين . وكان بعض أهله قد حسن له ذلك حين رأى كثرة الاختلاف يفتدوا وما بها من الفتن وخروج الخوارج . وكان محمد بن جعفر شيخاً من شيوخ آل أبي طالب يقرأ عليه العلم . وكان روى عن أبيه عليه السلام علماً جماً ، فكثرت بمكة مدة ، وكان الغالب على أمره ابنه وبعض بني عمه ، فلم يحمد سيرتهما ، وأرسل المأمون إليهم عسكراً فكفكت القلبة له ، وظفر به المأمون وعفا عنه . »

ولم يكن خروج محمد الديباج هو كل ما قام به العلويون في وجه المأمون ، فقد ذكر لنا المؤرخون أن أبا السرايا خرج في أيامه وقويت شوكته ودعا إلى بعض أهل البيت ، وأن الحسن بن سهل قاتل أشياخ العلويين وغلهم على أمرهم وقتل أبا السرايا . كما خرج على المأمون أيضاً رجل من العلويين من بيت الحسن بن علي هو القاسم بن إبراهيم بن اسماعيل بعد أن غاب في الخفاء دهراً طويلاً .

ولقد أورد لنا يحيى بن الحسين المتوفى سنة ٥٣٩ هـ (٩٧١ م) في كتابه « الإفادة في تاريخ الأئمة السادة على مذهب الزيدية » ، أن القاسم بن إبراهيم بن اسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب استترى بمصر في خلافة المأمون العباسي ، وأنه دعا إلى تمسحين بلغه موت أخيه محمد . وقد بث دعائه وهو على حال استأذنه زهاء عشر سنين ، فبأيامه أهل مكة والمدينة والكوفة والري وقزوين وطبرستان وبلاد الديلم ، وكاتبه أهل البصرة والاهواز وحشوه على الظهور ، فاتصل خبره بمساع الخليفة ، فأمر بالتشدد في طلبه . فلم يطلب للقاسم المقام في مصر ، فعاد إلى الهجاز ومنها إلى تهامة ، ولحق به جماعة من بني عمه وغيرهم ، فبثوا الدعوة باسمه في بلغ (٢) والطاقان (٣) ومرو وغيرها فذاع خبره ، وبعث الخليفة إلى بلاد اليمن جنداً يطلبونه ، فاختفى

(١) ص ٢٠٩ .

(٢) مدينة مشهورة بخراسان ومن أجل مدائنها وأكثرها خيراً ، اختصها الأخضر بن قيس من قبل عبادة بن عامر في خلافة عثمان بن عفان . وإليها يندب كثيرون من أهل الأدب وعلماء الكلام والمخاطب — أظن لفظ بلغ في جميع البلدان لياقوت .

(٣) الطالقان بلدتان : إحداهما بخراسان بين مرو الروذ وبلغ ، بينهما وبين مرو الروذ ثلاث مراحل . وقد ذكر الاصطخري أن طالقان أكبر مدن طغستان ، وتقع في مستوى من الأرض ، يجري فيها نهر كبير ، وبلغ في الاسماع عتق ما تبلغه مدينة بلغ ، والأخرى بلدة وكورة بين قزوين وأهر (مدينة

في حى من البدو . ولما ولي المعتصم الخلافة شدد في طلب القاسم ، وبعث بغا الكبير وآشناس في جند كشياف ، فانتفض عليه أمره ، وذلك سنة ٢٢٠ هـ .
وقد روى هذا المؤرخ عن خادم القاسم بمصر تلك الحكاية قال : « ضاقت بالإمام القاسم المسالك واشتد الطلب . ونحن نحتنون معه خلف حانوت إسكاف . . . فتودى نداء يبلغنا صوته : برئت الذمة من آوى القاسم بن إبراهيم وعن لا يذل عليه ؛ ومن دل عليه فله ألف دينار ، ومن البر كذا وكذا . والاسكاف مطرق يسمع ويعمل لا يرفع صوته . فلما جاءنا قلنا له : أما ارتست ؟ قال : من لي ما أرتاعى منهم ولو قرضت بالمقاربض بعد إرضاء رسول الله حتى في وقايتي لولده بنفسى (١) ؟ »

٣ - الجهاد النظرى بين الحزبين العلوى والعباسى

(١) في الشعر

١ - الشعراء العلويون :

ذكرنا أن العلويين لم ينسوا حقهم في الخلافة منذ مقتل الحسين بن على ، وأنهم حملوا الوصول إلى حقهم بكل وسيلة ممكنة . فإذا وجدوا الفرصة سانحة لأعمال القوة اغتصموا ولم يدهوا تمر ، وإذا أنفوا من أنفسهم ضعفا استكانوا ، مكثفين بلقب الإمامة وقرابتهم من الرسول . ولما ظهرت الدعوة لآل البيت في أواخر الدولة الأموية ، تركوا الأمور تجري في مجراها الطبيعي . فلما ظفر العباسيون بالخلافة ، أدرك العلويون أنهم قد خدعوه واستأثروا بالخلافة دونهم ، مع أنهم أحق بها منهم ، فتابذوا العباسيين العداء ، وظلوا يناضلونهم ابتداء الوصول إلى الخلافة بالسيف نارة ، وبالمكيدة والدهاء نارة ، وبالكلام والشعر نارة أخرى . ومن ثم قامت هذه الثورات التي أشعل تيرانها العلويون : كشورات محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم في عهد المنصور ، وثورة الحسين بن على بن الحسن في عهد الهادي ، وثورة يحيى وإدريس ابني عبد الله بن الحسن في عهد الرشيد ، وثورة محمد الديباج بن جعفر الصادق في عهد المأمون .

ولم يكن ابتصار هؤلاء الأشياخ العلويين راجعا إلى السيف وحده ، بل عمد كثير من الشعراء الموالين لهم إلى نشر دعوتهم وتأييد حقهم في الخلافة . وكان طبعيا أن يناصر العباسيين جماعة من الشعراء ينتصرون لهم ويقارعون شعراء أعدائهم العلويين ، مدفوعين في ذلك بالعظايا

مفعورة بين قزوين وزنجان وهمدان من نواحي الجبل ، والفرس يسمونها أوهم ، فحقت في أيام صفان ابن صفان ، وبينها وبين زنجان خسة عصر فرسخا ، وبينها وبين قزوين اثنا عشر فرسخا) وبها عدة قرى تعرف كلها بهذا الاسم .

(١) ليند مخطوط ، ١٩٧٤ ، ورقة ٣٤ ا - ٣٥ ب ، أعظم كتابه الفاطميون في مصر ٤ المؤلف ص ٤٧ و ٤٨ .

والأموال ، أو لاعتقادهم بأحقية العباسيين بهذا الأمر دون أبناء عمهم العلويين . ويمكن أن تعتبر هذه المساجلات الشعرية ناحية من نواحي الجهاد النظري الذي قام بين الحزبين العلوي والعباسي . وثمة نواح أخرى من هذه المساجلات ، تراها تظهر ظهوراً جلياً في العلم والكلام بنوع خاص ، كما تظهر في السياسة ، حتى إن كثيرين من الوزراء كانوا ينفسون في هذا الصراع بمواالهم للعلويين ، فيعرضون أنفسهم لتخط العباسيين وكرامتهم .

والآن نعرض للكلام على الجهاد النظري بين العلويين والعباسيين ، كما يظهر من ثنايا أقوال الشعراء المواليين لكل من هذين الحزبين : فنشعراء العلويين كشعير عزة (+ ١٠٥ هـ) ، والكيت (+ ١٢٦ هـ) في العصر الأموي ، والسيد الحميري (+ ١٧٣ هـ) ودعبل بن علي الخزاعي في العصر العباسي الأول .

فنشعراء العلويين في العصر العباسي الأول ، إسماعيل بن محمد المعروف بالسيد الحميري ، وكان يعتقد مذهب الكيسانية الذي يعتقد أنصاره أن محمد بن الحنفية بن علي وريث الإمامة عن أبيه علي مباشرة ، أو عن طريق أخويه الحسن والحسين ، كما يعتقدون برجعته . ويقول السيد الحميري (١) :

سنين وأشهر أرى برحسوى	يشمب بين أنمار وأسد
مقيم بين آرام وعين	وخفان تروح خلال رُبد
تراعبها السباع وليس منها	ملائم مفرسا بمجد
أمن به الردى فرتمن طورا	بلاخوف لدى مرعى وورِد

وإن هذه الأبيات تمثل عقيدة السيد الحميري في محمد بن الحنفية ، من أنه قام بشعب من شباب رَحسوى سنين وأشهر كثيرة ، ومن حوله الأنمار والأساد والظباء وبقر الوحش وأنواع الشاء ، من غير أن يعدد عليها أسد بظفر أو بناب ، لاحترامها إياه وتقديسها له . ويظهر أن السيد الحميري قد غلا في ميله إلى العلويين ، فكان يعبر عن هذا الميل وذلك الاخلاص بقصائد يبكي فيها ما حل بهم من عنت واضطهاد وقتل . فن ذلك هذه القصيدة التي نظمها في قبر الحسين بن علي :

أمررت على سجدت الحس	بن قفل لأعظميه الزكية
أعظمتها لازلت من	وطفاء ساكية رويه
وإذا مررت بقبره	فأطل به وقت المطيه
وابك المطهر للظهر	والطهرة النقيه
كجاء شعور في أمت	يوما لواحدنا المنه

على أن إسرائاف السيد الحيرى في مدح العلويين وذم السنين ، وبخاصة كبار الصحابة كآبى بكر وعمر وعثمان ، قد حمل الناس على نبذ شعره ، لما تضمنته من سب أصحاب رسول الله والاطمن فيهم . يؤيد ذلك القصيدة التى بهت بها إلى الخليفة المهدي يطلب إليه أن يرحم آل أبى بكر وعمر ما يستحقونه من مال الدولة :

قل لابن عباس سمى محمد	لأعطين بنى عدى درهما
أحرم بنى نيم بن مرة إنهم	شره البرية آخراً ومقدماً
إن تعطهم لن يشكروا لك نعمة	ويكافون بأن تذل وتستما
وإن اتهمتهم أو استعملتهم	خاتوك واتخذوا خراجك مغنا
ولئن منعتهم لقد بدوكم	بالمع إذ ملكوا وكانوا ظلماً
منعوا تراث محمد أعمامه	وبنيه وابنته عديلة مرميا
وتأمروا من غير أن يتخلفوا	وكفى بما فعلوا عنالك مانماً
لم يشكروا ل محمد إنعامه	أفيشكرون لغيره أن أنعمنا
والله من عليهم بمحمد	وهدام وكسا الجنوب وأطمنا
ثم انبروا لوصيه ووليّه	بالمشكرات لجرعه العلقنا

وبما يدل على مبلغ تشيع السيد الحيرى وحيه لعل بن أبى طالب وأولاده من بعده ، هذه القصيدة التى نظمها في يوم غدیر خم ، حيث نزل الرسول وأخى على بن أبى طالب . وقد أثر عنه أنه قال : على منى بمنزلة هارون من موسى ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وانصر من نصره واخذل من خذله . ومن ذلك أصبح يوم غدیر خم عيداً يعتنى به الشيعة حتى بنى عتبة عظمية . ويروى الشيعة هذا الحديث عن النبي ويقولون إنه قاله في السنة العاشرة للهجرة ، وهو العام المعروف بحجة الوداع ^(١) . ويعتقد الشيعة أن على بن أبى طالب أحق بالخلافة بعد الرسول ، وأن أبابكر وعمر وعثمان اغتصبوا الخلافة منه . وفى ذلك يقول السيد الحيرى ^(٢) :

عجبت من قوم أتوا أحدا	بخطبة ليس لها موضع
قالوا له : لو شئت أعلتنا	إلى من الناية والمضارع
إذا توفيت وفارقنا	وفهم في الملك من يطمع
فقال : لو أعلتكم كفروا	كنتم عبيتم فيه أن تصنعوا
كسنت أهل العجل إذ فارقوا	هرون ، فالتزك له أروع
ثم أتته بسده عومة	من ربه ليس له مدفع
أبلغ وإلا لم تكن مبلغا	والله منهم حاصم يمنع
فمنعها قام النبي الذي	كان بما يأمره يصدع

(١) ابن خلكان : كتاب وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٣٦ . . . (٢) الأغانى ج ٧ ص ٢ .

يخطف مأمورا وفي كفه	كفه على نورها يلع
رافعها أكرم بكف الذي	يرفع والكف التي ترفع
من كنت مولاه فهذا له	مولي فلم يرضوا ولم يقتنوا
وظل قوم غاظم قوله	كأنما آناهم تجمد
حتى إذا وادوه في لحده	وانصرفوا عن دفعه ضيعوا
ما قال بالأمس وأوصى به	واشتروا الضر بما ينفع
وقطعوا أرحامهم بعده	فسوف يجزون بما قطعوا
وأزمعوا مكرا بمولاهم	تبأ لما كانوا به أزمعوا
لا هم عليه يردوا حوضه	غدا ولا هو لهم يشفع

وكان السيد الحيرى مع إسرائفه في حب العلويين لا يتورع عن مدح خصومهم العباسيين ، مدفوعا في ذلك بخوفه من بطش العباسيين ، ورغبته في الحصول على أموالهم . من ذلك قوله مدح أبا العباس السفاح :

دونكموها يا بنى هاشم	لجددوا من عهدا الدارسا
دونكموها لا علاكمب من	كان عليكم ملكها نافسا
دونكموها فالبسوا تاجها	لا تعدموا منكم له لابس
لو خير المتبر فرسانه	ما اختار إلا منكم فارسا
قد ساسها قبلكم ساسة	لم يتركوا رطبها ولا يابس

ويعتبر دعبل بن على الخزاعى ، من أكثر الشعراء العلويين تمصبا للذهب الشيعى ، وتقانيا في حب على وأولاده ، حتى لقد وقف من العباسيين موقفا عدائيا ظاهرا ، فأخذ يهجو خلفاءهم ووزراءهم وولاتهم وكبار رجال دولتهم ، فلم يسل من هجائه الرشيد والمأمون والمعتصم ، ومدح العلويين بقصائد رائدة أشاد فيها ببنائهم . وقد عبر دعبل عن حزنه لقتل العلويين وتشتت أشلائهم في مختلف الأنظار الإسلامية ، في قصيدة طويلة أنشدتها بمدان حلت الهزيمة بمحمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم :

ذكرت محل الرابع ^(١) من عرفات	فأسليت دمع العين بالمبرات
مدارس آيات خلت من تلاوة	ومزل وحى مقفر العرصات
ديارها غفاها تجور كل منابذ	ولم تنف بالأيام والسنوات
قيود بكوفان وأخرى بطيبة	وأخرى بفتح مالها صلوات

(١) الرابع : مطلق مكان .

(٢) عرصة القار : ساحتها وهي البصة الواقعة التي ليس فيها بناء .

وأخرى بأرض الجوزجان محلها
 قفا نسأل الدار التي خف أهلها
 وأين الأولى شطت بهم غربة النوى
 هم أهل ميراث التي إذا اعتزوا
 وما الناس إلا حاسد ومكذب
 ملائك في أهل التي قائمهم
 تخيرهم رشداً لأمرى قائمهم
 فيارب زدني من يقين بصيرة
 ألم تر ألى من ثلاثين حجة
 فلولا الذي أرجوه في اليوم أو غد
 خروج إمام لأعالة خارج
 يميز فينا كل حق وباطل
 سأفصر نفسي جامداً عن جداهم
 وقد ذكر الطبري (٢) أن دعلج بن علي الخزازي هجا الخلفاء العباسيين كما تقدم ، ومن ذلك ما قاله في المأمون :

ويسومني المأمون خطة عارف
 يوفى على هام الخلائف مثلاً
 ويحل في أكناف كل ممنع
 إن التراث مسهب طلابها
 ولم يسلم من هجا دعلج كبار رجال الدولة وأمرائها وخواصها . فقد هجا إبراهيم بن شككة (٣) بقوله :

إن كان إبراهيم مضطلماً بها
 ولست ضلح من بعد ذلك زلزل
 أن يكون ولا يكون ولم يكن
 كذلك هجا دعلج الخليفة المعتصم الذي هدده بقتله ، تخاف وهرب إلى مصر ثم إلى بلاد
 المغرب . وهالك تلك الآيات التي هجاها :
 ملوك بني العباس في الكتب سبعة
 كذلك أهل الكهف في الكتب سبعة
 ولم يأتنا في ثامن منهم الكتب
 عداوة تروا فيها وثامنهم كتب

(١) عهد بن النعمان : مكتبة الجماعة ببلد خطوط رقم ١٦٤٧ ورقة ٢٢٧ ب ج ٢٢٩ .

(٢) ج ١٠ ص ٣٠١ . (٣) هو إبراهيم بن الهدي ، وشككة أمه .

وإني لأرهم كلهم عنك رغبة
لقد ضاع أمر الناس حيث يسوسهم
وإني لأرجو أن ترى من مغبها
ومعك تركي عليه مهانة
لأنك ذو ذنب وليس له ذنب
وصيف وأشناس وقد عظّم الخطب
مطالع شمس قد بفس بها الشرب
فأنت له أم وأنت له أب (١)

ولم يسلم الواقع من هجاء دعبل ، فقد ذكر الخطيب البغدادي (٢) أنه لما نزل الواقع
الخليفة كتب دعبل بن علي الخوازي أبيتا ، ثم أتى بها الحاجب فقال : أبلغ أمير المؤمنين
السلام ، وقل : مدح لدعبل : فأخذ الحاجب الطومار ، فأدخله إلى الواقع ففضه ، فإذا فيه :

الحمد لله لا صبر ولا جلد
خليفة مات لم يحزن له أحد
فرّ هذا ، ومر الشؤم بقبه
فطلب فلم يوجد .
ولا رقّة إذا أهلّ الهوى رقدوا
وأخر قلم لم يفرح به أحد
وقام هذا ، وقام الزيل والتكد

٧ - الشعراء العباسيون :

وكان مروان بن أبي حفصة يخالف السيد الحيري ودعبل في تشيعهما العباسيين . وكان من
أنصار الأمويين ، حتى قرب به إليه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، وأصبح من خاصته المقربين
إليه ، وشهد معه جميع مواقع السياسة والحرية ، كما كان ساعده الأيمن في الأعمال التي تولّاها
قبل وصوله إلى عرش الخلافة وبعده .

على أن مروان كان كثير التلون والتذبذب في ميوله وأهوائه ، فلم يستمر على ولائه للأمويين
بعد أن دالت دولتهم وقامت على أنقاضها دولة العباسيين . وسرعان ما غدا من شعرائهم
البارزين الذين يؤيدون أحقيتهم في الخلافة ، وناوياً العلويين وشعراءهم في مسألة الخلافة
حتى قال :

يا بن الذي ورث النبي محمدا
الوصى بين بني البنايت وبينكم
ما للنساء مع الرجال فريضة
خلوا الطريق لمعشر عاداتهم
دون الأتارب من ذوى الأرحام
قطع الخصام فلات حين خصام
نزلت بذلك سورة الأنعام
حطم المناكب كل يوم زحام (٣)
ودعوا وراثة كل أصيد (٤) حام (٥)
أرضوا بما قسم الإله لكم به

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٢ - ٢٢٣ . (٢) ج ١٤ ص ١٦ - ١٧ .

(٣) كناية عن غلبهم الخصوم يوم التنافس في الجهد .

(٤) السيد . (٥) من يحمي من يلوذ به .

أني يكون وليس ذاك بكائن لبني البتات وراثة الأعمام؟
وقد أثار هذا البيت الأخير حفيظة الشيعة فلمنوا مروان بن أبي حفصة ، وردوا على
نصيده بقصيدة أخرى على وزنهما وروها ، ثم قتلوه . وعما جاء فيها :
لم لا يكون ، وإن ذاك لكائن ، لبني البتات وراثة الأعمام ؟
لننت نصفه كامل من ماله والمم متروكة بغير سهام
ما للطلق وللثراث وإنما صلي الطليق غافة الصمصام (١)
وكان مروان شاعر بني العباس في عهد المهدي والمهدي والرشد . أنشد في جصرة المهدي
قصيدة أشاد فيها بفضائل العباسيين وأحققتهم بالخلافة ودم العلويين ؛ فن ذلك قوله :
هل تطمسون من السماء نجومها بأ كفكم أو تسترون هلالها
أو تمجدون مقالة عن ربكم جبريل بلغها النبي فصالها ؟
شهدت من الأقال آخر آية بترائم فأردتم إبطالها
ولكن مروان بن أبي حفصة كان - كما ذكرنا - نفعيا يسير في ركاب صاحب السلطان
ويشيد بمدحهم ، ويهجو أعداءه في سبيل الحصول على المال . ولا عجب فهو القائل في مروان
ابن محمد آخر خلفاء بني أمية :
مروان يا بن محمد أنت الذي زدت به شرفا بنو مروان (٢)

(ب) في العلم والسكلام بنوع خاص

١ - الشيعة :

كان لكل من العلويين والعباسيين وجهة نظر تندرجها لتأييد دعواه في الخلافة : فأما وجهة
نظر العلويين ، فترجع إلى ما كانوا يعتقدونه من أنهم أحق بالخلافة من أبناء عمهم العباس ،
الذي اعترف بأحقية علي بن أبي طالب ، وامتنع هو وكثير من عليه العرب عن مبايعة أبي بكر
واتعدوا مع علي (٣) . وحذا أولاد العباس في ذلك حذو أبيهم ، حتى جاء أبو هاشم بن محمد
ابن الحنفية ، فنزل عن حقه في الإمامة إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس . أضف إلى ذلك
أن محمد النفس الزكية كان قد بويع في أواخر أيام الدولة الأموية ، في ذلك الاجتماع الذي حضره
وجالات بني هاشم ؛ لحضره من العلويين جعفر الصادق وعبد الله بن الحسن ، وأبناء محمد النفس

(١) يريد العباس بن عبد المطلب ، لقبه الطليق ، لأنه كان مع المبركين يوم بدر ثم اقتدى نفسه بعد
أن أسره المسلمون .

(٢) انظر طه حسين : حديث الأربصاء ج ٢ ص ٢٨٩ - ٢٩١ ، ٣٠٩ - ٣١٢ ؛ أحمد
أمين : ضحى الاسلام ج ٣ ص ٣٠٩ - ٣١٣ .

(٣) ابن هشام : طبعة أوروبا ج ٢ ص ١٠١٣ . انظر كتاب « الفاطميون في مصر » للدولف
ص ٢٣ .

الزكية وإبراهيم ، ومن العباسيين السفاح والمنصور وغيرهما ، وانفقوا جميعا على أن يدعوا الناس سرا ، ويباعوا النفس الزكية لإلجاف الصادق . هذا إلى ما يعتقد العلويون ، من أنهم وحدهم أحق المسلمين بالخلافة ، وأن أبا بكر وعمر وعثمان ، وكذا الخلفاء من بني أمية وبني العباس ، قد انتزعوا حق الإمامة من علي ، الذي يعتقد أشياخه أن الإمامة في بيته ، لأنه كان أول من دخل في الإسلام من الصبيان ، ولما له من البلا الحسن في نصرة هذا الدين ، ولأنه ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة .

فهل نقض العباسيون هذه البيعة فنازعوا العلويين حقهم في الخلافة ؟ أو أنهم كانوا يرون أنهم أصحاب هذا الحق وأول من به من بني عمهم ؟ إن كتاب المنصور إلى محمد النفس الزكية (١) لا يترك مجالاً للشك في أن العباسيين قد أصبحوا منذ أواخر الدولة الأموية - على الأقل - يعتقدون أنهم وحدهم أحق بهذا الأمر دون أبناء عمهم العلويين ، لأنهم أولاد فاطمة بنت الرسول ، وهي دلائل الميراث ، ولا تراث الولاية ، ولا يجوز لها الإمامة ، على حين أن العباسيين أولاد العباس عم رسول الله ، والوارث له يوم وفاته (٢) ، ولأن العباس كانت إليه ولاية زعيم ، وسقاية الجميع في الجاهلية دون إخوته ، حتى نازعه فيها علي بن أبي طالب ، فنقض عمر للعباس ، فلم يرل العباسيون يلوها في الجاهلية والإسلام .

ويستند العباسيون في دعواهم إلى مذهب أهل السنة ، الذي يورث العم دون البنت أو ابن العم ، كما يبين ذلك من قول المنصور في نهاية كتابه إلى محمد بن عبد الله بفخر عليه بشرف العباسيين على العلويين : « ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد النبي صلى الله عليه وسلم غيره (العباس) ؛ فكان وارثه من عموته . ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بني هاشم ، فلم ينله إلا ولده : فالسقاية سقايته ، وميراث النبي له ، والخلافة في ولده ، فلم يبق شرف ولا فضل ، ولا إسلام في دنيا ولا آخرة ، إلا والعباس وارثه ومورثه ... فكيف تفخر علينا وقد علمناكم في الكفر ، وفدينناكم من الأسر ، وحزنا عليكم مكارم الآباء ، وورثنا دونكم

(١) راجع ص ١١٨ - ١١٩ من هذا الكتاب .

(٢) والسر في أن الشيعة يورثون البنت كل المال ويحملونها حاجبية للإمام أمران : الأول ، أن أبا بكر أخذ قدك « قرية بخير » من يد فاطمة ، وكان رسول الله أصطفاها تلك الشيعة للارتفاق بها ، فأدعت أنها ترث ذلك ؛ فاحتج أبو بكر بأن الأنبياء لا يورثون ، واستدل بمحدث سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك . الثاني ، أن بني العباس يدعون بأقوال ميراث الرسول من إمام المسلمين لهم ، لأنه عم رسول الله ، والوارث له يوم وفاته ، لأن ابنته فاطمة لا تهمز كل المال ، وعلى أنزل من العباس ، فقالوا هم إنها تهمز كل الميراث ، لينسوا بني العباس من دعواهم . وللى ذلك يشير شاعر بني العباس بقوله :
أنى يكون وليس ذاك بكنان لبني البنت ورواة الأعمال ؟

أنظر كتاب « الناطيون في مصر » للمؤلف ص ١٩٥ .

خاتم الانبياء ، وطلبنا بشاركم ، فأدركنا منه ما عجزتم عنه ، ولم تدر كوا الانفسكم ؟ (١)
من هذا نرى أن العباسيين إنما تحولوا إلى جانب العلويين ، ليطالبوا بشارهم ويتخذوهم توكاة
للوصول إلى الخلافة : فظن العلويون أن العباسيين قد فضلوا عليا على العباس . هذا إلى ما قرره
المنصور من أن العلويين لم يعد لهم حق في الخلافة ، بعد أن نزل عنها الحسن بن علي لمعاوية
ابن أبي سفيان على الأقل .

ولقد رأى المنصور ضرورة محاربة محمد وأخيه ابراهيم والقضاء عليهما ، باعتبارهما خارجين
على الدولة ، لأنه قد أصبح يحكم البيعة له خليفة المسلمين ، فلا ينبغي له أن يفرط في مقاومة
العلويين ، الذين كانوا يعملون على قلب نظام الدولة العباسية وتحويل الخلافة إليهم ، بعد أن
جاهد العباسيون في سبيل الوصول إليها . وكان العباسيون يرون أهم أولو الأمر وأحق من
بنى عصبهم بالخلافة . على أنه من العدل والإنصاف أن نقول ، إن العباسيين كان يجدد بهم أن
يهدوا سبيلا للتوفيق بين وجهة نظرم وجهة نظر آل بيت علي ، لإزالة أسباب الخلاف ،
وإعطاء العلويين نصيبهم من هذا الأمر ، الذي كانوا يرون أنهم أحق به من غيرهم ، ولا سيما بعد
أن قدم العباسيون عن المطالبة بدعواهم في الخلافة ، منذ انتقل الرسول إلى جوار ربه ، إلى أن
أشرفت الدولة الأموية على الزوال .

طائفتا الإمامية :

خرجت بلاد المغرب الأقصى عن سلطان الرشيد على يد إدريس بن عبد الله بن الحسن ،
كما خرجت بلاد الأندلس على يد عبد الرحمن الداخل الأموي ، وأصبح الرشيد يخاف العلويين
أشد الخوف ، ويوقع أشد أنواع العقاب بكل من اتهم بالميل إليهم ؛ ووجد سعاة السود ،
حتى من العلويين أنفسهم ، سبيلا للايقاع بآل بيتهم عند الرشيد . وكان موسى الكاظم
ابن جعفر الصادق ضحية هؤلاء السعاة ، فقد وجد حساده والناقون عليه ، السبيل معبدا للايقاع
به عند الرشيد وإثارة غلاوفه من اعتقاد الناس بإمامته ، حتى أخذوا يحملون إليه خمس أموالهم ،
ومن اعتزاهم الخروج عليه ، مما أقلق باله ، ودفعه إلى العمل على التخلص منه . يقول صاحب
الغفرى (٢) : « كان بعض حساد موسى بن جعفر من أقاربه ، قد وشى به إلى الرشيد ، وقال له
إن الناس يحملون إلى موسى خمس أموالهم ، ويعتقدون إمامته ، وأنه على عزم الخروج
عليك ؛ وكثر في القول ، فوقع ذلك عند الرشيد ، فوقع أمره وأقلقه ، ثم أعطى الراشي مالا
أحاله به على البلاد ، فلم يستمتع به ، وما وصل المال من البلاد ، إلا وقد مرض مرضة
شديدة ومات فيها . »

حج الرشيد سنة ١٧٩ هـ ، ولما وصل إلى المدينة قبض على موسى بن جعفر الصادق ،

(١) الطبري ج ٩ ص ٢١٢ — ٢١٣ .

(٢) ص ١٧٨ ، المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٤ .

وحمله إلى بغداد حيث حبس ، ثم قتل ، وأدخل عليه جماعة من العلول شهدوا أنه مات جتف أنه ..

على أن الأمر الذي يسترعى النظر في هذه المسألة ، هو وشاية بعض آل علي بموسى الكاظم عند الرشيد ، مما يدل على أن الخلاف قد دب بين العلويين ، فما السبب إذا ؟ يرجع السبب في ذلك إلى معتقدات الامامية التي تنص على أن الإمام يكتسب الامامة بطريق الوراثة ، وأنه يجب أن يكون أكبر أبناء أبيه سناً .

وإن خروج فريق من هذه الطائفة على هذه القاعدة بعدموت جعفر الصادق في سنة ١٩٨ هـ ، قد جر إلى انقسام الامامية إلى طائفتين : الامامية ، وهم الذين أطلق عليهم فيما بعد الامامية الاثنا عشرية ، وقد قالوا بامامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، وهو عندهم الامام السابع ، والاسماعيلية ، وقد قالوا بامامة إسماعيل بن جعفر وكان أكبر أولاد أبيه ، على الرغم من أن وفاته كانت في حياة أبيه .

ويقال إن جعفر الصادق حول الامامة من ابنه إسماعيل إلى ابنه موسى الكاظم ، بسبب اتهام إسماعيل بشرب الخمر . على أن فريقاً من الشيعة يقول ، إن شرب إسماعيل الخمر لا يعد دليلاً على عدم تقواه ، وأيدوا دعواهم بأن بعض الشيعة في العراق كان يشرب الخمر . وبذلك ظهرت طائفة الاسماعيلية ، الذين يقولون بامامة إسماعيل بن جعفر الصادق ، وهو الامام السابع عندهم (١) . ويحدثنا أبو محمد الحسن النوبختي في كتابه « فرق الشيعة » (٢) ، أن طائفة الاسماعيلية التي ذهبت إلى أن الامام بعد جعفر ابنه إسماعيل ، لابنه موسى الكاظم ، قد أنكرت موت إسماعيل في حياة أبيه ، وقالت إنه نفيب ولا يموت حتى يملك الأرض ويقوم بأمر الناس ، كما قالت بعدم جواز تحويل الخلافة إلى موسى بعد وفاة أخيه إسماعيل ، ولأنها لا تنتقل من أخ إلى أخ بعد الحسن والحسين عليهما السلام ، ولا تكون إلا في الاختصاص . ولم يكن لأخوي إسماعيل ، عبد الله وموسى ، في الامامة حق ، كما لم يكن لمحمد بن الحنفية حق مع علي بن الحسين . وأصحاب هذا القول يسمون « المباركية » ، نسبة إلى رئيسهم المبارك مولى إسماعيل بن جعفر .

وبدیهی أن الخلاف بین العلویین علی اختلاف طوائفهم ، و بین العبّاسیین ، لم یکن أقل أثرًا منه بین طوائف الامامية الاثنا عشرية والامامية الاسماعيلية ، بما حملنا على الظن أن حناذ موسى الكاظم كانوا من أهل بيته ، وأنهم أوقفوا به عند الرشيد ، فقبض عليه وحسبه في بغداد .

(١) يقول أنصار اسماعيلية أنه ، وإن كان قد أبعد عن الامامة ، فقد تحولت إلى ابنه محمد بن إسماعيل ، وهو الامام السابع عندهم .

أظهر كتاب « الفاطميون في مصر » للمؤلفين ٤٤-٤٥ . والمخطوط للقرن ٢٢ ص ٣٩٠-٣٩٧ ، O'Leary de Laoy : A Short History of the Fat. Khalifate, pp. ٥٩-٥٥ .

(٢) ص ٥٧-٥٨ ، ٧١-٧٢ ، ٩٠ .

فظل فيها إلى أن كانت نهايته سنة ١٨٣ هـ وهو في الرابعة والخمسين ، ولا يزال قبره يزار إلى الآن في سبي « الكاظمية » المشهور بالكرك ، في الجانب الغربي من بغداد ، وهو موطن الشيعة .
ويحدثنا أبو القدا (١) عن ورع موسى وزهده فيقول « وتولى خدمته في الحبس أخت السندی . وحكت عن موسى المذكور أنه كان إذا صلى العتمة ، حمد الله ومجده ، ودعا إلى أن يزول الليل ، ثم يقوم يصلي حتى يطلع الصبح ، فيصلي الصبح ، ثم يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ، ثم يقعد إلى ارتفاع الضحى . ثم يرقد ويستيقظ قبل الزوال ، ثم يتوضأ ويصلي حتى يصلي العصر ، ثم يذكر الله تعالى حتى يصلي المغرب ، ثم يصلي ما بين المغرب والعتمة . فكان هذا دأبه إلى أن مات رحمة الله عليه . وكان يلقب الكاظم لأنه كان يحسن إلى من يسئ إليه . .
وقد لظن المأمون إلى مغبة هذه السياسة التي سار عليها الخلفاء العباسيون في معاملة العلويين ، فولى عهده رجلا من آل علي ، هو علي الرضا . ولولا موته مسموما وهو في طريقه إلى بغداد ، لتحولت الخلافة من العباسيين إلى العلويين .

٢ — المعتزلة :

تكلمنا في الباب الأول على المعتزلة أو القدرية من حيث أثرها في اتجاه السياسة الإسلامية في العصر الأموي ، وقلنا إن عقيدتهم الأساسية تتكون من خمسة أصول ، وهي : القول بالتحديد وهو أن الله واحد لا شريك له . والقول بالعدل ، وهو أن الله لا يجب الشر والفساد ، والقول بالوعد والوعيد ، وهو أن الله صادق في وعده ووعد ، لا ينفر لمركب الكبيرة إلا بعد التوبة ، والقول بالمتزلة بين المتزتين ، وهو أن صاحب الكبيرة ليس يؤمن ولا كافر ، لكنه فاسق ، والقول بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو تكليف المؤمنين بالمجاهد وإقامة حكم الله على كل من خالف أمره أو نهيه سواء أ كان كافرا أم فاسقا (٢) .

وقد ابتدأت المعتزلة منذ نشأتها طائفة دنيئة لاعلاقة لها بالسياسة ، بخلاف ما كان عليه الشيعة والخوارج والمرجئة . إلا أنها سرعان ما تدخلت في الأمور السياسية الهامة ، فيبحث مسألة الإمامة ، ووضعت الشروط التي يجب أن تتوافر في الأئمة ، كما بينا ما هناك . من علاقة بين مبادئ المعتزلة ومبادئ الشيعة ، حتى كانت هذه تسمى نفسها « أهل العدل » كالمعتزلة سواء بسواء . كما قالت المعتزلة بحرية الإرادة التي وضع أساسها علي بن أبي طالب . كذلك كان المعتزلة يلقبون فقهاءهم بـ « إمام » ، ذلك اللقب الذي يقده الشيعة . أضف إلى ذلك تأثير الشيعة بمبادئ المعتزلة في عقيدتهم القائلة إن الإمام المنتظر سوف يظهر لينشر العدل والتوحيد . وهذا نفس ما يقوله المعتزلة ، والزيدية أكثر شبيها في ذلك بالمعتزلة من الإمامية . وهكذا تأثر

(١) المختصر في أخبار البصر ج ٢ ص ١٠٥ — ١٦ .

(٢) كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندي ، مقدمة ص ٥٠ — ٤١ ، والموسوي : مروج الذهب

كل من الشيعة والمعتزلة بعضها ببعض ، حتى لقد اختلط الأمر على المؤرخين ، فلم يستطيعوا التمييز بين كتب الشيعة وكتب المعتزلة في التوحيد خاصة (١) .

ولا غرو فقد نسبت المعتزلة عقائدها إلى علي بن أبي طالب . وقبلنا تجد كتاباً من كتبهم ، وعلى الأخص كتب المتأخرين منهم ، إلا ادعوا فيه أنه ليس ثمة مؤسس لمذهب الاعتزال وعلم الكلام غير الإمام علي . ويقول ابن أبي الحديد : « وأما الحكمة والبحث في الأمور الإلهية فلم يكن من فن أحد من العرب ، ولا نقل في جهاز أكابرهم وأصاغرهم شيء من ذلك أصلاً . وهذا فن كانت اليونان وأوائل الحكماء وأساطين الحكمة ينفردون به . وأول من خاض فيه من العرب على عليه السلام ، ولهذا تجد المباحث الدقيقة في التوحيد والعدل مبثوثة عنه في فرش كلامه وخطبه ، ولا تجد في كلام أحد من الصحابة والتابعين كلمة واحدة من ذلك ، ولا يصورونه ، ولو فُتِهموه لم يفهموه ، وأنى للعرب ذلك . ولهذا انتسب المتكلمون الذين لججوا في بحار العقولات إليه خاصة دون غيره ، وسموه أستاذهم ورئيسهم ، واجتذبتهم كل فرقة من الفرق إلى نفسها . ألا ترى أن أصحابنا يقيمون إلى واصل بن عطاء ، وواصل تلميذ أبي هاشم بن محمد بن الحنفية ، وأبو هاشم تلميذ أبيه محمد ، ومحمد تلميذ أبيه علي عليه السلام ، ؟ (٢) » .

كذلك ذكر المعتزلة الإمام علي في الطبقة الأولى من طبقاتهم . كما ذكرنا قصة الشيخ الذي سأله عند انصرافه من صفتين ، أكان المسير بقضاء الله وقدره ؟ فقال عليه السلام : والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما مهبطنا وادياً ولا علونا نعمة إلا بقضاء وقدر . فقال الشيخ عند الله أحسب عثائي ما لي من الأجر شيء ، فقال : بل أيها الشيخ عظم الله لكم الأجر في مسيركم وأنتم سائرون ، وفي منقلبكم وأنتم متقلبون ، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين ولا إليها مضطرين ، فقال الشيخ : فكيف ذلك والقضاء والقدر ساقطانا وعنها كان مسيرنا ؟ فقال عليه السلام : لملك تظن قضاء واجباً وقدراً حتماً ، ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد ، ولما كانت تأتي من الله لائمة للذنب ولا محمداً لحسن ، ولا كان الحسن بثواب الإحسان أولى من الحسن ، ولا الحسن بعقوبة المذنب أولى من الحسن . تلك مقالة إخوان الشياطين ، وعبيدة الأوثان ، وخصماء الرحمن ، وشهود الزور ، وأهل البلاء عن الصواب في الأمور ، هم قديرة هذه الأمة ومجوسها ، إن الله تعالى أمر بتحذير ، ونهى بتحذير ، ولم يكلف جبراً ولا يبعث الأنبياء عبثاً ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للكافرين من النار . فقال الشيخ وما ذلك القضاء والقدر اللذان ساقطانا ؟ فقال أمر الله بذلك وإرادته ثم تلا (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً) ، فهض الشيخ مروراً بما سمع وأنفذ يقول : أنت الإمام الذي ترجو بطاعته يوم النشور من الرحمن وحضوانا

(١) راجع كتاب تاريخ الإسلام السيلاني للمؤلف ج ١ ص ٥١٠ - ٥١٨ .

(٢) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ٢ ص ١٢٨ - ١٢٩ .

أوضحت من ديننا ما كان ملتبساً جزاك ربك بالاحسان إحساناً^(١)

كذلك ذكروا في الطبقة الثانية الحسين ، وعلي بن الحسين ، ومحمد بن علي . وقد كان محمد هذا (بن الحنفية) هو الذي روى واصل بن عطاء ، كما تقدم . وكان إذا سئل أبو هاشم عن مبلغ علم محمد بن الحنفية يقول : إذا أردتم معرفة ذلك فانظروا إلى أثره في واصل بن عطاء . وكذلك أخذ واصل عن أبي هاشم الذي كان معه في المكتب ، فأخذ عنه وعن أبيه^(٢) . هذه بعض الصلات التي ظهرت منذ ظهور المعتزلة ، ومنها نرى أثر آل البيت في ظهور الاعتزال ، ومقدار تأثير رؤساء المعتزلة بالبيت النبوي .

ولما كان الشيعة فيما بعد طوائف مختلفة ، لم تكن المعتزلة مع كل هذه الطوائف على علاقة متساوية ، تخاصمت بعضها ، واتصلت ببعض الآخر اتصالاً يختلف شدة وضعفاً ، حسبما يذهب إليه كل منها في عقائده . وإبيان هذا نقول إن الشيعة تنقسم بحسب اعتقادها لثلاثة أقسام : غالبية ورافضة وزيدية . أما الغالبية فهم الذين غلوا في علي وقالوا فيه قولاً عظيماً ، وهم فرق كثيرة كالسبيئية^(٣)

لذلك قيل إن المعتزلة وضمت الأصل الأول من أصولها الحسنة ، وهو التوحيد ، للرذيل غلاة الشيعة ، والرافضة الذين قالوا إن الله قدّ صوراً ، وإنه جسم ذو أعضاء . وإذا نظرنا إلى الرافضة وعلاقتها بالمعتزلة نرى أن المتقدمين ، منهم مثل هشام بن الحكم وهشام بن سالم الجواليقي وشيطان الطاق وغيرهم من متقدمي الرافضة ، كانوا كذلك خصوصاً للمعتزلة ، لقولهم بالتشبيه والرجعة وغير ذلك . ويقول الحياط المتزلي^(٤) : « فبلى كان على الأرض رافضياً إلا وهو يقول : إن الله صورة ، وبروي في ذلك الروايات ، ويحتج فيه بالأحاديث عن أئمتهم ، إلا ما صحب المعتزلة منهم قديماً فقال بالتوحيد ، فنفته الرافضة عنها ولم تُقرَّ به » .

أما الزيدية أتباع زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي ، فقد كانت صلة المعتزلة بهم أقوى منها بغيرهم من الشيعة . وترجع هذه الصلة إلى أيام زيد بن علي الذي تلبذ لواصل ابن عطاء الغزال رأس المعتزلة ، واقتبس منه أصول الاعتزال ، وأصبح جميع أصحابه معتزلة إلا من خرج عليهم . وقد اشترك المعتزلة من بني هاشم في مبايعة محمد النفس الزكية وإبراهيم ابن عبد الله بن الحسن بمكة في أواخر بني أمية ، ثم شاركوا الشيعة في سحقهم على العباسيين ، بعد أن آلت الخلافة إليهم ، وانضموا للمعتزلة والزيدية بزعامة عيسى بن زيد بن علي تحت لواء إبراهيم بن عبد الله في العراق في محاربة أبي جعفر المنصور ، وظلوا على ولائهم لإبراهيم حتى قتل وقتلت المعتزلة بين يديه .^(٥)

(١) كتاب طبقات المعتزلة ص ٨ . (٢) المصدر نفسه ص ١١ .
(٣) المصدر نفسه ص ٨ . (٤) كتاب الاختصار والرد على ابن الراوندي ص ١٤٤ .
(٥) مقالات الاسلاميين ج ١ ص ١٧٩ .

ولم تبلغ تعاليم المعتزلة مبلغها من الانتشار والقوة إلا في العصر العباسي الأول، وخاصة في عهد المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ) الذي عمل على عقد مجالس للناظرة بقصره، وأباح للناظرين الكلام في مختلف الموضوعات. فقد تناظر في مجلسه اثنان في موضوع الإمامة: فانتصر أحدهما لطائفة الإمامية الاثنا عشرية، وانتصر الثاني لطائفة الإمامية الزيدية. ولو أخذ بأحد هذين الرأيين، لأضعف ذلك من حجة العباسيين بأحقيتهم بالخلافة، وولى العلويين. وكان المأمون يرى أن مجالس المناظرة تساعد على إزالة الخلاف بين العلماء؛ فقد روى عن القاضي يحيى بن أكثم أنه قال: أمرني المأمون عند دخوله بغداد أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من أهل بغداد، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلا وأحضرتهم، وجلس لهم المأمون، فسأل عن مسائل؛ وأفاض في فنون الحديث والعلم. فلما انفض ذلك المجلس الذي جعلناه للنظر في أمر الدين قال المأمون: يا أبا محمد... إني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا بتوفيق الله وتأييده على إتمامه، سببا لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أَرْضَى وأصلح للدين. إما شك فبئس، ويتثبت فينقاد طوعا، وإما معاند فيرد بالعدل كرها.

وقد ظهر في عهد المأمون جماعة من كبار العلماء والمكلمين، الذين تناولوا أصول الدين والمقائيد وحكوا عقولهم في البحث، ونشأت بسبب ذلك اعتقادات تخالف اعتقادات عامة المسلمين وجهور علمائهم المعروفين بأهل الحديث.

وكان المأمون عيّل إلى الأخذ بمذهب المعتزلة، لأنه أكثر حرية واعتماداً على العقل، فقرّب أتباع هذا المذهب إليه، ومن ثم أصبحوا ذوي نفوذ كبير في قصر الخلافة ببغداد. يقول براون^(١): «وَأما العقيدة القائلة بأن القرآن غير مخلوق، فقد كان المعتزلة يمتقونها أشد المقت؛ ففي سنة ٢١١ هـ (٨٢٦ م) كاد المأمون أن يثير حرباً داخلية، مدفوعاً إلى ذلك بميول الشيعة، وخاصة عندما عهد بالخلافة من بعده لعلّي الرضا الإمام الثامن من أئمة الشيعة الاثنا عشرية».

وقد وافق المأمون المعتزلة فيما ذهبوا إليه من أن القرآن مخلوق، وعهد إلى تسخير قوة الدولة، لحل الناس على القول بخلق كتاب الله، فأرسل في سنة ٢١٨ هـ كتاباً إلى والي بغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، يطلب منه امتحان القضاة والمحدثين في مسألة القرآن. كما أمره أن يأخذ على القضاة عهداً بالأخذ بشهادة من لا يقول بخلق القرآن، وأن يعاقب كل من لم يقل بهذا الرأي. وبما جاء في هذا الكتاب، وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشوة الرعية، وسفلة العامة، ممن لا نظره ولا روية ولا استنصاة بنود العلم وبرهانه، أهل جهالة بالله، وعسى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه، وقصوراً عن تقديره الله حق قدره، ويعرفوه كنه معرفته، ويفرقوا بينه وبين خلقه. ذلك أنهم ساءوا بين الله

وبين خلقه وبين ما أنزل من القرآن ، فأطبقوا على أنه قديم لم يخلقه ولم يخترعه . وقد قال تعالى (إنا جعلناه قرآناً عربياً) ، فكل ما جعله الله قد خلقه ، كما قال الله تعالى (وجعل الظلمات والنور) وقال (نقص عليك من أنباء ما قد سبق) ، فأخبر أنه قصص لأمور أحدها بعده وتلا به متقدمها . وقال تعالى (أحكمت آياته ثم فصلت) . والله يحكم كتابه ومفصله ، فهو خالقه ومتدبره . . . فاجمع من محضرتك من القضاة ، وأقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين ، وامتنعهم فيما يقولون ، واكشفهم عما يعتقدون في خلق الله تعالى القرآن وإحداثه ، وأعلمهم أني غير مستعين في عملي ولا أتق من لا يؤتي بدينه ، (١)

وقد سار المعتصم على سياسة أخيه المأمون في حمل الناس على القول بخلق القرآن ، مع أنه لم يكن له حظ من العلم يجعله ذا رأى في مثل هذه المسألة . وإنما كان ينفذ وصية المأمون ، وزاد عليه في إلحاق الأذى بكل من يترف بذلك من العلماء وأهل الرأي ، فأمان أحمد بن حنبل إهانة بالغة وسجنه ، وأصبح كل عالم أو قاض هدفاً لخطر الضرب بالسياط والتعذيب ، إذا لم يأخذ أى المعتزلة في القول بخلق القرآن .

وكذلك اقتدى الواقع بأبيه المعتصم في انتصاره للمعتزلة ، وتشدهد في فرض آرائه الدينية على الناس ، مما أدى إلى إثارة خواطر أهل بغداد . وكان أحمد بن نصر رأس هؤلاء الساخطين الذين أنكروا القول بخلق القرآن ، ودعوا إلى عزل الواقع ، لكنه ما لبث أن قبض عليه وعلى أحواله ، وسبقوا إلى الخليفة بامرا قاعدة خلافته ، فعقد لهم مجلساً للنظرة ، وناظر الواقع أحمد بن نصر في مسألة خلق القرآن ، فقال له : يا أحمد ما تقول في القرآن ؟ قال : كلام الله ، قال أغلظ هو ؟ قال : هو كلام الله ، قال : فما تقول في ربك ؟ أنراه يوم القيامة ؟ قال : يا أمير المؤمنين جادت الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر » ، فقال الواقع لمن حوله ما تقولون فيه ؟ فقال القاضي عبد الرحمن ابن اسحق ، وقال غيره اسقني دمه يا أمير المؤمنين ، فوافقه الحاضرون إلا ابن أفي دؤاد قاضي القضاة ، فإنه قال يا أمير المؤمنين كافر يستأب لعل به عاهة أو تغير عقل . وما لبث أحمد بن نصر أن لقي حنيفة على يد هذا الخليفة

وقد غلا الواقع في معاملة القائلين بعدم خلق القرآن ، فقد طلب عند ما تبودلت الأسرى بين المسلمين والبيزنطيين ، أن يسأل كل أسير من أسرى المسلمين عن رأيه في القرآن . وكان نضيب كل من قال بعدم خلق القرآن أن يرد إلى أسرته باعتباره خارجاً على الاسلام (٢) .

٣ - أهل السنة :

دخل في الاسلام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم كثير من الشعوب كالفرس والشاميين والمصريين وغيرهم ، واتسعت رقعة الدولة الاسلامية خارج جزيرة العرب . وكان لهذه الشعوب

أديان وتقاليده ونظم . ولم يكن في استطاعتهم تطبيق عقائد الاسلام التي ذكرت في القرآن عليها . ومن ثم اتجه نظرم إلى مصدر آخر من مصادر التشريع الإسلامى هو السنة ، أى ما أئرع الرسول من قول أو فعل أو أى شيء رآه . وكانت المدينة المنورة مركز أهل السنة أول الأمر . وينبغي أن تميز بين أهل الحديث الذين يتمسكون بأقوال الرسول خاصة ، وأهل السنة وهم الذين يتمسكون بأقوال الرسول وأفعاله وعاداته وغيرها (١) .

ولم يطلق اسم « أهل السنة » إلا في العصر العباسى الأول ، في الوقت الذى تطور فيه مذهب المعتزلة ، حتى أصبح يطلق اسم « أهل السنة » على كل من يتمسك بالكتاب والسنة ، واسم « المعتزلة » على كل من يأخذ بالكلام والنظر . أما في صدر الإسلام فكان يطلق على كل من يتمسك بالكتاب والسنة اسم « الصحابة » ، لأنهم اجتمعوا مع الرسول وناصروه ، كما أطلق على من أتى بعدهم اسم « التابعين » وأتباع الأتباع . وظلت الحال كذلك إلى أن انتصر أبو الحسن الأشعري وأتباعه على المعتزلة ، واضمحلت أكثر الفرق الإسلامية الأخرى ، فلم يعد هناك سوى الشيعة وأهل السنة ، فيقال هذا شيعى وذلك سنى . وقد استمرت هذه التسمية إلى الوقت الحاضر .

وقد مر مذهب أهل السنة بأدوار مختلفة ، وقام الصراع بينهم وبين المعتزلة ، واصطدم زعماء أهل السنة مع العباسيين أنفسهم . فكان من مبادئ أهل السنة تمسكهم بنصوص الكتاب والسنة ، وذهبوا إلى أن الإيمان ليس بحاجة إلى غيرها ، كما ذهبوا إلى القول بأن الاعتقاد على النظر والعقل قد يوصل إلى الإلحاد ، مخالفين بذلك مبادئ المعتزلة ، مما أدى إلى وقوع النزاع بين أصحاب هذين المذهبين . وآية ذلك ما رأيناه في عهد المأمون ، من وقوع ذلك الصراع العنيف في مسألة خلق القرآن بين « أهل السنة والجماعة » وبين « المعتزلة » الذين سادت مبادئهم في بلاط الخلفاء ، وأصبحت لهم الكلمة النافذة في ذلك الوقت .

على أن أهل السنة لم يقصروا كلامهم على الأمور النظرية ، بل كثيراً ما تعرضوا للمسائل السياسية كسألة الإمامة . فقد نعم أبو حنيفة على العباسيين سطوتهم وشدتهم ، ومال إلى جانب العلويين في الفتنة التي قامت بين أبي جعفر المنصور ومحمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم . وقد روى أن المنصور استقدم أبا حنيفة من الكوفة لاثامه بمناصرة إبراهيم بن عبد الله العلوى ، فظل يبتذد خمسة عشر يوماً ، ثم دس له السم فأت . كما كان مالك بن أنس يفتى الناس بأنه « ليس على مكره مبین » . ولم تكن هذه الفتوى تعجب العباسيين ، لأن هذا معناه أن من بايع العباسيين مكرهاً ، فله أن يتحلل من بيعته ، وله أن يبايع محمداً النفس الزكية . وقد نهى المنصور

(١) قيل عن سفيان الثوري إنه إمام في السنة وليس بإمام في الحديث ، وأن الأوزاعي إمام في الحديث وليس بإمام في السنة ، وأن مالك بن أنس كان إماماً في السنة والحديث معا . وقد بقي هذا التمييز وقتاً طويلاً حتى اصطلاح المتأخرون على جعلهما شيئاً واحداً .

مالكاً عن التحدث بهذا الحديث ، ثم ضربه بالسياط لما علم أنه ما زال يحدث به .
وقد ذهب البغدادى صاحب كتاب الفرق بين الفرق (١) إلى القول « إن أهل السنة والجماعة ثمانية أصناف من الناس : صنف منهم أحاطوا العلم بأبواب التوحيد والنوبة ، وأحكام الوعد والوعيد والثواب والعقاب ، وشروط الاجتهاد والإمامة والزعامة ، وسلوكوا في هذا النوع من العلم طرق الصفاية (٢) من المتكلمين الذين تبرءوا من التشبيه والتعطيل ، ومن بدع الرافضة والخوارج والجهمية والتجارية وسائر أهل الأهواء الضالة . والصنف الثاني منهم أئمة الفقه من فريقي الرأي والحديث من الذين اعتقدوا في أصول الدين مذاهب الصفاية في الله وفي صفاته الأزلية وتبرءوا من القدر والاعتزال ، وأنبتوا رؤية الله بالابصار من غير تشبيه ولا تعطيل ، وأنبتوا الحشر من القبور مع إثبات السؤال في القبر ، ومع إثبات المحوض والصراف والشفاعة وغفران الذنوب التي دون الشرك . وقالوا بدوام نعم الجنة على أهلها ودوام عذاب النار على الكفرة . وقالوا بإمامة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، وأحسنوا الثناء على السلف الصالح من الأئمة . ورأوا وجوب الجمعة خلف الأئمة ، الذين تبرءوا من أهل الأهواء الضالة ، ورأوا وجوب استنباط أحكام الشريعة من القرآن والسنة ومن إجماع الصحابة ، ورأوا جواز المسح على الخفين ووقوع الطلاق الثلاث ، ورأوا تحريم المشيمة ، ورأوا وجوب طاعة السلطان فيما ليس بمحضية . ويدخل في هذه الجماعة أصحاب مالك والشافعي والأوزاعي والثوري وأبي حنيفة وابن أبي ليلى ، وأصحاب أبي ثور وأصحاب أحمد بن حنبل ، وأهل الظاهر وسائر الفقهاء الذين اعتقدوا في الأبواب العقلية أصول الصفاية ، ولم يخطئوا فقه بشيء من بدع أهل الأهواء الضالة . والصنف الثالث منهم من الذين أحاطوا علماً بطرق الأخبار والسنة المأثورة عن النبي عليه السلام ، وميزوا بين الصحيح والسقيم منها وعرفوا أسباب الجرح والتعديل (٣) ، ولم يخطئوا عليهم بذلك شيء من بدع أهل الأهواء الضالة . والصنف الرابع منهم قوم أحاطوا علماً بأكثر أبواب الأدب والنحو والتصريف وجروا على سمت (٤) أئمة اللغة كالخليل وأبي عمرو بن العلاء وسيبويه والفرأ والأحفش والأصمعي والمازني وأبي عبيد ، وسائر أئمة النحو من الكوفيين والبصريين الذين لم يخطئوا عليهم بذلك شيء من بدع القدرية أو الرافضة أو الخوارج . ومن مال منهم إلى شيء من الأهواء الضالة لم يكن من أهل السنة ، ولا كان قوله حجة في اللغة والنحو . والصنف الخامس منهم من الذين أحاطوا علماً بوجوه قراءات القرآن وبوجوه تفسير آيات القرآن وتأويلها على وفق مذاهب أهل السنة دون تأويلات أهل الأهواء الضالة . والصنف السادس منهم الزهاد الصوفية الذين أبصروا فاقصروا

(١) ص ٣٠٠-٣٠٣ .

(٢) الصفاية من يتبرء صفات الله .

(٣) الجرح الذنب الذي يجعل صاحبه غير أهل لرواية الحديث ، والتعديل هو إثبات الصفات التي تحمله غير عرضة للتجريح .

(٤) السمت : الطريق .

واختبروا فاعتبروا ، ورضوا بالمقدور وقتعوا بالميسور ، وعلوا أن السمع والبصر والفؤاد ، كل مسئول عن الخير والشر ومحاسب على مناقيل النذر ، فأعدوا خير الاعتداد ليوم المعاد ، وجرى كلامهم في طريق العبارة والاشارة على سمت أهل الحديث دون من يشتري هوا الحديث لا يعملون الخير رياء ولا يتركونه حياء ، دينهم التوحيد ونفى التشبيه . ومذهبهم التوفيق إلى الله تعالى والتوكل عليه والتسليم لأمره والقناعة بما رزقوا ، والاعراض عن الاعتراض عليه (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) (١) . والصنف السابع منهم قوم مرابطون في ثغور المسلمين في وجوه الكفرة ، مجاهدون أعداء المسلمين ويمحون حمى المسلمين ويذبون عن حريمهم وديارهم ، ويظهرون في ثغورهم مذاهب أهل السنة والجماعة . وهم الذين أنزل الله تعالى فيهم قوله (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبيلاً) (٢) . والصنف الثامن منهم عامة البلدان التي غلب فيها شعائر أهل السنة دون عامة البقاع ، التي ظهر فيها شعار أهل الأهواء الضالة . وإنما أردنا بهذا الصنف من العامة ، عامة اعتقدوا تصويب علماء السنة والجماعة في أبواب العدل والتوحيد والوعد والوعيد ، ورجعوا إليهم في معالم دينهم ، وقلوبهم في فروع الحلال والحرام ، ولم يمتنعوا شيئاً من بدع أهل الأهواء الضالة . وهؤلاء هم الذين سميتهم الصوفية حشو الجنة . فهؤلاء أصناف أهل السنة والجماعة ، وبمجموعهم أصحاب الدين القيم والصراط المستقيم .

(ح) في السياسة : أثر الوزراء العباسيين والبرامكة خاصة في هذا النزاع :

اعتنق الفرس الدين الاسلامي ، ووجدوا فيه المساواة التي كانوا يشقونها ، لأن هذا الدين يقوم على أساس المساواة بين المسلمين كافة ، لا فرق في ذلك بين عرب وعجمي . وتمتع الفرس بمبدأ المساواة في عهد الخلفاء الراشدين . فلما انتقل الحكم إلى الأمويين آثروا العرب على الفرس ، ولم يساووا بين هؤلاء وأولئك في الحقوق المدنية والعسكرية ، وأثاروا بذلك كراهة الموالي ، الذين عملوا على التخلص من نيرهم ، ورأوا أن ينضموا إلى بني هاشم ، طمعاً في نيل حقوقهم ، وإعادة مجد بلادهم على أيديهم .

وقد قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس ، كما نعلم . ولكن العباسيين ، وإن كانوا قد اعترفوا بمساعدة الفرس لهم في تأسيس دولتهم ، فانهم لم ينسوا عريتهم وجهم للبلد ، فلم يسمحوا للمواليهم وأنصارهم أن يراحمهم في سلطانهم ، أو يعملوا على تحويل الأمر إلى أعدائهم العلويين . ومن ثم رأينا الخلفاء العباسيين يتكلمون بوزرائهم الذين مالوا إلى العلويين : فنكل السجاح بأبي سلة ، والمهدي يعقوب بن داود ، والرشيد بالبرامكة ، والمأمون بالفضل بن سهل . اتصل أبو سلة بالخلال ، الذي كان من أهم العوامل التي ساعدت على تأسيس الدولة العباسية ،

بني العباس ، بتركية صهره بُسْكِيَر بن ماهان كاتب ابراهيم الامام . ولما مات ابراهيم وخلفه في الدعوة اخوه ابو العباس ، حامت الشكوك حول إخلاص أبي سلة للدعوة العباسية ، واتهم بأنه أخذ يعمل على العدول عنهم وتحويل الخلافة إلى العلويين ، كما أنه لم يهتم بأبي العباس وأهل بيته ، بعد أن هاجروا من الحيمة إلى الكوفة ، حتى إنه أن يدفع أجرة الحمالين الذين تولوا نقلهم ونقل أمتعتهم ، وأخفى أمرهم وأمر بمراقبتهم . ولما قامت الدولة العباسية أرسل أبو سلة إلى زعماء العلويين بالحجاز ، وهم جعفر الصادق وعبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن علي ، وعمر الأشرف بن علي زين العابدين ، يدعوهم إلى قبول الخلافة كما تقدم . وقد قيل إن أبا العباس السفاح استوزر أبا سلة على كره منه ، لما كان يتمتع به من مكانة سامية ونفوذ كبير في نفوس الخراسانيين ، وهم أعضاء الدولة العباسية ومصدر قوتها ، وفوض إليه أمور هذه الدولة ، ولقبه وزير آل محمد ، وخشى إذا قتله أن يقوم أهل خراسان في وجهه ويثأروا له . وبذلك عمل أبو العباس على أن يتم هذا الأمر على يد أبي مسلم الخراساني ، لأنه كان يكرهه ويعقد عليه لعل منولته في الدولة .

ولم يكن للوزراء من الفرس أثر في هذا النزاع الذي قام بين العلويين والعباسيين في عهد أبي جعفر المنصور ، لضعف هؤلاء الوزراء في عهده ، بسبب استبداده بأمور دولته ، وشدة حرصه على سلطانه ، حتى كانوا معرضين للقتل لأتفه الأسباب . فلما ولي المهدي الخلافة وأمر بحجب وزيره أبي عبيد الله معاوية بن يسار بعد أن قُتل ابنه الذي اتهم باتحالف مذهب الزنادقة ، استوزر أبا عبد الله يعقوب بن داود ، وكان من الخراسانيين ، وكان أبوه وأعمامه يتولون الكتابة لصهر بن سيار والي خراسان في أواخر أيام بني أمية ، لثبوتهم في العلم والأدب والاشعار والسير . فلما انتقل الحكم إلى العباسيين لم يتفعوا بمواهب آل داود لانصالحهم بني أمية من قبل . وقد قيل إن يعقوب بن داود اتحل عقائد الزيدية ، ثم مال إلى أولاد عبد الله بن الحسن العلوي وتقرّب إليهم ، وأخذ هو وأهل بيته ينشرون الدعوة لحمد النفس الزكية ، وانضوا تحت لواء أخيه إبراهيم في العراق . فلما قتل إبراهيم اختفوا حتى ظفّر بهم المنصور ، فحبسهم إلى أن ولي المهدي الخلافة ، فأطلقهم ، واستوزر يعقوب بن داود وفوض إليه كافة أمور دولته ، وانصرف إلى الله وسماع النساء والشراب ، فقال بشار بن برد :

بني أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود

صاعت خلافتكم ياتوم فالتسوا خلافة الله بين النشأ والعود

وقد ذكر صاحب الفتحى^(١) أن الخليفة المهدي طلب من وزيره يعقوب بن داود أن يكفيه أحد العلويين ، لأنه خاف خروجه عليه ، واستحلفه على ذلك ، ولكن يعقوب رق لحال العلوي وأطلقه . وكانت عند هذا الوزير جارية أهداها له المهدي ، فنسب إليه من أعليه حقيقة الحال ،

فبت العيون والأرصاد حتى أتوه بذلك العلوى ، وجعله فى بيت قريب من مجلسه . ثم استدعى الوزير وسأله عما آل إليه أمر العلوى ، فقال له : قد أراح الله منه أمير المؤمنين ، قال : مات ؟ قال نعم ، قال باقة ؟ قال إى والله ، قال فضع يدك على رأسى واحلف به ، قال يعقوب : فوضعت يدى على رأسه وحلفت به ، فقال (المهدي) ليمض الخدم : أخرج إلينا من فى هذا البيت . فلما رآه يعقوب امتنع الكلام عليه ، وتحير فى أمره ، فقال المهدي يا يعقوب قد حل لي دمك . قال يعقوب : « قد كنت مجمل فى بئر مظلمة لا أرى فيها الضوء » ، فظل فى حبسه إلى أن أطلقه الرشيد ، وقد فقد بصره وورقت حاله ، وسمح له بأن يقضى البقية الباقية من حياته فى مكة ، فلم تطل أيامه بعد ذلك ومات سنة ١٧٦ هـ .

ولم يمرر المهدي فى الخلافة ، وخلفه أخوه هارون الرشيد ، فاستوزر البرامكة الذين كان لهم شأن عظيم فى الدولة العباسية ، ولا سيما فى عهد هارون الرشيد الذى أوقع بهم لأسباب كثيرة أهمها ميلهم إلى العلويين ، كما أوقع السفاح بوزيره أنس بن سنان ، والمهدي بوزيره يعقوب بن داود ، كما تقدم . ويحسن بنا أن نخصص عن المومال التى أدت إلى نكبة البرامكة على يد الرشيد ، تلك الشبكة التى تمتد بفتح من أمهات الحوادث التى وقعت فى عهد الرشيد خاصة ، وفى العصر العباسى الأول عامة .

اختلفت كلمة المؤرخين وأصحاب السير فى السبب الذى دفع هارون الرشيد إلى نكبة البرامكة ، مع أنه شب فى حجر يحيى بن خالد البرمكى وكان يدعوهم يا أبت . فبعضهم يرى أن الرشيد غضب عليهم لوجود علاقات بين جعفر بن يحيى وبين أخته العباسية . وبعضهم يقول إن ذلك كان بسبب إطلاق جعفر البرمكى يحيى بن عبد الله العلوى بعد أن أمره الرشيد بحبسه . وبعضهم يقول إن استبداد البرامكة بالملك وجمعهم الأموال استأثر الناس لإيهم ، وأن ذلك أغر صدر الرشيد عليهم وحمله على الإيقاع بهم .

أضف إلى ذلك ما أظهره البرامكة من الدالة على الرشيد عما لا تحتمله نفوس الملوك ، وسعاية أعداء البرامكة وبخاصة الفضل بن الربيع بهم عند الرشيد . وما يدل على تأثير هذه السعيات فى نفس الرشيد ما رواه صاحب الفخرى ^(١) عن محمد بن شعيب الطيبى قال : دخلت يوماً على الرشيد وهو جالس فى قصر الخلد ، وكان البرامكة يسكنون بمذاهب من الجانب الآخر ، وبينهم وبينه عرض دجلة ، فنظر الرشيد فرأى اعتراك الخيول وازدحام الناس على باب يحيى بن خالد فقال : جزى الله يحيى خيراً ، تصدى للامور وأراحنى من الكد ووفر أوقاتي على اللذة . ثم دخلت عليه بعد أوقات ، وقد شرع يتغير عليهم ، فنظر فرأى الخيول كما رآها

تلك المرة فقال : استبد يحيى بالأمور دوتى ، فالحلقة على الحقيقة له ، وليس لى منها إلا اسمها ، فقلت إنه سينكبهم ، فنكبهم عقيب ذلك .

وروى الطبرى (١) عن يحيى بن جبريل عن أبيه أنه قال : « إني لقاعدته في مجلس الرشيد إذ طلع يحيى بن خالد ، وكان فيما مضى يدخل بلا إذن . فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلم ، رد عليه رداً ضيقاً ، فلم يحيى أن أمرهم قد تغير . ثم أقبل على الرشيد فقال : يا جبريل يدخل عليك وأنت في منزلك أحد بلا إذنك ؟ فقلت لا ولا يطعم في ذلك . قال فما بالنا يدخل علينا بلا إذن ؟ فقام يحيى فقال يأمر المؤمنين اقدمنى الله قبلك ، والله ما ابتدأت ذلك الساعة وما هو إلا شئ . كان خصنى به أمير المؤمنين ورفع به ذكرى ، حتى إن كنت لأدخل وهو في فراشه ، مجرداً حيناً وحيناً في بعض إزاره . وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يجب ؛ وإذا قد علمت فائق أكون عنده في الطبقة الثانية من أهل الإذن أو الثالثة إن أمرنى سيدى بذلك . قال فاستحي ، وكان من أرق الخلفاء وجهاً ، وعيناه في الأرض ما يرفع إليه طرفه . ثم قال ما أردت ما تكره ، ولكن الناس يقولون . قال : فظننت أنه لم يستح له جواب يرتضيه ، فقال بهذا القول ، ثم أمسك عنه وخرج يحيى . »

كذلك روى الطبرى (٢) هذه العبارة التى تدلنا على مبلغ حقد الرشيد على البرامكة وعمله على التض من شأنهم ، حتى إنه أمر غلبانه بالإعراض عنهم والاستتار بهم إذا دخلوا قصره : دخل يحيى بن خالد بعد ذلك على الرشيد ، فقام الغلبان إليه ، فقال الرشيد لمسرور الخادم : مر الغلبان ألا يقوموا ليحيى إذا دخل الدار قال : فدخل فلم يقم إليه أحد ، فأربد لونه . وكان الغلبان والحجاب بعد إذا راوه أعرضوا عنه ، فكان ربما استسقى الشربة من الماء أو غيره فلا يسقونه ، وبالحرى إن سقوه أن يكون ذلك بعد أن يدعوا بها مراراً .

أضف إلى ذلك ما ذكره ابن عبد ربه في محاوراة الأصمعى للرشيد وللفضل بن يحيى وغيرهم ؛ وذلك أن أعداء البرامكة من بطانة الرشيد دسوا للبعثين شعرا يثير عامل المناصفة والحق في نفسه . وكذلك ما تحبيل به أعداؤهم من البطانة فيما دسوه للبعثين من الشعر احتيالا على سماعه للخليفة وتحريك حفاظه لهم (٣) . فانظر كيف كانت حال الرشيد من البرامكة عندما سمع هذين البيتين ؟

ليتَ هندا أنجزتنا ما نعد وشتت أنفسنا بما تجد
واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد
أجل لقد نزع أعداء البرامكة ومناقضهم في حيلتهم ، فإن الرشيد لما سمع هذين البيتين قال : « إى والله إى عاجز ، وسلط عليهم سيف انتقامه . »

(٢) ج ١٠ ص ٨٠ .

(١) ج ١٠ ص ٧٩ - ٨٠ .

(٣) ابن خلدون : مقبمه ص ١٥ .

ويعزو بعض المؤرخين نكبة هذه الأسرة إلى حوادث ليست لحاجة كالتى تقدمت ، وإنما هي أمور جارات متتابعة ، منها أن الرشيد كان يميل كثيراً إلى تولية الفضل بن الربيع بعض أمور الدولة ، فكانت الخيرون أم الرشيد تحول دون ذلك ، وكان الفضل يظن أن الذى حملها على ذلك إنما هو جعفر البرمكى . فلما ماتت الخيرون ولّى الرشيد الفضل الخاتم وغيره مما كان فى يد جعفر (١٨٤ هـ) .

وأعقب ذلك إطلاق يحيى بن عبد الله بن الحسن العلوى ، الذى خرج على الرشيد فى بلاد الديلم ، فبعث إليه الفضل بن يحيى البرمكى فى خمسين ألف مقاتل ، فزال به حتى مال إلى الصلح وطلب أماناً بخط الرشيد ، فكتب إليه الأمان بخطه ، وشهد عليه فيه القضاء والفقهاء و كبار بنى هاشم . ولما قدم يحيى تلقاه الرشيد بالحفاوة والاكرام ، ولكنه لم يلبث أن حبسه ، إذ علم أنه يعمل لخلعه ، واستغنى الرشيد الفقهاء فى نقض الأمان الذى أعطاه يحيى ، ثم سلبه لجعفر بن يحيى البرمكى فأطلقه (١) ، فكان ذلك من أهم أسباب نكبة البرامكة . وفى ذلك يقول الطبرى (٢) : « و ذلك أن الرشيد دفع يحيى إلى جعفر فحبسه ، ثم دعا به ليلة من الليالى ، فسأله عن شيء من أمره ، فأجابه إلى أن قال : إئتق الله فى أمرى ، ولا تعرض أن يكون خصمك غداً محمد بن صلى الله عليه وسلم ؛ فوالله ما أحدثتُ حدثاً ولا آويتُ مُحدثاً ؛ ففرق عليه . وقال له اذهب حيث شئتُ من بلاد الله . قال وكيف أذهب ، ولا آمن أن أؤخذ بعد قليل ، فأرد إليك أو إلى غيرك ؟ فوجه معه من أداه إلى مأمنه . وبلغ الحز الفضل بن الربيع من عين كانت له عليه من خاص خدمه ، فعلا الأمر فوجده حقاً ، وانكشف عنده ، فدخل على الرشيد وأخبره ، فأراه أنه لا يعبأ بخبره وقال ، وما أنت وهذا لا أم لك . فلعل ذلك عن أمرى ، فانكسر الفضل ، وجاءه جعفر فدعا بالنداء فأكلا ، وجعل يلتمه ويحادثه ، إلى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال : ما فعل يحيى بن عبد الله ؟ قال بجاله يا أمير المؤمنين فى الحبس الضيق والأكبال . قال بجياق ؟ فأحجم جعفر ، وكان من أدق الخلق ذهنًا وأصعبهم فكراً ، فهجم فى نفسه أنه قد علم بشئ من أمره ، وقال : لا وحياتك يا سيدى ، ولكن أطلقته وعلت أنه لا خيانة به ولا مكروه عنده ، قال نعم ما فعلت ، ما تحدثتُ ما كان فى نفسى . فلما خرج أتبعه بصره حتى كاد أن يتوارى عن وجهه ، ثم قال قتلى الله بسيف الحدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك . فكان من أمره ما كان . »

لذلك لا تعجب إذا سمعت العلاقة بين البرامكة وبين الرشيد ، وساعد على إشعال هذه التيران سعاية الفضل بن الربيع وغيره ، وكرهه زينة أم الأمين للبرامكة ، إذ كانت تظن أن

(١) التفرغى ص ١٧٦-١٧٧ : الجبشيارى : كتاب الوزراء والكتاب ص ١٨٩-١٩٠ .

(٢) ج ١٠ ص ٨٠-٨١ .

الرشيـد قد عهد إلى ابنه المأمون دون الأمين بتأثير يحيى البرمكي . أضف إلى ذلك ما اتصل بهلم
الرشيـد من أن عبد الملك بن صالح العباسي كان يدعو إلى نفسه ، وأن البرامكة كانوا يساعدونه
في دعوته ، فغضب الرشيد عليهم وحبس عبد الملك معهم .

ولم يكن جعفر البرمكي وحده هو الذي اتهم بالتقرب إلى العلويين ، بل شاركه في ذلك
أخوه موسى بن يحيى البرمكي ، فقد رماه أعداؤه بأنه ينشر الدعوة إلى العلويين ويعمل على
تحويل الخلافة إليهم بين أهالي خراسان .

أما قصة العباسية مع جعفر بن يحيى ، وتتلخص في أن هارون الرشيد ، لكلفة بمكانة
جعفر بن يحيى البرمكي وأخته العباسية ، وحرصه على حضورهما مجلسه ، أذن لهما في عقد
الزواج دون التحلة ، وأن الرشيد قد غضب على جعفر لعدم تنفيذ هذا الشرط ، فأمره
نستبعده كل البعد ، مع ما نعرفه عن نسب العباسية وحسبها ودينها . فهي بنت الخليفة المهدي
ابن المنصور ، وهي كما يقول ابن خلدون (١) ، قريبة عهد بيداة العروبة وسداجة الدين ،
البعيدة عن عوائد الترف ومواقع الفواحش ، فإن يطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها ،
أو أين توجد الطهارة والذكا إذا فسد من بيتها ، أو كيف تملح نسبها بجعفر بن يحيى
وتدنس شرفها العربي بمولى من موالى السجم ؟ ... وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر إلى
موالى الأعاجم على بعد همتة وعظم آياته ؟ ولو نظر المتأمل في ذلك نظر المنصف ، وقاس
العباسية بأبنة ملك من ملوك زمانه ، لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالى دولتها ، وفي
سلطان قوما ، واستنكره ولج في تكذيبه . وأين قدر العباسية والرشيد من الناس ؟ .

وما يؤيد بطلان هذا الرأي ، مانعنا من أنفة العباسيين عن مصاهرة الموالى . وليست
حكاية أبي مسلم الخراساني مع زوجة عبد الله بن علي العباسي التي زادت حنق المنصور عليه
وساعدت على الفتك به بعيدة عن أذهاننا .

ونحن نميل إلى القول بأن الرشيد نكب البرامكة ، لما كان من استبدادهم بالأمور دونه .
وفي ذلك يقول ابن خلدون (٢) : « إنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة ،
 واحتجانتهم أموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه ، فنلبوه على
أمره وشاركوه في سلطانه . ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه ، فغظمت آثارهم وبعد
صيتهم ، وعثروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتازوها عن
سواهم ، من وزارة وكتابة وقيادة وحجابه وسيف وقلم ، فوجه الإيثار من السلطان إليهم
وعظمت الدالة منهم ، وانبط الجاه عندهم ، وانصرف نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب
وقصرت عليهم الآمال ، ومدحوا بما لم يمدح به خليفهم ، وأسئوا لمفاتهم الجوائز والصلوات

(١) مقدمة ج ١٤ .

(٢) مقدمة ص ١٤ .

(٣) أنظر المسودي : (مروج الذهب) ج ٢ ص ٢٨٦ - ٢٨٨ .

واستولوا على القرى والضياع ، من الضواحي والأمصاف في سائر الممالك ، حتى أسفوا البطانة واحقدوا الخاصة ، وأغصوا أهل الولاية ، فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ، ودبت إلى مهاجم الوئير من الدولة عقارب السماية .

عاش البرامكة عيشة قوامها البذخ والإسراف وحب الظهور ، وأغدقوا الأموال على الشراء والعباء ، ولم يردوا قاصدا . قيل إن جعفر بن يحيى البرمكي أنفق على بناء داره عشرين ألف ألف درهم ، وهو - كما يبدو - مبلغ ضخم لا يقل عن مليون وستمائة وخمسة وستين ألف دينار ، غير ما يحتاج إليه هذا البناء من أثاث ورياش وخدم وحشم ، وما إلى ذلك من أسباب البذخ والوران الترف التي تثير عوامل التيرة في نفوس أعدائهم وحسادهم ، وتهمي لهم السبيل للايقاع بهم عند الخليفة . بهذا نفي إبراهيم بن المهدي ووجد أن نكبة البرامكة آتية لا ريب فيها . وهو يقص علينا هذه العبارة التي نقلها عن الطبري ^(١) قال : « أتيت جعفر بن يحيى في داره التي ابناءها فقال لي : أما تعجب من منصور بن زياد ؟ قلت فيماذا ؟ قال سأله هل ترى في دارى عيبا ؟ قال نعم ليس فيها لبنه ولا صنوبر ، قال إبراهيم ، فقلت الذى يميمها عندي أنك أنفقت عليها نحواً من عشرين ألف ألف درهم ، وهو شيء لا آمنه عليك غداً بين يدي أمير المؤمنين . قال هو يعلم أنه قد وصلني بأكثر من ذلك وضمفت ذلك سوى ما عرضني له . قال قلت إن العدو إنما يأتيه في هذا من جهة أن يقول يا أمير المؤمنين ، إذا أنفق على دار عشرين ألف ألف درهم ، فأين نفقاته وأين صلاته وأين التوابع التي تنوبه ؟ وما ظنك بالأمير المؤمنين بما وراء ذلك ؟ وهذه جملة سرية إلى القلب ، والموقف على الحاصل منها صعب . قال إن سمع مني قلت إن لأمير المؤمنين نهما على قوم قد كفروها بالستر لها أو بأظهار القليل من كثيرها ، وأنا رجل نظرت إلى نعمته عندي فوضعتها في رأس جبل ، ثم قلت للناس تناولوا وانظروا . »

ويتهم البغدادى البرامكة ، فيرميهم بالزندقة والميل إلى مذاهب المجوس ، فيقول عند كلامه على الباطنية : « ولم يمكنهم (الباطنية) إظهار عبادة التيران ، فاحتالوا بأن قالوا للمسلمين : ينبغي أن تُجسَّم المساجد كلها ، وأن تكون في كل مسجد مجسمة ^(٢) يوضع عليها الند ^(٣) والعود في كل حال . وكان البرامكة قد ذنبوا الرشيد أن يتخذ في جوف السكبة مجرة يتبخر عليها العود أبداً ، فلم الرشيد أنهم أرادوا من ذلك عبادة النار في السكبة ، وأن تصير السكبة بيت نار ، فكان ذلك أحد أسباب قبض الرشيد على البرامكة ، ^(٤) . وذكر ابن النديم ^(٥) أن البرامكة بأسرها - إلا محمد بن خالد بن برمك - كانت زنادقة . »

(٢) المجسمة كاللوقد عندنا اليوم يوضع فيها البخور

(٤) كتاب الفرق بين الفرق ص ٢٧٠

(١) ج ١٠ ص ٨٢

(٣) الطيب

(٥) كتاب الفهرست ص ٤٧٣ م

وصفوة القول أن سقوط أسرة البرامكة كانت نتيجة حوادث متتابعة ، دفعت الرشيد لا إلى الحد من نفوذ هذه الأسرة فحسب ، بل إلى القضاء عليها وإعفاء آثارها . فانظر كيف قضى الرشيد على هذه الأسرة . لما عاد الرشيد من الحج ، سار من الحيرة إلى الأنبار في السفن ، وركب جعفر بن يحيى إلى الصيد . وجعل يشرب تارة ويلبأ أخرى ، وتُحسف الرشيد وهداياه تأتيه ، وعنده بَخْسِيْشُوع الطيب . وأبو زكار الأعشى يفتيه . فلما ظل المساء دعا الرشيد مسرورا الخادم وكان ميفضا للجعر وقال ، إذهب لختي برأس جعفر ولا تراجعني ، فوافاه مسرور بغير إذن ومجيم عليه وأبو زكار يفتيه :

فلا تبعد فكل قى سياى عليه الموت يطرق أو ينادى

فلما دخل مسرور قال جعفر بن يحيى البرمكى لقد سررتني بمجئتك وسوءتي بدخولك على بغير إذن ، فقال الذى جئت له أعظم . أجب أمير المؤمنين إلى ما يريد بك ، فوقع على رجله فقبلها وقال له : عاود أمير المؤمنين فإن الشراب قد حمله على ذلك وقال : دعني أدخل دارى فأوصى فقال : الدخول لاسبيل إليه ، وأما الرصية فأوص بما بدالك ، فأوصى ، ثم حمله إلى منزل الرشيد وعدل به إلى قبة وضرب عنقه ، وأتى برأسه على ترس إلى الرشيد ، وبیدته في نطع ، ووجه الرشيد فقبض على أبيه وإخوته وأهله وأصحابه بالرمقة واستأصل شأقتهم . وكان قبل جمعهم البرمكى في ليلة السبت أول ليلة من شهر صفر سنة ١٧٧ هـ ، وهوى السابعة والثلاثين من عمره .

وقد رثا الرقائى الشاعر هذه الأسرة البرمكية ، التي اضطلمت بهام الوزارة سبع عشرة سنة ، في قصيدة طويلة نذكر منها هذه الآيات :

إن يفدر الزمن الخشون بنا فقد	شدّ الرمان بجعفر ومحمد
حتى إذا وضحت النهار تكشفت	عن قتل أكرم هالك لم يلجد
والبيض لولا أنها مأمورة	ما قل حد مهتد مهتد
يا آل يرمك كم لكم من ناقل	وندى كمد الرعمل غير مصرع
إن الخليفة لا يشك أخوكم	لكنه في يرمك لم يولد
نازعوه رضاع أكرم حرة	مخلوقة من جوهر وزرجد
ملك له كانت يد فياضة	أبدأ تجود بطارف ويمتد
كانت يدا للجود حتى غلبها	قدر فأضحى الجود مغلول اليد ^(١)

وقال أبو عبد الرحمن المظوى الشاعر برثيم^(٢) :

أما والله لولا قول واش وعين الخليفة لاتنام

لطفنا حول جردك واستلنا كالناس بالحجر استلام
على الدنيا وساكنها جميعاً ودولة آل برك السلام^(١)
ومن ذلك قول علي بن أبي معاذ يرى البرامكة ويصف كيفية قتلهم :

يا أيها المفتر بالدر	والدر ذو مصرف وذو غدر
لا تأمن الدر وصولاته	وكن من الدر على حذر
إن كنت ذا جهل بصريفه	فانظر إلى المصلوب بالجسر
فإن فيه عرة فاعتبر	وذا الحجا والعقل والفكر
وخذ من الدنيا صفا عيشها	واجر مع الدر كما يجري
كان وزير القائم المرتضى	وإذا انتهى والفضل والذكر
وكانت الدنيا بأقطارها	إليه في البر وفي البحر
يشيد الملك بآراده	وكان فيه نافذ الأمر
فبينما جسر في ملكه	عشية الجمعة بالقر
يطير في الدنيا بأجناحه	بأمل طول الخلد والعمر
لذعر الدر به عثرة	يا ويلتنا من عثرة الدر!
وزلت النمل به زلة	كانت له قاصمة الظهر
قفودر الياثس في لبة السبد	ت قبلا مطلع الفجر
وأصبح الفضل بن يحيى وقد	أحيط بالشيخ وما يدري
وجيء بالشيخ وأولاده	يحيى معاً في القل والأسر
والبرمكيين وأتباعهم	من كان في الآفاق والمصر
كأنما كانوا على موعد	كموعد الناس في الحشر
وأصبحوا للناس أعدوة	سبحان ذي السلطان والأمر ^(٢)

هكذا عفى الدر هذه الأسره التي كان لها أكبر الأثر في تقدم الحضارة الإسلامية في العلوم والآداب ، وفي الزراعة والصناعة والتجارة وغيرها .

كذلك ذهب الفضل بن سهل وزير المأمون ضحية مبله إلى العلويين وعمله على تحويل الخلافة إليهم .

وكان الفضل من أولاد ملوك الفرس ، وكان أبوه مجوسياً من ذوى اليسار ، أسلم في أيام هارون الرشيد ، واتصل هو وابنه الفضل يحيى بن خالد البرمكي ، الذي اتخذ الفضل قهرماناً

(١) الطبري ج ١٠ ص ٨٧

(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٩٣ — ٢٩٤

له (أى رئيساً الخدم). ثم اتخذه الرشيد ليكون فى خدمة ابنه المأمون. ويقول الجهشيارى (١):
 إن جعفر بن يحيى لما عزم على استخدام الفضل بن سهل للمأمون، قرّطه يحيى بن خالد بحضرة
 الرشيد، فقال له الرشيد: أوصله الّى. فلما وصل إليه أدركته حيرة فسكت، فنظر إلى
 يحيى نظرة منكرا لاختياره، فقال له الفضل: يا أمير المؤمنين، إن أعدل الشواهد على فراهة
 المملوك، أن تملك قلبه هيبة سيده. فقال له الرشيد: لئن كنت سكنت لتصوغ هذا
 الكلام، لقد أحسنت، ولئن كان بدية، لموا أحسن، ولم يسأله بعد ذلك عن شيء إلا
 أجابه بما يصدق تقرّظ يحيى له.

ويقال إن الفضل بن سهل لمّا رأى نجابة المأمون فى صباه، ونظر فى طالعها، وكان خيراً
 بعلم النجوم، فدلته النجوم على أنه سيصير خليفة، لزم ناحيته وخدمه، ودبر أموره حتى
 أفضت الخلافة إليه فاستوزره (٢).

استوزر المأمون الفضل بن سهل الذى سمي « ذا الرياستين » لجمعه بين السيف والقلم،
 كما كان يقال له « الوزير الأمير ». وكان الفضل بن سهل — كما يقول صاحب كتاب الفخرى
 فى الآداب السلطانية — (٣) « سخياً كريماً، يجارى البرامكة فى سخائه وكرمه، كما كان حليماً
 بليغاً، عالماً بأداب الملوك، بصيراً بالحيل، جيد الحس، شديد العقوبة، وفيه
 يقول الشاعر:

لفضل بن سهل يدٌ يقصر عنها المثل
 فباطنها للندى وظاهرها للقبيل
 وبسطتها للفقى وسطوتها للأجل

ولكن الفضل بن سهل كان — كغيره من الفرس — يتنصر للمنصر الفارسى، ويمتد
 أن العلويين أحق بحمل التاج، لأنهم يجمعون بين أشرف دم عربى، وهو دم النبوة، وأشرف
 دم فارسى، وهو دم الأكاسرة، وعمل على أن تكون السيادة للمنصر الفارسى. وكان يتشبه
 بوزراء الأكاسرة ليعيد مجد الفرس القديم.

يقول الجهشيارى (٤): « إن الفضل بن سهل بن زادن فروخ كان يجلس على كرسي
 مجسّس، ويحمل فيه إذا أراد الدخول على المأمون، فلا يزال يحمل حتى تقع عين المأمون
 عليه، فإذا وقعت وضع الكرسي ونزل عنه فشى، وحمل الكرسي حتى يوضع بين يدي المأمون،
 ثم يسلم ذو الرياستين، فيعود ويقعد عليه. وإنما ذهب ذو الرياستين إلى مذهب الأكاسرة ».

(١) كتاب الوزراء والكتب ص ٢٣١. (٢) الفخرى ص ٢٠٣.

(٣) ص ٢٠١ — ٢٠٢. (٤) ص ٤٠١ — ٤٠٢.

وكان الفضل بن سهل وزير المأمون يمثل في الفتنة التي قامت بين الأمين والمأمون المنصرم الفارسي ، كما كان الفضل بن الربيع وزير الأمين يمثل المنصرم العربي ، حتى كان هذا النزاع في الواقع نزاعاً حزبياً بين الفرس من ناحية ، وبين العرب من ناحية أخرى . ولا غرو فقد أوغر الفضل بن سهل قلب المأمون على أخيه الأمين ؛ وإليه يرجع الفضل في تولية المأمون علياً الرضا عهده ، وتحويل الخلافة إلى آل علي الذين يؤثرهم الفرس على سائر بني هاشم . ويقول الجيهياري (١) : « وكان المأمون سجد في تجديد العهد لعل بن موسى بن جعفر ، وتقدم إلى الفضل بأخذ البيعة على الناس ، والكتاب إلى الأقاليم في إبطال لبس السواد ، وكتب الفضل بن سهل إلى الحسن يعمله ذلك ، ويأمره بطرح لبس السواد ، وأن يلبس الحضرة ، ويجعل الأعلام والقلانس خضرا ، ويطالب الناس بذلك ، ويكتب فيه جميع عماله » .

على أن المأمون قد أدرك أن الفضل بن سهل قد أثار بعمله هذا أهل بغداد وأفراد البيت العباسي ، حتى إنهم ولّوا إبراهيم بن المهدي الخلافة في بغداد ، وعولوا على الوقوف في وجهه ، فعمل على التخلص من علي الرضا والفضل بن سهل ليصفوا الجوله . فلما دخل بغداد لم يقف أهلها في وجهه .

٤ - تطور موقف الحزبين العلوي والعباسي بعد نكبة البرامكة

(١) قوة الحزب العباسي بعد نكبة البرامكة

١ - تولية الرشيد أولاده العهد وتقويتها للحزب العلوي

ذكرنا في كلامنا على أثر الوزراء العباسيين والبرامكة خاصة في النزاع الذي قام بين العلويين والعباسيين ، أن العباسيين وإن كانوا قد أشادوا بمساعدة الفرس لهم في تأسيس دولتهم ، فأنهم لم يفسوا عريتهم وحجبهم للملك ، فلم يسمحوا لمواليهم وأنصارهم أن يراهم في سلطانهم ، أو يعملوا على تحويل الأمر إلى أعدائهم العلويين . ومن ثم رأينا الخلفاء العباسيين يشكلون بوزرائهم الذين مالوا إلى العلويين ، فيشكل السفاح بأبي سلمة ، والمهدي يعقوب ابن داود ، والرشيد بالبرامكة ، والمأمون بالفضل بن سهل (٢) . وقد وقعت نكبة البرامكة على أثر وقوع حوادث جاءت متتابعة ، ووجد أعداء البرامكة من بطانة الرشيد من العرب ، وخاصة الفضل بن الربيع من استئثار البرامكة بالنفوذ ، واستئثارهم الناس إليهم ، ما أوغر صدر الرشيد عليهم ، وحمله على الإيقاع بهم . وقام الشعراء بدور هام في إثارة حقد الرشيد على البرامكة ، وبخاصة عندما سمع هذين البيتين وأمثالها :

(١) كتاب الوزراء والكتاب ص ٣١٢

(٢) انظر هذا الكتاب ص ١٥٠ - ١٥١

ليت هنداً أنجرتنا مانعاً وشفت أنفسنا بما تجد
واستقبلت مرة واحدة إنما المأجور من لا يستبد

ولا غرو فإن نكبة البرامكة معناها ضعف نفوذ الفرس وانتصار الحزب العباسي ، ولولا وقوع هذه الحادثة التاريخية التي أضعفت من نفوذ هذا الحزب وزادت في نفوذ الحزب العلوي ، وهي تولية الرشيد أولاده الثلاثة العهد : الأمين والمأمون والمعتز .

ذلك أن الفضل بن يحيى البرمكي حشّن للرشيد تولية ابنه محمد العهد ، وتمهد بأخذ البيعة له في خراسان ، فبايعه وسماه الأمين ، وكتب بذلك إلى الأمصار الإسلامية فبايعه الناس . وقد ذكر الطبري ^(١) أن الرشيد ولي الأمين عهده سنة ١٧٣ هـ ، وضم إليه الشام والعراق في سنة ١٧٥ هـ ، فقال النعماني الشاعر يحمد سياسة الرشيد ويشيد بمحامد الأمين :

أمتت بمرور على التوفيق قد صفقت على يد الفضل أيدي العجم والعرب
بيعة لولي العهد أحكمها بالنصح منه وبالإشفاق والحدب
قد وكد الفضل عقدا لا انتقاض له لمصطفى من بني العباس منتخب
وقال أبان بن عبد الحميد اللاهثي :

عزمت أمير المؤمنين على الرشيد برأى هدى فالخلة ذى الحميد

وقد اختلف العباسيون في هذه البيعة ، فبعضهم كان يميل إليها ، لأن الأمين ابن السيدة زبيدة وهي عربية عباسية ، وبعضهم لم يعجبه هذا العمل لأنه كان يتطلع إلى الخلافة بعد الرشيد لصغر سن الأمين ، وبعضهم كان لا يميل إلى المأمون لأن أمه كانت أم ولد من خراسان ^(٢) . ولكن الرشيد أحس أنه أخطأ بتولية ابنه الأمين عهده ، وهو أصغر من أخيه عبد الله (المأمون) ، وأنه فعل ذلك بتأثير زوجه زبيدة أم الأمين وميل بني هاشم ، لأن أمه هاشمية ، مع أنه لم يكن يصلح للخلافة ، لما عرف به من سوء التصرف والتبذير ، وميله إلى مشاركة النساء في الرأي ، وما عرف عن أخيه المأمون من الاستقامة وحسن التدبير وبعد النظر ، وما تحلى به من عزم المنصور ونسك المهدي وعزة نفس الهادي ^(٣) . ويظهر أن الرشيد أحس أنه تمجّل بتوليته ابنه الأمين دون عبد الله ، وأخذ يفكر في العدول عن هذا الرأي وتحويل هذه البيعة إلى عبد الله ، فبايع له في سنة ١٨٣ هـ وسماه المأمون ، وولاه من حد مهران إلى آخر المشرق .

روى السعدي عن الأصمعي ^(٤) أنه قال : « بينما أنا أسامر الرشيد ذات ليلة ، إذ رأيته قد فلق قلماً شديداً ، فكان يقعد مرة ، ويضطجع مرة ويبكي ثم أنشأ يقول :

(١) ج ١٠ ص ٧٢ (٢) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٥٣ .

(٣) السعدي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٢ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .

قُلْتُ أُمُورَ اللَّهِ ذَا ثِقَةٍ مَوْحَدَ الرَّأْيِ لَا يَنْكُصُ وَلَا يَزِيدُ
وَإِذَاكَ مَقَالَةَ أَقْوَامٍ خُذِي خَطْلًا لَا يَفْهَمُونَ إِذَا مَا مَعَشَرَ فَمِشَرُوا

فلما سمعت ذلك علمت أنه يريد أمرا عظيما ، ثم قال لمرؤان الخادم عليّ يحيى ، فإلبث أن
تقال : يا أبا الفضل ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات في غير وصية ، والإسلام سجّد ،
والإيمان جديد ، وكلمة العرب مجتمعة ، قد آمنها الله تعالى بعد الخوف وأعزها بعد الذل ،
فإلبث أن ارتد عامة العرب على أبي بكر ، وكان من خبره ما قد علمت ، وأن أبا بكر صير
الأمر إلى عمر فسلمت الأمة له ورضيت بخلافته ، ثم صيرها عمر شورى ، فكان بعده ما قد
بلغك من الفتن حتى صارت إلى غير أهلها .

وقد عنيت بتصحيح هذا العهد وتصديره إلى من أرضى سيرته ، وأحد طريقته ، وأثق
بحسن سياسته ، وأمن ضعفه ووهنه ، وهو عبد الله ، وبنو هاشم ما تلون إلى محمد بأهوائهم ،
وفيه ما فيه من الانقياد لهواه ، والتصرف مع طوبته ، والتبذير لما حوته يده ، ومشاركة
النساء ، والإمارة في رأيه . وعبد الله المرضى الطريقة الأصلية للرأى الموثوق به في الأمر العظيم ،
فإنّ ملت إلى عبد الله أسخطت بني هاشم ، وإن أفردت محمدا بالأمر لم آمن تخليطه على
الرعية . فأشر علىّ في هذا الأمر برأيك . مشورة بهم فضلها ونفعها ، فإني بك الحمد الله مبارك
الرأى لطيف النظر . فقال يا أمير المؤمنين ، إن كل زلة مستقالة وكل رأى يتلافى خلا هذا
العهد ، فإن الخطأ فيه غير مأمون ، والزلة فيه لا تستدرك ، وللنظر فيه مجلس غير هذا . فعمل
الرشيد أنه يريد الحلو ، فأمرني بالتشحي ، فقممت وقعدت ناحية بحيث أسمع كلامهما ، فما
زالا في مناجاة ومناظرة طويلة حتى مضى الليل ، وافترقا على أن عقد الأمر لعبد الله بعد
محمد .

هكذا ولي الرشيد عهده ابنه الأمين والمأمون . وفي سنة ١٨٦ هـ حج بيت الله مع وليّ
عهده ، وعلق الشرطين في الكعبة ^(١) . وفي ذلك يقول سكاك بن عمرو الخاضع : ^(٢)

بائع هارون أمام الهدى .	لنى الحيجا والخلق الفاضل
المخلف المتلف أمواله	والضامن الانتقال للحامل
والعالم الناقد في علمه	والحاكم الفاضل والمادل
والرائق الفائق حيلف الهدى	والقائل الصادق والقائل
لخير عباس إذا حصلوا	والمفضل المجدى على المائل
أمرهم يرا وأولام	بالمرف عند الحدث النازل
لمشبه المنصور في ملكه	إذا تدجنت ظلمة الباطل
فتنم بالمأمون نور الهدى	وانكشف الجهل عن الجاهل

(١) راجع نسخة المطبوع الذى كتبه عبد الله بن أمير المؤمنين بخط يده في الكعبة في الطبرى .
ج ١٠ ص ٧٦ - ٧٧ . (٢) الطبرى ج ٦ ص ٧٧ .

ولم يقتصر الرشيد على توليته ابنه الأمين والمأمون العهد ، بل قد تعدى الأمر إلى ابنه القاسم ، الذي ولاه عهده بعد الأمين والمأمون ، وصباه المؤمنين ، وولاه الجزيرة والثغور والمواصم . وهكذا قسم الرشيد الدولة العباسية بين أبنائه الثلاثة ، وهياً بذلك عوامل المنافسة والحسد بين هؤلاء الإخوة ، وغرس بذور الفتنة التي قامت بين الأمين والمأمون ، وأضعفت الحزب العباسي ، وهبأت السيل لتقوية الحزب العلوي في عهد المأمون كما سيأتي . وقد وصف الطبري (١) شعور الناس على اختلافهم في تولية الرشيد عهده فقال : « ولما قسم الأرض بين أولاده الثلاثة قال بعض العامة قد أحكم أمر الملك ، وقال بعضهم ، بل قد ألقى بأسهم بينهم ، وعاقبة ما صنع في ذلك مخوفة على الرعية ، وقالت الشعراء في ذلك ، فقال بعضهم :

أقول لفتنه في النفس منى	ودمع العين يطرد اطرادا
خذى للبول عدته يحزم	ستلقى ما سيمتلك الرقادا
فانك إن بقيت لقيت أمرا	يطيل لك المكآبة والنهادا
رأى الملك المهذب شر رأى	بقسمته الخلالة والبلادا
رأى ما لو تعقبه يعلم	ليص من كفارقه السوادا
أراد به ليقطع عن ابنه	خلافهم ويبتذلوا الودادا
فقد غرس العداوة غير آل	وورث شمل ألفتهم بدادا
وألقع بينهم حربا سخوانا	وسلس لاجتاهم القيادا
فويل للرعية عن قليل	لقد أهدى لها الكرب الشدادا
وألبسها بلا غير فان	وأرهبها التضعضع والفسادا
ستجري من دعائمهم محور	زواخر لا يرون لها كفادا
فوزر بلائهم أبدا عليه	أغيا كان ذلك أم رشادا

٢ - الفتنة بين الأمين والمأمون : كيف كانت هذه الفتنة جهادا خرياً بين الفرس أنصار المأمون من ناحية ، وبين العرب أنصار الأمين من ناحية أخرى .

قامت ببغداد في خلافة الأمين (١٩٢ - ١٩٨ هـ) فتنة جامعة ، حين عزم على خلع أخيه المأمون من ولاية العهد ، وشجسه على ذلك وزيره الفضل بن الربيع ، لأنه كان يخاف المأمون لما فعله عند وفاة الرشيد من إحضاره جميع عسكره إلى الأمين ، بعد أن كان الرشيد قد أوصى به للمأمون . لذلك حسن الفضل بن سهل للأمين خلع أخيه واليعة لابنه موسى ، ووافق الفضل في رأيه بعض الناس ، قال الأمين إلى أقوالهم ، على حين نهأ أصحابه وذو الرأي في بغداد عن ذلك ، وحذروه عاقبة التنبئ ونكث المهود والمواثيق ، وقالوا له على

رواية صاحب الفخرى^(١) : ، لاجمري القواد على النكث للامان وعلى الخلع فيخاموك ،^(٢) فلم يلتفت إليهم ومال إلى رأى الفضل بن الربيع ، وولى عبده ابنه موسى ، وسماه والناطق بالحق . وبذلك نكث الامين العهد والميثاق الذى أخذه على نفسه ، فأغضب الخراسانيين وغيرهم من أهالى الامصار الإسلامية ، وبخاصة أهالى الحجاز ، فقاموا فى وجهه واشتملت نيران الفتنة التى أودت بخلافته .

على أن الامين لما شرع فى خدع المأمون باستدعائه إلى بغداد ليقرأ على نفسه بالجلع ، لم ينجح فى ذلك . واعتد المأمون عن الحضور ، وكثرت الكتب بينهما ، ورقق الامين فى مراسلاته إلى أخيه حتى كاد يخذع ، ويوافق على خلع نفسه من ولاية العهد ومبايعه موسى ابن الامين . إلا أن الفضل بن سهل وزير المأمون شجعه على الامتناع ، وضمن له الخلافة : فقد اشتهر المأمون فى أثناء مقامه بخراسان بالورع والتقوى ، لحسن سيرته ، وتمدح الناس بذكره ، على حين انصرف الامين بعد اعتلائه عرش الخلافة الى اللهو والمجون . فلما ظهرت بوادر الفتنة استمال الفضل بن سهل الناس الى المأمون ، وضبط الثغور ، وقام بتفتيش الكتب الواردة الى خراسان ، وقبض على أعوان الامين ، كما قطع الامين خطبة المأمون من بغداد .

قامت الفتنة بين الأخوين . وهى فى الواقع نزاع حوى بين الفرس أنصار المأمون من ناحية ، وبين العرب أنصار الامين من ناحية أخرى . وقد قاد أمر هذا النزاع الفضل بن سهل وزير المأمون وكان فارسياً ، والفضل بن الربيع وزير الامين وكان عربياً . وسرعان ما تقلب طاهر بن الحسين قائد المأمون على جند على بن عيسى بن ماهان قائد الامين وقتله بظاهر الرى . وزاد مركز الامين حرجاً شغب الحسين بن على بن عيسى عليه وخلمه وحبيه ، وانتصار كثير من الجند له ، مما أدى إلى قيام الحروب بين جند الامين أنفسهم .

على أن سياسة الامين فى حكم السولة العربية قد جرت عليه سخط الناس ، حتى قال أحد الشعراء يصف ما آلت اليه حاله من الضعف ، ويتنبأ بنجاح المأمون وظفره بأخيه .

عجبت لمعشر يرجون نجحاً
أهاب إلى الضلال بهم غوى
وكادوا الحق والمأمون غدرا
وعاقبة الأمور له يقينا
وكيف يتم ماعقدوا وراموا
ورأس بناتهم منه الفجور^(٣)

وقد وضع حصار ببغداد وسقطها على أيدي طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين وهزم

(١) ص ١٩٤ .

(٢) أنظر نصيحة خزعة بن خازم للامين فى كتاب الحقائق للسيوطى ص ١٩٨ .

(٣) السمودى مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠٤ .

ابن المسيب ، هذا لهذا النزاع الذي انتهى بقتل الأمين . فقد نزل زهيرقة كلواذسى ، وحفر الخنادق ، ونصب المجانيق ، ورمى جند الأمين بالمرادات ، وأخذ عشر أموال التجار ، وجبى الضرائب على السفن . ونزل هرثة نهر د بين ، وجعل عليه حائطا وخندقا ، وأعد المجانيق ؛ ونزل طاهر البستان القريب من باب الأنبار . وكان من أثر هذا الحصار أن ضاق الأمين ذرعا . وسرعان ما نفذت أمواله واضطر لبيع كل مافي الخزائن من الأمتة ، وضرب مافي قصوره من أنية الذهب والفضة دنائير ودرهم لينفق منها على الجند ، ثم استولى طاهر على بعض أرباض بغداد ومدينة المنصور الشرقية وأسواق الكرخ ، وعلى قصر الخلد ، عدا أهل السجون والأوباش (١) .

ويظهر أن الأمين لم يقدر الظروف السيئة التي أحاطت به وبدولته . فقد أقبل برغم ذلك على اللهو والشراب ، واعتمد على قواده ، وعاث للصوص وقطاع الطرق في الأرض فسادا ، فتناولوا على الرجال والنساء والضعفاء ، في الوقت الذي أحكم طاهر بن الحسين خطته لفتح بغداد ، وأمر جنده بمحسنة معاملته الضعفاء والنساء بما كان له أثر يذكر في تحول كثير من رعايا الأمين إلى جانب قائد المأمون ، وعلى رأسهم محمد بن عيسى صاحب شرطة الأمين ، وعبد الله ابن حميد بن قحطبة ، ويحيى بن علي بن ماهان .

وقد اشتد البلاء بأهل بغداد ، وساءت حالهم ، فخرج منها كل من قدر على الخروج ، وأصبحت حاضرة العباسيين على حد قول الشاعر الذي رثاها في هذه الآيات :

بكيف دما على بغداد لما فقدت حضارة العيش الآتيق
تبدلنا هموما من مرور ومن سعة تبدلنا بضيق
أصابتنا من الحساد عين فأنفت أهلها بالمتجنيق
فلا ولد يقيم على أبيه وقد هرب الصديق بلاصديق (٢)

اتصر جند الأمين على جند طاهر بن الحسين في موقعة د درب الحجارة ، التي قتل فيها خلق كثير ، وهزم هرثة في موقعة د باب الشماسية ، على يد رجل من المرأة ، (٣) ، لولا أن حمل بعض أصحاب هرثة على هذا الرجل وقطع يده ، وخلصه ، فر منهزما ، وبلغ خبره أهل عسكره ، فدب إلى نفوسهم اليأس وفروا نحو حلوان لايلوون على شيء ، وقويت بذلك الغزاة واشتد خطرهم (٤) ، وأصبح طاهر بين نارين : إما أن يفر فيلحق به عار الهزيمة ، وإما أن

(١) الطبري ج ١٠ ص ١٧٤ - ١٧٦ . أنظر ماورد في الباب السابع من بناء مدينة بغداد .

(٢) الطبري ج ١٠ ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٣) قيل في تلك الموقعة أشعار كثيرة ؛ من ذلك قول عمرو الوراق :

عريان ليس بنى قبس يسدو على طلب القبيس
يسدو على ذي جوشن يعنى النيون من البعيس

(٤) قس المصدر ص ١٨١ - ١٨٨ .

الطبري ج ١٠ ص ١٨٨

يحارب حتى يكتب له النصر . ثم أمر طاهر بأحراق مدينة بغداد وهدمها .
ويقول الطبري (١) أن طاهر بن الحسين هدم « دور من خالقه ما بين دجلة ودار الرقيق
وباب الشام وباب الكوفة إلى الصراة ، وأرجاء أبي جعفر ورض حيد ونهر كرخايا والكشاسة ،
وجعل يبايت أصحاب محمد (الأمين) وبدا لهم ، ويحوى في كل يوم ناحية من بعد ناحية
ويتخذ عليها المراسد من المقاتلة . وجعل أصحاب محمد يتقصون ويريدون ، حتى لقد كان
أصحاب طاهر يهدمون الدار وينصرفون ، فتقلع أبوابها وسقوفها أصحاب محمد ، ويكونون
أضر على أصحابهم من أصحاب طاهر تنديا . وفي ذلك يقول أحد الشعراء :

إذا هدموا داراً أخذنا سقوفها ونحن لأخرى غيرها تربع
وإن حرصوا يوماً على الشرحهم ففروا فؤادنا منها على الشر أحرص
لقد أفسدوا شرق البلاد وغربها علينا فما ندرى إلى أين نشخص

ولكن أهل هذه الجهات لم يحفلوا بمآحل بهم من القتل ويهدم من التخریب والإحراق ،
ولم ير طاهر بدا من التضييق عليهم ، لحال دون وصول متاجرم ، واحتكر الدقيق ، فقلت
الأسعار واشتد البلاء .

ضعف أمر الأمين وتركه بعض قواده ، وأعاذوا مع بعض تجار الكرخ ووجوها إلى
طاهر بن الحسين ، وطلب الجند أرزاقهم ، فأمر الأمين ببيع ما بقي من التحف في خزائنه ، وغدا
مركزه من أخرج المراكز ، حتى إنه لم يعد يثق بأشد الناس اتصالاً به ، وعبر عن سخطه
وسوء حاله في هذه السكايات : « وددت أن الله عز وجل قتل الفريقين جميعاً وأراح الناس
منهم ، فامتهم إلا عدو من معنا ومن علينا . أما هؤلاء فيريدون مالي ، وأما أولئك
فيريدون نفسي » (٢) .

اشتد البلاء على بغداد ، وأيقن قواد الأمين أنه لا قبل لهم بمقاومة الحصار ، فنفثوا سوء
مصيرهم ، وأشار عليه جماعة منهم بالهرب إلى الجزيرة والشام ، وطلب التجنّد من أهلها ، وصادف
هذا الرأي قبولاً منه . ولكن طاهر بن الحسين كتب إلى سليمان بن جعفر ، وإلى محمد بن عيسى ،
 وإلى السندي بن شاهك : « والله لئن لم تقرّوه وتردّوه عن هذا الرأي ، لا تركت لكم ضيعة
إلا قبضتها ، ولا تكون لي همة إلا أنفسكم ، فدخلوا على محمد (الأمين) فقالوا : لقد بلغنا الذي
عزمت عليه ، فثمن نذكرك الله في نفسك . إن هؤلاء صنما ليك . وقد بلغ الأمر إلى ما نرى
من الحصار ، وضاق عليهم المذهب ، وهم يرون ألا أمان لهم على أنفسهم . وأمرناهم فنادوا
وعند طاهر وهرثة ، لما قد انتشر عنهم من مباشرة الحرب والجد فيها . ولستنا نأمن إذا برزوا

(١) الطبري ج ١٠ ص ١٨٤ .

(٢) نفس المصدر ج ١٠ ص ١٩٠ .

بك وحصلت في أيديهم ، أن يأخذوك أسيراً ، ويأخذوا رأسك ، فيقتربوا بك ويجعلوك سبب أمانهم ، وضرروا له فيه الأمثال ^(١) .

واختلف أصحاب الأمين في الرأي : فطلب من هرمة أن يتوسط في إصلاح ذات البين بينه وبين أخيه المأمون ، على أن ينزل له عن الخلافة ، فكتب إليه كتاباً يقول فيه : قد كان ينبغي لك أن تدعو إلى ذلك قبل أن يتفاقم الأمر . أما الآن فقد جاوز السيل الزبي ، وشغل الحنئ أهله أن يعار ، ومع ذلك . . . فاني لا ألزجهداً في كل ما عاود بصلاح حالك وقربك إلى أمير المؤمنين . فلما سمع الأمين ذلك استشار أصحابه ، فأشاروا عليه بالقبول طمعا في الإبقاء عليه . فلما جن الليل لبس لباس الخلافة ، وسار في الحزقة إلى هرمة ، فخرج طاهر وأصحابه فرموا الحزقة بالسهم ، فألقى الأمين بنفسه في الماء ، وركض إلى الشاطئ ، فحمل عليه بعض رجال المأمون وقتلوه وأخذوا رأسه ، فبعث به طاهر بن الحسين إلى المأمون مع البردة والتضييب والسيف ^(٢) .

على أننا إذا دققنا النظر في هذه الفتنة : رأينا أن الرشيد كان السبب في هذه التكبيلات لأنه :
أولاً — ولي الأمين دون المأمون مع أنه أكبر منه سناً .

ثانياً — أعطى المأمون امتيازاً كبيراً فيما أقطعه إياه ، فاستطاع أن يتاوى الأمين ويتنبل عليه ، فقد تولى الأمين على العراق والشام ، وتولى المأمون على بلاد الفرس ، وتولى المؤمن على بلاد المغرب ومصر .

ثالثاً — أن الأمين مال إلى تولية ابنه دون أخيه .

أما الأمين فان خلعة وقته يرجع إلى نكته العهد والميثاق ، وإخراجه أخاه المأمون من ولاية العهد ، ونقضه العهدين الذين تركهما أبوه . وفي ذلك ما فيه من انتهاك حرمة البيت المقدس . أضف إلى ذلك توليته عيسى بن علي بن عيسى الحرب في خراسان ، مع ما عرف عنه من القسوة في معاملة الأهلين ، مما ساعد على ثورة الناس عليه ، وانصراف الأمين عن أمور الخلافة واشتغاله باللهو والفتنة .

٣ — تولية المأمون علياً الرضا عهده .

إن العوامل التي حملت الخليفة المأمون على أن يولي عهده علياً الرضا بن موسى الكاظم ، وهو الإمام الثامن عند طائفة الإمامية الاثنا عشرية ، ثم ما كان بعد ذلك من موت ذلك العلوي بتدبير المأمون — على ما ورد في المصادر الشيعية — جذيرة بالبحث ، لما لها من العلاقة الوثيقة بتاريخ الشيعة من ناحية ، ثم بتاريخ الخليفة المأمون العباسي من ناحية أخرى .

(١) الطبري ج ١٠ ص ١٩٦

(٢) أنظر الطبري (ج ١٠ ص ١٩٧ — ٢٠٨) للوقوف على ما ذكره عن الفتنة التي قامت بين الأمين والمأمون .

اتفق جمهور المؤرخين - من الشيعة والسنيين - على ثلاث نقط أساسية ، لا شك في صحتها ، وهي أن المأمون ولى عهده علياً الرضا ، وأنه لبس الخضره شعار العلويين ، وأنه زوجة ابنته أم حبيب سنة ٢٠٢ هـ .

ولد علي الرضا سنة ١٥٠ هـ ، وكان على جانب عظيم من العلم والورع . وقد قيل لأبي نواس : علام تركت مدح علي بن موسى والحصال التي تجمعن فيه ؟ ، فقال : لا أستطيع مدح إمام كان جبريل خادماً لأبيه ، والله ما تركت ذلك إلا إعظاماً له ، وليس قدر مثل أن يقول في مثله .

قيل لي أنت أحسن الناس طمراً في فنون من الكلام النثية
لك من جيد القريض مديح يشر الدر في يدى مجتنية
فعلا ما تركت مدح ابن موسى والحصال التي تجمعن فيه ؟
قلت لا أستطيع مدح إمام كان جبريل خادماً لأبيه
ثم أُنشد بعد ساعة من هذه الآيات :

مطهرون نقيات جبرئيل يجرى عليهم ثناء أينما ذكروا
من لم يكن علوياً حين تنسبه فإله في قديم الدهر مفتخر
الله ما برا خلقاً فأنقته صفاكم واصطفاكم أيها البشر
فأتمم الملا الأعلى وعندكم علم الكتاب وما جلت به السور (١)

ويجمل بنا أن نسأل أي الفرضين أرجح : أكان شعور المأمون نحر علي الرضا شعوراً دينياً بحتاً ، الباعث عليه ، اقتناعه بأن بيت علي أحق بالخلافة من بيت العباس ؟ أم كان ذلك الشعور الديني يحمل بين ثناياه مشروعا سياسياً ، يرى إلى اكتساب المأمون ولاء الخراسانيين الذين أشربت قلوبهم حب العقائد الشيعية ، متأثراً بميوله الفارسية ، إذ كانت أمه وزوجه فارسيين ، فنسب على التشيع متأثراً بالفرس ؟

أما الجواب عن السؤال الأول ، فإن بعض المصادر تؤيد القول بأن المأمون كان مخلصاً في تودده العلويين ، جادا في تولية علي الرضا عهده ، وأن الذي حمله على ذلك هو إفراطه في التشيع حتى قيل : إنه لم يخلع نفسه ، وبأن يفوض الأمر إليه . . . وضرب الدرهم باسمه ، وخطب له مع الخليفة على المنابر ، وزوجه ابنته . . من ذلك ما ذكره محمد بن النعمان من أن المأمون أرسل الجلودى إلى المدينة ، وطلب إليه أن يبحث أفراد البيت العلوى على الرجل معه إلى مرو بحاضرة خراسان ، فلي الجلودى أوامر الخليفة وخص بالامر . فلما قدموا مرو استقبلهم المأمون في قصره ، واحتفل بهم ، وخص علياً الرضا برعايته وعطفه ، وأفرده ، ونزلا خاصاً به (٢) .

(١) ابن خلكان : كتاب وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٢١ - ٣٢٢ .

(٢) محمد بن النعمان : كتاب الارشاد ، مكتبة الجاسسة بليدن ، مخطوط رقم ١٦٤٧ ، ورقة ٢٢٢ ب .

ثم بعث المأمون في طلب الحسن والفضل ابني سهل ، وأسر إليهما عزمه على تولية الرضا عهده . وقد اختلف الاخوان في الرأي : فقاوم الحسن الفكرة أشد مقاومة ، وحذر المأمون مغبة الأخذ بهذه السياسة ، لما فيها من تحويل الخلافة إلى بيت علي ، فقال له المأمون : « إني عاهدت الله إن ظفرت بالخلوع ، أخرجته الخلافة إلى أفضل آل أبي طالب ، وما أعلم أحداً أفضل من هذا الرجل على وجه الأرض » (١) .

وكان الفضل يطمح إلى الاستئثار بالنفوذ في دولة المأمون ؛ غير أنه لما رأى أن هذا الأمر لا يتم له ، والعراق في أيدي طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين ، عمل على إقصائهما عما كانا يلبانه من البلاد ، حتى يضعف بذلك نفوذهما ، وولى أعياه الحسن بن سهل بلاد العراق . وقد عضد الفضل بن سهل فكرة تحويل الخلافة إلى بيت علي . يدل على ذلك ما كان من تدبير اغتيال الفضل بمرور قبل رحيل المأمون إلى بغداد ، ثم قتل الرضا بالسهم ، والمأمون في طريقه إليها .

وقد ذكر الطبري (٢) أن علياً الرضا لما قدم مرو أحسن المأمون وقادته ، وجمع رجال دولته وأخبرهم أنه قلب نظره في أولاد العباس وأولاد علي بن أبي طالب ، فلم يجد أحداً أفضل ولا أروع ولا أعلم منه . فولاه عهده ولقبه « الرضا من آل محمد » ، وأمر جنده بطرح السواد شمار العباسيين ، وكتب بذلك إلى الأفاق (وذلك لليتين خلتا من رمضان سنة ٢٠١ هـ) . فأحفظ ذلك نبي العباس ، ولا سيما منصور وإبراهيم ابني المهدي ، وامتنع أهل بغداد عن البيعة للرضا . ثم خاض الناس في خلق المأمون وأخذ البيعة لإبراهيم بن المهدي . وكان في جانب المأمون رجال كرهوا تولية علي الرضا المهدي ، وخافوا خروج الخلافة عن بيت العباس وعودها إلى بني فاطمة .

وفي مجمع حافل يضم الأشراف والأمراء ورجال الدولة ، أعلن الفضل بن سهل بالنيابة عن الخليفة ولاية عهد علي بن موسى الكاظم بعد المأمون . وبعد أسبوع أقيم احتفال كبير أقر فيه المأمون وابنه العباس بيعة الرضا . ثم وزعت الجوائز وأخلع على كبار رجال الدولة ، وعلى الشعراء الذين شادوا بفضائل الرضا وامتدحوا المأمون ، ومنح المأمون كبار عمال الدولة عطاء سنة ، وأجاز دعبل بن علي الخراساني الشاعر المشهور بخمسين ألف درهم ، وأجزل الوزير عطاءه . ومن هذه القصيدة التي أذاعت ذكر دعبل بين شعراء عصره كما تقدم :

ذكرت محل الربع من عرفات فأسبأت دمع العين بالهرات
مدارس آيات خلت من تلاوة ومثزل وحى مقفر العرصات

(١) النيسبي : كتاب مطالب السؤل في غزوات الرسول . مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط رقم ١٩٧٩ ورقة ٢٢٢ (١) .

(٢) ج ١٠ ص ٢٤٢ .

ويرى بعض المؤرخين أن علياً أفضل الخلفاء الراشدين ، ويمزو بعض آخر ذلك إلى عوامل سياسية ليس غير ؛ ذلك أن الفرس كانوا يعتقدون أن العلويين هم وحدهم أحق بحمل التاج ، لصفتهم المشتركة من آل ساسان وآل علي ، لأن أولاد الحسين بن علي من ابنة يزجورد الثالث . وقد كتب المأمون بذلك إلى الأمصار الإسلامية ، وأمر المسلمين لبس الحضرة شعار العلويين بدل السواد شعار بني العباس . وليس من عجب في ذلك ، فقد كان المأمون نفسه متأثراً بالمقائد الفارسية ، لأن أمه كانت خراسانية ، ولأنه بعمله هذا يستطيع أن يكتسب رضا الفرس وإخلاصهم ؛ فكان عمله هذا سياسياً أكثر منه دينياً . يدلك على ذلك أن الناس يبتدأ هاجوا ، وأدلو بالحلقة إلى إبراهيم بن المهدي ، فبقي فيها ستين تقريباً (٢٠٢ - ٢٠٤ هـ) .

أما عن السؤال الثاني ، وهو هل كان ذلك الشعور الديني يحمل بين ثناياه مشروعا سياسياً يرمي إلى اكتساب ولاء الخراسانيين المتشيعين ؟ فالجواب عنه أن بعض مؤلفي المصادر الشيعية والسنية يرى أن تولية المأمون علياً الرضا ولاية العهد لم تكن لإسباية منه ، لاستئالة قلوب الخراسانيين . فإن العلاقة التي كانت بين المأمون وعلى الرضا ، والتي كان ظاهرها الإخلاص والمحبة ، لم تلبث أن تغيرت ، لما كان يرآه المأمون من التفاف الخراسانيين حول علي الرضا ، وما كان يخشاه من تحول الحلقة عنه إلى العلويين ، إذا هو تورط في هذه السياسة . يدل على ذلك هذه العبارة التي نقلها عن كتاب « مطالب السؤل في غزوات الرسول (١) » . « وما تلقته الأسماع وتقلت الألسن في بقاء الأصقاع ، أن الخليفة المأمون وجد في يوم عيد انحراف مزاج أحدث عنده ثقلا عن الخروج إلى الصلاة بالناس ، فانتدب أبا الحسن علياً الرضا للصلاة بالناس ، فخرج وعليه قبص قصير أبيض وعمامة بيضاء ، وهي من قطن ، وفي يده قضيب . فأقبل ماشياً يقوم المصل على وهو يقول : السلام على أبوي آدم ونوح ، السلام على أبوي إسماعيل وإبراهيم ، السلام على أبوي محمد وعلى ، السلام على عباد الله الصالحين . فلما رآه الناس هرعوا إليه واثالوا عليه لتقبل يده . فأسرع بعض الحاشية إلى الخليفة المأمون وقال له : يا أمير المؤمنين تدارك الناس وأخرج وصل بهم ، وإلا خرجت الحلقة منك الآن . (٢) لحمله هذا الأمر على الخروج بنفسه ، وجاء مسرعاً والرضا لم يخلص إلى المصل ، لكثرة ازدحام الناس عليه ، فتقدم المأمون وصلى بالناس » .

ولو رجعنا إلى بعض المصادر الشيعية ، فانتا تحف منها على أن العلاقة بين المأمون وبين علي الرضا لم تكن قط على شيء من الصفاء . فقد كان الرضا يكثر من وعظ المأمون إذا خلا به

(١) النسخة ورقة ١٢٤ ب .

(٢) وقد ذكر محمد بن النعمان (مخطوط رقم ١٦٤٧ ورقة ١٣٢٠) أن الفضل بن سهل الوزير هو الذي أسرع إلى المأمون وأخبره بخطورة المركز وما كان من شغب الناس .

ويخوفه بالله عز وجل، ويقتسح ما يرتكبه من خلافه . وكان المأمون يظهر قبول ذلك منه ويطن كرامته له . على أننا لا نستطيع الجزم بأن ما ذكرناه مستمد من جميع المصادر الشيعة التي رجعنا إليها ، لأن بعض المؤرخين لم يذكر شيئاً عن فساد العلاقات بين المأمون والرضا ، وإنما اقتصروا على القول بأن المأمون هو الذي دبر موت علي الرضا .

قال القفطي في كتابه « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » (١) : « قال عبد الله بن سهل بن نوح بن الحنبل ، وهو منجم مأمون كبير القدر في صناعته ، يعلم المأمون قدره في ذلك — وكان لا يقدم إلا عالماً مشهوداً له بعد الاختيار — وكان المأمون قد رأى آل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب متخشين متخفين من خوف المنصور ومن جاء بعده من بني العباس ، ورأى العوام قد خفيت عنهم أمورهم بالاختفاء ، فظنوا بهم ما يظنون بالأنبياء ، ويتفوهون في صفتهم بما يخرجهم عن الشريعة من التعالى . فأراد معاينة العامة على هذا الفعل ، ثم فكر أنه إذا فعل هذا بالعوام زادهم إغراء به ، فنظر في هذا الأمر نظراً دقيقاً وقال : لو ظهروا للناس ورأوا فسق الفاسق منهم وظلم الظالم ، لسلطوا من أعينهم ، ولانقلب شكرهم لهم ذماً ، ثم قال : إذا أمرناهم بالظهور خافوا واستتروا وظنوا بنا سوماً ، وإنما الرأي أن نقدم أحدهم ونظهر لهم إماماً . فإذا رأوا هذا أنسوا وظهروا وأظهروا ما عندهم من الحركات الموجودة في الآدميين ، ويحقق للعوام حالهم وما هم عليه مما خفي بالاختفاء . فإذا تحقق ذلك أزلت من أفتة ، ورددت الأمر إلى حالته الأولى . وقوى هذا الرأي عنده ، وكتم باطنه عن خواصه ، وأظهر للفضل بن سهل أنه يريد أن يقيم إماماً من آل أمير المؤمنين (علي بن أبي طالب) صلوات الله عليه . وأفكر هو وهو فيمن يصلح ، فوقع إجماعهما على الرضا . فإذا أفضله بن سهل في تقرير ذلك وترتيبه ، وهو لا يعلم باطن الأمر ، وأخذ في اختيار وقت لبيعة الرضا ، فاختار طالع السرطان وفيه المشتري . قال عبد الله بن سهل بن نوح بن الحنبل : أردت أن أعلم نية المأمون في هذه البيعة ، وأن باطنه كظاهرة أم لا ، لأن الأمر عظيم ، فأنفذت إليه في هذه قبل المقدرة مع ثقة من خدمه — وكان يحيى في مهم أمره — وقلت له إن هذه البيعة في الوقت الذي اختاره ذو الرياستين لآتم بل تنقص ، لأن المشتري ، وإن كان في الطالع في بيت شرفه ، فإن السرطان برج منقلب . وفي الرابع — وهو بيت العافية — المريح ، وهو نحس . وقد أغفل ذو الرياستين هذا . فكتب المأمون إلى : قد وقعت على ذلك ، أحسن الله جزاءك ، فاحذر كل الحذر أن تقيه ذا الرياستين على هذا ، فإنه إن زال عن رأيه علمت أنك أنت المنبه له . فهم ذو الرياستين بذلك . فآزلت أصوب رأيه الأول خوفاً من اتهام المأمون لي ، وما أغفلت أمري حتى مضى أمر البيعة ، فسلنت من المأمون » (٢) .

(١) ص ٢٢١ — ٢٢٣ .

(٢) ص ٢٢١ — ٢٢٣ .

وإذا صح ما قيل من أن شعور المأمون نحو آل على كان شعوراً دينياً ، يحمل بين ثناياه مشروعا سياسيا ، يرى إلى اكتساب ولاء الخراسانيين الذين أشرب قلوبهم حب العلويين - إذا صح ذلك تبين لنا أن المأمون لم يرد بهذا العمل إلا اكتساب رضا الناصر الخراساني وحتم العلويين إلى صفه ، وتهدة الخواطر ، وأنه لم يكن مخلصاً في تحويل الخلافة إلى العلويين ، وأن هذا لم يكن إلا سياسة دعت إليها الضرورة وسياسة الملك . ولا أدل على ذلك من نقضه كل ما أيرم من تولية الرضا عهده حيناً أمكنته الفرصة .

وانتهى الأمر بتلك المسألة التاريخية ، وهي اغتيال كل من الفضل بن سهل وعلى الرضا ؛ فقد هاج الناس ببغداد واما جوا ، وغرقت حاضرة العباسيين في ليج القوضى ، وخاض الناس في خلع المأمون ، وفكروا في تولية إبراهيم بن المهدي ، كما تقدم ، ولقبوه المبارك . وقد كتب الحسن بن سهل إلى أخيه الفضل - وقد أحس بما أضره المأمون له من الشر - ينصح له بأن يحتاط لنفسه خشية الاغتيال وقال في كتابه : « إني نظرت في تحويل السنة ، فوجدت فيك أنك تذوق في شهر كذا يوم الأربعاء حر الحديد وحر النار . وأرى أن تحجم أنت وأمير المؤمنين والرضا عن دخول الحمام في هذا اليوم ليزول عنك نحسه . » ودخل الفضل الحمام في يوم الأربعاء الذي حذره منه أخوه ، فقبض عليه جماعة من الرجال واغتالوه (١) .

ويظهر أن كتاب الحسن بن سهل لم يصل إلى أخيه الفضل قبل يوم الأربعاء المشؤم ، وأنه أرغم على دخول الحمام بعد أن وصل إليه الكتاب .

وإن صحت هذه الرواية ، فقد لهج الحسن بن سهل بما كان سائدا في البيت العباسي ببغداد ، وبما كان من هياجهم على المأمون ، لتوليته رجلا من العلويين ، وعملهم على التخلص من المأمون والرضا والفضل .

وكان للفضل بن سهل شعبة قوية تؤيده وتنصره . فلما رأوا ما حل به ، اتهموا المأمون ورموه بالاشترك في المؤامرة ، وشغب قواد خراسان وجنودهم وغيرهم من أنصار الفضل على الخليفة ، وتجمعوا ببابه وهو باحراقه . ولما رأى المأمون أن حياته مهددة بالخطر ، طلب إلى علي الرضا أن يركب إلى الثوار ويصرفهم . وكان الرضا هو الوسيلة الوحيدة لنجاة الخليفة وتهدة الخواطر لمحبة أهل خراسان له ، وصدقهم في الإخلاص لطاعته . ولا غرو فإن إشارة واحدة منه كانت كفيلة بهدة خواطر الثائرين وعدوهم عن رأيهم .

هكذا مات الفضل بن سهل وتفرق أنصاره ، ونجا الخليفة بما كان يتهدده من الخطر في ذلك الظرف المصيب . وبموت الفضل بن سهل لم يبق أمام المأمون إلا على الرضا ؛ فلتنظر كيف تخلص منه .

اختلفت كلمة المؤرخين في كيفية قتل على الرضا ، فمنهم من ذكر أن المأمون دس له السم في

عنقود من العنب أو في بعض الأشربة ، وذكر محمد بن النعمان^(١) أن المأمون أمر أحد رجاله أن يطلع أظفاره ، وألا يطلع أحدا على ذلك ، ثم استدماه ، فأخرج إليه شيئا يشبه الترمذى وقال له : « لعجن هذا بيدك جميعا » ، ففعل . ثم دخل على الرضا ، فكلّم المأمون بما أغضبه ، فصاح المأمون بأحد غلمانه ، وأمره أن يقدم إلى الرضا ماء الرمان (أو عصير الترمذى على الأصح) ، ثم سقاء المأمون للرضا ، فلم يلبث إلا يومين حتى مات . وقد ذكر ابن أبي الصلت ، الذي روى محمد بن النعمان هذه الحكاية عنه ، أنه دخل على عليّ الرضا ، وقد خرج المأمون من عنده فقال : يا أبا الصلت ! لقد فعلوها والله ، وجعل يوحّد الله . وقد روى لنا هذا المؤرخ نفسه رواية أخرى عن كيفية موت الرضا ، فذكر أنه كان يحب العنب ، فأخذ له شيء منه . فجعل في موضع ألقاه الأبرأ يأما ، ثم زعت وجيء به إليه ، فأكل منه وهو في علته التي ذكرناها فقتله . ومن الواضح أن هذه الروايات متهمة لأنها جاءت من مصدر شيعي ، على حين سكّث معظم المصادر الموثوق بها عن ذكرها .

وقد اتفق المؤرخون على أن المأمون أظهر عند وفاة الرضا أحق مظاهر الحزن . وهكذا نهجت سياسة المأمون ، فاغتيل الفضل بن سهل ، وقتل على الرضا بالسم ، ودفن في سنا باز من أعمال طوس ، التي دفن فيها الرشيد ، وحرّم ابنه محمد ولاية العهد بعد أبيه ، وطاد المأمون ثانية إلى السواد شعار العباسيين .

وقد كانت سياسة المأمون نحو العلويين تتطوّر على كثير من المطف والمسامح . ويظهر لنا ذلك بما رواه صاحب الفخرى^(٢) عن خروج محمد بن جعفر الصادق على المأمون فقال : « وفي أيامه خرج محمد بن جعفر الصادق عليهما السلام بمكة ، وبويع بالخلافة ، وسموه أمير المؤمنين . وكان بعض أهله قد حسن له ذلك ، حين رأى كثرة الاختلاف بينفداد ، وما بها من الفتن وخروج الخوارج . وكان محمد بن جعفر شيخاً من شيوخ آل أبي طالب ، يقرأ عليه العلم ، وكان (قد) روى عن أبيه عليه السلام علما جما ، فكثرت بمكة مدة . وكان الغالب على أمره ابنه وبعض بني عمه ، فلم تصمد سيرتهما ، وأرسل المأمون عسكرياً ، فكانت الغلبة له ، وظفر به المأمون وحفا عنه .

ومهما يكن من شيء ، فقد أجمعت المصادر الشيعية والسنية على أن المأمون كان يطف على العلويين ، ويرى أن الخلافة قد اغتصبت منهم ؛ وكان يعترف بحسن معاملة العلويين لأبناء عمهم العباسيين .

(١) كتاب الارشاد ورقة ٢٣١ ب — ٢٣٢ ا

(٢) ص ٢٠١ .

أنظر مقالة المؤلف « المأمون وعلى الرضا » ، بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب ، المجلد الأول ، الجزء الأول ، مايو سنة ١٩٣٣ .

فقد روى السيوطي^(١) أن المأمون قال يوما وقد سئل عن سبب بره بالملويين : « إنما فعلت ما فعلت ، لأن أبابكر لما ولي ، لم يول أحدا من بني هاشم شيئا ، ثم عمر ثم عثمان كذلك . ثم ولي علي قولي عبد الله بن عباس البصرة ، وعبيد الله اليمن ، ومعبدا مكة ، وقثم البحرين ، وماترك أحدا منهم حتى ولاء شيئا ، فكانت هذه في اعتناقنا حتى كافأته في ولده بما فعلت » .

وليس أدل على حب المأمون لأولاد علي بن أبي طالب من هذه الوصية التي أوصى بها أخاه المعتصم قبل وفاته ، ننقلها عن الطبري^(٢) : « وهؤلاء بنو عمك من ولد أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه ، فأحسن صحبتهم ، وتجاوز عن سيئتهم واقبل من محسنهم ، وصلاتهم فلا تغفلها في كل سنة عن عملها ، فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى » .

وقد ظل المأمون يعامل الملويين معاملة تتفق مع ما كان يستفده في فضل علي بن أبي طالب ، إلى أن خرج في سنة ٢٠٧ هـ بيلاد الحسن بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي ابن أبي طالب ، فيمت إليه المأمون أحد رجاله في جيش كثيف فأمنه ، وعاد به إلى المأمون ، فأمر بمنع المأمون العلويين من الدخول عليه ، كما حرم عليهم لبس السواد .

هـ - ظهور المنصر التركي :

اعتمد الأمويون على المنصر العربي ، فأستدوا إليهم أهم مناصب الدولة ، كما اعتمدوا عليهم في الشؤون الحربية ، ولم يساؤروا بينهم وبين العجم ، وخاصة الموالي من الفرس الذين عملوا على التخلص من الأمويين ، وأخذوا ينضمون إلى الثائرين عليهم ، وكانوا من أقوى العوامل في القضاء على الأمويين كما رأينا . ولما آل الأمر إلى العباسيين ، اعتمدوا على هؤلاء الموالي ، الذين قامت دولتهم على اكتافهم ، وأخذوا عنهم كثيرا من نظم الحكم التي كانت سائدة في العهد الساساني ، وأعملوا المنصر العربي إعمالا ظهر أثره في بعض الحركات التي كانت نتيجة سحق المنصر العربي على المنصر الفارسي . ومن أقوى الأمثلة على ذلك تأمر الفضل بن الربيع على البرامكة . ثم قامت الفتنة بين الأمين والمأمون ، فكانت في الواقع انتصارا للفرس على العرب ، وذلك نتيجة لذلك العداء القديم الذي قام بين العرب والفرس . ولما ولي المعتصم الخلافة ، وكانت أمه تركية ، أعمل المنصر العربي والفرسي ، واعتمد على الأتراك الذين اتخذهم حرسا له ، وأستد إليهم مناصب الدولة ، كما فعل أخوه المأمون مع الخراسانيين . وكان المعتصم بذلك أول خليفة عباسي استعان بالأتراك وأستد إليهم مناصب الدولة . ويقول السيوطي^(٣) : « إنه (أي المعتصم) اعتمد باقتناء الترك ، فبعث إلى سمرقند وفرغانة والنواحي في شرائهم ، وبذل فيهم الأموال ، وألبسهم أنواع الديباج ومناطق الذهب . وكان المعتصم يرى أن دولته الواسعة لا بد أن يقوم بحراستها جيش قوى ، فاستكثر من

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٠٥ . (٢) ج ١٠ ص ٢٩٥ . (٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٢٢ .

الأتراك، لأن أمه كانت تركية، وكانوا يجلبون من أسواق الرقيق في بلاد ماوراء النهر. واتخذ من حسن هندامهم وجمال منظرهم وشجاعتهم وتمسكهم بأهداب الإسلام، سببا للاعتماد عليهم، فولام حراسة قصره، وأسند إليهم أعلى المناصب، وقدم الولايات الكبيرة، وأدر عليهم الهبات والأرزاق، وآثرهم على الفرس والعرب في كل شيء. (١).

ومالبت أن تقام نفوذ هؤلاء الأتراك، وزاد عددهم حتى أربى على الحسين ألفا، كما يقول المؤرخ جيبون Gibbon (٢). وكان هؤلاء الأتراك يرسلون إلى الخلفاء العباسيين مع الهدايا التي كان يبعث بها الولاة من بلاد ماوراء النهر. ومن هؤلاء الأتراك طولون ابو احمد ابن طولون الذي أهداه والى هذه البلاد إلى الخليفة المأمون. وكان هؤلاء الأتراك يتدفعون ستة بعد ستة على أسواق بغداد، حتى كثر عددهم، واستطاعوا أن يصلوا من هذه الأسواق إلى بلاط الخلفاء ثم إلى الجيش أخيراً.

وكان الشباب التركي يحصل على حريته إذا ما أخلص في خدمة مولاه، وقد جرت العادة أن يصل إلى المناصب الكبيرة في البلاط العباسي. وأخذ هؤلاء الأتراك، الذين كانوا يميدين عن الحضارة والعلم، يندمجون في طبقات الأمراء المثقفين، فاعتنقوا الإسلام وتأدبوا بأدابه، وتعلموا العربية، ووقفوا على أحكام القرآن، ودرسوا العلوم الطبيعية والسياسية. حتى إذا ما أصبح أحدهم ذا كفاية تؤهله للانضلاع بشئون الدولة أو القيام بأعباء المناصب العالية في البلاط، تحرر من عبوديته، وتولى المنصب الذي يتناسب مع كفاءته ومواهبه. ومن ثم رشعوا للمناصب على اختلافها، ووصلوا إلى أعلى مراتبها، من الاندماج في سلك البلاط، إلى تقلد أكبر الولايات.

وقد بلغ من نفوذ هؤلاء الأتراك أن أخذ الخلفاء يقطعونهم الولايات الإسلامية، على أن يؤدوا لدار الخلافة جرية معينة، على نحو ما كان متبعاً في نظام الإقطاع تقريباً، ذلك النظام الذي ذاع في أوروبا في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين.

وقد جرت العادة أن يستخلف هؤلاء الأتراك نواباً عنهم، يحكمون هذه البلاد باسمهم، فكانوا يدعون لهم بعد الخليفة وينشئون اسمهم على السكة. وكان هؤلاء الأتراك من كبار رجال البلاط العباسي. ولم يكن من السهل أن يتركوا دار الخلافة في بغداد أوسامراً، وما فيها من نعم وترف، ثم يأتون إلى هذه الولايات للإقامة فيها. ويقول ستانلي لينبول في كتابه « تاريخ مصر في العصور الوسطى » (٣): « إن هذا الانقلاب من الحكم العربي إلى الحكم التركي، كان مظهرأ من مظاهر الثورة التي أحس بها معظم أجزاء الخلافة، وأدت إلى إضعاف سلطة الخليفة وذوالها في النهاية ».

(١) النظم الإسلامية للبؤلف ص ٢٢٩ .

(٢) Gibbon: Decline & Fall of the Roman Empire vol. IV, p. 47.

(٣) History of Egypt in the Middle Ages, p. 29

ومن ذلك الوقت الذى التحم فيه العرب بالأتراك على صفاف نهر سيحون ، واضعى هؤلاء تحت النفوذ العربى ، صار هؤلاء الأسرى مجال فسيح فى الأسر الإسلامية : بقوة أبدانهم ، وجمال طلعتهم ، وشجاعتهم وأمانتهم ، كل هذه الصفات قد أكسبتهم ثقة كبار الأمراء من العرب وخاصة الخلفاء ، الذين اعتقدوا أنهم باعتمادهم على أمانة هؤلاء الأجانب الذين اشتروهم بالمال ، يكونون أكثر طمأنينة على أنفسهم من اعتمادهم على أبناء جلدتهم من العرب ، الذين عرفوا بالغيرة والحسد ، أو على الفرس الذين تقاضم نفوذهم حتى عده الخلفاء العباسيون مهدداً لسكان دولتهم وسلاحتها ، وكان لهم إلى ذلك الوقت نصيب كبير فى إدارة شئون الدولة العربية .

ولم يلبث الأتراك أن أصبحوا آفة على أهل بغداد ، الذين عانوا من عتسهم وجورهم شيئاً كثيراً . ويقول المسعودى ^(١) : « وكانت الأتراك تؤذى العوام بمدينة السلام ، يجرهم بالحيل فى الأسواق ، وما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك . فكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمه لامرأة أو شيخ كبير أو صبي أو ضرير » . وقد زاد الطيرى ^(٢) هذه المسألة بياناً فقال : « إن غلامه الأتراك كانوا لا يزالون يجدون الواحد بعد الواحد منهم قتيلاً فى أرباضها ، وذلك أنهم كانوا عجماء جفاة ، يركبون الدواب فيترافسون فى طرق بغداد وشوارعها ، فيصدمون الرجل والمرأة ، ويطنون الصبي فيأخذهم الأبناء ^(٣) ، فيكسونهن عن دوابهم ويهرحون بعضهن ، فرمى هلك من الجراح بعضهن . فشكت الأتراك ذلك إلى المعتصم ، وتأذت بهم العامة . فذكر أنه رأى المعتصم ركباً منصرفاً من المصلى فى يوم عيد أضفى أو فطر ، فلما صار فى مربعة الحرشى ، نظر إلى شيخ قد قام إليه فقال له : يا أبا إسحق ! فابتدته الجند ليضربوه ، فأشار إليهم المعتصم فكفهم عنه ، فقال للشيخ مالك أقال : « لا جراك الله عن الجوار خيراً ، مجاورتنا وجئت هؤلاء العلوج ^(٤) فأكسبتهم بين أظهرنا ، فأبتمت بهم ضيائنا ، وأرطط بهم نسواننا ، وقتلت بهم رجالنا ، والمعتصم يسمع ذلك كله » .

وكان من أثر ازدياد نفوذ الأتراك أن حقد عليهم العرب وتأمرؤا على المعتصم والأفشين وأنشأ ^(٥) وغيرهم من قواد الأتراك ، وأثار عفيف بن عنبسة القائد العربى العباس بن المأمون على عمه المعتصم . ولكن المعتصم ، وإن كان قد قضى على العباس وعفيف ، وأقصى

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤٩ (٢) ج ١٠ ص ٣١١ .

(٣) الأبناء هم البقية الباقية من الفرس الذين طردوا الأحياء من أين أيام سيف بن ذى يزن ، الذى استعبد بكسرى أو شروان ، فأرسل معه قائده وهريرز .

(٤) العلج حمار الوحش الغليظ ، ورجل علج أى شديد .

(٥) ذكر الطيرى (ج ١٠ ص ٣٠٧) عمراً من هؤلاء الأتراك ورد فى قصيدة أحد شعراء

الزما ، ينقل منها هذين البيتين .

فاستصروا البلد من أبناء دوليتكم
ومن شناس وأفشين ومن فرج
من يازمان ومن بلج ومن توز
المسلمين بدينار واربز

العرب من منازب الدولة المدنية والعسكرية ومن ديوان العطاء ، إلا أنه أتاح بذلك الفرصة للأتراك فراد نفوذهم ، وأصبحوا خطراً على الخلفاء العباسيين وعلى الدولة العباسية .
وقد استفحل خطر هؤلاء الأتراك ، حتى قيل إن المعتصم نفسه شكاً من قوادهم في أوأخر أيامه . ولو استعان بقواد العرب لآتبع له استعادة سلطان الخلافة . ويقول الطبري (١) :
إن المعتصم عبر عن أسفه لاعتماده على هؤلاء الأتراك في هذه العبارة التي خاطب فيها أحد جلسائه فقال : « في قلبي أمرأنا مفكر فيه منذ مدة طويلة . نظرت إلى أخى المأمون وقد اصطنع أربعة أنجبوا ، واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم . قلت : ومن الذين اصطنعهم أخوك ؟ قال طاهر بن الحسين ، فقد رأيت وسمعت ، وعبد الله بن طاهر ، فهو الرجل الذي لم ير مثله ، وأنت ، فأنت والله الذي لا يمتاض السلطان منك أبداً ، وأخوك محمد بن إبراهيم وابن مثل محمد ؟ وأنا ، فاصطنعت الأقباشين ، فقد رأيت إلى ما صار أمره ، وأشئنا ، ففشل أخيه ، وإرتاح فلا شيء ، ووصيف فلا معنى فيه . فقلت يا أمير المؤمنين أعزك الله : نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها ، فأنجبت فروعها ، واستعمل أمير المؤمنين فروعاً ، فلم تنجب ، إذ لا أصول لها . قال يا اسحق المقاساة ما نرى في طول هذه المدقة أسهل على من هذا الجواب .
على أن قوة شكيمة المعتصم قد حدثت من نفوذ الأتراك . فلما مات ، وولى الخلافة بعده ابنه الواثق ، أخذ هؤلاء يتدخلون في أمور الدولة ، حتى أصبح مكتوف الأيدي مسلوب السلطة . ولما ولى المتوكل الخلافة حاول أن يكف أيديهم فقتلوه ، وصار ابنه المنتصر ، الذي اشترك معهم في قتله ، طوع بناتهم ، وأصبحت الدولة العباسية ميداناً للقوضى والدسائس ، وغدا في أيدي هؤلاء الأتراك أمر تولية الخليفة وعزله ، أو حبيسه وقتله .
على أن ظهور المنتصر التركي قد أدى إلى إخماد نار الخصومة بين الفرس والعرب حيناً ، وبين العلويين والعباسيين حيناً آخر ، لأنه استأثر بالامر دون الفريقين ، ولم يكن يحفل بأولئك أو هؤلاء .

ومن هنا بدأ ظهور الدول المستقلة وشبه المستقلة في أطراف الدولة العباسية : كالصغارية والسامانية والغزنوية ، والعلوية بطبرستان ، والأغلبية بتونس ، والفاطمية ببلاد المغرب ، والطورونية والإخشيدية بمصر ، وبنو أمية بالأندلس ، والزيدية باليمن .

(١) ج ١١ ص ٨ — ٩ .

(١) النظم الإسلامية للمؤلف ص ٢٣٩ .

النبأ السراج

العلاقات الخارجية

وضع الرسول صلى الله عليه وسلم أساس السياسة الخارجية للعرب : فبعث في السنة السادسة للهجرة أصحابه إلى هرقل أمبراطور الدولة البيزنطية ، وإلى كسرى فارس ، وإلى نجاشي الحبشة ، وإلى المقوقس حاكم مصر من قبل هرقل ، وإلى أمير بلاد النجامة ، وإلى أمير الفساستة الذين كانوا يقيمون على حدود بلاد العرب من ناحية الشام ، فمنهم من تلمظ في الرد ، ومنهم من أساء معاملة رسل النبي .

وقد أعد الرسول قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى ، جيشاً لغزو أطراف بلاد الشام بقيادة أسامة بن زيد ؛ غير أن وفاته حالت دون إرسال هذا الجيش . فلما ولي أبو بكر الخلافة أمر أسامة بغزو بلاد الروم ، وما كاد ينتهي من حروب الردة ، حتى دعا المقاتلين من أرجاء الجزيرة العربية للجهاد في سبيل الله ، وأنفذهم لغزو دولتي الفرس والروم في وقت واحد ، مع ما كان لكل من هاتين الدولتين من سعة الملك وبسطة السلطان ووفرة الثروة . وبذلك وضع المسلمون أساس السياسة الخارجية . ثم توجهت همته في عهد الدولة الأموية نحو الشمال والغرب ، حيث الدولة الرومانية الشرقية ، التي كانت تغير على البلاد الإسلامية المجاورة لها ، وحاول العرب فتح القسطنطينية غير مرة . ولما انتقل الحكم إلى العباسيين زادت علاقات المسلمين بتغيرهم ، وبخاصة ببلاد المغرب ، وبلاد الأندلس والفرنجية ، وبالدولة البيزنطية ، وبلاد الهند .

١ — مع بلاد المغرب :

كان تأسيس مدينة القيروان في إفريقية (بلاد تونس الآن) ، على يد عقبة بن نافع سنة ٥١ هـ (٦٧٠ م) تمهيداً للعرب بمركز حصين ، اتخذوه قاعدة لأعمالهم الحربية . وكان نجاح عقبة في تحويل البربر إلى الإسلام بطيئاً . ثم واصل ولادة العرب الذين تولوا هذه البلاد في القرن الثاني للهجرة جهودهم في سبيل تحويل هؤلاء البربر إلى الإسلام ، كما عملوا على إدماجهم في جيوشهم وانضوائهم تحت لوأهم ؛ وبذلك تسنى لهم أن يجد يوم إلى اعتناق الإسلام .

وقد كون البربر في إفريقية نواة الجيوش الإسلامية التي اتحدت فتح بلاد المغرب بقيادة قواد من العرب بل من البربر ، كطارق بن زياد . وفي أقل من نصف قرن تم لهم فتح بلاد الأندلس . على أن صلات الصداقة بين العرب والبربر لم تدم طويلاً ، لأن البربر رأوا أنهم لم يكافئوا على ما قدموه من خدمات ، كما كانوا يؤملون . ومع اعتناقهم الإسلام لم يماثلهم العرب معاملة

التظير للتظير ، بل معاملة السيد للسود . وكان من أثر هذه المعاملة أن انتحل البربر مذهب الخوارج ، لأنه كان يلائم نزعاتهم الديمقراطية ، وأخذوا يشيرون للفتن والقلاقل في وجه العرب (١) ، حتى إننا إذا تتبعنا حوادث سنة ١٣٠ هـ ، تبين لنا ضعف نفوذ الخليفة الأموي في هذه البلاد .

لهذا لانعجب إذا غدت إفريقية مسرحاً للفتن والقلاقل في العصر العباسي ، وذلك لبعدها عن السلطة المركزية في بغداد ، ولجهل البربر وعدم استعدادهم لقبول الحضارة الإسلامية ، وبغضهم ولائهم من العرب ، لغرضهم الضرائب الفادحة عليهم .

أما بعد بلاد المغرب عن السلطة المركزية في بغداد ، فقد ساعد الإدارة على تأسيس دولتهم بالمغرب الأقصى سنة ١٦٩ هـ (٨٧٥ م) ، كما ساعد الأغالبة في تونس على تأسيس دولتهم . وكان الرشيد قد أقطع إبراهيم بن الأغلب تونس في سنة ١٨٤ هـ . وأما عن جهل البربر وعدم استعدادهم للحضارة الإسلامية ، فكان من آثاره أن الإسلام لم يتوطد بين البربر وبين العرب التازليين في بلادهم منذ امتدت الفتوح الإسلامية إلى هذه البلاد . وهذا يفسر لنا انتشار مذهب الخوارج والشيعية في بلاد المغرب وقيام البربر في وجه العباسيين بين حين وآخر .

(١) ذكر الطبري (طبعة دي فوية ١ : ٢٨١٥) أسباب سخط البربر في إفريقية في العصر الأموي منذ خلافة هشام بن عبد الملك ، حيث اندس بينهم بعض الخوارج ، حتى أنهم قطعوا صلحتهم بدار الخلافة . وما أورده من هذه الأسباب قول أهل إفريقية : « إنا لا نخالف الأئمة بما تحب المال ، ولا نحمل ذلك عليهم . فقالوا لهم إنما يصل هؤلاء بأمر أولئك . فقالوا لهم لا تقبل ذلك حتى يورم (٢) . فخرج ميسرة في بضعة عمر لسانا حتى يقوم على هشام ، فطلبوا الأذن فصعب عليهم ، فأتوا الأبرش ، فقالوا : أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يمزو بنا وبجندنا ، فإذا أصاب نفلهم دوننا وقال لم أحق به ، فقلنا هو أخلص لجهادنا ، لأننا لا نأخذ منه شيئا ، وإن كان لنا فهم في حل ، وإن لم يكن لنا ثمرة . وقالوا : إذا حاصرنا مدينة قال تقدموا وأخر جنده ، فقلنا تقدموا فانه ازدياد في الجهاد ومثلكم كفى لإخوانه ، فوفيتهم بأعسنا وكفيناكم . ثم إنهم همدموا إلى ما شئنا فجعلوا يفرقونها عن السخال يطلبون الفراء البيض فيقتلون ألف شاة في جلد ، فقلنا ما أيسر هذا لأمر المؤمنين ، فاحملنا ذلك وخليتهم وذلك .

ثم إنهم سامونا أن يأخذوا كل جيلة من بناتنا ، فقلنا هذا ليس في كتاب ولا سنة ونحن مسلمون ، فأحبنا أن نعلم أن رأى أمير المؤمنين ؟ قال « الأبرش » نفعل . فلما طال عليهم ، ونفدت نفقاتهم ، كتبوا أسماءهم في رقاع ورضعوها إلى الوزير وقالوا : هذه أسماءنا وألسنا ، فان سألكم أمير المؤمنين عنا فأخبروه . ثم كان وجههم إلى إفريقية .

فخرجوا على عامل هشام فقتلوه ، واستولوا على إفريقية . . وبلغ هشام الخبر وسأل عن النفر ، فرفضت إليه أسماءهم ، فأذا هم الذين صنعوا ما صنعوا .

أنظر كتاب السيادة العربية والشيعية والاسرائيليات في عهد بني أمية : ترجمة المؤلف من ١٣٩ - ١٤٠ .

وأما عن بغض البربر لولايتهم من العرب ، فيرجع إلى فداحة الضرائب التي أثقلت كاهل
الاهلين . وفي الحق أن قيام الخوارج من البربر في وجه العباسيين ، لم يكن خروجاً على الدين .
بل كان خروجاً على السلطة الحاكمة ، لظلم الولاة لهم ، وفرضهم عليهم ضرائب فادحة (١) .
وقد ذكر ابن الأثير (٢) أن محمد بن الأشعث والى إفريقية خرج على أبي جعفر المنصور ،
فولى هذه البلاد الأغلب بن سالم (٣) ، أبا إبراهيم بن الأغلب ، مؤسس دولة الأغالبة ، فقدم
القيروان سنة ١٤٨ هـ . وسرعان ما ثار عليه البربر بزعماء قواد من العرب ، وقتل الأغلب على
أبواب مدينة القيروان سنة ١٥٠ هـ ، وقبره هناك يعرف بقبر الشهيد . ويقول ميور (٤) : إن
إفريقية كادت تخرج عن طاعة العباسيين في معظم عهد المنصور ، وإن البربر والعرب النازلين
فيها مالوا إلى مبادئ الخوارج ، وخلعوا طاعة العباسيين ، الذين أخذوا يرسلون إليهم الجيوش
تلقى الجيوش لإخضاعهم ، ولكن بدون جدوى . واستمرت مدينة القيروان تسقط في أيدي
الثوار حيناً ، وفي أيدي العباسيين حيناً آخر ، إلى قبيل نهاية خلافة المنصور .

ولما بلغ الخليفة المنصور نبأ مقتل الأغلب بن سالم ، ولى إفريقية أبا جعفر عمر بن حفص
من ولد قبيصة بن أبي صفرة أخى الملب ، فوصل إلى القيروان — وكان جنود الأغلب قد
استولوا عليها بعد وفاته — في شهر صفر سنة ١٥١ هـ ، وأقر الأمن في هذه البلاد نحو ثلاث
سنتين ، ثم سار إلى ناحية الزاب ، لبناء مدينة طشينة ، فاتهم البربر من الإباضية والصنفرية وغيرهم
فرصة تنصيب عمر بن حفص عن إفريقية ، وانتفضوا على هذا الولى ، وهاجوا مدينة القيروان .
د وانتفضت إفريقية من كل ناحية ، ومضوا إلى طشينة فأحاطوا بها في اثني عشر عسكرياً ، منهم
أبو قرعة الصنفري في أربعين ألفاً ، وعبد الرحمن بن رستم في خمسة عشر ألفاً ، وأبو حاتم في
عسكري كثير ، وعاصم السدراي الإباضي في ستة آلاف ، والمسعودي الثاني الإباضي في عشرة
آلاف فارس ، وغير من ذكرنا (٥) . واستطاع عمر بن حفص ، بما بذل من الأموال ، أن
يفك حصار طشينة بأرشاء بعض المحاصرين من الخوارج ، فترك هؤلاء حصار طشينة ، وحاصروا
القيروان ، فلما اشتد الضيق بأهلها قصد عمر بن حفص وأعمل الحيلة حتى دخلها .

ولما علم أبو جعفر المنصور بما حلَّ بمحمد عمر بن حفص من الشدة ، بعث يزيد بن حاتم
ابن قبيصة بن أبي صفرة في ستين ألف فارس ، فوصل إلى إفريقية سنة ١٥٤ هـ ، فبادر أبو حاتم
الخارجي إلى لقاءه ، ولكن الهزيمة حلت به ، وقتل هو وجنده من البربر في شهر ربيع الأول

(١) الفاطميون في مصر للمؤلف ص ٥٠ — ٥٣ . (٢) ج ٥ ص ٢٣٦ — ٢٣٧ .

(٣) ذكر ابن الأثير أن الأغلب بن سالم بن عقيل بن خضاعة التميمي كان ممن قام مع أبي مسلم
الخراساني ، ثم قدم إفريقية مع محمد بن الأشعث .

(٤) Muir : The Caliphate, 461 .

(٥) ابن الأثير ج ٥ ص ٢٤١ .

سنة ١٥٥ هـ ، وجعل آل المهلب يقتلون الخوارج ويقولون : « بالثارات عمر بن حفص ، وأقام شهراً يقتل الخوارج ، ثم رحل إلى القيروان » (١) . ويقول ميور (٢) : إن أبا جعفر المنصور لما تخلص من خصومه الآخرين ، أصبح من القوة بحيث استطاع أن يرسل إلى بلاد المغرب جيشاً كبيراً ، أقر الأمن في جميع أرجاء هذه البلاد حيناً من الدهر . ولا غرو ، فقد اشتملت نيران الثورة في بلاد المغرب ، وأقفلت بالعباسيين ، حتى قيل إنه : « كان بين الخوارج والجنود (العباسيين) ، من لادن قاتلوا عمر بن حفص إلى انقضاء أمرهم ، ثلثائة وخمسة وسبعون وقعة » (٣) ، بعد أن بذلت الدولة العباسية جهوداً متصلة ، وتضحيات عظيمة ، ونفقات طائلة .

وقد استمرت قبائل البربر في إفريقية تتأوى سلطان العباسيين بين سنتي ١٧٨ و ١٨١ هـ ، وأخذت في الخروج على حكم العباسيين ، وغدت كفة التصعير ترجح في جانبهم حيناً ، وفي جانب العباسيين حيناً آخر . حتى بعث إليهم الرشيد هرثة بن أعين ، فوصل إليها في شهر ربيع الأول سنة ١٧٩ هـ على رأس جيش كثيف ، استطاع أن يضعف من قوتهم . على أن هرثة رأى بشاقب نظره وطول خبرته ، أن فوز العباسيين على البربر لاسيل إلى تحقيقه ، لتأصل العداوة في نفوس هؤلاء البربر ، فعول على التزول عن القيادة ، وعاد إلى المشرق حيث البذخ والرفاهية . ويقول ابن الأثير (٤) : لما رأى هرثة ما بدأ إفريقية من الاختلاف ، وأصل كتبه إلى الرشيد يستغنى ، فأمره بالتقدم عليه إلى العراق ، فسار عن إفريقية في رمضان سنة إحدى وثمانين ومائة . فكانت ولايته سنتين ونصفاً .

ولي الرشيد بعد هرثة أخاه في الرضاع محمد بن مقاتل بن حكيم العنكي ، فأساء معاملة الأهلين ، فجددت ثورات البربر والعرب ، ودخلوا القيروان ، فجمع إبراهيم بن الأغلب - وكان يلي بعض نواحي الزاب - جيشاً كبيراً طرد به هؤلاء الثوار وأعاد والي الرشيد إلى مقره (٥) .

كان من أثر هذا العداوة الذي أضمره البربر في بلاد إفريقية للأمويين والعباسيين ، وانضمام بعض العرب الفازلين في هذه البلاد إلى البربر ، وميل هؤلاء وأولئك إلى مذهب الخوارج ، أن قامت الفتن والفتائل في هذه البلاد ، وعلى بعض زعمائهم على الاستقلال عن الدولة العباسية ، لتأسست ولايات من البربر على يد زعماء من سلالة العرب ، استقلت استقلالاً يكاد يكون تاماً ، وعن هذه الولايات ولاية تاهرت التي أسسها ابن رستم بمساعدة الإباضية من الخوارج (١٣٧ - ٥٢٩٧ هـ) ، وولاية سجلماسة التي أسسها بنو ممدار (١٦٧ - ٢٥٧ هـ) ، وتلسان التي أسسها أبو قرّة الصنهاجي ، وبزغوات الواقعة على ساحل المحيط الأطلسي ، ودولة الادارسة

(١) ابن الأثير ص ٢٤٢ . (٢) p. 481

(٣) ابن الأثير ص ٢٤٢ . (٤) نفس المصدر ج ٦ ص ٥٠ .

(٥) نفس المصدر ج ٦ ص ٥٥ .

التي أسسها ادريس بن عبد الله في بلاد المغرب الأقصى (١٧٢ - ٣١٣ = ٧٨٨ - ٩٢٢ م)،
ودولة الاغالبة في تونس (١٨٤ - ٢٩٦ = ٨٠٠ - ٩٠٩ م)

أما قيام دولة الادارسة فيرجع الى موقعة فخ التي وقعت في عهد الخليفة الهادي العباسي، حين
خرج عليه الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي سنة ١٦٩ هـ، تلك الموقعة
التي كانت بعيدة الأثر في تاريخ العصر العباسي الأول. فقد هرب منها رجلان كانا شجعان في حلق
العباسيين: أحدهما يحيى بن عبد الله صاحب الديلم، وأخوه ادريس الذي نجح في إثارة أهالي المغرب
الأقصى على العباسيين. وتأسست دولة الادارسة بفضل ما بذله من جهود متصلة في هذا
السييل. ولكن هارون الرشيد عمل على التخلص من ادريس بن عبد الله كفضل مع أخيه
يحيى صاحب الديلم ودس له من قتله^(١). ويقول الطبري: «ويقال إن الرشيد... دس إلى
إدريس الشياخ الهمامي مولى المهدي، وكتب له كتابا إلى إبراهيم بن الأغلب عامله على إفريقية،
طرح حتى وصل إلى ولية، وذكر أنه متطبيب، وأنه من أولياتهم. ودخل على ادريس، فأخبر
به وأطمان إليه، وأقبل الشياخ يريه الإعظام له، والميل إليه، والإشارة له، فنزل عنده بكل منزلة.
ثم إنه شكها لعله في أستانه، فأعطاه ستمونا مسموما قاتلا، وأمره أن يستن به عند طلوع
الفجر لليلة. فلما طلع الفجر استن ادريس بالسنون، وجعل يرده في قبه ويكثر منه فقتله.
وطلب الشياخ فلم يظهر به. وقدم على إبراهيم بن الأغلب، فأخبره بما كان منه. وجاءته بعد
مقدمه الأخبار بموت إدريس، فكتب ابن الأغلب إلى الرشيد بذلك، فولى الشياخ بريد مصر
وأخباره، فقال في ذلك بعض الشعراء:

أظن يا إدريس أنك مفلت	كيد الخليفة أو يفيد فراد
فلقد ركنك أو تحل ببلدة	لا يهتدي فيها اليك نهار
إن السيف إذا انتصاهما سخطه	طالت وقصر دونها الأعمار
ملك كأن الموت يتبع أمره	حتى يقال طعيه الأقدار ^(٢)

على أن مقتل إدريس لم يقف جهود العلويين في بلاد المغرب. فقد كانت له أمة حاملها،
فانتظر أشياعه حتى وضعت ولدا ذكرا، أسماه ادريس، والتفتوا حوله. فكانت المؤسسة
الحقيقية لدولة الادارسة، التي ظلت في بلاد المغرب حتى سنة ٣١٣ هـ.

وكان قيام دولة الاغالبة في تونس نتيجة هذه السياسة التي سار عليها الرشيد في تأديب العرب
وغيرهم من الثوار، والوقوف في وجه الادارسة اذا أرادوا الإغارة على أراضي الدولة العباسية
الواقعة شرق دولتهم. ويقول ابن الأثير في حوادث سنة ١٨٩ هـ عن تأسيس دولة الاغالبة،
إنه لما تبين للرشيد كراهة البربر لواليهم محمد بن مقاتل — وأن إبراهيم بن الأغلب كان قد طلب

(١) انظر هذا الكتاب ص ١٢٧ — ١٢٨ وكتاب «الفاطميون في مصر» للمؤلف ص ٤٦.

(٢) الطبري ج ١٠ ص ٢٩

إليه أن يوليه إفريقية ، على أن يوفر لبيت المال الإعانة التي كانت ترسلها مصر إلى إفريقية ومقدارها مائة ألف دينار ، وأن يرسل إلى بيت المال فوق ذلك أربعين ألف دينار — أشار هرم بن أعين على الخليفة بتولية إبراهيم بن الأغلب هذه البلاد ، لما رآه من عقله ودينه وكفايته ، فولاه الرشيد هذه البلاد في شهر المحرم سنة ١٨٤ هـ ، فانقمع الشر وضبط الأمر . فسكنت البلاد ، وابتقى مدينة سماها العباسية بقرب القيروان ، وانتقل إليها بأهله وعبيده (١) . على أن الثورات في بلاد المغرب قد سارت سيرتها الأولى ، فخرج على إبراهيم بعض الثوار في سنة ١٨٦ هـ ، ولكنه قضى عليها ، ثم عول على القضاء على دولة الأدارسة في المغرب الأقصى ، ففرق بين أنصار إدريس بن إدريس بن عبد الله . ويقول ابن الأثير (٢) : بلغ ابن الأغلب أن إدريس بن إدريس العلوي قد كثر جمعه بأقصى المغرب ، فأراد قصده ، فنهاه أصحابه وقالوا : اترك ما تركك . فأعمل الحيلة وكان القيم بأمره من المغاربة ، واسمه جهلول بن عبد الواحد ، وأهدى إليه ، ولم يزل به حتى فارق إدريس وأطاع إبراهيم ، وتفرق جمع إدريس ، فكتب إلى إبراهيم يستعطفه ويسأله الكف عن ناحيته ، ويذكر له قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكف عنه .

هكذا تأسست دولة الأغالبة في إفريقية على يد إبراهيم بن الأغلب الذي اتخذ مدينة القيروان حاضرة لدولته ، وتمتعت هذه الدولة باستقلال اسمي ، ولكنها ما لبثت أن استقلت على غير الزمن استقلالاً يكاد يكون تاماً ، بحيث لم يبق للخليفة العباسي سوى ذكر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة . وظلت على ذلك إلى أن استولى الفاطميون عليها سنة ٢٩٦ هـ (٣) .

٢ — مع بلاد الأندلس والفرجة :

أخذ سلطان العباسيين يتقاصر عن بلاد الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية . ولا غرو فقد قام النزاع بين المضرية والمنية في هذه البلاد : فقد تولى أبو الخطار على بلاد الأندلس سنة ١٢٥ هـ ، فقام في وجهه الصميل بن حاتم — وكان مضرباً — وخلعه وأسرّه ، وولى عليهم واحداً منهم (١٢٧ هـ) . ولكن هذا الوالي الجديد ، أو الثائر بنبأه أدق ، توفي بعد سنتين ، فأراد أهل الأندلس إعادة أبي الخطار ، وامتنعت مضر ورأسهم الصميل ، وافتقرت الكلمة . فأعلنت الأندلس أربعة أشهر بغير أمير . فلما تفاقم الأمر اتفق رايهم على يوسف ابن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة القهري . فوليا يوسف (وكان مضرباً) سنة تسع وعشرين (ومائة) ، فاستقر الأمر على أن يلي سنة ، ثم يرد الأمر إلى المن ، فيولون من أحبوا من قومهم . فلما انقضت السنة ، أقبل أهل المن بأسرهم يريدون أن يولوا رجلاً منهم ، فهم الصميل فقتل منهم خلقاً كثيراً . واجتمع الناس على يوسف ، ولم يعترضه أحد . . . وبقي يوسف على الأندلس

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٥٦ - (٢) غس المصنوع ج ٦ ص ٥٦ .

(٣) أنظر ٩-478 Muir : The Gallahee , pp.

إلى أن غلب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، (١)

ظلت الحال على ذلك حتى زالت الدولة الأموية ، وتعقب العباسيون أفراد البيت الأموي ومثلاؤهم ، فأتيحت الفرصة لأحد أمراء البيت ، وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، الذي أقبلت من أيدي العباسيين ، وهرب إلى بلاد الأندلس ، حيث أسس الدولة الأموية التي أصبحت حضارتها متبعا لحضارة أوروبا الحديثة .

وقد وصف عبد الرحمن كيفية نجاحه من العباسيين وهربه إلى بلاد الأندلس فقال (٢) :
« لما أعطينا الأمان ، ثم نكث بنا بنهر أبي فطرس ، وأبيحت دماؤنا ، أانا الخبر . وكنت متلبذا من الناس ، فرجعت إلى منزلي أيضا ونظرت فيما يصلحني وأهلي ، وخرجت خائفا ، حتى صرت إلى قرية على الفرات ذات شجر وغياض . فبينما أنا ذات يوم بها ، وولني سليمان يلعب بين يدي ، وهو يومئذ ابن أربع سنين ، نخرج عني ، ثم دخل الصبي من باب البيت باكيا فرعا ، فتملقني وجعلت أذفه وهو يتملقني . فخرجت لأنظر ، وإذا بالخوف قد نزل بالقرية ، وإذا بالرايات السود منطحة عليها ، وأخ لي حدث السن يقول لي النجاة النجاة ، فهذه رايات المسودة . فأخذت دنائير ممي ونجوت بنفسى وأخى ، وأعلنت أخواني بموجهمي ، فأمرتهم أن يلحقني مولاى بدر . وأحاطت الخيل بالقرية ، فلم يجدوا لي أنرا . فأنييت رجلا من معارفى ، وأمرته ، فاشترى لي دواب وما يصلحني ، فدل على عبد الله العامل ، فأقبل في خيل له يطلبني ، فخرجنا على أرجلنا هرايا ، والخيول تبصرنا ، فدخلنا في بساتين على الفرات ، فسبقنا الخيل على الفرات ، فسبقنا . فأما أنا فنجوت ، والخيل يتأدوننا بالأمان ولا أرجع . وأما أخى فإنه عجز عن السباحة في نصف الفرات ، فرجع إليهم بالأمان وأخذوه قتلوه ، وأنا أظن إليه ، وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، فاحتملت فيه شكلا ومضيت لوجهي ، فتواريت في غيبة أشبه ، حتى انقطع الطلب عني ، وخرجت فقصدت المغرب فبلغت إفريقية . »

وقد لقي عبد الرحمن كثيرا من الصعاب في طريقه إلى الأندلس ، فقد اشتد طلبه عبد الرحمن ابن حبيب الفهرى والى إفريقية ، وأبى يوسف الفهرى أمير بلاد الأندلس ، فهرب إلى مكانة إحدى قبائل البربر ، فلقى منهم كثيرا من الشدائد ، فقتل إلى جماعة من زبانه فأحسنوا إليه ، وقيل إنه قصد أخواله في فزارة فأكرموه ، ثم أخذ يرسل الأمويين في الأندلس ، ويدعومهم إلى نفسه ، ويميزهم الأماني الطيبة ، واستعان في ذلك ببنلامه بدر . وقد استغل عبد الرحمن سوء حالة بلاد الأندلس التي مزقتها الانقسامات والتحط ، فأوقع بين المضربة والغنية فيها ، واستطاع أن يدخل هذه البلاد في شهر ربيع الأول سنة ١٢٨ هـ ، كما استطاع بعد قليل أن يجذب إليه قبائل البنى ، وكانت تحتق على يوسف الفهرى . وما زال يستولى على بلاد الأندلس مدينة تلو مدينة ، حتى دخل قرطبة ، وقضى على نفوذ واليها يوسف الفهرى واستقر عبد الرحمن بقرطبة ،

وبني القصر والمسجد الجامع... ووفاه جماعة من أهل بيته^(١).
ولكن أبا جعفر المنصور لم يهدأ باله من ناحية عبد الرحمن الداخل، فعمل على القضاء عليه. ويقول ابن الأثير^(٢) عند كلامه على حوادث سنة ١٤٦ هـ: «وفيها سار العلاء بن مغيث اليحصي من إفريقية إلى مدينة بناحية من الأندلس، ولبس السواد، وقام بالدولة العباسية، وخطب للمصور، واجتمع إليه خلق كثير. فخرج إليه الأمير عبد الرحمن الأموي، فالتقيا بنواحي إشبيلية، ثم تحاربا أياما. فانهزم العلاء وأصحابه، وقتل منهم في المعركة سبعة آلاف، وقتل العلاء، وأمر بعض التجار بحمل رأسه وروس جماعة من مشاهير أصحابه إلى القيروان وإلقائها بالسوق سرا، ففعل ذلك. ثم حمل منها شيء إلى مكة، فوصلت. وكان بها المنصور، وكان مع الروس لواء أسود وكتاب كتبه المنصور للعلاء...»^(٣)

ولاشك أن انسلاخ بلاد الأندلس عن الدولة العباسية قد فت في عضدها. ولم يتمكن أبو جعفر المنصور من إعادة سلطان العباسيين إلى هذه البلاد، فعمل على استئالة عبد الرحمن، وأرسل إليه الرسل. وكثيرا ما كان يظهر إعجابه به وبمقدرته، وعزيمته التي جعلته وهو شريد طريد يستطيع أن يؤسس هذا الملك الواسع في تلك البلاد البعيدة. وذلك أن أبا جعفر المنصور قال لأصحابه: «أخبروني عن صقر قريش من هو؟ قالوا: أمير المؤمنين الذي راض الملك وسكن الزلازل وحسم الأعداء وأباد الأعداء، قال: ما صنعت شيئا، قالوا: فعماوية، قال: ولا هذا، قالوا: فعبد الملك بن مروان، قال: ولا هذا، قالوا: فن يا أمير المؤمنين؟ قال: عبد الرحمن بن معاوية الذي عبر البحر، وقطع القفر، ودخل بلاد أعجميا مقردا، فحصر الأمصار، وجند الأجناد، ودون الدواوين، وأقام ملوكا بعد انقطاعه بحسن تديره. وشد شكيبته أن معاوية نخس بمركب حله عليه عمر وعثمان وذلال صميه، وعبد الملك بيعة تقوم لها عقدها، وأمير المؤمنين يطلب غيره واجتماع شيعته، وعبد الرحمن منفرد بنفسه، مؤيد بزأبه، مستصحب لعزمه»^(٤).

ولما لم يظهر المنصور بشيء من وراء هذه السياسة، طرق باب ييبين (Pepin) ملك الفرنجة، رغبة في مساعدته على عبد الرحمن الداخل، فأرسل إليه سفراء أقاموا في بلاطه عدة سنين، ثم عادوا إلى المنصور يصحبهم سفراء من الفرنجة، ثم عاد هؤلاء إلى ييبين عمليين بهدايا الشرق النفيسة، دون أن تؤدي هذه المفاوضات إلى شيء سوى ما ولدت في نفس عبد الرحمن الداخل من خوف هجوم الفرنجة على بلاده^(٥). وبذلك لم يحاول إظهار عدائه

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ١٩٩ - ٢٠٠ (٢) ج ٥ ص ٢٢٢.

(٣) Stanley Lane - Poole: The Moors in Spain, pp. 38-4.

(٤) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٣ ص ٢٠١ - ٢٠٢، القرى: غي الطيب ج ١ ص

١٥٦ - ١٥٨ (طبعة بولاق).

(٥) Muir: The Caliphate, p.p. 460-61.

الحرى للخليفة العباسى . لذلك ترى أن المنصور ، وإن كان لم ينجح فى القضاء على عبد الرحمن الداخل فى الناحية الحربية ، فإنه قد نجح إلى حد بعيد فى الناحية السياسية ، ووضع أساس هذه السياسة التى سار عليها أبناؤه من بعده .

وكانت الدول تنهال الدولة الإسلامية فى عهد المهدي لمظمتها وقوة سلطانها ؛ إلا ما كان بين العباسيين والأمويين فى الأندلس . فقد كان المهدي يضرر العداء لعبد الرحمن الداخل كما كان أبوه المنصور من قبل ، ويود إزالة دولته . ولكنه كان يحجم عن تجريد الجبوش إلى بلاده ، ليعد الشقة ووعورة الطريق ، وإنعاب جنده بالمسير فى صحراء إفريقية ، وقوة عبد الرحمن الذى فكر فى انتزاع بلاد الشام من العباسيين ، لولا أن الحالة الداخلية فى بلاده تطلبت العدول عن تحقيق هذه السياسة ، فاكثرت كل من الرجلين بمعاودة الآخر . يقول ابن الأثير ^(١) : إن المهدي وجه عبد الرحمن بن حبيب الفهرى إلى بلاد الأندلس ، فسار من إفريقية وعبر البحر ، وكتب إلى سليمان بن يقطان بمرشالونه ، يحثه على الدخول فى طاعة العباسيين . فلم يجب سليمان طلبه ، فشارت ثائرة الفهرى ، وأغار على بلاده مجتذكشاف من البربر . ولكن سليمان هزم الفهرى ، ومطرد عبد الرحمن الداخل الفاتحة من جنده ، وأحرق سفنه ليحول بذلك دون هربه . على أن قائده المهدي تحصن بطنجة بلنسية وصمد للأمويين ، وأوقع الرعب فى قلوبهم ، وبذل عبد الرحمن الداخل ألف دينار لمن يأتيه برأسه ، فاقتنى أثره رجل من البربر وتبع خطواته حتى عثر عليه وقتله خيلة ، وحمل رأسه إلى أمير بلاد الأندلس . ولم تنجح سياسة المهدي فى إعادة هذه البلاد إلى الدولة العباسية .

وقد أفاد شارل مارتل Charles Martel ملك الفرنجة من الخلفاء الذى ساد بين العباسيين فى الشرق والأمويين فى بلاد الأندلس ، فتقرب إلى الخليفة المهدي العباسى ليكتسب شيئاً من النفوذ فى بلاده ، ويهدد بذلك منافسه أمبراطور الدولة البيزنطية . وقد جنى شرلمان ثمار هذه السياسة ، فاكسب محبة هارون الرشيد . وكانت العلاقة بينه وبين أمبراطور الفرنجة تقوم على الود والصفاء ، بخلاف ما كانت عليه مع أمبراطور الدولة البيزنطية ، فغلب شرلمان ود الرشيد ، وأرسل إليه وفدا مؤلفا من رجلين من النصارى ، ورجل من اليهود ، لتسويل سيل الحج إلى بيت المقدس ، ونشر التجارة بين البلدين ، والحصول على علوم المشرق . كما رغب الرشيد فى محاربة شرلمان على أمبراطور القسطنطينية وأمير الأندلس الأموى .

على أن هؤلاء السفراء وتلك الكتب ، لم تؤدى إلى غرض ما دى يذكر ، اللهم إلا ما كان من إرسال مفاتيح كنيسة بيت المقدس إلى شرلمان وتبادل الهدايا بينه وبين الرشيد . ولاغرو فقد أصبح شرلمان حامى المسيحيين الذين ينفدون إلى هذه البلاد لأداء فريضة الحج . ومع أنه لم ينظر

الى هذا الأمر بعين الاعتبار في ذلك الحين ، فقد أدى ذلك الى نتائج خطيرة في المستقبل ، لأنه اكسب ملك الفرنجة حق حماية الأماكن المقدسة في فلسطين .

وكان من بين الهدايا التي أرسلها الرشيد إلى شرملة وأثارت إعجاب الناس في بلاد الفرنجة ، ذلك القيل الذي وصل إلى إكس لاشابل حاضرة إمبراطورية شرملة ، وكان يسمى أبا العباس ، وتلك الساعة المسائية الدقيقة التي ظنوا أنها آلة سحرية ، وغيرهما من هدايا المشرق النادرة (١) .

على أن العلاقة بين الدولة العباسية والاندلس في العصر العباسي الأول لم تنته عند الرشيد ، فقد ذكر الطبري (٢) في حوادث سنة ٢١٠ هـ ، أن عبد الله بن طاهر طرد جماعة من الاندلس اتخذوا من وقوع الاضطرابات في مصر فرصة سانحة لهم ، فزلوا الإسكندرية واستقروا فيها . وقلبا دخل عبد الله بن طاهر بن الحسين مصر ، أرسل إلى من كان بها من الاندلسيين ، وإلى من كان انضوي اليهم ، يؤذتهم بالحرب إنهم لم يدخلوا في الطاعة . فأخبروني أنهم أجابوه الى الطاعة وسألوه الأمان ، على أن يرتحلوا من الإسكندرية إلى بعض أطراف الروم التي ليست من بلاد الإسلام ، فأعطاهم الأمان على ذلك ، وأنهم رحلوا عنها ، فزلوا جزيرة من جزائر البحر يقال لها إقريطش ، فاستوطنوها وأقاموا بها ، وفيها بقايا أولادهم الى اليوم .

ولكن فكرة فتح بلاد الاندلس وإعادة تها إلى سلطان العباسيين قد شغلت خلفاءهم ، حتى إن المعتصم « كان » كما يقول السيوطي (٣) — قد عزم على السير إلى أقصى المغرب ، لملك البلاد التي لم تدخل في ملك بني العباس لاستيلاء الأموي عليها ، فروى الصولي عن أحمد ابن الخطيب قال : قال لي المعتصم إن بني أمية ملكوا ، وما لأحد منّا ملك ، وملكنا نحن ، ولهم بالاندلس هذا الأموي ، فقدر ما يحتاج اليه لحرارته ، وشرع في ذلك ، فاشدّت عليه علته ومات .

٣. — مع البيزنطيين :

لم تنقطع الحرب بين العرب والروم منذ ظهور الإسلام . فقد حاول العرب الاستيلاء على القسطنطينية ثلاث مرات : المرة الأولى في عهد عثمان بن عفان ؛ والثانية في عهد معاوية ابن أبي سفيان ، والثالثة في عهد سليمان بن عبد الملك .

وقد أضعفت الحروب الأهلية قوة العرب في أواخر الدولة الأموية ، فالتحق قسطنطين الرابع إمبراطور الدولة البيزنطية من هذه الاضطرابات فرصة سانحة لشن الإغارات على البلاد الإسلامية المتاخمة لبلادها .

ولما انتقل الحكم إلى العباسيين تغيرت وجهة الحرب بين العرب وبين البيزنطيين ،

(١) Muir : The Caliphate, p. 486.

(٢) ج ١٠ ص ٢٧٥ .

(٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

وأصبحت عبارة عن إغارات ، الفرض منها الهدم والتخريب وإتلاف النفس والمال. وهذا يخالف ما كانت عليه الحال في أيام الأمويين ، الذين كانت لهم سياسة مرسومة لمحاربة البيزنطيين ، ابتغاء احتلال القسطنطينية. ولا شك أن السبب في ذلك يرجع إلى عاملين هامين : أولهما : مناوأة أهالي بلاد الشام للعباسيين ، لأنهم كانوا لا يزالون على ولائهم للأمويين ، حتى إن عبد الرحمن الداخل فكر في إعادة هذه البلاد إلى سلطان الأمويين ، واعتمد في تحقيق سياسته على ولاء أهالي بلاد الشام لبني أمية .

وثانيهما : عدم اهتمام العباسيين بإنشاء أسطول قوى في البحر الأبيض المتوسط يضارع أسطول الأمويين من قبل ، واعتمادهم على الجيوش البرية دون القوات البحرية .

وقد بدأ البيزنطيون يشنون إغاراتهم على أراضي الدول العباسية في عهد أبي جعفر المنصور ؛ فعزأ قسطنطين الرابع Constantine . IV بعض أراضي الشام سنة ١٣٧ هـ ، واستولى على ملطية وخرب حصونها . غير أن العرب تمكنوا من استردادها في السنة التالية ، ورموا حصونها ، وأفاموا فيها حامية كبيرة . ويقول ابن الأثير ^(١) عند كلامه على حوادث سنة ١٣٩ هـ : « دغزا مع صالح بن علي (العباسي) اختاه أم عيسى ولتجابه بنتا علي ر وكاتنا نذرنا إن زال ملك بني أمية أن نجاهد في سبيل الله . . . وكان الفداء بين المنصور وملك الروم ، فاستغدى المنصور أسرى قاليقلا وغيرهم من الروم ، وبناها وعمرها ، ورد إليها أهلها ، ونذب إليها جندا من أهل الجزيرة ، فأفاموا بها وحوها . ولم يكن بعد ذلك صائفة ^(٢) فيها قيل إلا سنة ست وأربعين (ومائة) ، لا اشتغال المنصور بابني عبد الله بن الحسن بن علي » .

وكانت الحرب بين العباسيين والبيزنطيين تشتعل من حين إلى حين حتى سنة ١٥٥ هـ ، حيث طلب الإمبراطور قسطنطين الرابع الصلح مع العباسيين ، على أن يؤدي لهم جزية سنوية ^(٣) . ونقرأ في الطبري ^(٤) عن الصوائف في بني ١٥٦ و ١٥٧ و ١٥٨ هـ ، وذلك في أواخر عهد الخليفة المنصور .

وفي سنة ١٥٩ هـ خرج الخليفة المهدي على رأس جيش كثيف لغزو بلاد الروم ، ووصل إلى الربدان وعسكر به ، وأرسل العباس بن محمد فبلغ أنقره ^(٥) . وفي سنة ١٦١ هـ تولى قيادة الصائفة ثمامة بن الوليد الذي سار بجيشه حتى نزل دابق ، والتقى بجيش الروم الذي بلغ عدده ثمانين ألفا ، فاحمفل به ثمامة اختاراً بقوته وكثرة جنده ، وهزم الروم على مقربة من مرعش التي حاصرها ، ولكن الدائرة دارت عليه وقتل كثير من جنده .

(١) ٢٢ ج ٥ ص ١٩٧

(٢) الصائفة غزوة الروم ، لأنهم كانوا يزرون صيفا لمكان البرد والثلج (القابوس المحيط) ، وجما صوائف ، وهي تختلف عن الشوائب ، وهي الحروب مع الروم في الشتاء .

(٣) الطبري ج ٦ ص ٢٨٦ . (٤) ج ٩ ص ٢٨٨ .

(٥) الطبري ج ٩ ص ٢٢٦ .

وقد قوى الروم بهذا الانتصار ، فأغاروا على الحُدث ، في سنة ١٦٢ هـ وهدموا سورها ، فولى المهدي أمر الصاققة قائده الحسن بن قحطبة ، الذي لم يستطع إحراز النصر على الروم وعاد أدراجه (١). وفي سنة ١٦٣ هـ أغار الروم على حدود الدولة العباسية واستولوا على مرعش وأحرقوها ، فأرسل المهدي جيشا بقيادة الحسن بن قحطبة . غير أن الروم عادوا إلى بلادهم ، ثم أغاروا على حدود العباسيين من جديد ، فخرج المهدي على رأس جيش يبلغ مائة وخمسين ألفا ، واستخلف ابنه موسى (المهدي) على بغداد ، واتخذ مدينة حلب مركزاً لأعماله الحربية ، ووجه ابنه هارون على رأس جيش كثيف يضم نخبة من أشهر رجال الدولة العباسية ، منهم يحيى بن خالد البرمكي ، وعبد الملك بن صالح ، وعيسى بن موسى ، والحسن بن قحطبة . وخرج المهدي مشيعا ابنه هارون ، حتى وصل إلى جيعان وارتابها مدينة تسمى المهدي . زحف هارون إلى بلاد الروم ، حتى وصل إلى حصن سمالو ، ونصب عليه المتجنق وخرّبها ، واستولى عليه . (٢) وقد تعهد الروم بدفع غرامة حرية فداء لأسراهم . وقد نقض الروم شروط الصلح ، وعادت لغاراتهم على أملاك الدولة العباسية سبيلها الأول ، فتدب المهدي ابنه هارون لحربهم وغزو بلادهم من جديد ، وولاه الصاققة ، وضم إليه مولاة الربيع بن يونس .

وفي سنة ١٦٥ هـ أعاد المهدي الكرة على بلاد الدولة البيزنطية ، لجمع جيشا يبلغ نحو مائة ألف جندي ، وعبر الفرات ، ثم أمر عليه ابنه هارون ، فوصل هذا الجيش إلى سواحل البسفور ، وأرغم الملكة أيريني Irene - أرملة ليو الرابع Leo IV ، وكانت وصية على ابنها قسطنطين السادس ، على أن تدفع للسلين تسعين ألف دينار جارية سنوية تقضى على دفعتين ، وأن تقيم لهم الأسواق والأدلاء في الطريق عند عودتهم إلى بلادهم ، وأن تسلّم أسرى المسلمين . وانهت هذه الغزوة بعقد هدنة بين الفريقين أمدها ثلاث سنين . وبلغت هذه الحروب من الشدة بحيث ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن عدد قتلى البيزنطيين بلغ ٤٠,٠٠٠ ، والأسرى ٥٠,٠٠٠ (٣). وفي هذه الغزوة يقول مروان بن أبي حفصة مناديا هارون ، ومشيدا بما ناله فيها من نصر وظفر :

أطقت بـقسطنطينية الروم مستدا . البها القنا (٤) حتى اكتفى الذلّ سورها
وما رمتها حتى أتتك ملوكها . بجزيتها والحرب تنل قدورها
وقد أتى الطبرى (٥) وابن الأثير (٦) بنص شروط الصلح الذي أبرم بين المسلمين والروم .

(١) الطبرى ج ٩ ص ٣٤٢ . (٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٢٧ .

(٣) Finlay : History of the Byzantine Empire, pp. 104-176 .

Muir : The Caliphate, pp. 470-1.

(٤) القنا الرمح . (٥) ج ٩ ص ٣٤٧ .

(٦) ج ٦ ص ٢٤ .

وكان من أثر هذه الانتصارات التي أحرزها المهدي أن هابه الملوك ، وأرسل إليهم رسلا يدعونهم إلى الطاعة ، فدخل أكثرهم في طاعته ، ومنهم ملك كابل ، وملك طبرستان ، وملك السند ، وملك طخارستان ، وملك فرغانة ، وملك أشروسنة ، وملك سجستان ، وملك الترك ، وملك التبت ، وملك السند ، وملك الصين ، وملك الهند (١).

وعلى الجملة فقد أمتاز عهد المهدي بكثرة حروبه مع البيزنطيين . وما يسترعى النظر في هذه الحروب أن النصر كان كثيراً في جانب المسلمين .

ولما ولي هارون الرشيد الخلافة وجه اهتمامه إلى توطيد دعائم السلام في أراضي الدولة العباسية المتاخمة لحدود الدولة البيزنطية ، ثم سار بنفسه في سنة ١٨١ هـ على رأس جيش كبير إلى آسيا الصغرى ، فانتصر على البيزنطيين في كثير من المعارك ، وظل يتابع فتوحه حتى وصل إلى القسطنطينية .

وكان من أثر الانتصارات التي أحرزها المسلمون على البيزنطيين كما تقدم ، أن سارعت الأمباطورة إيريني Irene إلى طلب الهدنة مقابل دفعها الجزية . غير أن نفقور الذي اعتلى العرش بعد إيريني أرسل إلى الرشيد في سنة ١٨٧ هـ كتابا نقض فيه الهدنة ، وألح في طلب الجزية التي دفعها إليه إيريني . وإليك نص هذا الكتاب : « من نفقور ملك الروم إلى هارون ملك العرب ، أما بعد ، فإن الملكة التي كانت قبل أمانتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مقام اليدق ، لحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها إليها . لكن ذلك ضعف النساء وحقهن . فإذا قرأت كتابي ، فاردد ما حصل قبلك من أموالها ، واقتد نفسك بما يقع به المصادرة لك ، وإلا فالسيف بيننا وبينك » .

فلما قرأ الرشيد هذا الكتاب استفزه الغضب ، حتى لم يمكن أحداً أن ينظر إليه دون أن يحاط به ، وتفرق جلساؤه من الخوف ، واستعجم الرأي على الوزير ، ودعا الرشيد من فوره بدواة ورد على أمباطور الروم بهذه الكلمات : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من هارون أمير المؤمنين ، إلى نفقور كلب الروم . قد قرأت كتابك ، والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام » . ثم خرج لمحاربه ، فسار إليه بجيوشه الجاراه محترقا آسيا الصغرى ، وظل يتابع إغاراته ، حتى استولى على هرقلية قبل أن يتمكن الأمباطور من رده لانتفاخه بأخماد الفتنة التي قامت في بلاده . وانتهى بذلك كبرياء هذا الإمباطور وصلفه بعقد صلح أرغم فيه على دفع الجزية من جديد (٢).

وقد اتخذ الشعراء نقض نفقور شروط الصلح ، وما أبلاه هارون الرشيد في حروبه مع

الروم موضوعا لقصاصهم ، فقال الحجاج بن يوسف التيمي أحد شعراء هذا العصر (١) :

نقض الذي أطعته تقفور وعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه غُثِّمَ أُنَانُكُهُ الْإِلَهِ كَبِيرُ
فلقد تبشرت الرعية أن أقي بالنقض عنه وافته وبشير
ورجت يمينك أن تعجل عَزْوَةً تشفى النفوس مكانها مذكور
أعطاك جزية وطأاً خدّه حذر الصوارم والردى مخدور
فأجرته من وقصها وكأنها بأكفنا شملت الضرام تطير
وصرفت بالطول العساكر قافلا عنه وجارك آمنٌ مسرور
تقفور إنك حين تغدر أن نأى عنك الإمام لجاهلٌ مفرور
أظننت حين غدوت أنك مقلت هيلتك أمك ما ظننت غرور
ألفاك حينك في زواجر بحره فطبت عليك من الإمام بحور
إنّ الإمام على اقتسارك قادر قربت ديارك أم نأت بك دور
ليس الإمام وإن غفلنا غافلا عما يسوس بحزمه ويدبر
ملك تجمرد الجهاد بعزمه فعذوه أبداً به مقبور
يا من يريد رضى الإله بسعيه وافته لا يخفى عليه ضمير
لا نصح ينفع من ينش إمامه والنصح من نصحاؤه مشكور
نصح الإمام على الأنام فريضة ولاهليها ككفارة وطهور
وقال أبو العتاهية (٢) :

ألا نادت هرقة بالحرب من الملك الموفق للصواب
غدا هارون يزعدر بالمنايا ويسرق بالذاكرة القضايا
ورباب يحمل النصر فيها تمر كأنها قطع السحاب
أمير المؤمنين ظفرت فاسلم وأبشر بالفتيمة والإياب

على أن البيزنطيين لم يلبثوا أن تقضوا هذه الهدنة من جديد ، وأخذوا يتقدمون نحو بلاد الدولة العباسية في السنة التالية ، وأوقعوا بالمسلمين جنوى آسيا الصغرى ، وعلى الأخص في مرعش وطرسوس ؛ وساعدهم على إحراز هذا النصر انشغال الرشيد بقمع الثورات الداخلية . ولكنه عاد إلى بلاد الروم على رأس جيش يبلغ مائة وخمسة وثلاثين ألف رجل ، وأوقع

(١) الطبري ج ١٠ ص ٩٢ - ٩٣ .

(٢) نفس المصدر ج ١٠ ص ٩٤ .

هم ، واستولى على هرقله وطوانه Tiyana وغيرهما من أمهات مدن الروم ، وأسر عشرة آلاف ، كما أخذ جزيرة قدرها عشرون ألف قطعة من العملة الذهبية (١) .

يقول الطبرى (٢) : « وكان نفقور اشترط ألا يخرب (الرشيد) ذا السكراع ولا سملة ولا حصن سنان ، واشترط الرشيد عليه ألا يعمر هرقله ، وعلى أن يحمل نفقور ثلثمائة ألف دينار » .

ولم تقتصر حروب هارون الرشيد مع الروم على آسيا الصغرى ، بل تعدتها إلى البحر الأبيض المتوسط ، ففي سنة ١٩٠ هـ غزا العباسيون جزيرة قبرص وأسروا منها ستة عشر ألف نفس ، ومن بينهم أسقف هذه الجزيرة (٣) .

وفي عهد الخليفة الأمين لم تقع حروب بين هاتين الدولتين ، لانشغاله بالفتنة التي قامت بينه وبين أخيه المأمون . وفي عهد المأمون عاد الصراع بين الدولتين ، فقد شجع المأمون توماس الصقلي الذي ثار في آسيا الصغرى على الإمبراطور تيوفيلس Theophilus ، وأمدّه بالمال والرجال ، وحمل على تويجه إمبراطوراً على الدولة البيزنطية نفسها . ولكن سرعان ما انكشفت حيلته ، ولم يتم له ما أراد . واتباع الإمبراطور البيزنطي هذه السياسة نفسها نحو الخليفة العباسي ، لجعل بلاد الروم موئلاً للخرمية أتباع بابك الخرمي الفارسي الذي ثار سنة ٢٠٦ هـ على المأمون ، واعتصم بالأقاليم الجبلية الشمالية الشرقية في منطقة حران ، واستقل عن الدولة العباسية اثنتين وعشرين سنة (٢٠١-٢٢٣ هـ) ، نشر خلالها مذهب في الإباحية . إلا أن إمبراطور الروم سئم في النهاية ، وعرض على المأمون الصلح ، وكتب إليه (٤) : « وأما بعد فإن اجتماع المختلفين على عظمتها أولى بهما في الرأي مما عاد بالضرر عليهما . ولست حرياً أن تدع لحظ يصل إلى ضيورك حظاً تحوزه إلى نفسك ، وفي عليك كلف عن أخبارك . وقد كشت كنتبت إليك داعياً إلى المسألة ، راجياً في فضيلة المهادنة ، لتضع أوزار الحرب عنا ، ولنكون كل واحد لكل واحد ولياً وحواً ، مع اتصال المرافق والفسح في المناسج ، وفك المستأثر وأمن الطرق والبيضة . فإن أبيت فلا أدب لك (في) الخسر ، ولا أزرخف لك القول ، فإني لخائف عليك غمارها ، أخذ عليك أسداها ، شأن خليلي وربها . وإن أقبل فبعد أن قدمت المخذرة وأقت بيني وبينك علم الحجة والسلام » .

ولكن كتاب إمبراطور الروم أنار غضب المأمون ، لأنه كان يجمع بين الدين والقدرة ، ولأن المأمون كان يرغب في فتح القسطنطينية . ولذلك رفض الصلح مع الروم ، ورد على تيوفيلس بهذا الكتاب (٥) : « وأما بعد فقد بلغتني كتابك فيما سألت من الهدنة ، ودهوت إليه من الموادعة ،

(١) Muir : The Caliphate, p. 488 .

(٢) المصدر نفسه ص ٩٩ .

(٣) ج ١٠ ص ٩٩ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

(٥) الطبرى ج ١٠ ص ٢٨٣ .

وخلطت فيه من اللين والشدّة ، بما استعطفت به من شرح المتاجر واتصال المرافق ، وفك الأسارى ورفع القتل والقتال . فلولا ما رجعت إليه من أعمال التؤدة والأخذ بالحلف في قلبه الفكرة ، وألا اعتقد الرأي في مستقبله إلا في استصلاح ما أوثره في معتقه ، لجمعت جواب كتابك لخلا تحمل رجالا من أهل البأس والنجدة والبصيرة ، ينازعونكم عن شكلكم وتقربون إلى الله بدمائكم ، ويستقلون في ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم . ثم أوصل إليهم من الأمداد ، وأبلغ لهم كافيا من العدة والعتاد ، هم أظها إلى موارد المتأيا منكم إلى السلامة من مخوف معرفتهم عليكم ، مودعهم إحدى الحسينين : عاجل غلبة أو كريم منقلب . غير أني رأيت أن أقدم إليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك المحبة من الدعاء لك ولبن مملك ، إلى الوجدانية والشرعية الخفية . فإن آيت ففدية توجب ذمة وثبت نظرة ، وإن تركت ذلك ففي يقين المعانة لنعمتنا ، فابقى عن الإبلاغ في القول والإغراق في الصفة ، والسلام على من اتبع الهدى .

وفي سنة ٢١٨ هـ خرج المأمون لقتال الروم ، ولكن المنية واقعه ودفن في طرسوس .

وفي زمن المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) أصبحت العلاقات بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية أسوأ مما كانت عليه . ولكن المعتصم كان بعيد النظر ، فوجه كل همه للقضاء على فتنة بابك الخرمي أولا ، فانتهر الامبراطور البيزنطي تلك الفرصة وأغار على مدينة زبطرة Zapetra وأحرقها ، وأسر من فيها من المسلمين . وكان الامبراطور يرى من وراء ذلك إلى انقاذ بابك ، وخرج تيوفيلس في مائة ألف . . . وسي المسلمات ومثل من صار في يده من المسلمين ، وسمل أعينهم ، وقطع أنوفهم وآذانهم ، فخرج إليهم أهل الثنور من الشام والجزيرة .

وقد ذكر ابن الأثير^(١) أنه لما خرج ملك الروم وفعل في بلاد الإسلام ما فعل ، بلغ الخبر المعتصم . فلما بلغه ذلك استعظمه ، وكبر لديه ، وبلغه أن امرأة هاشمية صاحبة وهي أسيرة في أيدي الروم : وامتصها فأجابها وهو جالس على سرير : ليك ليك أو نهض من ساعته ، وصاح في قصره ، الفقير الفقير ! ثم ركب دابته .

وقد أثارته هذه الحوادث شعور المسلمين ، ففضج الناس في الأمصار ، واستعانوا في المساجد والديار ، فدخل إبراهيم بن المهدي على المعتصم ، فأنفذه قائما قصيدة يذكر فيها ما نزل بمن وصفنا ويحثه على الجهاد فيها .

يا غارة الله قد عابنت فاتك
هتك النساء وما منن يركب
هيب الرجال على إجرامها قتلت
ما بال أطفالها بالذبح تنتهب؟^(٢)

وكان المعتصم إذ ذاك قد قضى على بابك ، فسار من فوره إلى أنقرة في جيش ضخم ، وهزم الامبراطور البيزنطي واستولى على أنقرة . ثم عزم على تخريب عمورية التي نشأ فيها الامبراطور تيوفيلس . فمسك غربي دجلة حيث التفت حوله جنده ، وعلى رأسهم نخبة من

مشاهير قواده كالأفشين وأشناس ، وبنا الكبير ، ومن العرب أمثال عفيف بن عنبسة ومحمد بن إبراهيم .

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن جند المعتصم بلغ خمسمائة ألف ، وذكر بعض آخر عن لايميلون إلى المبالغة أنه بلغ مائتي ألف ، وخرج المعتصم على رأس هذا الجيش ، وتابع المسير في أراضي آسيا الصغرى حتى وصل إلى عمورية ، فحاصرها وأسرف في قتل الأهلين ، حتى قيل أنه قتل ثلاثين ألفاً من سكانها ، وتركها للتهب والتدمير والإحراق أربعة أيام كاملة ، واقتدى أشرفاها ونبلؤها بأنفسهم بأموال كثيرة .

ولما عاد المعتصم إلى سامرا بعد ذلك النصر المأزور الذي أحرزه على البيزنطيين في عمورية سنة ٣٢٣ هـ ، احتفل باستقباله احتفالاً باهراً ، ومدحه أبو تمام الشاعر المشهور بقصيدته التي قال فيها :

السيف أصدق أنباء من الكتب	في خده الحد بين الجد والحب
والسلم في شهب الأرماع لامة	بين الحميمين لا في السبعة الشهب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت	عنك التي خفلاً معسولة الحلب
أبقت جند بني الإسلام في صعد	والمشركين ودار الشرك في صعب
أم لهم لورجوان تقتدى جعلوا	فدامها كل أم برة وأب
وبرزة الوجه قد أعيت ريلعتها	كسرى وصدت صدوداعن أبي كرب
من عهد إسكندر أو قبل ذلك قد	شابت توأصي الليالي وهي لم تخب
خليفة الله جلأى الله سميك عن	جرثومة الدين والاسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها	تأل إلا على جسر من الذهب
إن كان بين صروف الدهر من رحم	موصولة أو ذمام غير مقتضب
فبين أيامك اللاتي نصرت بها	وبين أيام بدر أقرب النسب
أبقت بني الأصفر المصفر كاسهم	صفر الوجوه وجلت أوجه العرب (١)

٤ - مع بلاد الهند :

ترجع حملات المسلمين على بلاد الهند إلى عهد بعيد ؛ فقد أرسلوا أول حملاتهم بعد أن انتقل الرسول إلى جوار ربه بخمس عشرة سنة . ومن ثم أخذ سيل العرب يتدفق على هذه البلاد إلى القرن الثامن عشر الميلادي ، واستقر بعضهم فيها ، وكونوا عمالك كان لها أثر يذكر في تقدم الحضارة الإسلامية .

وفي عهد معاوية بن أبي سفيان غزا المهلب بن أبي صفرة بلاد السند سنة ٤٤ هـ ، وامتدت

(١) التتغري ص ٢١٠ - ٢١١ ، والسيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٣ .

فتوجه إلى الأراضي الواقعة بين كابل والملتان ، ثم امتدت فتوح المسلمين في هذه البلاد ، فصمكت البوقان والقيقان والدليل . ثم واصل محمد بن القاسم فتوحه في هذه البلاد حتى بلغ نهر السند ، وكان يعرف آنذاك بـ « بهر مهران » . وهناك التقى بـ « داهر ملك السند » ، وكان هو وأوجنده يقاتلون على ظهور الفيلة ، فاقتلوا قتالا شديدا انتهى بقتل داهر ووزيرة أصحابه (١) .



ولما قامت الدولة العباسية ولي أبو جعفر المنصور هشام بن عمرو الثغلي بلاد السند . وفي عهده فتحت بلاد كشمير ، وكانت قد انتفضت ، وهدم البدن وهو مكان عبادتهم ، ويشبه

(٢) البلاذري : كتاب فتوح البلدان ص ٤٤٣ — ٤٤٤ .
Muir : The Caliphate, its Rise, Decline and Fall, pp. 353-4.

كنائس النصراني ويسع اليهود ، وبني في موضعه مسجداً . ويقول البلاذري (١) :
 وكان يد الملتان بدا تهدي إليه الأموال وتنذر له التذور ، ويحج إليه أهل السند ، فيطوفون
 به ويعلقون رموسهم ولحاهم عنده ، ويزعمون أن صنما فيه هو أرب النبي صلى الله عليه وسلم .
 والمولتان أو الملتان مركز مشهور للحجاج من الهند في بلاد البنجاب . قال ياقوت (٢) : «وها
 صنم يعظمه الهند ويحج إليه من أقصى بلدانها ، ويتقرب إلى الصنم في كل عام بمال عظيم ينق على
 بيت الصنم والمعتكفين عليه منهم . وسمى المولتان بهذا الصنم . وقد ألبس جميع بدنه جلدأ يشبه
 السخنيان الأحمر لابين من جشته شيء إلا عيناه . وعيناه جوهرتان ، وعلى رأسه لكيل ذهب ،
 وهو متربع على ذلك السرير ، وقد مد ذراعيه على ركبتيه . ويسمى العرب المولتان فرج
 بيت الذهب ، لأنها فتحت في أول الإسلام ، وكان بها صنق وقسط ، فوجدوا فيها ذهباً
 كثيراً فاتسعوا به » .

وفي عهد الخليفة المهدي غزا المسلمون بلاد الهند في سنة ١٥٩ هـ ، وحاصروا مدينة باربد
 بالمنجنيق وفتحوها عنوة ، وأشعلوا النار في تمثال بوذا . على أن هذه الفزوة كانت كارثة على
 جند العباسيين ؛ فقد فشا الموت فيهم ، حتى مات منهم أكثر من ألف ، ودمرت الزوابع
 سفنهم في الخليج الفارسي ، وغرق كثير من الجند . وما زالت فتوح المسلمين تنسج في بلاد السند
 والهند في عهد الخليفة المأمون . وفي عهد أخيه المعتصم انتشر الإسلام في البلاد الواقعة بين كابل
 وكشمير والملتان . وفي ذلك يقول البلاذري (٣) : « إن بلداً يدعى السيفان بين قسمر والمولتان
 وكابل كان له ملك عاقل . وكان أهل ذلك البلد يبدون صنما قد بنى عليه بيت وأبشوه . فرض
 ابن الملك ، فدعى سدة ذلك البيت فقال لهم : ادعوا الصنم أن يريه ابني ، فغابوا عنه ساعة ،
 ثم أتوه فقالوا : قد دعونا وقد أجابنا إلى ما سألناه ؛ فلم يابث الغلام أن مات ، فوثب الملك
 على البيت فهدمه ، وعلى الصنم فكسره ، وعلى السدة فقتلهم . ثم دعا قوماً من تجار المسلمين
 فعرضوا عليه التوحيد ، فوحّد وأسلم . وكان ذلك في خلافة أمير المؤمنين المعتصم بالله
 رحمه الله » .

(١) فتوح البلدان ص ٤٤٥ . (٢) انظر لفظ المولتان في معجم البلدان لياقوت ،

(٣) البلاذري ؛ فتوح البلدان ص ٤٥١ ، وابن الأثير ج ٦ ص ١٧ .

انظر مجلة كلية الآداب ، المجلد السابع ، يوليو ١٩٤٤ : انتصار الإسلام في الهند بقلم حسن إبراهيم
 حسن ص ٣ ، ٥ ، ٧ .

الباب الحادي عشر

نظم الحكم

١ - النظام السياسي

(١) مظاهر الخلافة :

وضع أبو جعفر المنصور أساس النظام السياسي الذي سارت عليه الدولة العباسية في العصر العباسي الأول ، وهو النظام الذي كان منتشر في الشرق ، وكان مألوفا عند الفرس منذ أيام كورديس Xerxes . وبذلك تمكن العباسيون من أن يحكموا البلاد على النحو الذي كان يحكم به آل ساسان من قبل (١) .

وبقيام الدولة العباسية تطور نظام الخلافة . فان تلك الدولة قد قامت على كواهل الفرس ، الذين سخطوا على الأمويين لعدم تسويتهم بالعرب في الحقوق السياسية والاجتماعية ، مع منافاة ذلك لحق المساواة الذي أقره القرآن والسنة بين البشر . وقد حذا العباسيون حذو الأمويين في تولية العهد لأبنائهم . وكان الفرس يقولون بنظرية ألحق الملك المقدس The Divine Right of Kings ، بمعنى أن كل رجل لا ينتسب إلى البيت المالك ويتولى الملك يعتبر متعصبا لحق غيره . لذلك أصبح الخليفة العباسي في نظرهم يحكم بتفويض من الله لامن الشعب ، كما يتجلى ذلك من قول أبي جعفر المنصور : « إنما أنا سلطان الله في أرضه » . وذلك بخالف ما كان عليه الخلفاء الراشدون الذين استمدوا سلطانهم من الشعب . يدل على ذلك قول أبي بكر عقب توليته الخلافة : « إن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني » ، وقول عمر ابن عبد العزيز : « لست بخير من أحدكم ولكني أثقلكم حملا » .

ويقول السيد أمير على (٢) : « ولقد ظل نظام الحكم في الدولة العباسية استبداديا إلى عهد الرشيد ، على الرغم من أن أصحاب الدواوين أو البارزين من أفراد البيت العباسي كانوا بمثابة مستشارين غير رسميين . أما الخليفة فكان مصدر كل قوة ، كما كان مرجعا لكل الأوامر المتعلقة بإدارة الدولة . وكان من أثر ميل الخلفاء العباسيين إلى الفرس أن أصبح نظام الحكم في عهدهم مأثلا لما كان عليه في بلاد الفرس أيام آل ساسان . يقول بلر (٣) .

(١) كتاب النظم الاسلاميه للذولف ص ٢٠٥ .

(٢) A Short History of the Saracens, p.p. 405—8. (٧)

Palmer : Haroun Al-Raschid, p.p. 87—8. (٣)

لما كان العباسيون يدعون بقيام دولتهم لتنفيذ الفارسي، كان طبعاً أن تسيطر الآراء الفارسية. ولهذا فالتاريخ تدار به أميراً فارسي على رأس الحكومة، كما نجد الخلافة تدار بنفس النظام الذي كانت تدار به إمبراطورية آل ساسان. واحتجب الخليفة عن رعيته، واتخذ الوزير السيف، فأحيط شخصه بالقداسة والرهبة: وظهرت الأزياء الفارسية في البلاط العباسي، واحتفل بالثيروز والمهرجان والرام^(١) وغيرها من الأعياد الفارسية القديمة. لهذا لا تعجب إذا أصبح الخليفة العباسي يعيش معيشة الأكاسرة، تحوطه الآبهة والعظمة، وينحني أمامه الداخل عليه ويقبل الأرض بين يديه. وإذا قرب منه قبل رداؤه، وهو شرف لا يتناهى إلا رجال الدولة البارزون.

أضف إلى ذلك ارتداء الخليفة بردة التي صلى الله عليه وسلم عند توليته الخلافة، أو حضوره في الحفلات الدينية، باعتباره نائباً عنه في حكم المسلمين. كذلك نجد الخليفة العباسي بلقب بلقب إمام، تأكيداً للمعنى الديني في خلافة العباسيين، بعد أن كان يطلق هذا اللقب في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين على من يؤم الناس في الصلاة، على حين كان الشيعة يطلقونه على أفراد البيت العلوي الذين كانوا يعتقدون أنهم أحق بالخلافة من سواهم. وبعد أن صارت الخلافة العباسية تستند إلى نظرية الحق الإلهي، قرب الخلفاء إليهم العلماء ورجال الدين لينشروا بين الناس هذه النظرية التي أصبحت لها شأن في الحياة السياسية في الدولة العباسية^(٢).

وقد ساد العباسيون على نظام تولية العهد أكثر من واحد، وغلوا في ذلك. فقد عهد السفاح (١٣٢ - ١٣٦ هـ) بالخلافة إلى أخيه أبي جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ)، ثم إلى ابن أخيه عيسى بن موسى بن علي بن عبد الله بن عباس. فلما آلت الخلافة إلى المنصور خلع عيسى بن موسى، وبايع ابنه المهدي، وجعل عيسى من بعده^(٣). ولما ولي المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ) الخلافة خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد، وولى ولديه الهادي ثم هارون الرشيد^(٤). كذلك حول الهادي (١٦٩ - ١٧٠ هـ) على خلع أخيه هارون والبيعة لابنه جعفر، مقتدياً في ذلك بما فعله أبوه مع عيسى بن موسى؛ ولم يحترم العهد الذي أخذ على نفسه حين ولاه أبوه عهده، وضيق على أخيه هارون، وحط رجال بلاطه من شأنه حتى مال إلى النزول عن حقه، ولو لا وفاة الهادي.

جاء هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ)، فولى عهده أولاده الثلاثة الأمين والمأمون والمعتز، وقسم البلاد بينهم، وأعطى كلا منهم الفرصة للدفاع عن حقه^(٥)، مما أدى إلى الفرقة وقيام

(١) عيد لهم في اليوم الهادي والعشرين من كل شهر من شهور الفرس، وسماه الراحة والفرح.

(٢) أنظر كتاب النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم حسن والدكتور علي إبراهيم حسن.

ص ٦٣ - ٦٥.

(٣) الفري ص ١٥٥ - ١٥٦.

(٤) المصدر نفسه ص ١٦٢.

(٥) للمعدي: مروج الذهب ج ٢ ص ٢١٥ - ٢١٦.

الفتن والحروب الداخلية . على أن الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ) قد خرج على هذا النظام ، فلم يعهد لابنه محمد . وقد سئل وهو في مرضه الأخير أن يوصى بالخلافة لولده ، فقال كلمته المأثورة : « لا يراني الله أتفادها حياً وميتاً » ، مقتضياً في ذلك أثر عمر بن الخطاب ومعاوية الثاني .

ولا يخفى ما جرت به هذه السياسة من إثارة البغضاء والعداوة بين أفراد البيت المالكي ، فإنه لم يكذبهم الأمر لأحد المتنافسين حتى يعمل على التكيل بمن ساعد خصمه على إقصائه من ولاية العهد . وهكذا تطورت المنافسة بين أفراد البيت المالكي تطوراً غريباً ، وأصبحت خطراً على كيان الدولة العباسية .

(ب) الوزارة

لما انتقلت الخلافة إلى العباسيين ، اتخذوا نظم الحكم عن الفرس - كما تقدم - ومنها الوزارة . وكان الوزير في عهدهم ساعد الخليفة الأمين ، يقضى باسمه في جميع شئون الدولة ، فكان له الحق في تنصيب المال والإشراف على الضرائب . فكان بذلك ينوب عن الخليفة في حكم البلاد ، ويجمع في شخصه السلطتين المدنية والحربية ، بجانب الواجبات العادية من نصح الخليفة ومساعدته . وفي ذلك يقول ابن خلدون (١) : « فلما جاءت دولة بني العباس ، واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت ، عظم شأن الوزير ، وصارت إليه النيابة في إنفاذ الحل والعقد ، وتعبت مرتبته في الدولة ، وعنت لها الوجوه وخصمت لها الرقاب ، وجعل لها النظر في ديوان الحساب ، لما تحتاج إليه خطته من قسم الأعطيات في الجند . فاحتاج إلى النظر في جمعه وتفريقه ، وأضيف إليه النظر فيه ، ثم جعل له النظر في القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ، ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور . وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الدباغ والشيباع ، ودفع إليه . فصار اسم الوزير جامعا لحققي السيف والقلم ، وسائر معاني الوزارة والمعاونة ، حتى لقد دعى جعفر بن يحيى (البرمكي) بالسلطان أيام الرشيد ، إشادة إلى عموم نظره وقيامه بالدولة ، ولم يخرج عنه من الرتبة السلطانية كلها إلا الحجابة ، التي هي القيام على الباب ، فلم تكن له لاستنكافه عن مثل ذلك » .

وكان الوزراء في العصر العباسي الأول يخافون على أنفسهم من بطش الخلفاء بهم ، فكان كل منهم يتجنب أن يسمى وزيراً بعد أن مات أبو الجهم على يد المنصور . وكان خالد بن برمك يعمل عمل الوزراء ، ويأبى أن يسمى وزيراً ، على الرغم من علو منزلته عند الخلفاء .

هكذا كان حال الوزارة في أيام المنصور ، بل في الصدر الأول من هذا العصر . وقد استوزر الخليفة المنصور بعد خالد البرمكي أبا أيوب المورياني ، وكان من أهل موريان (٢) ،

(١) مقدمة ص ٢٠٧ .

(٢) موريان قرية من نواحي خوزستان : معجم البلدان لياقوت .

اشترائه المنصور صيا قبل أن يلى الخلافة ، فثقفه وعلمه ، واتفق أن أرسله مرة إلى أخيه الخليفة السفاح ومعه هدية له ، فلما رآه أعجب بهيته وفصاحته ، فأبقيه عنده وأعتقه ، وجعله من أخص رجاله المقرين إليه ، وأدركه عطاء وصلاته . وظل على ذلك حتى ولى المنصور الخلافة ، فقلده الوزارة . وكان نصيبه نصيب من سبقه من الوزراء إلا خاله بن برمك (١) .

وبعد قتل هذا الوزير المنكود الطالع ، استوزر المنصور الربيع بن يونس ، الذى شارك سلفه فى سوء طالع أيام الهادى . وكان نبيلاً حازماً ، عاقلاً فطناً ، خبيراً بالأمور الحسائية ، ملمّاً بشئون الدولة ، محباً لفعل الخير ، عارفاً بآداب الملوك . رأى المنصور يوماً فى بستانه شجرة من شجر يسمى الخلاف ، فلم يدر ما هى ، فقال : يا ربيع ، ما هذه الشجرة ؟ فقال الربيع : إجماع ووقاق ، وكره أن يقال خلاف .

ولم يزل الربيع حائزاً ثقة المنصور إلى أن مات ، فقام بأخذ البيعة لابنه المهدي ، وظل على ذلك إلى أن قتل الهادى فى خلافته .

وكانت أعمال الوزارة فى عهد المهدي أوضح ، ويد أصحابها أكثر عملاً مما كانت عليه أيام المنصور ، لأن المهدي كان يعتمد على وزرائه بسبب كفايتهم وانضالهم هو بالهو . وكان أول هؤلاء الوزراء أبو عبيد الله معاوية بن يسار ، الذى تقلد الكتابة للمهدي قبل أن يلى الخلافة . وقد عرف له المنصور فضله ، وعزم على أن يستوزره لنفسه ، ولكنه أثر به ابنه المهدي ، ونصح له أن يعمل برأيه ويتبع مشورته . ولما ولى المهدي الخلافة ، فوض إليه الأمور وسلبه الدواوين .

ولكن معاوية كان متكبراً ؛ وكان الربيع بن يونس الحاجب يضر له الكراهة والبغضاء لتكبره عليه وعدم اكترائه به ، وأخذ يدس له عند الخليفة (٢) ، فأوغر صدره على ابنه الذى روى بالزندقة ، وقتل بسبب ذلك ، ثم أمر المهدي وزيره لحجب عنه ، وزالت سلطته ، واعتزل بداره حتى مات سنة ١٧٠ هـ (٣) .

استوزر المهدي بعد أبي عبيد الله معاوية بن يسار ، أبا عبد الله يعقوب بن داود . ولكن هذا الخليفة نكبه وأودعه السجن ، حيث قضى بقية عهد المهدي والهادي وردحا من أيام هارون الرشيد . ويعزو المؤرخون سبب نكبه إلى تشييعه وميله إلى أولاد عبد الله بن الحسن العلوي على ما تقدم (٤) .

(١) انظر كتاب النظم الاسلامية للدكتور حسن ابراهيم حسن والدكتور على ابراهيم حسن ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(٢) الفخرى ص ١٣٤ - ١٣٥ (٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٨ ،

(٤) انظر هذا الكتاب ص ١٤٨ - ١٤٩ .

واستوزر المهدي بعده الفيض بن صالح ، وكان من أهل نيسابور ، وكان نصرانيا فأسلم في أوائل أيام الدولة العباسية ، وأخذ من الأدب وعلو الهمة والبراعة بأوفى نصيب ، كما اشتهر بالسخاء والجلود ، حتى كان يحيى بن خالد بن برمك يقول : إذا استعظم أحد كرمه وجوده : لو رأيت الفيض لصغر عندكم أمرى . . وما يؤخذ عليه ما كان يظهره من الكبر والته ، حتى قال بعض الشعراء ينحرو عليه باللائمة ويحط من شأنه لزهوه وإعجابه :

أبا جعفر جئتُك نسأل نائلاً (١) فأعوزنا من دون نائلك البشر

فما برقت بالوعد منك عمامة^٢ برجي^٣ هاجم من سيب^٤ نائلك القطر^٥

فلو كنت تعطيتنا متى وزيادة لنفصها منك التجبر والكبر

وظل الفيض مترعباً في دست الوزارة حتى مات المهدي ، وولى الهادي الخلافة ، فلم يستوزره ومات سنة ١٧٣ هـ .

استوزر الهادي في مبدأ خلافته الربيع بن يونس ، واستوزر بعده إبراهيم بن دكوان الحراني . وكان اتصاله به لأول مرة عن طريق معلمه الخاص ، إذ كان يصحبه عند ذهابه إليه ، ثم حلف على قلب الأمير الصغير ، وألفه حتى إنه لم يكن يصبر على فراقه . وقد اشتدت باين دكوان السعاية إلى المهدي ، فتهى ابنته عن صحبته ، وهدده بالخلع ، وهدد الحراني بالقتل . ولما أعيت الحيل في إبعاده عنه ، أمر المهدي بإحضاره إليه ، لحضر وهو على أمة الركوب إلى الصيد ، فلما رآه حلف بالله ثلاثاً ليقبلته عند عودته وأمر بحبسه . فأقبل ابن دكوان على الدعاء والتضرع ، ومات المهدي في أثناء غيابه ، وولى الخلافة من بعده ابنه الهادي فاستوزره ، فلم يعمر في الوزارة طويلاً لوفاء الهادي بعد قليل (٦) .

وقد ذكر الماوردي (٥) الفرق بين وزارة التفويض ووزارة التنفيذ فقال : . . ويكون الفرق بين هاتين الوزارتين بحسب الفرق بينهما في النظرين ، وذلك من أربعة أوجه : أحدها ، أنه يجوز لوزير التفويض مباشرة الحكم والنظر في المظالم ، وليس ذلك لوزير التنفيذ . والثاني ،

(١) نائل عطية .

(٢) السيب السواء .

(٣) القطر المطر .

(٤) الأخرى من ١٤٢ - ١٤٣ .

(٥) كتاب الأحكام السلطانية ص ٢٩ .

أنه يجوز لوزير التفويض أن يسلب بتقليد الولاية، وليس ذلك لوزير التنفيذ. والثالث، أنه يجوز لوزير التفويض أن يتصرف في أموال بيت المال بقميص ما يستحق له وبدفع ما يجب فيه، وليس ذلك لوزير التنفيذ. وليس فيها عدا هذه الأربعة ما يمنع أهل الدمة منها... وهذه الفروق الأربعة بين النظريين اختلفت في أربعة من شروط الوزيرين: أحدها، أن الحرية معتبرة في وزارة التفويض وغير معتبرة في وزارة التنفيذ؛ والثاني، أن الإسلام معتبر في وزارة التفويض وغير معتبر في وزارة التنفيذ؛ والثالث، أن العلم بالأحكام الشرعية معتبر في وزارة التفويض وغير معتبر في وزارة التنفيذ؛ والرابع، أن المعرفة بأمرى الحرب والخارج معتبرة في وزارة التفويض وغير معتبرة في وزارة التنفيذ. فاعترفا في شروط التقليد من أربعة أوجه، كما اختلفوا في حقوق النظر من أربعة أوجه، واستويا فيما عداها من حقوق وشروط.

ومن أشهر وزراء التفويض في العصر العباسي الأول «آل برمك»، فقد اتخذ هارون الرشيد خالداً البرمكي وزيراً له وقال له: «قلدتك أمر الرعية، وأخرجت من عنقي إليك. فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب، واستعمل من رأيت، وأزل من رأيت»، وامنض الأمور على ما ترى. ودفع إليه خاتمه الخاص، ثم سلّمه خاتم الخلافة حتى صار بيده الحل والمقد في كل شئون الدولة. وخلفه ابنه جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، فقبض البرمكي على زمام الأمور، وأصبحت أموال الدولة في أيديهم... فظلمت آثارهم وبعدهم، وعمرؤا مراتب الدولة وخططها بالروساء من ولدهم وصنائعهم، واحتازوها لأنفسهم عن سواهم، من وزارة وقيادة وكتابة.

استوزر المأمون الفضل بن سهل، الذي سمي ذا الرياسين، والوزير الأمير، ثم استوزر أخاه الحسن بن سهل، وتزوج ابنته بوران. وكانت دولة بني فضل - على ما قاله صاحب الفخرى (١) - في جبهة الدهر غرة، وفي مفرق العصر درة، وكانت مختصرة الدولة البرمكية. وهم صنائع البرامكة. ثم استوزر أحمد بن أبي دؤاد، وكان من خيرة الكتاب وأجودهم خطاً. ثم جاء بعده وزراء اشتهر بعضهم بالفقه في الدين والحديث، ومنهم من برع في الحقل. غير أن الوزراء الذين استوزرهم المأمون بعد بني سهل لم يكونوا وزراء تفويض، وإنما كانوا وزراء تنفيذ. بمعنى أنه لم يكن لهم استقلال بالأمور، إذ كان المأمون يدير دولته بنفسه فلا يستعمل

نفوذ الوزراء ، كما حدث في عهد أبيه الرشيد مع البرامكة ، وفي عهد أخيه الأمين مع الفضل ابن الربيع ، وفي عهده مع بني سهل .

ومن أشهر وزراء التنفيذ في عهد المأمون ومن جاء بعده من خلفاء العصر العباسي الأول أحمد بن أبي خالد . وكان من الموالي ، على جانب كبير من رجاحة العقل ، كما كان كاتباً نصيحاً بصيراً بالأمور . وقد استشاره المأمون في تولية طاهر بن الحسين على خراسان ، فوصف هذا الرأي وضمن هذا التعيين . على أن طاهراً ما لبث أن قطع الخطبة للمأمون لأمور أنكرها عليه الخليفة ، فهدد المأمون وزيره ، لأنه أشار عليه بتولية طاهر ، وصمم على قطع رقبته إذا هو لم يعمل على التخلص من هذا الخارج ، فأرسل الوزير إلى طاهر هدية فيها كواخ مسمومة ، فأكل منها ومات لساعته . أما أحمد بن أبي خالد فكانت وفاته سنة ٢١٠ هـ في أيام المأمون . ومنهم أحمد بن يوسف ، وكان من الموالي كذلك ، كما كان كاتباً أدبياً ، شاعراً ، عالماً بأمور الدولة وآداب الملوك . استشاره المأمون في رجل كان يكرهه أحمد ، فوصفه وذكر محاسنه ، فقال له المأمون : يا أحمد ! لقد مدحته على سوء رأيك فيه ومعاداته لك ، فقال : « لاني لك كما قال الشاعر :

كني فمنا بما أسديت أني صدقتك في الصديق وفي عدائي
وأني حين تندبني لأمر يكون هواءك أغلب من هوائي

وقد اتخذ الواثق محمد بن عبد الملك الزيات وزيراً به ، وكان منحرفاً عنه قبل توليته الخلافة ، لكنه لما استخلف لم يجد بين رجاله من يقوم مقام هذا الوزير ، فاعتمد عليه في إدارة شئون دولته . وقد ذكر لنا صاحب كتاب الفخرى في الآداب السلطانية السبب الذي من أجله انحرف الواثق قبل خلافة علي ابن الزيات ، وكيف اضطر هذا الخليفة إلى اتخاذ كاتباً له ووزيراً فقال : « كان المعتصم قد أمر لابنه الواثق بمال ، وأحاله به على ابن الزيات ، فتمه وأشار على المعتصم ألا يعطيه شيئاً . فقيل للمعتصم قوله ، ورجع فيما كان أمر به للواثق من ذلك ، فكتب بخطه كتاباً بالحج والتعق والصدقة أنه إن ولي الخلافة ليقتنل ابن الزيات شر قتلة . فلما مات المعتصم وجلس الواثق على سرير الخلافة ، ذكر حديث ابن الزيات ، فأراد أن يماحله ، تخاف ألا يجد مثله ، فقال للحاجب : ادخل إلى عشرة من الكتاب . فلما دخلوا عليه اختبرهم ، فما كان فيهم من أرضاه ، فقال للحاجب : ادخل من الملك محتاج إليه محمد بن الزيات ، فأدخله ، فوقف بين يديه خائفاً ، فقال لحاجم : أحضر إلى المكتوب الفلاني ، فأحضر له الكتاب الذي كان كتبه ، وحلف فيه ليقتنل ابن الزيات ، فدفعه إلى ابن الزيات وقال : اقرأه ! فلما قرأه قال : يا أمير المؤمنين أنا عبدٌ إن عاقبته فأنت حاكم فيه ، وإن كفترت عن يمينك

واستبقته كان أشبه بك ، فقال الواثق : والله ما أبقيتك إلا خوفا من خلو الدولة من مثلك ، وسأكفر عن يميني ، فأتى أجد عن المال عوضا ، ولا أجد عن مثلك عوضا ، ثم كفر عن يمينه واستوزره . وما لبث ابن الزيات حتى أصبح صاحب الأمر والنهي أكثر عما كان في عهد المعتصم (١) .

وكان ابن الزيات شاعرا مجيدا ، فن شعره يرثي المعتصم ويمدح الواثق :

قلتُ إذ غيبوك واصطفقت عليك أيدي الماء والطين
لذهب فتهم المعين أنت على الله نيا ونعم المعين للدين
لا يجبر الله أمة فقدت مثلك إلا بمثل هارون
(ج) الكتابة :

لما كثرت أعمال الوزراء في العصر العباسي الأول ، أصبح من الضروري تعيين موظفين يعاونون الوزير للإشراف على الدواوين المختلفة وإدارة شئونها . ومن أشهر الكتاب في هذا العصر كاتب الرسائل ، وكاتب الخراج ، وكاتب الجند ، وكاتب الشرطة ، وكاتب القاضى . ومهنة كاتب الرسائل لإذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسائل السياسية وختما بخاتم الخلافة بعد اعتمادها من الخليفة ، ومراجعة الرسائل الرسمية ووضعها في الصيغة النهائية وختما بخاتمه ، كما كان يجلس مع الخليفة في مجلس القضاء للنظر في المظالم وختم الأحكام بخاتم الخليفة (٢) . وكان كاتب الرسائل يتولى مكتبة الأمراء والملوك عن الخليفة . وكثيرا ما كان الخليفة يتولى ذلك بنفسه ؛ فقد أئتمن أبى جعفر المنصور ، أنه لما جاءه كتاب محمد النفس الزكية ، ثم كاتبه أن يجيبه ، فقال له المنصور : « لا ، بل أنا أجيبه ، إذ تقارنا على الأحساب فدعى ولياه » .

وقد زخر العصر العباسي الأول بطائفة من الكتاب لم يسمح الدهر بمثلهم . فقد اشترى يحيى بن خالد البرمكي ، والفضل بن الربيع في عهد هارون الرشيد ، والفضل والحسن ابنا سهل وأحمد بن يوسف في عهد المأمون ، واشتهر محمد بن عبد الملك الزيات والحسن بن وهب وأحمد ابن المدبر في عهد المعتصم والواثق .

وقد حرص الخلفاء على أن تدون الرسائل بأسلوب شائق بليغ ، كما حرصوا على اختيار كتابهم من رجال الأدب من أحرق الأسر ، ومن عرفوا بسعة العلم ورواية الأسلوب (٣) .

(١) التتبع من ١٧٥ - ١٧٦ .

(٢) ابن خلدون : مقدمة من ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٣) كتاب النظم الإسلامية للمؤلف من ١٨٠ - ١٨١ ، الجبشيارى : كتاب الوزراء والكتاب

(د) الحجابة :

كان الخلفاء الراشدون لا يمنعون أحداً من الدخول عليهم ، بل كانوا يناطبون الناس على اختلاف مراتبهم بلا حجاب . فلما انتقل الحكم إلى بني أمية اتخذ معاوية بن أبي سفيان ومن جاء بعده من الخلفاء الحجاب بعد حادثة الخوارج مع عليّ ومعاوية وعمرو بن العاص ، وذلك خوفاً على أنفسهم من شر الناس ، وتلافياً لآزدحامهم على أبوابهم ، وشغلهم عن النظر في مهام الدولة .

والحاجب موظف كبير يشبه كبير الأمناء في أيامنا . وكان يشغل منصباً سامياً في القصر ، ومهمته إدخال الناس على الخليفة مراعيًا في ذلك مقامهم وأهمية أعمالهم .

وقد اتقن الخلفاء العباسيون بني أمية ، فانخذلوا الحجاب ، وزادوا في منع الناس عن ملاقاتهم إلا في الأمور الهامة ، وهذا ما يسميه ابن خلدون بالحجاب الثاني . فصار بين الناس وبين الخليفة داران : دار الخاصة ودار العامة ، يقابل كل طائفة في مكان معين على ما يراه الحجاب . ثم تطرقوا عند انحطاط الدولة إلى حجاب ثالث أشد من الأولين .

وقد علت مرتبة الحاجب بارتقاء الحضارة الإسلامية في أيام العباسيين ، فأصبح يستشار في كثير من أمور الدولة ، ويستبد بالفوز دون الوزير ، ويلزم أصحاب الدواوين بالرجوع إليه في كل أمور الدولة ، ويحتم عليهم ألا يفصلوا في الأعمال إلا بعد موافقته (١) .

ومن أبرز الحجاب في العصر العباسي الأول : الفضل بن الربيع ، الذي أوقع بالبرامكة عند الرشيد وأشعل نار الفتنة بين الأمين وأخيه المأمون ، وإيتاخ حاجب الخليفة الواثق . ويقول البيهقي (٢) : قال الواثق لابن أبي دؤاد : « من أولى الناس بالحجة ؟ فقال : مولى شفيق يصون لعلاقة وجهه من ولاء ، ويستعبد الناس لمولاه ؛ فنظر الواثق إلى إيتاخ — وكان واقفاً على رأسه — فقال : قد ولاء أبو عبد الله الحجة . فكان إيتاخ يعرف ذلك ، ويتقدم بين يديه إلى أن يبلغ مرتبته . »

٢ - النظام الإداري

(أ) الإمارة على البلدان :

كان النظام الإداري في العصر العباسي الأول نظاماً مركزياً ، وأصبح العمال على الأقاليم مجرد عمال لا ولاية مطلقة السلطة ، بعكس ولاية الأمويين كالحجاج بن يوسف الثقفي وزيد بن

(١) Metz: The Renaissance of Islam, p. 15.

(٢) كتاب المحاسن والساوي ج ١ ص ١٢٤ .

أبيه ، كما أنهم لم يكونوا من الشخصيات البارزة . ولذلك استحال النظام اللامركزي إلى نظام مركزي ، مما يشعر بتقلص نفوذ المال . وكان من أهم الموظفين في الولايات الإسلامية في العصر العباسي الأول : صاحب بيت المال ، وصاحب البريد ، والقاضي ، واقتصر عمل الوالي على الصلاة وقيادة الجند .

ويقول سيد أمير علي (١) : أما الإدارة فكانت قائمة على قواعد عديدة مماثلة للنظم الحديثة في الأمم المتحضرة ، بل قد يمكن القول إنها كانت متقدمة من بعض الوجوه عما هي عليه في أيامنا هذه . فكانت كل مناصب الدولة ، كما كان الحال في الدولة العثمانية ، مفتوحة أمام كل من المسلمين واليهود والنصارى على السواء .

وكان الخليفة العباسي في هذا العصر يختار عمال الأقاليم بنفسه لإدارة شئونها . بيد أن سلطتهم المدنية والقضائية لم تكن خالصة من كل قيد ، فلم يترك العامل في ولايته زمناً طويلاً . وإذا عزل عن منصبه طلب منه أن يقدم بياناً مفصلاً عن شئون ولايته . وكان أقل شك في صدقه كافيًا لمصادرة أملاكه جميعها . وفي أيام المنصور لم تكن مهمة الوالي بأى حال أكثر من وظيفة صورية .

وقد ذكر الماوردي (٢) أن الأمانة على الأقاليم كانت ثلاثة أنواع :

١ — إمارة الاستكفاء : وفيها يفوض الخليفة إلى الوالي إمارة بلد أو إقليم ، فيشمل نظره فيه على سبعة أمور : أحدها النظر في تدبير الجيوش وترتيبهم في النواحي وتقدير أرزاقهم ، إلا أن يكون الخليفة قدرها فيذرهما عليهم ، والثاني النظر في الأحكام وتقليد القضاة والحكام ، والثالث جباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال فيهما وتقريب ما يستحق منهما ، والرابع حماية الدين والذهب عن الخريب ومراعاة الدين من تغيير أو تبديل ، والخامس إقامة الحدود في حق الله وحقوق الآدميين ، والسادس الإمامة في الجمع والجماعات حتى يؤم بها أو يستخلف عليها ، والسابع تسير الحجيج من محله ومن سلكه من غير أهله حتى يتوجهوا معانين عليه . فإن كان هذا الإقليم ثغراً متاخماً للعدو ، اقترن بها ثامن ، وهو جهاد من يليه من الأعداء . وقسم غنائمهم في المقاتلة وأخذ خمسها لأهل الخنس .

٢ — إمارة الاستيلاء : وهي أن يستولى أحد الأمراء قسراً على ولاية من الولايات ، فيضطر الخليفة إلى إقراره عليها ويفوض إليه تدبيرها وسياستها .

Sayed Ameer Aly: A Short History of the Saracens, pp. 408—9. (١)

والنظم الإسلامية للوُلف من ٢٠٤ — ٢٠٦ .

(٢) الأحكام السلطانية ص ٢٨ — ٣٤ .

٣ - الإمارة الخاصة : بمعنى أن يقصر الخليفة عمل الوالى على تدير الجيش وسياسة الزعية ، وحماية البيضة والذب عن الحرم ، دون التمرض للقضاء والأحكام أولجاية الخراج والصدقات . وكانت الدولة العباسية في عهد السفاح تنقسم سياسيا إلى عدة ولايات هى :

(١) الكوفة والسواد (٢) البصرة وإقليم دجلة والبحرين وعمان (٣) الحجاز واليمامة (٤) اليمن (٥) الأهواز ويشمل خوزستان وسستان (٦) فارس (٧) خراسان (٨) الموصل (٩) الجزيرة وأرمينية وأذربيجان (١٠) سورية (١١) مصر وإفريقية (١٢) السند .

وقد فصل السفاح فيها بعد فلسطين عن الشام ، كما فصل أرمينية وأذربيجان عن الجزيرة وجعل منهما ولايتين . وأصبحت صقلية تابعة لولاية إفريقية . واستمرت إفريقية تحت إشراف والى مصر إلى أن استقل إبراهيم بن الأغلب بحكم هذه الولاية استقلالاً داخلياً في عهد هارون الرشيد (١) .

وقد جرت العادة أن يولى الخلفاء العباسيون الولايات الإسلامية البعيدة بعض أفراد البيت العباسى وأكابر القواد . غير أن هؤلاء وأولئك قد آثروا البقاء في بغداد أو في سامرا ، وأنابوا عنهم نوابا يحكمون هذه الولايات باسمهم . ولم يكن هذا التقليد الجديد شديد الخطر على سلامة الدولة العباسية وهى في قوتها . على أنه لما ضعفت السلطة المركزية ، ساءت الحالة في هذه الولايات ، وفتح بعض نواب الولاة إلى الاستقلال ، فظهرت في مصر الدولتان الطولونية والإخشيدية ، وظهرت في المشرق الدول الطاهرية والصفارية والسامانية وغيرها .

وقد ظل نظام الحكم في الدولة العباسية كما وضعه المنصور إلى عهد الرشيد ، على الرغم من أن أصحاب الدواوين وأفراد البيت العباسى كانوا بمثابة مستشارين غير رسميين . أما الخليفة فكان مصدر كل قوة ، كما كان مرجع كل الأوامر المتعلقة بإدارة الدولة . ولكن ظهر بتوالى الأيام أن هذه الأعباء كانت مرفقة لا يستطيع القيام بها رجل واحد ؛ ومن ثم أصبح من الضروري تعيين موظفين يعاونون الوزير في الإشراف على الدواوين المختلفة وإدارة شئونها .

(ب) الدواوين .

وكان النظام الإدارى في العصر العباسى الأول من حيث توزيعه للعمل ، يعادل خير النظم الحديثة . وهالك أهم دواوين الدولة التى كانت تشبه الوزارات في العهد الحاضر :

ديوان الخراج ، وديوان الدية ، وديوان الزمام ، وديوان الجند ، وديوان الموالي والغلمان (وتسجل فيه أسماء موالى الخليفة وعبيده) ، وديوان البريد ، وديوان زمام النفقات ، وديوان الرسائل ، وكانت مهمة صاحبه إذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة ، وديوان النظر في المظالم ، وديوان الأحداث والشرطة ، وديوان العطاء ، وديوان الحواميج ، وديوان الأحشام ، وديوان المتح أو المقاضاة ، وديوان الأكرة للأشراف على الترع والجسور وشئون الري .

وكان ديوان الأزمّة أو الزمام (ويشبه ديوان المحاسبة اليوم) ، الذي أنشأه الخليفة المهدي ، من أهم دواوين الدولة ^(١) . وكانت مهمة صاحب هذا الديوان جمع ضرائب بلاد العراق أغنى أقاليم الدولة العباسية ، وتقديم حساب للضرائب في الأقاليم الأخرى . ومن اختصاص صاحب هذا الديوان جمع الضرائب النوعية المسماة بالمعاون ، التي كانت تجمع لرجل يضبطها بزمام يكون له على كل ديوان ، فيتخذ دواوين الأزمّة ويولى على كل منها رجلا . وقد أنشأ العباسيون ديوانا سموه ديوان النظر أو المسكّنات والمراجعات ، وينقسم أربعة أقسام : ديوان الجيش وفيه الإثبات والعطاء ، وديوان الأعمال ويتولى الرسوم والحقوق ، وديوان العمال ويتنصص بالتقليد والعرل ، وديوان بيت المال وينظر في الدخل والخروج ^(٢) .

وكانت هناك إدارة خاصة تنظر في مصالح غير المسلمين ويدهي رئيسها كاتب الجهاز .

ولم تكن الحكومة العباسية تتدخل في شئون الجماعات إلا بمقدار ، بل كانت كل بلدة أو قرية تدبر شئونها الخاصة بنفسها ، ولا تتدخل الحكومة إلا في حالة نشوب الفتن أو الامتناع عن دفع الضرائب ، غير أنها — مع ذلك — كانت تقوم بالرقابة الفعالة على جميع الشئون التي تصل بالوزارة والري من بناء القنوات وترميمها ^(٣) .

(ج) البريد :

كان للبريد ديوان كبير في بغداد له محطات على طول الطريق . وقد ظل حمام الراجل مستخدما في نقل الرسائل حتى عهد الخليفة المعتصم . وساعدت معالم الطرق التي أقامتها الدولة التجار في أسفارهم ، كما كانت أساسا للبحوث الجغرافية . إلا أن البريد كان خاصا بأعمال الدولة ، لئلا نقل

Sayed Ameer Aly : A Short History of the Saracens, p. 415. (١)

& Von Kremer : Cultur - Geschichte des Orients, translated by : Khuda Bukhsh : The Orient under the Caliphs, pp. 235—8

(٢) النظم الإسلامية للمؤلف ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٢٢ .

رسائل الجمهور ، ومن ثم كان مصلحة من مصالح الدولة الخاصة . فكان صاحب البريد يراقب العمال ، ويتجسس على الأعداء ، ويقوم بالأعمال التي يقوم بها رئيس قلم المخابرات في وزارة الدفاع الآن . وكانت مهمة صاحب البريد أول الأمر توصيل الأخبار إلى الخليفة من عماله في الأقاليم ، ثم توسعوا فيه حتى جعلوا صاحبه عيناً للخليفة ، ينقل أوامره إلى ولايته ، كما ينقل أخبار ولايته إليه (١) .

وقد اهتم الخلفاء العباسيون بهذا النظام واعتمدوا عليه اعتماداً كبيراً في إدارة شئون دولتهم . وكان أبو جعفر المنصور يقول : « ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر ، لا يكون على بابي أصف منهم ، قليل له يا أمير المؤمنين من هم ؟ قال : هم أركان الملك ، لا يصلح الملك إلا بهم ، كما أن السرير لا يصلح إلا بأربعة قوائم ، إن نقصت واحدة وهى : أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى ، والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية فاني عن ظلمها غنى ، والرابع . . . ثم عرض على إصبعه السبابة ثلاث مرات ، يقول في كل مرة : آه آه . قيل له : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب إلىي بخبر هؤلاء على الصحة » (٢) .

وكانت عين المنصور ساهرة لا تنام عن عماله ، وما يأتونه في أعمالهم من خير أو شر ؛ وقد كتب إليه عامل البريد عن واليه في حضرموت أنه يكثر الخروج في طلب الصيد ، فكتب إلى هذا الوالي : « شككتك أمك ، وهدمتك عشيرتك ، ماهذه المدة التي أعدتها للنكابة في الوحش ؟ إنما استكفيتك أمور المسلمين ولم تستكفك أمور الوحش ، سلم ما كنت تلى من حملنا إلى فلان بن فلان ، والحق بأهلك مذموماً مدحوراً » (٣) .

وقد استخدم أبو جعفر المنصور عمال البريد الذين كانوا عيوناً له وعزناً على الإشراف على أموره دولته ، وبواسطتهم كان يقف على أعمال الرعاة ، وعلى ما يصدره القضاة من الأحكام ، وما ردت بيت المال من الأموال وما إلى ذلك . كما كان ولاية البريد يوافونه بأسعار الحاجيات من قلع وجوب ، وأذم وما كولات وغيرها . وبلغ من انتظام إدارة البريد في عهده أن عماله كانوا يوافونه بذلك مرتين في كل يوم . فإذا صلى المغرب وافوه بما حدث طول النهار ، وإذا صلى الصبح كتبوا إليه بما جرى في الليل من أمور . وهذا كان يقف المنصور على كل ما يحدث في الولايات الإسلامية . لذا كان شديد الاتصال بولائه ، فيوقف القاضي عند حده إذا ظلم ،

(١) Von Kremer : Orient Under the Caliphs, p. 288 seq.

(٢) الطبري ج ٩ ص ٢٩٧ .

(٣) المصدر قسمة ج ٩ ص ٣١٤ ، مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٢ .

ويرجع السعر إلى حالته الأولى إذا غلا . وإن رأى تقصيراً من أحدهم وبخه ولامه أو عرله من عمله مهاناً .

ويقول فون كريب^(١) عن نظام البريد في عهد العباسيين : « إنه كان على رأس كل مصلحة في الولايات الكبيرة عامل بريد ، مهمته موافاة الخليفة بجميع الشؤون الهامة ، والإشراف على أعمال الوالي ، كما كان بعبارة أخرى ، مندوباً أولته الحكومة المركزية نفقها . وعلى الرغم من كل ذلك ، فقد بدأ الولاة يستقلون بولاياتهم شيئاً فشيئاً ، حتى أصبحت ولاية هذه الأقاليم وراثية . ولا غرو فقد كان ولاء الأقاليم الكبيرة يولون من قبلهم الولاة ، وسرعان ما خرجت مقاليد الأمور في حاضرة الدولة نفسها من أيدي الخلفاء . »

(د) الشرطة :

ومن النظم الإدارية الهامة في العصر العباسي الأول نظام الشرطة . يقول ابن خلدون^(٢) : « وكان أصل وضعها في الدولة العباسية لمن يقيم أحكام الجرائم في حال استبدائها أولاً ، ثم الحدود بعد استيفائها . فإن التهم التي تعرض في الجرائم لا تنظر للشرع إلا في استيفاء حدودها ، وللسياسة النظر في استيفاء موجباتها باقرار يكرهه عليه الحاكم إذا احضت به القرائن ، لما توجيه المصلحة العامة في ذلك . فكان الذي يقوم بهذا الاستبداء ، وباستيفاء الحدود بعده إذا تزه عنه القاضي ، يسمى صاحب الشرطة . وربما جعلوا إليه النظر في الحدود والدماء باطلاق ، وأفردوها من نظر القاضي ، ونزهوا هذه المرتبة ، وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم . ولم تكن عامة التنفيذ من طبقات الناس ، إنما كان حكمهم على الدماء وأهل الرتب والضرب على أيدي الرعاع والفجرة . ثم عظمت نباهتهم في دولة بني أمية بالأندلس ، ونوبت إلى شرطة كبرى وشرطة صغرى ، وجعل حكم الكبرى على الخاصة والدماء ، وجعل له الحكم على أهل المراتب السلطانية والضرب على أيديهم في الظلمات ، وعلى أيدي أقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه ، وجعل صاحب الصغرى مخصوصاً بالعامية . ونصب لصاحب الكبرى كرسي بباب دار السلطان ، ورجال يتبعون المقاعد بين يديه ، فلا يرحون عنها إلا في تصريحه . وكانت ولايتها للأكبر من رجالات الدولة ترشيحاً للوزارة والحجابة . » وكان صاحب الشرطة يختار من علية القوم ومن أهل العصبة والقوة . وهو أشبه بالمحافظ في هذا العصر ، لأنه عبارة عن رئيس الجند ، الذين يساعدون الوالي على استتباب الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين .

Orient Under the Caliphs, p. 282 seq. (١)

٢١٩ — ٣١٨ مقدمة (٢)

٣ — النظام الحربي :

وقد بلغ عدد الجيش في عهد الخلفاء العباسيين مئات الألوف من الجند الذين كانوا يكرنون الجيش النظامي للدولة . وكانت رواتبهم تدفع لهم بانتظام . ثم قلت أرزاقهم تبعا لقلّة عددهم . ولما بلغت قوة العباسيين أشدها في بغداد ، أصبح الجندي يتقاضى راتبا شهريا قدره عشرون درهما (والدرهم يساوي أربعة قروش تقريبا) . وبجانب الجنود النظامية طائفة أخرى من الجنود المتطوعة من البدو ، وطبقة الزراع وسكان المدن الذين اشتركوا في الحروب ، مدفوعين بعوامل دينية أو مادية .

وكان تقسيم الجند تابعا لجنسية أفرادهم : ففهم الحربية ، وهم الفرسان الذين كانوا يتسلحون بالرمح وهم من جند العرب ، والمشاة وكانوا من الفرس ولا سيما الخراسانيين . وكان الجند العربي حتى آخر عهد الدولة الأموية من العرب . ولما جاءت الدولة العباسية بمساعدة الفرس ، دخل في الجيش العربي المنصر الفارسي الذي تغلغل نفوذه في جسم الدولة .

ولم يكن اعتماد الخلفاء العباسيين على الفرس راجعا إلى مساعدة هؤلاء لهم في تأسيس دولتهم ، بل كان راجعا أيضا إلى العصية التي كانت تشتعل تارها بين الجند العربي من حين إلى حين ، حتى إن أبا جعفر المنصور فكر في تأسيس الكرخ جنوبي بغداد ، ليمد عنه خطر جنده من البغية والمضرة (١) . فقد تعرض عربي من عرب الشمال للتليفة المأمون مرارا . وقال له : « أنظر لعرب الشام كما نظرت إلى عجم خراسان . قال : أكثرت عليّ يا أخا الشام ، والله ما أنزلت قيسا عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد . وأما الذين فوّاهما أحببتهما وما أحبتي قط ، وأما قضاة فسادتها تنتظر السفاني وخروجه فتكون من أشباحه ، وأما ربيعة فساخطة على الله مذ بعث الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم من مضر ، ولم يخرج اثنين إلا خرج أحدهما شاريا أعزب فعل الله بك » .

وقد علق الخنصري (٢) . على هذه البارة بقوله : « وهذا تصرّح عظيم من المأمون . وهو يدل على أن تلك القوة العربية التي كان العالم الاسلامي يحس بوجودها ، وتخشى الخلفاء سيطرتها وانحرافها ، قد اتضمت ، فاجترأ خليفة المسلمين أن يجهر بمثل هذا القول على ملاّ من الناس . ولما كان جيش الدولة هو الذي يدل على حقيقة أمرها ، كان من الواضح

(١) الطبري ج ٩ ص ٢٨١ — ٢٨٢ . (٢) تاريخ الدولة العباسية ص ٢٧٨ .

أن الدولة ليس لها من العربية إلا اللغة . أما العصية العربية المنصر العربي فقد أشرقت على الإجماع .

ولما ولي المتصم الخلافة سنة ٢١٨ هـ ، رأى أن دولته الواسعة لابد أن يقوم بحراستها جيش قوى ، فاستكثر من الأتراك ، لأن أمه كانت تركية ، فولاهم حراسة قصره ، وأسند إليهم أعلى المناصب ، وقدم الولايات الكبيرة ، وآثرهم على الفرس والعرب في كل شيء ، فدبت الغيرة والحسد في نفوس القواد ، وبخاصة العرب ، فعملوا على التخلص منهم ، وأغروا العباس ابن المأمون بالمطالبة بالخلافة ، ودبروا المكائد للتخلص من المتصم ، ولكنه قضى على هذه المؤامرة وقتل العباس كما تقدم .

وكان من أثر هذه المؤامرة أن أقصى المتصم القواد من العرب والفرس تدريجياً ، وبما أسماه من ديوان العطاء ، وزاد اعتياده على الأتراك ، حتى أربى عددهم على السبعين ألفاً (١) .

من هذا نرى أن العصية في الجيش لم تقتصر على العصية العربية القبلية بين النخبة والمضربة ، بل تعدت ذلك إلى العصية القوية التي قامت بين الترك والعرب ، تلك العصية التي ظهرت في عهد المتصم وكانت تودي بحياته حين سار لمحاربة الإمبراطور البيزنطي نيو فيل . إلا أن المجال لم يتسع لها ، لأن الأتراك أقصوا العرب نهائياً ، وأصبح لهم الأمر والنهي ، فاندحروا في الأهلين واشتغلوا بالزراعة والصناعة والتجارة .

وتبين وصف الآلات الحربية التي استعملها العباسيون بما ذكره المسعودي (٢) عن حصار جند المأمون ببغداد :

« ونصب له (هرثمة بن أعين) على بغداد المنجنيقات ، ونزل في رقعة كواذى والجويرة ، فتأذى الناس به ، وصعد نحوه خلق من الميادين (٣) وأهل السجون — وكانوا يقاتلون عراة في أوساطهم التباين (٤) والمأزر (٥) . وقد اتخذوا لرموسهم دواخل من الخوص سموها

(١) أنظر كتاب النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم حسن والدكتور علي إبراهيم حسن ٢٢٨ — ٢٣٠ .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠٧ — ٣٠٨ .

(٣) قوم يختفون نهاراً ويظهرون ليلاً ، وهم الصوص .

(٤) التباين : جمع تباين (بالضم والتشديد) وهي سراويل صغيرة مقدار شبر تستر المورة للطفلة فقط ، تكون للملاحين والصارعين .

(٥) المأزر : جمع مئزر ، وهو اللحية ، وكل ماسترك .

الحوذ، ودرقا^(١) من الخوص والبوارى^(٢) قد قيرت^(٣) وحشيت بالحصى والرمل، على كل عشرة عريف، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب، وعلى كل عشرة نقيب قائد، وعلى كل عشرة قواد أمير. وللكل ذى مرتبة من الركوب على مقدار ماتحت يده. قال العريف له أناس مركبهم غير من ذكرنا من المقاتلة، وكذلك النقيب والقائد والأمير، يركبون أناسا عراة قد جنل في أعتاقهم الجلاجل والصوف الأحمر والأصفر ومقاود قد اتخذت لهم، ولجم وأذنان من مكائس ومذاب، فيأتى العريف وقد أركب واحدا، وقدامه عشرة من المقاتلة... ويأتى النقيب والقائد والأمير كذلك. فتقف النظارة ينظرون إلى حركتهم مع أصحاب الخيول الفراء^(٤) والجواشن^(٥) والدروع والتجافيف^(٦) والرماح والدرق التبتية^(٧).

وكان عرض الجيش جزءا من تدريب الجنود في أوائل عهد الدولة العباسية، وخاصة في عهد أبي جعفر المنصور الذى اهتم بالشئون الحربية اهتماما كبيرا. وكان يلزمه أن يعرض جنده وهو جالس على عرشه، لابساً خوذته. وكانت الجنود تصفأمامه في ثلاثة أقسام: عرب الشمال (مضر)، وعرب الجنوب (اليمى) والحراسانيون^(٨).

٤ — النظام المالى :

تعمل السياسة المالية لكل دولة على تحقيق التوازن بين مواردها ومصارفيها. وقد ساريت الدولة الإسلامية على هذه السياسة منذ ظهورها، فأنشأت بيتا للبال، يقوم على صيائته وحفظه والتصرف فيه لصالح الجماعة الإسلامية. وهو يشبه وزارة المالية، وصاحبه يقوم مقام وزير المالية فى الوقت الحاضر.

(١) الدرق : جمع درقة ، الجيفة ، وهى ترس من جلود البس فيه خشب ولا عتب .

(٢) البوارى : جمع بورى أو بورية ، وهو الحصير المنسوج من القصب ، فارسى معرب .

(٣) قير الصم : طلاء بالقار ، وهو الزيت .

(٤) الفراء : جمع فاره ، وهو النسيط .

(٥) الجوشن : مثل الزرد يلبس على الظهر ، والفرق بينه وبين الزرد أن الزرد يكون من حلقة واحدة فقط ، والجوشن حلقة يتداخل فيها صفائح رقيقة من التتک .

(٦) التجافيف جمع تجفاف ، وهو ما جليل به الفرس من سلاح وآلة تقي الجراح .

(٧) هذه التسمية لى « تبت » بلدة بأرض الترك .

(٨) كتاب النظم الإسلامية ص ٢٣٢ — ٢٣٥ .

وأهم موارد بيت المال : الخراج ، والحزبة ، والزكاة ، والفيء ، والغنمية . والعشور (١) .
وقد زادت الضرائب في عهد بني أمية على ما كانت عليه في عهد الخلفاء الراشدين ، إذ لم يراع
الخلفاء القواعد التي قررها أسلافهم ، بل تجاوزوا حدود الضرائب إلى فرضوها ؛ ومن
الأمويون نظاما دقيقا للإشراف على جباية الأموال . ففي عهد عبد الملك بن مروان كان يعمل
تحقيق دقيق مع الجباة وموظفي الخراج عند اعتواهم أعمالهم الإدارية . وكان للتحقيق مع
هؤلاء أماكن خاصة تسمى « دار الاستخراج » (٢) .

وفي العصر العباسي الأول كانت هناك ثلاث طرق لجباية الخراج :

١ - المقاسمة ، وهي إما أن تكون نقدا أو نوعا أو مما معا .

٢ - المقاسمة ، وهي ضريبة نوعية تؤخذ من المحصول .

٣ - المقاطعة ، وهي ضريبة تجبي بمقتضى اتفاقات معينة بين الحكومة والمحاصة . ويدخل
في هذا النظام معظم أراضي التاج . وكثيرا ما كان يعنى البعض من دفع الضرائب ، حتى في
المهود التي ساد فيها العسر والجلب . مثال ذلك أن الخليفة المعتضد العباسي تجاوز عن دفع
الضريبة بآرجائه الستة المالية من منتصف مارس إلى ١٧ يولية (ربيع الأول) ، ثم بآرجائها مرة
أخرى إلى ٢١ يولية .

وإذا ذكرنا رخاء الدولة وحسن حالة الإزراع ونفاق التجارة ، لانعجب إذا علمنا أن
دخل الدولة العباسية في عهد هارون الرشيد قد بلغ ٢٧٢,٠٠٠,٠٠٠ درهم وأربعة ملايين ونصف
من الدينار في السنة (٣) .

وقد اهتم العباسيون بالخراج اهتماما عظيما ، وعلى الأخص في عهد هارون الرشيد ، الذي
أمر أبا يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري صاحب الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت ، ومن
أشهر فقهاء عصره ، أن يكتب في الخراج كتابا جامعا « يعمل به في جباية الخراج والعشور
والصدقات والجوالى (٤) » ، وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به . وإنما أراد بذلك رفع

(١) راجع كتاب النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم حسن والدكتور علي إبراهيم حسن
ص ٢٦٥ - ٢٨٥ ، لمحة طرق جباية الضرائب ووسائل الانتفاع بكل منها في عهد الخلفاء الراشدين ،
(٢) نفس المصدر ص ٢٧٠ .

(٣) Sayed Ameer Ali, p. 426 et seq. (٤)

(٤) الجوال هي اختيار الأحسن من كل شيء ، سواء أكان من الممتلكات أو من الناس ،
المزبل منها والصغير . وربما كانت هذه هي وظيفة العامل في الزكاة . الفاطميون في مصر المؤلف
ص ١٨٣ هامش رقم (٢) .

الظلم عن رعيته والصالح لأمرهم^(١) . وقد يبين أبو يوسف في هذا الكتاب الطريقة المثلى لتنظيم جباية الخراج وغيره من موارد بيت المال ، فسمى كتابه « كتاب الخراج » . وفي هذا الكتاب تناول المؤلف الكلام على ثلاثة أمور :

الأول - موارد بيت المال ، وتنقسم ثلاثة أقسام :

(١) خمس الفنائم .

(٢) الخراج ويدخل تحته ما يسمى وظيفة الأرض الخراجية مجمعية أهل الذمة ، ثم العشور . وقد حدثت في عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ ومن ثم لم يرد لها ذكر في القرآن الكريم . وحدّ أرض الخراج : كل أرض من أراضي الأعمام ظهر عليها المسلمون عبثة فلم يقسمها الإمام ، وأبقاها بأيدي أهلها ، أو صالحهم عليها وصيرهم ذمة . ويخرج من ذلك أنواع من الأرض لا يوضع عليها الخراج ، وإنما تكون أرضاً عشيرة ، وهى كل أرض للعرب غير بيت تغلب ، وكل أراضي الأعمام أسلم عليها أهلها طوعاً ، وكذلك كل أرض من أراضي الأعمام ظهر عليها المسلمون عبثة قسمها الإمام بين الفاتحين .

(٣) الصدقات .

الثانى - بيان الطريقة المثلى لجباية تلك الأموال .

الثالث - بيان الواجبات التى يقوم بها بيت المال^(٢) .

وقد عمل الخلفاء العباسيون على عدم إرهاق المزارعين ، وعلى البعض بوضع قواعد ثابتة لمقدار الخراج على حسب نوع المحصول وجودة الأرض ، وراعوا خفض الضرائب فى بعض الأحيان إذا قل المحصول بسبب من الأسباب^(٣) .

وصفوة القول أن خوائن العباسيين كانت تفيض بالأموال التى كانت تجبى من الضرائب ، حتى بلغت فى أيام هارون الرشيد ما يقرب من اثنين وأربعين مليون دينار ، عدا الطرية العينية التى كانت تؤخذ مما تنتجه الأرض من الحبوب^(٤) .

وقد بلغ ما حمل إلى الرشيد من المال فى كل سنة نحو خمسمائة ألف ألف درهم من الفضة وعشرة

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج (القاهرة سنة ١٣٤٦ هـ) ص ٣ .

(٢) أظفر الحضرى : تاريخ الأمم الإسلامية : الدولة العباسية ص ١٨٨ - ٢١٥ .

(٣) الدكتور حسن إبراهيم والدكتور على إبراهيم : النظم الإسلامية ص ٢٨٩ .

(٤) الفيلسندى : مسبح الأعمى ج ٢ ص ٢٧٠ .

آلاف ألف دينار من الذهب. ويقول الجهمشيارى (١) إن أبا الوزير عمر بن مطرف الكاتب
عمل في أيام الرشيد تهديراً عرضه على يحيى بن خالد (البرمكي) لما يحمل إلى بيت المال
بالحاضرة من جميع النواحي من المال والأمتعة، جاء فيه :

ثمان غلات السواد : ثمانون ألف ألف ، وسبع مئة ألف ، وثمانون ألف درهم .

أبواب المال بالسواد : أربعة عشر ألف ألف ، وثمان مئة ألف درهم ، الحلال النجرانية :
مئة حلة ، الطين للتختم : مئتان وأربعون رطلا .

كسكسكر : أحد عشر ألف ألف ، وست مئة ألف درهم .

كثور مدجلة : عشرون ألف ألف ، وثمان مئة ألف درهم .

حلوان : أربعة آلاف ألف ، وثمان مئة ألف درهم .

الأهواز : خمسة وعشرون ألف ألف درهم ، السكر : ثلاثون ألف رطل .

فارس : سبعة وعشرون ألف ألف درهم ، ماء الزبيب الأسود : عشرون ألف رطل ،
الزمان والفسرجل : مئة ألف وخمسون ألفاً ، ماء الورد : ثلاثون ألف قارورة ، الأنبيجات (٢) :
خمس مئة ألف رطل ، الطين السيرافي : خمسون ألف رطل ، الزبيب — بالكرك — الهاشمي :
ثلاثة أكوار .

ككرمان : أربعة آلاف ألف ومئة ألف درهم ، المتاع البني والحبيصي (٣) : خمس مئة
نوب ، التمر : عشرون ألف رطل ، الكون : مئة رطل .

مككران : أربع مئة ألف درهم .

السند ومايلها : أحد عشر ألف ألف ، وخمس مئة ألف درهم ، الطعام بالقفيز الكثيرخ :
ألف ألف قفيز ، القيلة : ثلاثة فيلة ، الثياب الحشيشية : ألفا ثوب ، القوط أربعة آلاف فوطه .
الورد الهندي : مئة وخمسون مئاً ، ومن سائر أصناف المود : مئة وخمسون مئة ، النعال :
ألفاً زوج ، وذلك سوى القتر نقل والجوزبوا .

(١) كتاب الوزراء والكتاب ص ٢٨١ — ٢٨٨ .

(٢) هي ما نسميه نحن الآن (المانجو) وكانوا يتخذون منها مربى .

(٣) خبيصي : بطن بكرمان .

سجستان : أربعة آلاف ألف وست مئة ألف درهم ، الثياب المعينة : ثلاث مائة ثوب ،
الفايز (١) : عشرون ألف رطل .

خراسان : ثمانية وعشرون ألف ألف درهم ، نقر الفضة الأمانة : ألفا نقرة ، البراذين :
أربعة آلاف برذون ، الرقيق : ألف رأس ، المتاع : سبعة وعشرون ألف ثوب ، الإلهيج :
ثلاث مئة رطل .

حرجان : اثنا عشر ألف ألف درهم ، الإبريسم : ألف مئتا
قوس : ألف ألف ، وخمس مئة ألف درهم ، نقر الفضة الأمانة : ألف نقرة ، الأكسية :
سبعون كساء ، الرمان : أربعون ألف رمانة .

طبرستان ، والرؤيان ودُنياوند : ستة آلاف ألف ، وثلاث مئة ألف درهم : الفرش
الطبرى : ست مئة قطعة ، الأكسية : مئتا كساء ، الثياب : خمس مئة ثوب ، المناديل : ثلاث
مئة منديل ، الجمامات ست مئة جلم .

الرى : اثنا عشر ألف درهم ، الرمان : مئة ألف ألف رمانة ، الخوخ : ألف رطل .
أصفهان : سوى خمتمش ورساتيق عيسى راديس : أحد عشر ألف ألف درهم ، العسل :
عشرون ألف رطل ، الشمع : عشرون ألف رطل .

همدان ودستى : أحد عشر ألف ألف رطل ، ونماني مئة ألف درهم ، الرب والرماتين (٢) :
ألف مئتا ، العسل الأروندى : عشرون ألف رطل .

ماهى البصرة والكوفة : عشرون ألف ألف وسبع مئة ألف درهم .

شهرزور ومايليا : أربعة وعشرون ألف ألف درهم .

الموصل ومايليا : أربعة وعشرون ألف ألف درهم ، العسل الأبيض : عشرون ألف رطل .

الجزيرة ، والديارات ، والفراة : أربعة وثلاثون ألف ألف درهم .

أذربيجان : أربعة آلاف ألف درهم .

موقان وكرخ : ثلاثة مئة ألف درهم .

جيلان : من الرقيق : مائة رأس ، البر والعليلسان (٣) : من العسل ، اثنا عشر زقا ، من

(١) فى القاموس : الفايز ضرب من الخواء ، مغرب (يانيد) .

(٢) كذا فى تاريخ ابن خلدون وفى الأصل (رب والرياس) .

(٣) لم يذكر أمامها تقدير فى الأصل .

البزاة : عشر بزاة ، ومن الأكسية : عشرون كساء .

أرمينية : ثلاثة عشر ألف ألف درهم ، البسط : عشرون بساطا ، الرقيم : خمس مائة وثمانون قطعة ، المالح المنوذماهي : عشرة آلاف رطل ، الطرخ : عشرة آلاف رطل ، البزاة : ثلاثون بازيا ، البغال : مئتا بغل .

قنُسرون والعواصم : أربع مئة ألف وتسعون ألف دينار .

حمص : ثلاث مئة ألف وعشرون ألف دينار ، الزبيب : ألف راحلة .

دمشق : أربع مئة ألف وعشرون ألف دينار .

الأردن : ستة وتسعون ألف دينار .

فلسطين : ثلاث مئة ألف وعشرون آلاف دينار . ومن جميع أجناد الشام من الزبيب : ثلاث مئة ألف رطل .

مصر : سوى تيس ودمياط والأشمونين ، فإن هذه وقفت للنفقات : ألف ألف ، وتسع مئة وعشرون ألف دينار .

برقة : ألف ألف درهم .

أفريقية : ثلاثة عشر ألف ألف درهم ، ومن البسط : مئة وعشرون بساطا .

العين : سوى الثياب ، ثمان مائة ألف ، وسبعون ألف دينار .

مكة والمدينة : ثلاث مائة ألف دينار .

جملة التقدير : فذلك العين ، خمسة آلاف ألف دينار ، قيمتها حساب اثنين وعشرين درهما بدينار : مئة ألف ألف ، وخمسة وعشرون ألف ألف ، وخمس مئة ، واثنان وثلثون ألف درهم ، الورق : أربع مئة ألف وأربعة آلاف ألف ، وسبع مئة ألف ، وثمانية آلاف درهم ، يكون الورق مع قيمة العين — خمس مئة ألف ألف ، وثلثين ألف ألف ، وثلث مئة ألف ، واثنى عشر ألف درهم .

كذلك أورد ابن خلدون^(١) بيانا مفصلا بحماية الخراج في عهد الخليفة المأمون ، وقد نقله عنه جودجي زيدان^(٢) . وإليك بيان الخراج النقلة في هذا العهد :

(١) مقدمة ص ١٥٦ — ١٥٨

(٢) التمدن الاسلامي ج ٢ ص ٥٣ — ٥٥

الأموال والغلال	مقدار الجباية بالدرام	أسماء الأقاليم
ومن الحلل النجراية ٢٠٠ حلة ، ومن طين الحتم ٢٤٠ رطلا	٢٧,٨٠٠,٠٠٠	السواد
	١١,٦٠٠,٠٠٠	كسكر
	٢٠,٨٠٠,٠٠٠	كور دجلة
	٤,٨٠٠,٠٠٠	حلوان
وسكر ٣٠,٠٠٠ رطل	٢٥,٠٠٠,٠٠٠	الأمواز
ومن ماء الورد ٣٠,٠٠٠ قاذورة ومن الزيت الأسود ٢٠,٠٠٠ رطل	٢٧,٠٠٠,٠٠٠	فارس
ومتاع يمانى ٥٠٠ ثوب وتمر ٢٠,٠٠٠ رطل	٤,٢٠٠,٠٠٠	كرمان
	٤٠٠,٠٠٠	مكران
وعود هندي ١٥٠ رطلا	١١,٥٠٠,٠٠٠	السند وما يليه
ومن الثياب المعينة ٣٠ ثوب ومن الفنايد ٢٠ رطلا	٤,٠٠٠,٠٠٠	سجستان
ومن قمر الفضة ٢,٠٠٠ قمره ٤,٠٠٠ ٦ رذون ١,٠٠٠ ٦ رأس رقيق ٢٠,٠٠٠ ٦ ثوب متاع ٣٠,٠٠٠ ٦ رطل إلهيلج ١,٠٠٠ ٦ شقة إيريسم	٢٨,٠٠٠,٠٠٠	خراسان
ومن قمر الفضة ١,٠٠٠ قمره ٦٠٠ ٦ قطعه من الفرش الطبرى ٢٠٠ ٦ أكسية ٥٠٠ ٦ ثوب ٣٠٠ ٦ منديل ٣٠٠ ٦ جام ٢٠,٠٠٠ رطل عسل	٢,٠٠٠,٠٠٠	جرجان
	١,٥٠٠,٠٠٠	قوس
	٦,٣٠٠,٠٠٠	طبرستان والريان وماوند
	١٢,٠٠٠,٠٠٠	الري
	١١,٣٠٠,٠٠٠	همدان
	١٠,٧٠٠,٠٠٠	ماها البصرة والكوفة
	٤,٠٠٠,٠٠٠	ماسبدان والريان
	٦,٧٠٠,٠٠٠	شهرزور
	٢٤,٠٠٠,٠٠٠	الموصل وما يليها
٢٠,٠٠٠ ٦ رطل عسل	٤,٠٠٠,٠٠٠	أذربيجان

الأموال والنلال	مقدار الجباية بالدرام	أسماء الأقاليم
١٢,٠٠٠٠٠٠ زق صسل و عشر برة ٢٠٠٠٠٠٠ كساء	٢٤,٠٠٠,٠٠٠	الجزيرة وما يليها من أعمال القرات
٢٠٠٠٠٠٠ درهم من القسط المحفور ٥٣٠٠٠٠٠٠ رطلا من الرقم ١٠,٠٠٠٠٠٠٠ رطل من المناجيم السورماهي	١٣,٠٠٠,٠٠٠	أرمينية
١٠,٠٠٠٠٠٠٠ رطل من الصونج ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ بطل ٣٠٠٠٠٠٠٠٠ مبرأ	١,٠٠٠,٠٠٠	برقة
١٢٠٠٠٠٠٠٠ بساطا	١٣,٠٠٠,٠٠٠	إفريقية
درهم	٣١٨,٦٠٠,٠٠٠	المجموع الكلي
	من الدنانير	
١,٠٠٠٠٠٠٠ حل زيت	٤٠٠,٠٠٠	قنسرين
	٤٢٠,٠٠٠	دمشق
	٩٧,٠٠٠	الأردن
٣٠٠,٠٠٠٠٠٠ رطل زيت	٣١٠,٠٠٠	فلسطين
	٢,٩٢٠,٠٠٠	مصر
سور المناجيم (لم يذكر)	٣٧٠,٠٠٠	البن
	٣٠٠,٠٠٠	الحجاز
دينار، تساوي ٧٢,٢٥٥,٠٠٠٠٠ درهم باعتبار الدينار ١٥ درهما وهو تقديره في ذلك العصر .	٤,٨١٧,٠٠٠	المجموع الكلي
	٧٢,٢٥٥,٠٠٠	فيكون المجموع بالدرام
	٣١٨,٦٠٠,٠٠٠	يضاف اليه جباية الأقاليم المذكورة أعلاه
درهم	٣٩٠,٨٥٥,٠٠٠	تتكون الجلة

وترى من النظر في هذه القائمة أن خراج أقاليم المشرق كان يقدر بالدرام وخراج
أقاليم المغرب بالدنانير (إلا برقة وإفريقية) . وسترى نحو ذلك أيضا في القائمتين الآخرين .
والسبب على ما يظهر أن مناجم الفضة كانت أكثر في أقاليم المشرق منها في المغرب ، وبعبارة
ذلك مناجم الذهب .

فمجموع جباية أقاليم المشرق (مع برقة وإفريقية) ٣١٨,٦٠٠,٠٠٠ درهم، وبمجموع أقاليم المغرب ٤,٨١٧,٠٠٠ دينار. ويتحول هذه الدراهم إلى درهم يكون مجموعها ٧٢,٢٥٥,٠٠٠ درهم. وبإضافة مقدار جباية المغرب إلى مقدار جباية المشرق، يبلغ مجموع الجباية ٣٩٠,٨٥٥,٠٠٠ درهم. هذا عدا خراج الكرخ ويبلغ مقداره ٣٠٠,٠٠٠ درهم، وجيلان ويبلغ خراجها ٥,٠٠٠,٠٠٠ درهم. وعلى هذا يكون مجموع جباية الدولة العباسية في عهد المأمون نحو ٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم، عدا الأموال والغلات الأخرى. وقد جرت العادة أن تقدر الغلات بما تساويه نقداً، كما فعل صاحب جراب الدولة في غلات السودان، ومعظمها في الأصل من الخطة، كما سنرى في تفصيل طساسيج (أى نواحى) السودان من قائمتي قدامة بن جعفر وابن خرداذبة. وكان يصل إلى بيت المال ببغداد صافي ما يتحصل من الجباية في الأقاليم بعد دفع أموال الجند وما تتطلبه الجباية من نفقات، وإصلاح الترع، وما ينفق على الدواوين، وما يتطلبه الخليفة ووزرائه وكتابه ورجال بلاطه^(١). وإليك بيان خراج الدولة العباسية في عهد المصطفى على ما أورده قدامة بن جعفر^(٢). وقد ذكر مقدار كل من الخطة والشعير مفصلاً باعتبار طساسيج السودان، أى نواحيه في الشرق والغرب.

١ - طساسيج السودان في الجانب الغربى :

الدرهم	مقدار الشعير بالكر	مقدار الخطة بالكر	اسم الناحية
٤٠٠,٠٠٠	٦,٤٠٠	١١,٨٠٠	الأنبار ونهر عيسى
١٥٠,٠٠٠	١,٠٠٠	٣,٠٠٠	طسوج مسكن
٣٠٠,٠٠٠	١,٠٠٠	٢,٠٠٠	طسوج قطربل
١,٠٠٠,٠٠٠	١,٠٠٠	٣,٥٠٠	طسوج بادوريا (بادرايا)
١٥٠,٠٠٠	١,٧٠٠	١,٧٠٠	نهر صير
٢٥٠,٠٠٠	٣,٣٠٠	٣,٣٠٠	الرومقان
٣٥٠,٠٠٠	٢,٠٠٠	٣,٠٠٠	كوفى
٢٠٠,٠٠٠	٢,٠٠٠	٢,٠٠٠	نهر درقيط
١٥٠,٠٠٠	٦,٠٠٠	١,٥٠٠	نهر جوير
١٢٢,٠٠٠	٤,٠٠٠	٣,٥٠٠	باروسا ونهر الملك
٢٥٠,٠٠٠	٧,٢٠٠	١,٤٠٠	الزواى الثلاثة
٣٥٠,٠٠٠	٥,٠٠٠	٣,٠٠٠	بابل وخطرنية
٧٠,٠٠٠	٠,٥٠٠	٠,٥٠٠	الفلوجة العليا
٢٨٠,٠٠٠	٣,٠٠٠	٢,٠٠٠	الفلوجة السفلى

(١) جوزجى زبدان : كتاب التمدن الاسلامي ج ٢ ص ٥٥ - ٥٦ .
 (٢) كتاب الحراج (طبعة ليدن سنة ١٨٣٦هـ) . ص ٢٣٧ - ٢٤٠ . أنظر جوزجى زبدان : كتاب التمدن الاسلامي ج ٢ ص ٥٧ - ٥٩ .

اسم الناحية	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
طسوج النهرين	٠,٣٠٠	٠,٤٠٠	٤٥,٠٠٠
طسوج عين التمر	٠,٣٠٠	٤٠٠	٤٥,٠٠٠
طسوج الحية والبداءة	١,٥٠٠	١,٦٠٠	١٥٠,٠٠٠
سورا وبريسيا	١,٥٠٠	٤,٥٠٠	٢٥٠,٠٠٠
البرس الأعلى والأسفل	٥٠٠	٥,٥٠٠	١٥٠,٠٠٠
فرات بادقلى	٢,٥٠٠	٢,٥٠٠	٦٢,٠٠٠
طسوج السيلحين	١,٥٠٠	١,٥٠٠	١٤٠,٠٠٠
روذستان وهرمجرد	٥٠٠	٥٠٠	٢٠,٠٠٠
تستر	٢,٢٠٠	٢,٥٠٠	٣٠٠,٠٠٠
إيفار بقطين	١,٢٠٠	٢,٥٠٠	٢٠٤,٨٠٠
كسكر	٣٠,٠٠٠	٢,٥٠٠	٢٧٠,٠٠٠

طساسيج السواد في الجانب الشرق :

طسوج بزر جسابور	٢,٥٠٠	٢,٢٠٠	٢٠٠,٠٠٠
و الراخانين	٤,٨٠٠	٤,٨٠٠	١٢٠,٠٠٠
طسوج نهر بوق	٢٠٠	١,٥٠٠	١٠٠,٠٠٠
كلواذى ونهر بين	١,٦٠٠	١,٥٠٠	٢٣٠,٠٠٠
جازر والمدينة العتيقة	١,٥٠٠	١,٥٠٠	٢٤٠,٠٠٠
رو سنبقباد	١,٥٠٠	١,٤٠٠	٢٤٦,٠٠٠
سلسل ومهرود	٢,٥٠٠	١,٥٠٠	١٥٠,٠٠٠
جلولا وجلتنا	١,٥٠٠	١,٥٠٠	١٠٠,٠٠٠
الذي بين	١,٩٠٠	١,٣٠٠	٤٠,٠٠٠
الديسكرة	١,٨٠٠	١,٤٠٠	٦٠,٠٠٠
البند نيجين	٦٠٠	٥٠٠	٣٥,٠٠٠
طسوج براز الروذ	٣,٥٠٠	٥,١٠٠	١٢٠,٠٠٠
النهر وان الأعلى	١,٧٠٠	١,٨٠٠	٢٥٠,٠٠٠
النهر وان الأوسط	١,٥٠٠	٥٠٠	١٠٠,٠٠٠
بادرابا وباكسايا	٤,٧٠٠	٥,٥٠٠	٢٣٠,٠٠٠
كور فجلة	١,٩٠٠	٤,٥٠٠	٤٣٠,٠٠٠
نهر الصلة على تلك العبرة	١,٥٠٠	٣,١٢١	٥٩,٠٠٠
النهر وان الأسفل	١,٧٠٠	١,٣٠٠	٥٣,٠٠٠
مجموع خراج السواد	١١٥,٦٠٠	١٢٣,٩٢١	٨٥٨,٣١٨,٨٠٠

فمجموع جباية السواد باعتبار نواحيه ١١٥,٦٠٠ كر حنطة، ١٢٣,٩٢١ كر شعير، ٨,٨٢١,٨٠٠ درم. على أن هذا المجموع يختلف عما ذكره قدامة بعد أن أورد خراج كل ناحية بالتفصيل كما تقدم. فقد ذكر في إيراد المجموع، فذلك ارتفاع السواد سوى صدقات البصرة من الحنطة ١٧٧,٢٠٠ كر، ومن الشعير ٩٩,٧٢١ كرا، ومن الورق ٨,٠٩٥,٨٠٠ درم. ولعل السبب في هذا الفرق خطأ في قراءة بعض الأعداد. على أن الفرق على كثرته لا يعتد به. بقي علينا أن نحول الحنطة والشعير إلى دراهم. وقد فعل جمعنا ذلك لحولها باعتبار ثمن الكرين المخرولين من الحنطة والشعير ستين دينار، والدينار على صرف خمسة عشر درهما بدينار، فيبلغ ذلك ١٠٠,٣٦١,٨٥٠ درهما. وقال إن صدقات البصرة ترتفع في السنة ٦,٠٠٠,٠٠٠ درم. فإذا جمعت ذلك كله بلغ ١١٤,٤٥٧,٦٥٠ درهما على هذه الصورة:

الدراهم المجموعة ورقا	٨,٠٩٥,٨٠٠
قيمة الحنطة والشعير بالدرهم	١٠٠,٣٦١,٨٥٠
صدقات البصرة	٦,٠٠٠,٠٠٠

١١٤,٤٥٧,٦٥٠ درم

موارد الجباية من سائر أقاليم المشرق والمغرب مع السواد
١ - أقاليم المشرق

أقاليم المشرق	درم	أقاليم المشرق	درم
السواد	١١٤,٤٥٧,٦٥٠	الري ودومان	٢٠,٠٨٠,٠٠٠
الاهواز	٢٣,٠٠٠,٠٠٠	قزوين وزنجان وأهر	١,٨٢٨,٠٠٠
فارس	٢٤,٠٠٠,٠٠٠	قوس	١,١٥٠,٠٠٠
كرمان	٦,٠٠٠,٠٠٠	جرجان	٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠
مكران	١,٠٠٠,٠٠٠	طبرستان	٤,٢٨٠,٧٠٠
أصبهان	١٠,٥٠٠,٠٠٠	تكريت والعليرهان	٩٠٠,٠٠٠
سيستان	١,٠٠٠,٠٠٠	شهرزور والصامغان	٢,٧٥٠,٠٠٠
خراسان	٣٧,٠٠٠,٠٠٠	الموصل ومايلها	٦,٣٠٠,٠٠٠
حلوان	٩٠٠,٠٠٠	قردي وبزدي	٣,٢٠٠,٠٠٠
ماء السكوة	٥,٠٠٠,٠٠٠	ديار ريحة	٩,٦٣٥,٠٠٠
ماء البصرة	٤,٨٠٠,٠٠٠	أرزن ومياقارقين	٤,٢٠٠,٠٠٠
همدان	١,٧٠٠,٠٠٠	طرون	١٠٠,٠٠٠
ماسبدان	١,٢٠٠,٠٠٠	آمد	٢,٠٠٠,٠٠٠
مهرجان قذق	١,١٠٠,٠٠٠	ديار مضر	٦,٠٠٠,٠٠٠
الإفارين	٣,٨٠٠,٠٠٠	أعمال طريق الفرات	٢,٩٠٠,٠٠٠
قم وقاشان	٣,٠٠٠,٠٠٠		
آذربيجان	٤,٥٠٠,٠٠٠	المجموع الكلي	٣١١,٥٨١,٣٥٠ درهما

٢ - أقاليم المغرب

أقاليم المغرب	دينار	أقاليم المغرب	دينار
قنسرين والعوامص	٣٦٠,٠٠٠	الحرمين	١٠٠,٠٠٠
جند حمص	٢١٨,٠٠٠	العين	٦٠٠,٠٠٠
جند دمشق	١١٠,٠٠٠	اليمامة والبحرين	٥١٠,٠٠٠
جند الأردن	١٠٩,٠٠٠	عمان	٣٠٠,٠٠٠
جند فلسطين	٢٩٥,٠٠٠		
مصر والاسكندرية	٢,٥٠٠,٠٠٠	المجموع	٥,١٠٢,٠٠٠ دينار
		ويتحولها إلى دراهم باعتبار الدينار ١٥ درهما تساوى ٧٦,٧١٠,٠٠٠ درهما	

وبإضافتها إلى مجموع جبابة أقاليم المشرق والجزيرة يكون مجموع ذلك كله ٣٢٨,٢٩١,٣٥٠ درهما، وهو ارتفاع الخراج حسب تقدير قدامة .

من ذلك يتضح أن جبابة الخراج في عهد المأمون ٣٩٦,١٥٥,٠٠٠ درهما، وفي عهد المعتصم ٣٨٨,٢٩١,٣٥٠ درهما (١) .

وكان المال الذي يأتي من الموارد المتقدمة يتفق على مصالح الدولة، فتدفع منه أرزاق القضاة والولاة والعمال وصاحب بيت المال وغيرهم من الموظفين، كما تدفع منه أعطيات الجند، أي رواتبهم التي يستولون عليها في أوقات معينة من العام، كما يتفق منها على كرى الأنهار وإصلاح مجاريها، وكبرى الترع التي تأخذ من الأنهار الكبيرة كدجلة والفرات، لتوصيل الماء إلى الأراضي البعيدة، والتفقة على المسجونين وأسرى المشركين من مأكل ومشرب وملبس، ودفن من يموت منهم وشراء المعدات الحربية، ومنح العطايا للعلماء والأدباء وغيرهم (٢) .

٤ - نظام القضاء

تطور النظام القضائي في العصر العباسي الأول تطوراً كبيراً، لأن روح الاجتهاد في الأحكام قد ضعفت بسبب ظهور المذاهب الأربعة، فأصبح القاضي ملزماً بأن يصدر أحكامه وفق أحد هذه المذاهب. وكان القاضي في العراق يحكم وفق مذهب أبي حنيفة، وفي الشام والمغرب وفق مذهب مالك، وفي مصر وفق المذهب الشافعي. وإذا تقدم متخاصمان على

(١) قدامة بن جفر: كتاب الخراج ص ٢٤٩ - ٢٥١ .

(٢) كتاب النظم الإسلامية للمؤلف ص ٢٩٥ .

غير المذهب الشائع في بلد من البلاد أناب عنه قاضياً يحكم بمذهب المتخاصمين .

وقد عمد بعض الخلفاء العباسيين إلى حل القضاء على السير وفق رغبتهم ليكسبوا أعمالهم صبغة شرعية ، حتى امتنع كثير من الفقهاء عن تولي القضاء خشية أن يحملهم الخليفة على الإفتاء بما يخالف الشريعة الإسلامية . لذلك نرى أبا حنيفة النعمان يعتذر عن تولي منصب القضاء في عهد أبي جعفر المنصور ، ويقول له : اتق الله ، ولا ترع في أمانتك إلا من يخاف الله . والله ما أنا مأمون الرضا ، فكيف أكون مأمون الغضب ؟ . وكان بين أبي حنيفة وبين محمد ابن عبد الرحمن بن أبي ليلى القاضي وحشة ، لاعتراض أبي حنيفة عليه أحكامه — وكان أصغر منه سنًا — فشكاه إلى المنصور ، فثمنه من الفتيا (١) . وهناك كثير من الأمثلة تدل على أن الخلفاء العباسيين قد نقضوا العهد مع كثير من القواد والعلماء وغيرهم بعد أن أعطوهم الأمان ، وذلك عن طريق فتاوى القضاء ، كما فعل أبو العباس السفاح مع ابن هبيرة ، وأبو جعفر المنصور مع أبي مسلم الخراساني وعمه عبدالله بن علي ، وهارون الرشيد مع يحيى بن عبدالله بن الحسن العلوي (٢) .

ذلك أن ابن هبيرة تسلم من أبي جعفر المنصور كتاباً يحمل إصضاء الخليفة السفاح ، يعطيه فيه الأمان . ولكن لم يمض أيام حتى قتل ابن هبيرة . كذلك غدر المنصور بعمه عبدالله بن علي وبأبي مسلم الخراساني . وإلى ذلك يشير محمد النفس الزكية في رده على كتاب أبي جعفر ، وأما يحيى ابن عبدالله أخو محمد النفس الزكية ، فقد ثار في بلاد الديلم ، وأقلق بال الرشيد ، فندب الفضل ابن يحيى البرمكي لمحاربه ، فاستأله إلى الصلح على أن يكتب له الرشيد أماناً بمخطئه ، يشهد فيه القضاء والفقهاء وكبار بني هاشم . فأجابه الرشيد إلى ما طلب وأرسل إليه الأمان ، ثم قدم يحيى مع الفضل ، فلتقاء الرشيد بالحفاوة والإكرام ، لكنه لم يلبث أن حبسه في داره ، واستنقى الفقهاء في نقض الأمان ، فثمن من ألقى بصحته ، ومنهم من ألقى يبطلانه فأبطله .

وقد اتخذ الخلفاء العباسيون نظام قاضي القضاء ؛ وكان يقيم في حاضرة الدولة ، ويولى من قبله قضاء يتوبون عنه في الأقاليم والأمصار . وأول من تلقب بهذا اللقب أبو يوسف صاحب كتاب الخراج في عهد هارون الرشيد .

وفي العصر العباسي اتسعت سلطة القاضي ؛ فبعد أن كان عمله مقصوراً على الفصل بين الخصوم ، أصبح يفصل في المنازعات والأوقاف وتنصيب الأولياء . ومن نبغ من القضاة في هذا العصر يحيى بن أكثم الذي قاد الجنود في عهد المأمون لمحاربة الروم ، وأحمد بن أبي ثؤاد قاضي القضاء في عهد الواثق الذي أخذ الفقه عن يحيى بن أكثم .

(١) كتاب التمدن الاسلامي ج ٢ ص ١٨٥ — ١٨٦ .

(٢) الفقه الاسلامي ص ٣٣٥ — ٣٣٦ .

على أن أم ما تنازبه المصير المباسى أنه أصبح في كل ولاية قضاء يمثلون المذاهب الأربعة،
ينظر كل منهم في النزاع الذى يقوم بين من يدنون بعقائد مذهبه (١):

ومما هو جدير بالملاحظة اتحاد جماعة الشهود الدائمين أمام القاضى ، فيحدثنا الكندى أن
القاضى إذا شهد عنده أحد كان معروفاً بالسلامة ، قبله القاضى ، وإذا كان غير معروف بها
أوقف . وإن كان الشاهد محمولا لا يصر سئل عنه جيرانه ، فما ذكره به من خير أو شر عمل
به . وكان غوث بن سليمان في خلافة أبى جعفر المنصور ، أول من سئل عن الشهود بنصر في
السر . ويرجع ذلك إلى كثرة شهادة الزور في زمنه . وقد عين القاضى مفضل بن فضالة رجلا يسقى
« صاحب المسائل » ، مهمته الوقوف على حالة الشهود . كما أن القاضى العمرى الذى ولى قضاء
مصر من قبل الرشيد سنة ١٨٥ هـ دون أسماء الشهود في كتاب ، وحذا القضاء حذوه في هذا
العمل . وبلغ من اهتمام القاضى عيسى بن المتكدر الذى ولى قضاء مصر سنة ٢١٢ هـ بأمر
الشهود ، أن كان يتنكر بالليل وينطلى رأسه ويمشى في الطرقات ليسأل عنهم . ونجد في عهد
بولاية القضاء في كتاب الخراج لقدامة بن جعفر ، أن التثبت في شهادة الشهود والمبالغة في
السؤال عنهم والفحص عن وجوه عدالتهم والبحث عن حالاتهم من أم واجبات القاضى
في ذلك العصر (٢) .

النظر في المظالم :

وإلى جانب القضاء « النظر في المظالم » . وكان صاحب المظالم ينظر في كل « حكم يعجز
عنه القاضى ، فينظر فيه من هو أقوى منه يبدأ » . وكان الوزير يعين أصحاب المظالم في البلاد .
وقد حرص بعض الخلفاء العباسيين على الجلوس للنظر في المظالم . وقد بين الماوردى الفروق
بين نظر المظالم ونظر القضاء . ومن أهمها أن لناظر المظالم من فضل الهيبة وقوة اليد ما ليس
للقضاء ما يكف الحضور عن التجاود ومنع الطلبة من التغالب ، وأنه يستعمل من الإرهاب
ومعرفة الإمارات والشواهد ما يصل به إلى معرفة الحق من المظلم ، وأنه يستطيع رد الحضور
إذا اتصلوا إلى وساطة الأمناء ليفصلوا التنازع بينهم صلحا عن تراخ . وليس للقاضى ذلك
إلا عند رضا الخصمين بالرد ، وأنه يجوز له إخلاف الشهود عند ارتياح بهم والاستكثار من
عدهم ، ليزول عنه الشك ، وأنه يجوز له أن يبتدىء باستدعاء الشهود وسؤالهم عما عندهم ،
وعادة القضاء تكليف المدعى إحضار بيينة ، ولا يسمعون البيينة إلا بعد سؤاله .
وكانت محكمة المظالم تتمتع تحت رئاسة الخليفة أو والى أو من ينوب عن أحدهما . وكان

(١) النظم الاسلامية ص ٣٣٦ . (٢) الكندى : كتاب القضاء ص ٢٤٤ ث ٤٢٤ .

صاحب المظالم يعين يوما يقصده فيه المتظلمون إذا كان من الموظفين لينتفع لأعماله الأخرى .
أما إذا انفرد بالمظالم ، نظر فيها طوال الأسبوع . وكانت محكمة المظالم تتمتع في المسجد ،
ويحاط صاحب المظالم بخمس جماعات لا يتكلم عقد جلساته إلا بحضورهم :

١ — الحماة والأعوان ، وكانوا من القوة بحيث يستطيعون التغلب على من يلجأ إلى
العنف أو يحاول الفرار من وجه القضاء .

٢ — المحكم ، ومهمتهم الإحاطة بما يصدر من الأحكام لرد الحقوق إلى أصحابها ، والملم
بما يجرى بين الخصوم ، فيلون بشتات الأمور الخاصة بالمتقاضين . وكان القضاء يستفيدون
من وراء حضورهم هذه الجلسات ، إذ كانوا يستطيعون تطبيق الأحكام على ما يعرض أمامهم
من القضايا في جلساتهم .

٣ — الفقهاء ، وكان صاحب المظالم يرجع إليهم فيما أشكل عليه من المسائل الشرعية .

٤ — الكتاب ، ويقومون بتدوين أقوال الخصوم ، وإثبات ما لهم وما عليهم من
الحقوق .

٥ — الشهود ، ومهمتهم إثبات ما يعرفونه عن الخصوم ، والشهادة على أن ما أصدوه
القاضي من الأحكام لا ينافي الحق والعدل . ومن اختصاصات قاضي المظالم :

١ — النظر في القضايا التي يقيمها الأفراد والجماعات على الولاية إذ انحرفوا عن طريق
العدل والانصاف ، وعلى عمال الخراج إذا اشتعلوا في جمع الضرائب ، وكتاب الدواوين إذا
حادوا عن إثبات أموال المسلمين بنقص أو زيادة .

٢ — النظر في ظلم المرتزقة إذا نقصت أرزاقهم أو تأخر ميعاد دفعها لهم ،

٣ — تنفيذ ما يعجز القاضي والمحاسب عن تنفيذه من الأحكام .

٤ — مراعاة إقامة العبادات ، كاللحج والأعياد والجمع والجهاد ^(١) .

البشارة الإسلامية

الحالة الاقتصادية

نميسد :

كانت خزائن العباسيين تفيض بالأموال التي كانت تجبي من الضرائب ، وبلغت في أيام هارون الرشيد ما يقرب من اثنين وأربعين مليون دينار ، عدا الضريبة العينية التي كانت تؤخذ مما تنتجه الأرض من المحبوب ، حتى قيل إن الرشيد كان يستلقى على ظهره وينظر إلى السحابة المارة ويقول : « إذهي حيث شئت يأتني خراجك » (١) .

على أن دخل الدولة العباسية قد أخذ ينقص شيئا فشيئا ، حتى أصبح في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) أقل من جزء من واحد وعشرين جزءاً مما كان في عهد هارون الرشيد ، وأصبحت الحروب عبئاً ثقيلاً لا يحتمل ، مما نكس قوة هذه الدولة .

وإذا ذكرنا رخاء الدولة وحسن حالة الزراعة ونفاق التجارة ، لانعجب إذا علمنا أن دخل الدولة العباسية في عهد هارون الرشيد قد بلغ ٢٧٢ مليون درهم وأربعة ملايين ونصف من الدنانير في السنة ، وأن نفقة الخليفة المأمون بلغت ستة آلاف دينار كل يوم أي ٢,١٩٠,٠٠٠ دينار في السنة (٢) .

وقد بلغ ما حمل إلى الرشيد من المال في كل سنة نحواً من خمسمائة ألف درهم من الفضة وعشرة آلاف ألف دينار من الذهب ؛ وكان المال الذي يأتي من الموارد المتقدمة ينفق على مصالح الدولة ؛ فتدفع منه أرزاق القضاة والولاة والعامل وصاحب بيت المال وغيرهم من الموظفين ، وتدفع منه أعطيات الجند ، أي رواتبهم التي تصرف لهم في أوقات معينة من العام ، كما ينفق منه على كرى الأنهار وإصلاح مجاريها وكرى الترع التي تأخذ من الأنهار الكبيرة لتوصيل الماء إلى الأراضي البعيدة ، وحفر الترع للزراعة وغيرها ، وكذا النفقة على المسجونين وأسرى المشركين من مأكل ومشرب وملبس ودفن من يموت منهم ، وعلى المعدات الحربية والمطايا والمنح التي يمنحها العلماء والأدباء .

(١) التقيسدي : صبح الأمل ج ٣ ص ٢٢٠ .

Sayed Amir Ali : A Short History of the Saracens, p. 426 et seq. (٢)

ومع توافر موارد الدولة في العصر العباسي ، كانت خزائن الخلفاء تفيض بما كانوا يجيرونه من الضرائب ، حتى عم الرخاء ورخصت أسعار الحاجيات . ويقول الخطيب البغدادي (١) :
وسمعت داود بن صعيص بن شبيب بن رستم البخاري يقول : رأيت في زمن أبي جعفر كيشا بدرهم ، وحملأ بأربعة دنانق (والدنانق سدس درهم) ، والقرستين رطلا بدرهم ، والزيت ستة عشر رطلا بدرهم ، والسمن ثمانية أرطال بدرهم ... وكان ينادى على لحم البقر تسعين رطلا بدرهم ، ولحم الغنم ستين رطلا بدرهم ، ثم ذكر الفسل فقال عشرة أرطال ، والسمن اثني عشر رطلا .
ويرجع الفضل في ازدياد موارد الدولة في العصر العباسي الأول إلى اهتمام الخلفاء بشئون البلاد الاقتصادية ، والعمل على تنمية مواردها ، وعنايتهم بالزراعة والصناعة والتجارة وغيرها من شئون الاقتصاد والمال ، كما تفعل الدول في العصر الحديث .

١ - الزراعة :

وجه الخلفاء العباسيون في العصر العباسي الأول عنايتهم إلى تشجيع الزراعة ، فنشطوا في حفر الترع والمصارف ، وإقامة الجسور والقناطر . وكانت الأراضي الواقعة بين نهري دجلة والفرات من أخصب بقاع الدولة العباسية . وكانت الحكومة تشرف على إدارتها إشرافاً مباشراً ، وتعمل على تحسين زراعتها وتنمية مواردها . وقد امتدت في هذه الأراضي شبكة من الترع والمصارف ، حتى أصبحت قوية الخصب ، تكثر بها المزارع والبساتين ، وكانت تعرف بأرض السواد (٢) ، لكثرة ما بها من الشجر والزرع والحضرة . ويحد السواد من سحبه : الموصل إلى عبادان طولا ، ومن الشديب بالقادسية إلى حلوان غرباً . وتبلغ مساحته على ما ذكره الخطيب البغدادي (٣) ٣٦,٠٠٠,٠٠٠ جريب ، والجريب عشرة آلاف ذراع (٤).

ولما كان ماء الفرات لا يكفي لرى أراضي السواد أو يساعد على خصها ، عمل الخليفة المنصور على تنظيم وسائل الارواء بشق كثير من الجداول والترع ، على حين أمكن الاحتفاظ بماء دجلة لارواء الأراضي الواقعة على شاطئه الغربي وعلى ساحل الخليج الفارسي ، وأمكن بذلك

(١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٠ .

(٢) ويطلق العرب لون الحضرة بالسواد ، فضع أحدهما محل الآخر . ومن ذلك قوله تعالى حين ذكر الجنين « مدهامتان » (سورة الرحمن ٥٥ آية ٦٤) أي خضراوان ، فوصفت الحضرة بالدهمة وهي من سواد الليل . وقال الخطيب البغدادي (تاريخ بغداد ج ١ ص ٢٤) في موضع آخر : إنما سمي السواد سواداً لأنهم قدموا يفتحون السكوفة ، فلما نظروا سواد النخل قالوا : ما هذا السواد ؟

(٣) تاريخ بغداد ج ١ ص ١١ .

(٤) أنظر لفظ السواد في معجم البلدان لياقوت ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ١ ص ١١ .

إرواء جميع الأراضي الممتدة بين الصحراء العربية وجبال كردستان وتحولها إلى أرض نظرة تدعى أهلها الخير والفا . كذلك مد المنصور قناة من دجيل الذي يأخذ ماءه من دجلة ، وقناة أخرى من كرخايا الذي يأخذ ماءه من الفرات ، ووصلهما بمدينة بغداد في عقود محكمة بالصاروج (وهو حجر الكلس) والآجر فكان ماء كل قناة منها يدخل المدينة وينفذ في الشوارع والدروب والأرباض ، ولا ينقطع صيفاً ولا شتاء^(١) . كما ساق هذا الخليفة العباسي الماء إلى الكرخ ، فجري فيها نهر القلايين^(٢) ، نسبة إلى محلة كبيرة واقعة شرقي الكرخ ، ونهر البراذين ، ونهر الدجاج^(٣) .

ويجري ببغداد نهر عيسى الأعظم الذي يأخذ ماءه من الفرات ويمر بطسوج فيروز ساهور ، حتى يصل إلى المحول التي تبعد عن بغداد بفرسخ واحد ، ويتفرع منه أنهار تخترق بغداد ، ويصب في دجلة عند قصر عيسى (بن علي العباسي) . وعلى كل قنطرة من القناطر المقامة عليه سوق تحيط بجانبه البساتين والمتزهات . وقد امتدت القنوات إلى جميع أرباض بغداد ، ففرس أهلها النخيل الذي كانت زراعته مقصورة على البصرة والكوفة والسواد ، كما غرسوا الأشجار ونسقوا البساتين والحدائق . ويأخذ الصراة من نهر عيسى عند المحول ، ويسقي أرض بأذرايا ، ويستمر في سيره إلى أن يصل إلى بغداد ويصب في دجلة . ومن أنهار بغداد نهر كرخايا الذي يأخذ ماءه من نهر عيسى جنوب المحول ، وتتفرع منه جداول تجري في سوق الكرخ ، ومنها نهر دقيقل ، ويأخذ ماءه من نهر عيسى ويصب في دجلة .

وقد عني العباسيون في العصر العباسي الأول بالزراعة وفلاحة البساتين التي قامت على دراسة عملية ، بفضل انتشار المدارس الزراعية التي كان لها أثر كبير في إنارة عقول المسلمين ، فدرسوا في البحث النظري ، ودرسوا أنواع النباتات وصلاحيات التربة لزراعتها ، واستعملوا الأسمدة المختلفة لأنواع النباتات .

وقد سار الخلفاء العباسيون على سياسة حكيمه ترى إلى عدم إرهاب المزارعين بالضرائب ، وعنى بعض هؤلاء الخلفاء بوضع قواعد ثابتة لأنواع الحراج بحسب نوع المحصول وجودة الأرض ، وراعوا خفض الضرائب إذا قل المحصول لسبب من الأسباب^(٤) .

وكان الخلفاء العباسيون يعنون بشئون الزراعة ويعملون على تخفيض الضرائب عليهم . وقد أثنى أبو جعفر المنصور الضربية النقدية التي كانت تفرض على الخنطة والشوفان ، وأحل محلها

(١) كتاب البلدان للياقوت ص ٢٥٠ .

(٢) جم قلاء وهو الذي يثقل السمك .

(٣) سمي بهذا الاسم لأن بأشج الدجاج كانوا يلقون عنده لبيع ما معهم من الدجاج .

(٤) كتاب النظم الإسلامية للمؤلف ص ٢٨٩ .

نظام المقاسمة ، وهو دفع الضرائب نوعاً بنسبة خاصة من المحصول . على أن النظام النقدي القديم قد ظل على النخيل والفواكه وأشباهاها . ولما أدى ذلك النظام الجديد إلى اشتراط الجباة في جمع الضرائب ، توسع الخليفة المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ) في تطبيق النظام الذي أدخله أبوه المنصور فعممه ، وجعل الضرائب تجبي دائماً بالنسبة للمحصول . وإذا كانت الأرض ممتازة الحصب ولا تحتاج إلى عمل كثير ، كان على المزارع أن يقدم إلى الحكومة نصف غلة أرضه ، وإذا صعب عليه إرواؤها ، دفع الثلث أو الربع أو الخمس تبعاً لحالة الأرض .

أما الكروم والبساتين والنخيل فكانت غلتها تقوّم بالنال ، ويدفع عنها النصف أو الثلث . ويسمى هذا النظام المقاسمة تمييزاً له عن النظام القديم الذي كان يعرف بالمقاسمة ، والذي كان يقضى بأن تجبي الضريبة بالنسبة لمساحة الأرض .

وفي سنة ٢٠٤ هـ خفض الخليفة المأمون العباسي (١٩٨ - ٢١٨ هـ) ضريبة الأرض مرة أخرى ، فأصبح يجبي الخمسان بدلاً من النصف ، حتى على أكثر الأرض إنتاجاً . أما في بابل والعراق والجزيرة وفارس ، حيث نجد كثيراً من كبار الملاك والمزارعين ، فقد كان هؤلاء يدفعون ضرائب مختلفة وفق شروط الصلح التي عقدت أيام الفتح ، ولم يكن من الممكن تغيير هذا النظام . وكانوا لذلك في مأمن من كل اغتصاب . وكان أمالي شمال فارس وخراسان يتمتعون بنفس هذا الامتياز .

وقد أقطع أبو جعفر المنصور بعض أعيان دولته قطائع^(١) من الأرض يعمرونها ويسكنونها مكافأة لهم على ما قدموه من الخدمات الجليلة . وسرعان ما عثرت هذه القطائع واتسع نطاقها ، وازدحمت بالسكان ، وأصبحت كل قطعة تعرف باسم الرجل أو الطائفة التي تسكنها ، فترى من بينها قطعة العباس بن محمد بن عبد الله بن العباس ، وقطعة الربيع بن يونس ، وكان بها تجار خراسان من البرازين أي بائني الثياب ، وقطعة صالح بن المنصور^(٢) .

وقد ساد هذا النظام في العصر العباسي حين تولى الأتراك حكم الدولة العباسية ، فكانوا يقطعون الولايات ، على أن يؤديوا لدار الخلافة مبلغاً من المال ، عدا الهدايا والطرف ، كما كان متبعاً في نظام الإقطاع الذي شمل أوروبا في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين ، وسار عليه الخلفاء العباسيون قبل المعتصم ، فولى الرشيد عبد الملك صالح مصر صلاتها وخراجها ،

(١) أقطع الامام الجند البلد إقطاعاً ، جعل لهم غلتها وزقاً واستقطعت . واسم ذلك الشيء الذي يقطع قطعة . والقطعة محال ينفد أقطعا للمنصور أناساً من أعيان دولته يعمرها ويسكنوها — القاموس المحيط .

(٢) راجع كتاب البلدان لليقوتى ص ٢٤٢ - ٢٥٤ . انظر ما ذكرناه عن قطائع بغداد في الباب السابع من هذا الجزء .

وولى المأمون عبد الله بن طاهر بن الحسين هذه البلاد (٢١١ - ٢١٣ هـ) على هذا النحو الانقطاعي . وحذا المعتصم حذو الرشيد والمأمون في تلك السياسة ، فولى أشناس التركي مصر (٢١٩ - ٢٢٩ هـ) ، وقد الواصل إيتاخ ولاية هذه البلاد (٢٣٠ - ٢٣٥ هـ) ^(١) . وكانت الحنطة تزرع في كافة بلاد الدولة العباسية حيث يتوافر الماء . أما الذرة فإن زراعتها بقيت مقصورة على جنوبي جزيرة العرب . وكان الأهليون يزرعون كذلك الشعير والأرز والتخيل وأشجار الفاكهة .

وكان الكرم يفرس بكثرة في جميع أنحاء الدولة العباسية . وتمتاز كروم العنب بطول عناقيدها : فيحكى أن بعض عمال هارون الرشيد حل إليه وهو يؤدي فريضة الحج عنقودين من العنب في عملين على بعير . وذكر ابن حوقل في كتاب المسالك والممالك ، أن أهل مدينة زمغر القرية من البحر الميت كانوا يلقحون كرومهم وكروم فلسطين ، كما يلقح التخيل بالطلع .

ومن الفواكه التي أدخلت زراعتها في أراضي الدولة العربية التاريخية : يقول المسعودي إنه جلب من الهند ، ثم زرع بعمان والبصرة والعراق والشام . وذكر المقدسي في كتابه ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، أن نمار التاريخ في فلسطين كانت أحسن منها في غيرها من البلاد . وكانت بلاد الشام تشتهر بتفاحها ، حتى أصبح مضرب المثل في الحسن ، كما كثر بفلسطين أشجار الزيتون ، وخاصة في بلدة نابلس ، التي كان أهلها يستخرجون منه الزيت .

وكان قصب السكر يزرع في البصرة وصور . وقد بلغ من شهرة صور بوزاعتها أن بعض أهالي البندقية اتخذوا بها مزرعة قصب أيام الحروب الصليبية ، وبلغت زراعة القصب أيضا شأوا كبيرا في مصر في العصر العباسي الأول .

وقد جلب العرب الجاموس من الهند — وهي موطنه الأصلي — ثم نقل إلى العراق في عهد الأمويين . وروى أن أهل الشام في ذلك العهد ، لما شكروا من كثرة هجوم السباع عليهم ، أمرت الحكومة بوضع أربعة آلاف جاموسة على حدود بلادهم من ناحية الشمال . وكان الجاموس يعتبر أكبر عدو للأسود .

وكان أهالي فلسطين يعتنقون بقرية الجاموس ، ويعتمدون في غذائهم على لبنه ولحمه . أما البقر فكان يربي لأجل لبنه ، ولم يكن لحمه مستساغا . وكان أبو بكر محمد بن زكريا الرازي الطبيب يوصي بلبن البقر ولحم الضأن .

(١) السكندى : كتاب الولاية والفضة ص ١٦٣ و ١٢٧ و ١٨٠ — ١٨٤ و ١٩٥ — ١٩٢

و ١٩٨ — ٢٠٢ ، Corbet: J. R. A. S. (1861), p. 628

٢ — الصناعة :

وكان للصناعة نصيب كبير من عناية الخلفاء العباسيين في العصر الأول . وقد عني هؤلاء الخلفاء باستعمال موارد الثروة المعدنية ، فاستخرجوا الفضة والتمحاس والرصاص والحديد من مناجم فارس وخراسان . وكان بالقرب من بيروت مناجم الحديد ، ساعد وجودها على نمو بعض الصناعات المعدنية ، كما استخرجوا الخزف والمرمر من تبريز ، والملح والكبريت من شمالي فارس ، والقار والنفط من بلاد الكرج .

واشتهرت البصرة بصناعة الصابون والزجاج ، ولا سيما في عهد الخليفة المعتصم الذي شيد مصانع جديدة لها في بغداد وسامرا وغيرهما من المدن ، كما أنشأ مصانع الورق في عدة مدن ، وجلب لها الأساتذة والصناع من مصر التي اشتهرت بصنع الورق منذ عهد بعيد . كذلك أنشأ العباسيون دورا للطراز في أهم مدن فارس . وقد تفوق المسلمون في هذا العصر في صناعة الحرير والأطلس والمنسوجات الحريرية المشجرة والسجاجيد . وما يدل على تفوق المسلمين في الصناعة ، هذه المنسوجات النفيسة التي أخرجتها أنوال فارس والعراق والشام . وامتازت الكوفة بكوفياتها الحريرية وغيرها ، وتفوقت خوزستان بمنسوجاتها كذلك . وكان للمنسوجات الحريرية المشجرة الجيلة التي تصنع في تيسر ، ولسجاجيد قرقب وحرار موس شهرة عظيمة في أسواق العالم في ذلك الحين . وامتازت دمشق بصناعة الألقشة الحريرية التي لا تزال تسمى « الدمقس » ، واشتهرت مدن خراسان بصناعة البسط والستور والمنسوجات الصوفية على اختلاف أنواعها .

وقد اشتهرت مصر في ذلك العصر بصناعة المنسوجات . فكان يصنع في مدينة تنيس الثياب الملونة والفرش ، ويعمل بها الخلفاء ثوب يقال له البدنة ليس فيه من الغزل سدى ولا لحمة سوى أوقيتين . أما بقيته فن الذهب الخالص المحكم الصنعة ، وتبلغ قيمة الثوب ألف دينار . ولم يحفظ لنا التاريخ أن قطعة النسيج من الكتان بلغت قيمتها مائة دينار إلا في مدينتي تنيس ودمياط ، مما يدل على مدى تقدم صناعة المنسوجات المصرية ودقتها في ذلك العصر . كما كانت تصنع في مدينة القيس الثياب الصوفية .

واشتهرت بلاد الشام بصناعة الزجاج والخزف ، واتخذ أهلها سمه (طرازاً) خاصة بهم في زخرفة الزجاج . وكانوا في مستهل القرن الثاني للهجرة يصعدون الزجاج الملون المطلي بالمينا إلى كثير من جهات العالم . وبلغت هذه البلاد في نقش الزجاج بالذهب والألوان الأخرى درجة كبيرة من الاتقان ^(١) .

(١) سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب ، ترجمة ص ٣٦٤ — ٣٦٥ .

وبما يدل على تقدم الصناعة في العصر العباسي الأول ، أنه كان يوجد ببغداد عدد كبير من دور الصناعة ، حتى لقد قيل إنه كان بها أربعائة رضى مائة ، وأربعة آلاف معمل لمصنع الزجاج ، وثلاثون ألف معمل لصنع الخزف^(١) . ويلاحظ لنا في هذا القول شيء غير قليل من المبالغة . وكان لكل حرفة سوق خاصة ، أسواق الحدادين ، وسوق التجارين ، وسوق البرازين^(٢) . وقد أسس الخليفة المنصور أسواق الكرخ في الجهة الجنوبية من بغداد بين الصراة ونهر عيسى لتكون مركزاً للصناعة والتجارة .

واشتهرت ببغداد بالصياغة التي نبغ فيها الفرس وبلغت صناعتهم شأواً بعيداً في الدقة والجمال ، حتى إنهم كانوا يرصعون الزجاج بالجوهر ، ويكتسون عليه بالذهب المجسم ، ويصنعون البلوك أقداحاً تنهر الأبصار ، ويتخذون على الجامات (الكؤوس) صوراً يحكون صناعتها بالرسم إلى مائة الحقائق ، وصوروا عليها طيوراً تطير ، ومن فوقها العقبان تنقض عليها ، وهي تحاول الإفلات من مخالبها ، مما يأخذ بالآلياب ويستوقف الأنظار^(٣) . واشتهرت مصر منذ عهد الفراعنة بصناعة المعادن ، ولاسيما صياغة الذهب والفضة ، وضربوا بسهم وافر في صناعة الأدوية والعقاقير . واشتهرت مصر في العصر العباسي الأول بصناعة المراكب الثبيلة التي كانت تسير في النيل تحمل حاصلات البلاد بين جهات الوجهين البحري والقبلي ، كما اشتهرت أيضاً بصناعة السفن التي تكون منها الأسطول المصري في ذلك العصر . وكانت هذه السفن تشمخ بالأسلحة والمقاتلة لغزو بلاد الدولة الرومانية الشرقية عن طريق الإسكندرية ودمياط وتيس والفرما .

٣ - التجارة :

لم تقتصر عناية الخلفاء على الإراعة والصناعة وخدمهما ، بل اهتموا كذلك بتسهيل سبل التجارة : فأقاموا الآبار والمحاط في طرق القوافل ، وأنشؤا المنابر في الثغور ، وبنوا الأساطيل لحماية السواحل من إغارات لصوص البحار . وكان لذلك أكبر الأثر في نشاط التجارة الخارجية والداخلية ، فأصبحت قوافل المسلمين تجوب البلاد وسفنهم تبحر عباب البحار .

مراكز التجارة :

وقد شجع الخلفاء العباسيون في العصر العباسي الأول التجارة تشجيعاً غير مباشر ، بما

(١) أمين زكي : كتاب مهران ببغداد ص ٥٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٨ .

(٣) نخلة المدور : كتاب حضارة الاسلام في دار السلام ص ٢٥ .

أدخلوا من مظاهر الترف إلى بلاطهم ، تشجعا مباشرا بتمهيد الطرق ، وبتأسيس مدينة بغداد التي ساعدها موقعها لأن تكون سوقا تجاريا من الطراز الأول . وكانت دمشق مركزا هاما للقوافل الآتية من آسيا الصغرى أو من أقاليم الفرات الى بلاد العرب ومصر أو بالعكس . وكان الفرات ودجلة شريانين تجاريين هامين في داخل بلاد الدولة العباسية ^(١) .

ولما أسس العباسيون مدينة بغداد على شاطئ دجلة ، حفروا قناة للراحة تأخذ مائها من الفرات عبر العراق ، ويوصلوها ببغداد ، فأصبحت تربط الحاضرة الجديدة بآسيا الصغرى وسورية وبلاد العرب ومصر ، على حين كانت تأتي إليها القوافل من آسيا الوسطى مارة ببخارى وفارس ^(٢) .

وقد ذكر الخطيب البغدادي ^(٣) وباقوت ^(٤) عند كلامهما على سبب اختيار المنصور موقع مدينة بغداد ، أن أحد الدهاقين حسن له الزول ببغداد فقال له : « إنك تصير بين أربعة طاسيج ^(٥) : طسوجان في الجانب الغربي ، وطسوجان في الجانب الشرقي . فاللذان في الغربي قطربل وبادرايا ، واللذان في الشرقي نهر بوق وكاواذي . فان أجذب طسوج وتأخرت عمارته كان الآخر عامرا . وأنت يا أمير المؤمنين على الصراة ودجلة تجتلك الميرة من الغرب ، وفي الفرات من الشام والجزيرة ومصر ، وتحمل إليك طرائف الهند والبصرة وواسط في دجلة . وتجتلك ميرة أرمينية وأذربيجان وما يتصل بها في نامرا . وتجتلك ميرة الموصل وديار بكر وريمية . وأنت بين أنهار لا يصل إليك عدوك إلا على جسر أو قنطرة ، فإذا قطعت الجسر أو القنطرة ، لم يصل إليك عدوك ، وأنت قريب من البر والبحر والجبل » .

وبعد أن بنى أبو جعفر المنصور مدينة بغداد ، وضع أساس الكرخ في الجهة الجنوبية منها بين الصراة ونهر عيسى ، ونقل إليها أسواق بغداد ، وأفرد لكل حرفة سوقا خاصة . ومن هذه الأسواق : سوق الطارين ، وسوق الحدادين ، وسوق النجارين وسوق البرازين ، وسوق الرابحين (حيث تباع الزهور) وسوق القصايين . وقد قيل إن المنصور أمر بعمل هذه السوق في آخر الأسواق وقال : اجعلوا سوق القصايين في آخر الأسواق ، فانهم سفهاء ، وفي أيديهم الحديد القاطع ^(٦) .

(١) Heyd : Histoire du Commerce au Moyen-Age, p. 26.

Ibid, p. 27. (٢)

(٣) تاريخ بغداد ج ١ ص ١ — ٢٣

(٤) افضل لفظ بغداد في معجم البلدان لياقوت .

(٥) نواحي .

(٦) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١ ص ٨٠ ، أمين زكي : عمران بغداد ص ١٠٨ .

ويقول السيد حسن حسنى عبد الوهاب (١) التونسي عن مدينة البصرة ، التى أصبحت فى العصر العباسى الأول من أهم مراكز التجارة : « وهى باب بغداد الكبير ، ومدخل دجلتها المتدفق بضروب المتاع وأنواع السلع المجلوبة من أطراف الدنيا . . . إذ كانت مقصد القوافل الواردة من كل حدب وصوب ، ومحط رحال الشرق والغرب من مجاهل الصين إلى مغاور الصحراء الكبرى . ولذلك استفحل بها العمران ، وكثرت فيها المصانع والصنائع ، وصارت واسطة العرب والمعجم ، وحق لها أن تلقب بقبة السلام ، كما سماها عمر بن الخطاب رضى الله عنه . »

وكان طريق القوافل الكبرى التى يجتازها الحجاج السوريون يبعد عن البحر بعض الشيء ، لأنه كان يمر شرق نهر الأردن خارج فلسطين . ولكن زيارة المسجد الأقصى بيت المقدس وقبر إبراهيم الخليل كانت من الأمور المقدسة عند المسلمين . وكان كثير من الحجاج يحجون بيت المقدس بعد أداء فريضة الحج فى مكة ، فيتقابلون مع حجاج الغرب المسيحيين . وبذلك أتاحت للتجار الفرصة لتبادل السلع . وفى ١٥ من سبتمبر من كل عام كان يقام فى بيت المقدس سوق كبيرة يفد إليها تجار الأمم المختلفة . وكان أكثر الحجاج مجتمعون فى دمشق ، التى كانت ملتقى عدة طرق هامة ، ثم يسرون فى جماعات كبيرة إلى مكة ، ومنها يتفرقون بعد أداء فريضة الحج . وكانت هذه الحركة المستمرة سببا فى وجود كثير من السلع إلى أسواق دمشق . ولما كانت المدن البحرية مثل طرابلس وبيروت وصور وعكا لاتبعد عن سوق دمشق الكبيرة إلا بضعة أيام ، فمن المرجح أنها كانت تحصل على ماتحتاج إليه من السلع التى كانوا يتنازعونها فى سوق دمشق الكبيرة . وهناك طريق آخر مهم يوصل إلى سورية ، وهو مجرى الفرات الذى يبدأ من الخليج الفارسى وينتهى عند نقطة لاتبعد كثيرا عن البحر الأبيض المتوسط .

وكان بيلاد الشام كثير من الأسواق تمتد بها الحوانيت على طول الشوارع من الجانبين ؛ ولكل طائفة من التجار قسم خاص بها . وكان للتجار الغرباء فنادق قريبة الشبه بالأسواق الكبيرة ، يضعون بضائعهم بأسفلها ويتأمنون فى أعلاها .

وقد أقام العرب غربى مصر دويلات تمتد على طول ساحل إفريقيا الشمالى ، وفى بلاد الأندلس وصقلية . وكانت هذه الدويلات تقوم بدور الوسيط فى تبادل التجارة بين الشرق والغرب ، كما كانت قصور القيروان وقرطبة وبلرم فى حاجة إلى منتجات آسيا . وكانت سفن العرب تقطع البحر الأبيض المتوسط فى ستة وثلاثين يوما ، من ميناء أنطاكية

(١) كتاب البصر بالتجارة تأليف أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : نهره السيد حسن حسنى عبد الوهاب (القاهرة سنة ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٥ م) مقدمة ص ٣ .

شرقاً إلى جبل طارق . وتعتبر أنطاكية التي حصنها الخليفة المعتصم من أهم مرافق بلاد الشام التجارية ، كما كانت صور ميناء حريباً به دار للصناعة ، ومنه تخرج السفن لمحاربة البيزنطيين .
وصول تجارة العرب إلى بلاد الصين :

ويتضح من رحلات السندباد البحري التي وردت في كتاب ألف ليلة وليلة ، والتي ترجع إلى عهد الرشيد ، أن العرب كانوا في العصر العباسي يقومون برحلات بحرية تبدأ من بغداد ، وتسير في الخليج الفارسي حتى تصل إلى شبه جزيرة ملقا (وتعرف الآن بشبه جزيرة الملايو) ، وكان التجار يشجعون هذه الرحلات التي تجلب لهم ثوابل الهند وعطورها وحرير الصين .

ومن المحتمل أن يكون العرب في القرن الثاني الهجري قد وصلوا إلى بلاد الصين ، وأنهم كانوا من بين الأجانب الذين فتح لهم ميناء كاتون وسوقها سنة ٨٢٢ م (٧٠٠ م) ، وقد أثبتت بعض الفتن التي حدثت في هذه المدينة سنة ١٤١ هـ (٧٥٨ م) وجودهم هناك^(١) .

وقد جاوز العرب في العصر العباسي الأول جزيرة سيلان كثيراً . وبعد أن كان الصينيون حتى أوائل العصر العباسي الأول ينجبون بكثرة البحار الواقعة على ساحل الهند وفي الخليج الفارسي ، أصبح من النادر وجودهم في الخليج الفارسي ، لأن العرب أخذوا يقومون برحلات طويلة ، حتى إنهم وصلوا إلى بلاد الصين . وقد اتخذ ميناء سيراف مرسى لهذه السفن ، التي كانت تعود محملة بالسلع الواردة من البصرة وعمان وغيرها من هذه الجهات وتنقل تجارة العرب والفرس إلى بلاد الصين^(٢) .

وفي القرن الثالث الهجري وضع أبو القاسم بن خرداذبة^(٣) دليلاً للسافرين ، وصف فيه فيما وصف الطريق البحري ، الذي يبدأ من مصب دجلة عند الأتلة ويصل إلى بلاد الهند والصين . ويذكر ابن خرداذبة أن السفن العربية كانت تسير بمحاذاة الشاطئ الفارسي وساحل الهند حتى بلبار ، وكان اختيار هذه الطريق يرجع إلى الرغبة في شحن البضائع وتزويدها في الموانئ المختلفة ، لا إلى الخوف من التوغل في البحر . والحقيقة أن هذه السفن كانت عند مغادرتها ساحل كرماندل Cromandel تعبر خليج بنغالة في خط مستقيم ، كما كانت تفعل السفن الصينية تماماً .

وقد استطاع العرب منذ أواخر القرن الثاني الهجري أن يستقروا في ميناء خانفو Khanfou ،

(١) T.W. Arnold : The Preaching of Islam, pp. 868-4

(٢) W. Heyd : Histoire du commerce du Levant au Moyen-âge

vol. I, p. 72.

(٣) كتاب المسالك والممالك (يدين سنة ١٣٠٦ هـ) .

وهو إلى الجنوب من مدينة شنغهاي الحالية ، وكان لهم بسبب تساهل امبراطور هذه البلاد وكرمه قاض مسلم يحكم بينهم طبقاً لأحكام الشريعة الإسلامية ، ويؤمهم في الصلاة ، كما كانوا يتبادلون التجارة مع الصينيين ، ويحصلون على جوازات تسمح لهم بالتنقل في داخل هذه البلاد ابتغاء التجارة مع أهلها . وظل حال تجار العرب على ذلك حتى قامت في هذه البلاد فتن وثورات كان من أثرها أن ساءت حال هؤلاء التجار ، فقطعوا علاقاتهم مع الصين وانتقلوا إلى شبه جزيرة ملقا ، واتخذوا مركزهم في مدينة كله (١) .

وقد أصبحت كله Kalah مرسى للسفن التي تحمل متاجر آسيا الغربية والشرقية ، وفتحت أمام تجار العرب سوق جديدة للالتجار في سلع الهند الصينية ، وهي الكافور والقرنفل وخشب العود والصندل وجوز الهند وجوز الطيب والقصدير . وقد تقدمت هذه التجارة تقدماً عظيماً ، حتى أصبحت الرحلة إلى شبه جزيرة ملقا في القرن العاشر ، من أسهل الرحلات العالمية في نظر بحارة سيراف الذين عرفوا أيضاً جزيرة جاوه .

وقد وصل العرب إلى الهند الصينية والصين في كثير من الأحيان ، ومن المحتمل أن بعضهم قد وصل إلى كوريا (٢) .

وكانت الرحلة من الساحل الغربي إلى ساحل الهند الغربي تستغرق بين شهرين وثلاثة أشهر ، وقد تستغرق شهراً واحداً إذا ساعدتها الريح . ولا ريب أن تجار العرب كانوا يقيمون في سيلان قبل سنة ٨٠٠ هـ .

وقد ذكر الرحالة العرب الذين قاموا برحلاتهم في القرنين التاسع والعاشر ، أنهم كانوا يلاقون شيئاً كثيراً من العطف والرعاية من بعض ملوك الهند ، وأن جماعة من أمراء ملبار قد اعتنقوا الإسلام ، وسمّحوا للعرب بإقامة المساجد في هذه البلاد . وبينما أنشأ العرب على سواحل الهند وفي بعض مدنها تجاليات عربية ، كانت جيوشهم قد تجاوزت حدود فارس منذ أوائل القرن الثامن الميلادي ، واستولت على بلاد السند . وكان من أثر ذلك أن نشطت الحركة التجارية ونمت في المئتان والديبل . وكانت سفن فارس وبلاد العرب تخرج على تلك البلاد في ذهابها إلى بلاد الهند والصين ، وفي عودتها حاملة حاصلات تلك البلاد (٣) .

(٣) كله فرضة بالهند وهي منتصف الطريق بين عمان والصين ، وتقع في طرف خط الاستواء .
أنظر هذا اللفظ في معجم البلدان لياقوت .

W. Heyd : Histoire du commerce du Levant au Moyen-âge, vol. (٢)

I. pp. 80—82

• Ibid. pp. 82—89; Arnold : The Preaching of Islam, p. 863 et seq. (٣)

كذلك وجدت بين بلاد اليمن والحجاز والحبشة ومصر وبين آسيا الشرقية علاقات تجارية. وحين كان زمرد ساحل الهند الشرق ينتقل إلى الغرب عن طريق عدن ومكة، كان أمراء الشرق الأقصى يطلبون زمرد مصر العليا وناب الفيل الكثير في الحبشة. وكانت ميناء عدن سوقا نافعة لتلك السلع ومرسى للسفن الآتية من كل أنحاء آسيا وساحل إفريقيا الشرق (١).

وكانت جُدة ميناء مكة، كما كانت القلزم ميناء مصر وسورية. وقد فكر هارون الرشيد في حفر قناة تصل بين البحرين الأبيض والأحمر، ولكنه أهمل هذه الفكرة عند ما قبل له إن الإغريق سيجدون عن طريق هذه القناة منفذا إلى البحر الأحمر، وإنهم بذلك يستخدمون هذا المنفذ لإرسال حمولات ضد مكة والمدينة وقطع طريق الحج. ولذلك عدل الرشيد عن حفر قناة السويس (٢)، وأصبح من المستحيل تمأش عبور الصحراء إذا أريد نقل السلع الواردة عن طريق البحر الأحمر إلى الغرب، فكانت هذه السلع تحمل على ظهور الجمال ثم تنقل في النبل، أو ترسل في البر عبر برزخ السويس. ولكن الطريق الأول يوصل إلى الاسكندرية مباشرة. وإذا كانت شجرة الاسكندرية قد تضاءلت أمام شجرة بغداد، فإن حالة الفئ التي تمتعت بها مصر في عهد الطولونيين قد أعادت إليها بعض الاتعاش. وكان بعض السلع التي ترد عن طريق البحر الأحمر يرسل عبر برزخ السويس إلى ميناء الفرما التي احتفظت بقناها وأهميتها. وما جعل لهذا الطريق قيمة ظاهرة بين الطرق الأخرى، أنه كان لا يستغرق أكثر من أربعة أو خمسة أيام (٣).

أما السلع التي كانت تجلب من الشرق إلى جدة، ومنها ترسل إلى مكة في موسم الحج، فإنها كانت تصل إلى الغرب، بواسطة التجار المصريين الذين كانوا يقدون إلى بلادهم برأ مع الحجاج أو مع التجار السوريين الذين كانوا يعملونها إلى دمشق.

وفي الوقت الذي كان فيه العرب أصحاب السيادة على المنطقة الواقعة عند مصب نهر السند، كان هناك طريق تجاري يسير من تلك المنطقة نحو داخل فارس ماراً بولاية سجستان. وإلى الشمال من ذلك الطريق كانت قوافل البشاج تنقل مقادير كبيرة من البضائع عبر مضاب أفغانستان، وتوصلها إلى كابل وغزنة وغيرهما، مما صار بعدئذ مراكر تجارية كبيرة. ومن

Heyd, p. 85 (١)

(٢) البيوطي: تاريخ الخلفاء ص ١٨٩

Heyd: Histoire du Commerce du Levant Au Moyen-âge, p. 41. (٣)

هناك كانت القوافل تسير نحو خراسان غربا وبخارى شمالا ، حتى إن توابع الهند كانت تنتشر في تلك الأقاليم . وتلاقى في بخارى مع البضائع الآتية من الصين عبر آسيا الوسطى .

وكانت هناك علاقات تجارية بين أهالي بخارى والصين . وبعد أن وصل نفوذ العرب الى نهر سيحون ، كان التاجر يستطيع الذهاب الى الصين دون أن يجد عقبات من السلطات الرسمية . وبعد أن يعبر نهر سيحون شرقا ، يمر بقبيلة التترغز أهم قبائل الترك التي كانت تقيم على سفوح جبال تيان شان . وكان هناك طريقان مطروقان ، أحدهما طويل يستغرق أربعة أسابيع ، ويصلح لسير دواب الحمل ، والآخر قصير جداً ، ولكنه متشعب ؛ ولذلك يستغرق أربعين يوماً . وهناك طريق يمر بالبت ، ولكنه كان محفوقاً بالمصاعب (١) .

وكان السبب الأساسي في ذهاب القوافل الى الصين ، هو تجارة الحرير . فلما انتشر هذا النوع في شمال فارس ، واشتهرت مرو بصناعته ، قل مسير القوافل الى الصين (٢) . ويقول صاحب « كتاب حضارة الاسلام في دار السلام » (٣) : « لما توفرت الأموال في أيدي العباسيين وأمن هارون الرشيد طرق القوافل والنفن ، حملت السلع من جميع أرجاء العالم الى العراق ، لحملت الآتية من الهند ، والحديد من خراسان ، والرخاص من كرمان ، والنسيج الملون من قشعير ، والعود والمسك والسروج والدار صيني من الصين ، والسكر وأنواع الطيب من اليمن ، والسلاح والمصنوعات من فارس ، والآلات من عذاب ، والخيزران والكافور والعود والقرنفل والنارجل والثياب القطنية والقيلية من الهند والسند ، والياقوت والماس من سرنديب ، والمجلود والرقيق من بلاد الروم ، والفأكة والسلاح والحديد من بلاد الشام ، وجلود الثعالب من روسيا ،

وقد عني هارون الرشيد بتنظيم التجارة ، فعهد إلى المحتسب في مراقبة الأسواق والإشراف على الموازين والمكاييل ، ومراعاة أمان الحاجات منعاً للنش أو ابتزاز أموال الأهالي (٤) . وكان المسلمون في العصر العباسي الأول يصعدون الى البلاد الأخرى التبريد والحنطة ، والأرز والفأكة ، وزهور ما زندران المشهورة ، والسكر والزجاج والحرير والأقشة الصوفية

(١) Heyd, pp. 86—87.

(٢) Ibid., pp. 87—88.

(٣) جميل نخله المدور ص ١١٦—١١٧

(٤) المصدر نفسه ص ١١٨

والكتانية والحريية ، والزيت والمطوركاء الورد والزعفران وماء السوسن وشراب العنب وزيت البنفسج وغيرها (١) .

وصفة القول أن عناية الخلفاء العباسيين بالتجارة ، وحرصهم على تبادلها وتيسير طرقها البرية والبحرية ، كان له أكبر الأثر في ترقية التجارة التي تقوم على تبادل المحاصيل ، كما مهد السبيل أمام الكاشفين والرحالة ، فكثرت رحلاتهم في هذا العصر كثرة تدعو إلى الإعجاب ، فوصفوا البلاد المختلفة وصفا دقيقا مبيّنا على المشاهدة .

(١) سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي : ترجمة ص ٢٦٦ .

البibliotheca

الثقافة والفن

١ - الثقافة :

(١) اشتغال الموالي بالعلم :

عما يسترعى نظر الباحث في تاريخ الثقافة الإسلامية ، أن السواد الأعظم من الذين اشتغلوا بالعلم كانوا من الموالي ، وخاصة القرس . وكانت اللغة العربية هي الوسيلة الوحيدة للتفاهم بين المسلمين ، إلى أن أزال المغول الخلافة العباسية من بغداد في القرن السابع الهجري . وفي ذلك يقول ابن خلدون^(١) عند كلامه على : « أن حملة العلم في الإسلام أكثرهم المعجم » : « من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم المعجم ، لامن العلوم الشرعية ، ولان من العلوم العقلية إلا في القليل النادر ، وإن كان منهم العربي في نسبه ، فهو أعجمي في لغته ومُربيته ومشيجته ، مع أن الملة عربية ، وصاحب شريعتها عربي . والسبب في ذلك أن الملة في أولها لم يكن علم فيها ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداءة . وإنما أحكام الشريعة التي هي أوامرها ونواهيها كان الرجال ينقلونها في صدورهم ، وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرح وأصحابه ، والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ، ولا دفعوا إليه ولا دعيتهم إليه حاجة . وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين ، وكانوا يسمون المختصين بحمل ذلك ، ونقله القراء أي الذين يقرءون الكتاب ، وليسوا أميين لما أن الأمية يومئذ صفة عامة في الصحابة ، بما كانوا عربا ، فليل حملة القرآن يومئذ قراء ، إشارة إلى هذا . فهم قراء لكتاب الله والسنة المأثورة عن الله ، لأنهم لم يعرفوا الأحكام الشرعية إلا مته ومن الحديث الذي هو في غالب موارد تفسيره وشرح . قال صلى الله عليه وسلم : تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنتي . فلما بعد النقل من لدن دولة الرشيد فما بعد ، احتيج إلى وضع التفسير القرآني ، وتقييد الحديث بخلافه ضياعه . ثم احتيج إلى معرفة الأسانيد وتعديل الرواة للتمييز بين الصحيح من الإسناد ومادونه ، ثم كثرت استخراج أحكام الواقع من الكتاب والسنة ، وفسد مع ذلك اللسان ، فاحتيج إلى وضع القوانين التحوية وصارت

العلوم حضرية... وبعد العرب عنها وعن سوقها . والحضر لذلك العهد هم العجم أمون في معانهم من الموالى وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف ، لأنهم أقوم على ذلك الحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس . فكان صاحب صناعة النحوي سيويوه والفارسي (٢٧٧ هـ) من بعده والزجاج^(١) (٣١١ هـ) من بعدهما ؛ وكلهم عجم في أنسابهم ، وإنما ربروا في اللسان العربي فاكْتَسَبُوهُ بالمرق (النشأة والتربية) ومخالطة العرب ، وصبروه قوانين وفنا لمن بعدهم . وكذلك حملة الحديث الذين حفظوه على أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمرق ، لاتساع الفن بالعراق وما بعده . وكان علماء أصول الفقه كلهم عجم كما تعرف ، وكذا جملة علماء الكلام ، وكذا أكثر المفسرين . ولم يبق يحفظ العلم وتدوينه إلا الأتاجم . فظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم : لو تعلق العلم بأعناق السماء لثاله قوم من فارس . وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا إليها عن اليدوة ، فشغلهم الرياسة في الدولة العباسية ، وما دفعوا إليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم والنظر فيه ، فانهم كانوا أهل الدولة وحاميتها وأولى سياستها ، مع ما يلحقهم من الأنفة في اتحال العلم حيثئذ بما صار من جملة الصنائع . والرؤساء أبدأ ، يستكشفون عن الصنائع والمهن وما يجر إليها ، ودفعوا ذلك إلى من قام به من العجم والمولدين ، ومازالوا يرون لهم حق القيام به ، فانه دينهم وعلومهم ، ولا يحتقرون حملتها كل الاحتقار . حتى إذا خرج الأمر من العرب جملة وصار للعجم ، صارت العلوم الشرعية غريبة النسب عند أهل الملك بما هم عليه من البعد عن نسبها ، وامتحن حملتها بما يرون أنهم بعدهاء عنهم ، مشغولون بما لا يمدى عليهم في الملك والسياسة .

ويقول نيكلسون^(٢) : وكان لانبساط رقعة الدولة العباسية ، ووفرة ثروتها ، ورواج تجارها ، أثر كبير في خلق نهضة ثقافية لم يشهدها الشرق من قبل ، حتى لقد بدا أن الناس جميعا ، من الخليفة إلى أقل أفراد العامة شأنًا ، قد غدوا لجانة طلابا للعلم ، أو على الأقل أنصارا للآداب . وفي عهد الدولة العباسية كان الناس يحويون ثلاث قارات سعيًا إلى موارد العلم والرفان ، ليعودوا إلى بلادهم كالنحل يحملون الشهد إلى جموع التلاميذ المتلهفين ، ثم يصنفون بفضل ما بذلوه من جهد متصل ، هذه المصنفات التي هي أشبه شيء بدوائر المعارف ، والتي كان لها أكبر الفضل في إيصال هذه العلوم الحديثة إلينا بصورة لم تكن متوقعة من قبل .

(١) Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs, p. 281.

(٢) كذا بالأصل وله يريد أن يقول : والزجاج من بعده والفارسي من بعدهما ، لأن الزجاج مقدم على أبي علي الفارسي .

تقسيم العلوم :

وقد ميز كتاب المسلمين بين العلوم التي تتصل بالقرآن الكريم ، وبين العلوم التي أخذها العرب عن غيرهم من الأمم . ويطلق على الأولى العلوم النقلية أو الشرعية ، وعلى الثانية العلوم العقلية أو الحسكية ، ويطلق عليها أحياناً علوم المصنوع أو العلوم القديمة . وتشمل العلوم النقلية : علم التفسير ، وعلم القراءات ، وعلم الحديث ، والفقه ، وعلم الكلام ، والنحو ، واللغة ، والبيان ، والأدب . وتشمل العلوم النقلية : الفلسفة ، والهندسة ، وعلم النجوم ، والموسيقى ، والطب . والسحر ، والكيمياء ، والتاريخ ، والجغرافيا .

وفي العصر العباسي الأول اشتغل الناس بالعلوم الدينية ، وظهر المتكلمون . وتكلم الناس في مسألة خلق القرآن . وتدخل المأمون في ذلك ، فأوجد مجالس للتناظر بين العلماء في حضرته ، ولهذا عاب الناس عليه تدخله في الأمور الدينية ، كما عابوا عليه تفضيله على ابن أبي طالب على سائر الخلفاء الراشدين والأئمة . وذهب البعض إلى أن المأمون أراد بمقعد هذه المجالس إزالة الخلاف بين المتناظرين في المسائل الدينية ، وتثبيت عقائدهم من زعوا عن الدين ، وبذلك تتفق كلمة الأمة في المسائل الدينية التي كانت مصدوحهم . وكان المأمون يميل إلى الأخذ بمنهج المعتزلة ، لأنه أكثر حرية واعتماداً على العقل ، تقرب أتباع هذا المذهب إليه ، ومن ثم أصبحوا ذوي نفوذ كبير في قصر الخلافة .

(١) العلوم النقلية :

١ - علم القراءات :

ومن العلوم التي اشتغل بها العباسيون علم القراءات ، ويعتبر المرحلة الأولى لتفسير القرآن . وتركز النواة التي بدأ بها هذا العلم في القرآن نفسه وفي نبوءه نفسها ، وبعبارة أوضح في قراءاته . غنى هذه الأشكال المختلفة نستطيع أن نرى أول محاولة للتفسير . ويرجع السبب في ظهور بعض هذه القراءات إلى خاصية الخط العربي ، إذ أن الرسم الواحد للكلمة الواحدة يقرأ بأشكال مختلفة فيما للنقط فوق الحروف أو تحتها .

وقد وجدت في القراءات على مر الزمن سبع طرق ، كل طريقة تمثلها مدرسة معترف بها ، ترجع قراءتها إلى إمام ترتبط باسمه وتستند إلى أحاديث موثوق بها ، وعليها يجب أن يقتصر في قراءة المصحف . ويعتبر هارون بن موسى البصري اليهودي الأصل (المتوفى بين سق ١٧٠ و ١٨٠ هـ) ، الذي كان مولى للأزد ، أول من حاول نقد القراءات المختلفة ، وبحث وجه النظر التي تقوم عليها ، ونقد الأسانيد التي تستند إليها نقداً قويا . وعلى الرغم من أنه كان قدراً معترفاً ، فقد قدره البخاري ومسلم ، ووثقه يحيى بن معين . ويرجع أغلب الاختلافات في القراءات إلى رجال موثوق بهم من عاشوا في القرن الأول كابن عباس وعائشة ،

وعثمان صاحب القراءة، وابنه أبان، وإلى قراء معترف بهم، كعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، وهؤلاء قد اتفق عليهم التابعون وغيرهم^(١).

ومن أشهر أصحاب القراءات في العصر العباسي الأول يحيى بن الحارث الذمماري^(٢) المتوفى سنة ١٤٥ هـ، وحزمة بن حبيب الزيات المتوفى سنة ١٥٦ هـ في خلافة أبي جعفر المنصور، وأبو عبد الرحمن المقرئ المتوفى سنة ٢١٣ هـ، وخلف بن هشام البزاز المتوفى سنة ٢٢٩ هـ^(٣).

٢ — التفسير :

اتجه المفسرون في تفسير القرآن اتجاهين : يعرف أولهما باسم التفسير بالمأثور، وهو ما أثر عن الرسول وكبار الصحابة، ويعرف ثانيهما باسم التفسير بالرأى، وهو ما كان يعتمد على العقل أكثر من اعتياده على النقل. ومن أشهر مفسري هذا النوع المعتزلة.

على أن النوع الأول من التفسير، وهو التفسير بالمأثور، قد اتسع على مر الزمن بما أدخل عليه من آراء أهل الكتاب الذين دخلوا في الإسلام، والذين كانت لهم آراء أخذوها عن التوراة والإنجيل مثل كعب الأحبار اليهودي وعبد الله بن سلام وابن جريج. ولقد كان لإسلام هؤلاء فرق التهمة والكذب، ورفعوا إلى درجة أهل العلم الموثوق بهم^(٤)، كما كانوا يتخذون الشعر مرجعاً للتفسير في استعماله اللغوية. وقد أثر عن ابن عباس أنه قال : إذا تاجم شيء من القرآن فانظروا في الشعر فإن الشعر عربي، حتى لقد كان يفسر كثيراً من الآيات القرآنية بالمعاني ووردت في الشعر الجاهلي^(٥).

ولما كان الحديث يشغل كل عناية المسلمين في صدر الإسلام، فقد اعتبر التفسير جزءاً من الحديث، أو فرعاً من فروعه، حتى إن التفسير في ذلك العهد كان تفسيراً لآيات مبثورة غير مرتبة حسب ترتيب السور والآيات، إلا تفسير ابن عباس، ولو أن كثيرين يشكون في نسجه إليه. أما الطريقة المنظمة في تفسير القرآن، فانها لم تحدث إلا في العصر العباسي. وقد روى ابن التديم^(٦) : أن عمر بن بكير كان من أصحابه، وكان منقطعاً إلى الحسن بن سهل، فكتب إلى القراء أن الأمير الحسن بن سهل ربما سألني عن الشيء بعد الشيء من القرآن فلا يحضرنى

(١) جولدسيهر : المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن — ترجمة الدكتور علي حسن عبد القادر ص ٣٦ — ٣٧.

(٢) نسبة إلى ذمار وهو غلاف من مخاليف اليمن.

(٣) ابن قتيبة : كتاب المعارف ص ٢٣٠ — ٢٣١ ؛ ابن التديم : كتاب القهرست ص ٤٢ — ٤٥.

(٤) كتاب المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص ٦٦.

(٥) غنى المصدر ص ٦٨ — ٦٩. (٦) كتاب القهرست ص ٩٩.

فيه جواب ؛ فان رأيت أن تجمع لى أصولاً أو تجمل فى ذلك كتاباً أرجع إليه فلت ، فقال
الفرء لأصحابه : اجتمعوا حتى أملى عليكم كتاباً فى القرآن ، وجعل لهم يوماً .. فلما حضروا
خرج إليهم ، وكان فى المسجد رجل يؤذن ويقرأ بالناس فى الصلاة ، قالت فى إليه الفرء
فقال له : اقرأ ! وبدأ بفاتحة الكتاب فقرأها ، ثم استوفى الكتاب كله ، قرأ الرجل ، ويفسر
الفرء ، فقال أبو العباس : لم يعمل أحد قبله مثله ، ولا أحسب أن أحداً يريد عليه . ولا شك
أن الفرء قد فسر القرآن حسب ترتيب الآيات ، وأنه فسر هذه الطريقة التى رسمها لنفسه
فى أربعة أجزاء (١) .

ومن أشهر المفسرين بعد عبد الله بن عباس ابن جرير الذى كان يجمع كل ما وصل إليه
دون تحرى الدقة فى التفسير ، والسيدى المتوفى سنة ١٢٧ هـ ، وقد اعتمد فى تفسيره على
ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة ، ومقاتل بن سليمان المتوفى سنة ١٥٠ هـ ، وقد تأثر
بتفسير التوراة الذى اتخذ عن اليهود ، حتى اتهمه الإمام أبو حنيفة بالكذب ، وتفسير محمد
ابن اسحق الذى أخذ كثيراً من آرائه عن اليهودية والنصرانية عن وهب بن منبه وكعب
الاحبار . على أن هذه التفسيرات قد زالت ، ولم يصل إلينا شيء منها إلا عن محمد بن جرير الطبرى
(٢١٠ هـ) فى تفسيره المشهور الذى يقع فى ثلاثين مجلداً (٢) ، والذى وصفه أبو حامد
الأسفرائين بقوله : « لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل كتاب تفسير محمد بن جرير الطبرى
لم يكن ذلك كثيراً » . ويقول جوله تسهر إنه دائرة مآرِف غنية فى التفسير المأثور (٣) .
ويمتاز الطبرى فى تفسيره بتحرى الدقة فى النقل عن الرسول والصحابة والتابعين ، ومعارضة
أصحاب الرأى المستقلين فى التكثير ، لأنهم كثيراً ما يتبعون هوامم . وقد أعطى — كذلك —
فى تفسيره لإجماع الأئمة سائطاً ناكبراً . وعلى هذا النحو انتظم فى تفسيره ، آية بعد آية ، التفسير
بالروايات المروية عن العلماء المعتمدين وحدهم ، وأبد ذلك بالأسانيد المختلفة بالرجال الذين
وصلت إليه المعرفة عن طريقهم . ولم يسلك هذا الطريق على نحو آلى ، وإنما فعل ذلك على
مثال ما كان يسير عليه العلماء المسلمون من وقت طويل ، من نقد الرجال جرحاً وتعديلاً .
فمتندما يظهر له أن الحديث غير موثوق به ، فانه يصرح فيه بما يناسبه ، حتى أراد ابن عسامة
وقف حيالها موقفاً حراً صريحاً . وقال مرة عن مجاهد الذى كان يجب اتباعه ، إن رأيه يخالف
إجماع الحجة الذى لا يمكن نسبته إلى الكذب ، وفى مرة أخرى « وما ذكرهنا عن مجاهد لا معنى
له وفساد رأيه لانه فيه » . وعلى هذا الشكل كان يعالج أيضاً آراء الضحاك وغيره من الرواة

(١) ابن النديم من ١٠٠ . (٢) القاهرة (سنة ١٩٠٤) .

(٣) كتاب المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن من ٨٥ — ٨٦ .

عن ابن عباس (١). ويمتاز ابن جرير الطبري عن سبقه من المفسرين ، بأنه كان يأتي بأخبار مأخوذة من القصص الإسرائيلية من مراجع يهودية الأصل (مثل كتب الأحبار ووهب ابن منبه) ، ولكنه لا يتمسك في ذلك بإعجاب المتقدمين بلا قيد ولا شرط (٢).

وقد امتاز العصر العباسي الأول بوجود جماعة من المعتزلة (أحرار الرأي) الذين لم يتقيدوا بالتفسير بالمأثور ، وإنما كانوا يعتمدون في دعم آرائهم على العقل ؛ وقد بذلوا جهدا عظيما لدحض آراء معارضهم بتفسير بعض الآيات القرآنية تفسيراً يتفق مع مبادئهم العقلية . ويقول جولدتسيهر (٣) : « وقد جر سلوك هؤلاء المعتزلة المخالف لبعض النظريات الدينية السائدة عند المحدثين ، إلى التباعد بين هؤلاء المتطرفين الذين يعتمدون على العقل ، مع أولئك الاتقياء المباليغين في الدقة ، وكان ذلك في العصر العباسي الأول ، وما لبثوا بعد ذلك حتى صاروا فرقة خالقت (وإن تكن للخلافة أيضا بواعث أخرى) النظريات الروية على خط مستقيم بكل حرية واستقلال » .

وقد تلا هذا أنه كان من الضروري لهذه الفرقة — المعتزلة — في سبيل مكافحة خصومها ، أن تؤسس وتدعم تعاليمها على أسس دينية من القرآن ، ومن جهة أخرى أن تردد حجج هؤلاء الخصوم وتضعف من قوتها من القرآن أيضا ، وذلك كله بطريق التفسير الماهر واستخدامه في سبيل ذلك .

وقد حذب جولدتسيهر طريقة المعتزلة في تفسير القرآن وجعلهم العقل مقياسا للحقائق الدينية ، لأنهم بهذا كالحوا الخرافات والتصورات المخالفة لطبيعة الأشياء التي وجدت طريقها إلى الدين (٤).

ومن أشهر تفاسير المعتزلة تفسير أبي بكر الأصب (٥٢٤٠+) ، وتفسير ابن جرير الأسدي (٥٢٨٧+) ؛ وقد قبل أنه كتب في تفسير البسطة نحو ١٢٠ وجها .

من ذلك نرى أن القرآن الكريم قد أصبح منبعا لكثير من العلوم التي اشتغل بها المسلمون في العصر العباسي : فعلماء النحو قد اتخذوا منه مادة خصبة يعتمدون عليها في استنباط قواعد اللغة العربية ، كما ساعد الإعراب ، على تفسير القرآن تفسيراً صحيحاً ، وكشف غوامض بعض الآيات القرآنية ، حتى لقد وضع بعض علمائهم ، كالكسائي والمبرد والفرّاء وخلف النحوي ، كتباً أطلقوا عليها معاني القرآن (٥) . كما اعتمد الفقهاء في آرائهم الفقهية على القرآن

(١) المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص ٨٦ — ٨٧ . (٢) نفس المصدر ص ٨٨ .

(٣) نفس المصدر ص ٩٩ — ١٠٠ .

(٤) نفس المصدر ص ١٣٧ .

(٥) ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٥١ — ٥٢ .

والنفوا في المذاهب المختلفة، كتبوا سموها « أحكام القرآن » . ومن هؤلاء الشافعي وأبو بكر الرازي والكلبي ويحيى بن أكثم^(١) . أضف إلى ذلك ما كتبه المؤرخون من تفسير الآيات القرآنية التاريخية من حيث صلها بتاريخ الأمم الأخرى . وغير خاف أن القرآن الكريم هو بلا نزاع من أهم المصادر التاريخية ، لأنه أقدمها وأصدقها وأوسعها مجالا ، ولا سيما في الكلام على النبي صلى الله عليه وسلم . فمن القرآن نستطيع أن ننظر إلى النبي من حيث هو نبي أو سياسي أو مشرع ، أو من حيث هو مصلح اجتماعي ، أو من حيث كونه رجلا عاديا . وهذا كله نجد صورة واضحة للنبي من جميع هذه الوجوه . كما نجد في القرآن مصدرا لتاريخ الأمم الأخرى كدولة سبأ في اليمن (سورة النمل وسورة سبأ) ، وتاريخ اليهود (سورة البقرة) وصراعهم مع الرسول (سورة الأحزاب) وعلاقتهم بموسى (سورة البقرة والنمل والقصاص وغيرها) .

كما أخذ علماء الكلام يفسرون القرآن بما يتفق ومبادئهم ، فأولوا القرآن لتلقي الصفات عن الله سبحانه وتعالى ، وإبعاد الخرافات التي وجدت سبيلا إلى الدين الإسلامي عن طريق التفسير .

٣ - الحديث :

ومن مصادر التشريع الإسلامي « الحديث » ، وهو ما أثر عن النبي من قول أو فعل أو تقرير لشيء رآه ، ويأتي في الأهمية بعد القرآن وقد جمع البخاري ، على ما نعلم ، نحوه ٧٧٧ حديثا بما فيها الأحاديث المكررة . فلماذا حذفنا المكرر منها ، أصبح عددها نحو أربعة آلاف . وقد اختارها البخاري - على ما قبل - من ثلثمائة ألف حديث . ومع ذلك فإن الإمام أبا حنيفة لم يبق إلا ستة عشر حديثا . ومن ذلك يتبين لنا مبلغ ما وصل إليه التحريف في الحديث .

وكانت هذه الأحاديث التي وصلت إلى أيدينا موضعا للجدل العنيف بين فقهاء المسلمين : ذلك أنه عند وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، لم يكن السواد الأعظم من العرب يستطيعون القراءة والكتابة ، حتى إن تاريخ هذه الأمة لم يكون إلا بعد زمن طويل . وقد روى العرب الأحاديث النبوية بعضهم عن بعض ، فتأثرت بشيء غير قليل من التبديل والتحريف ، مما أدى بها إلى الغموض والإيهام ، فشوهت معانيها والظروف التي أحاطت بوقوعها وقولها . حتى إذا جله القرن الثاني للهجرة ، أخذ العرب يدونون الأحاديث النبوية ، وأتاحوا الفرصة لظهور طائفة من أئمة الحديث الذين اشتهر منهم الإمام مالك ، والإمامان محمد بن اسماعيل البخاري

(٢٥٦ هـ) ، ومسلم بن الحجاج القشيري صاحب الصحيحين المشهورين الذائعين في بلاد الإسلام . ثم ظهر بعدهما الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١ هـ) صاحب المسند ، وأبو داود السجستاني (٢٧٥ هـ) صاحب السنن ، وأبو عيسى محمد الترمذي (٢٧٨ هـ) صاحب الجامع ، والنسائي وابن ماجه صاحبا السنن ، وكلهم من ألف في السنن كتابا نسب إليه . ولا تزال كتبهم باقية ، وهي أشهر كتب السنة ، ولكن أشهرها جميعا صحيحا البخاري ومسلم . وهذه الكتب الستة ، كما تسمى ، تحتل المكانة السامية بين مصادر التشريع الإسلامي (١) .

٤ — الفقه :

نشأ عن دراسة القرآن والحديث وتعرف معانيهما الخاصة ، الحاجة إلى تعلم النحو واللغة . وتطلب ذلك فهم الشعر الجاهلي الذي أمد الباحثين بأحسن ما تمثله اللغة العربية من الأدب القديم الخالص ، كما تطلب فهم اللغة العربية دراسة الأنساب والتاريخ التي مالبثت أن أصبحت على مر الزمن علوما مستقلة . كذلك عكف المسلمون على تفسير القرآن ، وحذا حذوهم في ذلك بعض التابعين . ولم يكن تدوين الحديث شائعا في القرن الأول الهجري ، غير أن الناس أقبلوا منذ مطلع القرن الثاني على جمعه وتدوينه ، حتى أصبح المهور الذي تدور عليه الحركات العلمية في الأمصار الإسلامية .

وهو أشهر فقهاء هذا الدهر الإمام أبو حنيفة النعمان ، الذي ولد بالكوفة سنة ٨٠ هـ ، ومات ببغداد سنة ١٥٠ . وقبل إنه - حج في السادسة عشرة من عمره مع أبيه ، وشهد عبد الله ابن الحارث أحد الصحابة يحدث بما سمع عن رسول الله ، كما روى أيضا أنه سمع أنس بن مالك .

وكان أبو حنيفة بجانب اشتغاله بالعلم يحترف التجارة ببيع الخبز ، ويجلس في الأسواق ، مما أكسبه خبرة عظيمة ، وجعله يعرف حقيقة ما يجري في الأسواق من معاملات الناس في البيع والشراء .

وقد تعلم أبو حنيفة الفقه في مدرسة الكوفة ، وأخذ عن عطاء بن أبي رباح وهشام بن عروة ، ونافع مولى عبد الله بن عمر ، ولكنه أخذ أكثر عليه عن أستاذه حماد بن أبي سليمان الأشعري . وكان أبو حنيفة يتشدد في قبول الحديث ويحصر عنه وعن رجاله ، فلا يقبل الخبر عن رسول الله ، إلا إذا رواه جماعة عن جماعة ، أو إذا اتفق فقهاء الأمصار على العمل به .

ولم يصل إلينا أى كتاب فى الفقه لأبى حنيفة ؛ إلا أن ابن التديم ^(١) ذكر من بين كتبه كتاب الفقه الأكبر ، وهو فى العقائد ، ورسائله إلى البسّى ، وكتاب العالم والمتمم ، وكتاب الرد على الفقدانية ، والعلم برأ وبجراً شرقاً وغرباً بدأً وقرباً .

ومن نقباء ذلك الصرمالك بن أنس الذى ولد سنة ٩٣ هـ (أو سنة ٩٧ هـ) ، وتوفى سنة ١٧٩ هـ ، وقضى حياته بالمدينة المنورة . وروى أنه أخذ قراءة القرآن عن نافع بن أبى نعيم ، وسمع الحديث من كثير من شيوخ المدينة كابن شهاب الزهري ونافع مولى ابن عمر .

وكان مالك بن أنس أول من كتب فى العلوم الدينية فى العصر العباسى ، وكتابه ، الموطأ ، أول كتاب ظهر فى الفقه الإسلامى ، ومن كتبه « المدونة » ، وهى مجموعة وسائل من فقه مالك ، جمعها تلميذه أسد بن الفرات النيسابورى ، وتشتمل على نحو ست وثلاثين ألف مسألة . وكان مالك يعتمد على الحديث كثيراً ، لأن بيته الحجازية كانت تزخر بالعلماء والمحدثين الذين تلقوا الحديث عن الصحابة رضوان الله عليهم ، وورثوا من السنة ما لم يتبع لغيرهم من أهل الأمصار الإسلامية الأخرى . وعن أشهر بالفقه من تلاميذ مالك محمد بن الحسن فى العراق ، ويحيى بن يحيى الليثى فى الأندلس ، وعبد الله بن وهب ، وعبد الرحمن بن القاسم ، وعبد الله بن الحكم فى مصر ، وأسد بن الفرات فى القيروان .

ومن أشهر أئمة هذا العصر أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى . وكان شديداً فى التشيع ، حتى إنه حضرات يوم مجلساً فيه بعض الطالبين فقال : « لا أنكمم فى مجلس يحضره أحدكم » . ثم أحق بالكلام ولهم الرئاسة والفضل . وقد ترك بلاد العراق سنة ٢٠٠ هـ ، وقصد مصر ، حيث مات بها سنة ٢٠٤ هـ . وله كتب كثيرة فى الفقه ، منها كتاب المبسوط فى الفقه ، وكتاب الأم ، وقد أملاه على تلاميذه فى مصر . وروى عنه كثير من الفقهاء كابن نور وابن الجتيد والبونينى وابن سريج وغيرهم ^(٢) .

ومن هؤلاء الأئمة أحمد بن حنبل ، الذى قال فيه الإمام الشافعى حينما خرج من بغداد إلى مصر : « خرجت من بغداد وما خلقت بها أنقى ولا أفقه من ابن حنبل » . إلا أن مذهبه قليل الأنباع ، وأكثرم بالشام والراق وبغداد ونجد والبحرين . وقد شهد له أئمة عصره بالانفراد بالزهد والورع والتقوى . وموقفه من مشكلة خلق القرآن يدل على قوة عزمه وشدة تمسكه بالدين .

(١) كتاب القهرست ص ٢٨٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٩٤ — ٣٠٠ .

ومن قتها ذلك العصر أبو يوسف الذى ولد سنة ١١٣ وتوفى سنة ١٨٢ هـ . وقد ذكر المترجمون له أنه نشأ فقيراً ، وأن أستاذه أبا حنيفة كان يمدّه بالمال . وقد تولى أبو يوسف القضاء للمهدى والمهاوى والرشد . وكان فى أيام الرشيد يتقلد منصب قاضى القضاة .

وكان أبو يوسف أكبر تلاميذ أبى حنيفة ؛ وقد أخذ عنه الفقه ، وعمل على نشر مذهبه ومبادئه بعد أن تقلد قضاء بغداد . ومن مؤلفات أبى يوسف كتاب الخراج الذى ألفه الرشيد . وقد تعرض أبو يوسف فى كتاب الخراج لأهم أمور الدولة المالية التى لا يستطيع الإمام بها إلا من كان فى مثل منصبه ، وقربه من الخلفاء ، وتضلعه فى الفقه الإسلامى .

٥ — علم الكلام :

ومن العلوم التى اشتغل بها المباسيون علم الكلام ، ويقصد به الأقوال التى كانت تصاغ على نخط منطقي أو جدلي ، وعلى الأخص المعتقدات ، كما يسمى المشتغلون بهذا العلم والمتكلمين . وكان يطلق هذا اللفظ أول الأمر على من يشتغلون بالمقائد الدينية ، غير أنه أصبح يطلق على من يخالفون المعتزلة ويتبعون مذهب أهل السنة والجماعة ، وفى ذلك يقول الغزالى (١) : « وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة ، وحراستها عن تشويش أهل البدعة . فقد ألقى الله تعالى (تعالى) إلى عبادته على لسان رسوله عقيدة هى الحق ، على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، كما نطق بعمرته القرآن والأخبار . ثم ألقى الشيطان فى وساوس المبتدعة أمورا مغالطة للسنة ، فلهجوا بها وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها . فأنتأ الله تعالى طائفة المتكلمين ، وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب ، يكشف عن تلبيسات أهل البدعة المحدثه على خلاف السنة المأثورة ، فنه نشأ علم الكلام وأهله . فلقد قام طائفة منهم بما ندبهم الله تعالى إليه ، فأحسنوا الذب عن السنة ، والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة والتخير من وجه ما أحدث من البدعة » .

ومن أشهر المتكلمين واصل بن عطاء ، وأبو الهذيل العلاف ، والنظام ، وأبو الحسن الأشعرى ، ووجه الاسلام الغزالى .

ويقول دى بور (٢) : على أن ظهور الكلام فى الإسلام كان بدعة من أكبر البدع ، وقد شدد فى التنكير على هذا العلم أهل الحديث الذين كانوا يرون أن ما تجاوز البحث فى الأحكام الفقهية العملية ابتداع ، لأن الإيمان عندهم هو الطاعة ، لا كما يذهب إليه المرجئة والمعتزلة من أنه هو العلم ، بل إن هؤلاء الأخيرين كانوا يعتبرون النظر العقلى من الواجبات المفروضة على

(١) كتاب المنفذ من الضلال (طبعة دمشق سنة ١٣٥٣ هـ = ١٩٣٤ م) ص ٧٩ .

(٢) تاريخ الفلسفة فى الاسلام — ترجمة أبو ريده ص ٥٩ .

المسلمين . وقد صادف هذا الرأي قبولا في ذلك العهد ، وفي الحديث أن النبي قال : أول ما خلق الله تعالى العلم : أو العقل .

إلا أن بعض أهل الحديث كانوا يميون على المتكلمين ردّهم على أهل البدع ، بحجة أن في ذلك الرد ترويحاً لعقائد هؤلاء المبتدعين ، وذلك لأنهم — كما يقول الغزالي (١) : « اعتمدوا على مقدمات تسلوها من خصومهم ، واضطروهم إلى تسليمها ، إما التقليد أو إجماع الأمة ، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار . وكان أكثر خوضهم في استخراج بناقضات الخصوم ومواخذتهم بلوازم مسلماتهم . وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلاً » .

على أننا نرى أن المتكلمين باستخدامهم أسلحة خصومهم قد نجحوا في الرد عليهم ، كما نجحوا في دعم علم الكلام وتقويته . ويقول نيرج في مقدمة كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندي (٢) : « حلت المعتزلة (وهم من المتكلمين) من تاريخ الإسلام محل المدافعين عن حوزة المسيحية في أول أمرها من تاريخ المسيحية ، فكأنه لا ريب في أن أولئك المدافعين هم الذين أسسوا علم اللاهوت بمنظراتهم فلاسفة الوثنيين واختلاسهم أسلحتهم من أيديهم عند ذلك ، كذلك أوجدت المعتزلة كلام الإسلام وأسته » .

وقد غلا خصوم المتكلمين فرومهم بالزندقة ، وقالوا : علماء الكلام زنادقة ، . ويقول الشهرستاني (٣) : « فالمعتزلة غالوا في التوحيد بدعمهم ، حتى وصلوا إلى التعطيل بنفي الصفات » .

وكان لتعاليم المعتزلة أثر كبير في النهضة الثقافية في العصر العباسي الأول ، ولا سيما في مسألة القرآن ، وهل هو مخلوق أو قديم ، وفي المناظرات التي عمل المأمون على ترويحها لنشر العلم وإزالة الخلاف بين العلماء . وقد ظهر في عهده جماعة من كبار العلماء والمتكلمين الذين تناولوا أصول الدين والمقائد ، وحكوا عقولهم في البحث ، ونشأت بسبب ذلك اعتقادات تخالف اعتقادات عامة المسلمين وجمهور علماءهم المعروفين بأهل الحديث . وكان اعتماد المتكلمين في مباحثهم على العقل دون النقل . ومال المأمون إلى الأخذ بمذهب المعتزلة ، لأنه أكثر جرية واعتداداً على العقل ، فترّب اتباع هذا المذهب إليه . ومن ثم أصبحوا ذوي نفوذ في قصر الخلافة ببغداد ، ووافقهم فيما ذهبوا إليه من أن القرآن مخلوق ، وعمد إلى تسخير قوة الدولة لحل الناس على القول بخلق القرآن كما تقدم .

(١) المنقذ من الضلال ص ٢٩ — ٨٠ .

(٢) ص ٥٨ — ٥٩ . (٣) الملل والنحل ج ١ ص ٢٠ .

وصفة القول أن بعض خلفاء العصر العباسي، كالأشعري والمعتزلي والوافي، شجع بعض الآراء الفلسفية والبحث العقلي في المسائل الدينية، ووقع هؤلاء الخلفاء فيما وقع فيه الروم من قبل، فأخذوا ببعض هذه الآراء، واضطهدوا المعارضين لها، وحضدوا علماء الكلام فيما ذهبوا إليه من المسائل الدينية، وبخاصة مسألة خلق القرآن، التي شغلت عقول الخلفاء وعلماء الكلام نحو خمس عشرة سنة (٢١٨ - ٢٣٢ هـ).

ومن أبرز متكلمي المعتزلة أبو الهذيل العلاف الذي ولد سنة ١٣٥ هـ ومات سنة ٢٣٥ هـ، وكان من أقوى الشخصيات في مدرسة البصرة، كما كان رئيس طائفة المعتزلة في أيامه، واشتهر بالجدل. وقد وصفه الخطيب المعتزلي^(١) بقوله «هو نسج وحده ووحد دهره في البيان ومعرفة جيد الكلام». وكان أبو الهذيل واسع الاطلاع فصيحاً. يدل على ذلك قول أحمد بن يحيى ابن المرتضى المتوفى سنة ٣٢٥ هـ، وكان من أتباع الزيدية الذين يميلون إلى مذهب المعتزلة: «مارأيت أفصح من أبي الهذيل والمجاهد». وكان أبو الهذيل أحسن مناظرة، شهدته في مجلس وقد استشهد في جملة كلامه بثلاثة بيت^(٢). واشتهر أبو الهذيل بقوة الجدل والإقناع، حتى قيل إنه أسلم على يديه ثلاثة آلاف رجل، وشغل كل حياته بالجدل مع الزنادقة والنجوس والتشوية وغيرهم. وقد ناظر مرة صالح بن عبد القدوس، وكان زنديقاً فغلبه، فأبغضه صالح هذا البيت:

أبا الهذيل جراك الله من رجل فأنت حقاً لعمرى معضل جدل

وبالإضافة إلى ما أمتاز به أبو الهذيل من سعة الاطلاع والفصاحة وقوة الحجج، أفاد كثيراً من وراء اشتغاله بالفلسفة اليونانية. وقد شهد له بذلك التنظيم المعتزلي، الذي قال عنه حين ناظره في الفلسفة: «فلما ناظرته خيّل إليّ أنه لم يكن متشاغلاً إلا بها^(٣)». ويقول دى بور^(٤): «وكان متكلماً مشهوراً، وهو أول المفكرين الذين فسحوا للفلسفة المجال لتؤثر في مذاهم الكلامية».

٦ - النحو

وقد نشأ علم النحو في البصرة والكوفة اللتين صارتا من أهم مراكز الثقافة في القرن الأول الهجري، وفيها وضعت علوم العقائد والفقه، ونشأت مدرسة النحويين واللغويين. وكان يقيم في هاتين المدينتين جالية تنسب إلى قبائل عربية مختلفة ذات لهجات متعددة، وآلاف من

(١) الانتصار والرد على ابن الروادى للمحدث ٦٧.

(٢) أحمد بن يحيى بن المرتضى: كتاب الغنى والأمل ص ٢٦.

(٣) هس المصدر ص ٢٦. (٤) ص ٥٧.

الصناع والموالي الذين كانوا يتكلمون الفارسية . ومن ثم تعرضت العبارات العربية السليمة إلى شيء غير قليل من القساد ، ودعت الضرورة إلى تقويم اللسان العربي ، حتى لا يتعرض القرآن الكريم للتحريف . وكان أبو الأسود الدؤلي أول من اشتغل بالنحو في عهد الأمويين . وقد قبل لأنه تلقى أصول هذا العلم عن علي بن أبي طالب (١) .

وكان أبو الأسود أول من وضع أساس مدرسة البصرة التي تعتبر أقدم من مدرسة الكوفة وأشهر منها . ولا غرو فقد تأثرت هذه المدرسة بالمنطق أكثر من منافستها مدرسة الكوفة . حتى سمي نخبة البصرة « أهل المنطق » تمييزاً لهم عن نخبة الكوفة . وكانت مصطلحاتهم النحوية مبنية بعض المبنية لنظائرها عند الكوفيين وسبق أهل البصرة إلى الانقطاع بالمنطق لم يكن محض اتفاق ، لأن تأثير المذاهب الفلسفية قد ظهر في البصرة قبل ظهوره في غيرها . وكان بين نخبة البصرة كثير من الشيعة والمعتزلة الذين فسحوا السيل للحكمة الأجنبية كي تؤثر في مذاهبهم الكلامية (٢) .

ومن علماء البصرة المبرزين أبو عمرو بن العلاء (١٥٣ هـ = ٧٧٠ م) الذي اشتغل بالتفسير ، والحلّل بن أحمد واضع علم العروض ، وصاحب كتاب « العين » الذي يعتبر أول معجم وضع في اللغة العربية ، وسيبويه الفارسي ، ويعرف كتابه باسم « كتاب سيبويه » ، وفيه يقول دى بور (٣) : فلو نظرنا إلى كتاب سيبويه لوجدناه عملاً ناضجاً ومجهوداً عظيماً ، حتى إن المتأخرين قالوا ، إنه لا بد أن يكون ثمرة جهود متضافرة لكثير من العلماء ، مثله مثل قانون ابن سينا في الطب . ومن هؤلاء العلماء الأصمعي وأبو عبيدة اللذان تألق نجمهما في عهد هارون الرشيد ، والمبرد صاحب كتاب الكامل الذي توفي بعد ذلك بقرن .

ومن أشهر علماء الكوفة الكسائي العالم الفارسي الذي عهد إليه هارون الرشيد بتدوين أبيه الأمين والمأمون ، وتليذه الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ (٨٢٢ م) ، والمنفصل الضبي الذي صنّف كتابه المفضليات وأهداه إلى الخليفة المهدي (٤) .

٧ — الشعر والأدب :

(١) الشعر :

كانت نزعة الأمويين عربية جاهلية ، لا تميل إلى الفلسفة ، بل يؤثر عليها الشعر الجيد والخطبة البليغة ، فأجاد بعض خلفائهم نظم الشعر : كيزيد بن معاوية ، حتى قالوا : بدي

(١) ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٦٠ — ٦١ .

(٢) دى بور : تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٣٨ — ٣٩ .

(٣) تاريخ الفلسفة في الإسلام — ترجمة أبو ريشه ص ٢٨ .

(٤) Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs, pp. 432 2.

الشعر بملك ، وختم بملك ، ، يعنون أمراً القيس وزيد . وكان عبد الملك بن مروان شاعراً فصيحاً ، وقد نبغ في عهده من الشعراء جرير والأخطل والفرزدق .

أما في العصر العباسي فقد ظهر كثير من الشعراء ، الذين نهجوا بالشعر مناهج جديدة في المعاني والموضوعات والأساليب ، حتى فاقوا في كل ذلك من سبقهم من الشعراء الإسلاميين والمختصرين والجاهليين . ومن أشهر هؤلاء الشعراء أبو نواس ، وهو من أذاع القول في الخمر والفرز والصيد ، وغير ذلك من فنون الشعر التي تناسب ما انتشر في العصر العباسي من حضارة وترف ، وسخر من الأطلال التي جرى الشعراء على الإشادة بذكرها في مطلع قصائدهم ، كما انحنى على كل قديم . يدل على صحة هذا الرأي قول أبي نواس :

دع الأطلال تسفها الجنوب وتبلى عهد جدتها الخطوب
وخلل راكب الوجناء أرضاً تنقب بها التنجية والتنجيب
بلائها نبتاً عسراً وطلحاً وأكثر صيدها صبع وذئب
ولا تأخذ عن الأعراب لموا ولا عيشاً فعيثهم جديب
دع الألبان يشربها رجال رقيق العيش بينهم غريب^(١)

وقد حذا ابن قتيبة حذو أبي نواس في القول بالتجديد . وكان أول من اشتهر بالنقد ، وأعلن أن الحكم على القديس والمحدثين يجب أن يبنى على المواهب دون سواها ، بغض النظر عن الزمن الذي عاشوا فيه . وحذا حذو ابن قتيبة من جاء بعده من الكتاب كالثعالبي ، وابن خلدون ، الذي نادى بأن الشعراء يجب أن يتغنوا بذكر الطبيعة ، وأن ينشدوا الحقيقة ، لا أن يصفوا أسفاراً على ظهور جمال لم يركبوا ، ويقطعوا صحراوات لم يشاهدوها ، بدلاً من أن ينظموا قصائدهم في أحد أنصار الأدب . ممن يقيمون في نفس المدينة التي يقيمون فيها . ويتبين ذلك من عبارات ابن قتيبة في مقدمة كتابه « الشعر والشعراء » : ولم أقصد فيما ذكرته من شعر كل شاعر ، مختاراً له سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيت كلا حقه ، ووفرت عليه حظه . فإني رأيت من علاننا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله . ويضمه موضع متخيره ، ويرذل الشعر الرعين ، ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه^(٢) .

Divan des Abu Nowas, Die Weinteder (ed. by Ahlwardt), No. (١)

10 VV. 1 — 5

(٢) كتاب طبقات الشعراء لابن سلام (طبعة القاهرة) ص ٢ .
Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs, pp. 286-7. راجع

ومن هؤلاء الشعراء أبو تمام الطائي الأكبر ، المشهور بزعته العقلية والفلسفية في الشعر ، وتلميذه أبو عبادة البحرى صاحب الأوصاف البديعة والمدائح الخالدة ، وابن الرومي المعروف بطول نفسه وغزارة شعره ، وغوصه على نادر المعاني وعجيب التصورات ، وأبو العتاهية الذي برع في فنون الشعر ، فاشتهر بالنزل الرقيق ، وعلى الأخص في عتبة جارية المهدي التي قال فيها .

ياعتب ما أنت إلا بدعة خلقت
من غير طين وخلقت الناس من طين
لني لأعجب من حب يقريني
من يباعدني عنه ويقصيني (١)
وقال أبو العتاهية في قصيدة أخرى :

ياعتب مالك واليقي لم أرك
ملكسي فاتهمك ما شئت أن تنهك
أبيت ليلي ضامرا أزعى نجوم الفلك
مقرشا جمر الفضي متحفا بالحسك (٢)

كما امتاز شعره بالحكمة والموعظة ، وهو القائل :

إن أخاك الصدق من كان معك
ومن يضر نفسه ليفضلك
ومن إذا رتب الزمان صدرك
شئت شمل نفسه كي يجمك (٣)

وقد قال العتالي في كتابه وبهمة البحر ، إن الشعراء المحدثين قافوا شعراء الجاهلية في رقة اللفظ وعضوبة المعنى .

ومن بين العوامل التي ساعدت في العصر العباسي على ظهور المناهج الجديدة في الشعر ومعانيه وأخيله وأساليبه ، وفي الأدب عامة :

١ — اختلاف صور الحياة وقيم الأشياء في الدولة العباسية عن نظائرها في الحياة الجاهلية ، ففضائل العرب في الجاهلية لم تعتمد في نظر الذين عاشوا في العصر العباسي الأول مما يتخى به .
٢ — تطور الحياة المادية التي كانت في أيام الجاهلية تقوم على السذاجة ، وذلك بسبب تعدد أعمال الناس ، وزيادة تجاربهم في العصر العباسي .

٣ — انتشار الشعورية التي قامت على حط شأن العرب ونقد أشعارهم ومعانيهم .

٤ — أثر الثقافة الأجنبية ، والفارسية خاصة ، في الشعر والأدب العباسي . إلا أنه على

(١) للمعري : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥١ .

(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٣٣٩ .

(٣) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٥٢ .

الرغم من هذا كله ، لا يزال يوجد في اللغة العربية بعض بقايا من قيود الشعر القديم كالقوافي والأوزان .

٥ - اعتاد الشعراء طوال أيام العباسيين - عدا فترات قليلة - على تشجيع الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة ، ورجع السبب في ذلك إلى أنه لم تكن هناك تجارة كتب منتظمة ، كما لم يكن هناك أحد من الناشرين الذين يستطيعون نشر المکتب على نفقتهم ، فكان كل اعتاد الشعراء في كسب عيشهم ، على التقرب من الخلفاء والمقربين إليهم من العلماء ، بالقصائد الرثائية ابتغاء المنح والعطايا . ولهذا كان الإغراق في المدح من أهم سمات الشعر في أيام العباسيين . أضف إلى ذلك دخول غير العرب ، وخاصة الفرس في حلبة الشعراء . ولما كان الحكم في الدولة العباسية استبداديا ، كان الإفراط في المدح هو السيل الوحيد إلى التقرب من الخلفاء ورجال دولتهم .

وكان للفرق الدبلي ، كالشيعية والمعتزلة ، التي نشأت في القرن الأول الهجري ونمت في العصر العباسي الأول ، شعراء يدافعون عن مبادئهم ، ويحفظون أتباعهم لمقاومة كل اعتداء يحيق بهم من خلفاء ذلك العصر . ومن هؤلاء السيد الحميري (١٧٣ هـ) ، وكن كيسانيا ، فأبان عن عقيدته في محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب ، وأشاد بمآثره على ما تقدم في الباب الثالث (١) .

وكان للمعتزلة الذين نشطت دعوتهم في بداية العصر العباسي ونمت نموًا سريعًا في عصر المأمون ، شعراء يشيدون بمبادئهم وأعمالهم . من ذلك ما قاله بعضهم .

له خلف شعب الصين في كل ثغرة	إلى سوسها الأقصى وخلف البرابر
رجالاً دعاة لا يقل عزيمهم	تكم جبار ولا كيد ماسكر
إذا قال : مرؤا في الشتاء تطاوعوا	وإن كان صيفاً لم يخف شهر فاجر
بهمرة أوطان وبذل وكلفة	وشدة أخطار وكد المسافر
فأنصح مساماً وأتقب زنديم	وأرؤى بطلير للخاصم قاهر
وأوتاد أرض الله في كل بلدة	وموضع قياما وعلم التشاجر
تراهم كأن الطير فوق رؤوسهم	على عمة معروقة في المعاصر
وسياهم معروقة في وجوههم	وفي المشى حجابا وفوق الأباغر

وقد حفزت الانتصارات المتوالية التي ظفرت بها الخلفاء العباسيون على الزوم ، كثيرا من الشعراء إلى إنشاد القصائد الرائعة للاشادة بطولتهم ، وما أحرزوه من نصر وظفر

في سبيل دفع خطر الأعداء عن المسلمين . من ذلك ما قاله أبو العاتية في مطلع قصيدته التي نظمها على أتراتصار الرشيد على الروم في هرقة :

ألا نادى هرقة بالحرب من الملك الموفق بالصواب^(١)

ويقول مروان بن أبي خضعة هذه الأبيات التي يعبر فيها عن الهزائم التي لحقت بها العباسيون بالروم :

وسدت بهارون الثغور وأحكمت به من أمور المسلمين المرائر
وما أنفك معقودا بنصر لوائه له عسكر عنه تشظى المساكر
وكل ملوك الروم أعطاه جزية عن الرغم قسرا عن يد وهو صاغر
وقد مدح أبو تمام الخليفة الممتصم على أتراتصاره في عمورية بقصيدته التي قال فيها :

فتح الفتح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أو ثمر من الخطب
فتح فتح أبواب السماء له وتبرز الأرض في أنوارها القشب
يا بريم وقمة عمورية انصرفت عنك المنى حفلا معسولة الحلب

(ب) الأدب :

ويمثل الأدب وتاريخه في العصر العباسي الأول طائفة من الأدباء ، نخص بالذكر منهم عبد الله بن المقفع ، الذي يرجع إليه الفضل في نقل كثير من الكتب عن الفهلوية ، وهي الفارسية القديمة . ومن هذه الكتب كتاب كيلة ودمثة الذي ترجمه عن أقاميص يبدأ التي كتبت بالسكريدية ، وهي اللغة الهندية القديمة . ويعد هذا الكتاب من أقدم كتب النثر في الأدب العربي ، كما يعد مثلاً أعلى في سلامة الأسلوب وسلاسة العبارة . ومن أدباء هذا العصر أيضاً عبد الحميد الكاتب الذي يعتبر شيخ صناعة الكتابة ، والذي قيل فيه : « بدئت الكتابة بعبد الحميد » ، لأنه أحدث فيها أموراً فنية لم تكن من قبل ، كالتحميدات في صدور الرسائل وتقسيم الفقر والفصول ، وختم الرسائل بما يناسب المكتوب إليه ، وإطالتها في شئون الملك والسياسة إطالة لم تعد من قبل . وليس لعبد الحميد كتب ، وإنما خلف رسائل مشهورة مبثوثة في كتب الأدب والتاريخ ، من أشهرها رسالته إلى الكتاب ، ورسالته التي كتبها إلى ولي عهد مروان ابن محمد آخر خلفاء بني أمية . ويجمع أسلوبه بين الجزالة العربية وسهولة الخضرين ، مع غزارة المعاني ودقتها وحسن تقسيمها^(٢) . ومن هؤلاء ابن قتيبة الذي ينسب إلى مدينة مرو حاضرة خراسان ، وقد تقلد منصب القضاء في مدينة ديبور ، وعاش في بغداد في النصف الثاني من

(١) أنظر الباب الرابع ص ١٨٨ .

(٢) راجع ما كتبه الجبشاري (كتاب الوزراء والكتاب — لعمري الأستاذ مصطفي السقا سنة ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م) ص ٧٢ — ٨٢ .

القرن الثالث الهجري . ومن كتبه كتاب المعارف ، وكتاب الشعر والشعراء ، الذي نادى فيه بالتجديد وأنهى على كل قديم لوما ، وكتاب « أدب الكاتب » ، وكتاب عيون الأخيار الذي قسمه إلى عشرة كتب ، الحرب ، وكتاب السؤدد ، وكتاب الطبايع والأخلاق المذمومة وكتاب العلم والبيان ، وكتاب الزاهد ، وكتاب الإخوان وكتاب الحوائج ، وكتاب الطعام وكتاب النساء (١) .

ومن أدباء ذلك العصر عمرو بن بحر الجاحظ البصري ، الذي عرف بحرية الفكر والميل إلى عقائد المعتزلة ، حتى لقد نشأت فرقة تسمى الجاحظية نسبة إليه . ومن أشهر كتبه كتاب « الحيوان » وكتاب « البيان والتبيين » (٢) .

(ب) العلوم العقلية :

أما عن اشتغال المسلمين بالعلوم العقلية ، فيرى نيكلسون (٣) أنهم استمدوا آراءهم وعلومهم من الثقافة اليونانية ، التي كانت منتشرة في مصر وسورية وغربي آسيا منذ فتوحات الإسكندر . فانه لما اضمحلت مدرسة الزهافي أواخر القرن الخامس الميلادي بسبب قيام الخلافت المذهبية ، لجأ علماؤها الذين طردوا إلى بلاد الفرس ، واحتموا ببلاد كسرى أنو شروان (٥٣١ - ٥٧٨ م) ، وكان قد رحب بفلاسفة مدرسة الأفلاطونية الحديثة ، الذين نفاهم الإمبراطور جستنيان من أثينا لوثنيته ، وأسس في جنديسابور من أعمال خوزستان داراً للعلم قام فيها هؤلاء العلماء بتدريس الطب والفلسفة ، وبقي أثرها في تلك البلاد حتى ظهرت الدولة العباسية ، كما غدت حران مركزاً آخر من مراكز الثقافة اليونانية ببلاد العراق . وقد تكلم أهل حران ، وهم الصابئة ، اللغة العربية بسهولة ويسر ، وساعدوا إلى حد كبير على نشر الثقافة اليونانية بين المسلمين ، وإليهم يرجع الفضل في ترجمة كثير من الكتب عن اللغات الأجنبية .

١ - الترجمة :

ولم يكن لترجمة الكتب إلى العربية حظ كبير في عهد بني أمية . وكان خالد بن يزيد ابن معاوية أول من عني بنقل علوم الطب والكيمياء إلى العربية : فدعا جماعة من اليونانيين المقيمين في مصر وطلب إليهم أن يتقوا له كثيراً من الكتب اليونانية والقطع التي تناولت البحث في صناعة الكيمياء العملية ، وعمل على الحصول على الذهب عن طريق الكيمياء .

(١) طبعته دار الكتب المصرية في أربعة مجلدات (١٣٤٣ - ١٣٤٨ هـ) .

(٢) Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs, pp. 346-7.

(٣) Lit. Hist. of the Arabs, p. 258.

وكذلك عُرِبت الدواوين منذ عهد عبد الملك بن مروان ، بعد أن كانت بالفارسية واليونانية ، ونقل ديوان مصر من اليونانية والقبطية إلى العربية في عهد الوليد بن عبد الملك ^(١) .

فلما جاءت الدولة العباسية التي قامت بمساعدة الفرس ، ونشأ من ذلك اختلاط العنصرين العربى والفارسى ، اتجهت ميول الخلفاء العباسيين إلى معرفة علوم الفرس واليونان ، فعنى أبو جعفر المنصور بترجمة الكتب ، ونقل له حنين بن إسحق بعض كتب أبقراط وجالينوس في الطب ، كما نقل ابن المقفع ^(٢) كتاب كلية ودمته من الفهلوية ، وترجم كتاب « السند هند » وكتاب إقليدس في الهندسة إلى العربية .

وقد زادت العناية بترجمة الكتب في عهد هارون الرشيد ، بعد أن وقع في حوزته بعض المدن الرومية الكبرى ، فأمر بترجمة ما عثر عليه من كتب اليونان ، كما نشطت حركة الترجمة ، بفضل تشجيع البرامكة للترجمين وإدراهم الأرزاق عليهم .

وقويت في عهد المأمون حركة النقل والترجمة من اللغات الأجنبية ، وخاصة من اليونانية والفارسية ، إلى العربية ؛ فأرسل البعوث إلى القسطنطينية لإحضار المصنفات الفريدة في الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب . وقد روى ابن التديم ^(٣) أن « المأمون كان يثنه وبين ملك الروم مراسلات ، وقد استظهر عليه المأمون ، فكتب إليه ، يسأله الأذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم ، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع . فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحاجاج بن مطر ، وابن البطريق ، وسلبا صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فأخذوا ما وجدوا ما اختاروا . فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل . ولم تكد تلك الذخائر النفيسة تصل إلى بغداد حتى عهد إلهام المأمون في ترجمتها . وكان قسطا بن لوقا يشرف على الترجمة من اللغات اليونانية والسريانية والسكندانية إلى العربية ، كما كان يحيى بن هارون يشرف على الترجمة من الفارسية القديمة .

ولم تكن العناية بالترجمة مقصورة على المأمون ، بل عنى جماعة من ذوى اليسار في عهده بنقل كثير من الكتب إلى العربية . ومن هؤلاء محمد واحد والحسن بنو شاكر المنجم ، الذين أنفذوا حنين بن إسحق إلى بلاد الروم ، لجأهم بطرائف الكتب وفرائد المصنفات ^(٤) .

(١) أنظر كتاب أوراق البردى العربية ، ترجمة المؤلف ج ١ ص ٢٨ ومايليها .

(٢) اشتهر في الترجمة من الفارسية إلى العربية غير ابن المقفع كثيرون ، كآل نوحته والحسن ابن سهل الذى استبوره المأمون ، واحد بن يحيى بن جابر البلاذرى صاحب كتاب فوح البلدان وممر ابن الفرجان (ابن التديم ص ٣٤٢) .

(٣) الفهرست ص ٣٣٩ .

(٤) المصدر نفسه ص ٣٤٠ .

وكان من أثر نشاط حركة النقل والترجمة في عهد المأمون العباسي ، أن اشتغل كثير من المسلمين بدراسة الكتب التي ترحمت إلى العربية ، وعملوا على تفسيرها والتعليق عليها وإصلاح أغلامها ، فنص بالذکر من هؤلاء يعقوب بن إسحق الكندي ، الذي نبغ في الطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق والمهندسة وعلم النجوم . وقد حذا في تأليفه حذو أرسطو ، وترجم كثيراً من كتب الفلسفة وشرح غوامضها . وقصارى القول أنه كان هناك أربعة من مشاهير المترجمين في الإسلام هم : حنين بن إسحق ، ويعقوب بن إسحق الكندي ، وثابت بن قرة الحراقي وعمر بن الفريخان الطبري ، وأن العباسيين قد ترجموا ما وصل إليه اليونان والفرس وغيرهم من العلوم ، كالفلسفة والطب والنجوم والرياضيات والموسيقى والمنطق والفلك والجغرافيا والتاريخ والحكم والآداب والسير . وقد ذكر ابن النديم ^(١) ، أن بقي المنجم كانوا يرزقون جماعة من الثقلة ، منهم حنين بن إسحق ، وحبيش بن الحسن ، وثابت بن قرة وغيرهم ، في الشهر نحو خمسمائة دينار ، للنقل والملازمة .

٢ - معاهد الدرس والثقافة :

وكانت المساجد تعد من أكبر معاهد الثقافة لدراسة القرآن والحديث والفقه . وقد تنوعت العلوم التي كانت تدرس في العصر العباسي ، وأصبح كثير من هذه المساجد مراكز هامة للحركات العلمية . وأحسن مثل لذلك مسجد البصرة ، الذي كان فيه حلقة قوم من أهل الجدل يتصايحون في المقالات ، ويحاجونهم حلقة للشعر والأدب . وكان الذين يحضرون هذه الحلقات من شعوب وديانات مختلفة . وهكذا صارت الثقافات التي كان للإسلام أثر كبير في مزجها ، تلتقي في تلك المراكز على مر السنين ، حتى امتزج بعضها ببعض . فان من اعتنق هذا الدين من غير العرب ، كان يرى لزوما عليه أن يتعلم العربية وآدابها ، حتى ييسر له قراءة القرآن ودراسته ، وبذلك يجمع بين ثقافته القومية والثقافة العربية .

ولم يكن للمكتبات شأن كبير في العهد الأموي ، لكن لما نشطت حركة الترجمة والتأليف في العصر العباسي ، وتقدمت صناعة الورق ، وتبع ذلك ظهور كثير من الوراقين ، واتخاذ أمانة فسيحة يجتمع فيها العلماء والأدباء للتزود من العلم ، كثرت المكتبات التي كانت تزخر بالكتب الدينية والعلمية والأدبية ، وصارت هذه المكتبات فيما بعد أهم مراكز الثقافة الإسلامية .

وكان بيت الحكمة ، الذي يرجع أن الرشيد هو الذي وضع أساسه ، وعمل المأمون من بعده على إمداده بمختلف الكتب والمصنفات ، من أكبر خزائن الكتب في العصر العباسي ، وقد ظلت هذه

الخزانة قائمة حتى استولى المغول على بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، وكانت تحوى كل الكتب في العلوم التي اشتغل بها العرب ، كما كان للعلماء والأدباء الذين كانوا يختلفون إليها ، أكبر الأثر في تقدم الحركة العلمية في عهد العباسيين ، ونشر الثقافة بين جمهور المسلمين ، وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى . ولم يقتصر تشجيع العلم على الخلفاء ، بل تعداهم إلى الوزراء وسائر كبار رجال الدولة . فقد ذكر المسعودي ^(١) أن يحيى بن خالد البرمكي كان يميل إلى البحث والمناظرة ، وكان وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل النحل .

٣ - التاريخ :

يقول دى بور ^(٢) : يمتاز مؤرخو العرب الأقدمون بالقدرة على إدراك الجزئيات إدراكاً دقيقاً ؛ غير أنهم لم يقدرُوا على ربط الحوادث برباط جناس . وقد وجدوا من اتساع دولتهم مادة غزيرة في التاريخ والجغرافيا .

ولم يكن السواد الأعظم في صدر الإسلام ، يستطيعون القراءة والكتابة ، فلم يدون تاريخ الأمة العربية إلا بمسند زمن غير قصير . وقد روى العرب الحوادث التاريخية المشهورة والأحاديث النبوية بشئ غير قليل من التبديل والتحريف ، مما أدى بها إلى الغموض والإبهام ، فسوحت معانيها والظروف التي أحاطت بوقوعها وقولها . حتى إذا جاء القرن الثاني للهجرة ، أخذ العرب يبحثون تاريخهم ، ولم يكن أكثره إلا شذرات مبهمه غير متصل بعضها ببعض ، أو أنه دون بحث يشمى مع ميول الفرق الدينية المختلفة ، وقد عمل كل منها على إكبار مذهبهم ولعن أعدائه .

والحق أن مصادر التاريخ الإسلامي كثيرة متنوعة . فمن أهم المصادر التاريخية ، مصادر التاريخ النبوي ، وهى القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية ، والشعر الذى أثر عن العصر النبوي ، مثل شعر حسان بن ثابت ، الذى نظم القصائد الكثيرة في مدح الرسول وهجاء أعدائه ، إلا أن كثيراً من الشعر المنسوب إليه قد دس عليه .

ويعرى إلى ابن المقفع نقل كتاب خدای نامه Khudây-nāma ، أو كتاب الملوك ، من الفهلوية إلى العربية ، وقد سماء سير ملوك السجم ، ويعد نموذجاً لكتابة التاريخ عند العرب . ويعتبر هشام بن محمد الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ ، وأبو محمد أول من كتب من العرب في علم التاريخ ، كما اشتهر كل منهما بتحرى الدقة في روايته .

ومن أقدم مصادر السيرة النبوية سيرة ابن هشام المتوفى سنة ٢١٨ هـ ، وتعرف باسم سيرة

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٨٣ .

(٢) تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٨٠ .

رسول الله ، وقد استمد فيها معلوماته التاريخية عن أستاذه ابن اسحق المتوفى سنة ١٥١ هـ .
وهي تعطينا صورة صحيحة لحياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وما قام به في سبيل تبليغ الرسالة
وبعث الدين . ويؤخذ على ابن هشام اختصاره في مواضع أطال فيها ابن اسحق ، وإطالته في
مواضع اختصرها .

ومن مصادر السيرة النبوية أيضا كتاب الطبقات الكبير^(١) لمحمد بن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ هـ
(٨٤٥ م) . وكان كاتب الواقدي المتوفى سنة ٢٠٨ هـ ، ويعد من المصادر الموثوق بصحتها ،
على الرغم من أنه عرف بالميل إلى التعمية .

٤ - الجغرافيا :

كان لاتساع نطاق التجارة في العصر العباسي الأول ، واتصال مدينة بغداد حاضرة
العباسيين براً وبحراً بالبلدان القاصية ، ثم لتعميد الطرق وجعلها آمنة ، أثر كبير في تسهيل
الأسفار وتعميد السبل أمام الكاشفين والرحالين ، فظهر كثير منهم قاموا برحلات مهمة ووضعوا
في وصفها الكتب والأسفار ، ووصفوا ما شاهدوه في البلدان التي اختلفوا إليها ، وصفاً
دقيقاً مبنيًا على المشاهدة . وبذلك خلف لنا جغرافيو المسلمين ثروة كبيرة ، هي خلاصة
مشاهداتهم وتجاربهم ، التي اكتسبوها من أسفارهم في كثير من الأقاليم والممالك والبلدان .

وقد تقدم الكلام في الباب السادس (ص ٢٣٤ - ٢٣٥) ، أن رحلات المسلمين قد وصلت
في عهد هارون الرشيد ، إلى الهند وسيلان وشبه جزيرة ملقا والصين ، ويقال إنهم وصلوا بحراً
إلى كوريا ، كما كان للفنوح الإسلامية في أواسط آسيا وفي بلاد الهند شرقاً ، وغرباً في شمال إفريقيا
وأوروبا ، أثر كبير في اتساع أفق التفكير الإسلامي ، عن أحوال هذه البلاد الاقتصادية
والاجتماعية والسياسية ، وفي تنشيط التجارة والصناعة .

ولكن مما يسترعى النظر أن هذه الثروة الجغرافية العظيمة ، لم تظهر ظهوراً جلياً إلا في
العصر العباسي الثاني . أما في العصر العباسي الأول ، فقد ظهر ابن خردادبة ، الجغرافي
الفارسي الأصل ، الذي عاش في النصف الأول من القرن الثالث الهجري ، وخلف لنا
كتابه ، المسالك والممالك^(٢) . ويعتبر بحق من أقدم الكتب الجغرافية التي ظهرت في اللغة
العربية ، وهو عبارة عن دليل يستعين به المسافرون في الاهتداء إلى الطريق البحري ، الذي

(١) يقع هذا الكتاب في ثمانية مجلدات ، وطبع في مدينة ليدن سنة ١٣٢٥ هـ ، وقام بطبعه
المستشرق إدوارد سخاو Edward Sachau مدير مدرسة اللغات الشرقية ببرلين سابقاً . وقد ألفرد
ابن سعد لسيرة مجلدين .

(٢) طبع في مدينة ليدن سنة ١٨٨٦ ونعمره دى غوييه .

يبدأ من مصب نهر دجلة عند الآلة ، ويصل إلى الهند والصين (١) .

٥ - علم النجوم والرياضيات والكيمياء :

ولم يكن لبعض علوم النجوم والكيمياء والرياضيات والفلسفة والطب ، مكان ملحوظ بين العلوم التي اشتغل بها المسلمون في العصر العباسي الأول ، ولكنها ازدهرت بعد ذلك ، لأن هممتهم كانت مقصورة في الغالب على نقل الكتب . على أن هذا لا يمنعنا من القول ، إنه كانت هناك طائفة من المسلمين أخذوا يشتغلون بهذه العلوم ، كجابر بن حيان الذي اشتهر في الكيمياء . وكان من أهل طرسوس ، ويعرفه الأوربيون باسم Geber ، وتوفي في عهد الخليفة المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ) .

ويقول دى بور (٢) إن فيثاغورس يعتبر معلم العرب في الرياضيات ، حتى إنه كان يقال إن الإنسان لا يكون فيلسوفا ولا طبيبا حاذقا ، إلا بدراسة فروع الرياضيات ، والحساب والهندسة والفلك والموسيقى . وقد اشتهر في علم الحساب عمران بن الوضاح وشهاب بن كثير ، ومهر في الهندسة الحجاج بن أرطاة الذي خط المسجد الجامع ببغداد في عهد المنصور . وكانت هناك علاقة كبيرة بين الرياضيات والتنجيم الذي اشتغل به العرب في عهد بنى أمية ، ثم تقدمت ممارسته في العصر العباسي ، حتى إن أبا جعفر المنصور لما اتصل به خروج محمد النفس الزكية ، وأشفق منه ، فجعل الحارث المنجم يقول له : يا أمير المؤمنين ! ما يجزعك منه ؟ فوالله لو ملك الأرض ما لبثت إلا تسعين يوما (٣) . وما يدلنا على اعتقاد العباسيين على التنجيم في كثير من الأحيان ، ما ذكره بأقوت الخوى (٤) عند كلامه على تأسيس مدينة بغداد ، من أن أبا جعفر المنصور اعتمد على الوقت الذي اختاره له المنجمون ، حتى إنه لم يبدأ بوضع الحجر الأساس للبناء ، إلا بعد أن أشار عليه أبو سهل بن نوبخت المنجم ، وأخبره بما تدل عليه النجوم من طول بقاء هذه المدينة وكثرة عمارتها .

وقد رأينا عند كلامنا على أثر الوزراء في النزاع الذي قام بين العباسيين والعلويين ، أن الفضل بن سهل كان خبيراً بعلم النجوم ، وأن هذا العلم قد دله على أن المأمون سيصير خليفة . ولذلك تقرب إليه وأخلص له ، إلى أن أفضت الخلافة إليه فاستوزرة (٥) . كما كان الحسن

(١) Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs, p. 356.

(٢) تاريخ الفلاسفة في الاسلام ص ٨٠ .

(٣) الطبري ج ٩ ص ٢٠٩ .

(٤) أنظر لفظ بغداد في معجم البلدان لباقوت .

(٥) الفخري ص ٢٠٢ أنظر الباب الثالث ص ١٥٦ .

ابن سهل أخو الفضل خبيراً في علم النجوم ؛ فقد رأينا أنه ينصح لأخيه الفضل ألا يدخل الحمام في اليوم الذي اغتيل فيه ، معتمداً في ذلك على معرفته بالتنجيم ^(١) . وعن اشتراط التنجيم في العصر العباسي الأول عبد الله بن سهل بن نوحخت . وقد ذكر الففطلي ^(٢) أن المأمون استعان به في اختيار وقت لبيعة على الرضا .

ومن نبغ في علم النجوم في العصر العباسي الأول جعفر بن عمر البلخي ، ويعرف بأبي معشر الفلكي . وكان في بدء حياته من أصحاب الحديث ، ثم اشتغل بعلم النجوم ، ونبغ فيه بعد أن بلغ السابعة والأربعين من عمره ، وعمر طويلاً حتى جاوز المائة ، ومات بواسط سنة ٢٧٧ هـ . ولأبي معشر كتب كثيرة ، منها إثبات العلوم ، وهيئة الفلك .

٦ - الطب :

وكان لاختلاط المسلمين بغيرهم من الأمم ، وخاصة الفرس والروم ، أثر كبير في العلوم العقلية ، كاطب والرياضيات وعلم النجوم . فقد رأينا أبا جعفر المنصور يستشير أطباء العراق ويعتمد على إرشاداتهم ، وأنه استقدم طبيباً من مشاهير أطباء الهند ، وقد ذكرنا عند كلامنا على وفاة المنصور كيف تنبأ أطباؤه بموته ، بسبب إكثاره من الطعام وإسرافه في تناول الأغذية والأدوية الحارة التي تضر طمعه ، ولكنها تضر بجمده وأمعائه ، وكيف ذهب المنصور ضحية عدم إصفاة لئصائح هؤلاء الأطباء ، ما يدل على مبلغ تقدم الطب في ذلك العصر ^(٣) .

واشتهر في عهد المعتصم من الأطباء يحيى بن ماسويه . ويذكر لنا المسعودي أن المعتصم كان يعتمد على مشورته ، وأنه كان لذلك يحتفظ ببنية قوية ، وأنه لما خالف مشورة طبيبه اعتلت صحته وتغير لونه . ويقول ابن ماسويه عن المعتصم لما اعتراه المرض : « كان قبل ذلك إذا أكل السمك ، اتخذ له صباغاً من الخل والكراويا والكون والسذاب والكرفس والخردل ، فأكله بذلك الصباغ فدفع أذى السمك وإضراره بالمصب . وإذا أكل الروس اتخذت له أصباغ تدفع أذاها وتلطفها . وكان في أكثر أموره يلفظ غذاءه ويكثر مشورتي ، فصار اليوم إذا أنكرت شيئاً خالفني وقال : آكل هذا على رغم ابن ماسويه . »

وكان العباسيين اعتمدوا على أطباء العراق والهند ، كذلك اعتمدوا على الطب الذي خلفه اليونان . وقد نبغ في عهد الواثق من الأطباء ابن بختيشوع ، وابن ماسويه ، وميخائيل ، وحسين بن إسحق ، وأن هؤلاء وغيرهم حققوا صناعة الطب ومرتوا عليها ، واعتمدوا في

(١) أنظر الباب الثالث من هذا الكتاب ص ١٦٩ .

(٢) أخبار الطهارة بأخبار الحكماء ص ٢٢١ - ٢٢٣ .

(٣) الطبري ج ١ ص ٢٩٢ . أنظر ماورد في الباب الثاني ص ٣٦ .

علاج مرضاهم على ما كسبوه من تجارب ، كما أفادوا عن كتب اليونان ونظرياتهم في تشخيص الأمراض ، حتى قالوا في مداواة المريض : إنه يستدل على الدواء من نفس الطبيعة والمرض الحاضر ، أى الموجود في الحال والوقت ، دون الأسباب الفاعلة التي عُدَّت ، ودون الأزمان ... وزعموا أن من المعلومات الظاهرة التي لا ريب فيها أن الضدين لا يجوز اجتماعهما في حال ، وأن وجود أحدهما ينفي الآخر في الحال لاحتمال ... وأن الطريق والقانون إلى معرفة الطب مأخوذ من مقدمات أولية : فمنها معرفة الأبدان والأعضاء وأفعالها ، ومنها معرفة الأبدان في الصحة والمرض ومعرفة الأهوية واختلافها ، والأعمال والصنائع والعادات ، والأطعمة والأشربة والأسفار ، ومعرفة قوى الأمراض ، وقالوا ثبت في الشاهد أن الحيوان يختلف في صورته وطباعه ، وكذلك أعضاؤه مختلفة في طبيعها وصورها ، وأن الأجساد الحيوانية تتغير بالأهوية المحيطة بها ، وبالحركة والسكون ، والأغذية من المأكول والمشروب والنوم واليقظة ، واستفراغ ما يخرج من الجسد واحتباسه من الأعراض النفسانية ، من الفم والحزن والغضب والحلم . والفرض بالطلب هو تدير الأجسام ، وحفظ الصحة الموجودة في البدن الصحيح ، واجتلابها للعليل . فالواجب أن يكون حفظ الصحة إنما هو بمعرفة الأسباب المصححة . فالواجب على الطبيب لاحتمال من هذه المقدمات التي قد صحت ، إذا أراد علاج المريض ، النظر في طبائع الأمراض والأبدان والأغذية والعادات ، والأزمان والأوقات الحاضرة والأسباب ، ليستدل بجميع ذلك . وهذا يأمر المؤمنين قول أبقراط وجالينوس فيمن تقدم وتأخر عنهم . وقد اختلفت هذه الطائفة في كثير من الأغذية والأدوية ، مع اتفاقهم على ما وصفنا ، وذلك لاختلافهم في كيفية الاستدلال . فمنهم من زعم أنه يستدل على طبيعة الشيء من الأغذية والأدوية ، بطعمه أو ريحه ، أو لونه أو قوامه أو فعله ، وتأثيره في الجسد ، وزعموا أن الوثيقة في الاستدلال بالأجزاء ، إذا كانت الألوان والأرايح وسائر ماذكرنا من أفعال الطبائع الأربع ، كما أن الأسخان والتبريد والتلين فعل لها ، وزعمت طائفة أخرى منهم أن أصح الشهادات وأثبت القضايا في الحكم على طبيعة الدواء والغذاء ، ما أخذ من فعله في الجسد دون الطعم والرائحة وما سوى ذلك ؛ فإن الاستدلال بما سوى الفعل والتأثير ، لا يقطع به ولا يعول على طبيعة الدواء المفرد والمركب ^(١).

كذلك وصف الأطباء في هذا العصر ، الفم والأسنان وأنواعها وعددها ووظيفة كل منها ، حتى لقد أعجب الخليفة الواثق بوصف حنين بن إسحق ، وطلب منه أن يصنف له كتابا يذكر فيه جميع ما يحتاج إلى معرفته ، ونصنف له كتابا جملته ثلاث مقالات ، يذكر فيه

الفرق بين النفاذ والدواء والمسهل وآلات الجسد (١).

٢ — الفن :

لما اتسعت فتوح العرب واختلطوا بغيرهم من الأمم الأخرى ، اتسع أفق الفن في أعينهم ، واستطاعوا أن يخرجوا صورا فنية جديدة لا تخرج عن مبادئ الدين الإسلامى . على أن الأمر الذى يسترعى النظر ، أن العرب لم يمتوا بفن النحت والتصوير عنايتهم بالبناء والزخرفة ، لأنهم رأوا في ذلك تشبها بعبدة الأوثان . لهذا كان العنصر الأساسى في زخرفتهم الرسوم النباتية والهندسية (٢) .

وقد اتخذ العرب بعد استيلائهم على بلاد الشام وفارس طرازاً خاصاً للعمارة يتناسب وحالة معيشتهم ، فامتازت مبانيهم بطرز خاصة من الأعمدة والأقواس أو العقود والقباب ، والمقرنصات أو الدلايات ؛ وهى زخارف معيارية تشبه خللايا النحل ، وتجدها بارزة ومدلاة في طبقات ، مصفوفة بعضها فوق بعض في واجهات المساجد وفي المآذن ، لإقامة الشرفات التى يدور فيها المؤذن ، أو في تيجان بعض الأعمدة الإسلامية ، أو في القباب التى بين القاعدة المربعة والسطح الدائر . وقد استخدمت المقرنصات للزخرفة في السقوف الخشبية ، فضلا عن

(١) مروج الذهب : ج ٢ ص ٣٦٦ .

أورد السموذى وصفا دقيقا للأستنان يثير في الواقع وثيقة طيبة حامة لا بأس من ذكرها هنا : قال الوراق لحين من بين الجماعة : « ما أول آلات الفناء من الإنسان ؟ قال : أول آلات الفناء القم وفيه الأستنان . والأستنان اثنتان وعلائون سنا ، منها في القمى الأعلى ستة عشر سنا ، وفي القمى الأسفل كذلك . ومن ذلك أربعة في كل واحد من القمين عراض عددة الأطراف ، تسميها الأطباء من اليونانيين الفواطع ، وذلك أن بها يقطع ما يحتاج إلى قطعه من الأطعمة القينة ، كما يقطع هذا النوع من المأكول بالسكين ، وهى الثنايا والرباعيات . وعن جنبي هذه الأربعة في كل واحد من القمين سنان ردهوسها حادة وأصولها عريضة ، وهى الأثياب . وبها يكسر كل ما يحتاج إلى تسكيه من الأشياء الصلبة مما يؤكل . وعن جنبي الثابيين في كل واحد من القمين ، خمس أستان أخر عوارض خشن ، وهى الأضراس ، ويسمونها اليونانيون الطوائخ ، لأنها تطحن ما يحتاج إلى طحنه مما يؤكل . وكل واحد من الثنايا والرباعيات والأثياب له أصل واحد . وأما الأضراس فما كان منها في القمى الأعلى ، فله ثلاثة أصول خلا الضرسين الأقيصيين ، فله ربما كان لكل واحد منهما أصول أربعة . وما كان من الأضراس في القمى الأسفل ، فلهكل واحد منها أصلان . خلا الضرسين الأقيصيين ، فأما ربما كان لكل واحد منهما أصول ثلاثة . وأما احتيج إلى كثرة أصول الأضراس دون سائر الأستنان ، لشدة قوة العمل بها ، وخصت الدنيا منها بالزيادة في الأصول لتعلقها بأهل القم » .

(٢) زكى محمد حسن : في الفنون الإسلامية ص ٨ و ٢٥ — ٤٣ و Zaky M. Hassan : The Attitude of Islam towards Painting (Bulletin of the Faculty of Arts, Fouad 1. University, Vol. VII, July, 1944) pp. 1—15,

استخدامها في العائر نفسها^(١).

وعلى الرغم من أن العرب استعانوا بمهرة الصناع في البلاد التي دخلت تحت سلطانهم ، فإن العمارة الإسلامية احتفظت بطابعها الجديد ، وأصبحت تمتاز بمزايا خاصة بها . وقد تمثلت العمارة العربية أول الأمر في المساجد . وكان مسجد قباء الذي أنشأه الرسول عليه الصلاة والسلام ، النموذج الأول لسائر المساجد الإسلامية . وبما لاشك فيه أن اختلاف الحجاج إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة في كل عام ، وأداءهم الصلاة في المدن والقرى التي كانوا يمرون بها ، قد ساعد على محاكاة مساجد بلاد الحجاز .

وقد أدخلت المقصورة في عمارة المساجد لتصبح الإمام عن سائر المصلين . وكان أول من اتخذها معاوية بن أبي سفيان ، حين خشي على نفسه أن يحل به ما حل بعمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب ، وأقتدى به الخلفاء من بعده . وكذلك دخلت في عمارة المساجد زيادات ، منها المآذن والمحراب الذي يدل على جهة القبلة^(٢) ، والإيوانات ، وهي أروقة تحيط بالصحن ذات أقواس مرفوعة على أعمدة أو دعائم ، واستمر ذلك إلى العصر العباسي الأول .

وقد تقدم فن الزخرفة الإسلامية في عهد الخلفاء الأمويين والعباسيين . ومن مميزات الظاهرة استعمال النقوش الخطية العربية . فكثيراً ما نرى آية من آيات القرآن الكريم أو بيتاً من الشعر ، أو عبارة من عبارات التحية والتهنئة ، تدور حول حافة التحف الأثرية ، أو تكون شريطاً زخرفياً على أثر من الآثار .

وقد ازدهر في عهد الأمويين فن النقوش الحائطية ، التي لا يزال بعضها باقياً في قصر عسيرة ، وهو بيت للصيد شرقي البحر الميت ، ويتجلى في طرازها مزيج من الأساليب الشرقية والغربية . ويذهب علماء الآثار إلى أن هذا البناء شيد في عهد الوليد بن عبد الملك الأموي^(٣) .

ولما انتقل مركز الخلافة من دمشق إلى بغداد ، أثر الفن الفارسي في الفن الإسلامي تأثيراً كبيراً . وكان للخلفاء العباسيين والأمراء والوزراء وغيرهم من كبار رجال الدولة ، ولوع شديد ببناء القصور الفخمة . فقد بنى أبو جعفر المنصور قصر الذهب في وسط مدينة بغداد . وفي صدر هذا القصر إيوان طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ، يعلوه قبة عليها مجاس . و فوق هذا المجلس القبة الخضراء . وبلغ ارتفاع القصر ثمانين ذراعاً ، وبنى بالجص والآجر ، ورفعت

(١) نفس المصدر ص ٤٨ .

(٢) K.A.C. Creswell : Early Muslim Architecture Vol I, pp. 98-9

(٣) كتاب التصوير عند العرب تأليف الفخوري له أحمد تيمور باشا ، أخرجه وزاد عليه الدراسات الفنية والتعليقات الدكتور زكي محمد حسن ، ص ١٥٠ - ١٥١ و ٢٤٧ - ٢٥٠ .

حجراته على أساطين الساج ، وسقف بالحشب وحلى باللازورد . وبقي على ذلك حتى هدمه هارون الرشيد وأعاد بناءه . وكان على رأس القبة تمثال على صورة فارس في يده رمح . وكان هذا التمثال يدور مع الريح ، فإذا استقبل الصنم جهة من الجهات ومد الريح نحوها ، كان ذلك إيذانا بظهور بعض الخوارج من هذه الجهة . على أننا نرى أن فيما ذكر الخطيب البغدادي (١) شيئا كثيراً من المبالغة .

ومن قصور بغداد قصر الخلد ، على شاطئ دجلة الغربي تجاه باب خراسان . وقد تأتى أبو جعفر المنصور في بنائه وتجميله ، حتى سمي الخلد تشبيهاً له بجثة الخلد . وبني المهدي ابن المنصور قصر الوضاح على مقربة من قصر الرضافة . ومن قصور بغداد قصر عيسى الذى بناه عيسى بن على العباسى عند مصب الرافل في دجلة . وكانت بعض عمائر بغداد مؤلفة من عدة طبقات يظهر في زخرفها الذوق الفارسى .

وقد تقدم فن الزخرفة في العصر العباسى الأول تقدماً عظيماً . يدل على ذلك هذه القباب الأربع التى بناها المنصور على أبواب مدينة بغداد الأربعة ، وكان قصر لكل واحد منها خمسين ذراعاً . وقد زخرفت هذه القباب بالذهب ، وكان يصعد إليها على الخيل ، وعليها تماثيل تدبرها الريح . وكان المنصور يجلس في هذه القباب طلباً للراحة ، فإذا أحب النظر إلى الماء جلس في قبة باب خراسان ، وإذا أحب النظر إلى الأرباض وماوالها جلس في قبة باب الشام ، وإذا أحب النظر إلى الكرخ جلس في قبة باب البصرة ، وإذا أحب النظر إلى البساتين والضياع جلس في قبة باب الكوفة . وتشبه هذه القباب المناسظر التى بناها الخلفاء الفاطميون في القسطنطينية والقاهرة فيما بعد .

وقد أصبحت القصور في العصر العباسى الأول عملاً بالرسوم والزخارف من الداخل والخارج ، وعليها صور من الجص المجسم ، كما كانت طبقاتها مغطاة بستور من الديباج ، مزينة بالرسوم التى كانت من مميزات الفن الفارسى .

ومن آيات فن الزخرفة في العصر العباسى تلك الزخارف الجصية التى كانت تغطى الأجزاء السفلية من الجدران ، والتى كشفت الحفائر في أطلال مدينة سامرا عن نماذج كثيرة منها (٢) . كما أن من آياته الصور الخائطية التى عثر عليها في أنقاض بعض القصور في المدينة المذكورة . وقوام هذه الصور رسوم حيوانات وطيور وصور آدمية لأشخاص في الصيد (٣) أو لفساء

(١) كتاب تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٣ .

(٢) زكى محمد حسن : الفن الأسلافى في مصر ج ١ ص ٢٨ - ٣١ .

(٣) Zaky M. Hassan, Hunting as Practised in Arab Countries of the Middle Ages

يرقص^(١). والمعروف أن أساليب العباسيين في زخرفة المنسوجات والتحف المعدنية والحرفية الخشبية امتدت إلى شتى أقسام الدولة الإسلامية في عصرهم، فوصلت إلى مصر وإفريقية وإيران^(٢).

ولم تقتصر رعاية الخلفاء العباسيين على عمارة المدن الكبيرة كبغداد وسامرا، بل إنهم اهتموا ببناء القصور في طريق مكة. ويقول الطبري^(٣): «أمر المهدي ببناء القصور في طريق مكة، وأوسع من القصور التي كان أبو العباس بناها من القادسية إلى زبالة، وأمر بالزيادة في قصور أبي العباس، وترك منازل أبي جعفر التي كان بناها على حالها، وأمر باتخاذ المصانع في كل منهل، وبتجديد الأعمال والبرك ونحفر الركابا مع المصانع... وأمر المهدي بالزيادة في المسجد الجامع بالبصرة، فزيد فيه من مقدمه مما يلي القبلة، وعلى يمينه مما يلي رحبة بني سليم... وأمر المهدي بنزع المقاصير من مساجد الجماعات وتقصير المنابر، وتصغيرها إلى المقدار الذي عليه منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكتب بذلك إلى الآفاق فعمل به»، كما أمر المهدي بالزيادة في المسجد الحرام^(٤).

وقد وصف المسعودي^(٥) قصر محمد بن سليمان، وكان قد ولي البصرة في عهد المهدي فقال: «لما بنى محمد بن سليمان قصره بالبصرة على بعض الأنهار، دخل عليه عبد الصمد بن شبيب ابن شبة فقال له محمد: كيف ترى بنائي؟ قال: بنيت أجل بناء بأطيب فناء وأوسع بناء وأرق هواء على أحسن ما بين صراري وحسان وظياء».

وقد أطلع الخلفاء العباسيون عامة بالعامة. ويقول المسعودي^(٦) عن المعتصم: «كان المعتصم يحب العبادة ويقول إن فيها أمورا محمودة: فأولها عمران الأرض التي يحيا بها العالم، وعليها يزكو الخراج، وتكثر الأموال، وتعيش البهائم، وترخص الأسعار، ويكثر المكسب ويتسع المعاش. وكان يقول لو زيره محمد بن عبد الملك: إذا وجدت موضعا، متى افقت فيه عشرة دراهم جاني بعد سنة أحد عشر درهما، فلا تؤامرني فيه».

والآن نأخذ في الكلام على بناء المدن في العصر العباسي الأول، فنشرع في الكلام على بناء مدينتي بغداد وسامرا.

(١) ذكر محمد حسن: الفن الإسلامي في مصر ج ١ ص ٣٢ - ٣٣. راجع أيضا تعليقات ذكر محمد حسن في كتاب التصوير عند العرب لأحمد تيمور باشا ص ١٤١ - ١٤٥ و ٢٥٠ - ٢٥٣.
(٢) ذكر محمد حسن: الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي ص ١٧ و ٢١١ - ٢١٦ و ٢٣٧ و ٢٤١.

(٣) ج ٩ ص ٣٣٨ - ٣٣٩

(٤) نفس المصدر ج ١٠ ص ٩

(٥) ج ٢ ص ٢٦٤

(٦) ج ٢ ص ٣٤٥

(١) بغداد

١ — العواصم الإسلامية التي سبقت بغداد:

إن تاريخ بغداد ، باعتبارها قاعدة من القواعد الإسلامية ، يسير جنباً لجنب مع قيام الدولة العباسية وسقوطها . وقد جرت العادة في البلاد الإسلامية أن تتخذ كل أسرة تلى الحكم قاعدة جديدة لها ^(١)؛ فاتخذ الرسول عليه الصلاة والسلام يثرب مدينة له على أثر هجرته إليها ، فلم تلبث أن أصبحت حاضرة الإسلام ، وأصبحت تسمى المدينة أو مدينة الرسول أو المدينة المنورة ، وظلت حاضرة للدولة العربية ، حتى ولي على بن أبي طالب الخلافة ، فتركها واتخذ الكوفة بعد واقعة الجمل المشهورة حاضرة لخلافته . وقد برهنت الأيام على أن علياً لم يوفق في اختيار تلك الحاضرة الجديدة ، فان تركه المدينة ، قد هدم التوازن الذي كان بين القبائل العربية في عهد الخلفاء قبله . وقد تبين له بعد فوات الفرصة أن اعتماده على أهل الكوفة لم يكن إلا سراياً ، فانه لم يستطع أن يقر النظام في حاضرة ملكه الجديدة ، فقد كان السواد الأعظم منهم أهل شقاق وقتل ، يناوئون حكومته الناشئة .

ولما انتقلت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان اتخذ دمشق حاضرة لخلافته . ولا غرو فقد عمل — منذ ولعها في عهد عمر — على توطيد نفوذه في بلاد الشام ، مستعيناً بأتباعه وذوى قرباه ، وجذب الأنصار حوله بالعطايا والمنح . ومن ثم أصبحت دمشق صالحة لأن تكون حاضرة للأُمويين . أضف إلى ذلك خصب بلاد الشام وكثرة الثماء فيها ، وقربها من بلاد الحجاز التي كانت لا تزال مركز القوة الدينية في الإسلام ، ومن سائر مواطن القبائل العربية مما يساعد على تجنيد الجنود إذا دعت الحاجة إلى ذلك . ولا عجب فان الدولة الأموية كانت تحتفظ بالمعنى والعصبة العربية . هذا إلى أن دمشق كانت قريبة من حدود الإمبراطورية البيزنطية ، التي كان يقوم عليها النزاع دائماً بين العرب والروم ، الذين لم تكف الحرب تحبوا نارها بينهم في وقت من الأوقات . وإن قرب حاضرة المسلمين في العصر الأموي من هذه الحدود من شأنه أن يسهل حشد الجيوش في أقرب وقت .

ولما قامت الدولة العباسية لم تعد دمشق صالحة لأن تكون حاضرة لخلافتهم :

أولاً — لأنه كان بها بترأفية وأنصارهم

(١) وهذه ظاهرة لاحظها العلماء في تاريخ العراق القديم بوجه عام .

راجع الفصل الذي كتبه الأستاذ كريزول Creswell عن تأسيس بغداد في الجزء الثاني من كتابه Early Muslim Culture.

ثانياً — لبعدها عن بلاد الفرس مصدر قوة العباسيين . فقد كانت الدولة الأموية في وسط عنصر عربي يتعصب للعروبة ويناصر الأمويين على الروم إذا دهموا بلادهم . أما العباسيون فلم تكن لهم بين العرب عصبية ، وإنما قامت قوتهم على الموالي من الفرس الذين كانوا بعيدين عن دمشق .

ثالثاً — ولقربها من حدود الدولة البيزنطية لم تعد آمنة من غارات جيوشهم عليها . فكان من المناسب إذاً أن يعدل العباسيون عن اتخاذ دمشق حاضرة لخلافتهم ، وأن يستبدلوا بها حاضرة جديدة تكون على مقربة من بلاد فارس . وقد تأسست في غضون الفتوح الإسلامية ببلاد العراق مدينتان ، اتخذهما المسلمون مركزين حربيين للجند هما : البصرة القريبة من مصب دجلة ، والكوفة الواقعة على نهر الفرات ، حيث يدخل طريق القوافل الصحراوى من الحجاز إلى فارس في أراضي بلاد العراق الزراعية . وقد أقام أبو العباس السفاح في القصر الذى بناه بجانب الأنبار ، المدينة الفارسية القديمة الواقعة على الشاطئ الشرقى من نهر الفرات ، حيث يتفرع النهر الكبير الذى أطلق عليه فيما بعد نهر عيسى ، ويمر نحو دجلة . وسمى السفاح قصره « الهاشمية » نسبة إلى جده هاشم ابن عبد مناف (١) .

ولما توفى السفاح سنة ١٣٦ هـ (٧٥٤ م) وولى بعده الخلافة أخوه المنصور ، شرع بعد قليل في بناء قصر آخر سماه الهاشمية أيضاً . وكانت الهاشمية الثانية ، أو هاشمية الكوفة ، بين الكوفة والحيرة ، وهى المدينة الفارسية القديمة الواقعة على نهر الفرات (٢) . وقد أدرك المنصور أن هذه المدينة لاتصلح حاضرة لخلافته ، لقربها من الكوفة مقر الشيعة ومركز دعايتهم ، ولأنها كانت معسكر القبائل العربية التى لم تفتقر عن إثارة الفتن والفتاقل ، حتى أصبح المنصور لا يأمن على نفسه لمجاورته أهل هذه المدينة الذين أفسدوا عليه جنده ، ولما كان أيضاً من كراهته المقام فيها بعد حادثة الراوندية . أضف إلى ذلك أن الكوفة وما يجاورها من المدن تقع على حد الصحراء العربية التى تهب رمالها على الشاطئ الغربى للفرات (٣) ،

(١) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٢٣٧ ، والطبرى ج ٩ ص ١٧٤

(٢) وفى رواية أخرى أن هاشمية المنصور كانت على مقربة من المدينة المسماة بمدينة ابن هبيرة ، وكانت تقع على الفرات شمال الكوفة . وينبغى أن نميز بينها وبين قصر ابن هبيرة الذى مر ما حوله ، حتى أصبح مدينة عرفت بقصر ابن هبيرة ، وكانت تقع على الفرات شمال الكوفة .

(٣) راجع ما كتبه لى سترنج Le Strange : Baghdad during the Abbasid Caliphate,

٢ — اختيار موقع بغداد :

رأى المنصور ضرورة اتخاذ حاضرتة الجديدة وسط أراض خصبة يروها ماء دجلة والجهادول التي تأخذ مائها من الفرات ، وفي مكان تسهل فيه المواصلات بين أجزاء دولته ، تتوافر فيه سبل المضيئة . فبحث روادا يختارون له مكانا ينشئ فيه حاضرتة الجديدة ، فدلوه على موضع قريب من يارما الواقعة جنوبي الموصل ، فخرج إليه في جماعة من رجال بلاطه ، وبات فيه . ولما أصبح سأل رجاله عن رأيهم في هذا المكان ، فذكروا له طيب هوائه وجوده غذائه ، فقال : « ولكن لافرق فيه للرعية » . وذكر لهم أنه قد مر في طريقه إلى هذا المكان بموضع تجلب إليه المأون في البر والنهر ، وأنه يصلح مكانا لحاضرة ملكة إذا استطاب هوائه . ثم رجع المنصور إلى هذا المكان وأقام فيه يوما وليلة ، وكان ذلك في فصل الصيف ، فأعجبه هوائه ووجد فيه المكان الذي ينشئ بأغراضه ^(١) .

ثم دعا المنصور أهل هذه النواحي ^(٢) وسألم عنها ، وكيف هي في الحر والبرد والأمطار وغيرها ، فأخبره كل واحد بما عنده من العلم . فبحث رجالا من عنده فباتوا في هذه النواحي وأتوه بأخبارها ، فأعجب المنصور موضع بغداد . وكانت فيه ، كما ذكر الجليلي البغدادي ^(٣) ، مزرعة يقال لها المباركة ، فدعا المنصور صاحبها — وكان أحد الدهاقين — وسأله عنها ، لحسن له النزول بها لوقوعها بين أربعة نواح (طاساسيج) ، وورود المأون إليها من الشام والجزيرة ومصر والهند والسند والبصرة وواسط وأرمينية وأذربيجان عن طريق دجلة والفرات وغروعهما ^(٤) .

وقد روى في اختيار موقع بغداد ما قاله ابن خلدون ^(٥) في أوضاع الخواضر : ويشترط في اختيار موضع المدينة أن تقع إما على هضبة متورة من الجبل ، وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يصل إليها إلا بعد العبور ، وطيب الهواء للسلامة من الأمراض ، وقرب الزرع منها ليحصل الناس على الأقوات . . وقد ختم ابن خلدون كلامه بقوله إن العرب لم

(١) الطبري ج ٩ ص ٢٣٨ — ٢٣٩ ، وياقوت : معجم البلدان — انظر لفظ بغداد

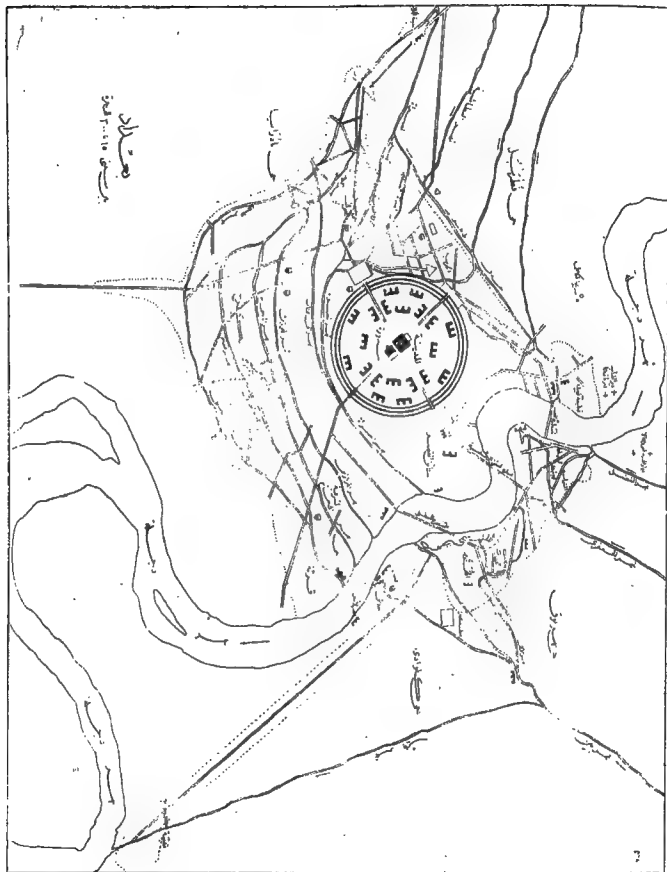
Le Strange : Baghdad during the Abbasid Caliphate, pp. 6-8.

(٢) ذكر الطبري (ج ٩ ص ٢٣٩) هذه النواحي وهي : الديار وبغداد والخرم والدير المعروف ببستان القس والعتيقة .

(٣) كتاب تاريخ بغداد ج ٩ ص ٢١ .

(٤) انظر الباب السادس من هذا الكتاب ص ٢٣٢ .

(٥) مقدمة ص ٢٩١ .



يراعوا هذه الشروط في اختيار مواقع المدن التي أسسوها كالكوفة والبصرة والقيروان ، وأنها كانت أقرب إلى الخراب لما لم تراعى فيها الأمور الطبيعية .

وقد ذكر المؤرخون حكاية تظهر عليها مسحة الاختلاق ؛ وذلك أن راهباً من رهبان الدير القريب من بغداد سأل أحد أصحاب المنصور عن الرجل الذي يريد أن يبنى المدينة ، فقيل له أمير المؤمنين الخليفة المنصور . فسأل الراهب عن اسمه ، فقيل عبد الله . فسأل أيضاً عما إذا كان للخليفة اسم غير هذا ، فقيل اللهم لا ، إلا أن كنيته أبو جعفر ولقبه المنصور . فقال الراهب للرجل : فاذهب إليه وقل له لا يتعب نفسه في بناء هذه المدينة ، فانا نجد في كتبنا أن رجلاً اسمه مقلص بنى ههنا مدينة ويكون لها شأن من الشأن ، وأن غيره لا يتمكن من ذلك ، فجاء الرجل إلى المنصور ، فقص على الحاضرين قصته وهو صغير نقلها بنصها : « أما والله كان اسمي مقلصاً ، وكان هذا اللقب قد غلب علىّ ثم ذهب عني . وذلك أن لصاً كان في صباي يسمى مقلصاً ، وكانت تضرب به الأمثال ، وكان لنا صجور تريبي ، فاتفق أن صبيان المكتب جاءوا يوماً إلى وقالوا لي نحن اليوم أضيافك ، ولم يكن معي ما أنفقه عليهم . وكان للعجوز غزل ، فأخذته وبعته بما أنفقه عليهم . فلما علت أتى سرق غزلاً ، سميت مقلصاً ؛ وغلب علىّ هذا اللقب ، ثم ذهب عني . والآن عرفت أني أبني هذه المدينة » (١) .

٣ - بغداد قبل تمصيرها :

وكانت بغداد قبل تمصيرها قرية قديمة بناها بعض ملوك الفرس ، وتقع على الشاطئ الغربي لنهر دجلة في أعلى المكان الذي يلتقي فيه نهر الصراة بدجلة . وقد بقيت قباب بغداد القديمة إلى أيام الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ (٢) ؛ كما كانت سوقا يقصده تجار الفرس والصين بتجارتهن . وقد أغار عليها المسلمون سنة ١٣ هـ بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني وغنموا منها مغنم كثيرة (٣) .

ويزيد البحث الحديث وجود بغداد القديمة . فقد ذكر لي سترينج (٤) أن المنقب الانجليزي السير هنري رولينسن (Sir Henry Rawlinson) عثر في سنة ١٨٤٨ م في وقت انخفاض نهر دجلة على سور من الآجر يحف بشاطئ هذا النهر الغربي ، ومنه يظهر أنه كانت تقوم في هذا المكان مدينة قديمة . وقد وجد اسم مختصر وألقابه وغزواته منقوشة على قطع الآجر ، كما

(١) الطبري ج ٩ ص ٢٣٩ - ٢٤٠ ؛ مناقب بغداد لابن الجوزي ص ٧ ؛ الفهرى ١١٧ - ١١٨

(٢) ج ٩ ص ٢٤٠

(٣) تاريخ بغداد للخليفة البغدادي ج ١ ص ٢٦

(٤) Le Strange : Baghdad During the Abbasid Caliphate, pp. 9-10.

ظهر في التثبت الجغرافى الآشورى لحكم سردانا بالوس (Sardanapalus) لفظ يقارب تماما لفظ بندگان .

٤ - اشتقاق لفظ بندگان :

ويرى بعض المؤرخين أن كلمة بندگان فارسية الأصل . فقد ذكر ياقوت وغيره عدة اشتقاقات لطيفة لهذا الاسم منها :

١ - أن بندگان مكونة من كلمتين باغ ومعناها بالفارسية بستان و داد اسم لرجل كان يملك هذا البستان .

٢ - وقيل إن باغ اسم صنم و داد بمعنى أعطى أو منح . قيل إن كسرى أقطع هذه الناحية عبداً من المشرق من عباد الأصنام ، فقال العبد « باغ دادى ، أى الصنم أعطانى . وروى النسائى أن رجلا قدم على عبد العزيز بن أبى رواد ، فقال له : من أين أنت ؟ فقال من بندگان ، فقال لا تنقل بندگان ، فإن باغ صنم و داد أعطى ، ولكن قل مدينة السلام .

٣ - وقيل إن بندگان كانت سوقا يقصده تجار أهل فلسطين بتجارتهم ، فيربحون الربح الواسع . وكان اسم ملك الصين « باغ » ، فكانوا إذا انصرفوا إلى بلادهم قالوا « باغ داد » ، أى أن هذا الربح الذى ربحناه من عطية الملك ، لأن داد بمعنى أعطى أى أعطانا الملك .

٤ - وقيل إن بندگان أصلها بندگان ، وهو فارسى معرب عن باغ ومعناه بستان ، و دادويه اسم رجل من الفرس . وذلك أن بعض نواحى بندگان كان بستانا لرجل من الفرس اسمه دادويه . وهذا قريب الشبه بما ورد فى التسمية الأولى . وما يدل على فارسية هذا الاسم وجود الـ « دال » مع الـ « ذال » وهو مألوف عند الفرس ، وليس له نظير فى كلام العرب . ويقول Le Strange إن الاشتقاق الصحيح لهذا اللفظ هو من الكلمتين الفارسييتين القديمتين Bagh وهو الله ، و Dadh ومعناها مؤسسة أو أساس . ومن ذلك يكون معنى بندگان المدينة التى بناها الله .

٥ - وقد سماها المنصور مدينة السلام . وهذه التسمية مأخوذة عن الفارسية أيضا ، فقد ذكر ياقوت أن بعض هذه المدينة كان أثرا لمدينة دارسة اختطها أحد ملوك الفرس ، فرض ، فقالوا له : « ما الذى يأمر الملك أن تسمى به هذه المدينة ؟ » فقال : « هيلدوه وروز » ، أى ادخلوها بسلام . فلما علم المنصور بذلك قال : « سميتها مدينة السلام » . وقيل إنها سميت « مدينة السلام » ، لأن السلام هو الله ، أو لأن نهر دجلة يقال له وادى السلام . وكان أبو الفرج البیهقي يقول هى مدينة السلام ، بل مدينة الإسلام .

٦ - وكان الجانب الغربى لبندگان فى العصور الإسلامية يسمى الزوراء ، لا زورار فى قبلتها .

وقيل لأن المنصور لما عمرها جعل الأبواب الداخلة مزورة عن الأبواب الخارجة (أى ليس على سمتها)، وقيل لازرار نهر دجلة عند مروره بها . ويقول المسعودى عند ذكره أسماء بغداد إن أهل هذه المدينة كانوا يسمونها الزوراء والروحاء في أيامه ، بينما يسمى جانبها الشرقى الروحاء لانهبساط مجرى نهر دجلة عنده .

وقد أطلق لفظ الزوراء على بغداد في بدء إنشائها للانحراف الذى شوهه في محاريب مساجدها ، وسميت « المدينة المندورة » لأنها على شكل دائرة . ويقال لها دار السلام تقيها لما بالجنة (١) .

وقد ورد في تسمية بغداد أيضاً بغداد ومغداد ومغدان (٢) .

٥ — تخطيط بغداد :

شرح المنصور في بناء حاضرتة الجديدة في موضع بغداد القديمة ، وأمر باحضار المهندسين والبنائين والقلة والصناع من التجارين والحدادين والحفارين من الشام والموصل والبصرة والكوفة واسط وبلاد الديلم ، حتى بلغ عددهم مائة ألف (٣) . كما اختار جماعة ممن يثق بفضلتهم وعدالتهم وعلمهم وأمانتهم ومعرفتهم بالهندسة والحساب من أمثال الحاجب بن أروطاه ، وعمران ابن الوضاح ، وأجرى عليهم الأبقاق ، ثم أمر بضرب اللبن وطبخ الآجر .

وقد قيل إن المنصور أراد أن يولى القضاء أبا حنيفة النعمان مؤسس المذهب الحنفى ، فامتنع ، خلف ألا يتركه حتى يولىه عملاً من الأعمال ، وحلف أبو حنيفة ألا يفعل . وعما حدا بالمنصور إلى معاملة أبي حنيفة هذه المعاملة ، رغبته في التحلل من يمينه والخروج منها (٤) ، وذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن المنصور إنما عامل أبا حنيفة هذه المعاملة ، لما رأى به من الانحياز إلى دعوة محمد بن عبد الله العلوى ، لحفظ له المنصور ذلك . فلما شرع في بناء بغداد ، عهد إلى أبي حنيفة في عد اللبن والإشراف على البناء ، فابتكر طريقة لعد الطوب بالقصب ، وهى طريقة سهلة . فاذا كان طول الطوبة ٣٠ سنتيمتراً مثلاً ، ألقى أبو حنيفة بقصبة قاس بها صف الطوب . وبذلك أمكنه معرفة عدد الطوب بالضبط في زمن قصير وبدون عناء .

أحضر أبو حنيفة قصبة بعد بها اللبن والآجر ، ثم وضع أبو جعفر المنصور أول لبنة

(١) البغدادى : تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٧ — ٧٨ .

(٢) الطبرى ج ٩ ص ٢٣٠ — ٢٣٢ ، تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ج ١ ص ٥٨ — ٥٩ .

أعز لفظ بغداد في معجم البلدان لياقوت ولسان العرب .

(٣) لاشك أن في هذا العهد الذى ذكره المؤرخون مهلفة ظاهرة .

(٤) الطبرى ج ٩ ص ٢٤٦ .

بيده وقال : بسم الله ! والحمد لله ! والأرض لله ورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، ثم قال « ابنوا على بركة الله » (١) .

ويحدثنا ياقوت أن المنصور وضع أساس بغداد في الوقت الذي اختاره المنجمون . قال أبو سهل بن نوبخت : « أمرى المنصور لما أراد بناء بغداد بأخذ الطالع ففعلت ، فإذا الطالع في الشمس وهي في القوس . فخبّره بما تدل النجوم عليه من طول بقائها وكثرة عمارتها ، وفقر الناس إلى ما فيها ، ثم قلت : وأخبرك خَلَّةً أخرى أسرك بها يأمر المؤمنين . قال وما هي ؟ قلت نهد في أدلة النجوم أنه لا يموت بها خليفة أبداً حتف أنفه ، فتبسم وقال : الحمد لله على ذلك (هذا فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) . ولذلك يقول عماره بن عقيل بن بلال بن جرير بن الحطفي :

أعانت في طول من الأرض أوعرض	كبغداد من دارها مسكن الخفض ؟
صفا العيش في بغداد واخضر عودُه	وعيشٌ سواها غير خفض ولا غصن
تطول بها الأعمار إن غداها	مرى وبعض الأرض أمراً من بعض
قضى ربها ألا يموت خليفة	بها إنه ماشاء في خلقه يقضى
تنام بها عين الغريب ولن ترى	غريباً بأرض الشام يطعم في النعم
فان جُزيت بغداد منهم بقرضها	فاأسلفت إلا الجليل من القرص
وان زُمت بالجر منهم وبالقل	فا أصبحت أهلاً لجر ولا بغض

وكان من أعجب العجب أن المنصور مات وهو حاج ، والمهدي ابنه خرج إلى نواحي الجبل فأت بماسبذان بموضع يقال له الرّذ ، والمهدي ابنه مات ببغداد قرب أوعلة بالجانب الشرقي من بغداد ، والرّشيد مات بطوس ، والأمين أخذ في شجاره وقتل الجانب الشرقي ، والمأمون مات بالهندون من نواحي المصيصة بالشام ، والمعتمد والواثق والمتوكل والمتنصر وباقي الخلفاء ماتوا بسامرا ، ثم انتقل الخلفاء إلى التاج من شرق بغداد . (٢)

وقد احتفل المنصور بوضع الحجر الأساس لبناء بغداد احتفالاً شاقاً شهده رجال الدولة العباسية من الأمراء والوزراء والعلماء والقواد والأعيان .

وقد روى الطبري وغيره أن المنصور لما عزم على بناء بغداد أحب أن يعرف رسمها ،

(١) اليعقوبي: كتاب البلدان ص ٢٣٨ — ٢٤٠ ، والطبري ج ٩ ص ٢٤١ .

(٢) راجع لفظ بغداد في معجم البلدان لياقوت .

فأمر أن تخطط طرق المدينة بالرماد ، ثم دخل من موضع كل باب ، ومرت في طرقات المدينة ورحابها وهي مخطوطة بالرماد ، ثم أمر أن يوضع على تلك الخطوط حب القطن ، ويصب عليه التفت وتوتد فيه النار . فنظر إليه والنار تشتعل . وبذلك أمكنه الوقوف على رسم مدينته الجديدة . ثم حفر الأساس مكان هذه الخطوط ، وكان ذلك سنة ١٤٥ هـ .^(١) وقد جعل المنصور مدينته مدورة ، وجعل داره وجامعه في وسطها حتى لا يكون أحد أقرب إليه من الآخر ؛ وهو نوع جديد في بناء المدن عند المسلمين ، يظهر أنهم أخذوه عن الفرس^(٢) .

ولم يجعل المنصور حول القصر والجامع بناء ، إلا الدار التي بناها للحرس من ناحية باب الشام ، وسقيفة كبيرة ممتدة على عهد مبنية بالآجر والجص ، خص إحداها بصاحب الشرطة والأخرى بصاحب الحرس ، وجعل حول ذلك منازل أولاده الأصاغر ومن يقوم بشئونهم من الخدم والعبيد ، واتخذ حول ذلك قصور الأمراء ورجال الدولة ودواوين الحكومة ومطابخ العامة . وأخذ البناءون يبنون حول الدواوين دور الأهالي تتخللها الأسواق ، وجعل للمدينة شوارع رئيسية أربعة تمتد من شوارع المدينة الأربعة ، يفترع منها شوارع أخرى^(٣) .

ولما وقف المنصور على رسم مدينته الجديدة ، شرع في بناء سورها . ثم أخذ العمال في العمل حتى بلغ ارتفاع السور رقامة ، ولكن البناء مالم يأت وقف بسبب خروج محمد النفس الزكية في المدينة المنورة سنة ١٤٥ هـ

٦ — إتمام البناء :

ولما قضى المنصور على ثورة العلويين عزم على إتمام بناء بغداد في أقرب وقت مستطاع^(٤) ، وأمر بأن يبنى المدينة سوران : سور داخلي عرضه من أسفله خمسون ذراعاً ومن أعلاه عشرون ذراعاً ، وسور خارجي ارتفاعه ثلاثون ذراعاً وعرضه كعرض السور الداخلي وليس عليه أبراج^(٥) ، وحوله من الخارج خندق عميق أجرى فيه الماء من القناة التي تأخذ من نهر كرخايا ، وبليت حافاته بالجص والآجر ، ورفقه ١٦٣ برجاً ، سمك كل منها خمسة أذرع^(٦) . وكان بالسور الخارجى أربعة أبواب ، بابان دون باب وهي : باب الكوفة ويقع في الجنوب الغربي ، وباب

(١) الطبرى ج ٩ ص ٢٤١ .

(٢) Le Strange, p. 18.

(٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٦ .

(٤) أجمع المؤرخون على أن بناء بغداد قد تم في سنة ١٤٦ هـ وأصبحت مقر الدولة العباسية ، وأن بناء سور المدينة وخندقها لم يتم قبل سنة ١٤٩ هـ (الطبرى ج ٩ ص ٢٤١)

(٥) الطبرى ج ٩ ص ٢٤٠ .

(٦) الطيولي : كتاب البلدان ص ٢٣٩ .

البصرة ويقع في الجنوب الشرقي ويشرفان على قناة الصرّة ، وباب خراسان ويقع في الشمال الشرقي وكان على نهر دجلة ويوصل إلى قطرة السفن الرئيسية ، وكان يسمى باب الدولة لإقبال قوة الدولة العباسية من خراسان ، وباب الشام ويقع في الشمال الغربي ويوصل إلى طريق الأنبار (١).

وكان قطر مدينة بغداد من باب خراسان إلى باب الكوفة ٢٢٠ ذراع ، ومن باب البصرة إلى باب الشام كذلك . وعلى السور أبراج ، سمك كل منها خمسة أذرع ، وبنت عليه شرافات (٢) . وبين السورين ستون ذراعاً ، ويسمى « الفصيل » ، ويسمى السور الخارجي « سور الفصيل » ، وحوله الخندق ، ويسمى السور الداخلي سور المدينة .

وكان وزن كل لبنة جعفرية (٣) ١١٧ رطلاً (٤) . وقد ذكر يعقوب أن وزن اللبنة الثامنة المربعة التي يبلغ طولها ذراعاً ، وعرضها ذراعاً ، مائتا رطل ، واللبنة المنصبة التي يبلغ طولها ذراعاً وعرضها نصف ذراع مائة رطل . وقد ذكر صاحب كتاب مناقب بنده (٥) ، أن الطوب المستعمل هو اللبن والآجر المطبوخ .

وكان بين البابين دهليز ورجة توصل إلى الفصيل الدائر بين السورين ، ويسمى الأول باب الفصيل والثاني باب المدينة . فإذا دخل الداخل من باب خراسان مثلاً تطف على يساره في دهليز أوج (٦) مبنى بالآجر والجص ، طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً ، ويوصله بالباب الثاني رجة طولها ستون ذراعاً وعرضها أربعون ذراعاً . وعن يمين الداخل ويساره بابان : الأيمن ويوصل إلى فصيل باب الشام ، والأيسر ويوصل إلى فصيل باب البصرة . ومن باب البصرة بدور الشخص إلى باب الكوفة ، وبدور الذي انتهى إلى باب الشام إلى باب الكوفة . والابواب الأربعة على مثال واحد من حيث الفصلان والرحاب والطاقت . أما الباب الداخلي أو باب المدينة ، فيدخل منه إلى دهليز طوله عشرون ذراعاً وعرضه اثنا عشر ذراعاً .

وقد ذكر الطبري أن أبا جعفر المنصور نقل خمسة من هذه الأبواب من مدينة واسط . ويقال إن الحجاج بن يوسف الثقفي وجدها على باب مدينة بناها النبي سليمان بن داود تعرف

(١) الحطاب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤ — ٧٥ ، ١٧ — ١٨ ، La Strange , pp. 17 — 19

(٢) المرافقات : هي الخي التي توضع في أعلى البناء على هيئة عرائس أو نحوها ، وتلاحظ في أعلى المباني الأثرية كالمساجد والحصون .

(٣) نسبة إلى أبي جعفر المنصور .

(٤) ياقوت الحموي : كتاب معجم البلدان — أنظر لفظ بغداد .

(٥) ضرب من الأبلية .

باسم زندورد (١)؛ وقد شاهدها الطبرى حول سنة ٣٠٠ هـ. وأقام المنصور على باب خراسان بابا جى. به من بلاد الشام، ويقال إنه من عمل الفراعنة. وأقام على باب الكوفة بابا جى. به من الكوفة من عمل خالد بن عبد الله القسرى، وعمل لباب الشام بابا صنع فى بغداد، وكان أضنف أبواب بغداد. وعلى كل أزج من أزج هذه الأبواب مجلس تصل درجاته بهذا السور، وعلى هذا المجلس قبة عالية يجلس فيها المنصور طلبا للراحة، فيشاهد الواقدين من خراسان والشام والبصرة والكوفة.

بنى المنصور قصره الذى كان يطلق عليه اسم قصر الذهب، وبنى جامعة قبالته فى وسط المدينة. وقد بلغت مساحة القصر ١٦٠,٠٠٠ ذراعا مربعا، كما بلغت مساحة الجامع ٥٠,٠٠٠ ذراعا مربعا. ويعتبر قصر الذهب والجامع مركز الدائرة، حيث تفرعت من أبواب السور الداخلى الذى يحيط بمركز المدينة أربعة شوارع رئيسية منتظمة متجهة إلى خارج المدينة على شكل محاور الدائرة حتى تنتهى إلى الخندق. وقد أقيمت على جانبي هذه الشوارع الأبنية العالية، التى نسقت تنسيقا بديعا، والتى كانت متشابهة فى الشكل وأسلوب البناء. وكانت أبواب القواد تشرف على رحبة الجامع، فسكا الناس ذلك إلى الخليفة المنصور، فأمرهم بتحويل أبوابهم حتى لا تطل على الجامع، وجعلت فى طرف المدينة وطاقاتها، التى بلغ عددها خمسة وثلاثين، عرض كل منها خمسة عشر ذراعا، وطولها مائتا ذراع. وبين كل طائفتين بنيت غرف للرباطة. وكان على كل باب من أبواب المدينة قائد فى ألف جندي (٢). وإذا وقف الانسان فى نهاية أحد هذه الشوارع رأى قصر الخليفة (٣)، كما هو الحال فى حى السكاكى بالقاهرة حيث نرى السراى مائلا أمام الاعين من كل الشوارع المنفرعة عن السراى الذى هو بمثابة مركز الدائرة.

وسرعان ما ازدحمت بغداد بالعلماء والتجار والصناع الذين أقبلوا عليها، فلم ير المنصور بدماء الإقامة خارج المدينة فى مكان طيب الهواء، فبنى فى سنة ١٥٧ هـ قصر الخلد (٤). ولا شك أن هذه الأعمال الجليلة قد كلفت الخليفة المنصور كثيرا من النفقات، حتى إنه فكر فى استعمال أنقاض المادائن، حاضرة الفرس القديمة فى تعمير حاضرة ملكه الجديدة،

(١) زندورد اسم دير من أديار النسطوريين كان يقع شرق مدينة بغداد.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٦.

(٣) ابن رسته: الأعلام النقية ص ١٠٨.

(٤) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٥، ياقوت معجم البلدان: أنظر لفظ بغداد.

فاستشار وزيره خالد بن برمك في هدم ليوان كسرى ونقل أنقاضه لبناء بغداد وتعميرها ،
فنهأ خالد عن ذلك .

٧ - القطائع والأرباض :

ولما فرغ أبو جعفر المنصور من عمارة بغداد ، أقطع أعيان دولته قطائع من الأرض
رغبة في تخفيف الضغط على بغداد من جهة ، ومكافأة لهم على ما قدموه من الخدمات الجليلة من
جهة أخرى . وقد حذا ابن طولون في مصر حذو المنصور في بغداد حين أسس مدينة القطائع ،
بمدن ضاقت الفسطاط والعسكر بخدمة وعمالك وجنده ، وأعطى كل طائفة قطعة خاصة بها .
وسرعان ما عمرت هذه القطائع وازدهمت بالسكان ، وأصبحت كل قطعة منها تعرف باسم
الرجل أو الطائفة التي تسكنها : فترى من بينها قطعة العباس بن محمد بن عبد الله بن العباس على
الصراة ، وقطعة الصحابة وهم من سائر قبائل العرب من قريش والأنصار وريقة ومضر ،
وكانت على الصراة أيضا ، وقطعة الربيع بن يونس مولى المنصور ، وكان بها تجار خراسان من
البرزابن (أى بائعي الثياب) ، وقطعة صالح بن المنصور (١) . وسرعان ما اتسعت قطائع
بغداد وزاد إقبال الناس على سكنائها ، حتى إن نقل حاضرة الدولة العباسية الى سامرا في
أيام المعتصم لم يؤثر في نمو الحركة التجارية والعلمية في بغداد (٢) .

وقد أسهب اليعقوبي في الكلام على سكك (٣) بغداد ودروبها (٤) : فنجد سكك الشرطة وسكك
المطبخ وفيها سجن المطابق ، وسكك أبي حنيفة وسكك الربيع وسكك المؤذنين . وقد بلغ عدد هذه
السكك والدروب ستة آلاف ، وبلغ عدد الحمامات عشرة آلاف . وبالغ اليعقوبي وابن رسته في
عدد المساجد ، فذكر كل منها أنها بلغت الثلاثين ألفا وزاد ابن رسته أن الجانب الجنوبي
لمدينة بغداد (الكرخ) كان ضعف الجانب الشرقي (الرصافة) سعة وكثرة عمارة .

وقد قسم الخليفة المنصور أرباض (٥) بغداد أربعة أقسام ، جعل على كل منها رئيسا ،
وعهد إلى كل رئيس منهم إقامة سوق في القسم الذي يشرف عليه ، كما أمر أن تخط الشوارع
والدروب بحيث تكون المباني منتظمة ، وأن يسمى الشارع أو الدرب باسم القائد أو الرجل

(١) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٢٤٢ — ٢٥٤ ، أمين زكي : عمران بغداد ص ٣٧ — ٣٨ .

(٢) شرحه .

(٣) السكك الزناني .

(٤) الدرب المدخل بين جبلين ، والعرب تستعمله في معنى الباب ، لأنه كالإب لا يفضى اليه . والدرب
باب السكك الواسع والباب الأكبر .

(٥) الرضى (يفتحون) للمدينة ماحولها ، وجمعها أرباض أى ضواحي .

التاب المذكور الذي يقيم فيه ، كما فعل المجالس البلدية الآن . وسرعان ما عمرت الأرباض وكثرت فيها المساجد والحمامات (١) .

ولنتقل إلى الكلام على بناء الرصافة في الجهة الشرقية من نهر دجلة المقابلة لمدينة بغداد ، وعن الكرخ التي بناها أبو جعفر المنصور في الجزء الجنوبي من بغداد .

٨ - الرصافة :

إن بناء بغداد ، وإن كان قد حقق الغرض الذي رعى إليه المنصور من منع وصول العدو إليه ، إلا أنه لم يحل دون ما قد يحدث إذا شغب الجند عليه . ولقد برهنت الأيام على أنه لم يكن آمناً كل الأمن على نفسه بإقامته في بغداد ، إذ قد وقع هذا الشغب فعلاً ، حين قام عليه جنده وحاربوه على باب الذهب أحد أبواب بغداد ، فأشار عليه أحد رجال دولته ببناء الرصافة وقال له : « اعبربابك (المهدى) ، فأنزله في الجانب (الشرق من بغداد) قصراً ، وحوله ، وحول من جيشك معه قوماً ، فيصير ذلك بلداً ، وهذا بلداً . فان فسد عليك أهل هذا الجانب ضربتهم بأهل ذلك الجانب ، وإن فسد عليك أهل ذلك الجانب ضربتهم بأهل هذا الجانب ، وإن فسد عليك مضر ضربتها باليمن وربيعة والحراسانية ، وإن فسد عليك اليمن ضربتها بمن أطاعك من مضر وغيرها . فقبل (المنصور) أمره ورأيه فأستوى له ملكة ،

وقد اتخذت الرصافة في الأصل ثكنات للجيش ، وسميت « رصافة بغداد » وبغداد الشرقية لأنها تقع في الجهة الشرقية من دجلة المقابلة لمدينة بغداد . وبني لها المنصور سوراً ، وحفر حولها خندقاً ، وجعل فيها ميداناً فيسحاً ومسجداً وبستاناً ، وأجرى الماء فيها ، فتم ذلك في خلافة ابنه المهدى سنة ١٥٩ هـ (٢) .

وسرعان ما عمرت الرصافة حتى قاربت بغداد في الاتساع ، فظهرت فيها الحدائق والمتنزهات ، والميادين الواسعة ، والمباني الفخمة ، كما تجلت فيها مظاهر الخلاعة والملاهي . وفي ذلك يقول على بن الجهم الشاعر :

عيون المها بين الرصافة والجزر جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى
وقد أحصى يعقوب (٣) طرق الرصافة ودروبها ، ووصف أسواقها وتجاراتها ؛ وقال إنه كان بها أربعة آلاف درب وسكة ، وخمسة عشر ألف مسجد ، وخمسة آلاف حمام ، إل

(١) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٢٤٠ - ٢٤٩ .

(٢) الطبري ج ٩ ص ٢٨٢ ، ابن الأثير ج ٥ ص ٢٨٦ .

(٣) كتاب البلدان ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

غير ذلك من الأقوال التي لا تخلو من المبالغة .

وقد قال صاحب كتاب حضارة الإسلام في دار السلام (١) :

« إن أهالي بغداد قد توسعوا في تعمير الجانب الشرق لمدينة بغداد المعروف بالرصافة ، فهبوا فيه القصور الرفيعة والمنازل المزخرفة ، واتخذوا الأسواق والجمامع والحمامات ، وتوجهت عنابة الرشيد والبرامكة إلى تزيينها بالنباتات العامة ، حتى أصبحت الزوراء (يعني بغداد) بجانبها كأنها البلد العتيق تجتمع محاسنه في جزء من محاسن المدينة التي أحدثت في جوارها . »

وقد بلغ اتساع بغداد والرصافة اتساعاً عظيماً ، حتى أصبحت أشبه بمدن صغيرة متلاصقة (٢) ، وأصبحت بغداد أم مدائن الشرق في ذلك العصر ، وبلغ عدد سكانها مليوني نسمة ، وازدهرت فيها الفنون المختلفة وانتشرت منها إلى سائر أنحاء العالم الإسلامي حتى ما كان منها متناهضاً للخلافة العباسية (٣)

٩ — الكرخ :

لم تزل الأسواق داخل مدينة بغداد ، حتى وفد على المنصور أحد بطارقة الروم ، فأمر حاجبه الربيع بن يونس أن يلطف به في المدينة ، ويصعد به إلى السور ، ويريه قباب الأبواب والطاقات ليرى ما عليه حاضرة خلافته من الأبهة والعمران . فلما مثل البطريق (٤) بين يدي المنصور ، سأله : كيف رأيت مدينتي ؟ فقال : « يا أمير المؤمنين : إنك بنيت بناء لم يبنه أحد كان قبلك ؛ وفيه ثلاثة عيوب :

« أما أول عيب فيه فبعده عن الماء ، ولا يد للناس من الماء لشفاهم ؛ وأما العيب الثاني فإن العين خضرة وتشتاق إلى الخضرة ، وليس في بنائك هذا بستان ؛ وأما العيب الثالث فإن رعينك معك في بنائك ؛ وإذا كانت الرعية مع الملك في بنائه فشا سره . »

وقف المنصور من ذلك على أوجه النقص في مدينته ، ولكنه لم يرد أن يعترف للبطريق بما فاتته من أخطاء في بنائها فقال له : أما قولك في الماء ، فحسبنا من الماء ما بل شفاها ؛ وأما

(١) ص ٩٢ — ٩٣ .

(٢) ذكر ياقوت في مسجده للدين التي تسمى الرصافة ؛ فيها رصافة البصرة ، ورصافة الشام ، وهي أكثر من مدينة ، منها رصافة نيسابور التي أعطها سليمان بن عبد الملك ابنه عبد العزيز له ، ورصافة هشام بن عبد الملك غرب الرقة ، وقيل لها الزوراء ، وكان يسكنها في الصيف ، ورصافة واسط وهي قرية بالعراق من أعمال واسط ، ورصافة أبي العباس السفاح بالأنبار ، ورصافة قرطبة التي بناها عبدالرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، ورصافة بغداد . وقد قال ياقوت باحثاً اشتقاق لفظ الرصافة من الرسف ، وهو ضم الفاء إلى الشيء كما يرصف البناء والمزارع .

(٣) ذكر محمد حسن : كنوز القاطنين ص ٨٢ ، ١٤٠ ، ١٦٨ .

(٤) البطريق : القائد من قواد الروم .

العيب الثاني فانا لم نخلق للهو واللعب ، وأما قولك في سرى فالى سر دون رضى ، . ولما خرج الطريق من قصره بثت أبو جعفر المنصور في طلب شمس وغلام وقال لها : مدا إلى قناتين من دجلة واغرسا لى العباسية وانقلا الناس إلى الكرخ (١)

وقد قام الربيع بن يونس ببناء الكرخ في سنة ١٥٧ هـ جنوبى المدينة المدورة (بغداد) من مال المنصور الخاص . وحولت إليها أسواق المدينة (٢) . وأوسع المنصور طرق بغداد حتى غدا اتساع كل منها أربعين ذراعا . ووضع تصميم بناء الكرخ على قطعة من القماش يحين عليها مواضع الأسواق ، كما عين موضع بناء جامع يصل فيه أهل هذه الأسواق ، حتى لا يدخلوا المدينة ، وعهد بالعمل إلى مولاة الرضاح . وأقرده لكل حرفة سوق خاصة كما هو الحال في المدن الكبيرة . وقد بنيت أسواق الكرخ في الجهة الجنوبية من بغداد بين الصراة ونهر عيسى (٣) لتكون مركزا للصناعة والتجارة ، حتى إذا أخذت بغداد في الاتساع صارت الكرخ في وسطها (٤) ، وأصبحت كما قال أبو عبد الله إبراهيم بن عرفة نطوبه :

سقى أربع الكرخ الفوايد بديعة وكل مثلك دائم المثل مسبل
منازل فيها كل حسن وبهجة وتلك لها فضل على كل منزل (٥)

وقد عنى المنصور عناية كبيرة بتنظيم مدينته ونظافة شوارعها وطرقها ؛ فكانت الرحاب تنكس كل يوم ، ويحمل التراب خارج المدينة . وكانت الروايا تدخل على ظهور البغال ، فرأى الخليفة أن ذلك لا يتفق وأبته حاضرة خلافته وروادها ، فأمر بتوصيل الماء إلى قصره .

١٠ - نفقات بناء بغداد :

لقد تطلب بناء بغداد كثيراً من النفقات ، لأن المنصور عمل على تحصينها تحصيناً متيناً لتعاكس الحواضر الكبيرة ، وخاصة القسطنطينية حاضرة الروم ، في العظمة والأبهة . فقد بلغت نفقات المدينة وما إليها من الأسوار والأبواب والقصر والجامع والأسواق والقباب والفصلان والخنادق وغيرها ٨٣٣,٠٠٠ درهم على رواية الطبرى ، وهو يعادل ٥٠٠,٠٠٠ دينار .

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٨ — ٧٩ ، ياقوت : معجم البلدان . أنظر لفظ بغداد .

(٢) أورد الطبرى (ج ١ ص ٢٦٢ — ٢٦٣) في نقل الأسواق إلى الكرخ سببا آخر هو ارتفاع السخان منها واسوداد حيطان بغداد مما ضايق الخليفة .

(٣) أمين زكى : عمران بغداد ص ١٠٨ .

(٤) يعقوبى : كتاب البلدان ص ٢٥٤ .

(٥) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٩ — ٨٢ .

أو ٢٠٠,٠٠٠ جنيه . وفي رواية أخرى للطبرى^(١) أن نفقات المدينة بلغت ١٨,٠٠٠,٠٠٠ دينار من الذهب ، وهو يعادل ٩,٠٠٠,٠٠٠ جنيه تقريبا . وعن الطبرى أخذ الخطيب البغدادي مع تعديل طفيف . ويرجح لي سترينج Le Strange الرواية الثانية ، ويستبعد أن تكون النفقات قد بلغت ١٦٠,٠٠٠ جنيه إذا لاحظنا مقدار ما بذل من النفقات في بناء المدينة وتنسيق بساطتها وحفر خلجانها وتشديد حصونها وغير ذلك مما يتطلب من المال أكثر من ٤٠٠,٠٠٠ ديناره أو ٢٠٠,٠٠٠ جنيه .

ونحن نرى أن في الرواية الثانية مبالغة ظاهرة ، إذا علمنا أن أبا جعفر المنصور كان حريصا على جمع المال ، كما كان أشد حرصا في إنفاقه . أضف إلى هذا رخص المعيشة في ذلك العصر رخصا يبرر هذا الرأي ، كما ذكرنا في الباب السادس الذي أفردناه لبحث الحالة الاقتصادية في العصر العباسي الأول . وكان المنصور يحرص في الاتفاق على البناء ، لأنه كان يغلب عليه الشغ ، حتى ضرب المثل بشحه وحرصه ، فسمى « أبا الدوائق » ، و « المنصور الدوائقي » ، لتشده في محاسبة المال والصناع على الحبة والدائق ، وهو مقدار لا يزيد على سدس درهم أى سبعة مئليات تقريبا .

١١ - ما قبل في وصف بغداد :

هكذا تأسست مدينة بغداد في عهد أبي جعفر المنصور ، وبقيت الى سنة ٦٥٦ هـ حين أخربها التار بقيادة هولاءكو . وقد لحق بها الخراب قبل القرن السابع الهجري مرتين : مرة في أثناء الفترة التي قامت بين الأمين والمأمون في أواخر القرن الثاني للهجرة ، ومرة ثانية حين أغار بنو بويه على بلاد العراق واستولوا على بغداد سنة ٣٣٤ هـ .

وقد أصبحت مدينة بغداد في العصر العباسي الأول أم المدائن ومركز التجارة ، وكمية العلوم والآداب ، ومعين الثروة والرخاء ، كما أصبحت مبانيها الفخمة ومتزاهتا الجميلة آية من آيات الفن . وفي ذلك يقول الجاسط : قد رأيت المدن العظام ، والمذكورة بالانغان والإحكام ، بالشامات وبلاد الروم ، وفي غيرهما من البلدان . فلم أر مدينة قط أرفع سمكا ، ولا أجود استدارة ، ولا أنبل نبلا ، ولا أوسع أبوابا ، ولا أجود فصيلا من الزوراء ، وهى مدينة أبي جعفر المنصور ، كأنما صبت في قالب ، وكأنما أمرغت إفرانغا^(٢) .

وما جاء في مدح بغداد : « بغداد جنة الأرض ، ومدينة السلام ، وقبة الإسلام ، وجمع

(١) ج ٩ ص ٢٦٣ .

(٢) الخطيب البغدادي ج ١ ص ٧٧ .

الرافدين ، وغرة البلاد ، وعين العراق ، ودار الخلافة ، ومجمع المحاسن والطيبات ، ومعدن الطرائف والطائف . وبها أبواب الغايات في كل فن ، وآحاد الدهر في كل نوع ، . وكان أبو إسحق الإرجاج يقول : بغداد حاضرة الدنيا وما عداها بادية (١) .

وقد وصف عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير بغداد في هذه الآيات :

مماثل بغداد في الدنيا ولا الدين على تقليبها في كل ماحين
ما بين قطر بل فالكرخ نرجسة تندى ومنبت خيري ونسرين
سقى تلك القصور الشاهقات وما تنجني من البقر (٢) الأنسية العين
مناظر ذات أبواب مفتحة أنيقة برخارف وتزيين
فيها القصور التي تهوى بأجنحة بالزائرين إلى القوم المزورين
من كل حراقة تملو فقارتها قصر من الساج عالي ذو أساطين
وقال طاهر بن المظفر بن طاهر الخازن :

سقى الله سقى الغاديات محلة ببغداد بين الخلد والكرخ والجسر
هي البلدة الحسناء خصت لأهلها بأشياء لم يجمعن مذكن في مصر
هواء رقيق في اعتدال وصحة ومائه له طعم ألد من الحمرة
ودجلتها شيطان قد نظا لنا بتاج إلى تاج وقصر إلى قصر
تراها كسك والمياه كفضة وحصاؤها مثل البواقيت والدر

(ب) سامرا :

ذكرنا في الباب الثالث عند كلامنا على ازدياد نفوذ الأتراك أن المتصم اعتمد عليهم واتخذهم حرساً له ، وأسند إليهم مناصب الدولة ، وأن نفوذهم قد تنافس ، فأذوا أهل بغداد الذين شكوا منهم إلى المتصم وقتلوا جماعة منهم . فعزم على الرحيل من بغداد ، واتخاذ موضع يبنى فيه حاضرة جديدة تسع جنده ، وبذلك يتقوى شر أهل بغداد . فتدب أحد رجاله لاختيار موضع كان أبو العباس السفاح قد شرع في بناء مدينة جديدة فيه ، ثم جاء هارون الرشيد فبنى بجذاتها قصراً وحفر عندها نهراً سماه القاطول ، ثم بنى المتصم في ذلك المكان قصراً وحبه لمولاه آشتان القائد التركي المشهور .

(١) معجم البلدان لياقوت . لفظ بغداد .

(٢) المراد النساء التي تلبس بقر الوحش في حسن التزيين وسعها .

ولما شكأ أهل بغداد من عنت هؤلاء الأتراك وعسفهم ، فكر في هذا المكان الذي فيه قصره ، فبنى عنده مدينة « سامرا » حاضرة خلافته الجديدة ، وتقع شرق دجلة ، على مسيرة ثلاثة أيام من بغداد ، وتبعد عنها ستين ميلا من ناحية الشمال .

وقد ذكر ياقوت (١) في سبب اختيار موضع سامرا ، أن المعتصم أعطى وزيره أحمد ابن خالد الكاتب (سنة ٢١٩ هـ) خمسة آلاف دينار ، وأن هذا الوزير قصد ذلك الموضع ، وأبتاع ديرا للتصاري بخمسة آلاف درهم ، وبستانا بجواره بخمسة آلاف درهم ، كما ابتاع بعض الأراضي والدور المجاورة لذلك الموضع . ثم أطلع الوزير الخليفة المعتصم على عقود البيع ، فخرج إلى هذا المكان في أواخر سنة ٢٢٠ هـ ، ونزل في المضارب التي أقيمت على شاطئ نهر القاطول . ثم قصد موضع سامرا ، وأقام فيه ثلاثة أيام طلبا للصيد ، فأعجبه هواؤه وتربته ، كما أعجبه موقعه ، لأنه يسهل منه الوصول إلى بغداد برا وبحرا إذا خرج أهلها عن طاعته .

شرع المعتصم في تخطيط حاضرتة الجديدة في سنة ٢٢١ هـ ، فوضع أساس قصره ، وأحضر الفعلة والصناع وأرباب المهن من سائر الأمصار الإسلامية ، وجعل للأتراك قطائع خاصة بهم ، كما جعل قطائع أخرى لغلمانهم من أهل خراسان — وكانوا يسمون الأشروسية — وجعل قطائع لأهل الحوف في مصر ، وكان يطلق عليهم « المغاربة » ؛ وأفرد للتجار وأرباب الحرف والصناعات أسواقا خاصة بهم ، ونقل إلى هذه المدينة الأشجار والثمار ، وشيد في طرفها مسجداً جامعاً . ونزل أشتاس وغيره من القواد كرخ سامرا .

هكذا تم بناء سامرا التي قصدتها الناس من كل صوب وحذب ، وشيدوا فيها المباني الشاهقة ، حتى أصبحت من أحسن مدن ذلك العصر .

وقد سمي لنا ياقوت (٢) في « معجمه » سبعة عشر قصرا بناها المعتصم والمتوكل في مدينة سامرا ، وكانت هذه القصور نموذجاً للقصور التي بنيت فيما بعد في البلاد الواقعة بين بخارى شرقاً وقرطبة غرباً (٣) . وذكر أن هذه المدينة لما عمرت ، أطلق عليها اسم « سرور من رأى » ، ثم اختصر الاسم فقليل « سر من رأى » . ولما خربت واستوحشت سميت « سام من رأى » ، ثم اختصرت فقليل « سامرا » .

(١) كتاب معجم البلدان : أظفر لفظ سامرا .

(٢) أظفر لفظ سامرا في معجم البلدان لياقوت .

(٣) بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية (ترجمة حمزة طاهر) ص ٥٣ .

وذكر المسعودى (١) في سبب تسمية سامرا بهذا الاسم ، أنها مدينة سام بن نوح ، وقال ياقوت في دمعمه ، إن سام بن نوح بنى هذه المدينة فنسبت إليه ، وسميت « سام راه » بالفارسية ، وأن سام بنها ودعا أن لا يصيب أهلها سوء ، فأراد السفاح أن يبنها ، فبنى مدينة الأنبار بمخاضها . ولما تم بناؤها سميت « سرور من رأى » . وقال ثابيل (٢) « إن أحيان Ammian ذكر هذه المدينة في عبارته التي وردت عن تقيته جوفيان Jovian باسم Castellum Sumere . ويظهر أن هذه التسمية العلوية التي أطلقت على مدينة المنعص صلة اشتقاقية بهذا الاسم القديم .

وقد وصف الحسين بن الضحاك مدينة سامرا وفتحها على بغداد في هذه الآيات :

سر من را أسر من بغداد . فثأله عن بعض ذكرها المتباد
حبذا مسرحها ليس يخطر أبدا من طريدة وطراد
ورياض كاتما نشر الزهر سر عليها عجب الأبراد
واذكر المشرف المظلل من التل على الصادين والوراد
وإذا رنح الرعاء فلا تفر من رواحي فراقدا الأولاد

ويقول أيضا :

على سر من را والمصيف تحية مجلة من مغرم بهواهما
ألا هل لشتاق ببغداد رجعة تقرب من ظليهما وذراهما
محلان لقي الله خير عباد عزيمة رشد فهما فاصطفاهما
وقولا لبغداد إذا ماتنسمت على أهل بغداد جعلت فداهما
أق بعض يوم شب عني بالقذى حوروك حق را بنى ناظر اهما (٣)

وليك بعض ما قاله ابن المعتز في وصف سامرا :

« إنها وإن جتمست مشوقة السكنى وحبيبة المثنوى ، كوكبها يقظان ، وجوها عريان ، وحماها جوهر ، ونسيمها معطر ، وزاها مسك أذفر ، ويومها غداة ، وليلها سحر ، وطعامها هنيء ، وشرابها مريء ، وتاجرها مالك ، وبقيرها فاتك » .

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥٠

(٢) Weil : Geschichte der Chalfen , vol . II , p. 302 n.

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، أنظر لفظ بغداد .

وقد احتفظت مدينة سامرا برواتها وبهاثها منذ بنيت في عهد الخليفة المعتصم سنة ٢٢١ هـ إلى نهاية خلافة المعتضد العباسي سنة ٢٨٩ هـ؛ ثم سارع إليها الخراب، ولم يبق فيها إلا قبر على الهادي الإمام العاشر، والسرخاب الذي اختفى فيه محمد المنتظر، وهو الإمام الثاني عشر عند طائفة الإمامية الاثنا عشرية، وقبور الخلفاء العباسيين الواثق والمتوكل والمنتصر والمعز والمعتدي والمعتمد.

وقد وصف ياقوت المتوفى في أوائل القرن السابع الهجري أطلال سامرا كما شاهدها، فقال:
« وسائر ذلك خراب يستوحش الناظر إليها ، بعد أن لم يكن في الأرض كلها أحسن منها ،
ولا أجمل ولا أعظم ، ولا آنس ولا أوسع ملكا منها . فسبحان من لا يزول ولا يحول . » وفي ذلك يقول ابن المعتز :

قد أقرت سر من را	وما لشيء دوام
فالتقص يحمل منها	كأنها آجام
ماتت كما مات فيل	تسل منه المظالم

الباب الثاني

الحالة الاجتماعية

يقصد بالحالة الاجتماعية في بلد من البلاد ، ذكر طبقات المجتمع في هذا البلد من حيث الجنس والدين ، وعلاقة كل من هذه الطبقات بعضها ببعض ، ثم بحث نظام الأسرة وحياة أفرادها وما يتمتع به كل منهم من الحرية ، ثم وصف البلاط ومجالس الخلفاء ، والأعياد والمواسم والولائم والحفلات ، وأما كن الزمة ، ووصف المنازل وما فيها من أثاث وطعام وشراب ولباس ، وما إلى ذلك من مظاهر المجتمع .

١ — طبقات الشعب :

كان الخلفاء الأمويون يعتمدون على العنصر العربي ، الذي كان يكون السواد الأعظم من أفراد الشعب في بلاد الشام . فلما ظهرت الدولة العباسية بمساعدة الفرس ، وتحول مركز هذه الدولة إلى بلاد العراق ، ساد العنصر الفارسي ، واعتمد الخلفاء العباسيون على الفرس دون العرب ، وأستندوا إليهم المناصب المدنية والعسكرية . ومن ثم قامت المنافسة بين العرب والفرس ، حتى جاء المنتصم — وكانت أمه تركية — فاعتمد على العنصر التركي واتخذهم حرسا له ، وأستند إليهم مناصب الدولة ، وقلدتهم ولاية الأقاليم البعيدة عن مركز الخلافة ، بل أخرج العرب من ديوان المطاء ، وأحل محلهم الترك ، لحقد عليهم العرب والفرس جميعا .

ولم يقتصر الصراع على ما كان بين العرب والفرس والترك ، بل تعداه إلى قيام المنافسة بين العنصر العربي نفسه : فاشتعلت نيران العصية بين عرب الشمال المضربين ، وعرب الجنوب الجيئين ، حتى إن نقل المنصور جنوده إلى الكرخ جنوب بغداد ، كان نتيجة قيام روح العصية بين بعض العرب وبعض . فقد ذكر الطبري (١) أن قثم بن عباس دخل على المنصور ، وكان شيخا ذا رأي وحزم ، فقال له المنصور : أما ترى يا قثم ما نحن فيه من التباث والجند علينا ؟ قد خفت أن تجتمع كلمتهم ، فيخرج هذا الأمر من أيدينا ، فما ترى ؟ قال : يا أمير المؤمنين !

غدى رأى لو أظهرته لك فسد ، وإن تركتني أمضيه ، صلت لك خلافتك ، وهابك جندك ، فقال له : أقمضني خلافتي أمراً لا تملني ما هو ؟ فقال له : إن كنت عندك منهما على دولتك فلا تشاورني ، وإن كنت مأموناً عليها ، فدعني أمضى رأيي ، فقال : فأمنه . فانصرف قثم إلى منزله ، فدعا غلاماً له فقال له : إذا كان غداً ، فتقدمي ، فاجلسي في دار أمير المؤمنين . فاذا رأيته قد دخلت وتوسطت أصحاب المراتب فخذ بعنان بغلي ، فاستوقني ، واستحلفني بحق رسول الله ، وبحق العباس ، وبحق أمير المؤمنين ، لما وقفت لك وسمعت مسألتك وأجبتك عنها ، فاني سأتهرك ، وأغلظ لك القول ، فلا يهولك ذلك مني ، وعادوني بالمسألة ، فاني سأشتبك ، فلا يردعك ذلك ، وعادوني بالقول والمسألة ، فاني سأحربك بسوطي ، فلا يشق ذلك عليك ، فقل لي : أي الحسين أشرف : الحسين أم مضر ؟ فاذا أجبتك ظل عنان بغلي وأنت حر . فغداً الغلام يجلس حيث أمره . فلما جاء الشيخ ، فعل الغلام ما أمره به مولاه ، وفعل المولى ما كان قد قال له ، ثم قال له : قل ا فقال : أي الحسين أشرف : الحسين أم مضر ؟ فقال قثم : مضر ، كان منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيها كتاب الله عز وجل ، وفيها بيت الله ، ومنها خليفة الله . فامتعضت العين ، إذ لم يذكر لها شيء من شرفها ، فقال له قائده من قواد العين : ليس الأمر كذلك مطلقاً بغير شرف ولا فضيلة اليمن ، ثم قال للغلام : قم فخذ بعنان بغلة الشيخ ، فأكبها كبها عنيفاً ثبطاً من به منه . ففعل الغلام ما أمره به مولاه ، حتى كاد أن يثقيمها على عراقيها ، فامتعضت من ذلك مضر فقالت : أيفعل هذا بيشيخنا ؟ فأمر رجل منهم غلامه فقال : أقطع يد العبد ، فقام إلى الغلام البياض فقطع يده ، فنفر الحيان ، وصرف قثم بغلته ، فدخل على أبي جعفر ، واقترق الجند ، فصارت مضر فرقة ، والعين فرقة ، والحراسانية فرقة ، وريبعة فرقة .

من ذلك نرى أن الشعب كان يتكون في العصر العباسي الأول من العرب ، وعلى الأخص الحضريين والعينيين ، ثم من الفرس ، وخاصة الحراسانيين الذين ساعدوا على قيام الدولة العباسية ، والترك ، وعلى الأخص منذ أيام المعتصم ، والمغاربة وغيرهم . وكان المسلمون ينقسمون إلى سنيين وشيعيين . ولم يخذم النزاع بينهم طوال العصر العباسي الأول ، بل تطور أطواراً مختلفة ، نراها في الثورات التي أذكى نيرانها محمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم في عهد أبي جعفر المنصور ، والحسين بن علي في عهد الهادي ، ويحيى وإدريس ابنا عبد الله بن الحسن في عهد هارون الرشيد .

ومن طبقات الشعب في ذلك العصر أهل الذمة ، وهم النصارى واليهود ، وكانوا يتمتعون بكثير من ضروب التسامح الديني ، حتى إننا نرى ببغداد كثيراً من الأديار ، نخص بالذكر منها

دير العذارى ، وكان في قطعة النصارى على نهر الدجاج ، ودير درمايس الذى وصفه الشابيشتى فى كتابه الديارات ، ، وكان به البساتين الكثيفة الأشجار ، ويقصده الناس للزفة وانشاء الهوا ، ودير الروم شرق بغداد ، الذى أشار أحد رهبانه على أبى جعفر المنصور ببناء مدينته فى هذا الموضع ، وكان خاصا بالنسطوريين . وكان النصارى واليهود يقيمون شعائرهم الدينية فى أديارهم ويجمعهم خارج مدينة بغداد فى أمن ودعة ، مما يدل على أن الخلفاء العباسيين كانوا على جانب عظيم من التسامح الدينى مع أهل الذمة .

وقد أوجدت الحاجة إلى المعيشة المشتركة وما ينبغى أن يكون فيها من وفاق بين المسلمين واليهود والنصارى نوعا من التسامح ، ولم تتدخل الحكومة الإسلامية كذلك فى شعائر أهل الذمة ، بل كان يبلغ من تسامح بعض الخلفاء أن يحضر مواعيدهم وأعيادهم ويأمر بصياتهم .

وكانت الطوائف الدينية منفصلا بعضها عن بعض تمام الانفصال ، وكان لا يجوز للمسلم أن يتهود ، ولا لليهودى أن يتنصر ؛ واقتصر تغير الدين على الدخول فى الإسلام . ولم يكن النصرانى يرث اليهودى ، ولا اليهودى يرث النصرانى ، كما لم يكن اليهودى أو النصرانى يرث المسلم ، ولا المسلم يرث غير المسلم . يهوديا كان أو نصرانيا . ولم يكن فى المدن الإسلامية أحياء مخصصة لليهود والنصارى بحيث لا يتعدونها ، وإن كان أهل كل دين قد أثروا أن يعيشوا متقاربين .

وكان الشعب يتألف فى العصر العباسى الأول من أربعة عناصر رئيسية هى : العرب ، والفرس ، والآتراك ، والمغاربة . فلما قامت الدولة العباسية بمساعدة الفرس ، اعتمد الخلفاء عليهم وأهلوا العرب الذين تقموا على الفرس وأشعلوا نيران الثورات ، حتى قامت بين الأمين والمأمون هذه الفتنة التى كانت فى حقيقة الأمر انتصارا للفرس على العرب . ولما ولى المعتصم الخلافة ، ظهر المعتصم التركى على مسرح السياسة ، واتخذ هذا الخليفة حرسا له ، وأسند اليهم مناصب الدولة ، وأقصى العرب من ديوان العطاء . وأدى ظهور العنصر التركى إلى إخماد نار الخصومة بين الفرس والعرب حينما ، وبين الملوين والعباسيين حينما آخر ، لأن ذلك العنصر استأثر بالنفوذ دون الفريقين . وإن الثورات التى أشعل نارها بابلك الحفرى والمازيار والأفشين فى أواخر العصر العباسى الأول لتبين لنا مبلغ سخط الفرس على العرب والآتراك والمغاربة ، كما يظهر ذلك من قول الأفشين للمازيار ، يستحثه على مساعدته فى ثورته التى كانت ترمى من وراء ذلك إلى إعادة السلطان إلى الفرس : « فإن خالفت لم يكن للقوم من يزموك به غيرى ، ومعى الفرسان وأهل النجدة والبأس . فإن ومجبت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة : العرب والمغاربة والآتراك . والعرب بمنزلة الكلب ، اطرح له كسرة واضرب رأسه باللبوس ،

وهؤلاء الذئاب، يعنى المغاربة، إمام أكلة رأس. وأولاد الشياطين، يعنى الأتراك، فأنما هى ساعة حتى تنفذ سهامهم، ثم تهمول الخيل عليهم جولة فتأتى على آخرهم، ويعود الدين إلى مالم يزل عليه أيام المعجم^(١).

وكان الرقيق يكونون طبقة كبيرة من طبقات المجتمع الإسلامى فى العصر العباسى الأول، إذ كان اتخاذ الرقيق منتشرأ انتشارأ كبيرأ، وكانت سمرقند التى كانت تعد من أكبر أسواق الرقيق، بيئة صالحة جدا لتربية الرقيق المجلوب من بلاد ما وراء النهر، كما كان أهلها يتخذون ذلك صناعة لهم يعيشون منها^(٢). ولم ينظر الخلفاء العباسيون إلى الرقيق نظرة امتنان وازدراء، بدليل أن كثيرين منهم كانت أمهاتهم من الرقيق. وقد أولع الخلفاء وكبار رجال الدولة باتخاذ الإماء من غير العرب، حتى إنهم كانوا يفضلونهن أحيانا على العرييات الحرات. وقد أشاد الخطيب البندادى^(٣) بوصف أهل العراق، مركز الخلافة العباسية وقلبها النابض فى العصر العباسى الأول فى هذه العبارة الشائقة، وأطنب فى ذكائهم ومحاسنهم وأدبهم وخلقهم فقال: «إن العراق الذى بنيت فيه بئداد، هى صفوة الأرض ووسطها، يحيط به ستة أقاليم هى: بلاد الترك، والهند، والصين، والشام، والحجاز، ومصر. لذلك اعتدلت ألوان أهلها، وامتدت أجسامهم، وسلبوا من شقرة الروم والصفالية، ومن سواد الجيش وسائر أجناس السودان، ومن غلظة الترك، ومن جفاء أهل الجبال وخراسان، ومن دمامة أهل الصين ومن جانبهم وشا كل خلقهم، فسلبوا من ذلك كله. واجتمع فى أهل هذا القسم من الأرض محاسن جميع أهل الأنظار، بلطف من المزج القهار. وكما اعتدلوا فى الخلقة، كذلك لطفوا فى القطة، واتمسك بالعالم والأدب ومحاسن الأمور.

٢ - مجالس الغناء والطرب:

(١) مراتب الندماء:

انفسم العباسيون فى الترف والبلخ بزيادة العمران وتدفق الثروة. وكانت قصور الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة مضرب المثل فى حسن روتقها وبهائها، كما امتازت بفخامة بنائها وأناسها وما يكتنفها من حدائق غناء وأشجار متكاثفة، كما ازددت بالمناضد الثمينة والإهريات الخزفية والترييمات المرصمة والمذهبة. وكان العباسيون يتفوقون عن سعة فى سبيل رفاهيتهم،

(١) أنظر ص ١٠٤ من هذا الكتاب.

(٢) متر: الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٢٦٨.

(٣) تاريخ بئداد: ج ١ ص ٢٢ - ٢٣.

ويعيشون عيشة قوامها البذخ والإسراف وحب الظهور . وحفلت قصور الخلفاء والأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة بالمغنين والموسيقين ، كما كانت مجالس الخلفاء آية من آيات الروعة والجمال .

وقد أخذ العباسيون نظام مجالسهم عن الفرس . وقد وصف الجاحظ في كتابه « التاج في أخلاق الملوك » في باب المنادمة ، هذه المجالس في عهد أردشير بن بابك ، فقال إنه كان أول « من رتب الندماء » وأخذ بزمام سياستهم ، لمعلمهم ثلاث طبقات :

فكانت الأساورة^(١) وأبناء الملوك في الطبقة الأولى ، وكان مجلس هذه الطبقة من الملك على عشرة أذرع من الستارة .

ثم الطبقة الثانية ، كان مجلسها من هذه الطبقة على عشرة أذرع ، وهي بطانة الملك وندماؤه ومحدثوه من أهل الشرف والعلم .

ثم الطبقة الثالثة ، كان مجلسهم على عشرة أذرع من الثانية ، وهم المضحكون وأهل المزول والبطالة . غير أنه لم يكن في هذه الطبقة الثالثة خسيس الأصل ولا وضيعه ، ولا ناقص الجوارح ولا فاحش الطول والقصر ، ولا مؤوف^(٢) ولا مرمى بأبنة ، ولا مجهول الأبوين ولا ابن صناعة دنيئة كابن حائك أو حجام ، ولو كان يعلم الغيب مثلاً . . .

وكان الذي يقابل الطبقة الأولى من الأساورة وأبناء الملوك أهل الحذاقة بالموسيقىات والأغاني ، فكانوا يازاء هؤلاء نصب خط الاستواء .

وكان الذي يقابل الطبقة الثانية من ندماء الملك وبطانته الطبقة الثانية من أصحاب الموسيقىات .

وكان الذي يقابل الطبقة الثالثة من أصحاب الفكاهات والمضحكين ، أصحاب الونج والمعازف والعنانير . وكان لا يوزر الخافق من الزامرين إلا على الخافق من المغنين ، وإن أمره الملك بذلك ، واجمه واحتج عليه^(٣) .

ولما قامت الدولة العباسية كان أبو العباس السفاح يظهر للندماء في مجلسه ثم احتجب عنهم ، كما كان يظهر سروره وابتهاجه لندمائه ومتنبه ويمثمهم العطايا والصلوات ويقول^(٤) : « والعجب

(١) الأسوار جميعا أساورة ثم الفرسان .

(٢) مصاب بأفة .

(٣) الجاحظ : كتاب التاج في أخلاق الملوك ص ٢٥ - ٢٦ .

أنظر أيضا المسعودي : مروج الذهب ج ١ ص ١٥١ ومايليها .

(٤) الجاحظ : كتاب التاج ص ٢٣ .

من يُفزع إنسانا فيتعجل المرور ، ويجعل ثواب من سره تسويفاً وعدة . فكان في كل يوم وليلة يقعد فيه لشغله لا يتصرف أحد من حضره إلا مسروراً . ولم يظهر أبو جعفر المنصور لتدبير قط ، ولم يره أحد يشرب غير الماء ، كما كان لا يثيب أحداً من ندمائه . وكان المهدي يسمع الغناء ، وكان أصحابه يشربون عنده التثيب رغم أنه لم يكن يشربه (١) .

وقد احتجب المهدي في أول أمره عن الندماء عاما كاملا تشبها بأبيه المنصور ، ثم ظهر لندمائه وأجزل لهم العطايا والمنح . وكان الهادي يحب الغناء وطرب له . وقد قرب إليه من المغنين ابن جامع الذي حلق فن الغناء ، وإبراهيم الموصلي الذي ضرب في الغناء بسهم وافر ، والزبير ابن دحان والغنوي . وقد ذكر الطبري (٢) أن الهادي كان يشتبه من الغناء الوسط الذي يقل ترجمه ولا يبلغ أن يستخف به جدا . وكان إذا أعجبه الغناء وطرب قال لمغنييه : أحسنت أحسنت ، وبكثر له العطاء حتى يبلغ أحيانا ألف ألف درهم .

(ب) مجلس الغناء في عهد الرشيد :

وقد فاق هارون الرشيد الخلفاء العباسيين في ولوعه بالغناء والموسيقى ، وإجزاله العطاء للمغنين والموسيقين . وهو من بين خلفاء بني العباس من جعل للمغنين مراتب وطبقات على نحو ما وضعهم أودشير بن بابك وأوشروان ، فكان إبراهيم الموصلي و [وإسماعيل أبو القاسم] ابن جامع وزلول [منصور الضارب] في الطبقة الأولى . وكان زلول يضرب ، ويفنى هذان عليه (٣) .

وقد نبغ في عهد الرشيد كثير من المغنين والموسيقين . يدل على ذلك هذا الحديث الذي دار بين الرشيد وأحد الموسيقيين : وكان منصور زلول من أحسن وأحذق من برأ الله بالجلس . فكان إذا جلس العود ، فلو سمعه الاحنف من تحالم في دهره كله ، لم يملك نفسه حتى يطرب (٤) . وكان زلول ممن يضرب به المثل في حسن الضرب بالعود ، واشتهر في أيام المهدي والهادي والرشيد . وقد أنشأ في بغداد بركة ووقفها على المسلمين ، فاشتهرت باسمه وأكثر الشعراء من ذكرها ، وفيها يقول نفعويه النحوي :

لو أن زهيرا وامرا القيس أبصرا ملاحه ماتحويه بركة زلول

(١) اللغوى ص ١٦٧ .

(٢) ج ١٠ ص ٤٦ .

(٣) الملاحظ : كتاب التاج ص ٣٧ — ٣٨ .

(٤) المصدر نفسه ص ٣٩ .

لما وصفا سألني ولا أم نجشذب ولا أكثر ذكري الدخول لمومل (١).

وإذا أجاد أحد المثنين أو الموسيقين أمر الخليفة بترقيته إلى الرتبة التي تلو رتبته. فقد ذكر صاحب كتاب التاج (٢) أن رصوما الزامر أعجب الرشيد مرة، وكان في الطبقة الثانية، وفطرب الرشيد يوما لزمرة، فقال له صاحب الستارة يا إسحاق! أزمع على غناء ابن جامع، قال: لا أفعل، قال: يقول لك أمير المؤمنين ولا تفعل؟ قال: إن كنت أزمع على الطبقة العالية رفعت إليها. فأما أن أكون في الطبقة الثانية وأزمع على الأولى، فلا أفعل! فقال الرشيد لصاحب الستارة: ارفعه إلى الطبقة الأولى، فإذا قمت قادف البساط الذي في مجلسهم إليه، فرفع إسحاق إلى الطبقة العالية وأخذ البساط، وكان يساوي ألني دينار. فلما حله إلى منزله استبشرت به أمه وإخواته. وكانت أمه نبطية لكثاء، فخرج برصوما عن منزله لبعض حوائجه، وجاء نساء جيرانه يهنئنه بما خص به دون أمهاته ويدعون لها. فأخذت سكينا وجمعت تقطع لكل من دخل عليها قطعة من البساط، حتى أتت على أكثره. فجاء برصوما فإذا البساط قد تقسم بالسكاكين فقال: وبلك ما صنعت؟ قالت: لم أدر ظننت أنه كذا يقسم؛ لحدث الرشيد بذلك فضحك وهب له آخر.

ومن نبع في الغناء في عهد الرشيد مسكين المدنى، ويعرف بأبى صدقة. وقد روى المسعودى (٣) قصة هذا المغنى الذى وصف فيها حياته، وكيف تبدلت حاله من حائك رقيق الحال إلى من رفيع القدر، وكيف أخذ الغناء عن إحدى الجواري، وكيف كان لفن الغناء مكان ملحوظ بين الفنون في العصر العباسى، فقال: «جمع الرشيد ذات يوم المغنين، فلم يبق أحد من الرؤساء إلا حضر، وكنت فيهم. وحضر معنا مسكين المدنى، ويعرف بأبى صدقة، وكان يوقع بالقتضيب مطبوعا حاذقا، طيب العشرة مليح البادرة. فاقترح الرشيد وقد عمل فيه التبيذ صوتا، فأمر صاحب الستارة ابن جامع أن يغنيه ففعل، فلم يطرب عليه. ثم فعل مثل ذلك بجماعة من حضر فلم يحرك منه أحد. فقال صاحب الستارة لمسكين المدنى: يا مارك! أمير المؤمنين إن كنت تحسن هذا الصوت ففنه، قال إبراهيم: فاندفع فننا، فأمسكنا جميعا متعجبين من جراءة مثله على الغناء بمحضرتنا في صوت قد قصبرنا فيه عن مراد الخليفة. فلما فرغ منه سمعت الرشيد يقول: يا مسكين! أعاده بقوة ونشاط، فقال أحسنت وأجملت، وزفعت الستارة بيننا وبينه. قال مسكين: يا أمير المؤمنين! إن لهذا الصوت خبرا، قال: وما هو؟ قال كنت

(١) كتاب التاج ص ٣٨ (٢)

(٢) ص ٤١ .

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

عبداً خباطاً لبعض آل الزبير ، وكان لمولاي على هزبية أدفع إليه كل يوم درهمين ، فإذا دفعت هزبيتي تصرفت في حوائجي ، نطقت يوماً قيصاً لبعض الطالبين فدفع الى درهمين ، وتغدبت ، وسقاني أقداحاً . فخرجت وأنا جذلان فلقيتي سوداء على رقبتهما جرة وهي تنقي هذا الصوت ، فأذعن لي عن كل مهم ، وأنساني كل حاجة ، فقلت : بصاحب هذا القبر والمنبر ألا ألقيت على هذا الصوت ؟ فقالت ، وحق صاحب هذا القبر والمنبر لا ألقيته عليك إلا بدرهمين ؛ فأخرجت الدرهمين فدفعتهما إليهما ، فأنزلت الجرة عن عاتقها واندفعت ، فزالَت تردده حتى كأنه مكتوب في صدرى . ثم انصرفت إلى مولاي ، فقال لي ألم خراجك ، فقلت كان وكان ، فقال يابن اللغناء ، وطلعتي وضررتي وحلق طبعتي ورأسي . فبت بأمر المؤمنين من أسوأ خلق الله حالاً وأنيت الصوت بما نالني . فلما أصبحت غدوت نحو الموضع الذي لقيتها فيه ، وبقيت متحيرة لا أعرف اسمها ولا منزلها ، إذ نظرت بها مقبلة فأنسيت كل ما نالني ، وملت إليها فقالت : أنسيت الصوت ورب الكعبة ؟ فقلت الأمر كما ذكرت ، وعرفت ما مر بي من حلق الرأس واللحية فقالت : وحق القبر ومن فيه لأفعلتُ إلا بدرهمين . فأخرجت جلي (١) وودعته على درهمين ، فدفعتهما إليهما . فأنزلت الجرة عن رأسها واندفعت ، فرت فيه ثم قالت : كأي بك مكان الأربعه دراهم أربعة آلاف دينار . ثم انصرفت إلى مولاي وجلا فقال : ألم خراجك ، فلويت لساني ، فقال يابن اللغناء : ألم يكفك ما مر عليك بالأمس ؟ فقلت إني أعرفك أي اشتريت بخرائجي أمس واليوم هذا الصوت ، واندفعت أغنيه ، فقال لي : ويحك ! مملك مثل هذا الصوت ولم تملني ؟ أمراًته طالق لو كنت قلته أمس لاعتقك . فضحك الرشيد وقال : ويلك ! ما أدري أيما أحسن حديثك أم غثاؤك ؟ وقد أمرت لك بما ذكرته السوداء ، فقبضه وانصرف ، والشعر :

قف بالمتنازل ساحة فتأمل فسوف أحمل اللبلى في عمل

وكان هارون الرشيد يقدر الندماء والمغنين والموسيقين ، حتى إنه لم يجمع — كما يقول صاحب الفخرى (٢) — على باب خليفة من العباء والشمره ، والنفقاء والقراء ، والقضاة ، والكتاب والندماء والمغنين ، ما يجمع على باب الرشيد . وكان يصل كل واحد منهم أهول صلة ، ويرضه إلى أعلى درجة .

ولا غرو فقد ازدهرت الموسيقى في العصر العباسي ، بفضل اهتمام الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة ، الذين عملوا على رفع شأنها . وكثيراً ما كانت الأميرات وسيدات الطبقة

(١) الجلم : اللبس .

(٢) ص ١٧٧ — ١٧٨ .

الراقية في بغداد يشتركن في حفلات موسيقية خاصة (١).

ومن أشهر المغنين الذين حظوا برضاء بعض الخلفاء العباسيين ، إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق ، وكانا من رجال الأدب ، إلا أن الفناء قد غلب عليهما بما وضعاهما من الألحان . وقد أبدع إبراهيم الموصلي في تسويق الألحان ، حتى توم أن الأرواح هي التي تعلمه الأصوات (٢) . ويقول بعض الشعراء في مدحه (٣) :

ما لإبراهيم في العلم م بهذا الشأن ثاني
إنما عمر أبي إس حاق زينة الزمان
جنة الدنيا أبو إس حاق في كل مكان
منه يحيى نمر الله و وزيمان الجنان

ولما أفضت الخلافة إلى هارون الرشيد ، وفوض شئون الدولة ليعبي بن خالد البرمكي ، ودفع إليه خاتمه ، أنفذه إبراهيم الموصلي :

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة فلما وكل هارون أشرق نورها
ييمن أمين الله هارون في الندى فهارون والبا ويحيى وزرها (٤)

(١) سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب ص ٢٩١ - ٢٩٢ .

(٢) ولم يكن إبراهيم الموصلي وحده متأثراً بهذا المصير ، بل ورثه عنه ابنه إسحاق . فقد ذكر المسمودي (ج ٢ ص ٢٧٧ - ٢٧٨) أن إسحاق قال : بينا أنا ذات ليلة عند الرشيد أغنيه ، إذ ضرب لثاني وقال لا تبرح . ولم أزل أغنيه حتى نام ، فأمسكت ووضعته السود من جبري وجلست مكان ، فإذا شاب حسن القد عليه ماعطيات خز وهيبة جميلة ، فدخل وسلم وجلس . فجلت أعجب من دخوله في ذلك الوقت إلى ذلك الموضع بغير استئذان ، ثم قلت في نفسي : متى يرض ولد الرشيد من لا تعرفه ولم تره ؟ فضرب يده على العود ، فأخذه ووضعته في حجره وجسه ، فرأيت أنه حبس أحسن خلق الله ، ثم أصلحه إصلاحاً ما أدرى ما هو ، ثم ضرب ضرباً ، فأسمت أدنى أجود منه ، ثم اندفع ينني :

ألا هلالي قبل أن تنفروا وهات اسقي صرفاً شرباً مروفاً
فقد كادضوء الصبح أن يفضح الدجى وكاد قيس الليل أن يتزقا

ثم وضع العود من حجره وقال : إذا غنيت فنن هكذا . ثم خرج فقامت على أثره ، فقلت للحاجب : من التي التي خرج الساعة ؟ فقال : ما دخل هنا أحد ولا خرج ، فقامت مصعباً ورجعت إلى مجلسي ، واتبته الرشيد فقال ما شأنك ؟ فحدثته بالقضية ، فبقي مصعباً وقال : لقد صادفت شيطاناً ، ثم قال : أمد علي الصوت ، فأعدته ، فطرب طرباً شديداً وأمر لي بجائزة ، واضرفت .

(٣) الأغاني ج ٢ ص ١٧٠ - ١٧١ .

(٤) المسمودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦٣ .

وكان إبراهيم الموصلي أول من غنى للرشد بعد توليته الخلافة فقال :

إذا ظلم البلاد تجللتنا فهارون الإمام لها ضياء
 بهارون استقام العدل فينا وغاض الجور وانفسح الرجاء
 رأيت الناس قد سكنوا إليه كما سكنت إلى الحرم الطيباء
 تبعته من الرسول سيل حق فشأنك في الأمور به اقتداء (١)

وقد تعلم إبراهيم فن الغناء على رجل أخذ أصوات الغناء عن أهل الحجاز . وكان أول صوت أخذه عن أستاذه :

أرسل بالسلام يا سلم إلى منذ علقتكم غنى فقير
 فالغنى إن ملكك أمرك والفة سر بأنى أدور من لا يدور
 ويح نفسا تسلو النفوس ونفسى فى هوى الريم ذكرها ما يحور
 من لنفس تتوق أنت هواها وفؤاد يكاد فيك يطير ؟ (٢)

وقد نبع إبراهيم الموصلي في فن الغناء ، وإليه يرجع الفضل في تعليم الجوارى الغناء في عصره . فقد روى صاحب الأغاني (٣) عن إسحاق بن إبراهيم قال : لم يكن الناس يعلمون الجارية الحسنة الغناء ، وإنما كانوا يعلمونه الصفر والسود . وأول من علم الجوارى المثنائات أبى ، فإنه بلغ بالقيان كل مبلغ ، ورفع من أقدارهن . وفيه يقول أبو عيينة بن محمد بن أبى عيينة المهلبى ، وقد كان هوى جارية يقال لها أمان ، فأغلى بها مولاهما السوم (٤) ، وجعل يردد لها إلى إبراهيم وإسحاق ابنته فتأخذ عنهما ، فكما زادت في الغناء زاد في سومه ، فقال أبو عيينة :

قلت لما رأيت مولى أمان قد طغى سومه بها طغيانا
 لاجزى الله الموصلى أبا إنس حقائق عنا خيرا ولا إحسانا
 جاءنا مرسل بوحي من الشيب سلطان أغلى به علينا القيانا
 من غناء كآته سكرات الـ سحب يصي القلوب والآذانا

وقد وصف إبراهيم الموصلي كيف كان يصوغ الحانها في هذه العبارة : أخرج الهم من

(١) الأغاني ج ٥ ص ٢٠٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٢ .

(٣) ج ٥ ص ١٧٠ .

(٤) السوم : الثينة .

فكرى ، وأمثل الطرب بين عيني ، قسرع لى مسالك الألحان [التى أريد] فأسلحها بدليل الإيقاع ، فأرجع مصيبا ظافرا بما أريد ، (١) .

ومن أشهر ما غنى به إبراهيم الموصلى ونال إعجاب سامعيه من الخلفاء :

قد تخوفت أن أموت من الوجد بد ولم يدرك من كويت بما في
يا كئيبا فافتقر السلام على من لا أسى وقل له يا كئيبا
إن كفتا إليك قد بشتنى فى شقاء مواسل وعذاب (٢)

ومن أغانيه :

ولى كعبته مقروحة من يميني بها كبدأ ليست بذات قروح
أباها على الناس لا يشترونها ومن يشتري ذا علة بصحيح ؟
أئن من الشوق الذى فى جوانبي أنين غصيص بالشراب جريح

ومنها :

ألا بأحلامات الولى عند سحرة فاق إلى أصواتك حزين
فعدن ، فلما عدن كدن يمتنى وكدت بأمرارى لمن أبين
دعون يترداد الهدير كأنما سقين حبيبا أو من جنون
فلم تر حنى مثلتن حانما بكين ولم تدمع لمن عيون

ومنها :

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد لقد زادت مسسراك وجدنا على وجد
إن هفت ورفاء فى روت الغشحي على فن غصن النبات من الرند (٣)
بكيت كما يكي الحزين صبا وذبت من الحزن المبرح والجهنم
وقد زعمو أن الحب إذا دنا يملك وأن التأى يشقى من الوجد
بكل تدأوبنا فلم يشف ما بنا على أن قرب الدار خير من البعد
وكان البرامكة وآل ربيع يتمسكون بالغناء القديم ، على حين ترفع جماعة من العباسيين ،

(١) الأغاني ج ٥ ص ٢٣٠ .

(٢) المصدر نفسه ج ٥ ص ٢٢٩ .

(٣) الرند : شجر طيب الرائحة من شجر البادية .

(٤) الأغاني ج ٥ ص ٢٣٣ — ٢٣٤ .

كأبراهيم بن المهدي وأخيه يعقوب وأختها عليّة ، وعبد الله بن الهادي وعيسى بن الرشيد وغيرهم من تقييد غنائهم بما حفظ من أصوات المتقدمين .

وكانت مجالس الخلفاء العباسيين تزدان بمظاهر البديخ والروعة والبهاء ، فيتخذ الخليفة مكانه في صدر الإيوان في القصر ، وبين يديه مائة من صفوة الحرس في أبواب زاهية ، ويقف حوله هيئة ويسرة كبار رجال الدولة والأعيان (١) .

ولم تقتصر مجالس المتأددة والطرب على الخلفاء وحدهم ، بل جازاهم في ذلك الأمراء والوزراء وسائر رجالات الدولة . فقد وصف صاحب الفخرى (٢) مجلس جعفر بن يحيى البرمكي حين كان يجلس للشراب ، ومعه ندماءه الذين يأنس إليهم ، وكانوا يلبسون الثياب المصبغة ، وكانوا إذا جلسوا في مجلس الشراب واللغو ، لبسوا الثياب الحمر والصفراء والخضر . . . ثم جلسوا يشربون ، ودارت الكأسات وخفقت العيوان .

ولم تكن هذه المجالس تخلو من النوادر والطرائف ، مما كان يملؤها بهجة وسروراً . فقد روى صاحب الأغاني (٣) أن الرشيد قال يوماً لجعفر بن يحيى : « قد طال سماعنا هذه العصابة على اختلاط الأمر فيها ، فإنا نأفكها إياها ، وأغبارك . فافقنا المغنين ، على أن يجعلوا بازا . كل رجل نظيره . وكان ابن جامع في حيز الرشيد ، وأبراهيم في حيز جعفر بن يحيى . وحضر التدماء لحنة المغنين (٤) ، وأمر الرشيد ابن جامع فغنى صوتاً أحسن فيه كل الاحسان وطرب الرشيد غاية الطرب ، فلما قطعاه قال الرشيد لإبراهيم : هات يا إبراهيم هذا الصوت فغنى ، فقال : لا والله يا أمير المؤمنين ما أعرفه ، وظهر الانكسار فيه ، فقال الرشيد لجعفر : هذا واحد ، ثم قال لإسماعيل بن جامع : غن يا إسماعيل ! فغنى صوتاً ثانياً أحسن من الأول ، وأرضى في كل حال . فلما استوفاه قال الرشيد لإبراهيم : هات يا إبراهيم ، قال : ولا أعرف هذا ، فقال : هذان اثنان ، غن يا إسماعيل ، فغنى ثالثاً يتقدم الصوتين الأولين ويفضلهما . فلما أتى على آخره قال : هات يا إبراهيم ، قال : ولا أعرف هذا أيضاً ، فقال له جعفر : أخزيتنا أخوك الله . وأتم ابن جامع يومه والرشيد مسروراً به ، وأجازه بمجوائز كثيرة ، وخلع عليه خلعاً فاخراً ، ولم يزل إبراهيم منكسراً حتى انصرف . . . ولكن إبراهيم الموصلي تمكن من سرقة هذه الألحان التي لحنها ابن جامع عن طريق أحد أصدقائه ، ونال بذلك رضا الخليفة الرشيد ، مما يدل على حرص المغنين على الاحتفاظ بألحانهم ، حتى لا يتداولها سائر المغنين (٥) .

(١) سيب أمير على : كتاب مختصر العرب ص ٣٨٧ . (٢) ص ١٨٧ .

(٣) ج ٥ ص ٢٠٦ . (٤) لحنة الاختيار ، يقال : غنّه إذا اختبره وجربه .

(٥) الأغاني ج ١ ص ٢٠٦ - ٢٠٨ .

(ج) مجلس الغناء في عهد الأمين :

وكان الأمين يجتمع مع ندمائه في مكان واحد، وكان كثير المبات وعطايا ، حتى فاق الخلفاء العباسيين قاطبة في جوده وعطاياه لندمائه ومغنييه . ويقول إسحاق بن إبراهيم الموصلي : « لو كان بينه وبين ندمائه حجاب ، خرّقا كلها وألقاها عن وجهه حتى يقعد حيث قدورا ، وكان من أعطى الخلق ذهب وفضة ، وأنهمهم للأموال إذا طرب أولها . وقد رأيت وقد أمر لبعض أهل بيته بوقر زورق ذهباً ، فأنصرف به . وأمر لي ذات ليلة بأربعين ألف دينار ، لحملت أمانى . ولقد غناه إبراهيم بن المهدي غناء لم أرته ، فقام عن مجلسه ، فأكب عليه فقيل رأسه ، فقام إبراهيم ، فقبل ما طشت رجلاه من بساطه ، فأمر له بمائتي ألف دينار . ولقد رأيت يوماً وعلى رأسه بعض غلّانه ، فنظر إليه فقال : ثيابك هذه تحتاج إلى أن تغسل ، انطلق اغسل ثلاثين بدرة فاعسل بها ثيابك » .

وقد وصف إبراهيم بن المهدي مجلس الأمين وصفا شاقفاً ، وما كان يحويه من أثاث وورباش ، وكيف حاول أن يتخذ من هذا المجلس سبيلاً إلى السلوى حين كان محاصراً ببغداد . يقول المسعودي ^(١) : « وحدث إبراهيم بن المهدي قال : بعث إلى الأمين وهو محاصر ، فصرت إليه ، فإذا هو جالس في طارمة ^(٢) . خشيها من عود وصندل عشرة في عشرة ، وإذا سليمان بن أبي جعفر المنصور معه في الطارمة ، وهي قبة كان اتخذ لها فراشا مبطناً بأنواع الحرير والديباج المنسوج بالذهب الأحمر ، وغير ذلك من أنواع الأبريسم . فسلست ، فإذا قدّامه قدح بلور مخروز ، فيه شراب ينفذ مقداره خمسة أرطال ، وبين يدي سليمان قدح مثله . جلست بازاء سليمان ، فأتيته بقدح كالأول والثاني ، فقال : إنما بعثت إليك لما بلغت قدوم طاهر بن الحسين إلى النهروان ، وما قد صنع في أمرنا من المكروه ، وقابلنا به من الإساءة ، فدعوتك لأفرح بكاً ومجديتك . فأقبلنا نحدثه ونقرّسه ، حتى سلا عما كان يحده ، وفرح ، ودعا بحارية من خواص جواريه تسمى ضعفاً ، قال : قطّير من اسمها ونحن على تلك الحال ، فقال لها : غنيّنا ، فوضعت العود في حبرها وغنت :

كليب لعمري كان أكثر ناصراً وأكثر جرماً منك شُرح بالدم

قطّير من قولها ثم قال لها : اسكتي قبحك الله ! ثم عاد إلى ما كان عليه من النغم والإقطاب ، فأقبلنا نحدثه ونبسّطه إلى أن سلا وضحك ، ثم أقبل عليها وقال : هات ما عندك ، فغنت :

هم قتلوه كي يكونوا مكانه كما غدرت يوماً بكسرى مرأته

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠٠ — ٣٠١ .

(٢) الطارمة : مجلس يتخذ من الخشب وسط بيتان للجلوس فيه والقرعة .

فأسكنها وزارها ، وعاد الى الحالة الأولى ، فسليناه حتى عاد الى الضحك ، فأقبل عليها
الناثاء فقال : غنى ! ففتنت :

كأن لم يكن بين الخجون الى الصفا أنيسه ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والحدود العوائر
وقبل بل إنها غشت :

أما ووب السكون والحرك إن المنايا كثيرة الشرك
فقال لها : قومي عني ، فعل الله بك وصنع بك . فقامت فعثرت بالقدرح الذي كان بين يديه
فكسرت ، فأنهرق الشراب . وكانت ليلة قراء ، ونحن على شاطئ دجلة في قصره المعروف
بالخلد ، فسمعنا قائلاً يقول : قضى الأمر الذي فيه تستفتيان . قال ابن المهدي : فقامت وقد ووب
فسمعت منشداً من ناحية القصر ينشد هذين البيتين :

لا تمجبن من العجب قد جاء ما يقضي العجب
قد جاء أمر فادح فيه لدى عجب عجب
قال : فاقنا معه بعدما الى أن قتل ،

(د) مجالس الفناء في عهد المأمون والمعتصم والواثق :

أما المأمون فقد امتنع عن سماع الفناء سبع سنين بعد قدومه بغداد ، ثم أخذ يسمعه من
وراء حجاب ، كما كان يفعل أبوه الرشيد في أول عهده بالخلافة . وظهر للتدما والمثني . ولم
يئل إسحاق بن إبراهيم الموصلى تقدير المأمون أول الأمر حتى سأل عنه ، فأوقع به بمعنى
خاصة الخليفة ، ورواه بالكبر والته ، فلم يحفل به المأمون ، ثم تمكن إسحاق الموصلى من
إرسال بيتين غضاها رزور أحد تلاميذه في حضرة المأمون وهما :

ياسرحه الماء (١) قد سدّت موارده أما إليك طريق غير مسدود ؟
لحائم حاتم حتى لاحتراك به محلاً عن سيل الماء مطرود (٢)

(١) الشجرة النابتة على الماء ، كناية عن المرأة . وأصل الكناية عن المرأة بالسرحة أن عمر بن
الخطيب لما أذمر أدماء بالجلد إذا ما تشبوا بالنساء ، قال أحد الشعراء في قصيدة له

تراني إن علقت شمس سرحة من السرح موجود على طريق
أبي الله إلا أن سرحة ملك على كل سرحات المشاة تروق

(٢) الجاحظ : كتاب التاج ص ٤٤ - ٤٥

فلما غناه زرزر أطربه وأجهجه وحرك له جوارحه ، وقال : وبلك ! من هذا ؟ قال : عبدك المجفو المطرح ياسيدي ، إسحاق ، قال : يحضر الساعة . فجاءه رسوله ، وإسحاق مستعد قد علم أنه إن سمع الغناء من مجيد مؤيد أنه سيبحث إليه . فجاءه الرسول ، فحدثت أنه لما دخل عليه ودنا منه ، مد يده إليه ثم قال : أدن مني ! فأكب عليه واحتضنه المأمون وأدناه ، وأقبل عليه بوجهه مصفيا إليه ومسروراً به ، (١) .

وفي الحق أن إسحاق بن إبراهيم الموصلي قد أجاد في وضع الألحان ، وكتب رسالة مطولة في الغناء ، صحح فيها أنغامه وطرائقه ، واحتفظ بالغناء القديم ، وخالف بذلك أباه ومن ذهب مذهبه في تغيير أصوات المتقدمين . ويقول صاحب الأغاني (٢) : « وهو الذي صحح أجناس الغناء وطرائقه ، وبهز تمييزاً لم يقدر عليه أحد قبله ولا تعلق به أحد بعده » .

وقد نبغ إسحاق في العلم والأدب والرواية والشعر والغناء . وقد قال صاحب الأغاني (٣) : « ولم يكن له في هذا (أى الغناء) نظير ، فانه لحق بمن معنى فيه ، وسبق من بقى ، ولحب (٤) الناس جميعاً طريقه ، فأوضحها ، وسهل عليه سبيله وأنارها . فهو إمام أهل صناعته جميعاً ، ورأسهم ومعلمهم ... وكان المأمون يقول : لولا ما سبق على ألسنة الناس وشهر به عندهم من الغناء ، لوليت الغناء بمحضرق . فانه أولى به وأعف وأصدق ، وأكثر ديناً وأمانة من هؤلاء القضاة » .

وكان إسحاق الموصلي يقدر العلم ويشجع العلماء ، وقد قيل إنه كان يعطي ابن الأعرابي في كل سنة ثلثمائة دينار ، فأهدى له شيئاً من كتاب النوادر . ومن يوماً على دار إسحاق الموصلي فقال : هذه دار الذي تأخذ من ماله ومن أدبه . كما أشاد بفضل له للدائي المؤرخ المشهور صاحب كتاب المغازي فقال : إلى أين يا أبا عبد الله ؟ فقال : أمضي إلى رجل هو كما قال الشاعر :

يحمل أشباحنا إلى ملكٍ تأخذ من ماله ومن أدبه (٥)

ويقول ابن التديم (٦) ان المدائني مات في دار إسحاق بن إبراهيم الموصلي — وكان منقطعاً إليه — سنة ٢٢٥ هـ .

(١) المصدر نفسه ص ٤٤ — ٥٤

(٢) ج ٥ ص ٢٦٩ . (٣) ج ٥ ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .

(٤) لحب الطريق سلكه وأوضحه .

(٥) الأغاني ج ٥ ص ٢٧٤ .

(٦) التبرست ص ١٤٧

وقد غنى إسحاق الموصلي لهارون الرشيد وأبنائه الأمين والمأمون والمعتصم . ولما ولي المعتصم الخلافة ، كان إسحاق الموصلي قد ناهز الستين من عمره ، فغناه قصيدة من نظمته جاء فيها :

لاح بالمفرق منك القتيير^(١) وذوى غصن الشهاب العنبر
هزئت أسماء منى وقالت أنت يابن الموصلي كبير
ورأت شكينيا برأى فصدعت وابن ستين بشيب جدير
يا بني العباس أتم شفائى وضياء للقلوب ونور
أتم أهل الخلافة فينا ولكم منبرها والسرير
لا يزال الملك فيكم مدى الدهر مقيما ما أقام نير^(٢)
وأبو إسحاق خير إمام ماله في العالمين نظير

وقد أمر المعتصم لإسحاق الموصلي بمجازرة سنية ، فضله بها على سائر الشعراء الذين هتفوا بالخلافة ، كما نال إعجابه بعد أن غناه قصيدة أخرى على أثر عودته من إحدى غزواته . وإليك بعض أبيات من هذه القصيدة التي يشيد فيها الموصلي بأبي إسحاق المعتصم ، وما أحرزه من نصر وظفر :

إلى ابن الرشيد إمام الهدى بهتنا الملهى تجوب القلا
إلى ملك حل من هاشم ذؤابة مجد مثيب الذرى
إذا قيل أى قى هاشم وسيدها كان ذاك الفقى
به نعتى الله آمناً كما تمش الأرض صوب الحياة
إذا ما نوى فعل أكرومة تجاوز من جوده ما نرى
كساء الإله رداء الجلال ونور الجلال ومهدى النقى^(٣)

وكان الخليفة الواثق يتقن فن الغناء اتقاناً لم يسبقه إليه خليفة ولا ابن خليفة . وقد وضع بعض الأصوات والأنغام الجديدة . ويقول السيوطي^(٤) : وكان (الواثق) أعلم الخلفاء بالغناء ، وله أصوات وألحان عملها نحو مائة صوت . وكان حاذقاً بضرب العود ، راوياً للأشعار والأخبار .

وكان الواثق يقدر غناء إسحاق الموصلي ويعجب به . روى صاحب الأغاني أن الواثق

(١) القتيير : الشيب ، وقيل هو أول ما يظهر منه

(٢) من جبال مكة بينها وبين عرفة

(٣) الأغاني ج ٥ ص ٣٠٢ — ٣٠٣ ، ٣٠٤

(٤) تاريخ الخلفاء ص ٢٢٧ — ٢٢٨

لحّن هذين البيتين وأمر الموصلی فتناعما ، فأعجب به وقال : « ما كان أغنانا أن نأمر إسحاق بالصنعة في هذا الشعر ، لأنه قد أفسد علينا لحننا » . وهالك هذين البيتين :

أيا مُنْشَرِ المَوْفَى أقدني مَنْ ألقى بها سَهْلَت نفسى سَقاما وعلت
لقد بَحِثْتُ حتى لو أنى سألتها فدى العين من ساقى التراب لَضَنْتُ (١)

وكان إسحاق يصحب الخليفة الواثق في أسفاره ، فقد قصد مرة التجف (٢) والصالحية ، لحن الموصلی إلى بغداد وإلى أولاده الصغار ، فوصف لنا ذلك كله وصفا شائعا ، وغناه في أبيات تدل على علو كعبه في الشعر والفناء :

باراكِبَ العيس لانجبل بنا وقف نحي داراً لسعدى ثم تنصرف
لم ينزل الناس في سهل ولا جبل أصنى هواء ولا أعذى (٣) من التجف
حفت ببر وبحر من جوانها فالبر في طرف والبحر في طرف
وما يزال نسيم من يمانية يأتيك منها بر يا روضة أقف (٤)
أتبكي على بغداد وهى قريية فكيف إذا ما ازددت منها غداً بعدا
لممرك ما فارقت بغداد عن قلى لو أنا وجدنا عن فراق لها بدا
إذا ذكرت بغداد نفسى تقطعت من الشوق أو كادت تموت بها وجدنا
كفى حزننا إن رحمت لم أستطع لها وداعا ولم أحدث بساكتها عهدا (٥)

٣ - قصور الخلفاء والأمراء والوزراء

يعتبر المنزل وما فيه من سكان ، وما يقدم فيه من طعام وشراب ، وما تنقام فيه من حفلات ، وما يرتديه سكانه من ملابس ، من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية . وقد تأثر العباسيون في منازلهم بالأساليب الفارسية خاصة . ولا عجب فانهم قد مالوا إلى الفرس ، فأستندوا إليهم مناصب الدولة ، واقتبسوا عنهم نظم الحكم ، واقتدوا بهم في مظاهر البلاط ، وفي اللباس ، وفي الاحتفال بالأعياد والمواسم وغير ذلك .

وقد اتخذت دور بغداد على مثال دور الفرس ودور الروم التي بنوها في بلاد الشام .

(١) الأغاني ج ٥ ص ٣٥٨ .

(٢) موضع بظهر الكوفة ، وبالقرب منه قبر على بن أبي طالب .

(٣) أطيّب هواء ، يقال : عذا للسكان ينو إذا طاب هواؤه .

(٤) الروضة الأثف (بضم الهزنة والتون) التي لم يرها أحد .

(٥) الأغاني ج ٥ ص ٣٥٦ - ٣٨٥ .

وكانت مبنية بالآجر ومنظاة بالسكس ، وتنقسم دور الأغنياء ثلاثة أقسام هي : مقاضير الحرم ، وحجرات الخدم ، ومجالس السلام الخاصة بالضيافة ، ويحيط بها حدائق غناء تزرع فيها الفاكهة والرياحين . وقد حليت جدرانها وسقفها بالفسيفساء المذهبة والرسوم الملونة ، كما كانوا يزینون أسطح دورهم بالقباب المرفوعة على عمد دقيقة تظهر للعین كأنها معلقة في الفضاء . ويحيط بكل دار سور واحد . أما دور العامة فلم يكن لها أسوار تحيط بها ، وإنما كانت نوافذها تطل على الشوارع ، حتى إن المار ليستطيع أن يرى من بداخلها (١) .

وقد ساد الترف بين العباسيين بازدياد العمران ، فكانت المآثر ببغداد وغيرها من أمهات المدن مؤلفة من عدة طليقات ، كما كانت غرفها تزدان بالمناضد الثينة والزهرات الخزفية ، والمرصعات والمذهبات التي بلغت حد الاقتان . ويقول صاحب كتاب حضارة الإسلام في دار السلام (٢) : إن أهل بغداد كانوا يزینون مجالسهم بالفرس الفاخر والمتاع الثمين ، ويلبسون حيطانها بالوشى والديباج ، وينصون بفرس الأزهار في جناهم ، حتى إنهم ليجلبون لها الرياحين من بلاد الهند ، فيصير من هذه الجنان ما يقوم بمن البستان الواحد منها بعشرة آلاف دينار . ويتخذون غلمانهم من أطرف الناس وأخضعهم نشاطا ، ويميلون إلى اللهو والعرب بما قد ذكرت من إقبالهم على اقتناء القيان ، ويتفتنون في ملاذ الطعام إلى أن يشتروا الصيد في غير أوانه ، والثمار في غير إبانها بما يزن مثله فضة ؛ ويتخذون مقاعدهم في أوان الحجر بين الماء المتدفق من صور السباع وأشكال الطيور وأشكال التفاحات وغيرها ، مما ينقشون في الرخام . فلذا ما أصابت الأجساد منها الرطوبة الوافية بترويح النفس ، اتخذوا في السقوف مراوح يعملون لها حبالا تجرها فيجذبونها فيهب عليهم النسيم البارد ، ويستجيدون في اللباس والزينة ، وركوب الخيل بالديباج والحلية الثقيلة من الفضة إلى الغاية التي لم تبلغها الأمم المترفة من قبلهم .

وكانت قصور الخلفاء تشتمل على دور واسعة ، وقباب وأروقة وبساتين ومسطحات مظلة بالأشجار . وكانت الأروقة تسمى بالأربعيني أو الستيني ، على قدر العنان ، أو يجتمعون في كل منها . ومن هذه القصور قصر الذهب الذي بناه أبو جعفر المنصور في وسط بغداد ، وقصر الخلد الذي بناه على شاطئ دجلة الغربي ، تجاه باب خراسان ، وتأثرت في بناءه وتجميله حتى سمي « الخلد » تشبها له بمنجة الخلد ، وبنيته حوله المنازل ، فأصبح القصر وما حوله يعرف بالخلد (٣) . وكان بهذا القصر قباب بديعة الشكل ، وبأبوابه مسامير من الذهب والفضة ، كما تغطته العمدة الكثيرة الضخمة التي غنى المنصور بتزيينها بالصور والرسوم . وفي هذا القصر العرش —

(١) حضارة الإسلام في دار السلام ص ٢٥ — ٢٦ (٢) ص ٩٩

(٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٥

ويسمى «مجلس الأمير» - قد فرش بالرخام المجزع يتوسطه قضبان من الذهب ، وفُرش بالديباج والبسط التي نقشت عليها أبيات من الشعر في مدح الخليفة ، وفيه كراسي مرصعة بالؤلؤ يجلس عليها كبار رجال الدولة . وفي صدر هذا المجلس يجلس الخليفة في قبة مفروشة بأغفر أنواع الجبرير المنسوج بالذهب (١) .

وقد بنى الرشيد على دجلة قصرأى ، تأتى في تجميله وزينته بأغفر أنواع الزينة ، وأقام فيه أساطين الرخام . وكان أشبه بإحدى المناظر التي كان يجلس فيها الخلفاء الفاطميون للترفة وتبديل الهواء ، فكان مجلس إلى الشباك يستمع إلى غناء الملاحين (٢) .

وبنى الخليفة الواثق في مدينة سامرا عدة قصور منها قصر الحارثي . وقد وصف الطبري (٣) أحد أروقة ، ويسمى الرواق الأوسط ، فقال : « كان في أحد شقى ذلك الرواق ، قبة مرتفعة في السماء كأنها بيضة ، قدر ذراع فيما ترى العين حولها ، في وسطها ساج منقوش مغنى باللازورد والذهب وكانت تسمى قبة المنطقة ، وكان ذلك الرواق يسمى رواق قبة المنطقة » .

كذلك كانت قصور الأمراء ورجال الدولة تكتنفها الحدائق الغناء ، كما امتازت أيضاً بفخامة بنائها واتساعها . ومن أحسن الأمثلة على ذلك قصر عيسى بن علي بن عبد الله بن العباس ، عندما نصب نهر الرافيل المتفرع من دجلة . فقد ذكر ياقوت (٤) أن أبا جعفر المنصور زار دياره عيسى ابن علي في أربعة آلاف رجل ، فوسمهم هذا القصر . ولما أراد المنصور الانصراف قال لمضيفه : « يا أبا العباس إلى حاجة ، قال : ما هي يا أمير المؤمنين ؟ فأمر بك طاعة . قال : تهب لي هذا القصر ، قال : ما بي من عنك به ، لكننى أكره أن يقول الناس إن أمير المؤمنين زار عمه ، فأخرجه من قصره وشرده عياله . وبعد ، فإن فيه من حرم أمير المؤمنين ومواليه أربعة آلاف نفس ، فإن لم يكن بد من أخذه ، فليأمر لي أمير المؤمنين بفضاء يسمى ويسمى ، أضرب فيه مضارب وخيما ، أنقلهم إليها إلى أن أبني لهم ما يورثهم . فقال له المنصور : عمر الله بك منزلك يا عم وبارك لك فيه ، ثم نهض وانصرف » .

وكان البرامكة يمتنون ببناء قصورهم ويتأفنون في تجميلها وتأثيثها ، حتى تبقى على الزمان شاهدة بما أكرم ناطقة بذكراهم . فقد روى الجعفي أن يحيى بن خالد البرمكي قال لولده الفضل وجعفر : « لا شيء أبقى ذكرا من البناء ، فاحتفظوا منه ما يبقى لكم ذكرا . فاحتفظ جعفر قصره وكذلك الفضل » . وقد قال جعفر يصف قصره لابن الفضل عمرو بن مسعدة ، وقد سار بجذاته « يا أبا الفضل اروا لله إلى لأعلم أنه من بناء مثلى ، ولكن قلت : إن بقى لي

(١) حضارة الاسلام في دار السلام ص ٤٢ - ٤٣

(٢) نفس المصدر ص ١٠٠ (٣) ج ١١ ص ١٠

(٤) معجم البلدان ج ٧ ص ١٠٧

فهو قصر جعفر ، وإن شئ به السلطان في وقت من الأوقات فهو قصر جعفر ، وإن مضت عليه الأيام فهو قصر جعفر ، ويبقى اسمه وذكره ، ولعله أن يمر به من لنا عنده إحسان فيترحم علينا .

وقد عاش البرامكة عيشة قوامها البذخ والإسراف وحسب الظهور ، وأغدقوا الأموال على الشعراء والعلماء ، ولم يردوا قاصدا . قبل إن جعفر البرمكي أنفق على بناء داره عشرين ألف ألف درهم ، وهو — كما يبدو — مبلغ لا يقل عن مليون وثلاثمائة ألف دينار ، غير ما يحتاج إليه هذا البناء من أثاث ورياش وخدم وحشم ، وما إلى ذلك من أسباب البذخ وألوان الترف .

وقد بنى محمد بن سليمان قصره بالبصرة . وقد وصفه أحد زواره فقال : « بنيت أجل بناء بأطيب فناء ، وأوسع فضاء ، وأرق هواء ، على أحسن ماء ، بين صواري وحسان وظباء ، فقال محمد : بناء كلامك أحسن من بنائنا . وفي هذا القصر يقول ابن أبي عثية :

زروادى القصر نعم القصر والوادي لا بد من زورة من غير ميعاد
زوره فليس له شبهة يقاربه من منزل حاضر إن شئت أو باد
ترقى قراقيره والعيس واقفة والضب والنثون والملاح والحادي (١)

وقد خلف محمد بن سليمان كثيرا من الفرش الرقيق ، والدواب من الخيل والأبل ، والطبيب والجوهر ، كما ترك ستين ألف ألف درهم ، غير ما خلفه من الضياع ، كما أخرج من خزائنه ما كان يهدى إليه من طرائف السند ومكران وكرمان وفارس والآهواز والنجامة والري وعمان (٢) .

وكان المباسيون يقلدون الفرس في تخفيف حرارة الشمس في الصيف ، فيحملون ليوتهم مدفوا من الطين يمدونها في كل يوم بقضى الخليفة القيلولة فيه . وكان يؤتى بأطنان النصب والختلاف طوالا غلاظا ، فترصف حول البيت ، ويؤتى بقطع الثلج المطام فتجعل ما بين أعضائها . وكانت بنو أمية تفعل ذلك (أيضا) . . . وذكر بعضهم أن المنصور كان يطعن له في أول خلافته بيت في الصيف يُثْقِل فيه ، فاتخذ له أيوب الخويزي ثيابا كشيقة تبل وتوضع على سبائك ، فيجد بردها فاستطابها . وقال : ما أحسب هذه الثياب إن اتخذت اكتف من هذه ، إلا حملت من الماء أكثر مما تحمل . وكانت أبرد ، فاتخذ له الخيش ، فكان ينصب على قبة ،

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦٤ .

(٢) الطبري ج ١٠ ص ٥١ — ٥٢ .

ثم اتخذ الخلفاء بعده الشرايح واتخذها الناس (١).

وقد عنى الخلفاء العباسيون عناية كبيرة بتنظيم بغداد ونظافة شوارعها وطرقها ، فكانت الرحاب تمسكنس كل يوم ويحمل التراب خارج المدينة . ولما كانت الزوايا تصل على ظهور البغال إلى قصر أبي جعفر المنصور ، رأى أن ذلك لا يتفق وأبته مدينته ورواها ، ومن ثم أمر بتوصيل الماء من نهر دجلة إلى قصره .

٤ - الطعام :

كان العباسيون يعنون بتنوع الطعام . وكان أبو جعفر المنصور يكثر منه ولا يعمل بنصح الأطباء ، حتى كان ذلك من أسباب ضعف صحته ووفاته . وكانت مائدة الرشيد حافلة بألوان الطعام ، حتى قيل إن الطهاة كانوا يطهون له ثلاثين لونا في اليوم . وكان الرشيد يتفق على طعامه عشرة آلاف درهم في اليوم . ولما تزوج من زبيدة بنت جعفر ، أقيمت في قصره وليمة أنفق عليها خمسة وخمسين ألف ألف درهم .

وقد ذكر ياقوت (٢) أن الرشيد زار عمه عيسى بن علي في أربعة آلاف رجل ، فقدم لهم من ألوان الطعام : الخبز ولحم الجدي والدجاج والبيض واللحم البارد والحلوى على نحو ما نراه في ولائتنا اليوم .

ومن هذا نرى أن إسراف العباسيين في الطعام ، لم يقتصر على الخلفاء وحدهم ، بل تعداهم إلى الأمراء وكبار رجال الدولة . ولا غرو فقد بلغ من تفنتهم في الطهي وإسرافهم في الإنفاق عليه ، أن بعضهم كان يشتري مقادير كبيرة من السمك لتقديم ألسنته على المائدة ، كلون من ألوان الطعام الشبيهة بالكثيرة التي كانت تزخر بها موائدهم . وقد روى المسمودي (٣) ، وأن إبراهيم بن المهدي قال : استزرت الرشيد بالركة ، فزارني ، وكان يأكل الطعام الحار قبل البارد . فلما وضعت البوارد ، رأى فيما قرب إليه جام قريض سمك ، فاستصغر القطع وقال : لم صغر طبابخك تقطيع السمك ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ! هذه ألسنة السمك ، قال فيشبه أن يكون في هذا الجلام مائة لسان ، فقال مراقب خادمه : يا أمير المؤمنين ! فيها أكثر من مائة وخمسين ، فاستحلفه عن مبلغ ثمن السمك ، فأخبره أنه قام بأكثر من ألف درهم ، فرفع الرشيد يده وحلف أن لا يطعم شيئا دون أن يحضره مراقب ، ألف درهم . فلما حضر

(١) الطبري ج ٩ ص ٣٠٦ .

(٢) أظن قصر عيسى بن علي في مجمل البلدان لياقوت ، والمسمودي : مروج الذهب ج ٢

ص ٢٧٩ - ٢٨٠

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٩ - ٢٨٠

المال أمر أن تصدق به وقال : أرجو أن يكون كفارة لسرفك في إنفاقك على جام سمك ألف درهم .

وقد بلغت نفقة المأمون في اليوم ستة آلاف دينار ، كان ينفق منها مبلغا كبيرا على مطابخه (١) .

وكان أهل بغداد يفتنون في الطعام ويسرفون في اجتلاب ألوانه في غير مواعيدها ، من صيد وفاكة وخضروات ، حتى كانوا يزنون هذه الأطعمة أحيانا بما يعادلها في الوزن من الفضة (٢) ، كما كانوا يجلبون ألوان الطعام مثل السمك والحليب والجبن وما إلى ذلك من البلاد الأخرى كفارس وعمان والهند (٣) .

وعلى الرغم من أن الخلفاء العباسيين قد يشربون النبيذ ، إلا أن الكثيرين منهم لم يسمحوا بتناوله على مواعيدهم . فقد ذكر الطبري أن مجتئشوع الطيب لما قدم على أبي جعفر المنصور من السوس ودخل عليه في قصره بباب الذهب ببغداد ، أمر له بطعام يتفدى به . فلما وضعت المائدة بين يديه قال : شراب ، فأخبر المنصور بذلك فقال : دعوه . فلما حضر العشاء فعل به مثل ذلك ، فطلب الشراب فقيل له : لا يشرب على مائدة أمير المؤمنين الشراب ، فتعشى وشرب ماء دجلة . فلما كان من الغد نظر إلى مائه وقال : ما كنت أحسب أن شيئا يجرى من الشراب (ينفى عنه) ، فهذا ماء دجلة يجرى من الشراب .

• — الملابس :

وكان لانتشار النفوذ الفارسي في الدولة العباسية أثر كبير في ظهور الأزياء الفارسية في البلاط العباسي . يؤيد ذلك ما ذكره فون كيرمر (٤) حيث يقول : ازداد النفوذ الفارسي في بلاط الخلفاء ، وبلغ الذروة في عهد الهادي وهارون الرشيد والمأمون ، وكان أغلب وزراء الأخير من هؤلاء فرسا أو من أصل فارسي ؛ وفي بغداد أخذ الميل للأزياء الفارسية ينمو ويطرده .

وكان اللباس الفارسي لباس البلاط الرسمي ؛ فقد قرر أبو جعفر المنصور ثلثي الخلفاء

(١) الأخرى ص ٢٠٧

(٢) حضارة الإسلام في دار السلام ص ٩٩ .

(٣) الطبري ج ١٠ ص ٥٧

(٤) Streifzuge, pp. 82—8.

العباسيين لبس القلائس ، وهى القبعات السود الطويلة المخروطية الشكل ، بصفة رسمية ؛ كما أدخل استعمال الملابس المحلاة بالذهب ، وغدا خلصها على الناس من حق الخليفة . يتبين لنا ذلك جليا من العملة التى ضربت فى عهد الخليفة المتوكل ، حيث تظهر صورته مرتديا ملابس فارسية حقيقية . وكان اللباس المادى للطبقة الراقية فى العهد العباسى يشتمل على سروالة فضفاضة ، وقمص ودراعة وسترة وقفطان وقباء وقلنسوة . أما لباس العامة فيشتمل على إزار وقمص ودراعة وسترة طويلة وحزام . وكانوا يتعلمون الأحذية والنعال .

وكان من المستحسن لبس الثياب البيض ؛ فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خلق الله الجنة يضاء ، وخير ثيابكم البيض تلبسونها فى حياتكم وتكفون بها موتاكم » . وفى القرن الرابع الهجرى كانوا يرون أنه لا يجوز للرجال لبس الثياب ذات الألوان إلا فى خاصة بيوتهم ، على حين أجازوا لبسها للنساء (١) .

وكان لباس الخليفة العباسى فى المراكب القباء الأسود (٢) أو البنفسجى الذى يصل إلى الركبة ، ويتمنطق بمنطقة مرصعة بالجوهر ، ويتشبع بمباهة سوداء ، ويلبس قلنسوة طويلة مزينة بمجوهره غالية (٣) . وكان الأمراء والتبلاء يقدون الخلفاء فى ملابسهم . أما الخلفاء والقضاة فكانوا يلبسون العمامة والطيلسان ، مقتدين فى ذلك بالنبي صلى الله عليه وسلم ، كما كانوا يلبسون قلنسوة طويلة ، حولها عمامة ذات لون أسود ، وهو شعار العباسيين .

وقد ذكر ابن خلكان (٤) المتوفى سنة ٦٨١ هـ عن أبى يوسف قاضى هارون الرشيد « أنه أول من غيّر لباس العلماء إلى هذه الهيئة التى هم عليها فى هذا الزمان ، وكان ملبوس الناس قبل ذلك شيئا واحدا لا يتميز أحد عن أحد بلباسه » . وكان الكتّاب يلبسون الدراعات ، وهى ثياب مشقوقة من الصدر ؛ ويلبس القواد الآفقية الفارسية القصيرة (٥) . وأما غير العلماء فقد كانوا يلبسون داخل بيوتهم القلنسوة وحدها فوق كلوة من الحرير الأبيض ، ثم استعاضوا عنها بكلوة خفيفة بنفسجية اللون . وكان اللباس المادى للطبقة الراقية فى العهد العباسى يتألف من سروايل فضفاضة وقمص ودراعة وسترة وقفطان وقباء وقلنسوة وعباءة أو جبة . وكان

(١) مئز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ١٨٧ — ١٨٩

(٢) كان القباء مفتوحا عند الركبة ، فيظهر القفطان زاهيا من تحته . وكانت أكمامه ضيقة حتى عهد المعتصم الذى أمر بحملها فضفاضة . ويقال إن عرض الأكمام بلغ ثلاثة أذرع .

(٣) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٧

(٤) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٣

(٥) مئز : الحضارة الإسلامية ص ١٨٩

الأغنياء يلبسون الجوارب المصنوعة من الحرير أو الصوف أو الجلد ، ويسمونهم « موزاج » . وكانت ثمة فروق ملحوظة في ملابس أصحاب المهن المختلفة . أما لباس العامة فكان يشتمل على إزار وقميص ودراعة وسترة طويلة وحزام يسمى « قربند » . وكانوا يتناولون الأحذية والنعال . أما الجنود فكانوا يلبسون الأحذية ، على حين كان بعض الأعيان يتناول كليهما في وقت واحد ، غير أنهم كانوا يخلعون الحذاء الخارجي المسمى « الجرهموق » عند دخول المساجد أو القصور (١) .

وكانت ملابس المرأة تتكون من ملالة فضفاضة وقميص مشقوق عند الرقبة ، عليه رداء قصير ضيق بلبس عادة في البرد . وكانت المرأة العربية إذا خرجت من بيتها ترتدي ملالة طويلة تغطي جسمها ، وتقي ملابسها من التراب ، وتلف رأسها بمنديل يربط فوق الرقبة .

وقد تطورت ملابس النساء في العهد العباسي تطوراً ظاهراً عما كانت عليه في العصر الأموي ، إذ اتخذت سيدات الطبقة الراقية غطاء للرأس (البرنس) مرصعاً بالجواهر ، على بسلسلة ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة . ويميز ابتكار هذا الغطاء إلى « علية » ، بنت المهدي أخت الرشيد . وكانت نساء تلك الطبقة يعلقن الحجب بزئار البرنس للزينة . أما نساء الطبقة الوسطى فكان « زين ردهوسن » بحلة مسطحة من الذهب ، ويلفنن حولها عصاة متضدة بالؤلؤ والزمر ، ويلبسن الخلاخل في أرجلهن والأساور في معاصمهن وأزنادهن ، ولم يجهن فن التجميل الذي أخذنه عن الفارسيات . وكان « طابع الحسن » الصناعات مما يتحلى به الأعرايات (٢) .

وكان للسيدة زبيدة أن تتركب في تطور الزي وإدخال تغييرات على ملابس السيدات في عصرها ؛ فيعزى إليها اتخاذ المناطق والتمال المرصعة بالجواهر . وكانت فوق ذلك تسرف في شراء ملابسها وتزيينها ، حتى إنها اتخذت ثوبا من الوشي الرقيق يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار (٣) . وكان رجال الدولة يتميزون بملابسهم ، ويعزى إلى أبي جعفر المنصور أنه أول من اخترع عمل الجيش الكتان في الصيف اتقاء حرارة الشمس (٤) .

٦ - المرأة :

كانت المرأة في العصر العباسي الأول تتمتع بتسط وافر من الحرية ؛ فقد تدخل بعضهم في شئون الدولة ، كالخيزران زوج الخليفة المهدي وأم الهادي والرشيد ، وكانت كثيراً ما تسأل

(١) سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٨ — ٣٨٩

(٢) نفس المصدر ص ٣٨٩ — ٣٩٠

(٣) حضارة الإسلام في دار السلام ص ٩٥ (٤) القنبري ص ١٤٣

ابنها الهادي قضاء حاجات المتردين على بيتها ، غير أن شدة غيظه على النساء حملته على أن يضع حداً لتدخلها في أمور دولته (١).

كذلك استخدمت السيدة زبيدة زوجة الرشيد وأم الأيمن نفوذها ؛ فانها حين حجت بيت الله سنة ١٨٦ هـ ، وأدركت ما يعانيه أهل مكة من المشاق في الحصول على ماء الشرب ، دعت خازن أموالها ، وأمرته أن يدعو المهندسين والعمال من أنحاء البلاد وقالت له : « اعمل ولو كلفتك ضربة الفأس ديناراً ، ووفد على مكة أكفاء المهندسين والعمال ، ووصلوا بين منابع الماء في الجبال ، واعتمدوا على عين حنين ، فأسالوا منها الماء تحت الصخور ، حتى تغلغل من الحل إلى الحرم . وبذلك وصل الماء إلى مكة ، قبلة المسلمين ، التي يجتمع فيها حجاج بيت الله . ولا يزال هذا الماء يجري إلى مكة حتى اليوم .

وقد ساهمت المرأة في هذا العصر في الحروب . فقد اشتركت فيها أم عيسى ولبابة بنتا علي ابن عبد الله بن عباس عم الخليفة المنصور (٢) . وكان في عهد الرشيد يمتلئ الجباد ويقدن الجنود إلى ميدان القتال (٣) . ولما ساسي الروم نساء المسلمين ومثلوا بهم في عهد المعتصم ، وصاحت امرأة هاشمية وقمت أسيرة في أيديهم وامتصاه ، ! لبي الخليفة نداها وثارت ثائرتها ، وقاد جيشه الجرار واتصر على الروم في موقعة عمورية المشهورة (٤) .

وقد بلغت المرأة في هذا العصر مبلغاً عظيماً من الثقافة ، وكانت تعظم الشعر وتناظر الرجل في شتى نواحي الثقافة والفكر في عهد الرشيد والمأمون . وكانت السيدة زبيدة شاعرة مثقفة ، وكثيراً ما كانت تبعث رسائلها الفياضة أحياناً شعرية إلى زوجها الرشيد . وإن القصيدة التي بعثت بها إلى الخليفة المأمون على أثر مقتل ابنها الأمين لتدل دلالة واضحة على علو كعبها في الأدب والشعر والسياسة . وهاك بعض أبيات منها (٥) .

لخير إمام قام من خير عنصر وأفضل راق فوق أعواد منبر
ووارث علم الأولين ونحرم والملك المأمون من أم جعفر
كتبته وصفي تستهل دموعها إليك ابن عمي مع جفوني ومحجري

(١) أنظر الباب الثاني ص ٤٣ — ٤٤

(٢) أنظر الباب الرابع ص ١٨٥

(٣) سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب ص ٣٩٠ .

(٤) أنظر الباب الرابع ص ١٩٠

(٥) السمودي : تزوج الذهب ج ٢ ص ٣١٦ .

أصبحت بأذى الناس منك قرابةً ومن زال عن كبدى فقلّ تعبرى
أتى ظاهر لا يظهر الله طاهراً وما طاهر فى فعله بمظهر
فأبرزى مكشوفة الوجه حاسراً وأتت أموالى وأخرب أفورى
بزع على هرون ما قد لقيته وما نالتى من ناقص الخلق أعور
فان كان ما أسدى لأمير أمرته صيرت لأمير من قدير مقدّر

ويقول صاحب كتاب حضاره الإسلام فى دار السلام^(١) ، « إن السيدة زبيدة زوج الرشيد كانت تصنع أعمالاً تفوق مقدرة الملوك ، كمثل اصطناعها بساطاً من الديباج جمع صورة كل حيوان من جميع الأجناس ، وصورة كل طائر من الذهب ، وأعينها من ياقوت وجواهر ، يقال إنها أنفقت عليه نحواً من ألف ألف دينار . وكثل اتخاذاها الآلة من الذهب المرنع بالجوهر ، والثوب من الوشى الرفيع يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار ، والقباب من الفضة والأتوس والصندل ، عليها الكلايب من الذهب الملبس بالوشى والديباج والسمور وأنواع الحرير ، وكثل اتخاذاها شمع المنبر ، واصطناعها الخف مرصعاً بالجواهر ، واتخاذاها الشاكرية من الخدم يختلفون على الدواب ويذهبون فى حاجاتها ورسائلها . »

وقد أولع الناس ، وخاصة الخلفاء ، باتخاذ الإمام من غير العرب ، لأنهم كن فى الغالب أوفر جمالا . أضف إلى ذلك أن العادة قد جرت ألا يرى الرجل من يريد التزوج بها رؤية تامة إذا كانت من الحرائر ، إلا فى حدود ما يسمح به الشرع الإسلامى لمريد الخطبة ، بخلاف الأمة ، فقد كان يستطيع أن يراها ويعرف طباعها وأخلاقها بحكم مخالطتها قبل أن يقدم على الاقتران بها . وكثيراً ما كان أبناء الجوارى أحب إلى آبائهم من أبناء الحرائر ، كذلك لم يكن ممة فرق فى التوريث بين أبناء الحرائر والإماء .

وكان كثير من الخلفاء العباسيين من أمهات أولاد ، فكانت أم المأمون أمة فارسية ، وأم المعتصم تركية ، كما كانت « شجاع » أم المتوكل خوارزمية ، والسيدة أم القنطرة رومية ، وكذلك كانت أم الخليفة المستكنى ، وكانت أم المطيع صقلية^(٢) .

وكانت الإمامة يجلبن من أسواق النخاسة من جميع البلاد إلى بغداد . وكان منهن الحبشيات والروميات والجرجيات والأشركيات والعربيات من مولدات المدينة والطائف والإمامة ومصر . وقد اشتهرت كثيرات منهن بالجمال وعذوبة اللفظ وجمال الصوت . ولم يكن بيع الرقيقات مظهراً من مظاهر العبودية والاسترقاق بالمعنى المألوف ، بل إن كثيراً من الإمامة كن يأتين سوق

النخاسة مختارات ، ليمتحن بحياة الترف والنعيم في بيوت الخلفاء والأمراء (١) .

٧ — الأعياد والمواسم والحفلات :

زاد النفوذ الفارسي في الدولة العباسية — كما رأينا — حتى شمل كل مظاهر الحياة في العصر العباسي ، وبلغ الذروة في عهد الهادي وهارون الرشيد . وفي بغداد أخذ الميل للأزياء الفارسية بشمو ويطرده ، واحتفل بالأعياد الفارسية القديمة ، وخاصة بالنيروز والمهرجان والرام ، واتخذ رجال البلاط العباسي العادات الفارسية القديمة .

(١) الاحتفال بالعیدین :

وكان الخلفاء يحتفلون بالعیدین احتفالا دينيا ، فيؤمنون الناس في الصلاة ، ويقفون عليهم خطبة في فضائل العيد وما يجب على المسلمين اتباعه بالمحافظة على شعائر الإسلام . ولا غرو فقد كانت مظاهر الإسلام تتجلى في الاحتفال بهذين العیدین في الأمصار الإسلامية ، وعلى الأخص في بغداد وبيت المقدس ودمشق . أما المسلمون الذين يقصدون مكة من كافة أنحاء العالم لأداء فريضة الحج ، فكان يخطبهم الخطيب في المسجد الحرام في اليوم السابع من شهر ذي الحجة بعد صلاة الظهر خطبة بليغة ، يشرح لهم فيها مناسك الحج ، ثم يأخذون في أداء شعائره ، ويضجون أضحيان العيد بعد رميهم الجمار بمنى .

وكان الاحتفال بعيدى الفطر والأضحي يبلغ منتهى الروعة والأبهة في البلاد التي يكون فيها الشعور الإسلامي قويا ، مثل طرسوس حيث كان يتوافد إليها غزاة المسلمين من أنحاء الدولة الإسلامية ، وترد إليها صلوات أهل البر من المسلمين الذين لا يستطيعون الخروج للجهاد بأنفسهم . ويقول ابن حوقل : « ليس من مدينة عظيمة من حد سجستان وكرمان إلى مصر والمغرب إلا بطرطوس ، لأهلها دار ينزل بها غزاة تلك البلدة ويرابطون بها إذا وردوها ، وتكثر لديهم الصلوات وتزد عليهم الأموال والصدقات العظيمة » . ولا شك أنه كان لذلك أكبر الأثر في ظهور الأبهة الإسلامية بأجلى معانيها في الاحتفال بالأعياد بطرسوس ، حتى أصبح عيد الفطر والأضحي في هذه المدينة من محاسن الإسلام .

وكانت المدن الإسلامية ، وعلى الأخص مدينة بغداد ، تسطع في أرجائها الأنوار في ليالي العيد ، وتتجاوب أصوات المسلمين بالتهليل والتكبير ، وتزدحم الأنهار بالزوارق المزينة بأبهى الزينات ، وتسطع من جوانبها أنوار القناديل ، وتتلألأ الأنوار الساطعة من قصور

الخلافة ، وقد لبست الجواهر الطيالة السود تقسها بالخلفاء العباسيين الذين اتخذوا السود شعاراً لهم . وكان بعضهم يتخذ بدل العمامة قلانس طويلة مصنوعة من القصب والورق مجللة بالسود كذلك ، ويلبسون بدل الدروع دراعات كتب عليها : فسيكفيكم الله وهو السميع العليم ،^(١) .

(ب) الاحتفال بالنوروز والمهرجان والرام :

كان النوروز من المواسم القديمة . اتخذه الفرس لإحياء العام الجديد ، وهو أول أيام السنة عندهم . ويقع عند الاعتدال الربيعي ودخول الشمس في برج الحمل ، أى عند ابتداء فصل الربيع . وقد سن ملوك خراسان سنة جديدة ، فاتخذوا هذا اليوم موسماً يلبس فيه جنودهم ملابس الربيع والصيف ، وفيه يحتفلون بعيد النوروز . وأول من اتخذ هذا اليوم — على ما ذكره البيروني^(٢) — هو جهم شيد ، وهو — كما يقول براون^(٣) — نقلاً عن بعض المصادر العربية سليمان بن داود^(٤) . وقد أبطل المسلمون الاحتفال بهذا العيد في بلاد الفرس بعد الفتح الاسلامي ؛ غير أنه عاد في العصر العباسي الأول . وقد أضر نظام النوروز القديم بالمزارعين ضرراً بليغاً ، لأن التقويم الجديد قدم يوم النوروز ، فكان يحسب الزرع أخضر ، في الوقت الذي يجب أن تدفع فيه الضرائب .

ويستطرد البيروني في الكلام حتى يذكر أن الملاك اجتمعوا في عهد هشام بن عبد الملك الأموي (١٠٥ — ١٢٥ هـ) ، وشكوا إلى عامله خالد بن عبد الله القسري ، وشرحوا له ما يجدونه من الصعاب ، وسألوه أن يؤخر النوروز شهراً ؛ فأبى وكتب إلى هشام بذلك ، فأجاب : إني أخاف أن يكون هذا من قوله تعالى : (إنما النفس زيادة في الكفر)^(٥) . واستمرت الحال كذلك إلى أن ولي هارون الرشيد الخلافة ، فاجتمع الملاك ثانية وشكوا إلى يحيى بن خالد البرمكي ، وسألوه أن يؤخر النوروز نحواً من شهرين ، فهم يحيى بإجابة طلبهم ، ولكن أعداءه أخذوا يرمونه بالتعصب للجوسية ؛ فعدل عن ذلك ، واستمر الحال على ما كان عليه من قبل .

أما عن أصل النوروز فيقول البيروني^(٦) إنه يرجع إلى أن سليمان بن داود لما فقد خاتمه ذهب عنه ملكه ، ثم رد إليه بعد أربعين يوماً ، فعاد إليه ملكه ، وأتته الملوكة وعكفت عليه

(١) حضارة الاسلام في دار السلام ص ٢٢

(٢) كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية (طبعة سخاو Sachau) ص ٢١٦ — ٢١٧

(٣) Browne : Lit. Hist. of Persia, vol. I, pp. 114, 250.

(٤) البيهقي ص ٢١٥ (٥) سورة ٩ آية ٣٧

(٦) الآثار الباقية ص ٢١٦ و ٢١٧

الطبور ، فقالت الفرس « نوروز آمد » ، أى جاء اليوم الجديد ، فسمى هذا اليوم « النوروز » : وأمر سليمان الريح لحملته ، ورآه خطاف فقال : « أياها الملك ! إن لى عشا فيه بيضات ، فاعدل لاتعلمها » ؛ فعدل سليمان . ولما نزل على الأرض ثانية ، حل الخطاف فى مقفاره ماء ، فرشه بين يدى الملك ، وأهداه رجلى جرادة . فذلك أصل رش الماء والهدايا فى النوروز .

وكان الفرس يتهدون فى عيد النوروز بالهدايا الكثيرة ، ومنها السكر والملايس . ويقول البيرونى ^(١) : « إن قصب السكر إنما ظهر فى مملكة چم يوم النوروز ، ولم يكن يعرف قبل ذلك الوقت ، وهو أنه رأى قصبه كثيرة الماء قد مجت شيتا من عصارتهما فذاقها ، فوجد فيها حلالة لذينة ، فأمر باستخراج ماؤها وعمل منها السكر ، فارتفع فى اليوم الخامس وتهدأوه تبركا به ... جرى الرسم للملك خراسان فيه أن يخلعوا على أساورتهم الخلع الريعة والصيفية . كما اعتادوا الاغتسال بالماء ، وأن يرشوا بعضهم بعضا به فى ذلك اليوم تبركا ودفعاً لأمراض » . وما يدل على اهتمام أكرسة الفرس بالنوروز ما ذكره البيرونى حيث قال : « وكان من آيين الأكاسرة فى هذه الأيام الخمسة أن يبدأ الملك يوم النوروز ، فيعلم الناس بالجلوس له والإحسان إليه ، وفى اليوم الثانى يجلس لمن هو أرفع مرتبة ، وهم الدهاقين وأهل البيوتات ، وفى اليوم الثالث يجلس لأساورته وعظماؤه ، وفى اليوم الرابع لأهل بيته وقربائه وخايعته ، وفى اليوم الخامس لولده وصنائه ، فيصل إلى كل واحد منهم ما استحقه من الرتبة والإكرام ، ويستوفى ما استوجبه من المبرة والإنعام . فإذا كان اليوم السادس كان قد فرغ من قضاء حقوقهم ، فنوروز نفسه ، ولم يصل إليه إلا أهل أنسه ومن يصلح لخلوته ، وأمر بإحضار ما حصل من الهدايا على مراتب المهدين ، فيتأملها ويفرق منها ما شاء ويودع الخزان ما شاء » . وكان أكرسة الفرس والخلفاء العباسيون من بعدهم يحتفلون بالنوروز فى أول العام على ما رأينا ، وفى آخره بالمهرجان ، ويسمونه (روز مهر) ومعناه محبة الروح ، وكان من أكبر أعيادهم . فقد أثر عن سليمان الفارسى أنه قال : « كنا على عهد الفرس نقول إن الله أخرج زينة لعباده من الياقوت فى النوروز ، ومن الزبرجد فى المهرجان ، ففضلهما على غيرهما من الأيام ، كفضل الياقوت والزبرجد على سائر الجواهر » ^(٢) . وكان الفرس يتخذون المهرجان دليلاً على نهاية العالم ، والنوروز دليلاً على بدايته . ويرافق أول عيد المهرجان أول الشتاء .

وكان ملوك الفرس يلبسون تاجاً مرصعاً بالجواهر عليه صورة الشمس ، وقيمون سوقاً عظيمة . وقد قيل إن تعظيم الفرس ليوم المهرجان يرجع إلى استبشار الناس حين سمعوا بانتصار أفريدون على الضحاك ، ويعتقدون أن الملائكة نزلت لمساعدة أفريدون فى ذلك اليوم ،

(١) البيرونى ص ٢١٨ - ٢١٩ (٢) المصدر نفسه ص ٢٢٢

« وجرى الرسم بذلك في دور الملوك أن يقف في صحن الدار رجل شجاع وقت إسفار الصبح ، ويقول بأعلى صوته : يا أيها الملائكة ! انزلوا إلى الدنيا وأقموا الشياطين الأشرار وادفعوهم عن الدنيا » (١) .

وكان الفرس يتهادون في المهرجان بالهدايا الكثيرة كهدايا النوروز، ومنها السكر ، ويقدم فيه الأكاسرة للفرسان كسوة الحريف والشتاء (٢) . وقد اعتاد ملوك الفرس المجلس للعامّة يوماً في المهرجان وربما في النوروز . ويقول الجاحظ (٣) : « ولا يحجب عنه أحد في هذين اليومين من صغير ولا كبير ولا جاهل ولا شريف » .

وكان اليوم الخامس من المهرجان من أعظم أيام الفرس ، ويسمونه « رام روز » ، وهو المهرجان العظيم ، وفيه ظهر أفريدون بالضحك . وقد اهتم الفرس بعيد المهرجان ، ويقع في اليوم السادس عشر ، وبعيد الزام ، ويقع في اليوم الحادى والعشرين . « وقد أمر زرادشت أن يكون سبيل المهرجان ورام روز واحداً في التعظيم ، فعيّدهما معا ، حتى وصل بينهما مهرمز ابن شاپور البطل ، وعيد ما بينهما من الأيام ... ثم جعل الملوك إيران شهر من لدن المهرجان إلى تمام ثلاثين ، أعياداً بين طبقات الناس » (٤) .

ولا غرو فقد كان من أثر ميل العباسيين إلى الفرس وإيثارهم على العرب ، أن أخذوا عنهم نظم الحكم ، وقلدوم في الأزياء وفي الطعام ، واحتفلوا بأعيادهم ، وخاصة بالنوروز والمهرجان والزام ، التي أصبحت في العصر العباسي الأول من أهم أعيادهم الرسمية (٥) .

(ج) مواعيد الخلفاء :

وقد فاقت مواعيد الخلفاء العباسيين مواعيد الأمويين في الروعة والبهاء . ففي أيام الجمع يسير الحراس على اختلاف طبقاتهم في مقدمة موكب الخليفة حاملين الأعلام ، ثم يليهم أمراء البيت العباسي على الخيول المطهّمة ، ثم الخليفة بمطعناجوادا شديد البياض ، وبين يديه كبار رجال الدولة . وكان الخليفة يلبس في تلك المواكب القباء الأسود ، ويتمتع بمتعة مرصعة بالجواهر ، ويشبع بعبادة سوداء ، ويلبس قلنسوة طويلة مزينة بجمهرة غالية ، ويده قضيب النبي صلى الله

(١) البيروني : كتاب الآثار الباقية : ص ٢٢٢ (٢) المصدر نفسه ص ٢٢٣

(٣) كتاب التاج في أخلاق الملوك ص ١٥٩

(٤) البيروني : كتاب الآثار الباقية : ص ٢٢٣ — ٢٢٤

(٥) انظر « الفاطميون في مصر » المؤلف من ٢٨٥ ؟

عليه وسلم وخاتمه ، ويتبدل على صدره سلسلة ذهبية مرصعة بالجوهر النفيسة (١) . وكان من مظاهر سيادة الخليفة في بغداد أن يضرب على باب قصره بالطبول والدبابدب والأبواق في أوقات الصلاة .

ومن أعظم مواكب الخلفاء العباسيين موكب الحج ، حيث يجتمع ببغداد الحجاج من مختلف الأمصار الإسلامية الشرقية ، وخاصة أهل العراق وفارس وخراسان وغيرها ، وقد أعدوا عدتهم من الإبل والسكى والطعام الذي كان يتكون من الأقراص المعجونة باللبن والسكر والكحك والفواكه اليابسة وغيرها من طعام الحاج ، ومعهم شرذمة من الجند لحراستهم . ويسير في مقدمة هذا الموكب هودج يعلوها قباب مزينة بالديباج المطرز بالذهب يقم في أحدها أمير الحاج (٢) .

(١) سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٦ — ٣٨٧ .

كان الخليفة الهادي أول من أدخل هذا النظام ؛ ولكن الرشيد والمأمون كثيراً ما كانا يجعلان إلى البساطة ، فلم يكن يصحبهما غير حارس واحد أو حارسين .

(٢) ذكر الماوردي في « الأحكام السلطانية » (ص ١٠٣ — ١٠٥) أن أمير الحاج ينظر في عشرة أشياء : أحدها جمع الناس في سبيلهم وتزولهم حتى لا يضربوا فيخاف عليهم التوائى والفرير ، والثانى ترتيبهم في السبيل والتزول وإعطاء كل طائفة منهم مقادراً ، حتى يعرف كل فريق منهم مقاده إذا سار ، والثالث مكانه إذا نزل ، فلا يقتنعون فيه ولا يضلون عنه . والثالث أن يرفق بهم في السبيل حتى لا يجيز عنه ضيعتهم ولا يضل عنه منقطعهم . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : الضيف أمير القوم ، يريد أن من ضفت دوابه كان على القوم أن يسيروا سبيله . والرابع أن يسلك بهم أوضح الطرق وأخفها ويتجنب أجدبها وأوعرها . والخامس أن يرتاد لهم المياه إذا انقطعت والمراعى إذا قلت ، والسادس أن يجرسهم إذا نزلوا ومحوطهم إذا رحلوا حتى لا يخططهم ذاعر ولا يطعم فيهم متاعص . والسابع أن يمنع عنهم من يصد من السبيل ويدفع عنهم من يصرم من الحج ، يقال إن قدر عليه أو يذل مال إن أجاب الحبيب إليه . ولا يسهه أن يجبر أحداً على بذل الخفارة إن امتنع منها ، حتى لا يكون باذلاً لها عفواً ومجيباً إليها طوعاً ، فإن بذل المال على التمكن من الحج لا يجب . والثامن أن يصلح بين المتشاجرين ويوسط بين المتنازعين ، ولا يعرض للحكم بينهم إجباراً ، إلا أن يفوض الحكم إليه ، فيعتبر فيه أن يكون من أهله فيجوز له حينئذ الحكم بينهم . ثالث دخلوا بلداً فيه حاكم جاز له ، وتماحك البلد أن يحكم ، فأيهما حكم نفذ حكمه ، ولو كان التنازع بين الحبيب وأهل البلد لم يحكم بينهم إلا حاكم البلد . والتاسع أن يقوم زاتهم ويؤدب خاتنهم ولا يتجاوز التمزير إلى الحد ، لا أن يؤذنه فيستوفيه إذا كان من أهل الاجتهاد فيه . فإن دخل بلداً فيه من يتولى إقامة الحدود على أهله ، نظر ، فإن كان ما أتاه الحدود قبل دخول البلد ، فوالى الحبيب أولى بإقامة الحد عليه من والى البلد ، وإن كان ما أتاه الحدود في البلد ، فوالى البلد أولى بإقامة الحد عليه من والى الحبيب . والعاشر أن يراعى اتساع الوقت حتى يؤمن القوات ولا ينجسهم ضيقة إلى الحث في السبيل . فإذا وصل إلى الميقات أمهلهم للإحرام وإقامة سنته ، فإن كان الوقت متسماً عدل بهم إلى مكة ليخرجوا مع أهلها إلى المواقف ، وإن كان الوقت ضيقاً عدل بهم عن مكة إلى عرفة خوفاً من فواتها فيقول الحج بها ، فإن زمان الوقوف بسرعة ما بين زوال الشمس من يوم عرفة إلى طلوع القمر من يوم النحر . فمن أدرك الوقوف بها في شيء من هذا الزمان من ليل أنوارها فقد أدرك =

ويقول صاحب كتاب حضارة الإسلام في دارالسلام (١) : « ولما صارت الشمس على ارتفاع قامة ، وقد غصت بالناس المواقف ، وضائق بهم الساحات ، ضرب اليوق لإيداناً بركوب الخليفة . ثم لم يلبث أن أقبل مرتفعاً على فيل أبيض ، قد استرسلت عليه الفضة في الحلية الثقيلة ، وهو جالس في هودج منزل بالأصداق اللامعة ، وعلى القبة أستار من الديباج يتخللها رسوم من الذهب ، وفي يده قضيب الخلافة ، وفي الأخرى الخاتم ، وعليه جبة وشى من فوقها بردة خضراء للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهي غير البردة التي كانت للملك بنى أمية ، يلقونها على أكتافهم في جلوسهم وركوبهم ، لأنها فقدت بفقدان الخلافة منهم ، وكان قد اشتراها معاوية من آل زهير بن أبي سلمي بأربعمائة ألف درهم ، وإنما هذه البردة هي التي أعطاه النبي صلى الله عليه وسلم أهل الأبلّة لتبقى عندهم بركة ، فاشتراها أبو جعفر بثلاثمائة دينار ، واتخذها في شعار الخلافة موضع البردة التي كانت عند الأمويين . وأما القيلة فإنه لم يسبق أحد من ملوك العرب إلى اتخاذها في المراكب . . . وإنه إنما اتخذها موكباً له ، لما كان من تعظيم الملوك السالفة إياها ، واقتنائهم لها ، وإعدادها للحروب والزينة في الأعياد وغيرها ، إذ كانت أوطأ مراكب الملوك وأمهدها . وكان يصحب أبا جعفر جماعة من الأمراء ورجال بيت الخلافة ، ووراهم الإبل التي يظعننا حريمه وأهل بيته ، وفيهم موسى بن المهدي حاجباً ، ومعهم حرس خاص بهم ، يحملون الرايات السود . »

وقد سن الخليفة المهدي سنة كسوة الكعبة في كل عام . فإنه لما قدم مكة ، نزع كسوة الكعبة وطلّى جدرانها بالمسك والعنبر ، وألبسها كسوة جديدة من الحرير ، إذ خاف أن تهدم لكثرة ما عليها من الكسوة الذي ألبسها هشام بن عبد الملك الأموي . فأصبح ذلك سنة اتبعها الخلفاء الذين جاءوا بعد المهدي ، هي سنة إلباس الكعبة كسوة جديدة كل عام . وقد اختصت مصر بصناعة هذه الكسوة منذ ذلك الوقت .

== الحج ، وإن فاته الوقوف بها حتى طلع الفجر من يوم النحر ، فقد فاته الحج ، وعليه إتمام ما بقي من أركانه وجبرانه بدم ، وقضاؤه في العام المقبل إن أمكنه وفيها بعده إلت قدر عليه . ولا يصير حجه عمرة بالوقوف ، ولا يتحلل بعد الفوات إلا بالاجلال الحج . وإذا وصل الحبيب إلى مكة ، فمن لم يكن على الفود منهم زالت عنه ولاية الوالي على الحبيب ، فلم يكن له عليه يد ، ومن كان منهم على الفود فهو تحت ولايته وملتزم أحكام طاعته . فإذا قضى الناس جميع أمهاتهم الأيام التي جرت بها المدة في إنجاز علاقتهم ولازمهم في الخروج فيضربهم . فإذا عاد بهم سار على طريق المدينة لزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليجمع لهم بين حج بيت الله سبحانه وزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رعاية لحرمته وقياماً بحقوق طاعته ، ثم يكون في عودهم ملتزماً فيهم من الحقوق ما ألزمه في صدرهم ، حتى يصل بهم إلى البلد التي سار بهم منه ، فتقطع ولايتهم عنهم بالفود إليه . »

وكان بعض الوزراء في العصر العباسي الأول يعيش عيشة قوامها البذخ والإسراف : فهذا يحيى بن خالد البرمكي قد بلغ من كرمه وجوده ، أنه إذا ركب أعد بديراً (صررا) في كل منها مائتا درهم ، يدفعها إلى من يقفون في طريقه ويلتمسون سؤاله . وقد كثر الواقفون على دار خالد بن برمك ، وكانوا قبل ذلك يسمون سؤالا ، فقال خالد : إني أستقيح هذا الاسم لمثل هؤلاء وفيهم الأشراف والأكابر ، فبجاء الزورل . وكان خالد أول من سماهم بذلك ، فقال له بعضهم : والله لا أدرى أى أياديك عندنا أجل ، أصلتنا أم تسميتنا ؟ (١) .

(٥) حفلات الزواج :

وكان العباسيون يعنون عناية فائقة بحفلات الزواج . ويشجل إسراف خلفاء العصر العباسي الأول وبذخهم في حفلات الزواج بما فعله الخليفة المهدي عند زواج ابنه هارون (الرشيد) بالسيدة زينة ، فقد أقام يوم زفافها وليمة لم يسبقه إليها أحد في الإسلام ، وهب للناس في هذا اليوم أوائ الذهب علوة بالفضة وأوائ الفضة علوة بالذهب والمك والعنبر ، وزيتها بكثير من الحلوى والجواهر ، حتى إنها لم تقدر على المشي لكثرة ما عليها من هذه الحلوى والجواهر (٢) . ويقول الشافعي في كتابه الديارات (٣) إن نفقات الزواج بلغت من مال الخليفة المهدي ١٣٨٨,٠٠٠ ديناراً ، عدا مبلغ كبير أنفقه الرشيد نفسه . وقد أكدت السيدة زينة لأبي عبد الله المأمون (وكان أخا الأمين ابن السيدة زينة من أبيه الرشيد كما نعلم) أن نفقات هذا الزواج كانت تراوح بين خمسة وثلاثين مليون درهم وسبعة وثلاثين مليون .

وقد فاق المأمون أباه الرشيد في كرمه وإسرافه ؛ يدلنا على ذلك ما أنفقه على زواجه من بوران — وكانت تسمى أيضا خديجة — بنت الحسن بن سهل فأ مهرها ١٠٥,٠٠٠,٠٠٠ درهم ، أى نحو تسعة ملايين دينار . ويقول الطبري (٤) إن المأمون أمر للحسن بن سهل وهو في طريقه إلى بوران بعشرة ملايين من الدراهم ، ومعه خراج إقليم قسم الصلح . ويقول ابن خلكان (٥) إنه أعطاه خراج إقليم فارس والأهواز سنة واحدة (٦) . وقد وصف المسعودي (٧) إسراف الحسن بن سهل وبذخه في هذا الزواج فقال : « ونثر الحسن في ذلك من الأموال ما لم ينثره

(١) الفسري ص ١٤٠ (٢) حضارة الاسلام في دار السلام ص ٩٤ — ٩٥

(٣) مخطوطات فيمار Weimar رقم ١١٠ برلين

(٤) الطبري (طبعة دى غويه) ٢ : ١٠٨٣ — ١٠٨٤

(٥) وفيات الأعيان ج ١ ص ١١٦ .

(٦) أنظر كتاب « الفاطميون في مصر » للؤلف ص ٢٥٥ هابش رقم (٢)

(٧) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٣٤ .

ولم يفعله ملك قط في جاهلية ولا في إسلام ، وذلك أنه نثر على الهاشميين والقواد والكتاب بتادق مسك ، فيها رقايع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك . فكانت البئدة إذا وقعت في يد الرجل . فتحها فقرأ ما فيها ، فيجد على قدر إقباله وسعوده فيها ، فيمضي إلى الوكيل الذي نصب لذلك ، فيقول له ضيعة يقال لها فلانة الفلانية من طسوج كذا ، من رستاق كذا ، وجارية يقال لها فلانة الفلانية ، ودابة صفتها كذا . ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدرهم ونوافع المسك ويضع العنبر ، وأنفق على المأمون وقواده ، وعلى جميع أصحابه ومن كان معه من جنوده أيام مقامه عنده ، على المسكاريين والحقالين والملاحين ، وكل من ضمنه العسكر من تابع ومتبوع مرتزق وغيره . فلم يكن أحد من الناس يشتري شيئاً في عسكر المأمون ، مما يطعم ولا مما تعتلفه البهائم . فلما أراد المأمون أن يصعد في دجلة إلى مدينة السلام قال للحسن : حواجمك يا أبا محمد ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين ، أسألك أن تحفظ عليّ مكاناً من قلبك ، فإنه لا يتنبأ لي حفظه إلا بك . فقالت في ذلك الشعراء فأكثر ، واعتنيت الخطباء في ذلك وتكلمت . لما استظرف ماقيل في ذلك من الشعر قول محمد بن حازم الباهلي :

بارك الله للحسن ولبوران في الحزن

يا بن هرون قد ظفرت ولكن يئس من ؟

فلما نجي هذا الشعر إلى المأمون قال : والله ما ندري خير أراد أم شر .

٨ - أنواع التسلية :

وكان الناس في العصر العباسي الأول ، يقضون أوقات فراغهم في سماع الحكايات القصيرة من النوادر الهزلية والأحاديث التي تتجلى فيها الزكاة والفطنة . أما الحكايات الطوال فكانوا يتكبرون عنها ، لأنها بمجالس القصص أولى منها بمجالس الخاصة .

كما كانوا يلتهون في داخل المنازل بلعبة الشطرنج التي أدخلها الرشيد ، ثم انتشرت بين العرب وحلت محل الورق والزهر ، وكانوا يلعبون بها على رقعة مربعة حمرية من آدم . وقد ظهر في قصر الخليفة العباسي المتعبد في أواخر القرن الثالث الهجري نوع من الشطرنج يسمى « الجوارحية » أو اللعب بالجوارح ، تعمل فيه كل حاسة من حواس الإنسان تنافس غيرها من الحواس (١) .

وقد قيل إن الخليفة المأمون مال بعد قدومه من خراسان إلى بغداد إلى لعب الشطرنج ،

ودعا كبار لاعبيه الذين كانوا يتوقرون بين يديه ، فضاق بذلك وقال : إن الشطرنج لا يلعب مع الهبة ، قولوا ما تقولون إذا خلوتهم .

وكان الترد من الألعاب التي اعتاد الناس أن يتلها بها في العصر العباسي الأول ، ويستعمل في لعبه ثلاثون حجراً وفصان على رقعة ، رسم اثنا عشر منزلاً أو أربعة وعشرون منزلاً . وقد شبه بعض الحكماء رقعة الترد بالأرض المعبدة لساكنها ، ومنازل الرقعة بساعات الليل والنهار ، واختلاف ألوانها باختلاف يياض النهار وسواد الليل ، وما يخرج من الفصين إذا رى بهما بالقضاء الجمارى على العباد .

ومن أنواع التسلية في ذلك العصر الرى بالشباب ، والصيد بالبندق ، ولعبة الجوكان ، والصولجان والجريد .

وكان سباق الخيل من أجل أنواع التسلية عند الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة في العصر العباسي الأول . وقد أباح الفقهاء هذا اللون من الرياضة ، على ألا تكون وسيلة للحصول على المال . وبلغ من شغف الناس بسباق الخيل واهتمامهم به ، أن كان السائق يستولى في بعض الأحيان على الحصان المسبوق ^(١) . وقد تنافس الخلفاء والوزراء في تربية خيل السباق . وروى الجهمياري ^(٢) أن هارون الرشيد أمر جعفر بن يحيى البرمكي أن يتخذ خيلاً يجرها في الحلبة ، فأجرى جعفر يوماً خيله بالرقعة ، فسبقت خيل الرشيد ، فقال العباس بن محمد الهاشمي لجعفر : يا أبا الفضل ! ما أحسن الشكر وادعاه للزيد ! من أين لك هذا الفرس السابق ؟ فقال له : أمه من خيلك ، فقال : والله لأرضينك ، ثم أقبل على الرشيد فقال : كنتُ يا أمير المؤمنين مع أمير المؤمنين أبي العباس ، ونحن في المدائن وقد أرسلت الخيل ، فبينما نحن ننظر ، طلع فرس سابق ، وقد حصل في النهار فما ترى علامته ، فقال عيسى ابن علي : لي ، وقال غيره : لي . ثم طلع آخر على تلك الصفة ، ثم طلع ثالث على تلك الصفة ، فنظروا فإذا هي لخالد بن برمك ، وقد أخذ قصبات السبق ، فقال خالد : يا أمير المؤمنين ! من يقبضها ؟ فقال : هي لنا عندك ، فإتلك عدة من عددنا ، فسرى عن الرشيد وزال الغضب عنه .

وروى المسعودي ^(٣) حكاية تبين لنا مبلغ اهتمام الرشيد بسباق الخيل قال : « وأجرى الرشيد الخيل يوماً بالرقعة . فلما أرسلت ، صار إلى مجلسه في صدر الميدان حيث توافى عليه

(١) منز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢١٥ ؛ سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب ص ٣٩٣ .

(٢) كتاب الوزراء والكتاب ص ٢٠٧ .

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٩ .

الحيل ، لا يتقدم أحدهما صاحبه ، فتأملها ، فقال : فرسى والله ، ثم تأمل الآخرة فقال : فرس
ابنى المأمون . فجاء يحسنان أمام الحيل ، وكان فرسه السابق ، وفرس المأمون ثانية ، فسر بذلك ،
ثم جاء الحيل بعد ذلك . فلما انقضى المجلس وهم بالانصراف ، قال الأصمى ، وكان حاضراً ،
للفضل بن الربيع : يا أبا العباس ! هذا يوم من الأيام ، فأحب أن توصلى إلى أمير المؤمنين .
وقام الفضل فقال : يا أمير المؤمنين ! هذا الأصمى يذكر شيئاً من أمر الفرسين يريد الله به أمير
المؤمنين سروراً ، قال : هاته ! فلما دنا قال : ما عندك يا أصمى ؟ قال : يا أمير المؤمنين ! كنت
وابنك اليوم والفرسين كما قالت الخنساء :

جارى أباه فأقبلا وهما يتنازعا ملاءة الحضر
وهما كأنهما وقد برزا صقران قد حطا على وكر
برزت صفيحة وجه والده ومضى على غلوائه يجرى
أولى فأولى أن يقاربه لولا جلال السن والكبر

ومن أنواع التسلية في العصر العباسي الأول لعبة الكريكت والتنس ، ويسمونها لعبة
« القراح » . وكان النساء يمارسن الرمي بالسهم . ولم يكن الرقص بادى الأمر مقصوراً على
الطبقات المحترقة لحسب ، بل كثيراً ما كانت فتيات الطبقة الراقية يشتركن فيه أيضاً .

وكان بعض الخلفاء كلفاً بالصيد ، فقد حرص المهدي على القيام برحلات منظمة ، يصحبه
فرسان يتقلدون السيوف ، ويتبعهم طائفة من الجند والغلمان . وكان الخليفة يسير محاذياً لنهر
دجلة أرتياداً للخنصرة التي تجمع إليها الطيور وتسرح فيها الغزلان .

وقد كلف هؤلاء الخلفاء بالصيد ، وتأفقوا في إعداد العدة له ، وقدم في ذلك الأمراء ،
حتى إنهم أخذوا يصنعون نصال سهامهم من الذهب ، كما عتوا باستخدام الصقر والبازي بالصيد ،
وعتوا بترية الكلاب السريعة العدو ، ووكلوا بكل كلب شخصاً يقوم بتربيته وتدريبه . وقد
رمى الخليفة المهدي غزالاً باسم فأصابه ، وكان ابن عمه علي بن سليمان قد اتخذ هذا الغزال
هدفاً ، ولكنه لم يصبه وأصاب كلباً فصرعه ، فقال في ذلك أبو دلالة الشاعر :

قد رمى المهدي طيئساً شك بالسهم فزاده
وعلى بن سليمان نرى كلباً ففساده
فهبتا لما كل أمرىء يأكل زاده

مصادر الكتاب

نورد في التبت الآتى أم مصادر الكتاب
وقد رتبت أسماء المؤلفين في جميعها حسب أحرف الهجاء

ابن الأثير : (+ ٦٣٠ هـ = ١٢٣٨ م) : على بن أحمد بن أبي الكرم
١ - الكامل في التاريخ ، ١٢ جزءاً (بولاق ١٢٧٤ هـ)

أرنولد : توماس W. Arnold :

٢ - «The Preaching of Islam» 3 rd. ed. by Reynold A. Nicholson
(London, 1935).

٣ - «The Caliphate» (Oxford, 1924)

الأصفهاني : (+ ٣٥٦ هـ = ٩٦٧ م) : أبو الفرج
٤ - دكتاب الأغاني ، ٢١ جزءاً (القاهرة ١٢٨٥ هـ) ، (القاهرة ١٢٢٧ - ١٩٣٦)

أمير علي : سيد Ameer Ali :

٥ - «A Short History of the Saracens» (London, 1921)
٦ - مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى ، (القاهرة ١٩٣٨) نقله إلى العربية
رياض رافت .

أولبرى : دى ليسى O'Leary : De Lacy :

٧ - «A Short History of the Fatimid Khalifate» (London, 1923)

بارتولد : ف F. Bartold :

٨ - تاريخ الحصار الإسلامية ، نقله إلى العربية حمزة طاهر (القاهرة ١٩٤٢)

بالمر : Palmer :

٩ - «Harouni el-Raschid» (London, 1881)

براون : إدوارد ج. Browne: Edward G.

«A Literary History of Persia» (From the Earliest Times until — ١٠
Firdawsi) Vol. I. (London, 1909).

بروكلمان : كارل Brockelmann : Carl.

«Geschichte der Arabischer Litteratur» 2 Vols. (Weimar, — ١١
1898—1902)

البغدادى : (+ ٤٢٩ = ١٠٣٧ م) أبو منصور عبد القادر بن طاهر

١٢ - « الفرق بين الفرق » (القاهرة ١٣٢٨ = ١٩١٠ م)

البلاذرى : (+ ٢٧٩ = ٨٩٢ م) : أحمد بن يحيى بن جابر

١٣ - « فتوح البلدان » (القاهرة ١٣١٨ =)

البليخي : (+ ٣٢٢ = ٩٣٣ - ٩٣٤ م) أبو زيد بن سهل

١٤ - « كتاب البدء والتاريخ » وينسب حقيقة إلى مطهر بن طاهر المقدسى ٦ أجزاء

(باريس ١٨٩٩ - ١٩٠٧)

دي بور : ت. ج. De Boer : T. G.

١٥ - « تاريخ الفلسفة في الإسلام » نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة

جزءان (القاهرة ١٣٥٧ = ١٩٣٨ م)

البيروني : (+ ٤٤٠ = ١٠٤٨ م) : أبو الريحان محمد بن أحمد .

١٦ - « الآثار الباقية عن القرون الخالية » (طبعة إدوارد سخاولييزج ١٨٧٨، ١٨٧٩) .

تيمور : المغفور له أحمد باشا

١٧ - « التصوير عند العرب » : نشره وعلق عليه الدكتور زكي محمد حسن

(القاهرة ١٩٤٢)

١٨ - « نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة وانتشارها » (القاهرة ١٣٥١ =)

الجاحظ : (+ ٢٥٥ = ٨٦٩ م) : أبو عثمان عمرو بن بحر

١٩ - « كتاب التاج في أخلاق الملوك »

حققه المرحوم أحمد زكي باشا (القاهرة ١٣٣٢ = ١٩١٤ م)

٢٠ - « كتاب البيان والتبيين » أربعة أجزاء (القاهرة ١٩٢٨)

٢١ - كتاب التبصر بالتجارة ، (الطبعة الثانية القاهرة ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٥ م) ،
نشره وصححه وعلق عليه السيد حسن حسنى عبد الوهاب التونسى

جيبون : إدوارد . Gibbon : Edward .

٢٢ - «The History of the Decline and Fall of the Roman Empire»
7 vols. ed. by. G. B. Bury.

جروهمان : أدولف Grohmann : Adolfe

٢٣ - أوراق البردي العربية بدارالكتب المصرية (القاهرة ١٩٣٥) الجزء الأول -
ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن

الجهشياري : (+ ٢٣١ هـ) : أبو عبد الله محمد بن عبدوس

٢٤ - كتاب الوزراء والكتاب ، (القاهرة ١٩٣٨) حققه ونشره الأساتذة مصطفى
السقا وإبراهيم الإياري ، وعبد الحفيظ شلبي

دى جوبينو : De Gobineau

٢٥ - «Religion et Philosophie dans L' Asie Centrale (Paris, 1865) —

جولدزيهر : إجناس Goldziher : Ignaz

٢٦ - المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ، ترجمة الدكتور على حسن عبد القادر
(القاهرة ١٣٦٢ هـ = ١٩٤٤ م)

٢٧ - «Vorlesungen über den Islams» (2nd ed., Heidelberg, 1919), —
trans. into French by Félix Arin under the title «Le Dogme et
la Loi de l' Islam» (Paris, 1920).

ابن أبي الحديد : (+ ٤٠٤ هـ = ١٠١٣ م) : الشريف الرضى محمد بن أبى أحمد الحسينى
٢٨ - كتاب نهج البلاغة ، أربعة مجلدات (القاهرة ١٣٢٩ هـ)

حتى : فيليب ك. Hitti : Philip K.

٢٩ - «History of the Arabs» (London, 1940) —

حسن إبراهيم حسن :

٣٠ - الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية برجه خاص ، (المطبعة
الأميرية بولاق ١٩٣٢)

٣١ — « السيادة العربية والقبعة والإسرائيليات في عهد بنى أمية » تأليف فان فلوتن Van Vloten — ترجمه وعلق عليه المؤلف بالاشتراك مع الشيخ محمد زكى إبراهيم (القاهرة ١٩٣٣).

٣٢ — « أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية » تأليف أدولف جروهمان، ترجمه إلى العربية وعلق عليه المؤلف، الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٤).

٣٣ — « تاريخ الإسلام السياسى » الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٥).

٣٤ — « النظم الإسلامية » بالاشتراك مع الدكتور على إبراهيم حسن (القاهرة ١٩٣٩).

٣٥ — « مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى »، بحث مستخرج من « كتاب الجمل فى التاريخ المصرى » (القاهرة ١٩٤٢ من ١٢٧ — ٢٢٩).

ابن حزم : (+ ٤٥٦ = ١٠٦٤ م) : أبو محمد على بن أحمد

٣٦ — « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » ٣ أجزاء (القاهرة ١٣١٧ هـ).

ابن خرداذبة : أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله

٣٧ — « كتاب المسالك والممالك » (طبعة دى غويه — لندن ١٨٨٩)

الخصرى : محمد

٣٨ — « تاريخ الدولة العباسية » (القاهرة ١٩١٦)

الخطيب البغدادى (+ ٤٦٣ هـ) : الحافظ أبو بكر أحمد بن حل

٣٩ — « تاريخ بغداد أو مدينة السلام » ١٤ جزءاً (القاهرة ١٣٤٩ = ١٩٣١ م)

ابن خلدون : (+ ٨٠٨ = ١٤٠٥ — ١٤٠٦ م) : عبد الرحمن بن محمد

٤٠ — « مقدمة ابن خلدون » (بيروت ١٨٨٦)

٤١ — « البر وديوان المبتدا والخبر » ٧ أجزاء (القاهرة ١٢٨٤ هـ)

ابن خلكان (+ ٦٨١ = ١٢٨١ م) : شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبى بكر الشافعى

٤٢ — « وفيات الأعيان » زمان (بولاق ١٢٨٣ هـ) : (المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٠ هـ)

ترجمه إلى الإنجليزية دى سلان De Slane (باريس ١٨٤٢ — ١٨٤٨)

الخطاط : أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان المعتزلى

٤٣ — « كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد » مع مقدمة وتحقيق وتعليقات

للدكتور نيرج (القاهرة ١٣٤٤هـ = ١٩٢٥م).

حاجي خليفة (+ ١٠٦٧هـ = ١٦٥٧م) : مصطفى كاتب شلي
٤٤ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، طبع النسخة العربية وترجمها
إلى الألمانية ج. فلوغل G. Flugel (لييسك ولندن ١٨٣٥ - ١٨٥٨)

دوزي : ر. ب. أ. Dozy : R. P. A.

«Histoire des Musulmans d'Espagne» (Leyden, 1861), trans. — ٤٥
into English by F. G. Stokes «The Moslems in Spain»
(London, 1931).

«Dictionnaire des Noms des Vêtements chez les Arabes» — ٤٦
(Amsterdam, 1845)

«Supplément au Dictionnaires Arabes», 2 vols. (Leyden, 1801) — ٤٧

الدينوري : (+ ٢٨٢هـ = ٨٩٥م) : أحمد بن داود أبو حنيفة

٤٨ - الأخبار الطوال ، جزءان (لندن ١٨٨٨)

زكي محمد حسن :

٤٩ - الفن الإسلامي في مصر ، الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٥)

٥٠ - كنوز الفاطميين ، (القاهرة ١٩٣٧)

٥١ - الفن الإسلامي في العصر الإسلامي ، (القاهرة ١٩٤٠)

زبدان : جرجي

٥٢ - تاريخ التمدن الإسلامي ، خمسة أجزاء (القاهرة ١٩٠٢ - ١٩٠٦)

لي سترينج : جاي Le Strange : Guy.

«Baghdad During the Abbasid Caliphate» (Oxford, 1924). — ٥٣

السيوطي (+ ٩١١هـ = ١٦٠٥م) : عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين

٥٤ - تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة ، (القاهرة ١٣٥١هـ)

الشابشتي (+ ٣٨٨هـ = ٩٩٨م) : أبو الحسن علي بن محمد

٥٥ - كتاب الدبارات ، مخطوط (Berlin, We. 1100)

الشهرمبستاني (+ ٥٤٨هـ = ١١٥٣م) : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم

- ٥٦ — «الملل والنحل» ٥ أجزاء (القاهرة ١٣١٧ هـ).
- ابن طباطبائي: محمد بن علي بن طباطبائي المعروف بابن الطقطقي
- ٥٧ — «الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية» (القاهرة ١٩٢٣)
- الطبري: (٥٣١٠ = ٩٢٢ م): أبو جعفر محمد بن جرير
- ٥٨ — «تاريخ الأمم والملوك» (طبعة دى غوى — لندن ١٨٨١ م)، (القاهرة ١٣٢٦ هـ)
- طه حسين بك:
- ٥٩ — «حديث الأرباب» (القاهرة ١٩٢٥)
- الطوسي: (٥٤٦٠ = ١٠٦٧ - ١٠٦٨ م): محمد بن الحسن
- ٦٠ — «فهرست كتب الشيعة» (كلكتا ١٨٥٥ م)
- ابن عبد ربه: (٥٣٤٩ = ٩٤٠ م): شهاب الدين أحمد
- ٦١ — «العقد الفريد» ٣ أجزاء (القاهرة ١٣٤٦ = ١٩٢٨ م)
- الغزالي: (٥٥٠ = ١١١١ م): الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد
- ٦٢ — «المنفذ من الضلال» (دمشق ١٣٥٣ = ١٩٣٤ م)
- ٦٣ — «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة» (القاهرة ١٣١٩ = ١٩٠١ م)
- فان فلوتن: ج. Van Vloten. J.
- ٦٤ — «Recherches sur la Domination arabe, le Chitisme et les croyances Messianiques sous le Khilafat des Omayyades» (Amsterdam, 1894)
- ترجمه إلى العربية وعلق عليه الدكتور حسن إبراهيم حسن، والشيخ محمد زكي إبراهيم (القاهرة ١٩٣٤)
- أبو الفدا: (٥٧٣٢ = ١٢٣١ م): إسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حاه
- ٦٥ — «المختصر في أخبار البشر» ٤ أجزاء (القسطنطينية ١٢٨٦ هـ)، (القاهرة ١٣١٥ هـ)
- فنلي: جورج Finlay: George
- ٦٦ — «History of the Byzantine Empire (716 — 1507 A. D.)» (London, 1856)
- ابن قتيبة: (٥٢٧٦ = ٨٨٩ م): أبو محمد عبد الله بن مسلم

- ٦٧ - « المعارف » (١٣٥٣ = ١٩٣٤ م)
- ٦٨ - « عيون الأخبار » أربعة أجزاء (القاهرة ١٣٤٣ - ١٣٤٨ هـ)
- قدامة : (+ ٣٣٧ هـ) . أبو الفرج بن جعفر الكاتب البغدادى
- ٦٩ - « كتاب الحراج » (طبعة دى غوية - لندن ١٨٨٩)
- القفطى : (+ ٦٤٦ هـ = ١٢٤٨ م) : جمال الدين على بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الوهاب
- ٧٠ - « إخبار الملوك بأخبار الحكماء » (ليك ١٣٢٢ هـ = ١٩٠٣)
- القلقشندى : (+ ٨٢١ هـ = ١٤١٨ م) : أبو العباس أحمد
- ٧١ - « صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء » ٢٤ جزءاً (القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٧)
- كريزول : ك. ا. ك. A. C. Creswell
- ٧٢ - «Early Muslim Architecture» 2 vols. (Oxford, 1930 and 1938 .)
- كريم : ألفرد فون . Kremer : Alfred Von.
- ٨٣ - «Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen» 2 vols. (Vienna, - 1875),
- trans. by S. Khuda Bukhsh «The Orient under the Caliphs», (Calcutta, 1920).
- الكندى : (+ ٢٥٠ هـ = ٨٦١ م) : أبو عمر محمد بن يوسف
- ٧٤ - « كتاب الولاية وكتاب القضاء » (طبعة روفن جست , Ruvon Guest
- E. G. W. Gibb Memorial Series, (London, 1917)
- لينبول : ستانلى . Lane-Poole : Stanley
- ٧٥ - «The Muhammadan Dynasties» (Paris, 1925)
- ٧٦ - «The Moors in Spain» (London, 1887)
- ٧٧ - «A History of Egypt in the Middle Ages» (Lond., 1924)
- الماوردي : (+ ٤٥٠ هـ = ١٠٥٧ م) : أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البغدادى البصرى
- ٧٨ - « الأحكام السلطانية » (القاهرة ١٢٩٨ هـ)
- متر : آدم . Mez : Adam.
- ٧٩ - «The Renaissance of Islam», trans. into English by S. Khuda Bukhsh and D. S. Margoliouth (London, 1930).

المردود : جميل نخلة

٨٠ — « حضارة الإسلام في دار السلام » (القاهرة ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ م)

ابن المرتضى : (+ ٣٢٥ هـ = ٩٣٦ - ٩٣٧ م) : المهدي لدين الله أحمد بن يحيى

٨١ — « باب ذكر المعزلة » من كتاب المنية والأمل (طبعة الهند)

المسعودي : (+ ٣٤٦ هـ = ٩٥٦ م) : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي

٨٢ — « كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر » جزءان (القاهرة ١٣٤٦) . وترجمه

إلى الفرنسية بارييه دي مينار Barbier de Meynard

« Prairies d' Or » (باريس ١٨٧١ - ١٨٧٧)

٨٣ — « كتاب التنبيه والإشراف » (طبعة دي غوبه — لندن ١٨٩٣)

المقدسي : (+ ٣٨٧ هـ = ٩٩٧ م) شمس الدين أبو عبد الله محمد

٨٤ — « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » طبعة دي غوبه (لندن ١٩٠٦)

المقري : (+ ١٠٤١ هـ = ١٦٣٣ م) : أحمد بن محمد

٨٥ — « دفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب » أربعة أجزاء (بولاق ١٢٧٩ هـ = ١٨٦٢ م)

المقريزي : (+ ٨٤٥ هـ = ١٤٤١ م) : تقي الدين أحمد بن علي

٨٦ — « المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار » جزءان (القاهرة ١٢٧٠ هـ)

ميور : وليام تيمبل Muir : William Temple

٨٧ — « The Caliphate, its Rise, Decline, and Fall (Edinburgh, 1924) »

نظام الملك : (+ ٤٨٥ هـ = ١٠٩٢ م) :

٨٨ — « كتاب سياسة نامه » Siasset Naméh, Traité de Gouvernement.

composé pour Le Sultan Melik - Châh par Le Nizam-oul - mouk.

« Texte Persan (ed. by Charles Schefer) 3 vols, (Paris 1891—1897) »

ابن النديم : (+ ٣٨٣ هـ = ٩٩٣ م) : محمد بن إسحق

٨٩ — « كتاب القهرست » جزءان (لايبسك ١٨٧١ م) ، (القاهرة ١٣٤٨ هـ)

النسيبي

٩٠ — « كتاب مطالب السؤل في غزوات الرسول » مكتبة الجامعة ببلدين ،

مخطوط رقم ١٩٧٩ .

ابن النعمان : محمد

٩١ - وكتاب الإرشاد ، مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط رقم ١٦٤٧ .

النوبختي : (+ ٢٠٢ هـ = ٨١٧ م) أبو محمد الحسن بن موسى

٩٢ - وكتاب فرق الشيعة ، (استامبول ١٩٣١)

نيكلسون : أ. رينولد Nicholson : A. Reynold

٩٣ - «Literary History of the Arabs» (Cambridge, 1930)

هيد : W. Heyd

٩٤ - «Histoire du Commerce du Levant au Moyen — âge» 2 vols. — ١٩٤
(Leipzig, 1925)

هل : يوسف Hell : Joseph.

٩٥ - «The Arab Civilisation», trans. from German by S. Khuda — ٩٥
Bukhsn (Cambridge, 1926)

وستنفيلد : ف. فون Wüstenfeld: F. Von.

٩٦ - «Die Geschichtschreiber der Araber und ihre Werke» — ٩٦
(Göttingen, 1882)

ياقوت : (+ ٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م) : شهاب الدين أبو عبد الله الحوى الروى

٩٧ - و معجم البلدان ، ١٠ أجزاء (القاهرة ١٣٢٥ هـ = ١٩٠٧ م)

اليقوتى : (+ ٢٨٢ هـ = ٨٩٥ م) : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح

٩٨ - و تاريخ اليقوتى ، جزآن (طبعة M. Th. Houtsma ، ليدن ١٨٨٣)

٩٩ - و كتاب البلدان ، (طبعة دى غوية — ليدن ١٨٩٢)

أبو يوسف : (+ ١٩٢ هـ = ٨٠٧ - ٨٠٨ م) : يعقوب بن إبراهيم

١٠٠ - و كتاب الخراج ، (بولاق ١٣٠٢ هـ) و (المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٦ هـ) .

فهارس الكتاب

١ - الأعلام

إبراهيم بن عزيمة الكندي - أحد رجال الدولة في عهد السفاح : ٢٤
 إبراهيم بن المهدي - يبيع بالخلافة أيام المأمون : ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ١٣٤ ، ١٥٣ ، ١٥٧ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٩٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢
 إبراهيم الموصلي - مغي الرشيد : ٥٦ ، ٢٩٤ - ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩
 ٣٠٠
 إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك : ١٧ ، ٨٧
 أبقراط الطيب : ٢٥٧ ، ٢٦٣
 الأبقلي - أحد المتشيعين الراوندية : ٩٤
 أبي بن كعب - أحد القراء المعترف بهم : ٢٤٢
 ابن أبي ليلى - القاضي : ١٤٦ ، ٢٢٢
 الأخفش - أحد أئمة النحو - ١٤٦
 أحمد بن أبي خالد - أحد رجال الدولة في عهد المأمون : ٦٤ ، ٦٧ ، ٢٠٠ ، ٢٨٦
 أحمد بن إسرائيل - أحد رجال الدولة في عهد الواثق : ٧٦
 أحمد بن حنبل - الإمام : ٦٣ ، ٧٠ ، ١٤٤
 ٢٤٧ ، ٢٤٦ ، ١٤٥
 أحمد بن الحبيب - أحد رجال الدولة في عهد الواثق : ٧٦
 أحمد بن شاعر - المنجم : ٢٥٧
 أحمد بن طولون - مؤسس الدولة الطولونية في مصر ، ١٧٢ ، ٢٨٠
 أحمد بن المدير : ٢٠١

(١) أسماء الرجال :

(١)

أبان بن عبد الحميد اللاحق الشاعر : ١٥٨
 أبان بن عثمان - أحد أصحاب القراءة : ٢٤٢
 إبراهيم بن الأغلب - مؤسس دولة الأغالبة بشمال إفريقية : ٤٧ ، ١٢٨ ، ١٧٦
 ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ٢٠٤
 إبراهيم الإمام - أنظر إبراهيم بن محمد بن علي العباسي
 إبراهيم بن الحبيب - أحد رجال الدولة في عهد الواثق : ٧٦
 إبراهيم بن دكران الحراني - وزير الهادي : ١٩٨
 إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم : ١٢٠
 إبراهيم بن شكله : أنظر إبراهيم بن المهدي
 إبراهيم بن عبد الله بن الحسن العلوي : ٧٧ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٨٥ ، ٢٩٠
 إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام : ٦٣ ، ١١١
 إبراهيم بن محمد بن علي العباسي : ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٥ ، ٩١ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٤٨

أشيدرباي أو أشيدرا — أحد أعقاب
زرادشت: ٩٣

الإصمبذ — لقب يطلق على والى طبرستان:
١٠٠، ٣٨

الأصمعي الشاعر: ١٠٧، ١٠٤، ١٥٠،
٢٢٤، ٢٥١

الأغلب بن سالم القيني -- والى إفريقية من
قبل المنصور: ١٧٧

أفريدون: ٣١٧
الأفندي القائد التركي: ٦٦، ٧١، ٧٣، ٩٧،

٩٨، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣،
١٠٤، ١٠٩، ١٧٣، ١٧٤، ١٩١، ٢٩١

أقليدس: ٢٥٧
أركوركيس — ملك الفرس: ١٩٤

أمرى القيس الشاعر: ٢٥٢
الأمين: ٥١، ٥٤، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠،

٦١، ٦٢، ٦٥، ١٥٢، ١٥٧، ١٥٨،
١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣،

١٦٤، ١٧١، ١٨٩، ١٩٥، ٢٠٠،
٢٠٢، ٢٥١، ٢٧٥، ٢٩١، ٣٠١ —

٣٠٢، ٣٠٤، ٣٢١
الأوزاعي — أحد الذين رأوا وجوب طاعة

السلطان فياليس بمعصية: ١٤٦
إيتاخ — أحد قواد الأتراك: ٧٢، ٢٠٢

أبو أيوب المورياتي — أحد رجال المنصور:
١١٩، ١٩٦

أيوب النسي: ١٩٣

(ب)

يا بك الحرثي — زعيم الحرثية: ٧٢، ٧٣،
٩٤، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠

١٠١، ١٠٤، ١٨٩، ١٩٠، ٢٩١
أبو جميلة الشاعر: ٢٤

أحمد بن نصر — متوأنه للأمون في مسألة
خلق القرآن: ٧٤، ٧٥، ١٤٤

أحمد بن يحيى بن المرتضى — من أئمة الزيدية
الذين يميلون إلى مذهب المعتزلة: ٢٥٠

أحمد بن يوسف الوزير: ٦٧، ٢٠٠، ٢٠١،
الاحنف الشاعر: ٢٩٤

الاخلط الشاعر: ٢٥٢
إدريس بن عبد الله العلوي — آخر عهد

النفس الزكية: ١٢٣، ١٢٧، ١٢٨،
١٣٠، ١٣٨، ١٧٩، ٢٩٠

إدريس بن إدريس بن عبد الله العلوي —
١٢٨، ١٧٩، ١٨٠

إدريس بن معقل العجلي — اتهامه بالدعوة
للبعاسيين: ١٥، ١٦

أردشير بن بابك — أحد ملوك الفرس:
٢٩٣ — ٢٩٤

أرسطو: ٢٥٨
أسامة بن زيد — قائد الجيش الذي أرسله

النبي قبل وفاته لغزو أطراف الشام: ١٧٥
إسحاق بن إبراهيم بن مصعب — أحد رجال

الدولة في عهد المعتصم: ١٠٢، ١٠٣،
١٠٤، ١٤٣

إسحاق بن إبراهيم الموصلي المفتي: ٥٦، ٥٩،
٢٩٧، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤

٣٠٥
إسحاق بن جعفر الصادق: ١٢٨

الإسكندر الأكبر المقدوني: ٧٧، ٢٥٦
إسماعيل بن جعفر الصادق: ١٢٨، ١٣٩

إسماعيل بن محمد الشاعر — أظفر الحميري
الشاعر العلوي

أشناس التركي: ٧١، ٧٣، ٧٥، ١٣٠،
١٧٣، ١٧٤، ١٩١، ٢٢٩، ٢٨٥

٢٨٦

يبدأ — الفيلسوف : ٢٥٥

(ت)

أبو تراب — أحد السعاة : ٩١
الترمذى — أبو عيسى محمد صاحب الجامع : ٢٤٦
أبو تمام الشاعر : ٧٧، ١٠١، ١٩١، ٢٥٣

٢٥٥

توماس الصقلي الثائر — شجعه المأمون في
ثورته ضد ثيوفيلس امبراطور الروم

بأسيا الصغرى : ١٨٩

ثيوفيلس — امبراطور الروم : ١٨٩، ١٩٠

٢٠٩

(ث)

ثابت بن قرة — المترجم : ٢٥٨

الثعالبي الشاعر : ٢٥٢، ٢٥٣

تامة بن الوليد — قائد جيش الصائفة في عهد

المهدي العباسي : ١٨٥

ابن ثوبان — صاحب النظام : ٣٣

أبو ثور من الفقهاء الذين درسوا على الامام

الشافعي : ١٤٦، ٢٤٧

(ج)

الجاحظ : ١٠٥، ٢٥٠، ٢٥٦

جاليتوس الطبيب : ٢٥٧

جاويدان — أحد رؤساء الحرمة : ٩٧، ٩٩

جديع بن شيب : انظر الكرماني

ابن جرو الاسدي — من مفسري القرآن : ٢٤٤

ابن جريج — من مفسري القرآن : ٢٤٢، ٢٤٣

جيرير بن حازم الأزدي البني أحد رجال

المعتزلة : ١١٠

الجحزي الشاعر : ٢٥٣

الجباري : ٢٤١، ٢٤٥، ٢٤٦

جختنصر : ٢٧٣

جختيشوع الطيب : ١٤٩، ١٥٠، ١٥٤

٣١٠، ٣٦٢

بدر — غلام عبد الرحمن الداخل بن هشام :

١٨١

برضوما الزامر : ٥٦، ٢٩٥

برمك — جد البرامكة : ٤٩، ٥٠

بشار بن برد الشاعر : ١٠٩

ابن البطريق — من رجال المأمون : ٢٥٧

بضا الكبير — أحد قواد الأتراك : ٧٤

١٠٤، ١٣٠، ١٩١

أبو بكر الأصم — من مفسري المعتزلة : ٢٤٤

أبو بكر الرازي — من مفسري القرآن :

٢٤٥

أبو بكر الصديق : ١، ٩، ١١، ١٢، ١٣٢

١٣٦، ١٣٧، ١٤٦، ١٥٩، ١٧٠

١٧٥، ١٩٤

أبو بكر محمد بن زكريا الرازي — الطبيب :

٢٢٩

أبو بكر الهذلي — أحد رجال الدولة في عهد

السفاح : ٢٤

أبو بكرة — أخو زياد بن أبيه : ٣٩

بكير بن ماهان — داعي العباسيين : ١٥

١٦، ٨٥، ١٤٨

البليغي — جعفر بن عمر المتجم : ٢٦٢

بجاول بن عبد الواحد — القيم على بلاد

المغرب من قبل الادارة : ١٨٠

بومادة — أحد قواد الأفشين : ٩٨

البوطي — من الفقهاء الذين درسوا على

الإمام الشافعي : ٢٤٧

بديين — ملك القرنجة : ١٨٢

الحارث — النجم: ٢٦١
الحارث بن عبدالله الجبدي الشاعر الأموي:

١٠

حيث بن الحسن المترجم: ٢٥٨
الحجاج بن أرطاة — عالم الهندسة: ٢٦١،

٢٧٤

الحجاج بن مطر — من رجال المأمون: ٢٥٧
الحجاج بن يوسف التيمي — أحد شعراء

الرشيدي: ١٨٨

الحجاج بن يوسف الثقفي: ٢٠٢، ٢٧٧
حسان بن ثابت الشاعر: ٢٥٩

أبو الحسن الآخر الشاعر: ٥٩

أبو الحسن الأشعري — الذي انتصر على
المتزلة: ١٤٥، ٢٤٨

الحسن بن سهل الوزير: ٦٤، ٦٥، ٦٦،
٦٧، ٦٨، ١٢٩، ١٥٧، ١٦٦، ١٦٩،

١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٤٢، ٢٦١،

٢٦٢، ٣٢١

الحسن بن شاكر — المترجم: ٢٥٧

الحسن بن علي بن أبي طالب: ٧، ٨٤، ١٢٥،

١١١، ١١٩، ١٢١، ١٢٦، ١٢٩،

١٣١، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٢،

الحسن بن محمد النفس الزكية: ١٢٣، ١٢٦،

الحسين بن الضحاك الشاعر: ٦٠، ٢٨٧،

الحسن بن وهب — الكاتب: ٢٠١

الحسين بن علي بن أبي طالب: ٢، ١١،

١٤، ٧٩، ٨٥، ٨٧، ١١١، ١١٢،

١١٩، ١٢١، ١٢٦، ١٣٠، ١٣١،

١٣٩، ١٤٢، ١٦٧،

الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسين

ابن علي بن أبي طالب — قتيب فخر:

١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٣٠، ١٧٩،

٢٩٠

جرير الشاعر: ٢٥٢

جستنيان — امبراطور الروم: ٢٥٦

الجعد بن درهم الزنديق: ١٠٥

جعفر بن حفظة — أحد رجال أبي جعفر

المنصور: ٩١

جعفر الصادق بن محمد الباقر: ٣٥، ٨٥،

١١٢، ١٢٨، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٩،

١٤٨

أبو جعفر عمر بن حفص بن قيس — والي

إفريقية من قبل المنصور: ١٧٧، ١٧٨،

جابر بن حيان — عالم الكيمياء: ٢٦١

ابن جوامع المغني — أسماعيل أبو القاسم:

٢٩٤، ٢٩٥، ٣٠٠

جعفر الكردى — أحد ثوار الأكراد

بالموصل: ٧٢

جعفر بن المنصور: ٥٨

أبو جعفر المنصور — انظر المنصور

جعفر بن الهادي: ٤٣، ٤٤، ١٩٥،

جعفر بن يحيى البرمكي: ٥١، ٥٢، ٥٣،

٥٤، ٨٦، ١٢٧، ١٤٩، ١٥١، ١٥٢،

١٥٣، ١٥٤، ١٥٦، ١٩٦، ١٩٩،

٣٠٠، ٣٠٧، ٣٢٣،

الجلندي — رسول المأمون إلى المدينة لنقل

على الرضا إلى مرو بخراسان: ١٦٥،

ابن جني — الحسن بن صالح أحد الزيدية: ٦

ابن الجنيدي — من الفقهاء الذين درسوا على

الشافعي: ٢٤٧

أبو الجهم — وزير المنصور: ١٩٦

(ح)

أبو حاتم — أحد الثوار بشمال إفريقية:

١٧٧

الحسين بن علي بن عيسى بن مامان القائد :
٥٩

حفص بن سليمان : أنظر أبو سلة الخلال
حماد بن أبي سليمان الأشعري — أستاذ
أبي حنيفة : ٢٤٦

حمزة بن حبيب — أحد مشاهير القراء : ٢٤٢
حمزة — عم النبي : ١٢١

أبو حمزة الخاريجي — زعيم الخوارج في
الحجاز وحضر موت : ٤

أبو حميد المروزي — رسول أبي جعفر
إلى أبي مسلم : ٨٩ ، ٩٠

الحبيري — السيد شاعر علوي من شعراء
المصر العباسي الأول : ١٣١ ، ١٣٢

الإمام أبو حنيفة التبان : ١١٦ ، ١٢٤ ،
١٤٥ ، ١٤٦ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٤٣

٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٧٤
حنين بن اسحق الطيب : ٧٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨

٢٦٢ ، ٢٦٣
حنين بن عبد الله — أحد أتباع عمه النفس

الزكية : ١٢٢

(خ)

خازم بن خزيمة — قائد المهدي : ٣٨
خاش — أخو الأصفين : ١٠٣

خالد بن برمك — الوزير : ٢٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ،
١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٨٠

خالد بن صفوان — أحد رجال السفاح :
٢٦ ، ٢٥

خالد بن يحيى بن معاذ — أحد رجال المأمون :
٦٤

خالد بن يزيد بن مزيد — أحد رجال المأمون
٦٤

خزيمة بن الحسن الشاعر : ٦١

أبو الخطار — والي الأندلس : ١٨٠

خلف بن هشام المقرئ : ٢٤٢ ، ٢٤٤

الخليل — أحد أئمة اللغة : ١٤٦ ، ٢٥١

الخطاط المعتزلي : ١٤٢ ، ٢٥٠

(د)

دين دأب — من خواص الهادي : ٨١

أبو داود السجستاني صاحب السنن : ٢٤٦

داود بن علي العباسي : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٨١

٨٤ ، ٨٣

داود بن ماسعود — أحد قواد المأمون : ٦٥

دعبل الخزاعي الشاعر العلوي : ١٣١ ، ١٣٣

١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٦٦

أبو دلف — أحد الثائرين على المأمون : ٦٨

دوجانس — الحكيم اليوناني : ٧٧

ابن أبي دؤاد — قاضي القضاة : ٧٤ ، ١٠٢

١٠٤ ، ١٤٤ ، ١٩٩ ، ٢٢٢

أبو دلامة الشاعر : ٣٨ ، ٣٢٤

(ر)

رافع بن ليث بن نصر بن سيار — أحد

الخارجيين على الرشيد : ٤٨ ، ٤٩

ابن رباح : إبراهيم : ٧٦

الحسن بن إبراهيم — أحد رجال الدولة في

عهد الواثق : ٧٦

الربيع بن يونس مولى المنصور : ٣٢ ، ٣٣

٣٦ ، ٣٧ ، ١٠٦ ، ١٨٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨

٢٢٨ ، ٢٨٣

رجاء بن أيوب الحضاري — قائد المعتصم :

٧٢ ، ٧٤

ابن الرومي الشاعر : ٢٥٣
رياح بن عثمان المري — والي المدينة في عهد
المنصور : ١١٣ ، ١١٤

(ز)

الزبير بن العوام : ١ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢٨
الزجاج — أحد أصحاب صناعة النحو :
٢٤٠
زرادشت — أحد الأتنياء الجوس : ٩٢ ،

١٠٦ /

زردز — المغني : ٣٠٢ — ٣٠٣
أبو زكار — صفي جعفر البرمكي : ١٥٤
زلول المغني : ٥٦ ، ٢٩٤
زهير بن المسيب — أحد قواد المأمون العباسي :

١٦١ ، ١٦٢

زياد بن أبيه : ٣٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣
زياد بن عبيد الله عامل المنصور على المدينة :
١١٣
زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب :
١٣ ، ٧٩ ، ٨٤ ، ١١٠ ، ١٤٢

(س)

سابق بن هرم — أحد ملوك الفرس : ٢٣
سالم — مولى أبي حذيفة : ٦
ابن سبأ — فاضل مذهب الوصاية القائل بأن
علياً وصي محمد : ١
السدّي — من مفسري القرآن : ٢٤٣
أبو السرايا — أحد الثوار بالكوفة في عهد
المأمون : ٦٦ ، ١٢٩
ابن سرج — الحارث — ثورته على
الأمويين في بلاد ما وراء النهر : ٥ ، ٦ ،
١٤ ، ٢٤٧
السفاح — أبو العباس : ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ،

رزّام — زعيم مذهب الزمائية وكانوا كيسانية
في الأصل : ٩٥

الرسول صلى الله عليه وسلم : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٦ ،
٧ ، ٩ ، ١١ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢٠ ، ٢١ ،
٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٩ ، ٤٠ ، ٦٤ ، ٧٤ ،
٧٨ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٩٠ ، ١١٠ ،
١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،
١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٧ ،
١٣٨ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥١ ،
١٥٩ ، ١٧٥ ، ١٨٠ ، ١٩١ ، ١٩٤ ،
٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩ ،
٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ،
٢٩٠ ، ٣٢٠

الرشيد : ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ،
٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ،
٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ،
٦٧ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ٨٣ ، ٨٦ ، ١٠٧ ،
١٠٩ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ،
١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ،
١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ،
١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ،
١٦٤ ، ١٧٠ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ،
١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ،
١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ،
٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢١١ ،
٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ،
٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ،
٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ،
٢٦٦ ، ٢٧٥ ، ٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٢٩٠ ،
٢٩٤ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٧ ،
٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ،
٣٢٢

الرقاشي الشاعر : ١٥٤

سليمان بن المنصور : ٣٠١
سليمان بن هشام بن عبد الملك الأموي : ٨٠٠
سليمان بن يزيد بن عبد الملك الأموي : ٨٧
سليمان بن يقطان — والي يربلثة من قبل
عبد الرحمن الداخل : ١٨٣

سنياذ — أحد الخارجين على المنصور للطلب
بنار أبي مسلم الخراساني : ٩٢ ، ١٠٤
السندی بن شاهك — من رجال الأيمن :
١٦٣

سهل بن سنياط — الذي قبض على بابك
الحرثي وسله للأفندي : ٩٧ ، ٩٨
أبو سويد — رسول المنصور مع سفيان بن
زيد إلى إبراهيم بن عبد الله العلوي :
١١٦

سيوريه — أحد أئمة النحو : ١٤٦ ، ٢٤٠
٢٥١
ابن سينا الطيب : ٢٥١

(ش)

شارل مارتل — ملك الفرنجة : ١٨٣
الإمام الشافعي : ١٤٦ ، ٢٢١ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧
شبيب — قاتل أبي مسلم الخراساني : ٩١
شرمان : ٤٦ ، ١٨٣ ، ١٨٤
أبو الشغل الشاعر : ٥٥
الشيخ العماني — مولى الهندي : ١٧٩
ابن شهاب الزهري : أحد علماء الحديث
٢٤٧

شهاب بن كثير — عالم الحساب : ٢٦١
الثوري — أحد الذين رأوا تحريم المنعة
ووجوب طاعة السلطان فيا ليس بمصلحة :
١٤٦

أبو الشغب الشاعر : ٥٨

٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٥
٤٩ ، ٥٠ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٦ ، ٨٧
٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٥ ، ١١١
١١٢ ، ١١٤ ، ١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٤٨
١٤٩ ، ١٥٧ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٢٠٤
٢٢٢ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧
٢٩٣

أبو سفيان : ١١

معاوية بن — ٥ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٢ ، ٨١
٨٢ ، ٨٤ ، ١٢١ ، ١٣٨ ، ١٨٢ ، ١٨٤
١٩١ ، ٢٠٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨ ، ٣٢٠

سفيان بن يزيد — أحد أشياع إبراهيم بن
عبد الله العلوي : ١١٦
السفياني : أنظر على بن عبد الله بن خالد
سلم بن عمرو الحامس الشاعر : ١٥٩
سلم بن قتيبة — والي الري في عهد المنصور :
١١٧

سله بن خالد — قائد بني تغلب : ٢٠
أبو سلة الخلال — وزير آل عماد وأحد
مؤسسي الدولة العباسية : ١٦ ، ١٧ ، ٢٣
٢٦ ، ٢٧ ، ٥٠ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ١٢٤
١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٧

سليط بن عبد الله بن العباس — الذي ادعى
أبو مسلم انتسابه إليه : ١٥ ، ٩١
سليمان بن جعفر — من رجال الأيمن : ١٦٣
سليمان بن داود النقي : ٢٧٧ ، ٣١٦ ، ٣١٧
سليمان بن عبد الرحمن الداخل الأموي : ١٨١
سليمان بن عبد الملك الأموي : ١١٠ ، ٨

١٨٤ ، ٨١

سليمان بن علي العباسي : ٨٨
سليمان بن كثير — أحد الدعاة العباسيين ومن
مؤسسي الدولة العباسية : ١٥ ، ١٦ ، ٢٧
٩١ ، ٩٣

(ص)

صالح بن عبد القدوس الزنديقي : ١٠٧ ، ٢٥٠ ، ١٠٩
صالح بن علي العباسي : ١٨ ، ٧٩ ، ١٨٥
صالح بن منصور — كانت له قطعة باسمه
في بغداد : ٢٢٨
الصديقي — انظر أبو بكر الصديقي
صقر قرش — انظر عبد الرحمن الداخل
الأموي
الصميل بن حاتم — الثائر الأندلسي : ١٨٠

(ض)

الضحاك بن قيس — زعيم الخوارج في بلاد
العراق : ٩ ، ٤

(ط)

طارق بن زياد : ١٧٥
أبو طالب : ١٢١
طاهر بن الحسين — قائد المأمون : ٦٥ ،
١٦٦ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤
١٦٦ ، ١٧٤ ، ٢٠٠
طاهر بن المظفر بن طاهر الخازن — الشاعر :
٢٨٥
طبري — محمد بن جرير من مفسري القرآن :
٢٤٣ ، ٢٤٤
طلحة — أحد صحابة الرسول : ١٢٠ ، ١١
طولون — أبو أحمد بن طولون : ١٧٢
أبو الطيب المتنبي : انظر المتنبي

(ع)

عاصم السدراقي الإباضي — أحد زعماء
الإباضية بشمال إفريقيا : ١٧٧

عاصم بن يونس العجلي — اتهامه بالدعوة
للعباسيين : ١٥

عامر بن اسماعيل : قاتل مروان بن محمد :
٧٨ ، ٧٩

ابن عائشة : انظر إبراهيم بن محمد بن
عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام

ابن عباس — أحد علماء القراءات ورواة
الحديث : ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤

العباس — عم النبي : ١ ، ١١ ، ١٣ ، ١٧ ،
٢٠ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ١٢١ ، ١٣٦ ، ١٣٧

١٦٦ ، ٢٩٠

أبو العباس السفاح : انظر السفاح

العباس بن المأمون : ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ١٧٣
العباس بن محمد العباسي : الذي أخذ البيعة
للهدى في مكة وندب الرشيد وعم أبيه :

٣٧ ، ٥٦ ، ١٠٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٢

عباس بن الوليد الشاعر : ٨

أبو عباد بن يحيى — من كبار رجال الدولة
في عهد المأمون : ٦٧

أبو العتاهية الشاعر : ٤١ ، ٥٥ ، ١٨٨ ، ٢٥٣ ،
٢٥٥

عبد الجبار بن زيد بن عبد الملك : ٧٨

عبد الحميد الكاتب : ٢٥٥

عبد السلام بن هشام البشكري — أحد الثوار
في الجزيرة في عهد المهدي : ٤٠

عبد الصمد بن شبيب بن شبة — أخذ رجال
محمد بن سليمان وإلى البصرة : ٢٦٧

عبد الصمد بن علي العباسي — وإلى الحجاز
في عهد السفاح : ٨١

عبد الصمد بن عبد الأعلى — مربي الوليد
ابن يزيد بن عبد الملك : ١٠٥

عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك : ٨ ، ٢٥
عبد العزيز بن مروان : ٨

عبد الله الأنطح بن جعفر الصادق : ١٢٨
عبد الله بن الحسن العلوي — أبو محمد النفس
الزكية وأبراهيم وأدريس ويحيى : ٢٣ ،
١٣٦ ، ١١٤ ، ١١٢ ، ٨٦ ، ٨٥ ، ٨٤ ،
١٩٧ ، ١٩٠ ، ١٤٨
عبد الله بن الحكم — أحد تلاميذ الإمام
مالك : ٢٤٧
عبد الله الحزبي — أحد أشياع المذهب الحزبي
الذي نادى به بابك : ٩٩
عبد الله بن الزبير : ٩٠ ، ٢
عبد الله بن سهل — منجم المأمون : ١٦٨
عبد الله بن سلام — من مفسري القرآن :
٢٤٢
أبو عبد الله الشيعي — الداعي الفاطمي : ٩٣
عبد الله بن صالح العباسي : ٥٩ ، ٧٩
عبد الله بن طاهر بن الحسين :
١٠٤ ، ١٠١ ، ٧٥ ، ٧١ ، ٦٥ ، ٦٢ ،
١٧٤ ، ١٨٤ ، ٢٢٩
عبد الله بن عباس — أنظر ابن عباس
عبد الله أبو العباس المأمون — أنظر المأمون
عبد الله بن علي العباسي : ١٧ ، ٢٧ ، ٣٥ ، ٧٨ ،
٨١ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ،
٩٣ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ٢٢٢
عبد الله المحض بن الحسن العلوي : أنظر
عبد الله بن الحسن العلوي
عبد الله بن محمد النفس الزكية : ١٢٣
عبد الله بن مروان بن محمد : ٤٥
عبد الله بن مسعود — أحد القراء المعترف
٣٣ : ٢٤٢
عبد الله بن الوليد بن المغيرة المخزومي —
زوج أم نضلة قبل السفاح : ٢٤
عبد الله بن وهب — من تلاميذ الإمام مالك :
٢٤٧

عبد الله بن يحيى الخارجي — الثاقب بلادي
في العصر الأموي ولقب بطالب الحق : ٣
أبو عبيد — أحد أئمة اللغة : ١٤٦
عبيد الله بن زياد والي العراق : ٤٠٢ ، ٧٩
أبو عبيد معاوية بن يسار — وزير المهدي :
١٤٨ ، ١٩٧
عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن
عمر بن علي بن أبي طالب — خرج بالعين
في عهد المأمون : ١٧١
عبد الرحمن بن إسحاق القاضي في عهد الواثق :
٧٤ ، ١٤٤
عبد الرحمن بن حبيب الفهري — والي إفريقية :
١٨١ ، ١٨٣
عبد الرحمن الداخل : ٢٣ ، ١٣٨ ، ١٨١ ،
١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٥
عبد الرحمن بن رستم — أحد الثوار بشمال
إفريقية : ١٧٧ ، ١٧٨
عبد الرحمن بن عبد الجبار الأزدي — والي
خراسان الذي ثار في عهد المهدي العباسي :
٣٨
عبد الرحمن بن عبد الله العلوي — داعية العلويين
في العين : ٦٣
أبو عبد الرحمن العلوي الشاعر : ١٥٤
عبد الرحمن بن القاسم — أحد تلاميذ الإمام
مالك : ٢٤٧
عبد الرحمن — أحد صحابة الرسول : ١٢٠
عبد الرحمن بن مسلم — أنظر أبو مسلم الخراساني
أبو عبد الرحمن المقرئ : ٢٤٢
عبد المطلب : ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١
عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن
العباس : ٥٣ ، ١٥٢ ، ١٨٦ ، ٢٢٨
عبد الملك بن مروان : ٣ ، ٨ ، ٣٠ ، ٨١ ،
١٨٢ ، ٢١١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٧

عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك —
 انظر عبد الرحمن الداخل
 عثمان — صاحب القراة : ٢٤٢
 عثمان بن عفان : ١٢٠ ، ١٢٠ ، ٧٠ ، ٥٠ ، ٢٠ ، ١٠
 عثمان بن نبيك — رئيس الحرس في عهد
 المنصور : ٩١ ، ٩٠
 عفيف بن عنبسة — أحد القواد العرب في عهد
 المعتصم : ١٩١ ، ١٧٣ ، ١٠٣ ، ٧١
 عطاف بن أبي رباح — معلم أبي حنيفة : ٢٤٦
 عقبة بن نافع النهري — فاتح إفريقية : ١٧٥
 عقيل : ١٢١
 أبو عكرمة السراج الداعي العباسي : ١٣
 علي بن الجهم الشاعر : ٧٧
 علي الرضا العلوي : ٨٦ ، ٦٧ ، ٦٦ ، ٦٣
 علي بن سليمان — ابن عم المهدي العباسي : ٣٢٤
 علي بن أبي طالب : ١١٠ ، ٨٠ ، ٧٠ ، ٥٠ ، ٢٠ ، ١٠
 علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية : ٥٩
 علي بن عيسى بن ماهان — والي خراسان في
 عهد الرشيد وقائد الأمين في حربه ضد
 المأمون : ١٦١ ، ٦٨ ، ٥٤ ، ٤٩ ، ٤٨
 علي بن محمد النفس الزكية : ١٢٣
 علي بن معاذ الشاعر : ١٥٥

علي الهادي — الامام العاشر : ٢٨٨
 علي بن يقطين الزنديق : ١٠٧
 عمر بن بكر — من علماء التفسير : ٢٤٢
 عمر الأشرف بن علي زين العابدين : ٨٥ ،
 ١٤٨ ، ٨٦
 عمر بن الخطاب : ٦٠ ، ١٢٠ ، ٧٠ ، ١٤
 عمر بن الخطاب : ١١٧ ، ١٢١ ، ١٣٧ ، ١٤٦ ، ١٥٩
 عمر بن الخطاب : ١٧١ ، ١٨٢ ، ١٩٦ ، ٢١٢ ، ٢٣٣
 عمر بن سعد — قاتل الحسين بن علي : ٧٩
 عمر بن عبد العزيز الأموي : ٩٠ ، ١٣٠ ، ١٩٤ ، ٢٦
 عمر بن الفرخان — المترجم : ٢٥٨
 عمران بن الزواح — من علماء الهندسة :
 ٢٧٤
 عمرو بن عبيد — أحد رجال المنصور :
 ١١٠ ، ٢٩
 عمرو بن العاص : ٢٠٢ ، ٦٦
 أبو عمرو بن العلاء — أحد أئمة اللغة : ١٤٦
 ٢٥١
 عمرو بن فرج — أحد رجال الدولة في عهد
 الواثق : ٧٥
 عمرو بن معد يكرب بن الحمصامة العربي :
 ٧٤ ، ٤٥
 العمري القاضي : ٢٢٣
 أبو العلاء بن الجداد الشاعر : ١٠٧
 أبو العلاء المعري الشاعر : ٧٧ ، ٩٥
 العلاء بن مغيث الجعفي — أحد الدعاة
 العباسيين بالاندلس : ١٨٢
 عيسى بن دأب : انظر ابن دأب
 عيسى بن زيد بن علي — زعيم الزيدية : ١٤٢
 عيسى بن علي بن عيسى — أحد قواد الرشيد
 والأمين : ١٦٤ ، ٤٩

أبو الفضل عمرو بن مسعدة — من خواص
جعفر البرمكي: ٣٠٧
الفضل بن مروان — أحد رجال الدولة في
عصر الواثق: ٧٦
الفضل بن يحيى البرمكي: ٤٦، ٥١، ٥٢،
١٢٢٢، ١٥٨، ١٥٠، ١٢٧، ٥٥، ٥٤
٣٠٧
فيثاغورس — معلم العرب في الرياضيات:
٢٦١
فيروز — حفيد أبي مسلم الخراساني: ٩٢
الفيض بن صالح — وزير المهدي: ١٩٨

(ق)

القاسم بن إبراهيم بن اسماعيل — من بيت
الحسن بن علي، خرج في أيام المأمون:
١٣٠، ١٢٩
القاسم بن الرشيد: أنظر المؤمنين
قياذ — أبو كسرى الأول ملك الفرس: ٩٦
قيصة بن أن صفرة — أخو المهلب بن أبي
صفرة: ١٧٧
ابن قتيبة الكاتب: ٢٥٥
قتيبة بن مسلم — فاتح بلاد ما وراء النهر: ٨
قثم — والي البحرين من قبيل علي بن أبي
طالب: ١٧١
قثم بن عباس — من رجال الدولة في عهد
المنصور: ٢٨٩ — ٢٩٠
ابن قحطبة: الحسن — أحد قواد العرب:
١٨٦، ٨٧
حمد — أحد قواد العرب: ٨٧، ٨٨، ١٢٣
محمد — أحد قواد المنصور: ١١٧
عبد الله بن حميد — أحد قواد الأمين:
١٦٢

عيسى بن علي العباسي: ٣٠٧، ٣٠٩، ٣٢٣
عيسى بن مريم: ٢٣، ٩٤
عيسى بن معقل المعلى الداعي العباسي: ١٦، ١٥
عيسى بن المنكدر — القاضي بمصر: ٢٢٣
عيسى بن موسى: ١٧، ٢٧، ٢٨، ٣١، ٣٧
٤٢، ٨٧، ٨٨، ٩١، ١١٧، ١٢٢
١٢٢، ١٢٣، ١٢٥، ١٩٥
عيسى بن يزيد الجلودي — أحد قواد الجيش
في عهد المأمون: ٦٥
أبو عينة المهلب: ٢٩٨

(غ)

الغزالي: ٢٤٨، ٢٤٩
غوث بن سليمان — أحد رجال المنصور:
٢٢٣

(ف)

الفارسي — أحد أصحاب صناعة النحو:
٢٤٠
ابن الفرات — أحد: من أئمة الفقه: ٢٤٧
الفراء — أحد أئمة اللغة: ١٤٦، ٢٤٢، ٢٤٣
٢٤٤، ٢٥١
الفرزدق الشاعر: ٢٥٢
الفضل بن الربيع: ٣٣، ٥٢، ٥٦، ٦٧
٦٨، ١٥٠، ١٥٧، ١٦٠، ١٦١
١٧١، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٣٢٤
الفضل بن سهل: ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٨٦
١٤٧، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٦٠
١٦١، ١٦٦، ١٦٨، ١٦٩، ١٩٩
٢٠٠، ٢٠١، ٢٦١، ٢٦٢
الفضل بن صالح بن علي العباسي: ٢٠، ٧٩

(ل)

ليو الرابع — أمبراطور الروم: ١٧٦

(م)

ابن ماجة — صاحب السنن: ٢٤٦

المازني — أحد أئمة اللغة: ١٤٦

المازيار أحد الثوار في عهد المنصور: ٧٣

١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤

٢٩١

المأمون: ٤٥، ٤٦، ٤٩، ٥٤، ٥٧، ٥٨

٥٩، ٦٠، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦

٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٨٢، ٨٦، ٩٦

٩٧، ٩٨، ١٠٠، ١٠٥، ١٢٨، ١٢٩

١٣٠، ١٣٣، ١٣٤، ١٤٠، ١٤٣

١٤٤، ١٤٥، ١٤٧، ١٥٢، ١٥٥

١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠

١٦١، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦

١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١

١٧٢، ١٧٤، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٣

١٩٥، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢

٢٠٨، ٢١٥، ٢١٨، ٢٢٢، ٢٢٥

٢٢٨، ٢٢٩، ٢٤١، ٢٤٩، ٢٥٠

٢٥١، ٢٥٤، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦١

٢٦٢، ٢٧٥، ٢٩٢، ٣٠٢، ٣٠٣

٣٠٤، ٣١٠، ٣١٣، ٣١٤، ٣٢١

٣٢٢، ٣٢٤

المأمون الأصغر: أنظر الواقع

الإمام مالك — أحد المجتهدين في الدين

الإسلامي: ١١٦، ١٢٤، ١٤٥، ١٤٦

٢٢١، ٢٤٥، ٢٤٧

ماني: ١٠٥

أبو قرة الصغرى — أحد الثوار بشمال إفريقيا:

١٧٧

قريش: ٦، ٧، ٩، ٢٦، ١١٧

القسري: أسد بن عبدالله — والي خراسان:

١٦٠، ٢٤١

خالد بن عبدالله — والي العراق في عهد

فخام بن عبد الملك: ١٠، ١٥، ١٠٥

٢٧٨

يزيد بن خالد — أحد رعاة الجانية: ١٠

محمد بن خالد — والي المدينة في عهد المنصور:

١١٢

ابن قتيبة: ٢٥٢

قسطنطين الرابع — أمبراطور الروم: ١٨٤

١٨٥

قسطنطين السادس: ١٨٦

قسطنطين السابع: ٤٦

قوهيار أخو المازيار: ١٠٣

(ك)

كثير الطيب: ٣٦

كثير عزة الشاعر العلوي: ١٣١

الكرماني — جديع بن شيب — زعيم

الجانية: ١٦

الكسائي — من مفسري القرآن: ٢٤٤

٢٥١

كسرى — ملك الفرس: ١٧٥، ٢٥٦

كتب الأخبار اليهودي — من مفسري القرآن:

٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤

الكبيش — الشاعر العلوي: ١٣١

الكندي — يعقوب بن اسحق من العلماء

في عصر المأمون: ٢٥٨

محمد بن عبد الله بن الحسن العلوي : ٢٧
١١٤٠ ١١٣٠ ١١٢٠ ١١١٠ ٨٨٠ ٨٧
١١٩٠ ١١٨٠ ١١٧٠ ١١٦٠ ١١٥٠
١٢٥٠ ١٢٤٠ ١٢٣٠ ١٢٢٠ ١٢١٠
١٣٨٠ ١٣٧٠ ١٣٦٠ ١٣٣٠ ١٣٠٠
١٤٢٠ ١٤١٠ ١٤٠٠ ١٣٩٠ ١٣٨٠
٢٠٠ ١٨٥٠ ١٤٨٠ ١٤٥٠ ١٤٢٠
٢٩٠ ٢٧٦٠ ٢٧٤٠ ٢٦١٠ ٢٢٢٠

محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان —
أخو عبد الله بن الحسن بن الحسن لأمه
فاطمة بنت الحسين بن علي : ١٢٤
محمد بن عبد الله بن المنصور : أنظر المهدى
محمد بن عبد الملك الزيات الوزير : ٧٣٠ ٧٥٠
٢٦٧٠ ٢٠١٠ ٢٠٠٠ ١٠٣٠ ١٠٢٠
محمد بن علوان المروزي — أحد رجال
المنصور : ٩١
محمد بن عبد الله بن العباس : ١١٠ ١٢٠
١٣٦٠ ٩٥٠ ٨٤٠ ١٩٠ ١٥٠ ١٣٠
محمد بن علي الرضا : ٧١
محمد بن عيسى — صاحب شرطة الأمين :
١٦٣٠ ١٦٢٠

محمد بن القاسم — قاتع السند : ٨٠ ١٩٢٠
محمد بن القاسم العلوي : ٧
محمد بن محمد النفس الزكية : ١٢٣
محمد بن مقاتل المكي — والى إفريقية في عهد
الرشيد : ١٧٨٠ ١٧٩٠
محمد المنتظر : ٢٨٨
محمد المهدي : أنظر المهدى
محمد النفس الزكية — أنظر محمد بن عبد الله
ابن الحسن العلوي
محمد بن الواثق : ١٩٦

محمد بن يحيى البرمكي : ٥١٠ ٥٤٠
المختار بن أبي عبيد الثقفي : ٢
ابن مرجانة — أنظر يزيد بن معاوية

المبارك : أنظر إبراهيم بن المهدي
المبرد — من مفسري القرآن : ٢٤٤٠ ٢٥١٠
المبرقع الثاني : ٧٢
المتني الشاعر : ٧٧
المتوكل العباسي : ١٠٣٠ ١٧٤٠ ٢٧٥٠
٢٨٦٠ ٢٨٨٠ ٣١١٠
المتقي بن حارثة الشيباني — القائد العربي :
٢٧٢

محمد بن إبراهيم — القائد العربي : ١٩١
محمد بن إبراهيم الإمام : ٥١٠ ٥٢٠
محمد بن إبراهيم بن اسماعيل بن إبراهيم بن
الحسن بن الحسن بن علي : ١٢٩
محمد بن إسحق : ٢٤٣

محمد بن اسماعيل البخاري — أنظر البخاري
محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق : ١٣٩
محمد بن الأشعث — والى إفريقية من قبل
المنصور : ١٧٧٠
محمد بن جعفر الصادق — خرج في أيام
المأمون : ١٢٨٠ ١٢٩٠ ١٣٠٠ ١٧٠٠
محمد الجواد : ٧٠

محمد بن حازم الباهلي الشاعر : ٢٢٢٠
محمد بن الحنفية : ٢٠ ٩٥٠ ١١١٠ ١٣١٠
١٤١٠ ١٤٢٠ ٢٥٤٠
محمد بن خالد بن برمك : ١٥٣
محمد الدياج بن جعفر الصادق — أنظر محمد
بن جعفر الصادق
محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم — أنظر
الرسول
محمد الزيادي — والى تهامة : ٦٣
محمد بن سليمان — من رجال المهدي العباسي :
٢٧٠ ٢٧٠
محمد بن سليمان بن كثير : ٩١
محمد بن شاذان المرحوم : ٢٥٧

معاوية الثاني بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان :

١٩٦

أبو معاوية الضرير — أحد العلماء في عصر

الرشد : ٥٥

معيد — والى مكة من قبل علي بن أبي طالب :

١٧١

ابن المعتز الشاعر : ٢٨٧ ، ٢٨٨

المعتصم : ٦٣ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ،

٧٣ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ،

١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٩ ، ١٣٠ ،

١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٤ ، ١٧١ ، ١٧٣ ،

١٧٤ ، ١٨٤ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٣ ،

٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٨ ،

٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٥٠ ،

٢٥٥ ، ٢٦٢ ، ٢٦٧ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠ ،

٢٨٥ — ٢٨٩ ، ٢٩١ — ٣٠٤ ،

٣١٢ ، ٣١٤

المعتضد العباسي — أحد خلفاء العصر الثاني :

٢١١ ، ٢٨٨

أبو معشر الفلكي — انظر البلخي المتجم

المعلم بن أيوب — أحد رجال الوراق : ٧٦

معن بن زائدة الشيباني — عم يزيد بن مزيد

الشيبياني بطل موقعة الرائدة : ٤٧ ، ٩٤

المفضل الضبي — مؤدب المهدي : ٣٨ ، ٢٥١

مفضل بن فضالة القاضي : ٢٢٣

مقاتل بن سليمان — من مفسري القرآن : ٢٤٣

المقتدر العباسي : ٧٨

ابن المقفع : ٢٥٧ ، ٢٥٩

المقتنع الخراساني : ٩٢ ، ٩٥ ، ٩٦

المتنصر — الخليفة العباسي : ١٧٤ ، ٢٧٥ ،

٢٨٨

المنصور : ١٧ ، ١٩٠ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ،

٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ،

المزديان بن تركش — أحد ملوك السعد :

١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤

مروان بن أبي حفصة الشاعر : ٤٦ ، ٥١ ،

٥٦ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٨٦ ، ٢٥٥

مروان بن الحكم : ٨

مروان — خادم الرشيد : ١٥٩

مروان الجهمي — أنظر مروان بن محمد

مروان بن محمد : ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٨٠ ،

٢٢ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨١ ،

١٠٥ ، ١٣٥

مزدك — أحد أنبياء المجوس : ١٠٣ ، ١٠٥

مسرور — خادم الرشيد : ١٥٠ ، ١٥٤

المسعودي الزناتي الأباضي — أحد الثوار

بشمال إفريقيا : ١٧٧

مسعود بن مساور — كانت له مظلة فشكا

للدهدي فأمر برده ماله : ٤١

ابن مسعود — من مفسري القرآن : ٢٤٣

مسكين المدني — المني : ٢٩٥

أبو مسلم الخراساني : ١٣ ، ١٥٠ ، ١٦ ، ١٧ ،

٢٣ ، ٢٦ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ،

٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ،

٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٤ ، ١١٨ ،

١١٩ ، ١٢٤ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٧٧ ، ٢٢٢ ،

مسلم — أحد رواة الحديث : ٢٤١ ، ٢٤٦ ،

أبو مسلم العقيلي — أحد رجال المنصور : ١١٧

مسلة بن عبد الملك بن مروان : ٢٤

مسلة بن عقيل بن أبي طالب : ٧٩

المسيب — أحد رجال المنصور : ٣٣ ، ٣٤

مصعب بن الزبير : ٢

مطهر بن فاطمة بنت أبي مسلم الخراساني :

٩٦ ، ٩٧

مطيع بن إياس الشاعر : ١٠٧

معاذ بن مسلم — أحد قواد المهدي : ٩٦

ابن العباس — قاتل الحسين بن علي المثلث
الحسنات في عهد الهادي : ١٢٧
موسى السكاظم بن جعفر الصادق : ١٢٩، ١٢٨
١٤٠، ١٣٩، ١٣٨
موسى بن المهدي : ٣٧، ٣٢٠
موسى بن الله : ١٣٢
أبو موسى السراج الداعي العباسي : ١٦
موسى الهادي : انظر الهادي
موسى بن يحيى البرمكي : ١٥٢، ٥٤، ٥١، ٤٨
المؤمن بن الرشيد : ٥٧، ١٦٠، ١٦٤، ١٩٥
المؤمل بن أميل — من أصدقاء المهدي قبل
توليته الخلافة : ٣٢
ميخائيل الطيب : ٢٦٢
ميسرة الداعي : ١٣

(ن)

نافع بن أبي نعيم — الذي علم القرآن للامام
مالك : ٢٤٧
نافع مولى عبد الله بن عمر : ٢٤٦، ٢٤٧
نجاح بن سلة — أحد رجال الواقف : ٧٦
النسائي صاحب السنن : ٢٤٦
نصر بن سيار — والي خراسان في أواخر
أيام بني أمية وكان مضرباً : ٥، ١٦
١٤٨، ٣١
نصر بن شيبث — أحد الثوار في عهد
المأمون : ٦٥
النظام — شيخ المعتزلة : ١١٠، ٢٤٨
نقفور — أمير طور الروم : ١٨٧، ١٨٩
الهريري الشاعر : ١٥٨
أبو نواس الشاعر : ١٥٠، ٥٨، ٦٠، ١٠٨
١٦٥، ٢٥٢
ابن نوبخت — أبو سهل المنجم : ٢٦١،
٢٧٥

٣٦، ٣٧، ٣٨، ٤١، ٤٩، ٥٠، ٥٤
٨٣، ٨٤، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠
٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٩، ١٠٧
١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦
١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢١، ١٢٢
١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٣٠، ١٣٧
١٣٨، ١٤٢، ١٤٥، ١٤٨، ١٥٢
١٥٨، ١٦٨، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٢
١٨٣، ١٨٥، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٥
١٩٦، ١٩٧، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٤
٢٠٦، ٢٠٨، ٢١٠، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٦
٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٤٢
٢٥٧، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٦٧
٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٨٥، ٢٨٩
— ٢٩١، ٢٩٤، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨
٣٠٩، ٣١٠، ٣١٢
منصور بن المهدي : ١٦٦
المهدي : ٢٧، ٢٨، ٣١، ٣٢، ٣٦، ٣٧
٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٣، ٤٤، ٤٦
٥٠، ٥١، ٨٣، ٩٥، ٩٦، ١٠٥، ١٠٦
١٠٧، ١٢١، ١٢٢، ١٣٦، ١٤٧
١٤٨، ١٤٩، ١٥٢، ١٥٧، ١٥٨، ١٨٣
١١٥، ١١٦، ١٨٧، ١٩٣، ١٩٥
١٩٧، ١٩٨، ٢٢٨، ٢٤٨، ٢٥١
٢٥٣، ٢٦١، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٧٥
٢٨١، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٤
المهلب بن أبي صفرة — قاتع السند في عهد
معاوية : ١٩١
المويز — من أهالي السند : ١٠٢، ١٠٣
موسى بن الأمين : ٦٢، ١٦٥، ١٦١
موسى بن عبد الله بن الحسن العلوي — أخو
عبد النفس الزكية : ١٢٣
موسى بن عيسى بن محمد بن علي بن عبد الله

عبد الله بن سهل — المنجم: ٢٦٢

(٥)

الحادي: ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٥١، ٦٢، ٧٤، ٨١، ١٠٦، ١٠٧، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٣٦، ١٤٩، ١٥٨، ١٧٩، ١٨٦، ١٩٥، ١٩٧، ١٩٨، ٢٤٨، ٢٧٥، ٢٩٠، ٢٩٤، ٣١٠، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٥

هارون الرشيد — أنظر الرشيد

هارون بن موسى البصري — أول من حاول

تقد علم القراءات: ٢٤٩

هارون — آخر موسى بن الله: ١٣٢

هارون الواثق بالله بن المعتصم — أنظر الواثق

هاشم بن عبد مناف — جد العباسيين: ١١٩

١٢٠، ٢٦٩

أبو هاشم بن محمد بن الحنفية: ١١، ١٢، ٩٥، ١١١، ١٣٦، ١٤١، ١٤٢

أبن هيرة — يزيد بن عمر القائد الأموي:

١٧، ٢٣، ٢٧، ٣٦، ٩٤، ١١٨

١١٩، ٢٢٢

أبو الهذيل الملاف المعتزلي: ١٠٩، ٢٤٨

٢٥٠

هرثمة بن أعين — أحد قواد الرشيد، نولي

امارة شمال إفريقية في عهده: ٤٧، ٤٩

٦٦، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤

١٦٦، ١٧٨، ١٨٠، ٢٠٩

هرقل — أمبراطور الروم: ١٧٥

هشام بن الحكم — أحد معتنقي مذهب الراضية:

١٤٢

هشام بن سالم — أحد معتنقي مذهب الراضية:

١٤٢

هشام بن عبد الملك الأموي: ١٠، ١٦

٧٩، ٨١، ١٠٥، ١١٠، ١٧٦، ٣١٦

٣٢٠

هشام بن عروة — من العلماء الذين تلقى عليهم

أبو حنيفة: ٢٤٦

هشام بن عمرو التغابي — والي السند في عهد

المنصور: ١٩٢

هشام بن محمد الكلبي — أول من كتب من

العرب في التاريخ: ٢٥٩

(٥)

الواثق: ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٩٨، ١٣٥

١٤٤، ١٧٤، ١٩٦، ٢٠١، ٢٠٠

٢٠٢، ٢٢٢، ٢٥٠، ٢٦٢، ٢٦٣

٢٧٥، ٢٨٨، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٧

واصل بن عطاء — زعيم المعتزلة: ١٠٩

١٤١، ١٤٢، ٢٤٨

أبو الوزير عمر بن مطرف — أحد الكتّاب

في عهد الرشيد: ٢١٣

وزير آل محمد — أنظر أبو سلة الخلال

ابن الواضح — عمران عالم الحساب: ٢٦١

الوليد بن طريف — أجدالوار في عهد الرشيد

٤٧

الوليد بن عبد الملك: ٨، ٤٠، ٨١، ٢٥٧

٢٦٥

الوليد الثاني: ٧٠، ٧٩، ١٠٥

الوليد بن معاوية بن عبد الملك: ١٨

الوليد بن يزيد بن عبد الملك: أنظر الوليد

الثاني

وهب بن منبه — من مفسري القرآن:

٢٤٣، ٢٤٤

(ي)

ابن يامين المصري الشاعر: ٤٥

يحيى بن أبي السيمط — رئيس فرقة السمطية
التي تدعو لإمامة جعفر الصادق في عهد

أبيه: ١٢٨

يحيى بن أكرم القاضي: ٦٨، ١٤٣، ٢٢٢، ٢٤٥

يحيى بن الحارث الذماري — من أشهر أصحاب
القراءات في العصر الأول: ٢٤٢

يحيى بن خالد البرمكي: ٤٢، ٤٣، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٤، ٥٧، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٦، ١٥٩، ١٨٦، ١٩٨، ٢٠١، ٢١٣، ٢٥٩، ٢٩٧، ٣٠٧، ٣١٦، ٣٢١

يحيى بن زيد بن علي: ١٣، ٧٩، ١١٠، ١٢١، ١٢٣، ١٨٦، ٥١، ١٢٣، ١٢٧، ١٢٨، ١٣٠، ١٤٩، ١٥١، ١٧٩، ٢٢٢، ٢٩٠

يحيى بن ماسويه الطبيب: ٢٦٢

يحيى بن علي بن ماهان — أحد قواد الإمين: ٢٦٢

يحيى بن معين — أحد أعلام القراءات
والحديث: ٢٤١

يزدان بن باذان الزنديق: ١٠٧، ١١٠

يزدجرد الثالث — آخر ملوك الفرس: ١٤

يزيد الثاني — أنظر يزيد بن الوليد

يزيد بن حاتم — والي إفريقية: ١٧٧

يزيد بن عمر بن هيرة — أنظر ابن هيرة
القائد الأموي

يزيد بن يزيد الشيباني — أخو من بن زائدة:
٤٧

يزيد بن معاوية بن أبي سفيان: ٧، ٨، ٩، ٧٩، ٨١، ١١٣، ١٢١، ٢٥١

يزيد بن معاوية بن عبد الملك بن مروان: ٧٨

يزيد بن المهلب بن أبي صفرة — الرقيم
الثاني: ٩

يزيد الناقص: أنظر يزيد بن الوليد

يزيد بن الوليد: ٧، ٩، ١٧

يعقوب بن دارد أبو عبد الله — وزير المهدي:
١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٧، ١٩٧

يعقوب بن المهدي — أخو إبراهيم بن المهدي:
٣٠٠

يقطين — كان كاتبه يردان بن باذان زنديقا:
١٠٧

أبو يوسف بن إبراهيم — صاحب الإمام
أبي حنيفة النعمان: ٢١١

يوسف بن عبد الرحمن الفهري — والي
الاندلس: ١٨٠، ١٨١

أبو يوسف القاضي — صاحب كتاب الخراج:
٥٦، ٢١٢، ٢٢٢، ٢٤٨

يوسف بن عمر الثقفي — والي العراق في عهد
الأمويين: ١٥

٣١٤، ٣١٣، ٣١٢، ٣٠٩، ١٥٨
٣٢١

(س)

أم سلة - زوجة السفاح : ٢٤، ٢٥، ٢٦
سلامة البربرية - أم المنصور : ٢٦
سلامة بنت بشر - من مولات البصرة
وقيل إنها أم السفاح : ٢٦
السيدة - أم المقدت : ٣١٤

(ش)

شجاع - أم المتوكل : ٣١٤
شكلة - أم إبراهيم بن المهدي : ١٣٤
شهربانوه - لينة يزدجرد الثالث آخر ملوك
الفرس وزوجة الحسين بن علي : ١٤
١٦٧، ٨٥

(ع)

عائشة أم المؤمنين : ٢٤١
العباسة : أخت الرشيد : ١٤٩، ١٥٢
علية - بنت المهدي : ٣١٢
أم عيسى - أخت صالح بن علي العباسي :
١٨٥، ٣١٣

(ف)

الفارعة - أخت الوليد بن طريف الشيباني :
٤٧
فاطمة بنت أبي مسلم الخراساني : ٩٢
فاطمة بنت الرسول عليه السلام : ١٢، ١٤
١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٣٧

(ب) أسماء النساء :

(١)

أمان - بجارية : ٢٩٨
أمينة بنت علي : ٩١
أروى بنت منصور بن عبيدة - أم المهدي : ٣٨
أيريني - أميرة الروم : ٤٦، ١٨٦
١٨٧

(ب)

بوران - بنت الحسن بن سهل وزوجة
المأمون : ٦٧، ٦٨، ١٩٩، ٣٢١

(ح)

أم حبيب - بنت المأمون وزوجة علي الرضا
العلوي : ١٦٥
حميدة - أم موسى الكاظم بن جعفر الصادق :
١٢٨

(خ)

الخزوان - أم الهادي والرشيد : ٤١، ٤٣
٤٤، ٤٦، ١٥١، ٣١٢

(ر)

ريلة الحارثية - يقال إنها أم السفاح : ٢٦
ريلة - بنت السفاح : ٥٠

(ز)

زبيدة - زوجة الرشيد : ٥٨، ٦١، ١٥١

(م)

ماردة — أم المعتصم : ٦٩
مراجل — أم المأمون : ٦٢
مرجانة — أم يزيد بن معاوية : ١٢١

(هـ)

هند — أم محمد النفس الزكية : ١١٤
هيلانة — جارية الرشيد : ٥٧

فاطمة بنت عمرو — أم أبي طالب : ١١٩
١٢٠
أم الفضل — بنت المأمون وزوجة محمد الجواد
ابن علي الرضا : ٧٠

(ق)

قراطيس — أم الوائلي : ٧٣

(ل)

لقابه — أخت صالح بن علي العباسي : ١٨٥
٣١٣

٢ — الأماكن

(١)

الأبله — مدينة عند مصب نهر دجلة : ٢٦١
أنيتا — عاصمة اليونان : ٢٥٦
أذربيجان : ٢٧، ٤٧، ٥٠، ٩٧، ٢٠٤
٢١٤، ٢١٦، ٢٣٢، ٢٧٠

أرمينية : ٢٧، ٤٦، ٤٧، ٩٧، ٢٠٤، ٢١٥
٢١٧، ٢٣٢، ٢٧٠

الإسكندرية : ١٨٤، ٢٢١، ٢٣١، ٢٣٦
آسيا الصغرى : ٧١، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩
١٩١، ٢٣٢

إشيلية — مدينة بالأندلس : ١٨٢
بلاد أندروسة — أحد أجزاء بلاد ما وراء
النهرين فرغانة شرقا وسمرقند غربا :
١٠١، ١٠٢، ١٨٧

أصهان — محل ميلاد أبي مسلم الخراساني ومن
البلاد الفارسية : ١٥، ٩١، ١٠١، ٢٢

إفريقية — يطلق عامة على شمال إفريقيا وهي
تونس الحالية : ٣، ٧، ٤٦، ٤٧، ١٧٥
١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٠، ١٨١،
١٨٢، ١٨٣، ٢٠٤، ٢١٥، ٢١٧،
٢١٨، ٢٣٣، ٢٣٦، ٢٦٠، ٢٣٧
أفغانستان : ٢٣٦

إفريطش — جزيرة في البحر الأبيض المتوسط
وهي كريت الحالية : ١٨٤

إكس لاشايل — عاصمة شلمان : ١٨٤
الأنبار — عاصمة الدولة العباسية في عهد
السفاح : ٢٣، ٢٦، ١٥٤، ٢١٨، ٢٦٩
٢٨٧

الأندلس : ٢٣، ١٣٨، ١٧٥، ١٨٠، ١٨١
١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ٢٣٣، ٢٤٧
أنطاكية — ٢٣٣، ٢٣٤
أنقرة — من بلاد آسيا الصغرى : ١٨٥، ١٩٠

٢١٦، ٢١٤، ٢٠٤، ١٧١، ١٢٩، ١٢٥

٢٣٢، ٢٣٠، ٢٢٩، ٢٢٧، ٢٢٠

٢٦٧، ٢٥١، ٢٥٠، ٢٣٤، ٢٣٣

٢٧٨، ٢٧٤، ٢٧١، ٢٦٩

بغداد — مدينة السلام: ١٩، ٢٣، ٢٣

٤٧، ٤٦، ٤٥، ٤٠، ٣٧، ٣٥، ٣٤

٦٣، ٦٢، ٥٩، ٥٨، ٥٧، ٥١، ٥٠

٧٤، ٧٣، ٧١، ٧٠، ٦٧، ٦٦، ٦٥

١٢٥، ١١٦، ٩٩، ٩٧، ٩٤، ٧٥

١٤٤، ١٤٣، ١٤٠، ١٣٨، ١٢٩

١٦٣، ١٦٢، ١٦١، ١٦٠، ١٥٧، ١٤٥

١٧٣، ١٧٠، ١٦٩، ١٦٧، ١٦٦

٢١٦، ٢٠٩، ٢٠٨، ١٨٦، ١٧٦

٢٣٤، ٢٣٣، ٢٣٢، ٢٣١، ٢٣٠

٢٦٠، ٢٥٩، ٢٥٥، ٢٤٧، ٢٣٦

٢٦٨، ٢٦٧، ٢٦٦، ٢٦٥، ٢٦١

٢٠٩، ٢٠٥، ٢٩٤، ٢٩٢، ٢٨٩

٢٢٢، ٢١٩، ٢١٥، ٢١٠

تأسيس بغداد: ٢٧٠، ٢٨٦

ما قبل في وصف بغداد: ٢٨٥، ٢٨٤

بلغ — مدينة نجران: ١٧، ٤٩، ١٢٩

بارم — مدينة بصلية: ٢٣٣

البلقاء — المكان الذي قتل فيه سليمان بن يزيد
ابن عبد الملك في بدء الدولة العباسية:

٧٨

بلنسية — مدينة بالاندلس: ١٨٣

البنجاب — من ولايات الهند: ١٩٣، ٢٣٦،
البنديقية: ٢٢٩

بوصير — قرية بالقيوم قتل فيها مروان بن
محمد آخر خلفاء بني أمية: ١٨

البوقان: بالهند: ١٩٢

بيت المقدس: ٢٣٣، ٣١٥

بيروت: ٢٣٠، ٢٣٣

الأهواز: ٦٨، ١١٦، ١٢٣، ١٢٩، ٢٠٤

٢١٣، ٢٢٠، ٣٠٨

أوربا: ٢٦٠

إيران: ٢٦٧، ٩٧

(ب)

باب البصرة: من أبواب بغداد ويقع في الجنوب

الشرق: ٢٧٧

باب الأنبار — من أبواب بغداد ومن أماكن
لحو الأمن: ٦٠، ١٦٢

باب نجران — أحد أبواب بغداد: ٢٦٦،
٢٧٧، ٢٧٨، ٣٠٦

باب الشام — من أبواب بغداد: ١٦٣،
٢٧٧

باب الكوفة — من أبواب بغداد بالجنوب
الغربي: ١٦٣، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨

بانهرى — بين الكوفة وواسط، قتل فيه
أبراهيم العلوي: ١١٢، ١٢٣

بارما — جنوبي الموصل: ٢٧٠

البحر الميت — بفلسطين: ٢٢٩، ٢٦٥

البحرين — بالقرب من الخليج الفارسي:
١٧١، ٢٠٤، ٢٤٧

بخارى — بأواسط آسيا: ٩٦، ٢٣٢، ٢٣٧

البيزنطون — المكان الذي مات فيه المأمون
وهو بالشام: ٢٧٥

البردان — بلد بأراضي الروم: ١٨٥

برشلونة — مدينة بالاندلس: ١٨٣

برقة — ٢١٥، ٢١٧، ٢١٨

البرازين — نهر بالعراق: ٢٢٧

بستان موسى — من أماكن حو الأمن: ٦٠

البيسفوز: ١٨٦

البصرة: ١٢، ٧١، ٦٥، ٨١، ٨٧، ١٠٦،
١١٠، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١٢٣

(ح)

الحبيشة: ١٧٥، ٢٣٦
الحجاز: ٤٠٢، ٢٧، ٥٧، ٦٦، ٧٤، ٨١
٨٧، ١١٠، ١١٢، ١٢١، ١٢٣، ١٢٤
١٢٥، ١٢٩، ١٤٨، ١٦١، ٢٠٤
٢١٧، ٢٣٦، ٢٦٥، ٢٦٨، ٢٩٢
الحديث — آسيا الصغرى: ١٨٦
الحديثة — ٤٥
حديث الجرش: ٤٥
حديث الموصل: ٤٥
حران — المكان الذي قتل فيه ابراهيم الإمام
العباسي: ١٧، ١٨، ١٩، ٧٨، ٧٩
٨٧، ١٨٩، ٢٥٦

الحرة: ٨، ١١٣

حضرموت: ٤، ١٦، ٢٥
حلب: ٨٧، ١٠٦، ١٨٦
حلاوان — مقاطعة ييلاد القوس: ٤٧، ١٦٢
٢١٣، ٢١٦، ٢٢٠، ٢٢٦
حصص — مدينة بالشام: ٢١٥، ٢٢١
الحبيشة: ١١، ١٣، ١٧، ٢٦، ٣٨، ١٤٨
الحوف — على مقربة من بليس بمصر: ٤٠
الحيرة: ٧٩، ١٥٤، ٢٦٩

(خ)

خانقو — ميناء بالصين جنوب شغاي الحالية:
٢٣٤، ٢٣٥
خييص — بلدة بكرمان: ٢١٣
ختلان — إحدى البلاد التي دخلت في طاعة
أبي مسلم الخراساني في بدء دعوته: ١٧
خراسان: ١٥، ١٤، ١٢، ١٠، ٩، ٥
١٦، ٢٠، ٢٢، ٢٦، ٢٧، ٣٧، ٣٨

اليقلان — أحد الأماكن التي انتشرت فيها
تعاليم بابك الخرمي: ٩٧

(ت)

تاهرت — إحدى مدن شمال إفريقيا: ١٧٨
التبت — إحدى حضاب آسيا الوسطى: ١٨٧
٢٣٧
تستر — مدينة مشهورة بصنع الحرير: ٢٣٠
تلسان — مدينة بشمال إفريقيا: ١٧٨
تليس — مدينة بمصر: ٢٣٠، ٢٣١
تهامة — بالحجاز: ٦٣، ١٢٩
تونس: ٤٧، ٤٨، ١٧٦، ١٧٩
تيان شان: — جبال بآسيا الوسطى: ٢٣٧

(ج)

الجالية — إحدى قرى فلسطين: ٧٥
جاسم — قرية من أعمال دمشق: ٧٥
جواره — جزيرة من جزر الشرق الأقصى:
٢٣٥
جدة — ميناء على البحر الأحمر يقبل إليه الحجاج
في موسم الحج: ٢٣٦
جرجان: ٤٢، ١٢٧، ٢١٤، ٢١٦
الجزيرة — ييلاد العراق: ٣، ١٠، ١٢
٢٧، ٤٠، ٤٢، ٤٧، ٧٥، ١٢٣، ١٦٣
١٨٥، ١٩٠، ٢٠٩، ٢١٤، ٢١٧
٢٣٧، ٢٣٢، ٢٧٠
جسر التهرزان: ٣٣
جندبسا بور — من أعمال خوزستان: ٢٥٦
جوشنج — من بلاد فارس: ١٧
جيجان — إحدى المقاطعات على الحدود
البيزنطية العباسية: ١٨٦
جيلان: ٢١٤، ٢١٨

جبل الديلم : ٧١
دينور : ٢٥٥

(ر)

الران — إحدى البلاد التي انضوت تحت لواء
بابك الحربي : ٩٧

راوند : ٩٤

الريذة — إحدى ضواحي المدينة المنورة :
١٦٤

ربض حميد — مكان بالقرب من بغداد :
١٦٣

الرذ — مكان بماسيدان توفي به المهدي :
٢٧٥

الرصافة مدينة في الجهة الشرقية من بغداد
بنامها المنصور : ٣٣ ، ٤٠ ، ٨٧ ، ٢٨١

٢٨٢

الرصافة — قصر على مقربة من بغداد بنام
المهدي : ٢٦٦

رضوى — جبل على مقربة من ثغر يبيع
بالحجاز : ١٣١

الركة : ٣٦ ، ٦٥ ، ١٥٤
ركة كلوازي — أحد أركان هو الأمين :

٦٠ ، ١٦٢ ، ٢٢٢

الروسيا : ٢٣٧

الريان : ٢١٦

الري : ٤٦ ، ٤٨ ، ٦٢ ، ١٢٣ ، ١٢٧ ،
١٢٩ ، ١٦١ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٠٨

(ز)

الزاب — مقاطعة بشمال إفريقيا : ١٧٨ ، ١٧٧
زباله — مدينة بالعراق : ٢٦٧

٤٨ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٩ ، ٦٢ ،

٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧١ ، ٧٥ ، ٧٩ ، ٨٢ ،

٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ،

٩٢ ، ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٢١ ، ١٢٣ ،

١٢٤ ، ١٢٩ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٥٨ ،

١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ،

٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ،

٢٣٧ ، ٢٧٨ ، ٢٢٢

خرم : اسم مدينة ببلاد ميديا ١٠٠

خليج بنغالة : ٢٣٤

الخليج الفارسي : ٦٥ ، ١٩٣ ، ٢٢٦ ، ٢٣٣ ،
٢٣٤

خوارزم : ٩١

خوزستان : ٢٠٤ ، ٢٣٠

الخيزرانية — أحد قصور العباسيين كان يلبس
به الأمين العباسي : ٦٠

(د)

دابق — أرض بالشام بها قبر سليمان بن عبد
الملك : ٨١ ، ١٨٥

دلوك — بنواحي حلب : ٨٧

الدماج — نهر بالعراق : ٢٢٧

دماوند : ٢١٦

دمشق : ١٧ ، ١٨ ، ٤٨ ، ٥٩ ، ٧٩ ، ٢٣٢ ،

٢٣٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٣١٥

دمياط : ٢٣٠ ، ٢٣١

الديبل : ثغر بالهند : ١٩٢ ، ٢٣٥

ديار بكر — بأسيا الصغرى : ٢٣٢

بلاد الديلم : ٥١ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٥١ ،

١٧٩ ، ٢٢٢ ، ٢٧٤

ديردمايس : ٢٩١

دير الروم : ٢٩١

العقبة: ٢٦، ٨٤
شروين — جبال: ١٠٠
شنغاي — ميناء بالصين: ٢٣٥
شهرزور: ٢١٤، ٢١٦

(ص)

الصفايان — إحدى البلاد التي انضوت تحت
لواء العباسيين في بدء دعوة أبي مسلم:

١٧
صفين: ١٤١
صقلية: ٢٠٤، ٢٣٣
صور — ميناء على ساحل البحر الأبيض:
٢٢٩، ٢٣٣، ٢٣٤
الصين: ١٨٧، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٦٠،
٢٦١، ٢٩٢

(ط)

الطالقان — بلدتان بخراسان: ١٧، ١٢٩،
١٣٠

الطائف: ٨٤، ٣١٤
طبرستان: ٣٨، ٤٢، ٧١، ٧٥، ١٠٠،
١٠٢، ١٠٣، ١٢٣، ١٢٨، ١٢٩،
١٧٤، ١٨٧، ٢١٤، ٢١٦
طبئة — بأرض الزاب بأفريقية: ١٧٧
طخارستان: ١٧، ١٢٩، ١٨٧
طرابلس الغرب: ميناء على ساحل البحر
الأبيض المتوسط بالشام: ٢٣٣
طرسوس — مدينة بآسيا الصغرى: ١٨٨،
١٩٠، ٢٦١، ٣١٥

طسوج — نواحي:
طسوج الأنبار: ٢١٨

زبطرة — مدينة بآسيا الصغرى: ١٩٠
زيد — من مدن تهامة بالحجاز: ٦٣
زغر — مدينة على مقربة من البحر الميت
فلسطين: ٢٢٩
زكية — مكان بالحجاز: ٢٧

سامرا: ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٩٨،
٩٩، ١٠١، ١٤٤، ١٩١، ٢٣٠، ٢٦٦،
٢٦٧، ٢٧٥، ٢٨٥، ٢٨٨، ٣٠٧
سجستان: ١٨٧، ٢١٤، ٢١٦، ٢٢٠، ٢٣٦،

٣١٥
سر من رأى — أنظر سامرا
سرغن — إحدى البلاد التي دخلت في طاعة
أبي مسلم في بدء دعوته للعباسيين: ١٧
سستان: ٢٠٤

سمالو — حصن بين نطلي: ١٨٦
سمرقند: ٤٨، ٤٩، ٩٦، ١٠١
سنا باز — من أعمال طوس حيث دفن على
الرضا العلوي: ١٧٠

سورية: ٤٨، ٢٠٤، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٩
سوس — مدينة مشهورة بالحرير: ٢٣٠
السويس: ٢٣٦

سيراف — ميناء بالصين: ٢٣٤
سيلان — جزيرة جنوبي الهند: ١٣٤،
٢٣٧، ٢٦٠

النعام: ٧، ٩، ١٠، ١٢، ٢٠، ٢٢، ٤٠،
٤٨، ٥٢، ٥٤، ٥٩، ٦٦، ٦٩، ٧٢،
٧٥، ٧٩، ٨١، ٨٤، ٨٧، ٨٨، ٨٩،
١١٧، ١١٨، ١٥٨، ١٦٣، ١٦٤،
١٧٥، ١٨٣، ١٨٥، ١٩٠، ٢٠٤،
٢٢١، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤،
٢٣٧، ٢٤٧، ٢٦٤، ٢٦٨، ٢٧٠،
٢٧٤، ٢٧٨، ٢٨٩، ٢٩٢، ٣٠٥
الشرأة — محل ميلاد المنصور على مقربة من

طسوج فيروز سابور: ٢٢٧
 د قطربل: ٢١٨
 د كسكر: ٢٢٣، ٢٢٦، ٢١٩
 د كوي: ٢١٨
 د كوز دجله: ٢١٩
 د النهران الأسفل: ٢١٩
 د الأعلى: ٢١٩
 د الأوسط: ٢١٩
 د هرمز جرد: ٢١٨
 طوانة — مدينة بآسيا الصغرى: ١٨٩
 طوس: ١٧، ٥٧، ٥٨، ٦٧، ٦٩، ٢٧٥

(ع)

عبادان — على الخليج الفارسي: ٢٢٦
 العباسية — مدينة أسما إبراهيم بن الأغلب
 على مقربة من القيروان بشمال إفريقية:
 ١٨٠
 عدن — ميناء على ساحل البحر عند مدخل
 الخليج الفارسي: ٧٤، ١١٣، ٢٣٦
 العذيب — بالقادسية: ٢٢٦
 العراق: ٢، ٤، ٦، ١٠، ١٣، ١٧، ٢٧،
 ٣٦، ٦٥، ٦٦، ٧٠، ٧٢، ٨٤، ٨٧،
 ٩٣، ٩٤، ١١٠، ١١٢، ١١٦، ١٢٣،
 ١٢٤، ١٤٢، ١٤٨، ١٥٨، ١٦٤،
 ١٦٦، ١٧٨، ٢٢١، ٢٢٨، ٢٣٠،
 ٢٣٢، ٢٤٧، ٢٥٦، ٢٦٢، ٢٦٩،
 ٢٧٤، ٢٨٥، ٢٨٩
 العقبة: ٢٦
 عكا: ٢٢٣
 عمان: ٢٠٤، ٢٣٤، ٣٠٨، ٣١٠
 عمورية — مدينة بآسيا الصغرى: ٧١، ٧٢،
 ٧٣، ١٠١، ١٩٠، ١٩١، ٢٥٥، ٢١٣

طسوج إيفار بقطين: ٢١٩
 د بابل وخطرية: ٢١٨، ٢٢٨
 د بادرايا: ٢١٨، ٢٢٧، ٢٣٢
 د باروسما ونهر الملك: ٢١٨
 د براز الروذ: ٢١٩
 د باكسايا: ٢١٩
 د البراس الأعلى والأسفل: ٢١٩
 د بزر جسا بور: ٢١٩
 د البندنجين: ٢١٩
 د نهر بوق: ٢١٩، ٢٢٢
 د تستر: ٢١٩، ٢٣٠
 د جازر والمدينة العتيقة: ٢١٩
 د جوير: ٢١٨
 د الحية والبداءة: ٢١٩
 د درقيط: ٢١٨
 د دستي: ٢١٣، ٢١٤
 د الدسكبره: ٢١٩
 د الديين: ٢١٩
 د الراذين: ٢١٩
 د رودستان: ٢١٩
 د روستباز: ٢١٩
 د الرومقان: ٢١٨
 د الزوان الثلاثة: ٢١٨
 د سلسل ومروذ: ٢١٩
 د سورا وبرسيا: ٢١٩
 د نهر سير: ٢١٩
 د السيلحين: ٢١٩
 د نهر الصلة: ٢١٩
 د عيسى: ٢١٨
 د عين القمر: ٢١٩
 د فرات بادقلى: ٢١٩
 د الفلوجة السفلى: ٢١٨
 د الفلوجة العليا: ٢١٨

قرطب : مدينة شهيرة بالسجاجيد : ٢٣٠
القسطنطينية : ١٧٥ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢٥٧
٢٨٣
قصر عمرة : بيت الصيد شرق البحر الميت
فلسطين : ٢٦٥
القلوم : ٢٣٦
قرمى : مدينة بفارس : ٢١٤ ، ٢١٦
القيروان : ٤٧ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨
١٨٢ ، ٢٣٣ ، ٢٤٧ ، ٢٧١
القيس : مدينة بحصر اشتهرت بالثياب
الصوفية : ٢٣٠
القيقان : ١٩٢

(ك)

كابل — عاصمة أفغانستان : ١٨٧ ، ١٩٢
٢٣٦
كاتون — ميناء بالصين : ٢٣٤
كربلاء : ٢ ، ١١٠ ، ١٢٦
الكرخ — بحى الكاظمية حيث مشهد موسى
الكاظم : ١٤٠ ، ١٦٢ ، ٢٠٨ ، ٢١٤
٢١٨ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٨٢
٢٨٩ ، ٢٨٣
كرمان : ٧٥ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٣٧
٣١٥ ، ٣٠٨
كروماندل : ٢٣٤
كش : إحدى البلاد التي دخلت في طاعة
أبي مسلم في بدء الدعوة العباسية : ٩٦ ، ١٧
كشمير : إحدى مقاطعات الهند : ١٩٢
١٩٣ ، ٢٣٧
كله : مدينة بالهند في منتصف الطريق بين
عمان والصين : ٢٣٥
الكناسة : ٨٤ ، ١٦٣

عذاب : ٢٣٧
عيسباد — المكان الذي توفى به الهادي : ٢٧٥
العيسقان — بلد بين كشمير والمثلان بالهند :
١٩٣

(غ)

غزنة — مدينة بأفغانستان : ٢٣٦
غولة دمشق : ٤٥

(ف)

فارس : ١٤ ، ٦٨ ، ٩٣ ، ١١٦ ، ١٢٣
١٢٤ ، ١٦٤ ، ٢٠٤ ، ٢١٣ ، ٢١٦
٢٢٠ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥
٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٥٦ ، ٢٦٤
٢٦٩ ، ٣٠٨ ، ٣١٠
فخ — وادي في طريق مكة : ١٢٦ ، ١٢٧
١٧٩
فرغانة : ١٠١ ، ١٨٧
الفرما : ٥٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٦
القساط : ١٨ ، ٦٦ ، ٢٦٦
فلسطين : ١٠ ، ١٨ ، ٧٢ ، ٧٨ ، ١٨٤
١٨٤ ، ٢٠٤ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٢١
٢٢٩ ، ٢٣٣
قم الصلح — إقليم على قناة كبيرة تعرف بهذا
الاسم تأخذ من دجلة فوق واسط : ٦٨
فيد — على مقربة من المدينة المنورة : ١٢٢

(ق)

القادسية : ٢٢٦ ، ٢٦٧
القاهرة : ٢٦٦
قرطبة : ١٨١ ، ٢٣٣

مصر: ١٨٠٢، ٤٠، ٥٢، ٥٣، ٦٩، ٧٥،
 ٨٩، ١١٧، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٨،
 ١٢٩، ١٣٤، ١٦٤، ١٧٤، ١٧٥،
 ١٧٩، ١٨٠، ١٨٤، ٢٠٤، ٢١٧،
 ٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣١،
 ٢٣٢، ٢٣٦، ٢٤٧، ٢٥٦، ٢٦٧،
 ٢٧٠، ٢٨٦، ٢٩٢، ٣١٤، ٣١٥،
 المغرب: ٧، ٤٦، ٥٥، ٧٥، ١٢٣،
 ١٢٤، ١٢٨، ١٦٤، ١٧٤، ١٧٥،
 ١٧٦، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١،
 ٢٢١، ٣١٥

مكران: ٢١٣، ٢١٦، ٢٢٠، ٢٢٢، ٣٠٨،
 مكة: ١٢، ١٣، ١٥، ٣٦، ٣٧، ٤٠،
 ١١٥، ١١٦، ١٢٢، ١٢٥، ١٢٦،
 ١٢٩، ١٤٢، ١٤٩، ١٧٠، ١٧١، ١٨٢،
 ٢١٥، ٢٢٣، ٢٣٦، ٢٦٥، ٢٦٧، ٣١٣،
 ملبار: ٢٣٤، ٢٣٥

المثان — مقاطعة بالهند: ١٩٢، ١٩٣، ٢٣٥،
 ملطية — مدينة بآسيا الصغرى: ١٨٥،
 المدينة — بأرض جيحان على الحدود العباسية
 البزنطية: ١٨٦

مهران — نهر: انظر نهر السند
 موريان — قرية من نواحي خوزستان: ١٩٦
 الموصل: ٢٧٠، ٢٧٤
 موتان: ٢١٤
 الملايو: ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٦٠
 ميديا: ١٥٠

(ن)

نابلس: ٢٢٩
 نباري — أحد أماكن لحو الامين: ٦٠
 نجد: ٢٤٧

كوريا: ٢٣٥، ٢٦٠
 الكوفة: ١١، ١٢، ١٥، ١٦، ١٧،
 ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٣١، ٥٤،
 ٦٦، ٧١، ٧٩، ٨١، ٨٢، ٨٤، ٨٥،
 ٨٩، ٩٠، ٩٣، ١٠٥، ١١١، ١١٣،
 ١١٤، ١١٦، ١١٧، ١٢٩، ١٤٥،
 ١٤٨، ١٤٩، ٢٠٤، ٢١٤، ٢١٦، ٢٢٠،
 ٢٢٧، ٢٣٠، ٢٤٦، ٢٥١، ٢٦٨،
 ٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٤، ٢٧٨

(م)

ماسبندان: ٢١٦، ٢٢٠، ٢٧٥
 المباركة — مزرعة كانت في موضع بغداد:
 ٢٧٠
 المحول — إقليم يبعد عن بغداد بفرسخ واحد:
 ٢٢٧

المداين: ٩٠
 المدينة المنورة: ٧، ١٢، ٣٧، ٤٠، ٥٤،
 ٧٤، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧،
 ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٩،
 ١٣٨، ١٤٥، ١٥٠، ٢٣٦، ٢٤٧،
 ٢٦٥، ٢٧٦

مرج راهط — مكان حدثت به موقعة بين
 المصريين والفتن سنة ٥٦٥: ٩، ٧٤،
 مرعش — بآسيا الصغرى: ١٨٥، ١٨٦،
 ١٨٨

مرو — حاضرة خراسان: ٥، ١٦، ٦٣،
 ٦٦، ٩٥، ٩٧، ١٢٩، ١٦٤، ١٦٦،
 ٢٢٧، ٢٥٥

مرو الروذ — إحدى البلاد التي دخلت في
 حوزة أن مسلمي بده دعوته: ١٧، ١٢٩،
 مسكن: ٢١٨

١٨١، ٨٢
نهر القاطول — على خمسة فراسخ من سامرا :
٢٨٦، ٢٨٥، ٩٨
نهر القلائين — نهر بالعراق : ٢٧٧
نهر كرخايا — نهر بالعراق : ١٦٣، ٢٧٦
النهر وان : ١٠٧
يسابور : ٨٨، ٩٢، ١٩٨

(ه)

هراة — أحد الأماكن التي دخلت في طاعة
أبي مسلم في بدء الدعوة العباسية : ١٧
هرقلة — مدينة بآسيا الصغرى : ١٨٧، ١٨٩
٢٥٥
همدان : ٣١، ٦٢، ١٥٨، ٢١٤، ٢٢٠
الهند : ١٧٥، ١٨٧، ١٩١، ١٩٣، ٢٢٩
٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٦٠
٢٦١، ٢٦٢، ٢٧٠، ٢٩٢، ٣١٠
الهند الصينية : ٢٣٥
الحوب — أحد أماكن لحو الأيمن : ٦٠

(و)

واسط : ١٧، ٦٤، ٦٨، ٧١، ٩٤، ١١٦
٢٣٢، ٢٦٢، ٢٧٠، ٢٧٤، ٢٧٧

(ي)

يبرب : ٢٦٨
الجماعة : ٧٥، ٢٠٤، ٣٠٨، ٣١٤
العين : ٢، ٣، ١٦، ٤٠، ٦٣، ٩٤، ١٢٣
١٢٩، ١٧١، ١٧٤، ١٨٠، ٢٠٤
٢١٥، ٢١٧، ٢٢٩، ٢٣٦، ٢٣٧
٢٤٥

نسا — إحدى مقاطعات فارس : ١٧
نسف — إحدى المقاطعات التي دخلت في
حوزة أبي مسلم في بدء دعوته للعباسيين :

١٧

نصيبين : ٤٧

نهر :

نهر الأردن بفلسطين : ١٨، ٧٢، ٧٥

٢١٥، ٢١٧، ٢٢١، ٢٢٣

نهر بين بالعراق : ١٦٢

نهر الدجاج : ٢٩٠

نهر دجلة : ٤٧، ٦٠، ٦٨، ١٤٩، ١٦٣

١٩٠، ٢٠٤، ٢١٣، ٢١٦، ٢٢١

٢٢٦، ٢٢٧، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٦١

٢٦٦، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٢، ٢٧٣

٢٧٤، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٩، ٣٢٤

دجيل — نهر بالعراق : ٢٢٧

رفيل — نهر يأخذ مائه من نهر عيسى :

٢٢٧، ٢٦٦، ٣٠٧

نهر الزاب الأصغر — بالعراق : ١٧

نهر السند — الهند : ٨، ١١٣، ١٢٣

١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ٢٠٤، ٢١٣

٢١٦، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٧٠

نهر سيحون — بآسيا الوسطى : ٥

١٧٣، ٢٣٧

نهر الصراة — يأخذ مائه من نهر عيسى

بالعراق : ٢٢٧، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٧٢

٢٨٣

نهر عيسى : ٢٢٧، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٦٩

٢٨٣

نهر القرات : ١٧، ٢٣، ١٨١، ١٨٦

٢٠٤، ٢١٧، ٢٢١، ٢٢٦، ٢٢٧

٢٣٢، ٢٣٣، ٢٦٩، ٢٧٠

نهر أبي قطرس بفلسطين : ١٨، ٧٨، ٨١

٣ — الكلمات التي تدل على حوادث تاريخية عامة :

١١١ — ١١٢ : ١٧١ ، ١٨١ ، ١٨٣
 ١٨٤ ، ٢١١ ، ٢٢٩ ، ٢٥١ ، ٢٦٥
 ٢٦٨ ، ٢٨٩ ، ٣١٨
 تمثيل العباسيين بالأمويين : ٧٨ : ٨٢
 الأنصار : ٧٠ ، ١
 أهل الذمة — النصارى واليهود : ٢٩٠ ، ٢٩١
 أهل السنة : ١٤٤ — ١٤٧ ، ٢٤٨ — ٢٤٩
 مبادئهم : ١٤٥
 تدخلهم في الأمور السياسية وأثره : ١٤٥
 أبو حنيفة النعمان : ١١٦ ، ١٢٤ ، ٢٤٥ :
 ١٤٦ ، ٢٢٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦
 ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٧٤
 أحمد بن حنبل : ٦٣ ، ٧٠ ، ١٤٤ ، ١٤٥ :
 ٢٤٦ ، ٢٤٧
 الشافعي : ١٤٦ ، ٢٢١ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧
 مالك بن أنس : ١١٦ ، ١٢٤ ، ١٤٥ :
 ١٤٦ ، ٢٢١ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧

(ب)

البرامكة :

نفوذهم : ٤٩ — ٥٤
 نكبة البرامكة وأسبابها : ١٤٩ — ١٥٥
 قصور البرامكة : ٣٠٧ — ٣٠٨
 إتهامهم بالزندقة : ١٠٧ ، ١٥٣
 ما قيل في رثائهم : ١٥٤ — ١٥٥
 برمك : ٤٩ — ٥٠
 جعفر بن يحيى البرمكي : ٥١ — ٥٤ ، ٨٦
 ١٢٧ ، ١٤٩ ، ١٥١ — ١٥٤ ، ١٥٦
 ١٩٦ ، ٣٠٠ ، ٣٠٧
 خالد بن برمك : ٢٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ١٩٦ :
 ١٩٧ ، ١٩٩

(١)

الأتراك : ٧١ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ١٠٤ ، ١٠٩ ،
 ١٧١ — ١٧٤ ، ٢٠٩ ، ٢٢٨ ، ٢٨٥ :
 ٢٨٦ — ٢٨٩ ، ٢٩٠ — ٢٩٢
 المعتصم والأتراك : ١٧١ ، ١٧٢ ، ٢٨٥
 الوراق وزيادة نفوذ الأتراك : ١٧٤
 المتوكل والأتراك : ١٧٤
 استيلاء العرب من الأتراك : ١٧٣ — ١٧٤
 ظهور الحزب التركي : ١٧٤
 الأداسة : ٦٣ ، ١٢٨ ، ١٢٨ ، ١٧٨ ، ١٨٠ :
 ٣١٥ — ٣١٨
 الاحتفال بالمعدين : ٣١٥ — ٣١٦
 الاحتفال بالنوروز والمرجان والرام :
 ٣١٦ — ٣١٨
 الأغالية : ٤٧ ، ٦٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦ — ١٧٧ :
 ١٧٩ — ١٨٠
 الأكراد : ٧٢
 الإمارة : ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤
 أنواعها :
 إمارة الاستكفاء : ٢٠٣
 إمارة الاستيلاء : ٢٠٣
 الإمارة الخاصة : ٢٠٤
 الإمامية :
 الانسا عشرية : ١٤ ، ١٢٩ ، ١٣٩ ،
 ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٦٤ ، ٢٨٨
 الإسماعيلية : ١٤ ، ١٣٩ ، ١٤٠
 الزيدية : ٦ ، ٧ ، ١١٠ ، ١٤٠ ، ١٤٢ :
 ١٤٣ ، ٢٥٠
 الأمويون : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ١١ ، ١٣ ،
 ٢٣ ، ٢٧ ، ٤٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧

(ح)

بنو الحارث : ٨٥
الحجاجة : ١٩٦ ، ٢٠٢
أشهر الحجاب :
الفضل بن الربيع : ٣٣ ، ٥٢ ، ٥٦
٦٧ ، ٦٨ ، ١٥٠ ، ١٥٧ ، ١٦٠
١٦١ ، ١٧١ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢
إتيان : ٧٢ ، ٢٠٢
خفلات الزواج : ٣٢٢ - ٣٢٢

(خ)

الخراج : ٢١١ - ٢١٢
طرق جباية :
الحجاجة : ٢١١
المقاسمة : ٢١١
المقاطعة : ٢١١
الحرمة :
مبادئهم : ٩٩ - ١٠٠
حروبهم : ٩٦
بابك الحرى : ٧٢ - ٧٣ ، ٩٤ ، ٩٦
٩٧ - ٩٧ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠
٢٩١
جاويدان : ٩٧ ، ٩٩
عيد الله الحرى : ٩٩
المعصم والحرمة : ٩٧
القضاء عليهم : ٩٧ - ٩٩
الحوارج : ٢ - ٦٠٤ - ٦٠٨ ، ٢٩٠ ، ٣٠٠
١٤٢ ، ١٤٠ ، ١٧٦
بعض فرقم :
الإباضية : ١٧٨ ، ٦

الفضل بن يحيى البرمكي : ٤٦ ، ٥١ ، ٥٢
١٥٨ ، ١٥٠ ، ١٢٧ ، ٥٥ ، ٥٤
٣٠٧ ، ٢٢٢
محدث بن يحيى البرمكي : ٥٤ ، ٥١
موسى بن يحيى : ٥٤ ، ٥١ ، ٤٨
١٥٢
يحيى بن خالد البرمكي : ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٩ -
٥٢ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ١٤٩ ، ١٥٠
١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٨٦
١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢١٢ ، ٢٥٩ ، ٣٠٧
البربر : ٤٧ ، ١٧٥ - ١٧٩
البيزنطيون - أنظر الروم

(ت)

التحكيم : ٢
أنواع التسليّة : ٣٢٢ - ٣٢٤
التنس : ٣٢٤
لعبة الجريد : ٣٢٣
لعبة الجوكان : ٣٢٣
الزى بالنشاب : ٣٢٣
القطر الخ : ٣٢٣
الصولجان : ٣٢٣
الصيد : ٣٢٣ ، ٣٢٤
لعبة الكريكيت : ٣٢٤
الزرد : ٣٢٣
تغلب : ٢٠
التوايون : ٢

(ث)

الثنوية : ١٠٥ ، ١٠٩

(ج)

الجماعة - الذين رضوا بخلافة أبي بكر وعمر :

المهدي والروم : ١٨٥ - ١٨٧
 الرشيد والروم : ١٨٧ - ١٨٩
 الأمين والروم : ١٨٩
 المأمون والروم : ١٨٩ - ١٩٠
 المعتصم والروم : ١٩٠ - ١٩١

(ز)

الزنادقية : ١٠٦، ٩٤
 الزط :
 ثورتهم على المأمون : ٦٥
 ما قيل فيهم من الشعر : ٦٦
 ثورتهم على المعتصم : ٧١
 القضاء عليهم : ٧١
 الزنادقة :
 مبادئهم : ١٠٥ - ١٠٦
 انتشارها في بيوت الوزراء والشعراء :
 ١٠٦ - ١٠٧
 المهدي والزنادقة : ٣٩ - ٤٠، ١٠٦
 الهادي والزنادقة : ٤٢، ١٠٧
 الرشيد والزنادقة : ١٠٧
 شعراء الزنادقة : ١٠٨ - ١٠٩
 انتشارها في بلاط المعتصم : ١٠٩
 ما قيل فيهم : ١٠٧ - ١٠٩
 أبحاثهم في العلم والأدب والسياسة :
 ١٠٩
 جهاد المعتزلة للزنادقة : ١٠٩ - ١١٠

(س)

سياق الخيل ٣٢٣
 بنو سليم ٧٤

(د)

الدماقين : طبقة ملاك الأراضي من الفرس :
 ١٣
 ديوان : ٢٠٤ - ٢٠٥
 ديوان الأحداث والشرطة : ٢٠٥
 د الأحكام : ٢٠٥
 د الأكرية : ٢٠٥
 د البريد : ٢٠٥
 د الجند : ٢٠٥
 د الحوامج : ٢٠٥
 د الخراج : ٢٠٥
 د الدية : ٢٠٥
 د الرسائل : ٢٠٥
 د الزمام : ٢٠٥
 د العطاء : ٢٠٥، ٢٢٩، ٢٩١
 د الخنق : ٢٠٥
 د الموال : ٢٠٥
 د النظر في المظالم : ٢٠٥

(ر)

الراونديه :
 مبادئهم : ٩٣ - ٩٤
 القضاء عليهم : ٩٤
 ربيعة : ٤٠، ٢٩٠
 الرزمية - كانوا أكيسانية في الأصل :
 مبادئهم : ٩٥
 الرقيق : ٢٩٢
 الروم : ٧١، ٧٣، ١٨٤ - ١٩١، ٢٦٢
 ٢٩٢
 المنصور والروم : ١٨٥

الملويون : ١١، ٧ — ١٤، ٢٧، ٣٢، ٣٧،

٣٩، ٤٢، ٦٣، ٦٦، ٧٠، ٨٢، ٨٤ —

٨٧، ١١٠، ١٤٠، ١٤٣، ١٤٧،

١٥٧، ١٦٥، ١٦٧ — ١٧١، ٢٩١

قضاء المباسين على الملويين :

المتصور ومحمد وإبراهيم أبني عبدا لله

الملوي : ١١٢ — ١٢١

عوامل إخفاق ثورة محمد النفس الزكية :

١٢١ — ١٢٥

الحادي والحسين بن علي المثلث الحسانات :

١٢٥ — ١٢٧

ما قيل في رثاء الحسين : ١٢٦

الرشيد ويحيى وإدريس أبني عبدا لله

الملوي : ١٢٧ — ١٢٨

الرشيد ومومي الكاظم الملوي : ١٣٨

— ١٣٩

المأمون وعلي الرضا الملوي : ١٦٤ —

١٧١

المأمون ومحمد الديباج الملوي : ١٢٩،

١٧٠

المأمون وأبو السرايا الملوي : ١٢٩

المأمون وعبد الرحمن الملوي : ١٧١

المأمون والقاسم بن إبراهيم الملوي :

١٢٩ — ١٣٠

المعتصم والقاسم الملوي : ١٣٠

تشكيل المباسين يوزراتهم الذين مالوا

للملويين :

قتل أبي سلمة الحلال : ١٤٧ — ١٤٨

عزل يعقوب بن داود وزير المهدي :

١٤٨ — ١٤٩

البرامكة والملويون : ١٤٩، ٢٥٢ —

الفضل بن سهل والملويون : ٢٥٥ —

٢٥٧

السمطية — يقولون بإمامة محمد بن جعفر

الصادق : ١٢٨

(ش)

الشيعة : ١ — ٦، ٣ — ٨، ١١، ١٤، ٨٢،

١٤٠، ١٤١، ١٥٤

تأثر الشيعة بال معتزلة : ١٤٠ — ١٤٢

فرق الشيعة :

الغالية ومنهم السبئية : ٢١، ١٤٢

الرافضة : ١٤٢

الزيدية : ٦، ٧، ١١٠، ١٤٠، ١٤٢،

فرق الشيعة وعلاقتها بالمعتزلة : ١٤٢

ميل يعقوب بن داود وزير المهدي للزيدية :

١٤٨

أشهر شعراء الشيعة : ٢٥٤

(ص)

الصائبة : ٩٣

صاحب البريد : ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧،

صاحب الشرطة : ٢٠٦، ٢٠٧

صاحب المظالم : ٢٢٣ — ٢٢٤

الصقالية : ٢٩٢

الصيد : ٣٢٣

(ط)

الطعام : ٣٠٩ — ٣١٠

(ع)

بنو عامر : ٧٥

الملوك — أنظر الموالي :

(ك)

الكتابة: ٢٠١

كاتب الرسائل: ٢٠١

د الخراج: ٢٠١

د الجند: ٢٠١

د الشرطة: ٢٠١

د القاضي: ٢٠١

أشهر كتاب الرسائل:

أحمد بن المدير: ٢٠١

أحمد بن يوسف: ٢٠١، ٢٠٠، ٢٦٧

الحسن بن سهل: ٦٤ — ١٢٩، ٦٨

١٥٧، ١٦٦، ١٦٩، ١٩٩ — ٢٠١

٢٤٢، ٢٦١

الحسن بن وهب: ٢٠١

الفضل بن الربيع: ٣٣، ٥٢، ٥٦

٦٧، ٦٨، ١٥٠، ١٥٧، ١٦٠

١٦١، ١٧١، ٢٠٠، ٢٠١ — ٢٠٢

الفضل بن سهل: ٦٥ — ٨٦، ٦٧

١٤٧، ١٥٥ — ١٦٠، ١٦١

١٦٦، ١٦٨، ١٦٩، ١٩٩، ٢٠٠

٢٠١، ٢٦١، ٢٦٢

محمد بن عبد الملك الزيات: ٧٣، ٧٥

١٠٢، ١٠٣، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٦٧

يحيى بن خالد البرمكي: ٤٢، ٤٣، ٤٩ —

٥٢، ٥٤، ٥٧، ١٤٩ — ١٥٢، ١٥٥

١٥٥، ١٥٦، ١٥٩، ١٨٦، ١٩٨

٢٠١، ٢١٣، ٢٥٩

كلب: ٩

الكيسانية — أتباع محمد بن الحنفية: ١١

١٢ —

أشهر شعرائهم:

السيد الطيرى: ١٣١، ١٣٢، ١٣٣

١٣٥، ٢٥٤

تولية الرشيد أولاده الثلاثة المهد وأثره

في تقوية الحزب العلوى: ١٥٨ —

١٦٠

ميل الفرس للعلويين وأسبابه: ٨٦، ٨٥

الجهاد النظرى بين الحزبين العلوى

والعباسى: ١٣٠ — ١٤٠

(ف)

الفاطميون: ٤٧، ٦٣، ١٧٤، ١٨٠، ٢٦٦

٣٠٧

(ق)

القاضي: ٢٢١ — ٢٢٣

القدرية: أنظر المعتزلة

قصر:

الخلد: ٦٠، ١٤٩، ١٦٢، ٢٦٦

٢٧٨، ٣٠٦

الخرسانية: ٦٠

قصر جعفر البرمكى: ٣٠٧، ٣٠٨

قصر الذهب: ٢٧٨، ٣٠٦

الرصافة: ٢٦٦

رقة كلواذى: ٦٠

عيسى: ٢٢٧، ٢٢٦، ٣٠٧

المحل: ٦٠

قصر محمد بن سليمان بالبصرة: ٢٦٧،

٣٠٨

قصر نبارى: ٦٠

القصر المارونى: ٣٠٧

الهاشمية: ٢٣، ٨٤، ٢٦٩

الغوب: ٦٠

الوضاح: ٢٦٦

قيس: ٩، ٧٣

المعتم والمعتلة: ١٤٤، ٧٠، ٦٩
 الوراق والمعتلة: ١٤٤، ٧٦، ٧٥، ٧٤
 الفرق بين المعتلة وأهل السنة: ١٤٥
 ٢٤٩، ٢٤٨
 المعتلة وتفسير القرآن: ٢٤١ — ٢٤٢
 ٢٤٤
 أشهر أئمة المعتلة:
 الحياض: ٢٥٠، ١٤٢
 النظام: ٢٤٨، ١١٠
 أبو الهذيل الملاط: ١٠٩، ٢٤٨
 ٢٥٠
 وأصل بن عطاء: ١٠٩، ١٤١، ١٤٢
 ٢٤٨
 أثر تعاليم في النهضة الثقافية: ٢٤٩ —
 ٢٥٠
 شعراء المعتلة: ٢٥٤
 المغاربة — أهل حوف مصر: ٢٨٦، ٢٩٠
 ٢٩٢ —
 المقنعية:
 مبادئهم: ٩٥، ٩٢
 ثورتهم على المهدي: ٩٥
 القضاء عليهم: ٩٦
 المواكب: ٣١٨ — ٣٢١
 موكب الجمعة: ٣١٨
 موكب الحج: ٣١٩
 الموال: ٣٠٢، ٦٠٣، ١٣٠، ١٤٠، ٨٤، ١٤٧
 ١٧١، ١٥٧
 الملابس: ٣١٠ — ٣١٢
 ملابس الرجال:
 إزار: ٣١١، ٣١٢
 جرموق: ٣١٢
 حزام: ٣١١، ٣١٢

(م)

المانوية: ٩٣، ٩٤، ١٠٥ — ١٠٦
 مجالس الغناء والطرب:
 مراتب الندماء: ٢٩٢ — ٢٩٤
 مجلس غناء الرشيد: ٢٩٤ — ٣٠٠
 و غناء الأمين: ٣٠١ — ٣٠٢
 و غناء المأمون والمعتم والوراق:
 ٣٠٢ — ٣٠٥
 الحمرة — فرقة من الحرمة أتباع بابك
 الحرى: ١٠٠ — ١٠٤
 مبادئهم: ١٠٠ — ١٠٤
 زعمائهم:
 الأفضين: ١٠٠ — ١٠٤، ٢٩١
 المازيار: ١٠٠ — ١٠٤، ٢٩١
 عاكتهم في عهد المعتم: ١٠٢ —
 ١٠٤
 بنومدراد: ١٧٨
 المرجة: الذين يرجئون الحكم على العصاة:
 ٤٠١ — ١٤٠، ٢٤٨
 بنومرة — مركزهم عند: ٧٤
 بنومروان: ٢١، ٢٢
 المزدكية: ٩٤
 المضربة — عرب الشمال: ٩، ١٦، ٤٠
 ٤٨، ٥٩، ١٨٠ — ١٨١، ٢٠٩، ٢١٠
 ٢٨٩ — ٢٩٠
 المعتلة:
 مبادئهم: ١٤٠
 تأثير الشيعة بالمعتلة: ١٤٠ — ١٤٢
 المعتلة وعلاقتها بفرق الشيعة: ١٤٢
 اشتراك المعتلة في مبايعة محمد النفس
 الزكية: ١٤٢
 نفوذهم في بلاط الخلفاء: ٢٤٩
 المأمون والمعتلة: ١٤٣ — ١٤٤، ٢٤٩

نوعاً الوزارة :
وزارة التفويض : ١٩٩ ، ١٩٨
التفويض : ١٩٩ - ١٩٨
أشهر وزراء التفويض :
أحمد بن أبي دؤاد : ١٠٤ ، ١٠٢ ، ٧٤
١٤٤ ، ١٩٩ ، ٢٢٢
الحسن بن سهل : ٦٤ - ٦٨ ، ١٢٩ ،
١٥٧ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٩٩ - ٢٠١ ،
٢٤٢ ، ٢٦١ ، ٢٦٢
جعفر البرمكي : ٥١ ، ٥٤ ، ٨٦ ، ١٢٧ ،
١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٩٦ ،
١٩٩
خالد البرمكي : ٤٩ ، ٢٨ - ٤٩ ، ٥٠ - ١٩٦ ،
١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٨٠
الفضل بن سهل : ٦٥ - ٦٧ ، ٨٦ ،
١٤٧ ، ١٥٥ - ١٥٧ ، ١٦٠ -
١٦١ ، ١٦٦ ، ١٦٨ - ١٦٩ ، ١٩٩ -
٢٠١ ، ٢٦١ ، ٢٦٢
أشهر وزراء التفويض :
أحمد بن أبي خالد : ٦٤ ، ٦٧ ، ٢٠٠ ،
٢٨٦
أحمد بن يوسف : ٢٠١ ، ٢٠٠ ، ٢٦٧ ،
محمد بن عبد الملك الزيات : ٧٣ ، ٧٥ ،
١٠٢ ، ١٠٣ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٦٧

(٥)

البنية - عرب الجنوب : ٩ ، ٥ - ١٠ ،
١٦ ، ٤٨ ، ٥٩ ، ٧٢ ، ١٨٠ - ١٨١ ،
٢٠٩ - ٢٨٩ ، ٣١٠ - ٢٩٠

دراة : ٣١١ ، ٣١٢
سرة : ٣١١
طليسان : ٣١١
عبادة : ٣١١
عمامة : ٣١١
قباء : ٣١١
قفطان : ٣١١
قيص : ٣١١
كلوة : ٣١١
منطقة : ٣١١
موزاج - جردب : ٣١٢
ملايس النساء :
أساور : ٣١٢
البرنس : ٣١٢
خلى : ٣١٢
الخلاخل : ٣١٢
قيص : ٣١٢
مناطق : ٣١٢
متديل : ٣١٢
ملاية : ٣١٢
نعال : ٣١٢

(٥)

بوشاشم : ١١ ، ١٣ ، ١٧ ، ٣٧ ، ٥٨ ، ٦٤ ،
٦٦ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١٥٩ ،
١٧١

(و)

الوزارة : ١٩٦ - ٢٠١

كتب المؤلف

- ١ - « تاريخ عمرو بن العاص ، الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٢٦) .
- ٢ - « الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص » (المطبعة الأميرية ببولاق ١٩٣٢) . وضعه المؤلف بالانجليزية . The Fatimids in Egypt, considered chiefly in connection with their Politico — Religious Activities. ترجمه إلى العربية .
- ٣ - « تاريخ العصور الوسطى في الشرق والغرب ، للسنة الثانية والثالثة بالاشتراك مع الأستاذ أحمد صادق الطنطاوى المفتش بوزارة المعارف (الطبعة الثانية سنة ١٩٣٣ .
- ٤ - « أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية ، تأليف الدكتور أدولف نجر وهان Adolfe Grohmann : Arabic Papyri in the Egyptian Library. أستاذ الثقافة الإسلامية بجامعة براغ — ترجمه المؤلف إلى العربية (دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٣٤) .
- ٥ - « السيادة العربية والشيعية والإسرائيليات في عهد بنى أمية ، تأليف فان فلوتن Van Vloten : Recherches sur la Domination arabe, le Chi' itisme et les croyances messianiques sous le Chilafat des Omayyades. ترجمه المؤلف عن الفرنسية إلى العربية وعلق عليه ، بالاشتراك مع الأستاذ محمد زكى إبراهيم (القاهرة ١٩٣٤) .
- ٦ - « تاريخ الإسلام السياسى من عهد الأول ، ويبحث في تاريخ العرب قبل الإسلام ، والبعثة النبوية ، والخلفاء الراشدين ، والدولة الأموية ، والحضارة العربية في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين (القاهرة ١٩٣٥) — الطبعة الثانية ستظهر قريباً .
- ٧ - « النظم الإسلامية ، بالاشتراك مع الدكتور على إبراهيم حسن ، مدرس التاريخ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (القاهرة ١٩٣٩) .
- ٨ - « المجلد في التاريخ المصرى ، نشره المؤلف (القاهرة ١٩٤٢) وكتب فيه الباب الذى عنوانه « مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى » ص ١٢٧ — ٢٢٩ .
- ٩ - « النظم الإسلامية للسنة التوجيهية » . قررت وزارة المعارف استعمال هذا الكتاب لطلبة السنة التوجيهية ، الطبعة الثالثة (المطبعة الأميرية ببولاق ١٩٤٥) .
- ١٠ - « تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، الجزء الثانى — العصر العباسى الأول ١٣٢ — ٨٢٣٢ = ٧٥٠ — ٨٤٧ م (القاهرة ١٩٤٥) .

ISTORY OF ISLAM

cal, Religious, Cultural and Social

VOLUME II.

The Early Abbasid Period

132—232 A. H. (750—847 A. D.)

BY

Hassan Ibrahim Hassan

D. Litt. (Cairo), Ph. D., D. Lit. (London),

Dean of the Faculty of Arts,

Prof. of Islamic History, Fouad I. University, Cairo.

Published by : The Renaissance Egyptian Bookshop
9, Adly Pacha Street, Cairo. Tel. 51394.

AL-EETEMAD PRESS, CAIRO.